الفهرس

المقدمة والمدخل

الحقيقة أنَّ الكثـيرين من النـاس مثلهم مثل كل الكائنـات الحية، يمتلكون أدمغةً تملأ جمـاجمهم من الـداخل وهي تسـيِّر مصـــالحهم وأعمـــالهم؛ ولكنَّ القليل منهم من يمتلك نفســاً واعيةً أو عقلاً يدرك به ما حوله.

وفي الواقع فإنَّ الكثيرين من الأشخاص في الحيـاة أيضـاً وضــمن كل مجتمــع، من المحتمل أنهم يعــانون من أوضــاعِ الإعاقة والتخلف الشخصي والاجتماعي، الواضح أحيانـاً، وغـيرَ الواضح في الكثـير من الأحيـان...، حيث يكـبر الجسم ويكتمل النموُّ العضـوي؛ بينما تتخلف النفسُ غـير المرئيّة، وتنكفئ عن التفتح والتواصــــــل، ومن ثمَّ يبقى العقل عنـــــدهم في أدنى مسـتوياته؛ (إنَّ **التعقُّل** هو المـدخل الأساسي والرئيسي إلى **النفس** وهو أحد أهم فعَّالياتها، وســـــنامها الفكر والتفكـــــر) ومنهم من يَبْلُغ من العمر عِتِيّــاً، بينما لم يتجـــاوز في فكـــرهِ المرحلةَ البدائيّة. والبعضُ يـؤتى **الحكمة والنبوَّة والكتـابَ** منذ الصـغر، قـال تعـالى: [illegible] [مريم: 12].

فـإذا كـان (**الجسم**) لـدى الإنسـان ولـدى بـاقي الكائنـات، معلومَ الأبعاد محـدوداً، فـإنَّ (**النفسَ**) وهي (ذات الإنسـان) أو المتخصصةّ بالإنسان، ومنها وبهـا يصـبح الإنسـان كيانـاً مسـتقلاً، وهي دخيلـةٌ طويّـة مطويّةٌ ومطـويٌّ عليهـا؛ وهي وحـدها منـاطُ الانتبـاه والادراك والفهم والتفكُّر والفاعليّـة. وهي العالمـة وهي الشاعرة وهي الحاسّة، وهي الواعيّة، وهي الذكيّـة، وهي وفيهـا وعـاءُ الـذاكرة وفعَّاليَّات التـذكُّر والاسـتدعاء، والحـنين والحبِ والكراهيّـة، لـذلك فـإنَّ من الطـبيعي أن يكـون **للنفس** أبعـاداً وأعماقاً عميقـةً غـير متناهيـة، وأوعيـةً ومجـالات داخليـة بعيـدة الغور، تكمن فيها القوى والروابط والعلاقات العميقة والمعقـدة الصلات مع العوالم البعيدة والمطلقة، وتتركب فيهـا وتنبـع منهـا الأســرار والقــدرات، لــذلك فــإنَّ (النفس الحيّــة) على عكس الميّتـة، فهي أي (النفس الحيّـة) مثـل الـرحم، إنهـا مُعـدَّةٌ على الدوام، لدوام الدفع والاندفاع، وللتفاعل وتوليد الطاقــات، ففي الظاهر أنَّ النفس لـدى الإنسـان تعكس معطيـات الواقـع بكـل أبعاده، ولكنَّها عمليـاً تسـتمد من البـاطن المتصـل بعـالم الغيب اللامحدود الهاماً ووحياً وأفكاراً وطاقةً لا تنضب.

إنَّ منطوق الأحرف الـتي تـتركب منها لفظة (نفس) تُنْبِينا بمكنونهــا؛ حيث حــرف (النـــون) يشــير إلى المعطى الإلهي

الأساسي (الـوحي والالهـام والحكمة والكتـاب) قـال تعـالى: (نـون والقلم وما يسـطرون)، إنها النبع والنهر والنـور والنـار والنبأ والنجـاة، وحـرف (الفـاء) دلالـةٌ على التركـيز التمركز والتجمُّع والتجميع في البوتقة الواحـــــــــدة، ومن ثم التفرُّد والانفراد، حيث البؤرة والهوية؛ واجتماع الشروط والمعطيـات والمعلومـات والفاعلية (تحليل وتـركيب)، وحـرف (السـين) يشـــير على الـــدوام إلى المســـتقيم والمســـاحة الواســـعة والاستمرار، وإلى الدوام والترابط والكليَّة، أو العمق أو الغـور أو النبع اللانهائي، والله تعالى أعلم.

لـــذلك كـــانت (النفس الحيّـــة) وحـــدها مســـتقرَّ العلم المستوحى والمستلهم وموئلهُ، وكانت وحدها مهيأةً لاستقباله واستقراره (وكان الإنسان في هذه الحياة إمّا عالم أو جاهـل) فالعلم في مقابل الجهل؛ بينما المعرفة نسبيّة.

فالنفس بجميع معالمها وأبعادها ومعاييرها وخصائصـها، كيـانٌ مسـتقل لـه أسـاليبه وأدواتـه ومصـادره المسـتقلة والمستوحاة من الاحاسيس والانتبـاه والادراك والـوعي والفهم، إنها كلمة وأثرٌ مستقل وهوية منفردة مخلوقةٌ من اللـه تعـالى، مخلوقٌ مستقل وله كتابٌ مستقل، لها ما لها وعليهـا مـا عليهـا، قال تعالى: [illegible]

[النسـاء: 171] والكلمـة تعـني الجـرح أو الأثـر المنفـرد،[1] فهي (النفس) كائن وكيـان والـذات المسـتقلة بـذاتها، بمصـادرها من الـوحي والالهـام الخـاص بهـا، وكـذلك بمصـيرها (مسـتقرها ومسـتودعها) وسـتكون رهينـةٌ بعملهـا المسـجل بكتابهـا، ولهـا حسابها الخاص، ولا ينوب عنها شفيع، وهي غير قابلـة للتشـظي أو الانشـطار، وإذا انشـطرتْ لأيِّن من الأسـباب وتحت أيِّن من الظـروف، ضـاعت وفُقـدت ولن تعـود، لأنهـا تشـكل (الهويـة) أو (الأنـا) أو (الـذات)[2] أو (الوجـدان) أو (الضـمير)، والأسـاس

---

1 (?) وفي مختار الصحاح: (الكلْمَـاني: المنطيـق، والكَلْمُ :الجراحة والجمع كُلُـوم، و(كلام) من بـاب ضـرب ومنه قـراءةُ من فسّـرَ (دابـةٌ من الأرض تكلمهم ـ الآيـة) أي تجـرحهم وتَسـمُّهم، والتكليم التجـريح، وعيسى عليه السـلام (كلمـة) الله تعـالى، لأنه لَما أُنتفِـعَ به في الـدين كما أُنتفع بكلامه سُمِّيَّ به، وذلك كما يُقال: فلانٌ سيفُ اللهِ وأسدُ الله.

2 (?) قال تعالى: (وحملنـاه على ذاتِ ألـواحٍ ودُسُـر)، و(الـذات) هنا عائـدةٌ على (السفينة) التي صنعها سـيدنا (نـوح) عليه الصـلاة والسـلام، بمشـيئة الله تعالى، وقد سـمّها الله تعـالى (ذات) وهـذا يعـني أنَّها (السـفينة) بحد ذاتها قد أصبحت (شخصـيَّة متفـرِّدة ومنفـردة)؛ أي أنها أصـبحت شخصـيّة قائمة بذاتها، وأنها أصبحت مأمورة من الله سبحانه وتعـالى بـأوامر خاصة تتلقاها مباشرة، وأنَّها بإذنٍ الله تعالى أصبح لها روحاً خاصّة، وبالتالي ذاتـاً

الفطـري والطـبيعي، أن تكـوِّن (النفس) كتلـةً واحــدةً موحَّدة ومنسجمة، بحيث يظهر الانتمـاء الخصـيب، المولَّد بكـل تجلياتـه وأشـكاله واتجاهاتـه وأبعـاده، مزروعـاً وضـارباً بجـذوره عميقـاً عميقـاً، تمامـاً مثـل شـجرة كـبرى متشـعبة الجـذور ضـاربة في التربـة غـير المحـدودة، يمـدُّ الجـزء الظـاهر ويكملـه بـالموارد والنسغ الكامل، ويشكلان معاً كيان متكامل.

لـذلك كـانت البنية والوظيفة والدلالة (عند كل نفس حيَّة) تسـهم اسـهاماً مبشـراً في تكـوين المجـال الحيـوي لكل تلك العمليـات النفسـيّة الفرديّة والعمليـات النفسـيّة الاجتماعيّـة، وكانت الخواص الاجتماعيّة لأي مجتمع غالباً ما تكون مغروسةً في نفســيّة أو شخصــيّة كــلِّ فــرد من أفــراد تلك الجماعة

خاصّة، أي أنها أصبحت (كياناً) قائماً بذاته، له كينونة وماهية، قـال تعـالى: (بسم الله مجرها ومرساها)، وهي (كذات) يجب أن يكـون لها اختصـاص، وأن تكون صاحبة قرار ومسؤولة؛ لأنَّ مـدلول لفظ (الـذات) في اللسـان العـربي المـبين يتضـمن الإشـارة، ولكنه يشـير أيضـاً إلى البعد والتفـرُّد والاستقلالية والخصوصية والتضمُّن العميق والمسؤولية.

و(لوح) – من (لاح) الشيء ولمح أي لمع وبابه قال، ولاح البرق و(ألاح) أو أومض، ولوحته الشمس تلويحاً غيرته وصقعت وجهه، و(اللوح) في لسان العرب كان يعني تحديـداً جلد البقـرة، أو الجمل ــ المـدبوغ ــ تُكتبُ عليه آيات الكتاب المنزّل من السماء أو الشرع أو الدستور، قال تعالى: [illegible] [الأعراف: 150].

وليس هنالك في اللسان العربي المبين ألواح خشب أو حجر أو زجاج أو غيره كما ذهب أليه المفسرون التوراتيون!

ولفظ (الدُسر) جمعٌ ومفردها (دِسار) وهي والله أعلم تعني الغطاء الــذي يخفي أو يغيِّبُ وراءه الأشــياء، أو أنها (الدُســر) وتعــني (المســتودعات المبوبة والمنظمة) أو البوَّابات التي تغَيِّبُ بداخلها الأشياء الهامّة (الأصـول والأمهات) من الحيوانات والنباتات، وذلك بدلالة حرف (الراء الـذي يشـير بطبيعته إلى التكــرار والتماثل والتكـريس)، بالإضـافة إلى الــذين آمنــوا برسالته السماوية وأهله قال تعالى: (ومن كلٍّ زوجين أثــنين)، لأنَّ الإقليم بأكمله كان قد تعرض للغرق التام (الطوفان) ولمدة طويلـة، فكـان لا بـدَّ مسبقاً، من اعداد وتنظيم عملية حفظٍ للأنواع المحلية، الـتي أنتجتها البيئة الخاصــة، وذلك لعــدم تبديــدها وضــياعها، ولم تكن العملية (الطوفــان) اعتباطية كما يتخيلها أصحاب العقول البسيطة.

ولأنَّ القرآن العظيم ذو مقاصد، وهو في كل آية منه هادف وله دلالــة، فلا مبرر لقول المفسرين بـأنَّ السـفينة كـانت مكوَّنة من ألـواح من الخشب والمسامير ... وأنَّ من نافلة القول أن تكون كلُّ سـفينةٍ مكوَّنة من ألـواح ومســامير! وكــان من الأولى لو كــان الأمر كــذلك؛ أن تــذكر الســاريةَ والأشرعة والجسور والطـول والعـرض وغيرها من مكونـات السـفينة، فلا مبرر أن يذكر في القرآن العظيم والكـريم والمحكم مثل هـذا الأمـر، وإلا فــأين الحكمة البالغة أبــداً من ذكر مثل هـذه المعلومة أو التأكيد عليهــا؟

و(دسر) أي: دفع من (الدفع) وبابه نصـر، قـال ابن عبـاس رضي الله عنه في العنبر إنما هو شيءٌ يدثره البحر دثراً أي يدفعــه، ودسس الشــيء أي أخفاه فيه وبابه رد. والله تعالى أعلم.

المســتمرّة والأساسـيّة الـتي يتـألف منها كل مجتمع بشـكلٍ رئيسي.

إنها ملازمة في النشـــأة وفي التكـــوين، والحركة والفعل والقــوة والابــداع، والصــحة والاعتلال، إن كل ذلك ســيكون موجوداً في المضمون والمحتوى، داخلٌ في التركيب الحيــوي لكل نشاط من أنشطة النفس الإنسانية الحيّة.

إنَّ التحــول أو الانتقــال من الإحســاس إلى الانتبــاه إلى الادراك إلى الــوعي ثمَّ إلى الفهم (المعالجة واتخــاذ القــرار وإصــدار الحكم)، أمــرٌ منفعــلٌ وفاعــلٌ داخليٌ كليٌ متــداخل مترابط، إنما هي عمليات وعلائق تلقائية وتجـري في الـداخل متوالية متلاحقــة، أو أنها غــير منفصــلة؛ ويجب أن تكــون في الوضع الطبيعي مباشرةً تلقائيةً متلاحقة متتالية ومتتابعة وغير منفصـــــلة، وذلك بغض النظر عن البطء أو الســــرعة في التعاطي.

لأنها أساسـاً تشـكل آلية لتكـوين الصـورة، وتسـاعد على التنظيم والتنسيق والترتيب والتبويب، والتهيئة للتعقل وصــولاً للتفكر، (من القريب للبعيد) لذلك فهي من الأهمية بمكـان، إذ بهــذه الآلية يصــبح العــالم من حولنا بجميع ابعــاده، منظمــاً ومُدْرَكاً ومستَوْعَباً ومفهوماً وله معنىً.

وهـــذه الآلية إنما تنتسب إلى الـــذات الفاعلـــة، أو إلى الجماعة الحيوية المفعَّلة، أو إلى كليهما معاً، ليتمكنا معاً من الحصــول على المعرفــة، أو اســتطلاع العوامل والمعطيــات وشروط حصول التنبه والوعي، بينما (الوجـدان) أو (الضـمير) يتحقق بهما الفهم ويطلق منهما الحكم ويُتخذ بنـــــاءً عليهما الموقــف، إنَّ إعلان الأفــراد عن آرائهم للجماعة وذلك حيــال الأشـياء والأشـخاص والأحـداث، ومن ثمَّ تفاعل تلك الآراء في الجماعة، الأمر الذي سيؤدي إلى تشـكيل رأي اجتمـاعي أو ما يمكن تسميته (بالفهم الجمْعي)، لتعود هذه الآراء فتغوص في الوعي الباطن والكـامن للأفـراد، ولتَكمُن مِنْ ثمَّ وراءَ الـوعي الظاهر عند جميع الأفراد في الجماعة.

لا شك أنَّ مستوى الوعي البـاطن لـدى الأشـخاص، يكمُنُ فيه موطنُ ابداع المعاني والمفاهيم الجديدة ودلالاتهــا، وتنبثق عنه المعالي من المواقف والنوايا والأمور والهمم والتطلعــات وذلك عند المُبدعين ... أما غـير المبـدعين فـإنهم على الأرجح يبقــون في جميع الحــالات (ضــمن الجماعــة) مجــرد أوعية للتخزين النظـري معنويـاً، والعملي ماديـاً، بحيث أنَّ الـوعي - عند المبدعين -يؤثر تـأثيراً انفجاريّـاً انشـطارياً شـاملاً وواسع

الطيف مبـادراً واسـتباقيّاً، وهو بسـبب خيريَّتِه وإيجابيتِـه، فإنه يفرض نفسه على الجميع، ويشكل حدثاً ومَعْلَماً منتِجاً وبنَّاءً.

إنَّ الفهم الصحيح هو مدار وشرط الاختيـار الحر الـواعي، فـالفهم الإيجـابي فيه يتم التصـور للمعـنى في صـورته الأتم والأعلى، والتطلّع للأرقى والأكمـل، الأمر الـذي سـيؤدي إلى تشكيل الوجدان الصحيح والثقة بالنفس لدى الفرد والجماعة، إن في وضـوح المعـنى وانكشـافه عمـلٌ أساسـيٌ لتشـكيل الوعي.

إن عمليات الوعي الباطن بمجملها قد يكون مسـتقلاً عن المستويين الآخرين، الفردي أو الجمـاعي، ولكن الواعية باقية على صـلةٍ بهـذين المسـتويين، إن الحكم وإعطـاء القيمة من لدن الوعي البـاطن أعمـالٌ تجـري في الخفـاء، والتسـتر وراء الوعي الظاهر، وعلى الأغلب فسـتكون القيمة المُثلى حاملـةٌ لرأي الجماعة وذلك بحسب سلم القيم المحمـول في أعمـاق أفراد الجماعة.

وعلى الدوام فإن أمام الذات نسقٌ أو أنساقٌ من المعاني المتدرجة والتي تحمل قِيَماً لنختار منها ومن بينها، ونـرجئ ما نـرجئ ونـدمج ما نـدمج، ونتجـاوز ما نـراه مناسـباً للحالـة، والقليل القليل من الجماعة عادةً ما يصرون على إتبـاع الحق والانحيـاز إليه لذاتـه، هـؤلاء هم المؤمنـون، إنهم أصـحاب المعـالي، الطليعـة، والمتقـدمون دائمـاً، إنهم قمة الـوعي والانتباه والشعور، إنهم يشكلون الأمثلة التي ستحتذى.

إن القيمة المعطاة من الواعية الباطنة قد يكـون لها قـوة توجيه أكـبر وأخطر من القيمة الـتي يعطيها الـوعي الظـاهر، فتقـييم الواعية الباطنة تقـييمٌ مشـحونٌ بالطاقة التاريخيـة، والخـبرة العلمية الواقعيّة العمليّـة، بما فيها من فـوزٍ وفشـلٍ وتوقـع ونجـاح وإشـباع وحرمـان وتـوترٍ واسـترخاء وغيرها من الحـالات، إن عـالم الخـبرة البـاطن زاخـرٌ بـالقوة مـزدحمٌ بالمعـاني في عمليـات جدلية مستمرة في التفاعل والتوالـد، تتكـرس فيها تجـارب وخـبرات آلاف السـنين، وفي مختلف المواقع والمراحل والعصور، كـلُّ ذلك يـتركز في عملية نقـوم بها لمنح المعنى شحنةً موجبةً ولنشحذه بالقيمة.

هذا هو الوعي البـارق الأكمل الأتم والـراقي، ويتجلى ذلك بالشـكل البـارز لـدى العـالم والمخـترع و(الشـاعر) والأديب والفنـان وصـاحب النـثر، عنـدما يعمل كـلٌ منهم على صب المعـنى وصـياغته في لحظـةٍ شـعورية يتجلى فيها الإلهـام والـوحي وتنصب فيها التجربـة، إنها لحظـةٌ ممـيزة فعلاً، أن يتخلق على يديك معنى إبداعياً جديداً، إن هـذا لا يحصل عـادةً

إلا إذا كانت الذات حرةً ومدركـةً لـدورها مُعْتَـزَّةً بـه، وليسـتْ مكبلةً ولا مقيَّدةً ولا محصورةً ولا مغلولةً ولا معدومةً ذليلةً ولا مُتَهَمَةً ولا مقهورة.

لـذلك قيل إنَّ فاقد الشـيء لا يعطيـه، فمن أجل أن نصل إلى الإبـــداع البنَّاء في جميع المجـــالات الإيجابيـــة، فإنه يجب كسر كل القواعد والقيود الجامدة المجمدة؛ والـتي اسـتمرت مئات السنين تدور وتـدور دون فائـدة أو جـدوى، يجب تجـاوز تلك القيـود الـتي أصـبح من الثـابت أنها سـلبيَّة جامـدة وغـير صحيحة، وأنها ليست من الدين الأساسي العربي المـبين، لأنَّ الدين الصحيح فيه قمَّةُ القِمَم، وبالتـالي قمَّةُ الفهم والحكمـةُ وقمة والآداب والأخلاق، لـذلك لا داعي للخـوف أثنـاء عملية تصحيح وتحطيم الخرافات والأساطير والأوهام.

وطبعـاً فـإنَّ قيامنا بإعطـاء القيمة للأشـياء والأحـداث والأشـخاص من حولنـا، أو تقييمها وفق المعـايير الموضـوعية الحقيقيّة والصـحيحة، أمـرٌ هـامٌ جـداً، لأنه يسـهم بالتـالي في تحديد الحكم واتخـاذ القـرار ورسم الـدور الـذي يمكن أن نمارسه أو الـذي سـنقوم بـه، والحركة الـتي سـنبديها باتجـاه البيئة والمجتمـع، إنَّ التقـييم أو (إعطـاء القيمة) ومسـتوى المعـايير ونوعيتهـا، تعتـبر مقدمـةً لما يمكن أن نقـوم به من سلوكيات وأفعال، وعادةً فنحن سنفهم وننجح في التعامل مع ما نحبـه، بينما ما نجهله ونكرهه فإننا غالبـاً ما سنفشل في التعامل معه، ولن يكون الإنجاز حياله تاماً أو كاملاً.

ومن جهةٍ ثانية فإنَّ كلَّ نشاطٍ في النفس الباحثـة، أو كـلَّ فكرة جديدةً قد تنتج في معامل النفس الباحثـة، سـيتكوَّن لها دوافع جديـدة مُلِحَّة باتجـاه وبانتظـار أن تتحقق علنـاً في الخارج، وبأيِّ شكلٍ من الأشكال، إنها لن تطيق البقاء حبيسـةً في الداخل (في الغرفة المظلمة)، إنها تنـدفع لتتجسد في أي شـيء يمثلها في الخـارج، ولو كـان أنينـاً منفـرداً في وحـدة منعزلة، أو ينطلق اعلاماً مدوياً.

إذاً فالإحساس والإدراك والوعي والانتباه وجميع العمليات والفعَّاليـات النفسـيَّة، بمراحلها ومسـتوياتها المتعـددة، وانفعالاتها وردود أفعالهـا، إنما هي كسـرٌ وخـروجٌ عن حالة الصمت الرهيب، حالة العُجمة، أو الحالة الحيوانيّة.

وذلـك إلى المسـتوى الإنسـاني الرفيـع، المسـتوى الاجتمـاعي وحالـة التفتح والانفتـاح، أو العروبـة بمـا فيهـا من طرق واشكال الاتصال والتواصل مع الآخر، أو الإنفتـاح عليـه، قال تعالى: [illegible]

[illegible] [سبأ:26]، وهذا هو الفرق الأساسي والجوهري بين حياة الحيوان والحياة الإنسانيّة.

إنه الوعي الذي يعود ويدفع إلى الاجتماعي لتنشأ وتتولّد بعد ذلك الأعراف والتقاليد والعادات والقواعد والقوانين التي ستنظم ذلك التفتح والانفتاح (الحتمي) الذي سيعقب العمليات والفعاليات النفسيّة المتولدة والمنشأة والنابعة من الباطن... وتلقائياً ستدفع باتجاه الانفتاح والتفتح على الآخر (الاجتماع)، إنَّ الاجتماع والتواصل المستمر اختصاص انساني أساسه الفعاليات والنشاطات النفسيّة المتولِدة والمتدفّقة من الباطن، باطن الأنفس الحيّة الباحثة والفعّلة، وهي تدفع وتندفع لا محالة باتجاه الخارج وصولاً إلى التفتح والانفتاح.

إنَّ العلاقة حتميّة بين الفعاليات النفسيّة أو النشاط النفسي الداخلي وبين الحياة الإنسانية في الخارج، وهو ما يميز المجتمع الإنساني الكامل العروبة، وذلك عن الحالة العجماء البدائية (إنَّ العُجمة حالة بدائية تفتقد إلى مستوى أو حالة نفسية منفتحة، أو تامة التفتح أو متكاملة).

فالمجال النفسي لدى الإنسان ليس محصوراً ضمن الابعاد المحدودة لجسمه، والعلاقة أو التطابق بين الجسم والنفس لدى الإنسان ربما يكون فيها الكثير من الوهم أو التخيُّل، إذ أنَّ النفس على الدوام هي أوسع وأرحب بكثير من أبعاد الجسم وحدوده المحدودة.

إنها في الباطن تتخطى الحاضر لتشمل الماضي السحيق بكلِّ عصوره، وهي تتصوَّر وتتطلّع إلى المستقبل بكل أبعاده المطلقة غير المتناهيّة ولا المقيّدة، لتستوعب الأحداث والأشخاص والأشياء والأمكنة والأزمنة، ولذلك **(فالنفس)** عملياً فإنها تقع أو تمتد خارج الجسم، وإن كانت تنطلق منه أو أنها تتمركز فيه.

إنَّ **الأنفس الصحيحة** خُلقت وسوِّيت لتكون إيجابية متماهية فيما تعيه مُرسلةً ومسترسلة في جميع الاتجاهات. بينما الأجسام وجدت لتكون بطبيعتها متقوقعة ومنعزلة ومنكمشة، إنَّ **(الأنفس الشح)** هي التي تبقى أسيرة الأجساد ومحدودة بحدودها، قاصرة وبليدة ممتنعة ومتمنِّعة، ليس لديها إرادة أو نزوع نحو الخير، أو لتقديم العون أو المساعدة أو المشاركة أو التعاون مع الآخرين.

فالجسم الإنساني الأساس أنه مجرد عنوان مُعَلَّم، أو مدخلاً يفضي إلى عالمٍ داخليٍ عميق غير محدود.

إنَّ تصـوير (النفس) أو تصـوُّرها على أنها محـدودةً بحـدود الجسم، أمرٌ أدى إلى حرف مسار العلم بها، أو أكفأ قِـدْرَهُ، أو لطم ولجم الجهـود الـتي كـانت مبذولة بهـذا الاتجـاه، وضـيَّع الفهم الصحيح.

صحيحٌ أن الإنسان ثلاثي الأبعـاد في جسه وروحه ونفسـه، وهذا كلامٌ ثابتٌ، ولكن من المؤكد أيضاً أن الجسمَ محدود في أبعاده وكذلك في طاقاته المتنوعة ومهما تعاظمت، فهي بكل استطالاتها محصورة ضمن نطاقه.

بينما (النفس العالمـــة) و(النفس المتأملـــة) تنطلق في الآفاق، فهي على قـدر امكانياتها وطموحاتهـا، واحساسـها، ما لـــديها من المعـــالي والإرادة والطمـــوح، ورغبة في تحقيق الأهداف الإيجابية البناءة، وما بإمكانها أن تراه وتسمعه وتعيه، المجالات المفتوحة عليها، إنها على قدر قـدرتها على التفكـير والتفكر واندفاعها في هذا السـبيل، وعلى المسـتوى النـوعي لهذا التفكـير، والويل لمن كـان محـدوداً في أفكـاره ملتصـقاً بالأرض.

إنَّ نضـوج الـذات قيمة أخلاقيّة عُليـا، ويـدلُّ عليه الشـعور بالمسـؤولية الاجتماعيّـة، ولا يكـون إدراك الجماعة والإنتمـاء إليها على أساس عـرقي ولا طـائفي ولا مـذهبي مبهم أو غـير إيجـابي، الانتمـاء الإيجـابي البنـاء المنتج يكـون للجماعة على أسـاس أن الجماعة نسـقٌ من الأخيـار المؤمـنين المحسـنين، نسـقٌ متمـيز متعـاون متـآزرٌ، ويسـعى أو هو متجه ككل إلى التفتُّح والحرية والعدالـــة، أي إلى التواصل الإيجـــابي البنـــاء والحضارة، وهو متألفٌ من ذوات، جميعها محترمة، ولكلٍ منها قيمـةً ولكـلٍ منها قـدرة، والجميع أو النافـذون منهم يعقلـون ويتفكرون.

لأنَّ اكتسـاب حسِّ المسـؤولية الاجتماعية ايحـاء ارتقـائي إيجابي فيه حَثٌ وتَحَفّزٌ وتحـرك في الاتجـاه الصـحيح، الأرقى، لأنَّ الإنسان، داخلياً وخارجياً، الأساس أنه بطبيعته كائنٌ وكيان اجتمـــاعي، وعليه تُبـــنى وتنضج بـــاقي العناصـــر، لتجعل منها عناصر تقويمية إثباتية إنمائية للشخصية، وللوظائف النفسـيّة، مثل الاختيـار والالـتزام والثقة والحرية والإرادة، وتـزداد قوتها وكفاءتهـــا، ثمَّ إنَّ هـــذا الامـــتزاج بين تلك العناصر في النفس الواحدة؛ يقـوي أركـان الشخصـيّة ويـدعم أواصـرها ويزيد من فعاليتها.

فكل وسط انساني لا بدَّ أن فيه عناصر تساعد على إنمـاء الشخصـية وتطورها باتجـاهٍ مـا، ممكنـات للإمسـاك بـالراهن، ودوافع تـــدفع لتحقيق المثل العُليـــا، والأهـــداف، كل مجتمع

منتظم ومستقر فإنه يحتوي في ثنايا صورته (واقعه) على الأكمل والأمثل، إنَّ الأنسان الواعي والمتحضر يدرك أنَّ ارتقاء الفرد يؤدي إلى ارتقاء الجماعة، وأنَّ ارتقاء الجماعة هو وفيه ارتقاءٌ للأفراد.

فعمل الانسان ليس مجرد لعب ولا حركات غير إيجابية ولا مجدية ولا منتجة يُشكلها في الفراغ، أو كلمات ثرثارة فارغة يطلقها في الهواء، بل هو عملٌ وموقفٌ مفعمٌ بالدلالة، موحي فياضٌ بالعطاء، إنه عملٌ يجاوز كثيراً البعد المادي إلى ابعادٍ أخرى في الدلالة والمعنى والايحاء لتوكيد قيمة ومعيار وسلوك الشخصيّة، إنَّ العمل والإنتاج والجدوى للإنسان فقط، بينما باقي الكائنات ليس لها معنوياً، عملاً تؤديه ذو قيمة ذاتية! إن حركة الحيوان لا تُسمى عملاً.

لذلك وجب أن يكون الإنسان النبيل في نشاطه على الدوام، حاملاً للقيم والمعايير الأخلاقية متسماً بها ومعبراً عنها، وأن يكون لديه في عمله توازياً مطرداً بين المسؤولية الذاتية (مسؤولية الفرد عن ذاته) والمسؤولية الجمعيّة (مسؤولية الفرد عن مجتمعه أمام ذاته)، والوصول إلى تلك الحالة وإلى ذلك المستوى أو السعي إليه دون ملل أو كلل.

فالإنسان السوي الشخصية (حاملُ الشخصية السويّة) يقاومُ إغراء المنفعة القريبة إذا كانت على حساب مصير الجماعة، وتمتاز شخصيته بالاستقامة والقدرة على الاستغناء في الحياة عن هوامش المتاع، وفضول الحاجات وزينة الشهوات واوهام الخيالات، مع الاستمساك بالأعماق، والأبقى من القيم العُليا، ولديها وحدة القصد والغاية والهدف، وهي أبعد ما تكون عن الصراع والتناقض الداخلي، أو التعدد أو التشتت، بل تحديد وثبات بيقين وقلب شجاع وإرادة ووعي تام.

إن الادراك هو النافذة الكبرى التي تُطلُّ منها النفس الرابضة بالداخل على العالم الخارجي من حولها، والعالم الداخلي في داخلها، وبه تعي النفس ذاتها، وجماعتها وثقافتها وقيمتها، وبه تعي الأحداث الأشياء والدلالات والاشارات والايحاءات من حولها.

أو أننا نتحرك في سياقه، وهذا الوعي هو الأساس لكل فهم ولكل تقدير نبديه، وهو أساس الترجيح، والمواقف، والقدرة على الاختيار والتقدير، إنَّ الادراك هو سبيل الفهم وعندما يصحّ الادراك فهو يؤدي إلى دراية ووعي منطقي حقيقي واختيار موفق وصحيح، كلُّ ذلك مشروطاً بالحريّة، لتشتدَّ البصائر ولتنفذ ولتلاقي في الأعماق في الحنايا والطوايا المشاعر

والظنــون والهــواجس والهواتــف، من الالهامــات والايحــاءات العامرة بها سريرة الوجود النفسي لـدى الإنسـان، لـذلك كـانت حرية الإدراك هي السبيل الوحيد إلى الاستيعاب الإيجابي المنتج والفعَّال، والغنى بالوعي الذي سيجود بالفهم والانفتاح.

بينما العاطفة دليلٌ على حيوية الادراك وحرارته وتجاذباته، به يكون أو يتكون الاثراء الوجـداني للفهم، إذ بالعاطفة تغتـني الأبعـاد النفسـية وتكتسب القـدرة على الاسـتمرار والمثـابرة لتحقيق الغايات، إنها تحقق في الإنسان الالتقـاء بين الـداخلي المطلق العميق مع الخارجي المحدود الأبعـاد، وهي بما تخلقه من تجاذبـات تشـكل الواسـطة بين الـذات والآخـر، الـذات والحدث، الذات والشيء، إنَّ وجود العاطفة دليـلٌ على القـوة والقدرة الادراكية وشمولها وعلى رقيّها النفسي، فليس هنالك اخلاق دون عاطفة يمتد بها وعلى جناحها الادراك ليخالط بها وعي وادراك الآخر، ليتصل به وبوجدانه لتفهم حاجاته ودوافعه ومصالحه واحواله، وبالتالي معرفة ما يمكن أن ينتج أو يصـدر عنـه، فالعاطفة والانجـذاب هي الـدافع الحيـوي والوجـودي الأساســي، وعنه تتولّد وتتفــرع بــاقي النشــاطات النفســية الإنسانية والاجتماعية.

فالحس الاجتماعي مبني على وجود العواطف بين الناس، التي ستخلق وستنتج أشكالاً من الروابط والعلاقات العديــدة، وربما المعقدة، الـتي لا يمكن أن تـزول ببسـاطة أو بسـهولة، ونحن نحافظ عليها بالفطرة، فهي تحيي وجودنا وتكمله، حـتى يصل الحس الجماعي ووجدان الجماعة إلى التوحد مع وجدان كل فـرد من أفرادهـا، كـذلك فـإنَّ صـحة التعـاطف ومنطقيّته يوصل إلى صــحة مســؤولية المجتمع بأكملــه، ما يــؤدي إلى تحقيق النصر والنجــاح المطــرد للجماعـــة، عـــبر التعـــاون والتنسيق والتنظيم والاعداد والترتيب والتوضيب، ووضع سلّم للأولويـــات في الحيـــاة في مختلف المجـــالات الاقتصـــاديةً والاجتماعية والسياســـية، وادراك ما هو واجب فعله وتحقيقه وما هو ملزمٌ للجميع، (فرض عين وفرض كفايـة) وصـولاً إلى مسـتوى أعلى من الفهم والتفهُّم لضـرورة التضـحية وتقـديم الغــالي والنفيس في ســبيل رفعة ما نــدرك ونعي أننا ننتمي إليه،

إن العاطفة والمشــاعر الجيّاشة هي الــتي تبعث الإرادة من مرقدها وتوقظها وتستخرجها من مكمنها وتـدفعها للتحقق وجوديـاً، محملة ومملـوءة بالثقة والرجـاء، متخطيّة لكل نقص أو عيب، إنها انفتــاحٌ على الضــمير الحي، إن العاطفة لــدى الإنسان ذات نسب وثيق مع الفهم والخيار الإيجابي والــواجب

والثقة والرجـاء ومن هنا يكـون التقيُّد بالمسـؤولية الاجتماعيّة ملزم وحتمي على كل من وعى.

إنَّ لدى الإنسان نزعة لتطبيق كل فهم يحرزه، وذلك مهما تكن صـلة هـذا الفهم بـالواقع الملمـوس، إن حسن تحديد الأغراض ودقة تعريفها ووصفها وصفاً صحيحاً، سيكون البوابة الرئيسية لفهم أية قضية أو أية مشكلة، من أجل التغلب على الصعاب ولتحقيق النصر فيها، وذلك على المستوى الفـردي والجماعي.

ومن الأعـراض الدالة على ضـعف الشخصـيّة وتهافتها التهاون واللامبالاة والشعور بالغربـة، فالمتهـاون أول ما يلـوم نفسه وهو أول من ينـدم على تهاونه وتفريطه بما لديه أو بما مكّنه الله تعالى منه، أو بما منحه من فرصة وامكانيات هدرها وفرط بها، إنَّ التهـاون دليـلٌ على اعتلالٍ عميق مهيمن ووهنٍ مسـيطرٍ على شخصـيَّة الفـرد عـديم المسـؤولية، الضـعيفً أساساً.

على أن الشخصـيّة الضـعيفة ليس لها رابـطٌ يقوِّمها ولا وحـدة تجمعهـا، وهي لا تسـتجيب للبـاعث المُنَشِّـط، ولا تستشرف المثال الذي يؤدي إلى النهوض، لـذا تفـتر فيها همة العمل وإرادة التنفيـذ، بل ويتلعثم فيها الـوعي ويتعـوق الفهم، فهي لا تدرك ما يجب إدراكه من دورها في الحياة، ولا تعـرف الاتجاه الصحيح ما يـؤدي إلى الـوهن والضـياع، وتتسم نتائجها دائمـاً وفي جميع الأمـور بـالنقص وعـدم الكمـال، قـال عليه الصـلاة والسـلام: (إنَّ الله يحب إذا عمل أحـدكم عملاً أن يتمه).

واللامبـالاة والتهـاون من نتـائج التشـتت والتـوزع والتنـازع (والسفينة في عرض البحر إذا فقـدت الاتجـاه الصـحيح، فكل المـوانئ بالنسـبة لها تصـبح خطـأ)، إنَّ الشـخص اللامبـالي بطبيعته ونتيجةً لتفريطه فهو ضعيف النظر في العـواقب، وهو غير قـادر على توقع المسـتقبل وتقـدير الحـوادث والمواقـف، بالنسبة له كفرد أو للمجتمع الذي يعيش فيه، فاللامبالاة بـرود يعـتري الجهـاز التـوقعي التحسسـي، يـؤدي إلى سـوء البنية وسـوء الوظيفة وسـوء العمل وسـوء الأداء عند الإنسـان، ويصـيب بـاقي الانفعـالات لديه بالتجمد ولسـان حاله يقـول: ليحدث ما يحدث وليكون ما يكون.

ومصيره العزلة النفسية لا العزلة المادية، وذلك أن يكـون الإنسان حاضراً في الجماعة بجسمه، بينما هو غـائبٌ أو بعيـدٌ عنها بذاتـه، فهو في عزلة من صـنعه واختيـاره، تـؤدي به إلى الـوهن والعجز والتعب وفـراغ المحتـوى، أوضـاعٌ تقـود إلى

انحلال الروابط والصلاة الطبيعية مع الآخر، وهذا تعبيرٌ عن فقد أو ضعف الثقة بينه وبين الجماعة، إنَّ موقف اللامنتمي والاغتراب عن معايير وقيم الجماعة، قد لا يخلو من عدوانية وهو يدل على عمق البواعث (موقف الأقليات من الأكثرية).

فالتشتت والتشكك والتوجس والتردد، وتحليل المواقف والظواهر، وعدم تقدير المسافات البينية والأوزان الثقلية، والأنواع والأحجام النوعية بشكل صحيح؛ وبالتالي عدم معرفة قيمة الأشخاص والأشياء والنتائج الناجمة عن الأحداث والتطورات، والفشل في تقديرها تقديراً صحيحاً، كل ذلك من أعراض ضعف الشخصية ووهنها واختلال موقعها من الجماعة، إنها في وضع الحيرة حيال كل شيء والعجز والقصور عن الرؤية الصحيحة، وهذا دليل فوضى المشاعر وتزعزع الثقة.

فكيف يصبح حال المسؤولية إذا كانت تغتذي بهكذا مدد مسموم وتتنفس من هكذا هواء محموم، بينما لا تبنى الشخصيات إلا بالثبات والطمأنينة وبناء الثقة، التي هي الأصل في سلامة الاختيار وإرادة الفعل وتنفيذه وتحقيقه وتبصر عواقبه وتصور نتائجه، إنَّ التشكك والتوجس والتردد يؤدي إلى الاقتلاع والتفكك والانحلال والتشرذم والتخاذل عن نصرة الآخرين، إنها من المظاهر البالغة الوضوح والعميقة الدلالة على انحطاط الشخصية وانحدار مستواها في المجتمع.

لأنَّ اليقين يولد الثقة وهو الأصل في سلامة بنية جوانب المسؤولية الجماعية، والشخصية أساساً امتداد واستعداد وتفاعل مجموعة هائلة من الخصائص والعوامل.

إنَّ البعد الاجتماعي أساسي وله تأثير بالغ في حياة الإنسان وتكوينه الشخصي، إنها ليست في مجال النشاط النفسي فحسب بل هي تقع في صميم هذا النشاط وهي من حيث الشكل والمضمون، ثقافةٌ وقيم ومعايير ومبادئ كلها تشترك مع الخصائص الفردية، إنَّ العمليات النفسية مزيجٌ ما بين الذاتي والاجتماعي، لذلك فنحن (نعي) من خلال (الإدراك) وهو من أهم العمليات النفسية على الاطلاق تختلط فيه عوامل المجتمع وثقافته وقيمه ومعاييره، عاملة ومؤثرة في الإدراك عملاً وتأثيراً لا يقل عن الخصائص والصفات الفردية لمن يدرك ويعي، إنَّ الإدراك والوعي ليس عملاً ذاتياً خالصاً.

إنَّ الكثير من العادات والتجارب والأحداث التي تصادف الأفراد والجماعات في حيواتهم سرعان ما تذهب لتستوطن أو تستقرّ في أعماق النفس، إنَّ بعض الأمراض العضوية (خصوصاً أمراض العضال) فإنّهَ ربما كان منشاؤها نفسي.

وربما كــان التخصص (التقــني) مفيــداً في الكثــير من الحالات، وقد يكون سبباً رئيسياً في الارتقاء المهني الـذي تمّ في العديد من المجــالات الصــناعية والزراعية والاقتصــادية والعلمية وغيرهــا، وذلك عــبر مرحلة تاريخية تعتــبر من أهم المراحل وأعلاها في تــاريخ الحيــاة البشــرية على ســطح البسيطة.

لكنَّ الاصــرار على التخصص (الفكــري) والــدعوة إليه والـترويج له يعتـبر في الكثـير من الحـالات وأداً... واعـداماً للفكر وللإبداع ولأي شكلٍ من أشكال التقدم.

إنَّ حصر وتضــييق الخنــاق على المفكــرين؛ من خلال إلزامهم وحصرهم بــ (التخصص الفكري الضيق) لهو اسـلوبٌ قمعيٌ يكشف عن هــدفٍ سـالبٍ غـير إيجـابي، يـرمي إلى مصـادرة حرية الأفكـار ووقف تـدفُّقِها أو تنبُّعِها في الـداخل؛ وفـاتهم أنَّ (حرية التفكـير) الأسـاس أنها عطـاءٌ إلهيٌ وهبه للإنسان، لكل إنسان يريـده أو يسـعى إليـه؛ لا ينبغي التعـرض له أو حجبه عن الناس أبداً، ولا بـأيِّ شـكلٍ من الأشـكال، ذلك أنَّ الشـمولية والموسـوعية من أهم شـروط وعوامل الابـداع (الوحي والإلهام).

بينما المتخصص علمياً وفكرياً (في موضوعه) يتصف بأنه ذو قدمٍ مكسورة، ضعيف في طريقته الآحاديـة ليس لديـه خيـارات ولا بدائل، مـرغمٌ دائمـاً على الاعـادة والتكـرار بنفس الاسلوب والطريقــة، ونفس المعطيـات ونفس المــواد، وعلى اسـتخدام نفس المعـايير، وليصـل بالتـالي إلى ذات الانتـاج وذات الكميـة والنوعية دون أن يحرزَ أي تقدم.

وهو يعــاني من ضــيق الأفــق، ويشــعر بعقــدة النقص، خصوصاً عندما يعجز عن التحليق في الرحاب الواسعة، ويقال أنَّ من الجميل أن نعـرفَ كـلَّ شـيءٍ عن الشـيء أو المجـال الواحــد، ولكنَّ الأجمل أن نضــيف إلى معرفتنا تلــك، بعض المعرفة عن كل شيء يحيط بنا ومن حولنا[1].

والواقع يقـول الموضـوعي يقـول أن (المعرفـة) الممكنة في هذه الحياة نسبيّة، وهي ممكنة للأفراد دائماً إلى حـدٍ مـا، في حدود امكانيـاتهم الذاتيّة وقـدراتهم على التحصـيل والفهم والاستيعاب، بينما العلمُ الكلي والشـامل والمطلق عن أشـياء

---

1 (?) ويتصف جميع المبــدعين أنهم موســوعيّون، ويصــنف ابن ســينا: أنه طبيب وفيلسوف وعالم دين وجرّاح ونفساني، ويصنِّف الرازي: أنه طبيب وكيميائي ونفساني وموسيقي، ويصـنف شكسـبير: أنه شـاعر وفيلسـوف وروائي وموسـيقي، ويصـنّف برتراندرسـل: أنه عـالم رياضي وفيلسـوف وأديب ومؤرخ،

عديدة - بالنسبة للإنسان - أمرٌ غير مُدرك ومستحيل، لأنَّ العلم واردٌ وهو مستوردٌ من السماء من عالم الغيب، بينا (المعرفة) متاحةٌ لكل من يطلبها، وهي متوفرة على سطح الأرض وعلى مدار الساعة.

لذلك في مجال العلم يدور الناس دوماً في إطار النسبية ويصل الانسان إلى قمة الغرور عندما يدعي أن اجتهاده هو المطلق.

أما (الاقتباس الموثَّق) فهو من خصائص البحث العلمي الايجابي والهادف، وهو أيضاً يعتمد على التراكميّة، فالجاهل فقط هو الذي يعتقد أنّ عليه في كل مرةً أن يعيد اختراع الدولاب. إنه يعتقد أنَّ ناطحات السحاب تقف في الجوِّ دون أساس عميق؛ ويعتقد أيضاً أن بالإمكان الوصول إلى أعلى طابق فيها دون الصعود والمرور من الطوابق الأولى!

لذلك فإنَّ فهم (كوبرنيكس) كان وليداً وانعكاساً لمقالات ونظريات (غاليلو)، وأنَّ أوربا في القرن الثامن عشر لم تجد تلك العلوم دفعة واحدة وصدفةً من فراغ، في حين بقيت البشرية عشرات آلاف السنين متخلفة أو محرومة من أيٍ من تلك المنجزات الهائلة والمذهلة بحق؛[1]

وقد يكون من المفيد إعادة تسلسل وربط الأحداث لفهم الأمور وتبيان الحق، إنَّ الذين يعانون من العجز عن الغوص في قاع المحيطات عادةً ما يتهمون غيرهم، قال أحدهم: إنَّ الكتاب الجيِّد هو الذي نستطيع أن نقرأ بين سطوره مئات الكتب

---

1 (?) على العكس مما هو شائعٌ في أكثر الأوساط الثقافية؛ فإنَّ العرب لم يكونوا مجرد ناقلين للحضارة اليونانية أو الرومانية! لأنَّ اليونانيين مثل الرومان لم يكن لديهم حضارة أساساً، إنه التصور والتصوير الخاطئ، وبتأثير من الدعاية اليهودية بل كان العرب منذ الأزل في قمة الحضارة والمدنية لأنَّ آلاف الحضارات المدنيات قد تشكلت على بطاح الأرض العربية آلاف المجتمعات قد انعقدت، آلاف الدول نشأت وتلاشت آلاف الحروب آلاف المدن والبلدات قد تكونت، فالعرب ليسوا مجرد ساعي بريد (سواءً اعترف الغرب أم لم يعترفوا فإن الحقيقة هي أن العرب هم أساس الحضارة البشرية قاطبةً، لقد كان الرومان والفرس مجرد إمبراطوريات قامت على التسخير والهيمنة واستعباد الشعوب ونهب خيراتها محاربين ليس إلا، ومن المؤسف أن تجد أكثر الباحثين اليوم في مختلف المجالات يعملون وفق الرؤية الصليبية الغربية المهودة يعملون قصداً على تجريد المنطقة العربية والعرب من أي محمدة فيتحدثون في الرياضيات عن الأرقام الهندية مثلاً، علماً أنه لا يوجد في التاريخ إلا أرقام واحدة وهي عربية؛ ويقولون أن (هوردوت) اليوناني هو أبو التاريخ و(أبو قراط) اليوناني هو أبو الطب ويتحدثون عن (الميثولوجيا) اليونانية وأنَّ الموسيقا أصلها يوناني أيضاً وحتى أن كليات الزراعة في البلاد العربية تدرِّس أن أكثر النباتات وأنَّ أكثر الحيوانات والطيور المتواجدة على أرض العرب أصلها غير عربي! وأنَّ أساليب الزراعة والرعي القديمة كانت واردة أيضاً من خارج الأرض العربية، طبعاً هذا يسمونه الاستلاب يمارسه

والأفكـار الجديـدة، وأن نطلـع من خلالـه على مئـات بـل وعلى آلاف العقول الخصبة، أما تلك الكتب التي تكرر وتعيـد فهي تنمُّ عن عجزٍ وشـلل وتفكُّكٍ وارتعـاش في الأفكـار والأوصـال، وهي غير جديرة بالقراءة ولاً الاطلاع، وتولـد إلنفـور والاعـراض لـدى القارئ لعدم وجود الثراء والجديد من الأفكار، فهل هذا هو وضع الكتاب العربي في هذه الأيام ؟

إنَّ مفهوم (الاغتراب السياسي)، وهذه الصـفة هي لسـان حالٍ وتعبير عن مدى الانسجام أو عدم القبـول، أو التعـاون أو النفور، أو الرفض أو المقاطعة أو الثورة، فالاغتراب تعبيرٌ عن اللاقدرة وفقدان الماهيّة، واللامعنى والشعور بالتهميش وعدم الانتماء والابعاد القسري؛ والوحدة والقلق والرفض وبضـرورة التمرد على الواقع.

والمشكلة تكمن في أنَّ الانسـان في كثـيرٍ من الأحيـان قـد يفقد السيطرة على منتجاته ذاتها!

فالعـالم والجنـدي والبـاحث والأسـتاذ الجـامعي، فهـؤلاء جميعهم لا يسـيطرون في الغـالب على وسـائلهم وعلى منتجـاتهم؛ فالجنـدي لا يسـيطر عـادة على وسـائل العنـف، والباحث في مراكز الأبحاث عادة لا يسيطر على وسائل البحث ولا على نتائج أبحاثه ولا على غاياتها.

كذلك يصبح المواطن عاجزاً تجاه دولتـه الـتي أسـهم هـو في صناعتها، لقد اكتسبت الدولة الحديثـة مناعـةً تمكّنهـا من التعـالي على من أسـهم فعليـاً في تكوينهـا وايجادهـا، فكثـيراً مـا يفاجـأ المـواطن المقهـور في الدولـة الحديثـة بـالقرارات والاحـداث السياسيّة التي تقرر مصيره.

فالإنسـان الحـديث صـحيحٌ أنه محـاطٌ بـالآخرين ولكنه مع ذلك فهو وحدٌ بينهم، لأنَّ صلته بهم رسـميّة سـطحيّة واهيّـة، واحتكاكه بهم تصادمي، وكنه قريباً من الآخـرين وبعيـداً عنهم في الـوقت ذاته يزيد من شـعوره بالوحـدة، فالمسـافات الجغرافيّة بين الأفراد في المـدن قد تكـون معدومـةً، غـير أنَّ المسافات النفسيّة والاجتماعيّة أصبحت أكثر بعـداً ونأيـاً، لقد كان الفرد في الماضي يرى نفسه عضـواً في عائلةٍ أو جماعةٍ أو حزب أو طائفة، أما الآن فإنه يرى نفسه مستقلاً ومفصولاً وفي حالة اغـتراب لا يشـعر فيها بالانتمـاء إلى مجتمع وأمـة، فالعلاقات الشخصية غير ثابتة وغير مضمونة، والمفـاهيم غـير واضحة.

إنَّ كون الإنسان معـزولاً، يسـهِّلُ السـيطرة عليه وتغيـيره بل وتهديمه، إنَّ من الصـعب القضـاء على الإنسـان طالما أنه

ينتمي إلى جماعة، فمن أجل تحطيم مقاومة الفـرد لا بـدَّ من القضاء على شكل جماعته وتحطيمها أولاً، إنَّ الإنسـان الفـرد والمعـزول عن الجماعـة، وعلى حد تشـبيه (هتلـر): أنه (مثل السلحفاة التي فقدت قشرتها الصدفية)، فقدانٌ للقوام وفقـدٌ لمعالم للطريق.

فالإنسان وحتى يتمكن من تحقيق ذاته، ولكي يتغلب على عجـزه، فإنه لا بـدَّ له من اقامة الحـوار والمصـالحة مع نفسه أولاً، ومن السـيطرة على مخلوقاته وابداعاته ومنتجاتـه، والتحكم بها وادارتها ايجابياً وخيرياً.

الفكر ماهيّته

والتفكـير مرحلـةٌ رفيعـةٌ وعمـلٌ عـالٍ، وهو رفيـقٌ وملازمٌ للإقــدام وللهمم العالية والشــجاعة، وللرغبة في التقــدم إلى الأمام[1]، فليس للجبناء ولا للصغار ولا للضعفاء فكـر، وهم في حيـاتهم دائمـاً أسـيرون للأقويـاء والكبـار ، ولكن عند الهـرج والمرج فإنَّ الجميع يهرعون وراء الأكثريّة؛ بينما الفكر مرتبـطٌ أساساً بالوعي النوعي وشـرطه القضـيَّةٍ، وميزانه ومسـطرته الحق، وليس للبهائم ولا للمتخلفين عقلياً تفكير ولا يحـقُّ لهم، والأعمى لا يقود عمياناً، ثمَّ أنَّ التفكـير بالأسـاس عملية ولادة جديدة وابتكار وفيه خلق وابداع غير مسبوق؛

إنَّ حالة التخبط الفكـري والعقائــدي والتعــاطي بالنفــاق السياسي لدى (المسلمين العرب) في هذه الأيام، وحتى على المســتوى الشـعبي يجب أن تكــون غــير مسـتغربة، لأنَّ من الطـبيعي أن تكـون هـذه المرحلـة، مرحلة وحالة اللاوعي، أن يكون فيها التردي والانحطاط قد وصل فيها إلى أبعد مدى في جميع الاتجاهــات ومن جميع النــواحي، إذ كيف يجــيز الواقع ازدواجية الهوية (الانتماء) كيف يتكلم المثقفون بلغة ويحملون عقلية مختلفــة؛ لأنَّ حالة ما قبل الــوعي حالة تــوحش وغربة ينتشر فيها التخلف ويســـتفحل بها الجهل والضـــعف وكافة الأمــراض الاجتماعيّــة، إنَّ عــدم الانتبــاه فيه عــدم إحســاس بالمسؤوليّة وأنه من غـير المسـتغرب في هـذه الحالة أن تجد جميع الأمم تتكـالب على المسـلمين العـرب وتنهب ثـرواتهم وتهتك أعراضهم.

فالماضي إذاً ليس زمنـاً صـرفاً مضى وانقضى والـزمن لا ينفصل عن الوجود، والماضي مرتبـةٌ وجودية حصَّـلناها بإنفـاق الـــزمن، إنَّ الزمـــان اداة النمو في الوجـــود، هـــذه المرتبة الوجودية الـتي حصـلناها باتفـاق الماضي هي شـرط الانطلاق نحو المســتقبل، لحظة زمانية لابد من مجيئهــا، ولكنها مرتبة الكمال في الوجود التي لا تُبْلَغُ إلا بتحصـيل المـراتب السـابقة لهـا، الماضي هو المرتبة الوجودية الـتي بلغناهـا، فهو إذن ما نحن عليه الآن إنه حاضـــرنا ومـــانحن عليه الآن هو ماهيتنـــا،

---

[1] (?) من المؤكد أنه يجب إبراز وتخليد المواقف النبيلة والشـجاعة للأشـخاص الأعلام الايجـابيين في الأمـة، والـذين حفـروا بجهـودهم المضـنية واحسـانهم أسماءهم على جـبين التـاريخ غـرةً، وجعلها نمـاذج تُحتـذى، ليتم تـداولها بين الأجيـــال أمثلـــةً تُحتـــذى، بينما يجب علينا زمَّ ودحض المواقف الســـالبة والانحطاطيَّة؛ وتنقية اللسان العربي من تلك النماذج غـير المناسـبة والعمل على حجبها حجباً نهائياً.

فالماضي هو الماهيّــة، لأن الماهية هي ما قد كـان كما يقــول (هيجل) والشخصية هي الذاكرة كما يرى (برغسون)، إن هذه المرتبة الوجودية الـــتي حصَّـــلناها هي الـــتي تؤلف قوامنا وتماســكنا وهي أســاس الرؤيا الــتي نمتلكها عن الوجــود لأنَّ الرؤية هي ثمرة المجاهدة التي عانيناها في الزمن الماضي.

وأخــيراً إنَّ الماضي هو الــزمن الــذي لابــدّ من إنفاقه من أجل تحصـــيل النمو الـــذاتي ومن أجل الارتقـــاء في المرتبة الوجوديّة وامتلاك الرؤيا الواضـــحة من أجل اكتســـاب ثبـــات الماهية وتماسك الشخصية، وذلك بـألوان من المعانـاة والآلام لا بد منها لأننا نبـــدأ طريق الـــزمن بلا زاد، بلا رؤية واضـــحة، (فالرؤيا الواضحة لا تأتي إلا متأخرة لأنها ثمـرة المعانـاة)[1] إن بحث مسألة (الوقت) و(الزمن) و(العصر) و(الأوان) و(الحين) و(البرهــة) وذلك بعيــداً عن التقاليد البحثية المعتـادة (اللغوية البحتة) في العربية الـتي تختصر الأمـور في موضـوع الأفعـال اللغوية الماضي والحاضر والمستقبل؛ لهي مسألة جديــدة كل الجــدة؛ وهي جد معقــدة وغــير مســبوقة، وتعتــبر خارجة عن القانون! سيما وأنها تنـاهض ما اسـتقرت عليه عقـول (علمـاء العامة) من الصوفية والسلفية والشـيعة، لأن مسـألة الزمـان هي الأفق الـــذي نطل منه على مســألة الوجـــود، فالزمـــان مرتبط بالوجود، إذ لا وجود بدون زمـان، وقد قيل اننا نتحـدث عن الزمـــان بثلاث طـــرق أو ثلاث أنمـــاط: الماضي والحاضر والمستقبل، واي طفل على وعي بهـا، ولكن ليس كل إنسـان يستطيع النفاذ إلى كنهها!

ولكن الفكر دائمــاً وبطبيعته ذاتيّــاً وأصــيلاً ويجب أن يكــون ذاتيّـــاً أصـــيلاً، إذا لا جـــدوى في الفكر اطلاقـــاً من الاســـتعارة أو الترقيع أو التعويض أو الإنابــة، لأن لكل فكــرٍ أســبابٌ مرحليَّة وبيئة لطريق حيث لا قيمـــةَ لما نجتـــازه منهـــاً، وإنما القيمة في اقترابنا من الهدف، إن الديالكتيك ارتقـاء خلال مـراتب الوجـود، فخطه ليس خطــاً مســتقيماً على نحو أفقي ولكنه خط لولــبي صــاعد إذا صح هـــذا التشــبيه المكــاني، وبعضـــهم لا يـــرى في الماضي إلا أنه أحد الحـــدود الضـــاغطة، فهو في رأي "ســارتر" شـــيء في ذاتـــه، واذاً فهو ينتسب إلى العـــالم، فكأنه جـــزء من العالم ومنطقة من الحتمية تحتل ذاتنـــا، ولـــذلك فمهمة الحريـــة، في رأي هـــذا الفيلســـوف، الإفلات من الماضي باعتبـــاره أحد المنـــاطق الحتميـــة. ولكن الماضي ليس حـــداً إلا بالنســـبة لمن يكرهون كل أمر منجز مثل (سـارتر)، ويـرون الحرية في تجـاوز كل معطى، فهي عندهم لا تنطلق بالنسبة لمن يكرهون كل أمر

[1] (?) أحمد حيدر، من كتابه (نحو حضارة جديدة) مرجع سابق.

منجـز، مثل سـارتر، ويـرون الحرية في تجـاوز كل معطي فهي عنـدهم لا تنطلق إلا من ذاتهـا، والآن ما الماضـي، ولمـاذا كـان بُعداً أساسياً من أبعاد الذات؟) فالصـلاة للمفكر العـربي كـانت على الدوام تعني وفي الجوهر العـربي قيـام الإنسـان بالاتصـال مع ربه سبحانه وتعالى وتهـدف إلى اسـتلهام الأفكـار من عـالم الغيب والتزود بالطاقة الربانية التي يحتاجها هذا العقل المفكر.

فالطاقة الموجـودة لـدى الانسـان إذا بدأ بـالتفكير لا حـدود لها، إذ بإمكـان الانسـان فعل المسـتحيل وشـرط ذلك (الفكـرة الصـــحيحة) فكل الأفكـــار الصـــحيحة قابلة للتحقق والتنفيـــذ، والمطلوب فقط هو الشروع بالعمل وإيجاد الظـروف المناسـبة والعوامل والمـــواد الأساســـية (رحلة الألف ميل تبـــدأ بخطـــوة واحدة) قال تعالى: وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُـونَ وَسَـتُرَدُّونَ إِلَى عَـالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُــونَ [التوبـــة: 105] والأمر يحتـــاج دائمـــاً للصـــلاة كاحتيـاج الجسم الحي إلى (الأكسـجين) كـان العلمـاء العـرب المسلمون في صـدر الإسـلام دائمـاً وفي كل وقت يسـتلهمون أفكارهم أثناء الصلاة، لذلك كانوا مبـدعين ومنتصـرين، فالصـلاة والدعاء لله تعالى، عربيـاً وبـالجوهر، هي عملية ذهـاب إلى الله تعـالى وليست اسـتدعاءً لله ، كما هي في المعتقـدات لـدى الأديان الأخرى غير العربية.

إن الصـلاة في معناها الحقيقي تتطلب بـذل الجهـود وعقد العزم، بينما عنـدما قصر معناها على مجـرد الـدعاء صـار يمكن أداؤها في كل حين، وبأيسر الجهـود بل ويؤديها أي كـان! بحيث صارت الصلاة عند البعض عبـارة عن طقـوس، وعـادات وتقاليد ومجالس فهل هذا هو المراد من الصلاة (الصـلوة)؟، ويُعتقد أنَّ العـــرب ومنذ الأزل كـــانت لـــديها أوقـــات ربانية فطرية طبيعيّة معلومة وهي الفجــرُ والضــحى والظهــرُ والعصــرُ والمغــربُ والعشـاءُ، ولـذلك كـانت الصلاة الإبراهيمية لمّا فُرضت من الله ســبحانه وتعــالى خمســةٌ أو ســتةٌ؛ وعلى رأس تلك الأوقــات المعلومة لـديهم أساسـاً، قـال تعـالى: فَـإِذَا قَضَـيْتُمُ الصَّـلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَـأْنَنْتُمْ فَـأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا [النسـاء: 103] وهذا يعني أنَّه كان لكل وقت من الأوقات الخمسة صلاته وقد تعينت من الأزل وقد أكد عليها جميع الرسل في رســالاتهم والله تعالى أعلم.

والقرآن الكـريم الـذي نصَّ على الغُسل قبل الصـلاة بدقة وتفصيل، في حين أنه لم ينص على أوقات الصلاة ولا على عدد الركعات، فهل كانت الصلاة أولى بالذكر أم الغُسـل، وكيف فهم

الجـاهلون من النـاس هـذه المسـألة؟!، فلا يمكن الفصل بين عمل الإنسـان وعقله وفكـره، والعلاقة جدليّة عربيـاً بين عقل الإنسان (الميزان) وفكـره (الفرقـان) وطبيعة أعماله (الفعـل)، إنَّ (العمل يؤدي إلى التعقُّل والعقل يؤدي إلى العمـل، والعلاقة بين العمل والعقل لـدى الإنسـان جدليـة، ولـذلك فـإنَّ العقل العامل يؤدي دائماً إلى الفكر المتقـدم النـاجز، ولـذلك فإنه من يعقل يعمل ومن يعمل يعقل ويفكـر، وليس هنالك عمل لمن لا عقل لـه، وليس هنالك عقـلٌ ولا فكـرٌ لمن لا عمل لـه، وليس هنالك نفسٌ لمن لا عقل لـه. وتنبثق النفس (الـذات) عن العقل والفكر الفاعل (علاقة جدلية).

ولفظ (النفس) عكس لفظ (السفن) الذي يعني الانتشـار والانطلاق واستكشاف للبعيد وابحار في مستوي واسع مطلق ولكن على ظهر المـــراكب، بينما (النفس) فيها انطلاقٌ، منطلق غـير مقيَّد نحو العـوالم وعلى متن أجنحـةٍ ربانية إلى جميع الأبعاد، مطلق السرعات غير محـدود، يتطلب اسـتجماع وتركـيز وتقـاطر الأفكـار من مختلف الجهـات والأوسـاط والمجـالات، وذلك في ثـورة واحـدة لـترتكز في نقطة واحـدة من أجل أن يحدث الفتح العقلي الفكري العظيم (النفس فيها تركـيز واسـتقطاب واسـتجماع وانطلاق) فهل كـانت النفس استجماع للأعمال والمعلومات والصـور والتجـارب بأنواعها ثمّ انصـبابها في الفكـرة، وفيها سـتر ربـاني إلهي، بينما (مفهـوم الفكر)[1] على العكس تماماً من (مفهوم الكفر)، فـالكفر كـفٌ وتغطية وضـيق ونفيٌ لآيـات الله والجـاد وعـدم قبـول وعـدم تصـديق بهـا، ورفض واجحـاف وامتنـاع، وهو مـادي التعبـير والمنحى والأسلوب ويهدف إلى الهدف القريب، بينما (مفهوم الفكـر) يعـني الاقبـال والفتح والانفتـاح والكشف والوضـوح وكسر الأغلال والتحـرر والفـرج والانطلاق وتجـاوز المِحن والتأكيد والقبـول والتصـديق بـالحق وبآيـات الله والتوسع بالمدارك والاستيعاب وهو معنوي المنحى والأسلوب والهدف، إن مجـال الفكر القضـايا المصـيرية، وهو يعـالج النهايـات والأوضـاع المعنويـة، لأن (حـرف الـراء) للتكـريس والتكـرار

[1] (?) والتفكـير من أخص خصـائص الآدمـيين، المكلفين بمقتضى تحملهم لأمانة الاستخلاف، بأن يقرروا مصيرهم في الحيـاة الـدنيا بحسب ما تبلغه عقـولهم وتتوصل إليه أفكـارهم، ثم يبنـوا منـاهجهم الفكرية ويحـددوا مـواقفهم من مضـمون الـوحي المـنزل على امتـداد الزمـان والمكـان، ويتحملـوا مسـؤوليتهم كاملة فيما يثبتـون وما ينفـون، وما يقـدمون وما يؤخرون، وما يؤلفون من معارف وعلوم وثقافات، وما يبلورون من أحكام وتصـورات وتصـرفات، وكل ما يصـنعون بفكـرهم في أمـور معاشـهم ومعادهم.
حـديث رسـول الله (ص): رُفِـعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثَـةٍ عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْـتَيْقِظَ وَعَنْ الْمُبْتَلَى حَتَّى يَبْرَأَ وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَكْبُرَ.

والامعـــان، والفك في (الفكـــر) وهو تمامـــاً عكس الكف في (كفر) والله أعلم.

إن العقل متجـــهٌ دائمـــاً إلى القضـــايا الماديّة الحسـّـيّة الملموسة ويســـعى دائمـــاً للتحقق في الواقع وهو أقـــرب للواقـع، وهو الجـانب التنفيـذي الحـركي والفعلي للفكـر، في حين أن الفكر أكـثر عمقـاً وأوغل في المعنـوي وهو يتـولى الجانب النظري، العقل فيه الـتزام وتقيُّد بالحـدود وهو وقـافٌ عندها قـال تعـالى: تِلْـكَ حُـدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَـذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [البقـرة: 187] الحـدود الـتي أنزلها رب العـالمين وفرضـها على البشـر، ولم يفرضـها على الحيوانـات، فكما أنَّ (المصـحف) الشـريف هو بوابـةً ومـدخلاً إلى (القرآن العظيم) كذلك فإن (العقل) المفـترض أنه بوابـةً ومدخلاً إلى (الفكر) الذي ليس له حدود.

أما (النفس الإنســـانية الواعيـــة) فهي الكيـــان الكلي والجامعة والحافظة أو الوعـــاء الـــذي سيضم العقل بوظائفه كلها والأفكار بأنواعها معاً.

إننا بـــالفكر وحـــده نســـتطيع تحويل الضـعف إلى قـــوة ونسـتطيع أيضـاً المحافظة عليهـا، والواقع أن الحيوانـات لا تعرف الضحك ولا السـخرية ومع ذلك فالحـدود الربانية خاصة بالبشـــر، الواقع المرير أنه على الـــرغم من الانتصـــارات المفترضة لـ (علم النفس) وعلم النفس الاجتماعي، إلا أنه ما زال ينظر ضـمنيّاً إلى الانسـان على أنه مجـرد حيـوان وذلك على الرغم من كل انتصاراته المفترضة؛ لقد دخلـوا إليه (إلى علم النفس) مـدخلاً خطـأً، بحيث فصـلوا فصـلاً نهائيـاً بين المادي والمعنوي؛ بين الجسد والعقل (الفكر) وعـاملو النفس معاملة الجسد، وافترضوا أنَّ الدوافع والحواس الخمسة فقط هي الـــتي ترسم للنفس مســارها وتحـــدد مصـــيرها وتتحكم بالأحـــداث المقبلـــة، وهم يتصـــورون النفس على أنها الجسد ليس إلا ولكن الجانب غير المرئي منـه، انطلاقـاً من (فرويـد) وتلامذتـه، لا شك أنهم أبلـوا في أبحـاثهم في ما سـميَّ علم النفس (الحسـية) بلا بلاءً حسـناً في الكثـير من الأمـور[1]، إنما

1 (?) يـــدرس علمـــاء النفس العديد من الظـــواهر، مثل الإدراك والمعرفة والانفعال والشخصية والسلوك والعلاقـات الشخصـية المتبادلـة، في حين يـدرس البعض الآخر من علمـاء النفس، وخاصـةً علمـاء نفس الأعمـاق، العقل البـاطن، ويتم تطـبيق المعرفة النفسـية في العديد من المجـالات المختلفة للأنشـــطة الإنســـانية، بما في ذلك المشـــاكل المرتبطة بـــأمور الحياة اليومية، مثل الأسرة والتعليم والتوظيف، وفي كيفية حل مشـكلات الصحة النفسية.

حاول علماء النفس دراسة الدور الذي تلعبه الوظائف العقلية في كل من ســلوك الفـــرد والمجتمـــع، وفي الـــوقت نفسه استكشـــاف العمليـــات

علينا أن لا نقف عند تلك الحــدود الــتي حــددوها لنا من خلال رؤيتهم (المادية البحتة) وذلك حيال عدم قبولهم بالنفس لــدى الإنســان، تمتلك القــدرات الهائلة وهي كعــالم واسع يســتلهم ويتنبأ ويقــرأ الأحــداث ويمــازج بين الصــور والأفكــار ويســتنتج ويبدع باستمرار.

إن (علم النفس الأوربي) وقد وقف خلال القرن العشرين على عتبة الأمــراض النفســية والأحــوال الســلبية ليوصِّــفها توصــيفاً دقيقــاً والــتي يمكن أن تصــادف الشــاذين والمثلــيين وأصحاب العقد ممن تلوثت أحوالهم وأوضــاعهم بالممارســات والتصــــرفات الخاطئة والبعيــــدة عن الله تعــــالى عن الأخلاق والمثُل والحق المــبين في الــدين الســماوي المــنزَّل من الله تعالى عن أوامــره ونواهيه وبــدل أن تقــوم الــدعوة على نبذ المســـببات الأساســـية والأخطـــاء الأولية لتلك الأمـــراض واســتبعادها انصــرف علم النفس إلى قيــام الأبحــاث الكثــيرة والعديــــدة وهي تحــــاول وتشــــتغل على اكتشــــاف الأدوية والعلاجــــات وتعمل جاهــــدةً من أجل تجميل تلك الأمـــراض وقبولها موضوعيَّاً في المجتمع (مرض الايدز)! وقد اســتعملت المعالجة النفســية في العقــود الأخــيرة في أوربة لمســاعدة المرضى بالاكتئاب، ونوبات الذعر والرهاب أو الخــوف والقلق والغضب والأمــراض المتعلقة بــالتوتر والشــدّة، وصــعوبات العلاقات وادمــان الخمر والأدوية واضــطرابات تنــاول الطعــام والكثــير من المشــكلات النفســية الــتي تحتــاج إلى شــفاء أو تبحث عن الخلاص، وخصوصــاً إبــان الحــروب والكــوارث والحوادث الكبرى، فالحق حرٌ أشبه بالميزان لا أحد يتــدخل به لأنه مصدرٌ رباني محض.

واســتجداء الحق بأســلوب التســول قضــيّة فاشــلة غــير مجدية، لأنَّ الحق سلطان.

إنه وعلى الرغم من كل ذلك الضجيج والضوضاء والبهرجة والأضواء والألوان التي يحــاولون فيها طمس الحقيقــة، فــإنهم في (علم النفس) قد وصــلوا إلى طريــق مســدود وإلى نتــائج خاطئة لم تؤدي إلى أي غرض ولم تحل أي مشكلة أساســية[1]

الفسيولوجية والعصبية الخفية، ويشمل علم النفس العديد من الدراســات والتطبيقات الفرعية المتعلقة بنواحي عــدة بالحيــاة، مثل التنمية البشــرية والرياضة والصــحة والصــناعة والإعلام والقــانون، كما يشــمل علم النفس الأبحــاث الــتي يتم أجراؤها في مختلف مجــالات العلــوم، مثل العلــوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنســانية. ويعــرف الشــخص الــدارس لعلم النفس أو المستخدم له باسم عالم نفسي.

[1] (?) علم النفس (باليونانية القديمــة: Ψυχολογία يعــني "دراسة العقــل، والكلمة مشــتقة من ψυχήpsykhē وتعــني "النفس والــروح") وهو منهج أكاديمي وتطبيقي يشمل الدراسة العلمية لوظائف العقل البشــري وســلوك

إنَّ الأنفس تُنثر في الحياة مثل البذور، فما وقع في مكان مناسب اشرأب عالياً ونمى، وما وقع على صخرة صماء قاسية غير مناسبة، فإنه ينحرف ويبطئ نموه ويَضعُف، ويقف في حدود يتحدد ضمنها، لا تَنْتُشُ ولا تنمو ولا تطول قاماتها، والعاقل يستطيع رؤية نفسه عملياً بمجرد أن يُغمض عينيه ويفترض عدم وجود جسمه، وكانت لديه رجاحةٌ في العقل، ليعلم أن أكبر شجرةٍ في العالم أساسها أصغر بذرةٍ في العالم، وأن معظم النار من مستصغر الشرر إنّ الرجاحة هي رجاحة العقل (الميزان) وأنَّ النضوج نضوج الفكر، والقدرة على الإبداع وهي متاحة للجميع، وذلك بغض النظر عن ما مضى من السنين إذا كانت بلا جدوى، فالمهم أن نبادر وأن نبدأ، والعاقل المُتروي المتصل، صاحب الوجدان، فهو عندما يتعرض للمشكلات يستطيع ذاتياً اعادة ترتيب الأمور وقلب المعادلات، بحيث يستنبط الحلول الناجحة والمناسبة والقيام بالمبادرة واتخاذ الخطوات المناسبة، والتغلب على المصاعب النفسية.

إن من المستحيل تلقين الناس حلولاً لمشكلاتهم، بل يجب أن يندفعوا ذاتياً إلى حلها، فليس هنالك علاجاً للموت؛ بينما الأحياء يندفعون ذاتياً بالأساس ويبادرون،[1] كذلك فإن المرضى العقليين والنفسيين وفاقدي الذاكرة فإنهم بطبيعة الحال غير مسؤولين عن أعمالهم، إنَّ النفس تبارح فاقدي العقول والقدرة على التفكير لأي سبب كان مثل السُّكرِ والنوم والمرض والحالات الأخرى.

فالنفس والتي هي وعاء الأعمال وخزانها، تكون فارغةً في البداية (عند الولادة وفي الطفولة) ونحن نبدأ غداة الولادة شيئاً فشيئاً بملئها من تجاربنا، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[الشمس: 10]، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: 6]، والكدح هو العمل العاقل، إنَّ العاطل فكرُهُ عن العمل يصبح لا إرادياً ضيق الأفق محدود، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ

الإنسان، إلى جانب استخدام الأسلوب العلمي أو معارضة استخدامه من حين لآخر، يعتمد علم النفس أيضًا على أعمال التفسير الرمزي والتحليل النقدي، ذلك على الرغم من أن هذين الأسلوبين لم يتم استخدامهما بالقدر نفسه في العلوم الاجتماعية، مثل علم الاجتماع.

[1] ــ ونحن في هذه الحياة لم نؤمر باتباع الأموات! بل باتباع الأحياء، لذلك كان القرآن الكريم والعظيم هو الإمام لنا وفقط.

يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 125] وهذا القانون رباني واضح وطبيعي وهو ساري المفعول على الدوام.

إن الفكر أن تحاول الابتكار والابداع وتبادر بالعمل وأن تصنع وتضع ما لديك أولاً، ثمَّ تضيفه إلى ما لدى الآخرين من الجهود، والجمع بين الفكر بالمفهوم الكيميائي يشبه الخلطة الجوهرية الخاصة (الفكر الحقيقي والأساسي)، والفكر بالمفهوم الفيزيائي (الشكلاني) هو الخلطة الخارجية ويقول المثل: (أنَّ لكل زمان دولة ورجال) والحقيقة هي أنَّ لكل لحظة فكرتها الخاصّة الجديدة، ولكن لابد أن يأتي الغد بأفكار جديدة وعلى الإنسان أن يصوغ مستقبله بيده أي بذاته، والكارثة الحقيقية هي الجهل وعدم الاكتراث لمصائب المستقبل وعدم التنبؤ بها أو الإلمام بأبعادها المحتملة، بينما يقول المثل: (أن الكسول دائما في إجازة وأن الكسل والد لكافة الرذائل) وعلى الإنسان الحي الموقن أن يضع نصب عينيه وعلى الدوام حقيقة: أن كل ساعة قادمة ربما كانت ساعته الأخيرة، لذلك عليه أن يبذل أقصى ما يستطيع من الجهد لتحقيق أسمى الطموحات، فالعمل يغذي النفوس الأبية والشريفة، لأن قيمة الأشياء تقاس عادة بمقدار ما تبذل لها من الجهود النوعية؛ ولكن لا تدرك المعالي إلا بشق الأنفس وتثبت النتائج الصالحة بالأعمال.

إن المقدمات الصحيحة توصل دائما إلى نتيجة واحدة صحيحة، ويلتقي عليها الأخيار، بينما المقدمات الخطأ توصل دائما إلى نتائج عديدة وكلها خطأ ويختلف عليها المتخلفون! فالسفينة التي تفقد الاتجاه الصحيح تصبح جميع الاتجاهات بالنسبة لها خطأ؛ والواقع يؤكد أن العبقرية كلها تتجلى عند صناعة أو بولادة السؤال المنطقي والصحيح، وفي المبادرة إلى طرح السؤال الأساسي للمشكلة، وبعد ذلك فإن الجواب سيأتي في جميع الحالات؛ إن من المذهل أحيانا التفكير في أوضاع البلاد العربية خصوصا إذا علمنا ان (مصر) مثلا قد بدأت بتشكيل الدولة مطلع القرن التاسع عشر وأنها استقلت 1952 ومع ذلك فإننا نلاحظ أن حصيلة نشاطها "صفر" إن لم نقل أنها تحت الصفر وهي تحتاج دائماً لأن تبدأ من جديد!

بينما (تركيا) أو (إيران) مثلا، وخلال فترة قياسية وبفضل التخطيط الوطني والرغبة الجماعية بالنهوض، أصبحت كل واحدة منها دفاعا عن حقها وعن سياستها تقارع أمريكا وباقي الدول الكبرى0، بينما في الدول العربية المحصلة دائما صفر وتحت الصفر، فلماذا تمارس في الدول العربية سياسة التجريف والتعقيم والمحو والقضاء على كل بادرة إيجابية؟

أن كل لحظة (ديالكتيكيـــة) تتضـــمن الماضي كله وشـــيئاً جديـــداً، فالجديد الـــذي نمتلكه يرتكز إذن، إلى جملة الماضي وما كان لنا أن نمتلكه لو لم نمتلك هـذا الماضي كلـه، كما أننا لا نستطيع أن نصل إلى الدورة الحلزونية الأخـيرة إذا لم نعـبر الـدورات السـابقة لها وكـذلك الديمومة (البرغسـونية) فإنها تتطور محتفظـةً بالماضي كله على شـكل ذاكـرة، وكل لحظة جديدة تكتسبها هذه الديمومة فإنها تنضافُ إلى جملة الماضي وتصبح وإياه شيئاً واحداً، فالماضي إذن يظل حياً في الـذاكرة وهي تنمو باسـتمرار مغتنيه باللحظـات الجديـدة، إنها قـوام شخصيتنا وأساس استمرار شعورنا بذاتنا، شعورنا بهويتنا.

النمو (الـــديالكتيكي) وكـــذلك نمو الديمومة ليس نمـــواً يتساقط فيه القديم ليفسح المكان للجديد كما يحدث في نمو النبـــات مثلاً، ولكنه أقـــرب إلى النمو النفسي حيث تـــتراكم الخبرات فلا يضيع منها شـيء أبـداً، لتؤلف كلاً تركيبيـاً واحـداً يكـون قَـوَامَ شخصـية الفـرد وهو أيضـاً شـديد الشـبه بسـياق المعرفة التحليلي التركيـــبي الـــذي ذكرنـــاه حيث تتـــوالى التركيبات المرحليـة، كل منها أعلى من سـابقه وأشد تعقيـداً، اذ يتضـمن السـابق وشـيئاً جديـداً، النمو (الـديالكتيكي) شـبيه بنمو الصوفي الذي يعـبر المقامـات، فلا ينتقل إلى مقـام قبل أن يجتاز سابقه، فكأن كل مقـام يتضـمن المقامـات السـابقة جميعـاً، والصـوفي لا يعـبر هـذه المقامـات كما نعـبر مراحل الطريق دون أن تتغير بهـا، ولكن كل مقـام منها بمثابة مرحلة من مراحل نموه الذاتي، ففي كل مقـام يتخلص الصـوفي من قيد جديد ويغتني بأحوال ورؤى جديدة، تنضـاف إلى ما امتلكه في المقامات السابقة، وجملة هذه المكاسب المحصلة تؤلف قـوام شخصـية الصـوفي، وهكـذا فقولنا بـأن الإنسـان سـياق زمـاني في جـوهره يعـني أن وجـود الانسـان منـدمج بـالزمن بحيث تقابل كل لحظة زمانية مرتبـةً وجودية أعلى وأغـنى من المراتب السابقة وتتضمنها جميعاً[1].

الإنسـان الـذكي: هـو القـادر على إعمـال مواهبـه العقليـة واستخدام خبرته المكتسـبة؛ والاسـتدلال لإيجـاد ووضـع الحلـول المنطقيَّة والمناســبة بشــكل صــائب وســريع للمشــكلات والصعوبات التي تصادفه في حياته الخاصة والعامـة والاسـتجابة والتفاعـل مـع البيئة المحيطـة بـه، وأبسـط مـا يتطلبـه الـذكاء التحدث باللغة الطبيعيّة والتفهُّم لما يُسـمع من الحـديث والنظـر إلى الأشـياء وأشـكالها والتعـرف عليهـا والتمييـز بينهـا، والقـدرة على الاسـترجاع والتـذكر والتفكـر والترجمـة من لغـة إلى لغـة

[1] (?) نحو حضارة جديدة، أحمد حيدر دار الفكر 1968.

واســتخدام الخــبرة المكتســبة ووظــائف المــيزان العقليــة والاحساس وذلـك لاتخـاذ القـرار المناسـب حيـال أمـرٍ مـا، وقـد اطلقت على الإنسان الذكي الكثير من الصفات مثـل ذو الخـبرة والمتميز والماهر والداهية وذو الفراسة وغيره. وعصراً ينبع منــه ويتلاءم معه، ووجهةً وملامح خاصة، إذ لا يمكن أخذ فكرٍ ما لأمــة ما ليحلَّ بأرضٍ غريبة وبعيدة وبأسلوب المقايضة والتعويض، بــل يجب أن ينبــعَ الفكر - حــتى يكــون مجــدياً ومفيــداً - من قــاع المجتمع ومن أعماق أعماقـه ليلامس جـوهر مشـكلاته وهمومـه ومعاناته[1]، وهــل يســتطيع (الخــاوي) الاعتمــاد على الآخــرين ليفكروا عنه؟ وهل تنجح هذه الحالات في تحقيق المطلوب، هل قـام ويقـوم البعض من القيـاديين والاداريين والزعمـاء ورجـال الدين العرب، أو هل يقومـون فعلاً بتوظيـف واسـتئجار مفكـرين وخبراء من الدول الأخرى للاستفادة من أفكارهم وخبراتهم؟ في حين أنَّ هؤلاء الزعمـاء والقـادة والإداريين لم يكن لـديهم أفكـار أصلاً؛ ولكنهم عبارة عن صوت وصورة ليس إلا![2].

كذلك أُحيط بالعرب المسلمين في نهاية القرن العشرين، من فــرَّ منهم من أسر الجمــود في الماضي ليقع فريسة في أحضان الحديث المستحدث التافه المتفِّه الخـاوي، وليتحولـوا فيه إلى عبيد لغرائــزهم الــتي أُطلقت قصــداً وتفلتتْ عمــداً، وفي كل اتجـــــاه؛ من خلال الإعلام والدعاية اليهودية الطاغية والمســلطة على العــرب المســلمين، لإهلاكهم وإغــراقهم ووضــعهم في الاســتهلاك والعَــوَز والحاجة الملِحّة الدائمــة واسـتمرار الاحتيـاج والعجـز، بعد أن مورست عليهم ضـروب الحصار المصنَّع، والحرمان المصنَّع والتجويع المصنَّع والحروب المصنّعة، حتى صار، على أثره، العـرب المسـلمون في جميع

1 (?) (لن أقصَّ قدمي على قدر الحذاء الروسي) هـذا قـول مشـهور (لمـاو تسي تنـغ) زعيم الثـورة الصـينيّة، لا يـزال مـاثلاً للمفكـرين الثـوريين في العــالم وهو معبِّر، وذلك حينما طُــولِبَ بتطــبيق النظرية الســوفيتية في الصين.

2 (?) مـرة سـألني أحد أصـحاب الـرتب العالية وكـان يريد الاطمئنـان عن أحوالي كباحث فقير على باب الله، على اعتبـار انـني وحسب رأييه أقحم نفسي في البحث غير المجـدي، وكـذلك فإنه كـان يريد أن يسـتفهم مـني عن أحـوال سـوق الكِتـاب، فاسـتطردتُ في الجـواب وقلت له أنـني في الواقع قد لا حظت أن الفقــراء في البلاد العربية هم الــذين يُقْبِلُــوَنَ على شراء الكتب في المكتبات ومعـارض الكتب، أكـثر بكثـير من الأغنيـاء وأن الكتب في البلاد العربية تباع في المناطق الشـعبية وأن ليس في منـاطق الأغنياء مكتبات أساسـاً، وأن أصحاب الأمـوال والأغنيـاء العـرب نـادراً ما يفكرون في شراء كتاب، أو يهتمون أو يأبهون للكِتاب أو الكُتّاب؛ فأجـابني جواباً ما كنت لأتوقعه من مثله أبداً وقال ولماذا يقوم الغنيُّ بشراء كتـاب ويُشـغلُ نفسه ويتعبها بقراءته والتفكـير بما فيـه؟ ها إن الغـني وصـاحب السلطة من الأفضل له أن يشتري الكـاتب ذاته وأن يوظفه عنـده بـراتب ويجعل هذا الكاتب يفكر عنه!

معـــاطنهم، يـــأكلون الحنظـــل، ويشـــربون المـــاء العَكـــر، فيستطعمون طعم العسل!

لذلك فإنّ المطلوب من البـاحثين العـرب المسـلمين الآن أن يتحـــرروا من العبودية للنصـــوص القديمة والحديثة على السـواء؛ وصـار المطلـوب منهم أيضـاً إعمـال العقل وتحرير الفهم ورفع مســـتوى الـــوعي، وتعميم وتعميق المنطـــق، وتطبيقه على كلٍ من النصـوص القديمة والحديثـة، إن البعضَ ممن يرفضون القديم ما يلبثـوا أن يقعـوا فريسة في أحضـان الحديث؛ وربما كان الحديث من صـنع اليهـود أيضـاً؛ إن رئيس مجلس كتابة التاريخ العالمي، يهودي!

كمـا أنـه يجب على المـؤمن أن يـؤمن؛ بجمـاع فكـره وعقلـه وقلبه، وأن يمارس بسلوكه هذا الإيمـان، أداءً إيجابيـاً بنَّاءً، متوجـاً بالبذلِ والعطاءِ، فمتى سيدرك العـرب المسـلمون، الـذين أغـرب بهم، أنه لا قيمة البتَّة لإنسان العيش، وأن القيمة كل القيمـة عنـد الله سبحانه وتعالى لإنسـان القضـايا العادلـة والسـامية والنبيلـة؟ فكيف سيذهب العرب إلى مجابهة أعدائهم، قبل اكتشافهم وقبـل معرفتهم لذاتهم؟ كيف سـيذهب العـرب لمجابهـة اليهـود دون أن يقوموا أو قبل أن يقوموا أولاً بمحاولة اخـتراق اليهـود أو بمحاولـة تفكيك اليهود، لقد قام اليهود باختراق وتفكيك العرب والمسـلمين فعلاً ومنـذ قـرون؛ فمـتى ستصـبح القـدرة على الفهم والـوعي والإدراك والرصـيد من الإيمـان العميـق والقيم النبيلـة السـامية والمثل العليا؟

مـتى ستصـبح هي المحـددات الأساسـية للـزواج العـربي الإسلامي، واختيار الشريك في الزواج العربي الإسلامي، متى سـيدرك الشـباب العـربي الإسـلامي، أن الجهل يمكن التغلب عليه دائمـاً، عنـدما تتـوفر لـدينا إرادة المعرفـة، وأن لذائذ العقول باقية، وأنّ لذائذ القلوب باقية أيضاً، أما لذائذ الحواس فســرعان ما تمضـي، وأن عليهم أن لا يضـيِّعوا الحكمة بين الشباب والجمال، وأنَّ عليهم أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم وأن يعلموا أن الفرصة تفضل دائماً العقل الذي يكـون دائمـاً على استعداد... متى سيعود العرب المسلمون إلى إرضـاع أبنـائهم وبنـاتهم مبـادئ الإيمـان بالله سـبحانه وتعـالى، والمـروءة والشرف والمجد، والروح الوطنية العالية مع الحليب؟

مـتى سـيعود العـرب المسـلمون ليعتقـدوا أن الطفل من أطفـــالهم إذا لم يكن يحمل منذ الطفولة مبـــادئ الشـــهامة والنخـوة والخـير والعـدل والاسـتعداد للتفكـير بحرية وحب الـوطن والـدفاع عنه والـذود عن الحرمـات والمقدسـات، كل ذلك بعد الإيمان بالله الواحد، أنه إذا لم يكن كذلك، فهو طفلٌ

خاسر؛ ليس له حـقٌ في شـرب المـاء، ولا في تنفس الهـواء؛ وذلك بغض النظر عن التشويه الحاصل، وعلى الـرغم من كل الـتردي وعلى الـرغم من كل الانحـراف المعمم الآن، ومـتى سـيتعلم الأطفـال العـرب أن العلم الكثـير يقربنا من الله سبحانه وتعـالى، وأن الفكـرة الجديـدة الصـحيحة لا يعوقها إلا الجهل الشـديد، وأن التفكـير الخلاّق يتطلب خفـوت الصـوت وسـكون أعصـابٍ وهـدوء، وأن الشـخص الـذي يصـغي جيـداً يسـتطيع أن يفكرً جيـداً، وأن المسـائل الهامة الـتي لا نعـرف عنها الكثـير؛ هي تلك الـتي يجب أن نشـبعها درسـاً، وأنّ علينا ان لا نضيِّع أوقاتنا في مناقشة المسـائل التافهـة، وأن عبقرية الإيمـان بحاجة دائمة إلى جـرأة وإقـدام، وأنَّ عبقرية السـؤال هي أهم بكثير من عبقرية الجواب!

فـإلى أن يصل العـرب المسـلمون، بأجيـالهم اللاحقة إلى هـذا المسـتوى الرفيع من الفهم والـوعي والحضـور والـذكاء العميق، الهبة التي يعطيها الله سـبحانه وتعـالى للأصـفياء من عباده المؤمنين، فإنني أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يهدينا سواء السبيل والحمد لله رب العالمين.

والإنسان المقهور والمُسَـخَّر والمُتْعَبْ والـرازح تحت وطـأة الفقر والخوف والحرمان والعَوَز الشـديد غـير قـادرٍ عـادةً على أنتـاج الفكر الحقيقي المنتج؛ وهو لا ولن يُنتج فكـراً متكـاملاً وحقيقيّاً أبداً، وإنما نُتَف متناثرة غير ناجعة ولا مجدية، أو ثرثـرة فارغـة، ويغـرق بالقواعد الشـكلانية ويُمضي عمـره في دهـاليز الفلسفة وزواريب وقواعد الإملاء والنحو والصـرف والقـواميس والمعاجم، مبتعداً أو متخلياً عن المضمون (الفكـر)، إنَّ السـمة الاساسـية للمفكر هي أنه لا يقف بعقله عند طبيعة الحـدث ولكنه يبادر لتفحُّصِ أسبابه ويدرس ويتأمل الأشياء بذاتها.

كـذلك ما يعانيه الإنسـان من حـالات الضـغط والتفكـير المذعور والمتشائم والخـوف السياسي والاجتمـاعي، المـادي والمعنـوي؛ فـإن له الأثر البـالغ في انكفـاء الأفكـار الجديـدة ولجمها، ويجعلنا غـير قـادرين على اسـتقبال الأفكـار الجديـدة البنـاءة، بل ونـدرتها وانعـدامها في المجتمع وعـادةً ما تهـاجر العقول إلى ما وراء البحار، وتصبح الحيـاة برمتها في المجتمع الـذي يعـاني من أشـكال وأنـواع القمع مجـرد اجـترار وتكـرار ليس إلا، ما يسـتدعي وحـتى يكـون هنالك فكر حقيقي - أن تُعطى الحصـانة والكفالة والحرية كاملـةً غـير منقوصة لكل مفكـرٍ ايجـابيٍ مبـدع في المجتمع[1]، إنما ليس بطريقة تفلت

1 (?) لأنَّ (المفكـر) أهم بكثـير من الدبلوماسي والـذي عـادة ما تكفله السلطات في جميع الـدول وتكفل حريته وحركته وتعطيه الحصـانة، وفي

فيها الأمـور وتهـدر على مزابل الانحطـاط والدونية تحت حجج واهية غير منتجة ولا مفيدة.

إنَّ من آليـات التفكـير الإيجـابي إلفعّـال؛ أو من أولويـات العمل به (صـفاته الفنيّة والتعبويّـة) أنه ينسق بدايـةً الأفكـار تنسيقاً ويرتبها ترتيباً، وليس فيه اعتباطاً ولا فوضى ولا تراخي ولاخمول، وهو ينظر إلى المتماثلات من القضايا والأمور بعقله ويقيم بينها ما يمكن أن نسـميه القيـاس، ففي الحكم العقلي إنَّ تـذوق ذرة تغنينا عن أكل قنطـار من الملح؛ ومن واحـدهم تعرفهم جميعاً، (إنَّ اللبيب من الإشارة يفهمُ)!

بل إن الموت والقتل الحقيقي يكـون في ممارسة الامتهـان والتجهيل عند الإنسـان الفـرد وفي المجتمـع، وطمس المعـالم وإغلاق المنافـذ، وسجنها وراء الحجب وبث القناعـات الفاسـدة والعقائد المبنية على الخرافـة، إن المـوت الحقيقي إنما يكـون بممارسة الاحتيـال على الأفـراد والشـعوب والأمم والأجيـال، ومنعها وصـدها وإيقـاف تقـدمها والممارسة عليها من أنـواع السـحر الأسـود والأحمر؛ من أجل نهبها وإبقائها خـارج الـزمن، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا النُّفُـوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا المَـوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) ﴾ [التكوير: 7 ـ 8]، إنها النفس الإنسانية، التي يجب علينا تكريمها والعمل على إحيائها، وليس قبرها في الحياة!

لأنَّ النفس وعاء الأعمال، إنها تراكم أعمال الإنسان، فمن طبيعة أعماله تنشأ نفسـه، ولـذلك كـان شـرط النفس وجـود العقل (الميزان)، ويمكننا القول أيضاً بأنَّ انتفـاء وجـود العقل ينفي وجـود النفس والعكس صـحيح، من ههنا فإنه لا نفسَ لدى الحيوان وبالتالي فإن الحيوان غير مسؤول.

والواقع فإنَّ إنسانية الإنسان في ما يخلِّفه هـذا الإنسـان من أثـر، وفي مـدى الفـارق بين أثـره وأثر الحيـوان، مـدى الإيجابية والتوجه والاتجاه الإيجابي، إنَّ مستوى التفكير منـوطٌ بالمستوى الحضـاري، فليس للشـعوب المتخلفة تفكـير أو أي نتائج فكريّة ايجابية، والتفكير دائماً عند أعتاب القيم والمبادئ والمثل البنّاءةَ.

فالمفكر لا يخاف أبـداً وهو المبـادر، والفائـدة الأساسـية التي يجب على الإنسان العاقل العمل عليها هي (الفكـر)، لأنَّ كل ما عداها في الحيـاة هو من نتائجها ومجـال من مجالاتهـا،

الـــدول الحضـــارية المتقدمة عـــادةً ما يكفلـــون المفكـــرين من جميع الاختصاصات ويمنحوهم الحصانة، مثل كل المسـؤولين وأصـحاب القـدرة على اتخـاذ القـرارات الحاسـمة ويعطـونهم أيضـاً حسـابات مفتوحة في البنـوك ؛ وتكـون في خـدمتهم هيئـات البحث العلمي والجامعـات ومراكز الأبحاث، مثل الكثير من الدول العربية!.

الزراعة والصناعة والتجارة والاقتصـاد والخـدمات وغيرها كلها من نتائج الفكرة، فعلى العقلاء إعمال العقل وانتاج الفكر.

فلمصلحة من تُشنُّ أنواع الحروب على العرب المسلمين وتحاك عليهم المؤامرات من كل حدب وصـوب؟ ولمـاذا تقف دول العـالم في هـذا العصر الـرديء وتشـترك في مـؤامرة واسعة ضد العرب المسـلمين؟ مـاذا فعل العـرب المسـلمون في الماضي (في صـدر الإسـلام وإلى نهاية الدولة الأمويـة) الذين عندما تحرروا من القيود، هَبُّوا وانطلقـوا لتعليم شـعوب العالم المعنى الحقيقي للحرية، ولتحرير شعوب العالم شـرقا وغربا من ربقة العبودية لغير الله؟

إن التفكـير عمليـةٌ فيها ثبـات على الحق ودفاعـاً عن الـواجب، وتنطـوي على وجـود غاية يتـوجب اسـتمرار العمل للوصـول إليهـا، وفيه تعبـيرٌ عن الضـمني ونشـرٍ لـه، إنه بيـان للحق وإعلانٌ للواجب، ويُعَلِّمُ الإرادة، وهو كُلِّيٌ يوصل الحاضر بالماضي والخلف بالسـلف، عن طريق المنطـق، دون اهمـالٍ أو تفريـط، وهو أساسـاً فـرض عينٍ على كل عـربي مسـلمٍ صغيراً كان أو كبيراً فـإنَّ عليه أن يفكـر، وليس فـرض كفايـةً كما يروجون، ولا يجزئ أحدٌ عن احدٍ في واجب التفكـير أبـداً، في حالة الفرد أو في حالة المجتمع.

فليس هنالك مجتمعـات مفكـرة أو لـديها قـدرة على التفكير، وأخرى غير مفكرة أو ليس لديها قدرة على التفكـير، ليأتِي (الأمريكان) فيفكرون عنهـا؛ ولكنَّه (التفكـير)يحتـاج إلى مولِّد ومحـرِّض وبيئة حاضـنة خاصة ومناسـبة وموائمـة، وله أبعـاد وظـروف وفـرص وأحـايين، وعلاقـات وشـروط مثل الاستقرار والنظافة والنظام والحزم والعـزم، إن الفكر وثـوبٌ إلى الأمام وفيه نـور من اللـه، قـال تعـالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 122][1].

هذا وإنَّ للفكر والتفكُّر باستمرار غَرَضٌ وغاية، وهو دؤوبٌ في البحث عن الحلـول للقضـايا والمشـكلات والأزمـات الـتي تواجـه الإنسان كفرد وكمجتمع، لأنَّ الفكر في ركابه الحق، والفكر سـلاح الحق والحق رائده، ومن أهم مهماته (الفكر) إزالة حالة أو حالات الالتباس والتعمية وشرح وتوضيح الأمـور والأحـداث والدلالـة على الحق وبيانـه، ويـرمي للوصـول إلى النصـر والنجـاح والخلاص من الوضـع الـراهن وتخطيـه وتحقيـق الانفراجـات، وللتخلص من السلبيات والانتقال والارتقاء إلى الأفضل، لأنَّ الالتباس إذا حـدث! فإنهُ يؤدي إلى عدم فقه الأشـياء أو الأحـداث من حولنـا، ويحصـل

فيه انسدادٌ وتعميةٌ على الحواس تسبب الضياع وعـدم الاسـتقرار وعدم فهم حقيقة الأمور؛ وبالتالي ففيه فقـدانٌ للطريـق الصـحيح أو المنهج الواضح، وبعدها يقع الإنسان الفرد والمجتمع في الجدل العقيم[1].

يجب ألا نتقوقع في مكاننا وألا نبقى على نفس الأسـلوب غـير المجـدي، وإنما علينا أن نتطـور باسـتمرار وأن نشـقَّ الطريق من جديد، ومنذ الأزل كـان الفكر الإنسـاني المسـتمد أساسـاً من الـدين الحـنيف يسـعى للرزانة والوقـار وحسن الجوار والحكمة وهو يدعو دائماً للعمل بجدٍّ ونشاط وأسـلوب جميل، وإلى الشرف مع عدم أذيّة الغير وإعطـاء كل ذي حـقٍ حقه، وهو يشكل الطليعة الرائدة لكل تقدم أو تطور لكل أمةٍ ناهضة وتعمل على النهـوض، إنَّ المفكر يفكر على مهل بينما ينطلق بسرعة إلى العمل.

في هـذه الحالة لا يمكن تخيل الخلاص للفـرد والمجتمع دون وجـود الفكر الحر والمنطلـق، لأنَّ فيه وفيه فقط طـوق النجاة، وقد تشعبت طرق التفكـير لـدى الأمم وتنـوعت نتيجة تشعب مجالات الحياة، وأصبحت الأفكار اختصاصات، وصـارت للفكر مـدارس، مثل الفكر الاقتصـادي والفكر الاجتمـاعي والفكر السياسي والفكر التـاريخي والفكر الفـني والفكر النفسي وغيره.

فـالفكر هو آلية عمل العقل مع نتائجه المسـجلة الشـفاهيّة والتحريريّـة، و(العقل من القل أي الربط والتمكين والقفل والتثـبيت) وفيه عبـور من حـالٍ إلى حـال، والعقل بيئة الفكر ومجاله الحيوي وآليته هي آليـاتٍ الفكر ومصـادره، وفيه تتكـون الأفكـار متدفقة سـيالة، ويجب أن ينعكس الفكر مباشـرة على السـلوك، ويجب أن لا يبقى الفكر نظريـاً وحبيسـاً في أدراج البـاطن؛ وإلا كيف يكـون الاخـتراع والابتكـار والإبـداع ومن ثمَّ التطور[2]، إنَّ المُفكّر الحقيقي في أي مجتمع هو صوت الشـعب

[1] (?) ليس هنالك شيئاً اسـمه (أن نحصل على كل شـيء دون أن نقـدّم أيَّ شيء)، إذ لا يمكن أن نحصل على أي شيء دون مقابـل، فالشـفاء الأكيد في الإيمان الأكيد، وذلك عنـدما يـدرك الإنسـان نفسه عنـدها يسـتطيع أن يفهم العـالم، لأنَّ المفكر العلمي لا يعتـبر الأشـياء الخارجية مسـببات، بل يـدرك أنها نتـائج؛ إنَّ زيـادة المعرفة يجب أن تُفضي إلى الإيمـان الحـق، المثابرة والعزيمة والثقة في النتيجة والنتائج الرائعة، يجب أن نبتهج لنجاح الأخوة والأصدقاء والأقرباء وأن نعتبره نجاحاً لنا، إذ لا بـدَّ أن يكـون العقل إنتاجياً وعملياته مثمرة، وإلا ضاعت الجهود سدىً.
ليس النضـال في بـذل الجهـود فحسـب، بل في صـحة المسـار وخيرية الطريـق، والقـدرة على تحقيق الأهـداف العظيمـة، وهـذا يتطلب الصـلة القوية بالله تعالى وتوفيقاً من لدنه .

[2] (?) وهناك مثال هام على ضرورة إعمال العقل في المنقولات مهما كانت وكـائنٌ من كـان ناقلهـا، وخصوصـاً كتب التفاسـير، وكتب الحـديث، وكتب

الحقيقي أو يجب أن يكـــون كـــذلك، ومن حيث المســـتوى الحضـاري وكما يكـون المفكـرون يكـون النـاس، ولكنّ الفكر الأكثر موضوعيّة وواقعيةً هو الأكثر استغناءً وبعداً عن الضــرورة والاضطرار؛ والمفكرون الحقيقيون لا يتصـارعون بل يتكـاملون، وليس هنالك صراعٌ فكري كما يروجون[1].

فالعقل للمـادي المحسـوس القـريب والمباشـر والتلقـائي، بينما الفكر للمفاهيم والمـدركات والمعنويـات البعيـدة والعاليـة غير الملوثة والمرفوعة عن الأنظار قـال تعـالى: ﴿ لَـهُ مُعَقِّبَـاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ يَحْفَظُونَـهُ مِنْ أَمْـرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ

التاريخ؛ فكل كتاب ما عـدا كتاب الله سـبحانه وتعـالى، الـذي يصـدر عنه العلم والمنطق والحكمـة، كـلُ كتـابٍ غـيره، المفـروض أن يخضع للعقل والمنطق.

حدَّث الـدكتور محمد راتب النابلسي الداعية الإسـلامي فقـال: كنت مـرة في (واشنطن) وهناك قمت بزيارةٍ لأكـبر المكتبـات هنـاك وشـاهدت فيها أهمَّ وأحدث أطلس في العالم، هذا الأطلس كان مكتوبـاً في مقدمته أنـهُ أشــرف على إعــداده 72 عالمــاً من مختلف الاختصاصــات، جغرافيا وطبوغرافيا ومناخ وبيئة وطبيعية وآثار وتاريخ ونبات وحيوان وغيرها، وفيه صـور فضـائية وطبيعية ملونـة، وفيهم أشـهر الرسـامين العـالميين، وقد أعجبت من جماله ورونقه وألوانه الطبيعية الرائعـة، لكنـني عنـدما فتحته وبحثت فيه عن مدينتي الحبيبة دمشق؛ لم أجـدها! وبعد تمحيص وتفـتيش وجدتها أخيراً على ساحل البحر تحت مدينة بيروت!! وتابع قائلاً: فإذا كـان العالم كله يُشيدُ بهذا الأطلس ويعتبره أصحَ كتاب... إلاَّ أنه بـالواقع، وعلى الواقع غير صحيح، وبالتالي فكل حديثٍ أو خـبر يخـالف الفطـرة السـليمة والعلم المـبين، فهو حـديثٌ أو خـبر غـير صـحيح كـائن من كـان راويه أو مصنفه أو محققه.

[1] (?) قال لي رجل دين مسيحي، تعـرفت عليه مـرة، وهو يحـاورني، فقـال هل تعلم أن كتـــاب إنجيل برنابـــا، هو ضد الإســـلام، أكـــثر مما هو ضد المســيحيين، قلت نعم أعــرف ذلك فقــال مندهشــاً تعــرف قلت نعم! وأردفت قائلاً وأعرف أكثر من ذلك، فأنا أعرف أنّ اليهـود عـادة يمولـوّن طباعته، ويعملون على توزيعه بالمجان! على العرب مسلمين ومسيحيين؛ قـال وكيف عـرفت ذلـك؟ قلت ألا تلاحظ كيف يؤكد الكتـاب على ألفـاظٍ محددة مثل أرض إسرائيل، وشعب إسـرائيل، بـدل أرض فلسـطين وبلادَ الشـام، وكيف يجعلـون السـيد المسـيح يخـاطب اليهـود مباشـرة! إنهم يربطون بين السيد المسيح واليهود! ويؤكدون على ذلك، علمـاً أن السـيد المسيح كان قبل اليهود بـآلاف السـنين! إن السـيد المسـيح عليه الصـلاة والسلام، بعث لبـني إسـرائيل، ولا علاقة لليهـود بالسـيد المسـيح مطلقـاً وأبـداً، بل هي كذبة يهوديـة، كـذبها اليهـود، وجنـدوا لها الكتب، والكتّـاب، وفتحت الكِتَابَ وأشرت إلى تلك المواضع وتناقضاتها الواضـحة، فمد رجل الدين المسيحي، مد يده وصافحني، وقال الواقع أنا أدَّرِسُ مادة اللاهــوت في جامعة كامبردج منذ مدة والحقيقة، إنني قرأت هـذا الكتـاب أكـثر من مـرة، ولم يخطر في بـالي ما تقولـه، وأظن أنه صـواب، وسـألني سـؤال جميل بقي في ذاكرتي، قال لي وهو يصـافحني،:ويـده في يـدي، إذا كـان لديك مئة دولار، وأنا كان لـدي مئة دولار، وتبادلنا فمن الـذي يـربح أكـثر؟ فقلت على الفور أبداً، ما أحد سيربح، فقال صـحيح؛ ولكن إذا كـان لـديك فكـرة، وأنا لـديّ فكـرة، وتبادلنا الأفكـار فمن الـذي سـيربح؟ فقلت على الفور نحن الاثنين سنربح معاً؛ فقال لي نعم، وشكرني وذهب.

مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ [الرعد: 11]

والجسم ظاهرٌ، بينما النفس مخبوءة ، وهي مطويٌ عليها، السجايا والأسحار. وتظهر آثارها وتُلحَظُ فيما يَنْتُجُ بالسلوك. ويدبر المدبرون والقدر يضحك. ولكن ليس من القوَّة التورط في الهوَّة. علماً أنه لا يوجد متغيرين في الكون إلا ويوجد بينهم علاقة.

قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر : 19]

فالنفس الموجودة أساساً في الداخل كامنةً في (الغرفة المظلمة)، تنتظر الضوء المحمل بالنور، ليوقظها ويحملها على التعبير والانجاز.

مفهوم الفكر[1]

يقول الفيلسوف ديكارت: (أنا أفكر إذاً أنا موجـود)، وهـذا يعــني أنَّ الإحســاس بــالوجود إنما مصــدره (التفكــير)، وأنَّ (التفكير) برهانٌ ودلالة على الوجود، وأن الوجود حقٌ مقــدس لذوي القدرة على التفكير، يجب تأمينه بالـدفاع عنه والحفـاظ عليــه، وبالتــالي ففي رأي (ديكــارت) من كــان لا يفكر أو لا يســتطيع التفكــير فحياته ليست مقدســة، أي أنَّ الإنســان الواعي المفكر الحر هو الهدف وهو غاية الغايات.

ولماذا الخوف إذا كـانت أفكـارك صـحيحة، وإذا كنت تفكر بشـكل صـحيح؟ ولأنَّ الفكر هو الـذي يخلق التطـورات ذاتهـا، وليس مجــرد تــأقلم مع تلك التطــورات؛ لــذلك فلا يمكن أن تفكر وأنت منغمسٌ في الخطأ والرزيلــــة، بينما يتم تبـــادل الأفكــار واغناؤهــا، والفكر ليس نقلاً ولا ترجمة ولكنه تطــوير وإبـداع، إنه يسـلط الأضـواء على جـوانب من الحيـاة لم يكن الإنسان يرها من قبل، فهو يؤسس للثقافة والحضــارة، لــذلك ولطالما أنه نتاج إنسـاني فهو عرضـةً للتقـادم كما أنه وسـيلة للتجديد، وقد يحيا ويدوم، وقد يمـوت وينـدثر، ولكن وعلى كل حال فإنه لا يمكن تحويل الأحمق إلى مُفكر أبداً.

(إن مصدر تطـور الوظـائف النفسـية العليا لـدى الأطفـال والناشئة إنما يتمثل تحديداً وعلمياً في امتلاك الإشـارات كلغة والكتابة والقراءة والعد والرسم وسواها واسـتيعاب العمليـات العقلية كالانتبـاه الإرادي والتـذكر المنطقي والتفكـير الكلامي والمفـاهيم، والعوامل الوراثيّة والمعتقـدات الموروثة والارادة؛ فهذه العمليات وتلك الإشارات الجمعيّة ستشكل الجزء الهـام من التراث الثقافي والفكري للمجتمع الذي بطبيعة الحـال هو خــارج الطفل وهــذا يعــني أن نشــوء الأشــكال الراقية من السـلوك التفكـيري مرهـونٌ بانتقـال هـذا الـتراث إلى الطفل والجيل بأكمله وحيازته لــه، ولــذلك تكتسب العملية التربوية أهميتها البالغة وذلك لدورها الحاسم في هذا المجال الثقــافي الطبيعي لذي يجري في بيئة طبيعيـة، إنَّ الثقـافي يـترافق مع العضوي[2].

هذا وتُعتـبر صـناعة (الفكر السـليم) من أشق الصـناعات، لأنها الأساس في بناء العقل الواعي في الأمة، وتعليم القـدرة

---

1 (?) وجــاء في القــاموس الفرنسي le Petit Larousse بــأن الفكر هو "القدرة على المقارنة والربط بين المعلومات".

2 (?) (تــاريخ تطــور الوظــائف النفســية العليــا) تــأليف ل.س، فيغو تسكي.ت:بدر الدين عامود. وزارة الثقافة دمشق 2009.

على التمييز[1] والقدرة على التفريق (التعقل والتفكير) بالطبع لن يكـــون واسع الانتشـــار ولكنه لفئة في المجتمع محـــددة ولـــديها القـــدرة، فالأمة حـــتى تنهض تحتـــاج على الـــدوام إلى النخبة أو الطليعة العلمية والثقافية والفكرية لتقـــود الـــوعي (التعقل والتفكـر)، لأنَّ المنهج الصـحيح في التفكـير هو الـذي يُمهد لوجـود منـاخ صـحي للإبـداع، ويتطلب معالجة الأمـراض المنتشرة وأساليبَ التفكير العوجاء؛

والحقيقة أنَّ اخطر الأخطـاء المنهجيّة في الـتي يمكن أن تعلق في التفكير، لهي أشدُّ فتكاً من الأخطـاء السـلوكيّة، لأنَّ الأولى هي الأسباب والثانية هي النتائج، والحـديث عن النتـائج يجب أن يكـون إلى جانبه حـديثٌ عن طريقة الاسـتعمال؛ وإلا فسـتكون الوصـفة غـير مجدية ولا منتجـة، وأن من الضـروري تعزيز موقع العقليّة العلميّة النقديّة في المجتمع (روح النقد الـــذاتي أو قبـــول النقـــد) ومكافحة الخرافة والاســتلاب، مع التسليم بصعوبة هذه المهمة المنطقية والموضوعية، إلا أنها لا يمكن إنجازها بعيـــداً عن الأخطـــاء، فـــإنَّ من الـــواجب حماية العقـــول من البرمجـــات والأحكـــام المســـبّقة، والعمل على أعلانية التفكير لدى الكبار والأطفال، فـالتفكير غـير المُعلن لا معنى له ولا أثر (إلا إذا كان استراتيجي وفي مراكز الأبحاث؛) والواقع فإنَّ عدم وعي الناس بالأخطاء الفكرية وعدم الانتبـاه إليها أو عـــدم المبـــالات بها هو الـــذي يبعـــدهم عن الشـــعور بالمسؤولية العامة تجاه الأخطاء والقضايا الكبرى معاً.

أما الفكر فهو عين الفقه والفعـــــل، وهو القـــــدرة على التفريق بين الحق والباطـــل، مبـــنيٌّ على تكـــرار الفـــكّ أي التحليل والتعامل مع كنـــه الأشـــياء والمعـــاني والأهـــداف والغايـات، ثم الربط والتـأليف والتكـوين والـولادة للجديـد، أي الابداع والتطوير والتحديث والتقدم إلى الأمام وتحقيق النصر، وليس فكراً ولا يُعدُّ فكراً البقاء أو المراوحة في المكـان! (إنَّ المراوحة في المكـان مجـرد ثرثـرة وكركـرة ولعي وتـرداد لمقـولات الآخـرين ومضـيعة للـوقت واجـترار ليس إلا) الفكر ليس خطفـاً من الماضي أو من الغـير من الأمم؛ ولكنَّ الفكر الحقيقي والأصـيل جهـودٌ تنبع من الـذات ودائمـاً تقـود إلى الفلاح وغايتها تحقيق النصـــر، إنه امتطـــاءٌ للأفكـــار في بحر الأفكـار الصـحيحة، ولأنه يعتمد على الفهم والـوعي والانتبـاه

[1] (?) التعليمـــات للجنـــود في دورات الصـــاعقة، أنه عند الاضـــطرار بإمكـــان الجنـــدي المتـــدرب أن يأكل كل ما يأكله الحمـــار؛ وأن لا يأكل كل ما يأكله الخروف أو البقرة، وذلك أن الحمار يميز النباتات السـامة عن غيرهـا، إنه لا يأكل النباتات السامة! بينما الخروف والبقرة قد تأكل النباتات السامة، فهي لا تميز في طعامها بين النباتات!

والشعور الذاتي، فبعد أن تذوب في بوتقته كل المعطيات بتنوع مصادرها وتعدد اتجاهاتها واختلاف مستوياتها، لكنها بالنتيجة تهدف إلى القوة وإحقاق الحق، كما أنه ذاتيُّ الدفع (بقوة الله تعالى) ومن منبعٍ خاص ليس ولا يقبل الادعاء.

ورد لفظ (فكر) في القرآن الكريم في مختلف الصيغ (19) تسعة عشر مرة، وجميعها كانت من خلال الحركة، وليس فيها تجريد كما طرحته الفلسفة الغربية؛ وكان دائماً مقرونة بالعمل الإنساني، (الإنسان) الذي سخر الله له ما في السماوات والأرض، قال تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [الجاثية: 13]

وربط القرآن الكريم بين مفهوم الفكر[1] ومفهوم (التقدير) وأنَّ الاسترشاد بـ(البيان) يُمكِّنُ من الوصول إلى التفكير الصحيح، الذي ينصُّ على وجوب البقاء في حالة الصحو وعدم الاقتراب من حالة السكر والغيبوبة، وأن الفكر موضوعه الأساسي هو (الحق)، وأنَّ (الحق) هو الجاذب الأساسي للتفكر، فالفكر الأساس أنَّ فيه ترفعٌ عن المباشريّة، وموضوعه خلق السماوات والأرض ويهدف إلى رفع المستوى من الدونيّة إلى أعلى علّيِّين، وفيه رفعٌ للحرج باتباع العرف الرباني، واتباع الأثر والمثال والسير على الطريق - طريق الأنبياء والرسل والصالحين - الذي ينهض ويرفع إلى الأعلى، وهو على عكس اتباع الهوى الذي فيه إستمرار التشاغل ويسبب الانشداد والالتصاق بالأرض، وفيه أيضاً نجاة من العذاب، أي أن فيه السمو وذلك عن طريق الموازنة العقلية بين العمى والبصر، وأنَّ الإبانة عكس ما هم عليه الكثير من الناس من الجنون أو الوهم وهم بظنون أنهم مصلحون؛ إنَّ الفكر الحقيقي[2] فيه محاولة تبصُّر واستكشاف

---

1 (?) الفكر (مفهوم مجرد) أو التفكير مجمل الأشكال والعمليات الذهنية التي يؤديها عقل (ذهن) الإنسان، (خلق نموذج) العالم الذي يعيش فيه، وبالتالي تمكنه من التعامل معه بفعالية أكبر لتحقيق أهدافه وخططه ورغباته وغاياته.
هناك العديد من المصطلحات المرتبطة بمفهوم الفكر: أهمها الإدراك، الوعي، شدة الإحساس، الفكر، الخيال، عملية التفكير تتضمن أيضا التعامل مع المعلومات، كما في حالة صياغتنا للمصطلحات، والإسهام في عملية حل المشكلات، والاستنتاج واتخاذ القرارات.
يعتبر التفكير أعلى الوظائف الإدراكية التي يندرج تحليلها وتحليل العمليات التي تسهم في التفكير ضمن إطار علم النفس الإدراكي cognitive psychology.
والارتقاء به من مستوى التبادل إلى مستوى التنسيق والمعرفة والتكامل.

2 (?) إنَّ الإنسان العربي والذي قد أحيط به بالأقمار الصناعيّة، تتنصَّتْ عليه، وتستعرض نفسها فوق فضائه بأجهزتها الدقيقة، تحسب عليه

النهاية قبل وقوعها من خلال تأويل الأحـــداث والملاحظــات والمعطيات العلمية، وبالتالي الاستنتاج واطلاق الأحكام، فالفكر يقتضي إدراك الآلية (الفطرة) التي فطر الله عليها هذا الكــون، والتي يعمل عليها هذا الكون، إنَّ الله سبحانه وتعالى خالق هـذا الكون وما فيه، وقد وضع لكل شـيءٍ فيه آليـةً يسـير عليهـا، مع رصد جميع الاحتمـالات الـتي يمكن أن يـذهب بهـا، لقد بثَّ فيه القـوانين الثابتة وهي في مـواده وأشـيائه موجـودة تسـير ذاتية الدفع تتوالى وتتحقق في صيرورة ومآلٍ لا مناص منها.

لــذلك على الإنســان المتفكر أن يُـدرك المجـال الحيــوي لنشــاطه، وهو يعمل وبين ناظريه (مفهــوم المــوت ومفهــوم الحيــــاة)[1] ومهمته أن يـــراقب ويُلاحظ بعيـــداً عن التخمين أو الرجم بالغيب بدون تبصُّر وتأكد من صحة المعطيات وبعيداً عن الأوضاع السلبية السالبة والفساد والافساد والكراهية في المجتمع (فالفكر مبني على الرحمة والتراحم بين النــاس) ثمَّ يستنتج الصيرورة التي تصنعها هذه القوانين ومسارها الحتمي (ذاتي الـدفع والتحقــق) السـاري في جميع الأحـوال وفي كل مكــان وزمــان، وينطبق على كل الموجـودات، عــالم الإنســان

انفاسه وتكشف تفكيره، وغالباً ما توجه هذا التفكير لتجميد أو تدمير وعيه وبحسب مصلحتها.

إن الحقيقة الـــتي لم تعد تقبل النقــاش هي أن الــدول الــتي تمتلك التكنولوجيا فهي تمتلك الوصاية على الأمم الأخـرى، بشـكلٍ أو بـآخر، إنها تقوم علناً بالغزو الثقافي وبمصطلح آخر العـدوان الثقـافي الـذي تصـعب مقاومته.

إنهم بهـذا الغـزو يمتطـون أدواتهم الاعلامية ثم يقتحمـون الحـدود الدولية ويتغلغلون مباشرةً في المنازل ويدخلون الادمغة والعقول دون اسـتئذان؛ ويعيـدون صـياغة الضـمائر ويطبعونها كما يرغبـون ويبـدلون النفـوس أي تبديل.

فأن يكون الغزو غزو جيوشٍ فمقاومته ممكنة، ولكن غـزو وسـائل الاعلام لم يعد الآن من يعتبره عدواً إلا ما ندر، ومن يتنطح للتصدي لهذا العـدوان فإنه يحتاج إلى مقدرة ومهارة كبيرتين.

[1] (?) إنَّ من يسمَّون بالموتى حقيقةً هم موجــودون بقربنا ويروننا من حيث لا نراهم؛ إذ لا بدَّ أن نكف عن الاعتقاد بأنهم موتى وغائبون، إنهم إذا كانوا صالحين في حياتهم فهم الآن في حالة أرقى، وإلا فلا، إنَّ موجـات الاذاعة والتلفزيون تملأ جو الغرفة الـتي نجلس فيهـا، ولكننا لا نسـتطيع رؤيتها أو سماعها دون أن يكون لدينا جهاز استقبال!

إنَّ البشر واقعون تحت تأثير تعويذةٍ مغلوطـةٍ، فيما يتعلق باعتقـادهم بشـأن (المــوت)، ولكننا عنــدما نتحــرر مما تــراكم ما تلبد على أعيننا من غبــار المعتقدات والأساطير الغـير دينية أساسـاً، وعـبر القـرون السـحيقة، عنـدها سـندرك أنَّ ثمة وجـوداً قريبـاً منَّا، وهو يتجـاوز الـوقت والمكـان اللـذين نعرفهما، وسنرى ونشـعر بوجـود أولئك الـذين أصـبحوا في عـالم الغيب في ذمة الله الكريم، فبينما الجسم يعـود إلى الـتراب، تصـبح (النفس) باقية بعد الموت، فالموت انبعاثٌ في عالم الغيب، ونحن نفقد الوعي في أثنـاء النـوم ونحن نسلم أمرنا لله تعـالى، إنما المطلـوب أن نكـون دائمـاً على اسـتعداد ومتــأهبون للمغــادرة وحقائبنا مملــوءة بالأعمــال الصــالحات والايجابية البنَّاءة.لكي ننال رضى الله تعالى.

الخـارجي وحـتى في أنفس النـاس(العـوالم الداخليـة) فـإن المـيزان المـنزل قـادر على فـرز الحق عن الباطل وهـذا هو محور عمل الفكر، وتلك القيم والمثل التي المودعة في أفئدة النـاس (المـودة والرحمـة) والموجـودة حـتى عند الحيوانـات؛ وعالم الحيوان وعالم النبـات كل شـيءٍ فيه يشـير ويؤكد ذلك وعـالم الجمـادات وحركـات الأجـرام والـذرات وتفاعلاتهـا، والمـنزَّل بعد ذلك من السـماء (من عـالم الغيب) مع الرسل والأنبياء وبالكتب والبينات (الآيات المرافقة) وبالتالي الوقـوف من مسارها الموقف الصحيح والايجابي (الصواب)، لا السلبي ولا الاعـتراض الخـاطئ، (الفكر الحقيقي يهـدف إلى النجـاة وإلى إنقـاذ النَـاس من السـقوط والهلاك، ولـذلك فهو مرتبط بالقيـــــام لله تعــــالى) لكي يتمكن بالفعل من التحكم بتلك القوانين وقيادتها قيادة صحيحة وإلا سقط بين عجلاتهـا! وذلك كما يحصل للعرب المسلمين في هـذه الأيـام. كـذلك ولكي لا يُعيد الانسان في كل مرة اختراع العجلة فإنَّ الحقـائق الكونية المنزلة في الكتاب العظيم (القـرآن) هي أهم مرشد وضـامنٍ للفكر المنتج مباشرة، وهي تتطلب قوة وجهداً وعزيمة أقـوى من الجبال، وتبصراً ووعياً دؤوباً، لكنَّ الإنسان للأسف الشديد وتحت غواية الشيطان يمل إلى الانحراف، ولذلك فهو يصادف في النهايات الفشل.

إنَّ فهم هــذه الآلية الذاتية المودعة والمبثوثة في نـــوحي هــذا الكــون أي التفكر (وهي أمــورٌ تتحقق باســتمرار، على سطح الأرض وفي قيعان المحيطات وعنان السـماء، إنها غـير منظورة، ولكنها منزَّلة وتُدرك فكرياً بإعمـال العقل ولكن أين المتفكـرون؟) فـالتفكر هو المفتـاح الـذي يهب بعض النـاس انتصاراً على مشاكلهم وتوفيقاً وقـدرة هائلة على التـأقلم مع الوقـائع، ويـدفعهم في مـواقفهم المعلنة وسـلوكهم المـدرك، ويمكنهم من التحقق والتحقيق على أرض الواقــع، بينما يبـدو أنَّ العكس صـــحيح تمامـــاً بحيث أنَّ الفشل - كل الفشل - سيصادف الأناس الذين يجهلون طبيعة الأشـياء ويتعـامون عن الآيات والأحداث العلمية الطبيعيــة؛ المبثوثة في كل ناحية من نواحي هذا الكون وهذه الحيـاة، وربما كـانت إحـدى السـمات الرئيسية للتفكير في الحياة، أنه يبدو لنا دائماً تحت سيطرتنا؛ بمعـنى أننا على الـدوام أحـرار في استحضـار صـورة العـالم الذي نعيشه، أو حتى أي عالمٍ آخر نتصـوره من نسـيج خيالنـا، ونحن إنما نجـــرب عقليـــاً، مســـارات مختلفة وعديـــدة من الإجــراءات، دون أن نلــزم أنفســنا بعمل حقيقي أي (دون أي مسؤولية)، لقد تمت البرهنة على ان هـذه السـمة ذاتها تملك من القدرة شيء غير محدود على استعراض الأعمال بصــورة

رمزية أكثر من كونها واقعية... إنها هي ما يكوِّن أو ما يؤسس فعلاً للتفكير عند الناس، وبنفس الطريقة فإن بناء القناطر أو الجسور عقلياً (من مكوِّن أو من تصوّر إلى مكوِّن أو تصوّر آخر) فإنه يبدع نماذج عديدة، ليجرِّب عليها الضغط والشد دون تكبد عناء بناء أو إيجاد قناطر أو جسور مادية بالحجم الحقيقي في كل مرة نقوم بها بالتجريب.

إننا ندرك أن هنالك أوقاتاً يبدو فيها أنَّ الأفكار تتسيّد فيها؛ وعلى الرغم من ذلك فإنه يبدو شيّقاً التفكير، إلا أنه غالباً ما يؤخذ التفكّر على أنه دلالة على الإبداع، فالإبداع يعتمد على التداعي الحر غير الواعي الذي يسمح باختراق الضوابط الرسمية للتفكير المنطقي[1]، لكن حتى لو حددنا أنفسنا داخل إطار حل المسائل، فإنه سيبقى أمامنا صعوبة تحديد السلوك المتصل بالمسائل، فنحن نبدأ التفكير عندما تكون الاستجابة التي سبق تعلمها بوضوح، ليست مناسبة، لأنه عندئذ فقط يكون على المرء أن يقدم حلاً جديداً، وعلى الصعيد الآخر، ليس هناك شك في أنه حتى في حالة مواجهة أكثر المشاكل خداعاً، فإننا نستفيد من الطرق والاستراتيجيات التي اثبتت صلاحيتها في الواقع العملي اكثر البدء من البداية الأولى في كل مرة وما يتصل بقضيتنا هنا هو العلاقة ما بين التفكير الحالي وخبرة الماضي.

لكن يبدو من المستحسن القول بأن للذكاء علاقة بالقدرة على تكييف خبرة الماضي لمجابهة حل نطاق واسع من المسائل، ولسوء الحظ، فإنَّ اختبارات الذكاء لم يكتب لها

---

1 (?) وفي كُتُبِ الاقتصاد توجد تجربة رائعة غالباً ما يستشهدون بها للتدليل على أهمية ودور (التفكير) في رفع السوية، وكمثال على دور (التفكير الفعال) في استنهاض الهمم لدى العمال في المصانع والشركات، وفي إشعال فتيل الثورة لدى النائمين وهي أن شركة كبرى لصناعة السيارات، وبسبب الظروف الاقتصادية العالمية من جهة، وترهل عمالها وموظفيها من جهة ثانية، قد شارفت على الانهيار، وكادت أن تعلن إفلاسها، وفي تلك الأثناء حدث صدفةً أن وصل إلى مجلس إدارتها أحد الشباب الاقتصاديين الجدد والطموحين، فطرأت على باله فكرة جديدة وقد عمل على تنفيذها مباشرة، فماذا حدث؟
لقد أمر بكتابة عبارة واحدة فقط وهي: ((فكر)) وطبعها كلوحة آلاف النسخ ووزعها في طريق العمال والموظفين التابعين لتلك الشركة، في المكاتب والورش ووسائل النقل وعلى كل آلة في المصنع، وفي كل زاوية وعلى كل منحنى كتب عبارة: (فكر)، والشيء الغريب الذي حدث، هو أن العمال والموظفين اكتشفوا أنهم لم يفكروا سابقاً؛ وأنهم لم يكونوا متعودين على التفكير اساساً! وقد قرروا أن يبدؤوا التفكير، وأن يبذلوا قصارى جهدهم، وأن يعملوا المستحيل من أجل انجاح العمل! لقد أصبحوا جميعهم يرغبون بالإبداع والعطاء، ولم تمضي فترة بعد تحسن الظروف الاقتصادية العالمية، إلا وقد أصبحت تلك الشركة في القمة من حيث الانتاج والجودة، كان هذا بفضل التفكير.

النجاح دائماً في التنبؤ بأعلى القدرات الابداعيــة، لقد رؤي أن اختبــارات الــذكاء التقليديـــة الــتي تقيس التفكـــير المتعقِّل المنطقي التجمعي فقـــط، في الـــوقت الـــذي تكـــون في الارتباطات المتشعبة المدركة بداهياً هي المسؤولة عن الفكر الخلّاق، فمن المفــترض أن كلاً من ذوي التفكــير التجميعي، والمتشـعب يقومــون بــالتفكير في التيــار الجــاري لفكــرهم الواعي، والفرق يكمن في حقيقته أنَّ ذا التفكير التجميعي قد يتجول باحثاً في ذاكرته كي يستحضر إلى وعيه عـادات سـبق اكتسابها، بينما ذو التفكير المتشـعِّب يميل بقـدرٍ أكـبر إلى إن يوجِّه بحثه عــبر ارتباطــات بدهية تم التقاطها حـديثاً، على أية حال، فما يبــدو بوضــوح على أنه الأمثل , هو أن يكــون المــرء قــادراً على أن يجمع ما بين الانفتــاح على الجديــد, والأفكــار المتشعبة مع توافر الحساسية تجاه (الواقع) القائم على خبرة الماضي.

وهذا هو بالضبط ما يبدو أن الاشخاص ذوي القدرة العالية جداً على الابداع يكونون قادرين على القيام به في المجــالات التي يختارونها على الأقل.

لكن ليس هنالك شك في أنه بالنســبة لنا معشر العــاديين من البشر يكــون هنــاك اتجــاه للتفــوق في جــانب أو أخر من جوانب حل المسائل وذلك على حساب جوانب أخــرى وبقــدر ما يمكن التدرج في المسائل طبقاً لقدر الأصالة التي تطلبها, فــإن البشر يمكن أن يتــدرجوا طبقــاً لمل اذا كــانوا يحســنون الأداء في احدى المســائل عن الأخــرى , من ثم فقد يكــون ذو التفكـــير التجميعي متصـــفاً بصـــفة خاصة بالإجـــادة في حل المســائل محــددة المعــالم بينما ذوي التفكــير المتشــعب ربما يصلوا الى رؤية أكثر حداثة ربما يتم ذلك على حســاب الفشل في تطبيق الطرق الموائمة لما يعتبره مسائل مملة)[1].

وفي اللسان العربي دلالات واضـحة للحــروف وهي تشـير بكل جلاء إلى طبيعة (فكــــر) فحــــرف (الفـــاء): دلالة على المباشــرة وســرعة التنفيــذ، وهي خبرية والانتشــار وللتحليــل؛ والاســتراق والقيــام الهــادئ، والمفاجــأة والاســتئناف وحلحلة العقد والتجديد. بينما (الكاف): يفيد التكامل والكمال والتمــام والإتمــام والقــوة المعنويّــة، والبقية الباقيــة، وهو يشــير إلى الحركة والتحرك وهو في رأس كل شيء والله تعالى أعلم.

[1] (?) كتــاب التفكــير واللغــة، جــوديث جــرين، ت:د.عبد الــرحيم جــبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب1992م

الفكر الشكلاني المصنّع والفكر الحقيقي

أنَّ فهم العقل ذاته قضــيةٌ هي من أصــعب المهــام الــتي توكل للعقل، إنها محاولة فيها مجازفة ولكنها نبيلة وتعتــبر من أرقى الأعمـــال قاطبـــةً، فالعقل ليس كتلة ماديـــةً ليـــدخل المختبر؛ ولكنه قـدرة خفيَّةٌ تـدفعنا إلى الربط والتقيّد بـالحكم المنشّأ بـداخلنا، وهـذا الحكم هو ما يُميزنا عن الحيوانـات، إنَّ ما يجب التأكيد عليه بدايـةً أنه عمـلٌ في المعنويـات، فـالفكرُ الجـوهري الحقيقي والأساسي أنْ تَصْـنَعَ وأنْ تُقَـدِّمَ وأنْ تُعَلِّمَ إفكـاركِ (أن تجعلها علامـات) في هـذا الوجـود، أو أن تُصـبح أفكـارُكَ علامـات في الحيـاة والواقع وعلى الطريـق...، مثل الجبـال الشـامخات دلالات على الحق المـبين، وهو فـرقٌ عن الباطل والزائف والزائـــل، وفــــرقٌ بين الصح والخطأ وبين المستقيم والمعوج.

بينما الفكر الشكلاني المصـنّع ليس بفكر، وإنَّ من صـفات العقل الأساسيّة الموضوعيّة والاتزان والهدوء، وهو ضـامنٌ لهمـا وكفيل، وبنـاءً عليـه سـيتمم ادراك الآخـر كوجـود أكيـد (واقعي)، أو يتضمن أنه المقياس المشـترك الـذي سـيتم فيـه أيضـاً انكـار التناقض والخطأ والخرافـة والهسـتيريا وكـل مـا يمكن أن ينهـار تحت وطأة (تخامين الخيال)[1].

فالمعرفة بـــالواقع شـــرطٌ اساسي للتفكـــير، صـــحيحٌ أنَّ مراعاة الخطاب الفكري للمسـتويات المتفاوتة أمـرٌ ضـروريٌ لإنجاح عملية تعليم التفكير، لكنَّ التفكير الصـحيح فيه إعمـالٌ للعقل مطلقاً ودون قيود، بينما الفقه عبارة عن مقطع محــدد من الفكر خاصٌ بجهة محـددة باتجـاهٍ مرسـوم وملـتزم بمنهجٍ محدد وقواعد مضبوطة، ومقترن بالزمان والمكـان المحـددين لا يمكن تعميمه إلى كل البقـــاع والعصـــور، والواقع المرير والذي أصبح عاماً في بلاد العرب والاسلام، وللأسف الشـديد، هو هيمنة النفاق الفكري والـدجل في الأبحـاث الـتي اتسـمت بالعلمية وهي أبعد ما تكـــــون عن البحث العلمي الحقيقي والهــادف، لأنها خلــوٌ من الأهــداف والأمانة العلمية ولا تمتلك أدوات البحث العلمي نهائياً، وهي تطرح مجرد نظريات بــاردة قديمة عـــفَّ عليها الـــزمن، وقد تجاوزوها في أوربة والغـــرب عمومـــاً وأصـــبحت من منســـياتهم، أو أنهم طوروها وغـــيروا منطلقاتها وفرضياتها ونحن لا نـزال في بلاد العـرب والاسـلام نهيم كالذباب على مزابلهم.

---

[1] (?) ميشيل ڤوكو، تاريخ الجنون ص 47، 1961م.

ففي بلادي الناس يمتلكـون (التكنولوجيـا) والآلات الحديثة ويفخرون بأنهم قادرون على تشغيلها واستثمارها والتعامل بها ومعها؛ بينما في الغـرب يفخـرون بـأنهم مخترعوها وصـانعوها وأنها من بنات أفكارهم!

العلمـاء والمفكـرين العـرب (الـذين ولـدوا فقط ليـأكلوا ويســتفيدوا) يفكـــرون فقط في كيفية ترجمة واستنســاخ النظريــات العلمية الغربيــة، وذلك ليَدرِســوها ويُدرِســوها، ويتــداولونها ويتناقلونهــا، ثمَّ بعد ذلك يُغـدقون على أنفسـهم الصفات مجاناً ويسمون أنفسهم علمـاء خِـداعاً وتضـليلاً، فهم أساساً لم يكتشفوا ولم يبحثوا ولم يفكـروا ولم يخـترعوا ولم يبتكروا مطلقاً، ولكن فقط ترجمـوا ورددوا ونسـخوا وسـجلوا وتناقلوا الأفكار التي أتت جاهزة، ويسـمون أنفسـهم بعد ذلك علماء ومفكـرين بله مثقفين، والواقع أنه ليس هنالك في هـذا العصر علمــاء عــرب مســلمين على الاطلاق[1] إنهم حرثــوا وفلحوا وزرعوا في أرض الغير وقد أهملـوا أرضـهم، ومعروفة قصة ذلك العالم العربي الذي جاءه أحد تلاميـذه فقـال لـه: يا ســيدي لقد حفظت الكتـــاب الفلاني عن ظهر قلب، فأجابه العالم جواباً رائعاً فقال: نعم إذاً فقد زادت نسخ ذلك الكتـاب نسـخةً جديـدة! ولكن على الـرغم من اقـرار رجـال وعلمـاء الدين والفقهـاء الإسـلاميين بضـرورة ابقـاء بـاب الاجتهـاد في الفقه مفتوحــاً، إلا أنه وبعد مــرور أكــثر من ألف عــام على مشروع الفقه الأسلامي فإن شيئاً لم يتغير، وكونه (الفقه) لم ينزل من السماء أساساً، فإن رجال الدين والفقهـاء والعلمـاء لا يزالون يصرُّون على احلال الفقه القديم منزلةً مقدسة غـير قابلة للتغيُّر أو التبــدل أو التطـــور، ويضـــعون له شـــروطاً وضوابطاً وحجج مستنبطة!

فهل بات الأمر يحتاج إلى ثـورة حقيقية تقضي على ذلك المــوروث غــير المجــدي، والــذي أصــبح فعلاً يعيق الحيــاة الإسلامية العربية ويقف في طريقها؛ والشيء بالشـيء يُـذكر، ولكن كيف أمكن خداع الأنفس العربية المسلمة طوال عهود، أو هل تمَّ خداع العـرب المسـلمين أنفسـهم، عنـدما أقنعـوهم أنهم (على الطريـــق) وأنهم في وضـــعيِّة التفكـــير والتفهُّم

---

[1] (?) (فـايز فـوق العـادة) وكما عرفته أمضى حياته في دمشق وبعد عودته من ألمانيا، في شـرح وتسـويق نظرية أينشـتاين (النسـبية) وفي خـدمتها والترويج لهـا، من خلال المحاضـرات الـتي جند نفسه لألقائها في المراكز الثقافية العربيـــة، كـــان لا يكل ولا يمل من إعـــادة طرحها والدعاية لها ولأينشتاين، وهو يظنُّ (فايز فوق العادة) أنه مفكـر! والواقع أنه كـان أبعد الناس عن التفكـير، لأنه كـان مجـرد ناقل ومـروج وناسخ وداعية للفكـرة وللمفكر؛ وفقط المفكر الوحيد كان (أينشـتاين) منشـئها وواضـعها. وهـذا الكلام ينطبق على كل ما يمكن أن يُطلق عليه (الفكر العربي المُعاصر)!

والتعلُّم؛ بينما هم بالواقع في وضعيِّة البلاهة، وأبعد ما يكونـون عن التفكـــير والفهم والعلمٍ، وكيفٍ تمَّتْ عملية خِـــداع تلك الأنفس العربية المسلمة ردحاً طويلاً من الزمن، فـالمفكرون العـرب والمثقفـون الواقع أنهم في العصر الحاضر قد عُـرض عليهم الأحسن وقد أقرّوه ولكنهم بالنتيجة اتبعوا الأسوأ ؟[1]

وهل فعلاً الادمـــان على المخـــدرات وتعـــاطي الخمر والتدخين يساعد بعض الناس على التفكر أو تجاوز مشكلاتهم أو معانـاتهم؟ حـتى يقنعـوا أنفسـهم في بعض أرقى الأوسـاط

1 (?) علينا ألا ننسى أنه قد مر أكــثر من خمســمائة ســنة على اكتشــاف وشيوع مادة وعـادة التـدخين (التبـغ) بكافة أشـكالها!، وقد اخـترقت هـذه العادة جميع الطبقات الاجتماعية في العالم وأكثر المجتمعات وأبعدها نأياً عن التأثر بالمدنية ومنتجاتها بحيث وصلت إلى البدو في لجة البادية، وإلى القـاطنين في قمم الجبـال، كـان التـدخين في يـوم من الأيـام دليلاً على الحضـــارة ومؤشـــراً على الأرســتقراطية، وفي بعض المجتمعــات على الرجولة والثورية! وهو أيضاً من منجـزات الحضـارة الحديثـة! والآن ونحن في مطلع الألفية الثالثـــة، فإنه يتمُ الحـــديث في جميع الـــدول عن مضـــارِّ التــدخين ويتم وصــفه بالعــادة الســيئة، وتُشَــنُ الحملات لمكافحته وشــرح مضارِّه، الهيئـات والمنظمـات الدولية والمحلية تعمل الآن للحد من شـيوعه وانتشاره، وسُنَّتْ من أجل ذلك القوانين وصـدرت التشـريعات؛ والحقيقة أن التـدخين بكافة أشـكاله كـان عامل دمـار للبشـرية، وهو الآن يعتـبر من أشد الأمراض والعادات فتكاً بالإنسان، ولكن هيهات أن يعي الإنسان الذي كـان قد اسـتمرأ الانحـراف وأعـرض عن الحـق، هيهـات أن يسـتطيع العـودة بسهولة عن أخطائـه، ليتخلى عن التـدخين! فهنالك شخصـيات كـبيرة في العالم مثالية وقيادية وثورية (مثل فيـديل كاسـترو وتشي غيفـارا) وقضـاة وأطباء وعلماء وفلاسفة ومفكـرون وأدبـاء وشـعراء يـدخنون! وأنا أعـرف طبيباً جراحاً، يدخن في العيادة والمشـفى، وصـيدلياً يـدخن في صـيدليته، وقد رأيت بأم عيني في القصر العـدلي قاضـياً يـدخن في غرفة المحكمة أثناء الاسـتراحة! وكـذلك كـان يفعل العديد من المحـاميين، ولقد سـمعت التلاميذ الصغار يقولون أن المعلمين والمعلمـات في الصـفوف الابتدائيـة، يــدخنون أمــام التلاميذ أحيانــاً! وقد رأيت محاضــراً في المركز الثقــافي العربي وكـان يحاضر عن المسـتقبل العـربي ويعلن نهاية العـرب! يُشـعل سيجارته وهو على المنصة أثناء إلقاء المحاضرة، وقد شاهدتُ بـأم عيـني في مستوصف للأطفال الرضع آباءً يحملون أطفالهم الرضع بأيــديهم وهم يضـعون في أفـواههم السـيجارة وينفثـون السـموم في وجـوه أطفـالهم! وكثــيراً ما شــاهدت أناســاً يــدخنون ســجائرهم في بيــوت مغلقة أو في سياراتهم المغلقة وإلى جانبهم الأطفال الصغار والرضَّع وهم لا يـدرون ما يفعلون! وهم لا يعلمون أنهم ربما كانوا يمارسون قتل أطفالهم بأيديهم أو الإضرار بهم، وحدِّث ولا حرج عن السائقين أثناء قيادة السيارة، والبـائعين أثناء البيع، إلى المديرين والموظفين والعـاملين والمسـتخدمين في جميع القطاعات الذين لا يتوقفون عن التدخين، حتى أثناء أداء أعمــالهم المهمة والحساسة دون إحساس بالمسؤولية الأدبية تجاه أحـد! فهل كـانت هكـذا عقليات عاقلة فعلاً! وهل يُنتظر من أمثال هؤلاء معرفة الحـق؟ هل يُنتظر من أمثالهم معرفة الخـير؟ هل يـدرك أمثـال هـؤلاء معـنى العـدل، أو هل يقدر أمثال هؤلاء على أن يفرقـوا بين الحق والباطل أو بين الصح والخطأ أو بين الخير والشر أو يعرفون معنى الروح الوطنية؟ لا أظنُّ ذلك أبداً!
فهل كـــان هنالك من العـــرب المســـلمين من كـــان قد وصل إلى هـــذا المسـتوى!؟ هل يفكر أمثـال هـؤلاء بمقاومة الاحتلال؟ وهل يـدرك أمثـال

الأدبية والفكرية والفنية العربيـة، وبعضـهم من كبـار الأدبـاء والمثقفين والمفكرين والقـادة السياسـيين وأولادهم يقـدمون على تعـاطي المخـدرات والإدمـان على الكحـول أو التـدخين، تحت مبررات ومسوغات ومقـدمات غـير صـحيحة، تـارة على أنها تسـمح بـالانطلاق والانعتـاق وتجـاوز الحـواجز والعقد النفسية والقيود الاجتماعية وتخطي جميع الحواجز والعقبـات،

هـؤلاء معـنى الاحتلال أو معـنى الاسـتعمار؟! أو هل يعـرف أمثـال هـؤلاء البلهـاء كيف يُقـاومون الاحتلال؟ وبالتـالي ما قيمة أمثـال هـؤلاء؟ لعل كثرتهم التي لا قيمة لها كانت وبالاً على الأمة والوطن، وأحد أهم أسـباب تخلفه وانحطاطـه؛ وهكـذا فـإن القـوات الإسـرائيلية في فلسـطين يوميـاً تقتل العشـرات من العـرب المسـلمين وكـذلك تفعل القـوات الأمريكية وأعوانها في العراق، فإنه يقتل المئـات من العـرب المسـلمين يوميـاً في وضح النهار وهؤلاء لا يكادون يفقهون حـديثاً، وبالنسـبة لهم فـإن التـدخين يُعتبر عامل إلهام وإبداع للفنانين والأدباء والمفكرين فقـط، ودون تـدخين ينكشـفون ويسـقطون، بله شـرب الخمر والمخـدرات للفنـانين والأدبـاء والشـعراء!!! الـذين يروجـون لآراء حقـيرة تافهـة، تقـول بـأن الخمر والمخدرات تمنحهم القدرة على مواجهة الجمهور، والقـدرة على العطـاء الفـني والإبـداع! وهـذا طبعـاً مجـرد وهم وتـبرير باطل وتخريف وكـذب وبهتـان حقـير غرضه تمرير الخطأ وإشـاعته بين العـرب المسـلمين، إنَّ الإنسـان الآن، في هـذا العصـر، منغمسٌ في الأخطـاء وهابط إلى أدنى مسـتوى، وهو واقـعٌ الآن تحت تـأثير شـياطين الإنس والجن! ثم يتقيـؤون أفكـاراً ونظريـات أقل ما يمكن أن يُقـال عنها أنها (مسـخرة) فيقولـون ويصرون على مقاطعة التبغ الأجنـبي، وأنهم سـيعملون على تعـاطي التبغ الوطـني إنَّ هـذا الكلام دليـلٌ قطعي الثبـوت والدلالة على تفاهة هـذه العقول وانعدامها وتلاشيها.

والأطرف من هذا قضية الطالع والحظ والأبراج والتي باتت تُعتبر الآن من الأمـور الدارجة والمقبولة حضـارياً لـدى الطبقـات الأرسـتقراطية، وتنشأ عنها وحولها الكتب وهي تشـغل الحـيز الواسع من صـفحات الجرائد والمجلات وأصبح لها بـرامج خاصة على الشاشـات وفي الإذاعـات! وتجند لها الطاقات من المحررين والمحررات والصحافيين والصحافيات الـذين حـازوا على تخصصـهم في مواضـيع معرفة الحظـوظ والأبـراج من أرقى الجامعات الفرنسية؛ وقد فرض (هـذا الـدجل) على الأجيـال لتصبح بـديلاً عن الحقيقة الـتي يعملـون ما بوسـعهم على طمسـها وإخفائهـا! وهـذه الحضـارة الحديثـة، في أكـثر منجزاتهـا، ما هي إلا مـدٌ للظـالمين، لو كـان الناس يعلمون قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: 15] وقال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجـر: 72]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل: 4]

إنما تقع مسـؤولية كـبرى على الأفـراد العـرب المسـلمين الناهضـين المؤمنين دون غيرهم من الشعوب، فعلى عاتقهم مهمة البيان والتوضـيح، ومنهم وعنهم سـينبثق أولاً النـور على العـالم، من أجل ذلك يجب عليهم بناء ذواتهم بناءً جميلاً وعظيماً وقوياً ومثاليـاً خاليـاً من الـوهن والضـعف والانحلال، وقد تقـول الأمثـال أشـياء مفيـدة مثل قـولهم(لا يُسـمع من ذمَّ نفسه)، فكيف نسـمع أو نأخذ من أولئك الـذين لا يـدركون ولا يسـتدركون الأخطاء؛ ويُعرضون عن الحق! والحقيقة أنه من المفروض أن تُـدْرَج لـدى العـرب في هـذا الـزمن أعـرافٌ وتقاليد وعـادات جديـدة يتعـارف عليها

وتـارة على أنها مجـرد دواء يخفف الألم فهم مضـطرون على تناوله كعقار [1].

(ويدخلون الناس في غابة من البلاغـة اللفظيـة والتعريفـات والحجج، لتمر على البسطاء مثل قولهم عن أشياء ظنية الثبوت أو قطعيـة الدلالـة، أو تشـكيكهم وحـديثهم وحجتهم عن النزاهـة الأخلاقيـة، ولكن من الـذي يحـدد هـذه الأمـور؟ ولمـاذا يعيش النـاس وقـد عاشـوا ونجحـوا وتقـدموا في جميـع أنحـاء العـالم وامتلكوا القوة بعيداً عن ذرائعهم تلـك؟) مـا يجب فهمـه هـو أن الثوابت المقدسة أو المبـادئ القطعيَّة الثبـوت الـتي يـرون أنهـا مقدسة وقطعيّـة، أنهـا يجب أن تكـون منطقيّـة وعقلانيـة وتؤيِّد الفكر الصحيح ومميزة بالميزان الصحيح المنزّل من الله تعالى: ﴿ لَقَـدْ أَرْسَـلْنَا رُسُـلَنَا بِالْبَيِّنَـاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَـابَ وَالْمِـيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْـطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيـدَ فِيـهِ بَـأْسٌ شَـدِيدٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: 25] وحاكمةً وفارقةً بالفرقان الصـحيح وهـو العقـل القـادر على اصـدار الأحكـام المنطقيـة والمـنزَّل أيضـاً من اللـه تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْـدَمَا جَـــاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَـــكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ [الرعد: 37]، إذاً الأفكـار لـدى الإنسـان ليسـت خرافيّـة وغـير منطقيـة ولاعقلانيّة، الفقيه الحقيقي والمفتي الحقيقي هـو اللـه سـبحانه وتعالى في كتابه الكريم، وليس أحـدٌ من النـاس، قـال تعـالى:﴿ وَيَسْـتَفْتُونَكَ فِي النِّسَـاءِ قُـلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ [النساء: 127]، ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي

العرب؛ تقضي باتفاقهم فيما بينهم على احتقار وازدراء وتتفيه كل شـخص كائن من كان يدعي أنه عربي مسلم ويمارس خطأ يـؤدي إلى أذيته وأذية غيره، خصوصاً مرتكبي الكبائر، وهـذا الموضـوع أو هـذا الجـانب يجب أن يكـــون نابعـــاً اجتماعيا من الأمة أولاً، وقبل أن يكـــون من اختصاصـــات الحكومات قضائياً أو سياسياً، إنه أولاً موقف المجتمع.

[1] (?) (م، ن، كـان أحد أشـهر الشـعراء العـرب في السـبعينيات من القـرن الماضي كـان عند إلقائه القصـيدة يُبهر النـاس وهو يتحـدث عن القضـية الفلسطينية والهموم العربية الأخرى، كـان لا يلقي القصـيدة إلا وهو ثمـلٌ تماماً، كـذلك فـإنَّ أحد الملـوك العظـام في إحـدى الـدول العربية كـان لا يستطيع أن يحيا إلا إذا كان غائباً عن الوعي!)

إذا كـان هـذا الكلام صـحيحاً فلمـاذا يقـدم بعض الملـوك وبعض الرؤسـاء وكبار القياديين والإداريين العرب وأولادهم على تعاطي المخدرات وشرب الكحول والتـدخين بشـراهة؟ لطالما أنَّ أشخاصـاً من مسـتواهم، لا يوجد أمامهم عقبات وأنهم لا يُعانون والمفروض أنَّ مشـاكلهم جميعها محلولـة، وممن يخـاف المسـؤول والمليونـير أو الأديب العـربي الكبـير أو المفكر العربي الكبير حتى يُدمن شرب الخمر وتعـاطي المخـدرات وبحجة حاجته الماسّـة لـذلك؟ وكيف وصل إلى هـذه القناعة الفكرية الراسـخة؟ وهل الانطلاقة الفكرية تتأتى من تخطي الممنوعات الاجتماعية، العيب والحرام واسـتهجان النـاس العـرب واسـتقباحهم أو رفضـهم لما هو غـير مـألوف؟ الغريب أن الكثير من الناس (العرب) يقتنعون بذلك.

الْكَلالَةِ إِنِ امْـرُؤٌ هَلَـكَ لَيْسَ لَـهُ وَلَـدٌ وَلَـهُ أُخْتٌ فَلَهَا [النسـاء: 176] والفرق كبير بين قولهم (فقيه) ليفتي ويشرِّع، (ويفـترض أن الفقيه أعلى مسـتوى من الآخـرين وأنَّ الآخـرين دائمـاً أدنى مسـتوى وقـدرة عقليـة وفكريـة من الفقيـه... أنـا لا أقبـل على نفسي هذا الوصف؛ وهو عندهم معلق ومخصوصٌ به البعض من خلق الله)؛ وبين قولك (متفكر) ينظر ويتأمل وهذا متاحٌ وحـقٌ لجميع خلق الله تعالى، وأساساً وقبل وصوله إلى هذا العالم أي (عـالم الوجـود - الأرض)، كـان الإنسـان فكـرة تهيم في عـالم الغيب في علم اللـه تعـالى، وقـد أُتي بـه إلى عـالم التجسـد والتحقـق كنفسٍ (في الـداخل) ليشـكل العقـل، ثمَّ لمـا ولـد الإنسان واستجمع كافة العناصر المادية كـان الشـكل الخـارجي (الجسم) والله أعلم.

ولأنَّ القضيةَ ليست في تقديم الحلول الجاهزة والنصـائح، كما تحاول دائماً شخصـيّة أو وظيفة المفـتي والفقيـه، والـذي لم يعد له في العصر الحديث أية أهمية لأنه بالأصل كان شـيئاً طارئـاً على الحيـاة عند العـرب المسـلمين لم يكن شـيئاً أساسـياً، يجب أن يعتـاد النـاس جميعـاً على تفعيل عقـولهم واستنباط الأفكار والفوائد والأحكام النزيهـة، كما يقـول المثل الصيني، (لا تعطي جارك في كل يومٍ سمكة ولكن علمه كيف يصطاد).

يجب أن نعمل على تعليم الناس كيف يكونون حضاريين، لا أن نكـرس التخلف عنـدهم، ثم نطلب منهم التوجه للفقيه ليفتيهم في مشكلاتهم الشخصية! قال تعالى:

 قُـلْ هَـلْ مِنْ شُـرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْـدِي إِلَى الْحَـقِّ قُـلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَـقُّ أَنْ يُتَّبَـعَ أَمَّنْ لا يَهِـدِّي إِلَّا أَنْ يُهْـدَى فَمَا لَكُمْ كَيْـفَ تَحْكُمُـونَ [يـونس: 35]. قـال تعالى: مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [القلم: 36].

وطبعاً المنطق الصحيح هو توفيقٌ من الله سبحانه وتعالى لبعض عبـاده الـذين ارتضى لهم الفلاح، إنه مـنزلٌ منحـةً من الله ، ويحرم منه الجاحـدون، وفي مقدمة مقدماته (لا شـيء من اللاشيء) وأن الحيـاة المادية وبحسب القـوانين الطبيعية (لا شيء يولد فيها ولا شيء يفـنى) وبالتـالي فـإن من الـوهم وادعـاء باطـل، كـلُّ قـولٍ يقـول بعكس ذلـك، بل هنالك لكل مكون عوامل أولية وأساسـية يتكـون منهـا، وهي تشـترك في تكوينه بنسبٍ معينة، فهل كـانت الصـور والمعـاني والخـواطر والأفكار التي لا تفتـأ تتـوارد وتتـدفق على العقل ومن مصـادر مختلفة؛ هل كانت في أوضاعها وأدوارها تختلط وتشـترك في صـناعة الفِكَر الجديـدة ؟ قـال تعـالى: سُـبْحَانَ الَّذِي خَلَـقَ

الأزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُـونَ [يس: 36] فهل يسـري ذلك القـانون المـادي البحث (قـانون لاڤوازيـه) التفاعل بين العناصر والمـواد الأوليـة، هل ينطبق أيضاً على (الباطن) لإنتاج وتوليد الأفكار الجديـدة مثلما يُطبق على العناصر الماديّـة؟ إذ لا بد من وجـود مكونـات أو عوامل أولية أساسية تشترك في تخليق الفكرة.

إنَّ من الضـروري وجـود طريقـة مـا للوصـول إلى العقـل الباطن والتعامل معه، إنـك إذا اغمضـت عينيـك وأذنيـك فلربمـا رأيت نفسك بكل وضوحٍ ولكن الجعبة العربية (العقليّـة العربيـة بعد أن كانت دفّاقـةً ومولّدة للأفكـار) لمـاذا نضـبتْ واضـمحلّتْ وأصبحت خالية من الأفكـار الجديـدة؟ لمـاذا انسـحب العـرب - مفكريهم - في العصـر الحـديث من سـوق الأفكـار ؟ ولمـاذا لم يعودوا ليساهموا أو يدلون بدلوهم؟ لماذا يعتذرون عن الحضـور إلى سـاحة وميـدان الفكـر والمسـاجلات الفكريـة (الـثرثرة الفكرية)؟ وفي مجال الفكر لماذا تركوا للغرباء من غير العـرب الجمـل بمـا حمـل (الشـعوبية) بأشـكالها المتعـددة العنصـرية والطائفية وانكفئوا على أنفسـهم أو هـاجروا ليحملـوا جنسـيات أخرى؟

لذلك لم يعد غريباً أن تجد مفكرين أو مدعو التفكير في في الثقافة العربية الإسلامية، أواخـر القـرن الماضـي، مثـل جـودت سـعيد مالـك بن نـبي تلميـذ الإمـام الصـغير تلميـذ أبـو الأعلى المودودي، يعملون على (تقـويض الحركـة العربيـة) عن طريـق تحـريض النـاس من المسـلمين العـرب مـع تعطيـل عقـولهم وشطب ذواتهم والغاء احاسيسهم، ثم بثوا فيهم عقيدة مـدمرة، دمروا فيها عقول العرب المسلمين وسمموها وعطلوها لقرون، وكـانت أفكـارهم الهدامـة تؤكـد أن أيـة حركـة أو أي نضـال أو تحرك عربي اسلامي يجب أن يكون جهرياً غـير سـري، وفرديـاً غير جماعي، ويتبع السلميّة ويبتعد عن العنف!

في حين أنَّ أعداء (العرب المسلمين) يعملون على إبـادة (العرب المسلمين) جهاراً نهـاراً في مـؤامرة كـبرى، وهم أي (أعـداء العـرب المسـلمين) يعملـون بشـكل جمـاعيّ علـني واضـح، ويسـتعملون كافة الطـرق وأنـواع الاسـلحة الفتّاكة والمحرمة.

ويطلب من العرب المسلمين أن يرفعوا الهتـاف! جهريـة لا سرية وفردية لا جماعية وسلمية لا عنف!!!

بين الفكري والسياسي

الوعي السياسي:

كل فكرة وكل عملٍ وكل نشاطٍ له علاقةٌ بالشأن العام (المجتمع) فهو فكر وعمل ونشاط سياسي، تترتب عليه مسؤوليةٌ وواجبٌ حيال المجتمع، فالوعي السياسي أرقى أنواع الوعي وهو أعلى مستويات الادراك على الاطلاق، بالاضافة إلى ما قد يعنيه مفهوم (السياسة) من حسن التدبير وقدرة على قيادة وتوجيه السلطة والمقدرات في البلاد وادارة الحكم.

فالسياسيُّ رائدٌ في مجتمعه وفئَتِهِ وطليعيٌ من النخبة، من حيث الفهم والذكاء والتفكر والتعقل، الأساس أنه لا يخونُ قومه ولا يكذبهم أبداً، بل يرتادُ ويستطلعُ لهم ويَصْدُقَهُم القول وينصحهم ويندفع أمامهم، ويفكر ويعمل لتحقيق الكسب والانتصارات لهم ولمصلحتهم، لذلك كان لزاماً على السياسي ونتيجة أهمية وخطورة عمله، الذي يتعلق بمصير الأمة وحياة الشعب ومصالحه، والدولة وأركانها، أن يكون متنبهاً ومدركاً، ليس فقط لما يدور حوله من العلاقات والأحداث، وإنما لكل ما كان قد حصل في الماضي؛ ولكل ما يحصل في الحاضر... وما يمكن أن يحصل أو يحدث في المستقبل، فالعمل السياسي استراتيجي وهو يكتسب خطورةً وأهميةً بالغةً ومعقدة لذلك كان من المفروض أن لا يتولاه إلا الأفذاذ المفكرون والنخبة من أبناء الأمة.

لذلك وحتى يتمكن (السياسي الناجح) من اتخاذ القرار المناسب في الظرف المناسب، حِيال القضايا الاستراتيجيّة المصيرية والخطيرة (السياسي كقائد) فإنَّ عليه فتح كلّ أدواته وأساليبه وادراك حقيقة مرامي ومقاصد الخصوم أو الأعداء والأصدقاء والتنبه لها تماماً؛ وأن يكون واعياً لما يخطط له المناوؤن وما يعتزمون القيام به، وفهم مصالحهم! يجب عليه أن يتصور، وأن يتنبأ دائماً بكل ما يمكن أن يصدر عن الأطراف الأخرى، ويستلم الرسائل والبرقيات المباشرة وغير المباشرة، المعلنة والسرية والمشفرة، وأن يحلل المعطيات، لفهم وأدراك نوايا الأعداء والأصدقاء وردود أفعالهم تماماً حيال مصالحنا وحيال أهدافنا، وما يفكرون به وما يخططون له، وأن يحسب حساب كل الاحتمالات التي يمكن أن تكون واردة.

فالسياسة سـنام الحـراك في أي مجتمع واعي، وهي درّة نشـاطه، بشـرط أن يكـون حيـاً وحـراً، وهي ثالثة الأعمـدة الرئيسـيـة ولا تنفصم في الأهميّة ويقـوم عليها المجتمع والدولـة، فهي تشـكل إلى الجـانب العسـكري والأوضـاع الاقتصادية في البلاد المرتكز الذي يؤدي إلى النهوض.

وبالتـالي فـإنَّ من مهامه الاساسـية كسياسي مسـؤول كشف الملابسات وإماطة اللثام عن عمليات الخداع والإيهـام، وبيـان وتوضـيح أهـداف ونوايا الأعـداء والمنـاوئين لمجموعته وفضح مخططـاتهم ونشـرها، وعليه على الفـور إعلام جماعته وشعبه ومصارحتهم بالحقـائق والوقـائع وذلك دون تسـويف أو تـأخير، حـتى تسـتطيع بلاده اتخـاذ القـرار والـرد المناسـبين (الشـعوب الحية تتحد وتعمل وتتخذ الـرد المناسـب) وبالتـالي إعداد العدَّة بالتخطيط والتوضيب، والإعداد والتهيؤ والمبـادرة، فـالهجوم خـير وسـيلة للـدفاع، لأنه وكما قـال عليه الصـلاة والسـلام: (ما غـذي قـومٌ في عقر دارهم إلا ذُلّوا) فالسياسي كـان يتصف بكونه (داهيـة) أي مفكر وعبقـري، وهو لأنه يقظ وحـذر ومتحفّز دائمـاً فهو لا يمكن أن يُفاجأ، أو أن يتعـرض للغدر أو الخيانة، وهو لا يفـتر عن المطالبة بـالحقوق الوطنية والدفاع عنها (سياسة خُذْ وطالب) لأنه أساساً قد أعدَّ العُـدَّةَ وقد حَسَبَ الحسـاب لكل الاحتمـالات، ولـذلك تقـول المقولة السياسيّة الشـهيرة (السياسي لا يُخطئ وإنَّ أخطأ الآخـرون جميعاً).

كذلك قدرته كسياسي ومعرفته وعلمه والقـوى الـتي تصـنع أو تدعم موقفه، فالسياسة الناجحة هي الـتي تـدعمها معطيـات وظـروف وعوامـل وقـوى، وامتلاكٍ لأسـباب القـوة، فالسياسـة ليست هدراً للمـال أو الـوقت أو القـدرات وإنمـا حفـظٌ وتنظيمٌ لها، إن للسياسيين مواقف وأعمال وانجازات وسلوكيات وأقول تصبح أمثلة تدخل التاريخ.

لـذلك على السياسي السـديد الـرأي تفهُّم مهمته الاسـتراتيجية الخطـيرة، في مجتمعه أولاً وفي دولته وفي العالم تماماً، وأن يعمل على تحقيق وانجاز الأهداف الوطنيـة، ولـذلك فـإنَّ من طبيعة مهمته كسياسي العمل على تحقيق وإنجاز النصر والتشـبث بـالحقوق والمصـلحة الوطنيـة، وهو لا يقبل التنـازل أبـداً؛ وحـتى يسـتطيع فهم وادراك الأمـور فـإنَّ عليه تقمُّص شخصيات الخصوم والأعداء ومواقهم ومصالحهم (أن يجرِّب أن يفترض نفسه في موقع الآخر، العدو أو الخصم أو حتى الصديق) وذلك لكي يخطو الخطوات المناسبة بشـكلٍ

مــدروس، أو يتخذ الموقف المناسب أو الحركة المناســبة، أو حتى ليعلّق التعليق المناسب وفي الوقت المناسب.

إن تشكيل الـرأي السياسي أو اتخـاذ القـرار السياسـي، بحـــدِّ ذاته قضـــيّة اســـتراتيجية هامة تمسُّ المصـــلحة العليا للمجتمع والأمة بأكملهـا، ولـذلك يجب أن لا تنـاط النشـاطات السياسـية بالأشـخاص أو بالجهـات غـير المسـؤولة أو الـتي لا تعي المسؤولية تجاه المصـلحة العليا للأمة (عروبة والإسـلام) ومن هنا سُمِّي العمل السياسي باللعبة السياسـية، ومن كـان لا يدرك أركان اللعبة السياسية بكلِّ حذافيرها وأبعادها، فليس له أن يتعاطى بالسياسة، فهو ليس سياسياً ناجحاً، وقد يـورط شعبه وامته ودولته، لأنَّ السياسة علم يُـدرَّس ويُـدْرَس ويُعْلَم يُتعَلّم) وأن يضع نصب عينه أن مهمته الرئيســـــــية أولاً هي أنجاز وكسب وتحقيق التقدم لأمته ولشـعبه ولدولتـه، وتحقيق الربح للمصلحة الوطنية في كل خطوة من خطواته.

وهنالـــك فـــرق كبـــير بين (العمـــل السياســـي) وبين (الدبلوماسية) وإنْ كـان (الدبلوماسـي) وجـد ونشأ ليكـون في خدمـة الجـانب السياسـي والعمـل والنشـاط السياسـي وليس العكس.

ولـذلك فـإنَّ لديه (السياسي النـاجح) وعلى الـدوام بنكـاً للمعلومات العلنية والسرية؛ والمستشـارين والمصـادر الأمينة الخاصّة، الداخلية والخارجية، التي تزوِّده بالمعطيات الحقيقيّة والصحيحة عن وحِيال القضايا والمواضيع الجوهرية والمشكلة المحـــددة، ولا يعتمـــدُ لتشـــكيل انطباعه أو وجهة نظـــره أو موقفه، على مجرد الاعلام والصحافة المنشورة أو المسموعة أو المرئية؛

كذلك فإن لديه على الـدوام (السياسي النـاجح) بنكـاً من الأهـــداف والأهـــداف البديلة الـــتي تخـــدم بمجموعها قضـــيته الرئيسية، وهو لا يتوانى عن اتباع أفضل السُـبُل لكسب النصر ولتحقيق النجاح لشـعبه ووطنـه، وهي مهمته الأساسـية، ففي علم السياسة إما أن تُخطط أو أن يُخطط لـــــــــك، والفكر السياسي ذو طبيعة انتاجيـــة، لا يمكن ولا يجـــوز له أن يبقى ساكناً أو في حالة سلبية ساكنة دفاعية. وكل نتـاج عقلي غـير منتج وغير ايجابي وغير بناء فهو ليس بفكر.

وقد أصـبح الإنسـان العـربي في هـذا العصر عـاجزاً عن مواجهة التحديات الكبرى، وعن تحقيق الأهـداف الـتي يريـدها لنفسه، فهو كان دائماً يريد ويحلم بالوحـــدة العربية لكنه عجز عن تحقيقهـا، سُـلبت أجـزاءٌ من بلاده من دون أن يتمكن من المقاومة الحقيقية، فالعربي في حـرب 1967 كـان غائبـاً عن

المسرح كلياً، وقد سلم حياته بشكل نهائي للدولة، وهو ما زال يفعل ذلك إلى الآن، هذا الوضع القائم في جميع الدول العربية من دون استثناء، العربي يعيشه دون أن يشعر به فعلاً، إنَّ فئات قليلة من المسلمين العرب هي التي تشعر بالواقع بهذا العجز تجاه المؤسسات العربية، والتي ترفض الاستمرار في خضوعها إليها واتكالها عليها، إنه لا بدّ للعربي من ادراك مسؤولياته تجاه التحديات الكبرى والقضايا الكبرى، فالعربي المسلم باختصار هو الآن مستلب وفي وضع عاجز، باتجاه الخارج وعاجزٌ باتجاه الداخل، وكانت السلطات العربية على الدوام غريبة ومستقلة عنه ومتعالية عليه، إنه (العربي المسلم) مكبوت باستمرار، قد سُلب حرية القول والعمل والتخطيط والمشاركة والمعارضة،[1] أن يكون الإنسان العربي مغترباً على الصعيد المجتمعي أنه يشعر بذلك، أو أنه قد يشعر بذلك ولكنه قد يقبل به كما سنرى، كذلك يمكن القول إنَّ كونه مغترباً على الصعيد النفسي الشعوري لا يعني أنه سيسلك في الواقع سلوكاً تمردياً ثورياً وأنه سيعمل على تغيير أوضاعه (المرجع السابق).

ومما يساعد العربي على التعايش مع أوضاعه أنه يعبِّر بحرية وعفوية عن غضبه وأحقاده وغيرها من المشاعر، بالتهجم الكلامي والصراخ والسباب والشتم والنكتة والسخرية، بدلاً من أن يكبت ذلك كله ويتجه إلى إعداد وتوضيب وتنظيم الرد بالفعل والسلوك والانجاز على الأرض، وذلك كما يحدث عادة في المجتمعات الغربية المتحضرة والمتقدمة، فقد أصبح المجتمع العربي مجتمع خطابي كلامي تعبيري أجوف، فلم تعد الشعوب العربية تصرح بما يخدم أهدافها ومخططاتها وحسب، ولكنهم كثيراً ما يصرحون بما يُلحق الضرر بأهدافهم ومخططاتهم! ففي حين كان العرب يشنون حرباً كلاميّة ضدَّ اليهود دون أن يستعدوا فعلاً لخوض هذه الحرب، كان اليهود يصرحون بأنهم دعاة سلام؛ في حين كانوا يستعدون ويخططون للحرب ضد العرب لسحق العرب والتوسُّع على أراضيهم، وقد أعدوا لها عن سابق اصرار وترصُّد منذ عشرات السنين.

فالعربي يصرِّح بآرائه ويعلن عن مشاعره، وذلك بصرف النظر عمّا إذا كان ذلك يخدم مصالحه أو يلحق بها الضرر، فيما يصرح الغربي بما يرى فيه خدمة لمصالحه هذه، المجتمع العربي باختصار هو الآن مجتمع كلامي تعبيري خطابي، مجتمع صوت وصورة، ففي البلاد العربية لا يوجد ولم يكن فيها

---

[1] (?) (كتاب الهوية حليم بركات ص 121).

سياسيين، وإنما مجرد موظفين يعملون في خدمة الانظمة العربية، ولذلك كانت حروبٍ ومواجهات العرب المسلمين مع أعداءهم حتى الآن حروباً ومواجهات كلاميّة، أما المجتمع الغربي فهو مجتمع عقلاني وقد تعود كيف يفكر ويجري معادلات بين ما يقوله وما يريد تحقيقه فعلاً وأن يعد العدّة.

ومن نتائج هذا التعبير الحر العفوي (التنفيس) أو تطهير النفس والشعور بالارتياح، فيكون من جراء التعبير عن الغضب المارس والوحيد المتاح والمسموح لدى الإنسان العربي، ويؤدي مثلاً إلى الارتياح من دون مواجهة مصادر الغضب وأسبابه الحقيقية، إنه يترك الكلام يفيض من دون رقابة وليشعر بعد ذلك بالارتياح والانسجام مع نفسه، صحيح أنه شعورٌ واهم مخادع ولكنه شعورٌ مجاني.

لأنَّ السياسي قد يفاوض وقد يناور وقد يدور حول قضيته محاولاً تأمين أو تحقيق المصالح بشتى الطرق، فيقدم ويُؤخِّر؛ بينما لا يستطيع المفكر صاحب القضية وليس له أن يتنازل أو يتراجع عن الهدف (القضية) أبداً ومهما كان السبب، إنَّ إنسان القضية محكومٌ بقضيته[1].

إنّ من العبث أن تنظر كل مجموعة عرقية وطائفية تحيا ضمن الأكثرية، وهي تنتظر أو تفكر في الانفصال عنها وتدخل ضدها في مؤامرة[2] قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 74]، وذلك بدل أن تفكر في الاندماج فيها ومن خلالها اندماجاً كلياً ولمَ لا؟ وأن تحمل بكل قبول هوية الأكثرية، وإلا فإنَّ الموضوع لا ينتهي ولن ينتهي وسيستمر الضعف وجودياً! طبعاً

---

1 (?) من حديث للمفكر والباحث العربي الأستاذ عبد اللطيف ذياب، دير الزور.

2 (?) فهل قامت (بعض الأحزاب العرقيّة) بكشف طموحها وطرح مشروعها لإقامة ما يسمى (بكردستان الكبرى) والذي كان يشمل فيما يشمل من سوريا كامل الشريط الحدودي مع تركيا وكامل الجزيرة الفراتية بما فيها تدمر وحمص والساحل!) أما الأكراد فهم في مناطق تواجدهم مواطنون أصلاء، وشركاء مسيرة ومصير لمواطنيهم العرب والإيرانيين والترك، ولطالما شاركوهم في التصدي للغزاة الأجانب. ولأنهم ليسوا دخلاء على المنطقة فإن عمقهم الاستراتيجي ممتد فيها. الأمر الذي يحول دون إجماعهم على موقف معاد لشعوبها، إذ تغلب عند قطاعات غير يسيرة منهم مشاعرهم الإسلامية، وحتى انتماءاتهم الوطنية، على نوازعهم العرقية. وليس في تاريخ العراق الحديث ما يدل على أن أياً من حركات التمرد الكردية استقطبت إجماعاً كردياً، وإنما كان لكل منها من يعارضها ويقف في الصف المعادي لتواطئها مع العدو الخارجي.

يروِّجون للخصوصية الثقافية، مثل اختراع قواعد وأحـرف اللغـة الكردية واللغة الأمازيغية (وهذا حقٌ يراد منه باطل) قال تعالى: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقـرة: 61]، لأن القضـية بالنسـبة لمن ألقى السـمع وهـو بصـير لا تتعلـق فقـط بالتـاريخ السياسـي ولا بإنشـاء الأحـزاب والتنظيمـات وإنمـا بـالثوابت الربانيـة الطبيعيّـة ثم بـالقيم والمثـل الإنسـانية والحضارية.

إذ كيف يُضحون وبإصرار ليس له معنى بالإسلام الـدين الحنيف في مقابل الفلكلور واللهجة (اللغة) الأمر المبني على الـوهم الكبـير ليس إلا! تحت شـعار الاسـتقلال والحريـة، معتقـدين أنها دعـاوى "الانفصـال" لا يمكن تجاوزها أو القفز عليها قال تعـالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف: 11].

والحل طبعاً ليس بالإقصاء والإلغاء أو بالاسـتبعاد لأية جهة أبداً، ولكنه يكمن في إفساح المجال للجميع في الحياة الحرة وتقـديم ما ينفع النـاس، إنه من المهم أن يكـون هنالك تـدافع بين النـاس قـال تعـالى: ﴿ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعـد: 17]، وطبعـاً فـإن إقامة المجتمع المـدني ومؤسسـاته وإحيـاء كل ما من شـأنه التطـوير والتقـدم إلى الأمـام والعُلا، شـيء مطلـوب وسيُساعد كثيراً في الوصـول إلى الهـدف، وهو تحقيق أقصى حالات الديمقراطية وإلغاء السلطات؛ وإفساح المجال بحسب القاعدة التي تقول (دعه يعمل دعه يمـر) ولكن بشـرط أن لا يطغى فيقتلعنا كمجتمع من الجذور، بل على أسـاس محـاورة النـاس كل النـاس وليس بـالإملاءات، ولا يمكن أن نحكم على قيم الخـير والحق والعـدل والسـلام والصح والجيِّد والحرية والوطنية من خلال ما جـرى في التـاريخ المتفق على أنه انحطـاطي وطـارئ ومفـروض من الخـارج وأنه كـان خـارج السـياق، ولم يكن ليعبر بأحداثه عن طبيعة المنطقة ونفـوس أبنائها، فقد حمل وحُمِّلَ أوزاراً مع أوزاره وبالتالي سيؤدي من أجل أحـداثٍ قـام بها أو انسـاق إليها متخلفـون من جميع الأطراف أفراداً وأحزاب وتجارب وحدوية فاشلة إلى أن نُلقي بعيداً بالحقائق والقيم الإنسانية وأن نُطلِّقْها ونستغني عنها؟

فهل أدت الأحداث الـتي نشـأت في المنطقـة، خارجة عن إرادة أبنائها مطلع القرن العشرين، بالنـاس من جميع الفئـات إلى رفض العروبة والإسـلام معـاً وهل كـان هـذا الـرفض

صحيحاً؟ وبالتالي إلى أين يـذهب كل هـؤلاء (الأقليـات) أليس فيهم رشيد؟[1]

وطبعـاً فـإنَّ تَفَلُّتْ النـاس من دائـرة العروبة والإسـلام سوف لن يضر العروبة والإسلام شيئاً، ولكن الضـرر سيلحق النـاس في جميع "الفئـات" كـونهم تخلـوا دون أن يـدروا عن المثل العليا والقيم الإنسانية والـدين الحـنيف، ويشـار هنا إلى أن المروءة والشرف والشهامة والكرامة عناصر أساسية في شخصية الإنسان العـربي المـؤمن وهي الـتي أفـردت العـرب عن مجمل الأمم مقدرة وعظمة، وكـانت الأريج الـذي أضـفى على حضـارتهم، مع مـرور الـزمن وتـوالي الحقب، النكهة الخاصة في التـذوق المعنـوي لحس البشـر، والحقيقة أن العربي إذا افتقد تلك القيم الرائعة والسامية فقد أخرج نفسه من دائرة العروبة ودخل في العجمة ولو كان من قريش؛ وأن الأعجمي إذا حمل تلك القيم أصبح عربياً كائن من كان أصله، ففي وضع الطبع أن يكـون الإنسـان العـربي كريمـاً وشـريفاً وصـاحب مـروءة وكرامة وشـهامة من أعمـاق وجدانـه، وهو يُعْتَبَرُ انكماش الذاتِ ومنعُ الـدفق عنـدها انتقاصـاً في وجودها وتلبساً في عطائها. والواقع فإن التفكك العـروبي المسـتدام؛ وغيـاب أي شـكلٍ من أشـكال (القيـام العـربي) أو (القـوام العربي) أو (الشعور الوطني العربي) عند العرب.

أو (الإحساس الجماعي العربي) أو أيـاً (شَـد) أو (انشـداد للقضية العربية) عند الإنسان العـربي وغيـاب الـوعي العـربي لدى العرب، بالإضافة إلى القيود المقيِّدة، والحواجز والعقبات التي وضعت في طريق الإنسان العربي، لهو من أهم الأسباب التي شجَّعَتْ ما سُمِّي أو ما بات يُدعى بالأقليـات في الـوطن العربي (الذين رفضـوا الانتسـاب للعروبـة) للتحـرك والوثـوب على الكيان العـربي واعتراضه واعـترض أي محاولة لتشـكيل كيـانٍ موحـدٍ للعـرب، والعمل والتعـاون فيما بينهم ضـدَّهُ والاسـتقواء في كثـيرٍ من الحـالات بـالقوى الخارجيّة على

[1] (?) كانت التنظيمات الفئوية الانفصالية تنتظر الفرصة والظـروف السياسـية المناسبة لتظهر على السـطح السياسـي، وتعمل وتتنشط وهي بكامل الثقة بنفسها باعتمادها على الأوهام واستقوائها بالخارج للأسف، بعد مرحلة صعبة من العمل السري الذي مارسـته في الخفـاء، لم يفـرض عليها ولكنها كـانت تعد العدة في الخفاء عندما كان العرب في نومهم وجهلهم هـائمين هـائمين، لا شك أن التشكيلات الفئوية أياً كانت، تشـكل خطـراً حقيقيـاً على الوحـدة الوطنية يجب التنبه لـه، والعمل على تـدارك أمـره بكل طريقـة. ومباشـرةً صار يُقال (القامشلو) بدل (قامشلي) فهل يعني هذا شيء للعقلاء؟ وبـرزت المنظمة الأثورية للوجود، وصار يُطلب التخلي عن التحدث بحديث الله الذي في القـرآن الكـريم ليصـبح الحـديث بالكردية وصـارت تُـدَرَّسُ رسـمياً في خانقين؟ وهكذا طرحت الأمور بشكلٍ خاطئ لتفهم بعد ذلك بشكلٍ خاطئ.

مهاجمتــــه، ومحاولة هدمه وطمس معالمه، فبينما قــــامت الأقليـات وباسـتمرار، وقد أتيح لهم المجـال لإنشـاء الأحـزاب والتنظيمــات والجمعيــات والنــوادي الاجتماعية والسياســية والاقتصـادية بشـتى الطـرق وبرعاية داخلية وخارجيـة، بحجة إعطاء الحريات للإثنيات؛ لتشـكيل تكتلات بينيَّة مناوئة للكيـان العـربي وحاقـدة عليه كـانت هـذه التكتلات ومنذ زمن طويل تعمل بليـل! وتُعـدُّ العـدَّة من أجل لحظة الحسم مع العـرب والانقضاض عليهم (الحرب الاستباقية) والعرب غائبون غائبون غائبون.

بينمـا كـان المـأمول أن تكـون الأحـزاب والتنظيمـات الـتي نشأت على البطاح الأرض العربية خلال القرن العشـرين، ثـورة على الواقع العربي الفاسد تشمل جميع مناحي الحيـاة الفكريّـة والاقتصادية والاجتماعيّة والسياسية، كان الأمر بالنسـبة لتكـوين تلك الأحزاب والتنظيمات العربيّـة وعلى امتـداد الأرض العربيـة، في مناهجها المرحليّة والاسـتراتيجية، وأنظمتهـا الداخليّـة؛ على العكس تماماً لقد كـانت بالنتيجـة، مخالفـةً تمامـاً لتكـوين الأمـة العربية العام.

بحيث لم تكن الأحـــزاب والتنظيمـــات العربية فكريـــاً وسياسـياً في منـأى أبـداً عن الاخـتراق والاسـتباحة من قبل الشـعوبية واليهـود (كـان أصـحاب النزعة الشـعوبية واليهـود، يستطيعون بكل بساطة الانتسـاب إلى الأحـزاب والتنظيمـات العربية واختراقها والوصــول إلى العضــوية العاملة والقيادية فيها، إن لم يكونوا من مؤسسيها بالأسـاس وبالتـالي التنظـير لها وأدلجتها)

إن مفهوم الوطنية قضية ثابتة لا تقبل الضغط والانحسـار، قضية وجدانية إنسانية قال ﷺ: **«من مات دون عرضه فهو شـهيد، ومن مـات دون أهله فهو شـهيد، ومن مـات دون أرضه فهو شــهيد»** وهــذه القيمة والنوعية ثابتــة لا تتبدل، فهي ليست مشروعاً سياسـياً مـرتجلاً ومسـتزلماً كما تتخيل الشعوبيات، أو كما يتخيل أصحاب النزعـات الانفصـالية من الأقليــات، إنه فعلاً لا يكتمل إلا بــالولاء المطلق من قبل كل من عـاش على بطـاح الـوطن كل أنحـاء الـوطن الكبـير، فالوطنية ليست مجـرد جنسـية تمنح لرعايا الدولـة، ولا تحـدد ببطاقة شخصـــــــية عليها بضع كلمـــــــات إنها رابطة حضارية/أخلاقيـة/ وروحيـة، تجمع مختلف الشـرائح الاجتماعية والأقليــات في صــياغة تصــوغهم وتوحِّد بينهم، وهكــذا فــأن مفهوم (الـوطن) والوطنية يجب أن يتحـرر من الفكر المنغلق للأقليات والمفهوم الضـيق (للدولة القبلية والعرقية والطائفية

والعشـائرية)، والـتي غالبـاً ما تقـوم على العنصـرية العرقية والتعصب الفئـوي المقيت، فقد أظهـرت الكثـير من التجـارب السياسية على مدى تاريخ البشـرية مـدى خطـورة النظريـات القائمة على التفـوق الطـائفي أو العـرقي. وذلك لأن الـروح الوطنية الصادقة تعني الذوبان المطلق في قضايا الوطن، في جميع أرجائه، فكيف يستوي الإنحياز وعـدم الإنحيـاز إنها والله قسمة ضيزى، قال تعـالى: ﴿ أَلَمْ يَـأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُـوا أَنْ تَخْشَـعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَـزَلَ مِنَ الْحَـقِّ وَلا يَكُونُـوا كَالَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَـدُ فَقَسَـتْ قُلُـوبُهُمْ وَكَثِـيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: 16]

وتأسيسـاً على مـا تقـدم ذكـره فـإنَّ الخـروج من إشـكالية التشرذم والتقوقع في الهوية الفئوية وتعدد الانتماءات علينا في الوطن العربي أن نسعى إلى تذويب الطوائف والأقليات تـذويباً حضارياً وإنسانياً وجعلها لدى الأقليات خيـاراً وطلبـاً منهم وليس فرضـاً عليهم لأنهم أساسـاً في العروبـة جميعهم إخـوة لنـا وهم جزءٌ منا ونحن جميعاً جزؤهم الكبير.. قال عليه الصلاة والسلام: (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) أي أنه بالتقوى يصـبح الإنسـان - أي إنسـان - عـربي، وبـذلك تمامـاً يصـبح العـربي والكـــردي والأمـــازيغي والآثـــوري والكلـــداني والســـرياني والشركسي والتركماني وكـل إنسـان، من أي صـنف كـان وفي أي أرض حلّ، إذا كان تقيّاً فهو (عربي) لأنَّ العروبة كانت دائمـاً في مقابـل العُجمـة، وهي عـابرة وخارقـة وسـاحقة وماحقـة للفئات والشراذم المناوئة للحق.

انسـان القضـية متوجـهٌ نحو غاية منجـذبٌ بقضـية، وصـفة الجـذب الـتي تتمتع بها القضـيَّة تأتيها من وضـوحها في نظر (انسان القضيّة) إنَّ هذا الإنسان لا يرى وجوده النـاقص ولكنه يرى كماله فيما لم يتحقق بعد في القضيّة فهو لـذلك منجـذبٌ بالقضيّة إنَّ رؤية هذين الضربين من الوجود: الوجـود النـاقص والوجود الحق ومقارنتهما وتـبين ما بينهما من فـرق، إنَّ هـذه الرؤية هي الـــتي تحمل انســـان القضـــيّة على أن يتوجه نحو اسـتكمال ما هيته نحو وجـوده الحق وهـذه الرؤية تتحقق في رؤية القضية، لأنَّ القضية هي المعنى الـذي ينـير ويفسر كافة لحظـات السـياق، فرؤيتنا الكمـال في القضـية تمكننا من أن نـرى النقص في الحاضر ولا عكس فإنسـان الحاضر لا يمتلك رؤية انسـان المسـتقبل الـذي يـرى البعـدين معـاً لأن زمانه سياقٌ واحد كما سبق.

إنَّ الـذين يحسـنون فهم الحاضـر هم الـذين امتلكـوا رؤيـا المسـتقبل ومـا كـان لمـاركس مثلاً أن يجيـد تحليـل الواقـع

الرأسمالي لو لم يمتلك رؤيا المستقبل رؤيا المجتمع الاشتراكي إننـا منجـذبون بالقضـية بسـبب وضـوح رؤيانـا عنهـا فالرؤيـة الواضحة الرؤية التي تنـتزع قناعاتنـا العقليّـة، هي وحـدها الـتي تسـتطيع أن تشـدنا نحـو الهـدف والإرادة بـدون هـذه الرؤيـة لا تستطيع أن تحملنـا على الارتبـاط بأيـة قضـية لأن الإرادة بـدون الرؤية العقلية الواضحة ليسـت سـوى الـنزوة إن العقـل عنـدما ينير الوجود ويفهمه بـامتلاك معنـاه يصـبح إرادة فليسـت الإرادة سـوى العقـل الـذي انتلـك أوضـح معرفـةٍ في الوجـود امتلـك الحقيقة ومن جهة أخرى لابد لمن انتلك الحقيقة من ان ينجـذب بها ويتوجه نحوها وقد رأينا فيما سبق كيـف أن المعرفـة الحقّـة تغير من وجود صاحبها لأنَّ هذه المعرفة تكشـف لنـا عن صـلتنا الوثيقة بـالوجود فهي لـذلك تحملنـا على أن نتغـير من أجـل أن نغير العالم، العقل والإرادة إذن وجهـان لقـوة واحـدة إذا نظرنـا إليها من زاويـة المعرفـة رأينـا عقلاً وإذا نظرنـا إليهـا من زاويـة الفعـل رأينـا إرادة والعقـل لابـد أن يـؤدي إلى الفعـل والفعـل يقتضي العقل بالضرورة ليس من أجـل أن يكـون الفعـل ناجعـاً ولكن من أجل ان يكون هنالك فعل، إن امتلاك الحقيقــة امتلاك رؤية واضحة للوجود الحق وبالتالي للوجود الناقص أمرٌ لابد منه لكي نتوجـه نحـو القضـية لـذلك كـانت الحقيقـة بعـداً من أبعـاد الذات الإنسانية إذ لا بد منها من أجل تحقيق هـذه الـذات أحمـد حيدر، من كتابه (نحو حضارة جديدة)[1]

والحرُّ هو الإنسان المستعد دائماً وكـانت لديه قضـيّة نبيلة لا يخـاف، ويمتلك الشـجاعة والإقـدام...، وكـان على بيِّنة من أمــره، إنما شــرطُ الحريِّة الفهم والــوعي والإدراك والتفكُّر والتعقُّل، وليس للبهيمة ولا للجاهل ولا للمتخلف ولا للأعجم حريّة ولا خِيار؛ إنَّ الحرية قضيَّةٌ إيجابيِّة ومن لوازمها الوجـدان والضمير وفيها تجسـيدٌ للقيم والمبـادئ والمثُل العُليا وتحقيـقٌ لها على الأرض[2].

فالحرية للحـرِّ.. وليس للعبـد حرِّيـة؛ وهي تؤخـذ ولا تعطى، وفيها رفضٌ تامٌ لكلِّ أشكال الخضـوع والعبوديّـة للآخـر، وأنـواع (الاستزلام) والهيمنة والتَبَعَّيّة الفكريّة أو الثقافيـة أو الاجتماعيـة أو الاقتصـادية أو السياسـيّة، وهي على الـدوام طلبٌ وتحقيـقٌ

1 (?) أحمد حيـدر، من كتابه (نحو حضـارة جديـدة) توزيع دار الفكر بدمشق 1968.

2 (?) وكانت الشورى في محـاورة النـاس حـول شـؤونهم وشـؤون حيـاتهم وليست ولم تكن مـــبررا للإملاءات عليهم لتكـــريس وتســـويد الظلم والرسالات السماوية مهمتها الأساسية كانت إزالة الحواجز والقيود والعقد والخرافات والأساطير والوثنية والكفر والإلحاد، فـالتحرير كـان جـوهر كل الرسالات السماوية، ولكنها تحـولت عـبر الـزمن على أيـدي رجـال الـدين المتخلفين إلى غطاء سميك يحجب الهواء النقي عن رئتي الإنسان.

للسيادة الشخصيّة والوطنية، (فالسـادة عـادةً لا تطيـق أطـواق الحديـد... لأنَّ عيش الـذُّلِّ والإرهـاق أولى بالعبيـد)[1]، والحريّـة بدايـةً هي فهمٌ ووعيٌ وإدراكٌ وإحسـاسٌ بالحاجـة إلى الخلاص من القيـود والأغلال والآصـار، كـلَّ أشـكال القيـود الماديّـة والمعنوية الداخليّة والخارجيّة.

إنَ الحريّة مفهـومٌ إبـداعيٌ إيجـابيٌ بنـاء، وحالـةٌ رائعـةٌ من الإحكـام المستمر والتصويب باتجـاه الهـدف المجـدي والمثمر والمنتج والفعّال، ففي الحرية كسرٌ للقيـود وتخلّصٌ من الخـوف وسـيرٌ إلى الأمـام وتطلـعٌ نحو العُلى، وليس فيها مراوحة في المكان[2]؛ هذا وإنَّ القرآن الكريم هو كتـاب الحرية ويجب فهمه على هذا الأساس، والأنبياء جميعُهُم كانت أولى مهامهم في هذا العالم إزالة القيود المادية والمعنوية التي كانت مُقَيِّدَةً للإنسـان ومُعيقـةً لحركته وفهمه وتحطيم جميع الآصـار من على دربـه، والعربيُّ مؤمنٌ وحُرٌ بطبعه لا يخاف، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُـولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبًا عِنْـدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيـلِ يَـأْمُرُهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـائِثَ وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْـرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157].

وفي المعجم أنَّ (الحر بالضم خلاف العبد، والحُـرُّ خِيـار كـل شيءٍ، وأعتقه، وحُرُّ الفاكهة خِيارُهَا، والحُرُ: كل شيء فـاخر من شِعرٍ وغـيرهِ، والحـرُ الفـرس العـتيق الأصـيل، وحـرُّ كـل أرض وسطُها وأطيبها، ورملةٌ حَرَّ: طيبـةُ النبـات، وحُـرُ الـدار وسـطها وخِيارهـا، ورجـلٌ حـر: بيِّن الحَرُوريَّة، (والحُـرُّ: كُـلُ طليـقٍ من انسانٍ أو حيوانٍ أو نبات طـبيعي وعلى الفطـرة) والحـر الفعـل الحسن والجميل، والحُرُ: الصَّقْرُ والبازي (وذلك أنها من جـوارح الطيور، مهيمنةٌ من الأعالي مطلقة وليس لها قيود، وهذه صِفةُ الإنسان الحر؛) والحُرُّ ما بدى من الوجـه والوجنـة، والحـرُّ (كُـلُ غالي ونفيس ولا تمسُّهُ الأيدي؛)، و(الحرّة) عند العرب كل أرضٍ واسعةٍ صلبةٍ وشديدة، وهي عديدة عند العرب في كل إقليم.

والحُرَّةُ: الكريمـة من النسـاء ولفـظُ الحرائـر ضـدَّ الإمـاء، والحُرَّتَان: الأذنان نسبة للحريّة وكـرم الأصـل، ويُقـال للعينـان كريمتان، والحُرَّةُ: الكريمة لذلك يُقل ناقـةٌ حُـرَّةٌ وغيمـةٌ حُـرَةٌ أي كثيرة العطاء، و (المُحَرَّر) هو اسمُ لابن سـيدنا أبـو هريـرة رضي الله عنه والحريّة اسـم الفعـل للعتـق والانعتـاق، وأرضٌ

---

1 (?) هذه الصورة مبنيةٌ من النشيد الرائع (موطـني) للشـاعر العـربي عمر أبو ريشة .

2 (?) المراوحة في المكان عمل أهوج طائش غير مجدي ولا منتج.

حــرةٌ: لا ســبخةَ فيهــا، والحريّــة من العــرب أشــرافهم ومن خالصهم، والحر من كل شيء أعتقه، والتحرير للكتاب التقويم والتخليص والتحسين بإسقاط السـقط منـه؛ وللحسـاب إثباتـه مسـتوياً لا غلث فيـه ولا سـقط ولا محـو، والتحريـر للرقبـة اعتاقها والحرُّ من العمل شـاقُّهُ وشـديده، والتحريـر للولـد أن يفرده لطاعة الله تعالى)[1]

وفي اللاتينية اتخذت لفظة liberal)) معنىً سياسياً واضحاً، وكـانت تشـير إلى امتيـاز اجتمـاعي محـدد وإلى طبقــةٍ من الرجال الأحرار (free men) وذلك لتميزهم عن الآخريين الذين لم يُعتبروا حياتيّاً أحراراً؛ وقد دخلت الإنكليزية والفرنسـية من اللاتينية (liber) ثم بـــدأت تشـــير إلى (الإذن!) والامتيـــاز أو الإجازة أو الترخيص الرسمي ... ولكن المقيَّد غـير المفرِّط أو (الفاسـق)[2]! وبالمناسـبة فـإنَّ من اسـماء(الأذن) في العربية (الحريـــة) ولكن ما العلاقة بين الأذن والإذن؟ وفي القـــرآن الكريم قال تعالى: وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُـؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُـونَ هُـوَ أُذُنٌ قُـلْ أُذُنُ خَيْـرٍ لَكُمْ يُـؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُـؤْمِنُ لِلْمُـؤْمِنِينَ وَرَحْمَـةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [التوبـة:61] مما يشـير إلى العلاقة الوثيقة بين اللغة اللاتينيّة واللسان العـربي المـبين، لكنها عنـدما صـارت لفظة (liberal) تعني في اللغـات الأوربيّـة: (حرية الإرادة) فإنها صـارت تعـني (فاسق) أيضاً، ثم صارت في النصف الثاني من القرن الثـامن عشر والقرن التاسع عشر تشير إلى الواضح والمتفتحِّ الـذهن غــير الجامد أو غــير المُقيَّد التفكــير؛ وأحيانــاً (المُتَفَلِّت)، ثم صـــارت تشـــير إلى الآراء المتحـــررة غـــير المقيَّدة (معـــنى سياسي)، ثم أصبحت تشـير إلى الإرادة الحـرة، أي المُعارِضة للجبريِّة والحتميّة والتحكم المركزي والبـيروقراطي اجتماعيـاً وسياسـياً؛ فــ(الليبراليــة) الأوربية مبــدأ لأنــواع ضــرورية من الحُريّة...ولكنها تُعـــــبر أيضـــــاً عن الفردانية والاســـــتثنائية والاســـتثارية، حيث أن مبـــدأ الحُرِيِّة يَحْجِبُ في طياته معنىً خطيراً من الناحية الاجتماعية، والتي كانت تتسم على الدوام بالدقة والقواعد التاريخية الصـارمة، إن (الحُرِيِّـة) مزيجٌ من الأفكار المحررَة والمقيَّدة التي تدل عليها.

كذا فإنَّ لفظ (التحرير) و(الإطلاق) و(التحرر) الـتي كـانت تعني في البداية - قانونياً وإدارياً - حق الانتخـاب أو التميُّز، أو الإعفاء من الخدمة المفروضة أو تسديد الدين، فقد صار يعني أيضــاً إجــازةً أو أذنــاً أو امتيــازاً لمن حــازَ على الأهليّــة، ثم

---

1 (?) تاج العروس للزبيدي الجزء العاشر.

2 (?) كتـاب الكلمـات المفـاتيح تـأليف ريموند وليمز ت: نعيمـان عثمـان، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب 2007

توسَّعت سياسياً في ما بعد لتعني ايجابياً وأولياً (المُحـرر)، ثم اتسمت بها الحركـات السياسـية المقاومة للفاشـية وذلك في الـدول المحتلّة مثل فرنسـة، ثم تم تبـني اللفظ خاصـةً في الجزائر وفيتنام في النصف الثاني من القرن العشرين.

ثم أصـبحت تُطلق على أو تتصف بها الأعمـال الإبداعيّـة، وصـار يتصف بها كلُّ مناضل من أجل فكِّ القيـود وتحقيق الحريَّة (لإزالة كل القيـود الداخلية والخارجيّة ـــ المادية والمعنوية؛ الـتي كـان من شـأنها أن تكبح أو تكبتَ كل نشـاطٍ انسـاني فعَّال) وخصوصـاً للتحـرر من الطغـاة (الحركـات النسـائية والعمالية والفلاحية والطلابية في القـرن العشـرين) أو من الاسـتعمار (الاحتلال للأوطـان والاعتـداء على الأمة والشـعب) ثم اتصـفت بها جميع الحركـات المنادية بالحرية، والرافضة لكل شـكلٍ من أشـكال العبودية أو أي مسـاس بالحرية الشخصـية، إنها معارضة لكافة أنـواع التسـلط والمعاملة غير العادلة؛ وهي تعبيرٌ عن اكتساب الأفكـار الفعَّلة للحرية وحق تقرير المصـير، وحريّة الارادة، لقد جمعت (الحرية) المعاني الشخصيّة الفردية والسياسية العامة.

إنَّ لمفهـوم الحرية والتحـرر صـلةٌ ما بـالعنف واسـتعمال المقاومة المـبرَرة ضد العـدو (أو الثـورة ضد اسـتبداد الحكـام السياسـيين، أو أي شـكلٍ من أشـكال وانـواع الاسـتلاب أو الاضطهاد، بما فيها البعد السيكولوجي والاجتمـاعي والثقـافي المعنـوي والمـادي) الـتي في كثـير من الظـروف تجعلُ من الأمور تسير وفق حتميّة لابد منها (النشاط والمقاومة لتحقيق ونيل الحرية)

لكنَّ الممارسة المنحرفة لعملية التحرُر لـدى (المتخلفين أو المنحرفين والمـارقين، وعمليـات التَفَلّت لمثـيري الشـغب والاضطراب والتشويش، تجعل المفاهيم مختلطة وتقربها من حالة الفوضى السـلبية والمرفوضة حتمـاً، وكـان مفهـوم (الفوضوي) قرين بالإلحادي)[1].

لأنَّ الجهلَ يحـول بين الإنسـان وبين حقه في الحريـة؛ فليس للجاهل إرادة ولا مشيئة وليس من حقه ابداءُ الـرأي أو الحركة أو اتخـاذ القـرار، لأنه ليس له رأي، وليس من حقه اسـتخدام الآلة ولا (التكنولوجيـا) ولا أجهـزة الاتصـال، ولا اسـتخدام ولا إشـغال طـرق ولا اسـاليب الأحـرار في الحـوار، ولكن من حقه فقط أن يتعلم وأن يحـاول الفهم[2]، و(الحريـةّ)

---

1 (?) المرجع السابق

2 (?) لقد عملت الأنظمة العربية وخلال النصف الثاني من القرن العشـرين على إبقاء العرب المسلمين في مركز العطالة والتَحَفُّظ والحِفـاظ عليهم

و(الثورة) مفاهيمٌ مستدامةٌ في المجتمعات الحضـاريّة الحـرَّةِ لا تتوقف عن التدفق ولا يَبْطُلُ العمل بها، والعلاقة وثيقةٌ جـداً بين الصورتين الذهنيتين (صورة الحريّة وصورة الثورة) فكريـاً وثقافياً لا تستغني ولا تسـتقل إحـداهما عن الأخـرى، فـالثورة امتـداد للحرية وعمـلٌ وتحقـقٌ وتحقيـقٌ لهـا، والحرية انطلاقٌ ومحـورٌ رئيسي من محـاور الثـورة الإيجابية البنائية الخلاقـة، و(الثورة) أساساً صِفَةٌ لفعل البركان والإعصار، لأنهما يثـيران الأرض الميتة أي يقلبانها ويعـــــدّانها أو يهيئانها من جديـــــد، وليست نسبةً للثور الذي يُضـرب والمُعَـدُّ دائمـاً للـذبح؛ فبينما الثورة في المعجم تعني: الهيجان والوثبُ (وثاروا به أي وثبــوا عليه، والثَّوْرُ: السطوع والنهوض والظهـور، كـذا يُسـتثار الأسد والصيد، والثور عند العرب كنية السـيد، وقـال عليٌّ رضي الله عنه (أكلت يـوم أكل الثـور الأبيض) أي السـيد الأبيض وأراد به سـيدنا عثمـان رضي الله عنه، والأبيض كناية عن الشـيب في رأسه رضي الله عنه والثور حمـرة الشـفق وانتشـاره، ويقـال ثورة من رجال أي عدد كثير، والثورة للماء ينبع ويتدفق بشدة وقـــــوة من النبــــع، وأثــــار الأرض حرثها وقلبها على الحب واستخرج بركتهـا، وثـورَ بَحَثَ. وثَـوَرَ القـرآن: بحث عن معانيه وعن علّمه وفــاتش العلمــاء في فهم معانيه وقيل لِيُنَقِّرَ عنه ويفكر فيه وفي معانيه.

وفي الحــديث: (أثـيروا القــرآن فــإنَّ فيه خــبر الأولين والآخرين) ومن المجاز أن الثورة تعني الانبعـاث، والثـائر لقب كل من ثار، والثائر الغضبان، فبينما (الثـورة) كـانت تعـني في البداية: (حركة دائرية اعتيادية في مكان وفضاءٍ محددين) لقد تطور هذا المفهوم من معناه الأساسي كصـفة وكفعل وأصـبح

في ثلاجة تحت الصفر، وحالت دون تقـدمهم ولو لبوصـة واحـدة أبـداً في أي من المجـالات، وكـانت كل التحركـات وكل المحـاولات مُفتَعَلة وخُلّبيةً ومرهونة للخــارج؛ لقد ذهب ذلك النضــال والكفــاح الفاشل ذهب هبــاءاً منثوراً ونسف نسفاً وكأنه لم يكن؛ وهكـذا ذهب القـرن العشـرون دون أن يكون قد حصل فيه للعرب المسلمين أي إنجـاز يـذكر، بل على العكس لقد خسر العرب فيه منجزاتهم؛ وأضـاعوا فيه وجـودهم ومسـتقبلهم، في جميع أقطـارهم، لقد تراجع فيه العـرب المسـلمون وتقـدم فيه أعـداؤهم، وصـار واضــــحاً أنَّ تلك النظريـــــات السياســـية، على اختلاف أنواعها ومواردها ومقاصدها، كانت عبارة عن طبخات طُبِخَتْ خارج نطاق العرب المسلمين، في عواصم غربية غــير عربيـــة، وقد وزِّعِتْ وانتشـــرت في دنيا العـــرب المسلمين، وذلك لإرباك العرب المسلمين، وإدخالهم في المتاهة أكبر فترة ممكنة من الزمان، أو لعـزلهم عـزلاً تامـاً إضـافياً، بُغْيَـةَ إجهـاض نشـاطهم وإبقــائهم في حالة العطالة والسـكون ولقــرون متخلفين لا يتقــدمون ولا بوصة واحدة إلى الأمام، في أي مجال من مجـالات النشـاط الإنسـاني من مشرقهم إلى مغربهم، ومن شمالهم إلى جنـوبهم كـان العـرب المسـلمون مستهدفين. (راجع كتاب المسلمون الأعراب من القمة إلى أدنى مســتوى) للمؤلف.

يشير في ما بعد إلى نهوض وتمردٍ ومعارضة وعصيان مسلح، ومن ثمَّ المقاومة المعلنة ضد السلطة؛ ثم أصبح صفة لكل محاولة لقلب أو تحويل النظام رأساً على عقب، أو عكس النظام السياسي المألوف عمداً وانكار السلطة الحاكمة أو العمل على التغيير.

(لقد وصفت (الثورة) في الفكر الأوربي عموماً وخلال القرن التاسع عشر، داخلياً من قبل أصحابها، أنها عنايةُ الإله؛ وكأنّ لها محركات خارجية محددة وأنها الثورة المجيدة، وخارجياً من قبل مناوءيها حتى قالوا عنها أنها التمرد العظيم، لأنَّ الثورة قد تبدأ بالأحداث الصغيرة التي تتضافر لتصبح حدثاً كبيراً وهائلاً وشاملاً وواسع النطاق ومؤثراً وعلى جميع المستويات وفي جميع الاتجاهات وقد يترك الفعل الثوري) أثره على الزمن لمدة طويلة وطويلة جداً)[1].

ومفهوم (الثورة) من الناحية السياسيّة كتمرد أصبحت تهدف إلى تدمير الطغاة، وتعتمد على نفس الصورة المادية للانقلاب ولكن للإطاحة من الأسفل! ثم لتضمن استعادة أو تجديد السلطة المطلوبة؛ وبالإضافة إلى ما تهدفه الثورة عادة من اعلان الاستقلال، فإنها تعني أن يكون الإنسان والمجتمع مفعماً بالحيوية والنشاط والإبداع أو التجديد والتقدم الايجابي والعميق في الحياة الاجتماعية ودون قيود، إن في الثورة استعادة لحقوق الإنسان الأصلية المستلبة (الفن بطبيعته ثورة، وهنالك ثورة المعرفة وثورة المعلومات)، فالثورة أساساً عمل وجداني وأخلاقي جميل وعظيم، وتهدف إلى التطور الايجابي الفعَّال ايضاً، أو للتخلص من ربقة الماضي إذا كان غير مجدي وغير مؤثر وغير فعَّال. إنها تتعلق بالتغييرات الجوهرية الحاسمة أو التطورات الجديدة في نطاق واسع من النشاطات ولها تفاصيل عديدة في مختلف المجالات، خصوصاً بعد الانتشار الواسع لـ (التكنولوجيا) في الزراعة والصناعة والاقتصاد، والفرق كبير بين الثورة والاصلاح... وقد شُبِّهَ الاصلاح بعملية ترقيع الثوب البالي كتعبير عن العمل غير المجدي ... بينما كانت الثورة على الدوام محاولة لعمل ثوب جديد تماماً ومتناسب دائماً للتطور الطبيعي في الحياة[2].

والثورة مفهوم عام وشامل وعميق الأثر، وبالتالي ليست للجانب السياسي فقط؛ ولكنَّها بالأساس سياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية وثقافية وأدبية وفنية، إنها عملية وتطال جميع المستويات ... وينبغي حدوثها على جميع الأصعدة وفي

---

[1] (?) المرجع السابق

[2] (?) روزا لكسمبورغ كتابها (ثورة أم اصلاح) 1905

كل زمان ومكان، ولا أحد يمكن أن ينأى بنفسه عن الثــورة أو أن يــدعي أنه بغــنى عن الثــورة أو أنه فــوق الثــورة، فــالثورة مفهــوم حضــاري ابــداعي ايجــابي خلاق إنها تعــني التجديد والابتكــــار، بالإضـــافة إلى كونها عنـــوان المقاومة للاحتلال والاســتبداد والظلم، ولكن لا ثــورة حقيقيّة دون اعــداد ودون تخطيط ودون تهيئة وتنسـيق وانتهـاج الأسـباب الموصـلة إلى الأهــداف الصــحيحة، لا ثــورة حقيقية يمكن أن تنجح أو أن تسـتمر إذا قـامت بشـكل اعتبـاطي غوغـائي، واعتمـدت على الصدف أو الظروف المفاجئة أو على الدعم والتمويل الدولي الخارجي أو على إحداث الفوضى والهيجان العاطفي وفقط.

وتـراث الفكر الثـوري العـالمي تاريخيـاً يشـير إلى ذلـك، وتجاربه المريرة في جميع العصور وفي جميع البلاد تؤكد ذلك بكل وضوح، ابتداءً من الأنبياء والرسل الربانيين الذين أسسوا للتغيير في أوضاع أممهم وعصـورهم وإلى ما شـاء اللـه، وقد مهدوا لذلك بالإعـداد وانتهـاج الأسـباب، وصـولاً إلى الثـورات الحديثة والمُعاصــرة الفرنســيّة والأمريكيّة إلى الروســيّة إلى الصـــينيّة إلى الفيتنامية إلى الجزائريّة وكلها تؤكد بما لا يـــدع مجــالاً للــوهم ولا للشك والخيــال، أنَّ الثــورة واجبــةٌ على الجميع، الذين يعقلون والذين يتفكرون والذين يوقنــون، ولكن يلزمها التخطيط والإعداد والتوضيب والتهيؤ والأداة الحقيقيّـة، وهي الحركـات الوطنيّة بحـق، وليس للعـرب المسـلمين في هــذا العصر للأسف الشــديد أي حركة أو أي مكــون يمكن أن يشملهم أو يعبر عن إرادتهم ولم يكن لهم في الماضــي؛ فمنذ انهار العصر العربي الأموي فَقَدَ العربُ السفينة والملاح.

والقضية في الثـورة ليسـت في فداحـة الثمن المـدفوع من الضــحايا من البشــر والحيــاة الإنســانية والخســائر الماديّــة والمعنويّة، لأنَّ القضـية ليسـت قضـية تضـحية فحسـب، ولكنهـا أساساً في مدى ما يتحقق ويُنْجَز من الأهداف الثوريّـة، فـالثورة ليست حركـة بلا جـدوى ولا هي غـير مسـؤولة أو بـدون جـدول أعمال، الثورة عمل ايجابي فيه انجاز وليست ضـياع للـوقت ولا هدرٌ للموارد والطاقـات والأرواح دون ضـمانة واضـحة للوصـول إلى الهدف.

لــذلك لا يقــوم بــالثورة ولا يقودها إلا العقلاء والمفكــرين والــذين لــديهم الــوعي الفــاهمين، الــذين يعـدون ويخططـون وينسقون ويهيئون قبل الإعلان عن الثورة، ثم تأتي الثورة في الــوقت المحــدد ثمــرة ذلك الإعــداد والتخطيــط، ولما كــانت الثورة عمل جماعي؛ إذاً كيف تُسعَّر وتشـتعل دون تنسـيق أو تخطيـط؟ إلا إذا كـان المطلـوب أساسـاً هو الهيجـان وفقـط،

وتوريط المجتمع العربي المسلم وجـره من حاله السـيئة إلى الحال الأسوأ[1].

إنك ترى العـربي المسـلم وطـوال القـرون الخاليـة، ومنذ صغره إلى أن يصبح على (العكاز) يداوم على الإصغاء للشيخ، وهو يقول عن نفسه أنا مجرد متعلم؛ صوفية وسلفية وشيعة، مع أن الأنبيـاء عليهم السـلام جميعهم كـانت مهمتهم تحرير النـــاس وإزالة العوائق والقـــوانين والقواعد والإملاءات المفروضة على العقـول والأنفس الـتي لم يـنزل الله بها سلطانا، ولكنها كانت من أوهام الناس وخيالاتهم، فهي مجـرد خرافات وسحر أسود كان قد فرض فرضا في بعض الظروف التاريخية التي سـاد فيها الجهل والهبـوط الحضـاري إلى أدنى مسـتوى، وكـان فيها الإنسـان مجـرد كـائن حي، ولكن مـتى سيصبح هذا الإنسان عالما؟ مـتى سـيفهم؟ أو مـتى سـيعطى الحرية ليفهم أو ليحرك عقله ووجدانه؟ متى سيتحرر الإنسان العربي من قيـوده وأغلاله المقيـدة؟ قـال تعـالى: إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَـمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَـاؤُكُمْ مَا أَنْـزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُـلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَـدْ جَـاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى [النجم: 23] بينما لدى الشعوب الأخرى، ينـال مرتبة (البرفسور) شخص وقد أعطى وأبـدع وأنجز وهو لم ينه العقد الثـالث من عمـره!! فلمـاذا يثقـون بأنفسـهم ونفقد الثقة بأنفسنا؟ وبالتالي من أين يستمد اللسان العربي قوته؟

إن من المهم أن يُعلم أن (الحريـــة) مفهـــوم قـــرآني أساسـي، وبالتـالي عـربي مـبين، فـالقرآن الكـريم أساسا هو كتاب الحرية وكتاب الثـورة وكتـاب الإنتاجيـة، والألفـاظ الدالة على الحرية في القرآن العظيم كثيرة جدا.

---

1 (?) وإنك تجد أمة العرب المسلمين، وعددها أكـثر من مليـار ونصف المليـار كلها تـتربع وتنبطح على الأرض... مريـدةً مصـغيةً ومنبهـرةً ومطيعـةً لكلام الشيخ الوقور (فقط لكبر سـنه أو لطـول لحيته أو لكـبر وضـخامة عمامتـه)؛ هذا الشيخ الذي قد يكون متخلفا سنينَ ضوئية عن الحضارة والتحضر أو عن الحضـور، أي عن الفهم والـوعي؛ فـالتخلف يـودي بحيـاة الأمة إلى الـدرك الأسفل، والعرب المسلمون مستسلمون ومُنسـاقون في هـذا الزمـان ومنذ عصور للأسف وراء هذه الظاهرة الصفوية الفاطمية المملوكية العثمانية.
فهي ليست عربية وليس لها علاقة بجـوهر الـدين الحـنيف لأنها لم تكن في صـدر الإسـلام، وهم لا يـدرون أن الإسـلام أساسا دين مجيـد، وليس دين السـكون والسـلبية والعجـز، ولكنه دين ثـورةٍ وحريةٍ وإنتاجيـة، ففي الـدين الحق إما أن تكـون عالما أو جـاهلا؛ وإذا كنتَ جـاهلاً فيجب عليك أن تعمل وأن تناضل لتكـون في البداية وعالمـاً وفي الطليعـة، وليس لك أن تفتخر بتخلفك؛ وليس هنالك في الإسلام حلٌ وسطٌ بين أن تكون عالماً وأن تكـون جاهلاً، فأنت إما عالم أو جاهل، وأن لفظ (مُتعلم) لغةً في الـدين كـان خطـأً كبيراً!

وتحرير ومحـررا والحر تتكـرر في آيـات الله كثـيراً، وهي تشير إلى تحرير الإنسـان من العبوديـة، وإلى إطلاق حاله من الأغلال والقيود، أيا كانت هذه القيود مادية أو معنوية. فالأنبياء والرســول جميعُهُم إنما بعثــوا لتحرير البشــرية من قيودها المقيِّدة، قـال تعـالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبًا عِنْـدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيـلِ يَـأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعـراف:157] وكـانت الأغلال تعـني القيود المعنوية الـتي تطـوِّق النـاس من الـداخل وتأسـرهم... لتعيق الفهم الصحيح للأمور والقضايا.

(تنتهي حريتك عندما تبدأ حرية الأخـرين) لقد أضـحى هـذا القول سالبٌ وغير كافٍ للتعبير عن الجـوهر العظيم للمفهـوم العــربي للحريــة، ويجب أن يعلم كل عــربي مسـلم أن عليه القـول: (إنـني أدافع وأقـدم كل ما أسـتطيعه لكي تتمكن من تحقيق حريتك ولكي تحصل على حيــــاة شــــريفة مترعة بالكرامــة)، لأن الحرية لا تكـون إلا على قـدر الـوعي وعلى مساحة ما نملكه من العلم والمعرفة.. والرسـالات السـماوية والأنبيـاء إنما بعثـوا لتحرير النـاس من العبودية ورفع القيـود والآصار المادية والمعنوية.

هـذا ويُعـرَّف القـانون على أنه نـوعٌ من القيد على الحريَّة لدى الناس، ويبرر واضعوا القوانين والمشرعون عـادةً عملهم بـأنَّهم من أجل تـأمين مصـالح المجتمع فهم مضـطرون لوضع القيـود (القـوانين) على بعض النـاس، ويناضل المفكـرون في العـالم من أجل ألغـاء أو التخفيف من أثر القـوانين الجـائرة، ويبحثون دائماً عن القـوانين والقواعد والطـرق البديلـة، الـتي تحقق مصالح الجميع دون المساس أو الاعتداء على المصـالح الفرديّة[1].

وإن أحدث تعريف (للديمقراطية) يقول: (أنَّ الديمقراطية هي إلغاء جميع السلطات) فلا ينبغي أن يتسلط الإنسـان على الإنسان؛ وتحت أيٍّ من الظـروف، بل يجب العمل على تحرير حياة الناس من تسـلط السـلطات، وقد (رأينا أن القضـية هي أحد اسـلوبي الحيـاة الرئيسـين، أنها أن يتجـاوز الفـرد حياته الحاضرة نحو هدفٍ ما، فهي ليست سوى هذا التجـاوز أو هـذا

1 (?) وطبعاً الفرق كبير بين مفهوم الحق ومفهوم القانون، فـالحق من الله سـبحانه وتعـالى، بينما القـانون هو رؤية من الأشـخاص تهـدف إلى تنظيم العلاقات والمصالح!

النزوع نحو...قبل أن يتحقق في أي مشروع عيـني ولكن هـذا النزوع أو هذا التجاوز للحاضر لابد من أن يتجلى في مشــروع عيني وفي تحقق مُشَخَّص، وهـذا المشـروع قد يكـون الفنـاء الصوفي أو الابداع الفني أو الكشف العلمي أو قيادة الشعوب ذلك ما رأيناه.

إن الفـرق شاسـعٌ وواسع بين مفهـومي الـذكاء الحيـواني الذي طرحه الفكر اليهـودي الغـربي، وبين الفهم الإنسـاني أو المفهوم العربي الأساسي للذكاء الفهم الإنساني الـذي يـدعو إليه الإيمان الحقيقي هذا الإيمان بـالمفهوم العـربي الـذي في القـرآن الكـريم والـذي ينطـوي على الـذكاء والـذاكرة والفهم والـــوعي والإرادة والحرية والرغبة في الســـموّ والـــرقيّ والكمـال، الكمـال والتكميل الربـاني للإنسـانية الموصل إلى أعلى عليّين لاسيما إذا ساد هذا الـوعي في الجماعة الواعيـة، والمجتمع الــــواعي، والمؤلف من مجموعة من الأذكيــــاء مجموعة من الواعين الكل يعمل والكل ينتج والكل يسير إلى الأمام وينظر إلى الأعلى «ولا ينفينّ هذه الحقيقة، ما هو عليه واقع العرب الراهن فهذا الهبوط شيءٌ طارئ وسـيزول بـإذن الله تعالى»

بينما الفكر الأوربي، ولاشــــك قد توقف عند حــــدود المخطط اليهـودي الصـارم الـذي الجَمَـهُ، وحـدد له معطياته الأرضــية العبرية البريــة، إن الخلافة الأوربية ليست الصــورة الحقيقية عن الخلافة الــتي أرادها اللــه ســبحانه وتعــالى لمخلوقه الأثير! بل إنَّ الخلافة الأوربية والغربية عموماً خلافـةٌ منحرفةٌ ومشوهةٌ وبعيدة كل البعد عن المراد الإلهي، فليست واحــدة، نظــرة الحَطّاب، أو الفحّام إلى الأشــجار والغابة ولا يمكن أن تكون واحدة، أو أن تتحد مع نظـرة الأديب والشـاعر والعالِم، إنَّ الحطّاب لا يرى في الشجرة والغابة، إلا الحطـام؛ بينما الشـاعر والأديب والعـالم يرونها عالمـاً مفعمـاً بالحيـاة والجمــال، من أجل ذلك فــإن النظــرة للخلافة أو لمفهــوم الخلافة ليست واحدة، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾ [الأحزاب: 72]

ان هذا التحقق الواقعي للقضية يخلق شعورا بالنحن لـدى المــرتبطين بــه، فنجد مثلا جماعة الفنــانين، جماعة العلمــاء، جماعة الاشتراكين، جماعة الرأسـماليين...، وهـذا (النحن) قد يكون ضيقا، فهو يبدأ باثنين مثل (النحن) الـزوجي حيث يرتبط الزوجان بقضية هي حياتهما المشتركة، وقد يكـون عـابرا مثل (ركــاب ســيارة معطلــة) فهم يؤلفــون النحن إلى أن تنتهي

الرحلــة، ولكن يكــون أحيانا على درجة عالية من الشــمول والثبـات مثل جماعة الاشـتراكين أو الرأسـمالين ولكن هـذا النـوع من النحن، مهما تكن درجته من الشـمول والثبـات فهو متعلق بالهـدف أو المشـروع الـذي ترتبط به الجماعة يبقى ببقائه ويـزول بزوالـه، ولكن ما هـذا الـنزوع نحو قضـية دون تعيين، هذا النزوع الذي يؤلف أحد اسلوبي الحيـاة الرئيسـين، وهل هو وضع أصيل لا يرجع إلى سواه؟[1]

والسؤال الآن هو: لماذا يؤدي حـذف الآخر إلى تهافتنا عن مستوى القضـية؟ ولمـاذا لا تقـوم القضـية بـدون التواصل مع هـذا الآخـر؛ والحق أنه ما من قضـية فردية على الاطلاق، وأنَ أشد التجارب اغراقاً في الفردية أنما تنشد المشـاركة، لننظر في تجربة الفنان والمتصـوف فهما يبـدوان أشد ذوي القضـايا اغراقا في الفردية، ولكن الفنان مع ذلك ينشد من يتـذوق فنه ومن يشاركه في رؤاه وهو من أجل ذلك يسـجل هـذه الـرؤى ولننظر في تجربة الصوفي، غنه حقا يرفض العــالم، ولكنه مع ذلك يصـطفي من هـذا العـالم مريـدين وأتبـاع، من أجل هـذا الاصـطفاء فهو ينشر تجربته على النـاس في الكتب، إن جميع ذوي القضية كانوا يخاطبون الآخر، وينشدون النحن، وإنّا لنرى ذوي الرسالات جميعا ينشدون الآخر ويقيمون معه حوارا يـدل على ذلك تلك الآثار التي تركوها)[2]

يجب العمل على تجلية المعــــاني العربية المبينة المبينة والكشـافة والكاشـفة الـتي هي في القـرآن الكـريم، تجلية صافية بعيدة عن قيـود التفاسـير المقيـدة السـاجنة للمعـاني، يجب اطلاق المعني التي في كتاب الله عز وجل لتبين للنـاس أن الحق في القــرآن الكــريم فقط وليس في المقــولات (الطــبري ومن تبعه ممن مارســوا على العــرب المســلمين السحر الأسود الذي أذهب عقولهم وشل قدرتهم على التفكير مئــات الســنين فهل آن الأوان للتحــرر من تميمة الطــبري وأمثاله؟ (التفكير دون معوقـات أو عوائق أو حـدود) وبالتـالي فـإن السـلفية والصـوفية والشـيعة، أبعد ما تكـون عن العقل والتعقل والفكر والتفكر معـا، إنهم مجـرد مقلـدين وهم جميعا على الــرغم من ادعــاهم التفكر والفهم؛ لكنهم على الحقيقة يعيشون في حالة صعبة، في غيابة الجب وغيابة الجهل وغيابة الجمــود، محجــوزين في جثــامين يتوهمــون في طــرائقهم

---

1 (?) هناك تجربة سيكولوجية ذات دلالة أو (نطولوجية) هادية في هذا المجـال، هي تجربة الانخلاع من الآخر اطلاقا مع اليقين بعدم اللقاء معه مرة أخرى، مثل تجربة اغتراب الفرد أو انعزاله المطلق، ففي هذه الحالة لابد من أن يتهافت هـذا الفـرد المعزول على مستوى العيش وينعدم لديه النزوع نحو القضية اطلاقا.

2 (?) أحمد حيدر، نحو حضارة جديدة، مرجع سابق.

العقيدية (الإسـلام دين وليس عقيـدة؛) أنهم على حـق، وهم عنه أبعد ما يكونـون والله المستعان على ما يصفون، لابثين في جلابيب الجهل جـاحظين؛ ليسـوا حاضـرين ولا واعين، ولكنهم يتوهمـون أنهم على حـق، قـال تعـالى: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُـوا دِينَهُمْ وَكَـانُوا شِـيَعًا كُـلُّ حِـزْبٍ بِمَا لَـدَيْهِمْ فَرِحُـونَ [الروم: 32]، إنهم لا يدرون أن الفرق كبير بين (العقيـدة) أو (العقائديـة) أي ما يعتقـده أو ما يرتئيه الإنسـان، وبين (الـدين الربـاني) والـذي هو النظـام والمنهـاج الربـاني المـنزل الـذي يتحتم على الناس العقلاء إتباعـه. وأننا يجب أن نقـدم القـرآن العظيم إلى العالم تقديما نصيّاً علميـاً مُفَعِلاً للعقـول محرضا ومثـيرا للأفكـار موصلا لليقين، وليس مجـرد تفسـير املائي خرافي واهم ومعجز، ولا تأويليا ولا سياسيا ولا عقائديا معطلا.

وبالتـالي ما الـذي فعله العـرب المسـلمون من إجـراءات ذاتية وقائية للسلامة في المسـاجد العربية علمـاً أن المسـجد هو النقطة المركزية في مشاعر العرب المسلمين وفي حيـاة العـرب المسـلمين فهل ضُـربَ المركز في حيـاة العـرب والمسـلمين إذاً فالنصر والانتصـار يجب أن يكونا أولاً في الفكر والعقل والوجـدان العـربي مع الأهمية البالغة للانتصـار العسكري الـذي يجب تحقيقه على العـدو في أرض المعركـة! وما جدوى قوتك في الخارج إذا كنت ضعيفاً في الـداخل فهل آن الأوان للعـرب المسـلمين الآن أن يـدركوا أنهم أصـبحوا مستهدفين كعرب مسلمين من قبل اليهود والصليبية العالمية المهـودة لأنهم عـرب ومسـلمون؟ وإنّ عليهم الآن أن يـدركوا أنَّ إعمـال العقل والـوعي والتفكُّر هو الطريق الصـحيح والممكن والسـبيل الأساسي للنجـاة من كل مـازقهم الحالية ولتحقيق النصر على أعدائهم، في كل المواقـع! هل آن الأوان ليـدرك العـرب المسلمون مطلع الألفية الثالثة أنّ الفتوحـات العقلية والفكرية هي أهم بكثير، ويجب أن تتحقق قبل سعيهم إلى الفتوحـات العسـكرية وأن الوصـول إلى تحقيق النجـاح والتفـوق والنصر والانتصـار يجب أن يكـون أولاً في الفكر والعقل والوجدان وهذا أولى بل ويجب أن يسبق في الأولوية، هـدفهم في السـعي إلى تحقيق الانتصـارات العسـكرية على أرض المعركة مع الأهمية البالغة للانتصـار العسـكري على العدو في أرض المعركة.

وإلا فما الجدوى من انتصار الحمقى والمجـانين والمُغيَّبين والمُغفلين وفاقـدي الـوعي والفهم مـتى سـيدرك العـرب المسـلمون أن القيمة الحقيقية للإنسـان، كـانت دائمـاً في إيمانه بالله العظيم، وأنه لا دنيا لمن لا يحـيي دينه وإنَّ إحيـاء

الدين لدى الإنسان يكون في تجليات أدائه لضروب الواجب تجاه المجتمع والناس، وحمل القضايا الوطنية بكل صدقٍ وأمانةٍ، والدفاع عنها في كل موقعٍ، وفي كل محفلٍ، وأنّ العبادات كلها كانت مفتاحاً لذلكَ، ومدخلاً يوجب على الإنسان الولوج منه إلى أعلى مستويات الإحسان وأنه لا دين للمنقطع ولادين للمنبت وأنّ بطن الأرض أولى بأولئك الذين لا يملكون المشاعر والأحاسيس الوطنية مع الدين السماوي وليس لديهم روح الثورة ضد الظلم وضد التخلف وضد الأعداء وضد القيود المقيِّدة للحرية الربانية العادلة وأنَّ كثيراً من الأحياء هم بالحقيقة أموات يمشون على الأرض، وأن بعض الأموات بالواقع هم الأحياء! كما يجب على المؤمن، أن يؤمن؛ بجماع فكره وعقله وقلبه وأن يمارس بسلوكه هذا الإيمان أداءً إيجابياً بناءً، متوجاً بالبذلِ والعطاءِ.

فمتى سيدرك العرب المسلمون، الذين أغرب بهم، أنه لا قيمة البتَّة لإنسان العيش، وأن القيمة كل القيمة عند الله سبحانه وتعالى لإنسان القضايا العادلة والسامية والنبيلة فكيف سيذهب العرب إلى مجابهة أعدائهم، قبل اكتشافهم وقبل معرفتهم لذاتهم كيف سيذهب العرب لمجابهة اليهود دون أن يقوموا أو قبل أن يقوموا أولاً بمحاولة اختراق اليهود أو بمحاولة تفكيك اليهود، لقد قام اليهود باختراق وتفكيك العرب والمسلمين فعلاً ومنذ قرون؛ فمتى ستصبح القدرة على الفهم والوعي والإدراك والرصيد من الإيمان العميق والقيم النبيلة السامية والمثل العليا؟ متى ستصبح هي المحددات الأساسية للزواج العربي الإسلامي، واختيار الشريك في الزواج العربي الإسلامي.

متى سيدرك الشباب العربي الإسلامي أن الجهل يمكن التغلب عليه دائماً عندما تتوفر لدينا إرادة المعرفة، وأن لذائذ العقول باقية وأنّ لذائذ القلوب باقية أيضاً أما لذائذ الحواس فسرعان ما تمضي، وأن عليهم أن لا يضيعوا الحكمة بين الشباب والجمال، وأنَّ عليهم أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم وأن يعلموا أن الفرصة تفضل دائماً العقل الذي يكون دائماً على استعداد متى سيعود العرب المسلمون إلى إرضاع أبنائهم وبناتهم مبادئ الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والمروءة والشرف والمجد، والروح الوطنية العالية مع الحليب متى سيعود العرب المسلمون ليعتقدوا أن الطفل من أطفالهم إذا لم يكن يحمل منذ الطفولة مبادئ الشهامة والنخوة والخير والعدل والاستعداد للتفكير بحرية وحب الوطن والدفاع عنه والذود عن الحرمات والمقدسات كل ذلك بعد الإيمان بالله

الواحد، أنه إذا لم يكن كـذلك، فهو طفـلٌ خاسر ليس له حـقٌ في شـرب المـاء ولا في تنفس الهـواء وذلك بغض النظر عن التشـويه الحاصل وعلى الـرغم من كل الـتردي وعلى الـرغم من كل الانحراف المعمم الآن.

ومتى سيتعلم الأطفال العـرب أن العلم الكثـير يقربنا من الله سبحانه وتعالى وأن الفكـرة الجديـدة الصـحيحة لا يعوقها إلا الجهل الشديد وأن التفكير الخلاّق يتطلب خفـوت الصـوت وسـكون أعصـابٍ وهـدوءٍ وأن الشـخص الـذي يصـغي جيـداً يسـتطيع أن يفكرٍ جيـداً، وأن المسـائل الهامة الـتي لا نعـرف عنها الكثير هي تلك التي يجب أن نشبعها درسـاً وأنّ علينا ان لا نضــيِّع أوقاتنا في مناقشة المســائل التافهة وأن عبقرية الإيمان بحاجة دائمة إلى جـرأة وإقـدام، وأنَّ عبقرية السـؤال هي أهم بكثير من عبقرية الجواب! وأنّ طرح السؤال بشـكلٍ خاطئ يوصل دائماً إلى نتائج كثيرة خاطئة، وأن طرح السؤال بشكلٍ صحيح يؤدي دائماً إلى نتيجة واحدة صحيحة.

وأنّ الفكر النـيِّر هو الخـير العميم وأن العلمَ فيه مفـاتيح الحرية، فـإلى أن يصل العـرب المسـلمون، بأجيـالهم اللاحقة إلى هذا المستوى الرفيع من الفهم والوعي والحضور والذكاء العميق الهبة الـتي يعطيها الله سـبحانه وتعـالى للأصـفياء من عباده المؤمنين، فإنني أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يهدينا سواء السبيل والحمد لله رب العـالمين، وأن الله ﷻ قد كَنَـزَ لنا في القرآن الكـريم والمـبيِّن والمُـبيْن كنـوزاً سـينفض الـزمن عنها كل الغبـار الـذي كرسه المفسـرون وسـتنفرج وسـتنثر لألاءها وجواهرها عنــدما يريد الله لها أن تتحقــق، ولا مبطل لمشـيئة الله ﷻ حين يحين ميلادهــا، فـالقرآن الكـريم والـذي يعرض لأشـياء لا تخطر على قلب بشر لابد من تحققها بـإرادة فوق إرادة البشـر، والأوطـان تبـنى على كاهل الأحـرار وليس على ظهور العبيد.

أما الوطـني الأصـيل صـاحب الأرض فإنه يُطـالب بها ولا يستطيع التخلي عنها أبـداً، على أن فيها أهله وعشـيرته، وهي بيئته وفيها قبـــور أجـــداده وتراثه وتـــاريخ آبائه وأمجـــادهم وذكرياتهم، فإذا اقتُلع من أرضه وانتزع منهـا، تحـول والأجيـال من بعده، إلى مجرد أرقام لا قيمة لهـا، كما هي حـال العـرب اليوم في مركز العطالة.

إنَّ من السهل على الغريب التنازل عن الأرض والحقـوق، بحيث تم العمل على اقتلاع العـــرب بشـــكلٍ مباشـــر، وغـــير مباشر، وتمت عملية تغريبهم وقيادتهم إلى خارج ذواتهم مادياً ومعنويـاً وتمَّ تحـويلهم إلى مجـرد حطـام أشـياء، بـدأت هـذه

المخططــات أيــام الاحتلال المباشر الفرنســي، والبريطــاني، لبلاد العـــرب في عـــام 1920م، وذهب الاحتلال المباشـــر، واستمرت المخططات الاستعمارية؛ وتم تنفيذها بأيدٍ وطنية[1]

---

1 (?) (فعصر الانحطــاط هو عصر الفردية الفجة الــتي تحقق ذاتها بوســائل الغابة: البطش والمراوغة معاً، والمثل الأعلى لهذه الفردية هو الســلطان الذي يستخدم كل إنسان دون أن يثق بأحد، ويقوم بتحقيق المنجـزات في سبيل تحقيق ذاته، ويستغل كافة مظاهر الحياة الاجتماعية فينقش اســمه بماء الذهب على المنجزات، ويتغنى الشعراء بأمجاده، ويؤكد رجال الـدين أنه امتداد النظام الإلهي الخ... وهو يستأصل البشر بارتياح البستاني الذي يقلم الأغصان الناشزة عن نظام الشـجرة. وبـالهبوط عن مسـتوى القيمة تغمض الرؤيا، فالرؤيا تتم في ضوء القيمة، ومن جهة ثانية فـإن اسـتغراق إنسان ذلك العصر في عالم العيش الخاضع للمصـادفة والمـزاج، وفقدانه الغد المضمون، كل ذلك يحول بينه وبين الرؤية الواضحة، فالمعرفة تحتاج إلى تحرر من ضرورات الحياة كما رأينا. ولذلك يرتمي إنســان ذلك العصر في النظرية الجاهزة فاقـداً كل حس نقـدي وكل قـدرة على التميـيز لأنه إنسان مهدور، هكذا يؤدي انهيار بعد البقاء إلى إنهيار أبعاد القيمة كلها. ثمَّ إن الطاغية لا يكتفي بـأن يهـدم بعد البقـاء وحـده، ولكنه يعمد إلى أبعـاد القيمة ذاتها فيقلمها مباشــرة، فهو يحجر على العقــل، ويحــول بينه وبين المعرفة، وذلك بأن يُغلفه بنظرية من عنده، وكـذلك فإنه يفـرض الصـمت ويقطع الحوار ويدمر كل نزوع نحو القيمة عن طريق تدمير صاحبه. هكـذا نجد عصر الانحطاط يضطهد المفكـرين، ويسـبق العصـور الحديثة بفـرض نظرية الدولة على المواطنين، وبذلك يقطع الحوار الحقيقي ويُغلفه بحوار كاذب، ويقتل (الزاهدين الحكماء) الذين يُذَكِّرُون بالقيم المنهارة. إنَّ عصر الانحطاط هو عصر السقوط الإنســاني من مسـتوى الشـخص ذي الابعـاد إلى مستوى الفرد المعزول، فاقداً أبعاده، ولكن الفرد في ذلك العصر لِم ينسَ أبعــاده المفقـودة وماهيته المسـتلبة، ولا نعـدم يـوم ذاك من يُـذَكِّر بالقيم المنهارة مثل المتنبي وأبي العلاء ومثل كبـار المتصـوفة (الزاهـدين والحكماء) ولذلك نجد المناخ النفسي لـذلك العصر مناخـاً كئيبـاً متشـائماً يسـوده الشـعور بعـدم الرضـى، فقد كـان إنسـان ذلك العصر يشـعر بما ينقصه، يشعر بأبعاده المستلبة ولـذلك لم يكن قد بلغ حضـيض الانحطـاط بعد.) كتاب نحو حضارة جديدة للأستاذ أحمد حيدر، مرجع سابق.

آفة التفكر والتفكير

(إذا اتخذنا من أواخر القرن الثامن عشر نقطةً للانطلاق محددةً تحديداً تقريباً، فإن الاستشراق رجالاته ومؤسساته، قد ناقش وحلّلَ بوصفه المؤسسة الغربية المشتركة للتعامل مع الشرق العروبة والإسلام، والتعامل معه بإصدار تقريرات واحكام حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه، وحكمه... الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق الأوسط وإسبائه، وامتلاك السيادة عليه... وما أطرحه هنا هو أننا ما لم نكتنه الاستشراق إنشاءً فلن يكون في وسعنا أبداً أن نفهم الفرع المُنَظَّمْ تنظيماً عالياً والذي استطاعت الثقافة الغربية أن تُتدبر به الشرق، بل حتى أن تُعيد انتاجه سياسياً واجتماعياً وعسكرياً وعقائدياً وعلمياً وتخيلياً... وعلاوةً، فقد احتل الاستشراقُ مركزاً هو من السيادة والمركزية في الفكر الأوربي ونظرته للعرب والاسلام، بحيث أنني أؤمن بأنه ليس في وسع إنسان يكتب عن الشرق العروبة والاسلام أو يفكر فيه أو يمارس فعلاً متعلقاً به، أن يقوم بذلك دون أن يأخذ بعين الاعتبار الحدود المعوقة التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل، وبكلمات أخرى، فإن الشرق بسبب الاستشراق لم يكن(وليس) موضوعاً حراً للفكر أو الفعل ولا يعني هذا أن الاستشراق، بفرده، يقرر ويحتم ما يمكن أن يقال على الشرق، بل أنه يشكل شبكة المصالح الكلية التي يستحضر تأثيرها بصورة لا مفر منها في كل مناسبة: يكون فيها ذلك الكيان العجيب (الشرق) موضعاً للنقاش. أما كيف يحدث ذلك... فإنه يظهر أن الثقافة الغربية اكتسبت المزيد من القوة والهوية بوضع نفسها موضع التضاد مع الشرق باعتباره ذات بديلة أو حتى سرية تحريضية) من مقدمة كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد.

التفكير وتخطيط البرامج

إن التفكـير الإيجـابي إضـافةً إلى القـدرات والاحتياجـات والاهتمامات والإمداد بالتسـهيلات المتاحـة وبـالخبرات الناضـجة المهنية والحرفية، فإنه يقوم أيضاً على الجهـود المبذولـة لوضـع (الـبرامج) المناسـبة لكـل مجـال من المجـالات المـراد تنميتهـا وتطويرهـا، وهو أحـد أهم عناصـر أو مراحـل التخطيـط اللازمـة والضـرورية للإنجـاز المتكامـل في أي مشـروع عمـل، وذلـك بانسـجام وترابـط وايقـاع سـليم دون تضـاد أو تنـافر، ودونـه (التفكير المبرمج) ستكون الأمـور اعتباطيـة وفي حالـة فوضـى وعجز، ولن تتم عمليـة الإنجـاز الوثيقـة والتنفيذيـة المبنيّـة على التكامل، وستكون مجرد حركة في المكان دون أي تقدم يُـذكر؛ ليس متوقعاً لها أن ترى النور وغير مضمونة النتـائج ولن تحقـق الأهداف المرجـوّة أبـداً، فالجـانب المعـرفي والجـانب النفسـي والمهـارات والجـانب البـدني، وكـذلك الجـانب الاقتصـادي والمستوى الاجتماعي والدرجة العلميّة كل ذلك لا يمكن تجاهلـه ومن الأهمية بمكان وهو يسهم ويؤثر في تكوين الفكرة واعـداد المفكرين وقناعاتهم أو فهمهم للموقف؛

فالبرامج بصـفة عامة هي عملية مرحليّة ضـرورية لتحويل الأفكـار المجـردة ومحاولة تجسـيدها في الواقـع، إنه السـعي لتحقيق الأهـداف بطـرق منظمة ومرتبة ومشـتركة، التخطيط إذاً هو مخطط يوضح كشفاً للعمليات المطلـوب تحقيقهـا، مع تبيـان ميعـاد البـدء والانتهـاء من تنفيـذها (أو تـرتيب الخطة والمقـررات والأنشـطة والعمليـات المقترحة كأفكـار أساسـاً، والتخطيط لها بشـكل شـامل ومتناسق ومتسـاوق مع بـاقي الخطط والبرامج المقترحة أو المُتصوَّرة، وتحويلها إلى أعمال منجزة على الأرض، وهو مجموعة خـبرات منظمة من نـواحي كثـيرة، وقد وُضـعَ لها هـدفٌ أو أهـدافٌ محـددةٌ يجـري العمل على تجسيدها وتحقيقها وهي مرتبطةٌ بوقتٍ محـدد، ومرصـودٌ لها امكانيات خاصة.

إنَّ الأفكـــار تحتـــاج دائمـــاً إلى خطط عملية منظمة (أي الـــبرامج) وهي الخطـــوات التنفيذيّة لعمليـــات التخطيط في جميع المجـالات والـتي سـبق وأن صُـمِّمَتْ سـلفاً، وما يتطلبه ذلك التنفيذ من توزيع زمني مناسب وتوضيح للطـرق وإمكانية تحقيقهـا، وهي تحتـاج أيضـاً إلى إدارة علمية صـحيحة فردية أو جماعية بعيـدةً عن العشـوائيّة؛ للتوجيه ومتابعة الجهـود من أجل تحقيق أفضل النتائج، لقد أصبحت عملية القيادة والإدارة

في هـذه الأيـام تعتمد على العلم والفن والـذوق وكـذلك على الأجهـزة والمعـدات التابعة والملحقة بشـكل عـام بكل مجـال (الجهـاز الإداري والاستشـاري والمعـدات الفنية والتكنولوجيا والاتصالات).

ويبقى السـؤال الأساسي هو كيـف؟ ولمـاذا؟ وما هي الحقيقة ؟ ومتى؟ وأين؟ وكم هو الحجم؟ وكم هو العدد؟ وكم هو الـوزن؟ وما هو النـوع؟ ومن مـاذا يتـألف؟ وما هي المـواد الداخلة في تركيبـه؟ وما هي علاقاته بـالمواد الأخـرى؟ ومن أين أتى؟ وإلى أين سـيذهب؟ وأين هو الآن؟ ما هي الاحتمـالات الـواردة والمحتملة تحقيقهـا؟ وإنَّ هـذه الأسـئلة وغيرها والعمل الـدؤوب على محاولة إيجـاد الإجابة الصـحيحة والصريحة لها هي سمة الفكر الحقيقي والأساسي الذي يجب تكوينه لدى كل طفلٍ عربي يافع سيُنشأ تنشئة سالمة فكرياً.

إن عملية التهيئة والإعـداد الفكرية والانتقـاء والاختيـار والقيـام بالأنشـطة الفعَّالة لتحقيق الأهـداف النظرية والعملية المنشـودة مهمـة، ويجب أن تكـون الجهـود الفكرية الخلاقة مسـتمرة ومتطـورة لتحقيقهـا، ليـتراجع من خلالها الضـعيف عديم القدرة، وليتقدم فيها القوي الجريء والجـدير بـالموقف واتخاذ القرار، إذ لم يعد من المفيد بقـاء القـديم المهـترئ إذا كان يسدُّ على الناس طـريقهم ويمنعهم من تحقيق الأهـداف! فالفكر الصحيح هو الفكر الحق، وهو الذي بالنتيجة سـيقبل به أو سـتقبل به الأكثرية السـاحقة عنـدما تكـون واعيـة، لكنهم سيستجيبون للمبادئ والمبادرات الودية؛

لـذلك يجب ألا ينتظر (المفكر الحـق) من الآخـرين أن يبادروا بل عليه بـذل الجهـود الإيجابية والبنـاءة لإيصـال فكرته الجديـدة لأولئك النـاس مهما كـانوا بعيـدين، وقبـول الـردود والأفكـار المرتجعة من المجتمع والإفـادة منهـا، فـالمفكر لا ينظر إلى نفسه على أنه وحيـداً أو معـزولاً أو مختلفـاً عن الآخـرين! ولا يُشـغل باله أكـثر مما ينبغي بانطبـاع العامة من الناس لأنهم متحولون مع مصالحهم وهـذا شـيء طـبيعي، إن المفكر الحقيقي ليس مهووساً بإرضاء كل الناس (الجمهور).

إن المفكر الحق لا يغضب ولا يكـتئب، إذا بـدا له أنَّ الآخرين ليسـوا على مستوى فرضـيته، وهو لا يحـاول احتكـار الـرأي وفرضه عليهم، إنه يفـترض على الـدوام أن الآخـرين مشـدودين إلى ظـروفهم ومسـتهلكين وتسـتغرقهم أعمـالهم الخاصّـة، ومع ذلك فـإنَّ المفكر الفذ هو الـذي يبـدي للآخـرين قمة الاحترام، فاختلاف الرأي شيء إيجابي يجب أن يُسـتثمر؛ وهو لا يستلزم العـداوة أبـداً وأصـحاب هـذه العقليّة فقـراء لا

يملكون الوسائل والأدوات العلمية والعقلية في التفكير، ومن الثابت أن التعرف على الآخر ومحاورته ضرورة وفيه نقلٌ من كونه بالنسبة لنا مجهولاً إلى كونه معلوماً وهذا شيء مهم لقوتنا وينفي خوفنا، كذلك فإن اختلاف الآراء حالة ايجابية ضرورية ومفيدة إذا وضعت في أطرها المناسبة، ضمن ما يُسمى قواعد اللعبة الحوارية في المجتمع لتكون من آدابه وداخلةً في صميم سياقه التكويني، ويشعر الإنسان في أعماق نفسه بالعجز عن استيعاب المتغيرات الجديدة إذا كان يعاني من القصور الذاتي وعدم الاطلاع على التراث الفكري والفكر الحديث، ولكن الناس إذا وفرنا لهم فرصة الكلام فإنهم سيكونون راغبين فعلاً في رفقتنا والإصغاء لما نقوله.

فاللغة الوطنيّة عاملٌ لتعزيز الروح الوطنية والانتماء لدى المواطنين وهي شرطها الأساسي الروح الوطنية أو هكذا يجب أن تكون؛ لتفضي إلى حرية (التفكير المنتج والإبداع) و(حرية الأرض)و(حرية العمل)، و(اللغة الوطنية) تُسْتَعْمَلُ بين الناس بشكلٍ واسع النطاق يومياً مع ضرورة أن يتم في ذهن كل مواطن (عربي) خصوصاً، التوضيح والوعي لمعنى الوطن والروح الوطنية والأهل والديار والأرض والأمة والقوميّة والدولة القوميّة الإنسانيّة على أنها لا تتعارض ولا تتناقض مع الدين الحق، فالعروبة قد لا تدل على دولة، الآن، ولكنها تعني الكيان الإنساني الأساسي الموجود في أعمق أعماق كل إنسان حضاري في العالم المنشود[1].

وبالتالي فإنَّ (الفكرة القوميّة) وإن كانت قد اكتُشِفَتْ حديثاً، أو تمَّ الإعلان عنها أولاً وصراحةً في (ألمانيا) 1806م، إلا أنها بالأساس كانت تمثل القانون الطبيعي الموجود فطرياً في الحياة البشرية، (ففي القرآن العظيم كل نبيٍّ بعث أولاً إلى قومه وفي قومه) وإنَّ من الخطأ والخطل العمل على تجاوزه (قانون القومية) أو تخطيه؛ بدل فهمه وتفهُّمِهِ، كما فعل من قبل الشعوبيين الإسلاميين والشعوبيين الشيوعيين على حدٍ سواء في الساحة العربية، الذين عملوا على تحطيم القوانين الحقَّة وتجاوزوها جهالةً وتزويراً في محاولة لتضليل المسلمين العرب)، لذلك كانت من القضايا الهامة والتي يجب أن لا توْزَنَ عند (العرب المسلمين) بالموازين الخطأ؛ وبالتالي

---

1 (?) إن أوربة التي أخذت من العرب المسلمين كل أسباب البناء، واستفادت من العلوم العربية الإسلامية في الطبيعة والكون، إلى أقصىٰ الدرجات، لأن ذلك كان ضرورياً لهم، لبقاء أجسادهم في القسم البارد من الكرة الأرضية، وتوفير سعادتهم فيها؛ أما الروح، فإنّ الروح (النفس) هي في مستوىٰ رفيع جداً لم تتهيّأ أوربة لتفهمه، وتوفيره لنفسها، وذلك من مادبة القرآن الكريم، ومن سرادق الإسلام، الدين السماوي العظيم، (السيرة النبوية وأوهام المستشرقين) مرجع سابق.

يجب ألا يُسأل عنها (مواضيع اللسان واللغة العربيين) إلا رجالٌ هم رجالُ القضيّة فعلاً، الذين كانت لهم هموم وطنيَّة عربية النخب والنبلاء والذين كانت على عاتقهم أوجاع الروح.

فلا يُنتَظرُ ولا ننتظرُ من الغرب أو من الشرق حلولاً لمشاكلنا وقضايانا، لأنهم لا يسمعون جرسها ولا يُميزون لحنها، ولم تكن لتعنيهم قضايا العرب ولا همومهم أبداً، إنهم بالنهاية لا يسمعون إلا أنفسهم ولا تعنيهم إلا مصالحهم، بينما ننتظر رأيهم بالعرب وببلاد العرب وبمصير العرب، فمتى يُفكر العربُ بقضايا العرب؟[1]

إن أنواع (الألفاظ العربية) عند النحويين كما هو معلوم هي الاسم والفعل والحرف، وهي إما مضمرةً أو واضحةً، صريحةً أو مُتَضَمَنَةً، ولاشك أن (الألفاظ) إنما وظيفتُها أن تؤدي معاني محددة للسامع والقارئ سواءً أكانت واضحةً أم مضمرة؛ بينما أجمع الباحثون على اعتبار الحرف (الوحدة الصوتية الأولى) أو أنَّ في الحرف (النواة الإيقاعية المؤسِّسَة في التعبير) ثمَّ جعلوا الحرف المُتَحَرِّك مقطعاً بحد ذاته، وأنَّ الكلمة المعبرة مؤلفةٌ من بعض المقاطع (مقاطع ووحدات صوتية مركبة... وأن ليس في العربية توالٍ لصامتيْن، ولكن صامت فصائت، وبهذا يُعرف نسيج الكلمة العربية وتتميز) بينما يتفاوت طول المقطع بين القصير والطويل؛ وتتناسق المقاطع في النص.. لقد كانت الأذن المرهفةُ السمع والقلب الفقيه الواسع المفتوح؛ هما الأداة الطبيعية لاستيعاب الفكرة الكامنة في اللفظة العربية لا الأرجل المستعارة. و(القرآن

---

[1] (?) و(الحروف الأبجدية العربية) وجدانياً كانت تشكلُ أُماً لكل معنىً مبين ولكل مدلول إنساني، ففيها استهدافٌ وفيها للإنسان العربي الحر مرامي محكمات، الذي كان يستطيعُ أن يجعل الأشياء من حوله تنفَعِلُ بانفعالهِ أو بفعال أنفاسه؛ وتتأثر بقواه العقليّة والنفسيّة وبالتالي عندما امتلكَ العربي زمام أمره، كان يستطيع تحويل كل ما في البيئة (الدنيا) لخدمته، فالأشياء في الطبيعة تنقل بشكلٍ تلقائي ما يجول في الفكر البشري، وهي موجودةٌ أساساً لتخضع للإنسان الطبيعي؛ لأنَّ الحروف لها أجراس فعلاً، ولكنها ليست مجرد أجراس، إنما هي معانٍ ودلالات أيضاً، وحاجة الإنسان عادةً لاتقف عند حد، وهو الآن في أمس الحاجة لمعرفة (معاني الحروف الأبجدية العربية ودلالاتها) على اعتبارها مفتاح فهم الكون، ومن أجل الوصول إلى تلك المعاني والدلالات فإنَّهُ من الخطأ أن نبدأ بالتنظير قبل أن تتجمع لدينا المعطيات كاملةً، والقول بأنَّ (ما زاد في المبنى زاد في المعنى) أمرٌ معروفٌ ومعمولٌ به أيضاً، ولكن لماذا كان من الواجب فهمُ معاني الحروف التي يتشكل منها اللفظ العربي؟ ولماذا التأكيدُ على ضرورة فهم معاني ودلالات الحروف في (اللسان العربي)، وما الفرق بين (اللسان العربي المبين) الذي هو محض الحق المُبين، و(اللغة العربية الرسمية) التي يتشارك فيها الجميع ويستعملها العدد الكبير من الناس لاسيما الطبقة العُليا من ذوي الأدب الرفيع والتربية والثقافة والأصالة... الوطنية. من كتاب (معاني الحروف العربية للمؤلف)

الكريم) إنما نَزَلَ من السماء ليُفهم لا ليُحفـظ! والله سـبحانه وتعــــالى هو الحافِظ وليس النــــاس؛ قــــال تعــــالى: ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف:64]، ولذلك فـإنَّ أمر حفظ الكتب السـماويّة وكـذلك القـرآن الكـريم، فإنه لم يُناط بالبشر ولم يكن ليُناط حفظه بالبشر أبداً وليس بمقـدور البشر أمر حفظ القـرآن العظيم، قـال تعـالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر: 9] فيما لو أراد - لا قدر الله - رب العزة سحبه من أيد البشـر؛ والواقع فإنَّه لم يكن وليس مطلوبـاً منهم حفظ القـرآن الكـريم وإنما فهمـه، لأنَّ حفظه أساساً قضـيّة ذاتيّة موجـودةٌ فيـه؛ وهي تحتـاج إلى قـوةٍ غـير متناهيةٍ وغير محدودة، وإلى اندفاعٍ وشجاعةٍ خارقةٍ وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله تعـالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:82] بينما كـان المطلـوب منهم دائمـاً العمل على فهم القـرآن الكـريم، آياته والتفكّر بها واسـتيعابها والبنـاء عليهـا، وطريق حفظهم للقرآن العظيم، لمن ألقى السمع، مختلفٌ تمامـاً عن طريق فهمهم لـه، ذلك لأنَّ الفهم فيه بنـاءٌ وارتفـاعٌ وانتقـالٌ وقفـزٌ وسـبقٌ وسـيرٌ حـثيثٌ إلى الأمـام، أي فيه فتحٌ وكشـفٌ وابداعٌ وعلمٌ حقيقيٌ لا هـوادة فيـه، وكسـرٌ لكل أنـواع القيـود والعوائق المادية والمعنوية الـــــتي يمكن أن تعيق الحيــــاة الإنسانية الصحيحة.[1]

في حين أن موضوع استنساخ المصحف الشـريف وكتابته وتنقيطه وتلوينه وزخرفته أمرٌ عاديٌ تلقائيٌ واردٌ لـدى النـاس

---

[1] (?) وفي عصر المأمون فعلياً، بدأ إقصاء العـرب، عن الدولـة، وبـدأ إبعـادهم عن تولي شؤون الـدين والـدنيا، بشـكلٍ قصـدي مُتَعَمَّد، واعتمد الخلفـاء منذ ذلك الحين على الموالي، وأخذ يطغى على الـدين والـدنيا، تسـلط الأعـاجم، فـرس، وتـرك، ورومـان، ويونـان، وبـدلاً من أن يقـوم المـترجمون، بترجمة القرآن الكريم، وعلومه العربية الفذَّة، والحـديث النبـوي الشـريف، والحكمة العربية البالغة، والشعر العربي الرائع، والقصص والروايات العربية المعبرة، والمليئة بـالعبر والمواعظ والأمثـال والحكم، وذات الدلالـة، إلى اللغـات الأخـرى، في عصر المـأمون، جُلبت الفلسـفة الوثنية اليونانية الرومانيـة، والعقائد والفلسـفات الفارسـية الهنديـة، على ضـآلة مسـتواها وضـحالة مضـامينها وقيمتهـا، بالنسـبة لكلام اللـه، سـبحانه وتعـالى، وحـديث رسـوله الأعظم صلى الله عليه وسلم، وكذلك بالنسبة للشعر العربي، الذي كان في الأوج، حكمـةً، وبلاغـةً، وأقـوال مـأثورة، ومواعظ وعـبر لا أعظم ولا أبهى، ولكن ما حصل في عهد المـــأمون هو ترجمـــة، الفلســـفة الوثنية اليونانية الرومانية؛ والعقائد والفلسفات الفارسـية الهنديـة؛ على عجـل؛ إلى اللسـان العـربي؛ وليس العكس! وأقحِمَتْ وزُجَّتْ في مواجهة المد الواسـع، للـدين العربي الحنيف، وكان صراعاً مريراً، فاز به الفقهاء العـرب المسـلمون، في بعض القضايا الفكرية العقائديـة، أهمها قضـية خلق القـرآن الكـريم، كما هو معروف.

من قبيل تحقيق المنفعة والمصـلحة الملحّـة، مثله مثل عملية التنفس والأكل فهي لم تكن بحاجـــةٍ إلى التأكيد عليها ولكنها تلقائيّة طبيعيّة عاديّــة. قــال تعـالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْـدِهِ وَهُـوَ الْعَزِيــزُ الْحَكِيمُ ﴾[فـاطر:2] قـال تعـالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِــكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَـكَهُمَا مِنْ أَحَـدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر:41]

بينما مبدأ (الحفظُ) الذي تكرس عـادةً لـدى النـاس (إبـان العصر الشـعوبي العباسـي) فإنه صـار يعـني مجـرد الضـبط الشــكلي للنص ونسـخه واستنســاخه بالقواعد الثابتة والآراء والأقاويل الموروثة[1]، وتسجيله على صفحات الذاكرة وقراءته بطـرق وفق القناعـات المتفق على صـحتها من قبل أصـحابها ومخترعيها[2]، وصار هذا الأمر لدى الناس يعتـبر منتهى الجهـاد

---

1 (?) وضعت القواعد بدايةً للأعاجم ثم أصبحت إملاءات وقيــوداً تقيِّد الفكر العربي، وهكذا عملـوا على إدراج القواعد والتقنينـات في (اللغة والـدين) وتحكم من يُسمون (بالعلماء) بالأمة العربية وكافة المسلمين في العـالم، (العلماء الذين اخترعتهم السلطات العباسـية أولاً) لتكبيل النـاس، وشـدوا الوثــاق على ما أصــبحوا يســمونه (العامة والرعيـــة)؛ فلو أنَّ العـــرب المسلمين استمروا على عـادتهم بالاشـتغال في قـراءة وتحفيظ (القـرآن الكــريم) تلقائيــاً لكــانوا بغــنى عن تلك المعاهد والكليـات الأدبيّة الـتي استمرت في تدريس الأدب العربي والقواعد والنحو والصرف بشكلٍ كـان طوال السنين مُحبِطاً للآمال، بـدون أي نتيجة وليس له فائـدة تُـذكرُ على أي صعيد، لأنَّ العرب عملياً لم يكونـوا أساسـاً بحاجة إليه أساسـاً وبدونه بالتأكيد كانت ستكون الأمور أفضل.
أحد هؤلاء العلماء لا يـزال يُضـيِّعُ أعمـار النـاس ويجلس في مسـاجد دمشق سـنين طـوال لشـرح كتـاب (الحكم العطائيّة لابن عطـاء الإسـكندري)؛ وهو مجرد كتاب كتبه إنسان صوفي منذ مئات السنين، فألقى بظلاله على كتـاب الله العظيم! ليشكل عنه البديل، وعلى حياة الناس العرب المسلمين قرون طويلة؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَـدَّرَ(18) فَقُتِـلَ كَيْـفَ قَـدَّرَ ﴾ [المـدثر:19]. فهل نَضَبَتْ العقول العربيّة والحياة الإنسانيّة، وانعدمَ التفكـير دون معَوِّقـات ودون عوائق ودون حدود، وهل توقف فهم النـاس المؤمـنين في العـالم عند فهم المـؤمن الوحيد والمـوقن الوحيد (أبو العبـاس ابن عطـاء الإسـكندري) ومما يزيد الطين بلة أن هؤلاء العلماء المُحـدثين يؤلفـون المجلـدات لشـرح ذلك الكتاب! وغيرها من الكتب مثل (كـبرى اليقينيـات الكونيـة) ثم يتقيـؤون على أسماع الناس من عباد الله تعالى، ما يُكررون نسخه عن كتـاب (الحكم العطائية).

2 (?) في كتـاب (إعجـاز القـراءات القرآنية / صـبري الأشـوح، مكتبة وهبة القاهرة 1998) أوضح مؤلفه أن القراءات القرآنية كانت قد وصـلت إبـان العصر العباسي إلى أكثر من خمسين قراءة، حتى جـاء الإمـام الشـاطبي فشـطبها واختصـرها إلى سـبعة قـراءات متـواترة صـحيحة؛ ولكن الإمـام الشـاطبي أعـاد الاعتبـار لبعض القــراءات الـتي سـبق وأنكرهـا؛ فجعل القراءات الأساسية عشـرة قـراءات، وأنَّ خمسة قـراءات أخـرى اعتبرها شـاذةً، مع جـواز تـداولها، ومنذ ذلك الحين أُغلـقَ البـابُ على جـواز تعـدد القراءات وأوقفت على عشرة اعتبرت صحيحة وخمسة شاذة.

والنضال والكفاح، وأنهم بذلك قاموا بأداء الواجب والمطلوب وكفى الله المؤمنين القتال[1]!

على أنَّ النص العربي (القرآن العظيم) بطبيعته العربيّة متكامل ويجب أن يُنظر إليه وأن يُعتبر لوحةً واحدةً، وغالباً ما تعود آياته في آخره على بدايته مبيناً وشارحاً، إنه بالإضافة إلى كونه نصّاً يحضُّ على الإبداع وهو وجدانياً معبراً وخلّاقاً، فهو نصٌ رياضيٌ يخضع لقواعد غير مرئيَّة، قوامها الزوق الرفيع والاحساس المرهف، وأنَّ ألفاظه يُبيِّن بعضُها بعضاً فهي لا تحتاجُ من الخارج إلى من يُبيِّنها! وإلى هذا العصر لم يستطع العرب، واحد من العرب؛ لم يقم بترجمة القرآن الكريم، إلى اللغات العالمية اللاتينية وغيرها، الإنكليزية والفرنسية والروسية والإلمانية والإيطالية (وإنما قام بهذه المهمة مستشرقون يهوداً أو مهودين، وكانت أعمالهم تنطوي في أكثر الأحيان على تآمر واضح ضد الإسلام وضد الدين الإسلامي والمسلمين العرب، حيث قدموا لشعوبهم ترجمات مشوّهة، وصدَّروها بمقدمات أساءت إلى الدين الحنيف، فأفحشوا في تحريف المراد بالنص القرآني، وهم عندما ترجموا القرآن الكريم، لم يترجموه في الغالب على أنه كتاب الله سبحانه وتعالى، بل على أنه مجرد أفكار، وأدب، وفلسفة، وثقافة، وعبقرية محمد صلى الله عليه وسلم، إلا نادراً منهم،)[2]

وكان الشرطُ الأوحد لفهم القرآن الكريم هو الإيمان الصادق بالله تعالى، فهو لا يبين لغير المؤمن بالله تعالى أبداً، بل هو لغير المؤمنين عمىً، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: 44].

ومتى سيدرك العرب المسلمون الذين أغرب بهم أنَّ هنالك فرقٌ كبير جداً بين مفهوم (القرآن العظيم) وبين مفهوم (المصحف) وهو تماماً كالفرق بين مفهوم (الصورة

---

1 (?) وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى قول فالفقيه الأندلسي (ابن العربي) ~ والذي كان يؤكد للمسلمين على عدم جواز تحفيظ القرآن العظيم للصبية في الكتاتيب؛ قبل أن يتعلموا شيئاً من الآداب والعلوم والرياضة، وذلك حتى يتمكنوا من استقبال آيات القرآن العظيم وأن يفهموه فهماً صحيحاً متيناً، وقد تبين أن من كان قد حفظ الآيات من القرآن الكريم حفظاً ببغائياً منذ الصغر وبالبركة على طريقة الصوفيّة والسلفيّة والشيعة، فإنه على الأغلب يختم حياته ـ مهما طالت ـ دون فهم لتلك الآيات الكريمة الفهم الصحيح.

2 (?) عن السيرة النبوية والمستشرقين، مصدر سابق.

الفوتوغرافيــة) وبين مفهــوم الإنســان الحقيقي الحي النــابض بالحياة [1].

فالمصـحف الشـريف بإشـاراته ورمـوزه وأحرفـه وزخارفـه وألوانـه وقواعـده وقراءاتـه المتعـددة إضـافةً إلى كـل العلـوم والخدمات التي نشأت حوله ولخدمته؛ إنما هي مجرد محــاولات إنسانيّة بحتة لتصوير القـرآن العظيم أو هي صـورة عن القـرآن العظيم المحفوظ أساساً من قبل الله عز وجل, أو هـو محاولـة لرسـم صـورة للقـرآن العظيم المحفـوظ بوعـد اللـه وليقـوم الناس من خلالهـا بـالاطلاع على القـرآن العظيم وقراءتـه ليس إلا، إنَّ المصحف الشريف يجب فهمه على أنه مجرد نافذةٍ على القرآن العظيم، وقد تتالت وتعددت المحـاولات لكتابـة وطباعـة المصحف الشريف، وكثيرة تلك الخدمات الـتي قـام بهـا النـاس المؤمنون عبر التاريخ لخط المصحف الشـريف وتنويـع أسـاليبه وتجويـده بعديـد قراءاتـه، لكن المصـحف الشـريف يبقى مجـرد صــورة مصــنّعة من الحــبر ومكتوبــةٌ أو مطبوعــة على الــورق والكرتـــون، ويجب أن لا يتحـــول المصـــحف الشـــريف عنـــد

---

[1] (?) الحقيقة أن كتب التفسير التي بدأت في مطلع القـرن الرابع للهجـرة مع ابن جرير الطــبري، هل هي محــاولات جــرت لإعــادة كتابة القــرآن العظيم وهل كانت وبـالاً على الفهم الصحيح لكلام الله سبحانه وتعـالى، وتحويلاً عنه إلى جهة معاكسة تماماً ومن هم أهل العلم الـذين أخذ عنهم المفسرون عند قولهم قال أهل العلم؟

لأن كلام الله سبحانه وتعالى المنزل إلى عباده، لا يحتاج ولم يكن يحتاج إلى تفســير...! بحيث عملت تلك الكتب على اعوجــاج الخطــوط الــتي كــانت مستقيمة! إنها كانت محاولات لاسـتبدال الصح بالخطأ؛ كما كـانت قد فعلت من قبل كتب التوراة التي كتبها اليهود بديلاً عن التوراة الحقيقية التي أنزلها رب العالمين وكان فيها كلامه جل جلاله، والأناجيل التي كـان قد كتبها الكتبة بديلاً عن كتاب الله سبحانه وتعالى، لقد قامت كتب التفاسير وكتب الحديث بالدور نفسه؛ فعطلت بذلك العقـول وقادتها إلى مـداخل دخيلة إلى العطالة والسقم، وذلك منذ مطلع القرن الرابع للهجـرة، وإبَّان انهيـار الحكم الأمـوي وتسلط الأعاجم.

لقد عملوا على استبدال اللسان العـربي المـبين بما هو غـير مـبين وغـير واضح والمتنـاقض، وتممـوا تلفيقهم بكتب أدعـوا أنها صـحيحة وهي غـير صحيحة البتة!! إنها كتب الناسخ والمنسـوخ وكتب أسـباب النـزول، الـتي صـنعت لإتمـام الروايـات المصـنَّعة في الفيلم الـذي أخرجه الطـبري! بل كـانت تلك الكتب تتمة لمشـروعهم الـذي كـان يهـدف لاسـتبدال الـدين الحنيف بآخر غير حنيف؛ فهل كانت هذه المحاولات محـاولات مقصـودة؟!

وكمثال على ذلك فـإنَّ سـور المعـوذات الـتي كـانت في اللسـان العـربي المـبين تهـدف إلى تحويل الإنسـان من حالة العطالة والسـكون والوجـوم والاستسـلام والانقيـاد للواقع الـذي كـان واقع ذل وخنـوع وتبعية وشـرك وإشراك بالله وتسلط وهيمنة للأقويـاء على عبـاد الله كـانت هـذه السـور الكريمة والعظيمة عبارة عن دعوة للثورة والانقلاب والرفض لكل أشكال الهيمنة والسيطرة والتبعية التي كانت مفروضة من كل الجهـات، الداخلية والخارجية؛ فكيف ساقوا المعاني في سـور المعـوذات إلى الشـكل الـذي أعــادوا فيه الإنســان إلى حالة العطالة والســكون والقبــول والتطــبيع والرضى بكل أشكال التسلط والهيمنة والتبعية.

المسلمين العرب يجب أن لا يتحول المصحف وتحت أي ذريعة أو حجةٍ إلى وثنٍ يعبد بذاته، ولا علاقة على الإطلاق لأيٍ من الناس القاصرين أساساً لا علاقة لهم بموضوع حفظ القرآن العظيم وليس لأحدٍ منهم أي دورٍ في ذلك ولم يكن هذا الأمر مطلوباً من أحدٍ منهم ولا الرسولُ ذاته عليه الصلاة والسلام ولا الصحابة الكرام، فكيف يتجرأ البعض من الناس، المعدومين، أنهم يشتغلون بقيامهم بمهمة كانت وستبقى إلهية.

والقرآنُ الكريم أساساً كتابُ ربِ العالمين إلينا، فإنه موجهٌ إلى كل واحدٍ فينا، وفيه أسلوب (الشيفرة) والبرقية، والرسائل البريدية المضمونة، وهو وحيٌ مستدام يتلقاه العاقل والمفكر والمتيقن، من المتصلين على التوالي، وبدرجاتٍ ليصل أو ليلج إلى الإيمان، أرقى الحالات وأعلى المستويات منتهى الأهداف وغاية الغايات، أو ليَخْلُصَ إلى الإيمان العملي، فالإيمان درجةٌ عُليا لا يصل إليها المبتدئ العديم بالانتقال المفاجئ دفعة واحدة! بل عن طريق الصعود والارتقاء على سلالم العلم؛ من الأدنى الأقرب إلى الأعلى الرفيع، فإذا كان العقل موجهٌ لإدراكِ البيئة والتعامل معها، فإن التفكرُ هو التوسع في التعقل أفقياً وعامودياً والاشتمال في التحليل وإعادة التركيب، إنَّ التفكر يكون بتوسيع إدراك الإنسان وحدسه لحياته واتساع معرفته واشتمالها على الهموم الأخرى وارتفاع المستوى.

إنَّ الارتفاع يعطي الإنسان إمكانية الإشراف؛ إمكانية أكبر للإشراف، ففي الارتفاع تتسع الدائرة تحت الإنسان أكثر... فإذا كان التعقل متعلقات البيئة، أو متعلقات الواقع الذي يحاول أن يرقى[1]، لأنَّ التعقُّل هو البداية وهو أول ما يحصل للإنسان الواعي المنتبه جراء الإدراك الحسي للموجودات من حوله؛ إنه في تصادم الإنسان مع الواقع وجهاً لوجه، إنه علم الإنسان بظاهر الأشياء، ثم ينتقل هذا العاقل المؤيد أو يجب أن ينتقل مستمراً صاعداً إلى التفكر.

إن الفهم الصحيح للتعقل في القرآن الكريم يشير أولاً إلى أهمية أن يعمل الإنسان على سلامة حواسه من الأذى، وعلى صيانتها وحمايتها وتدربها ورفع مستواها دائماً، وإلى عدم تعويدها على الهبوط، هبوط المستوى.

---

1 (?) هذا مدلول القرآن الكريم، بينما الفلسفة التي جعلوها في فترةٍ من الفترات أم العلوم؛ فإنها تعمل على عكس الأمور وقلبها رأساً على عقب؛ بحيث تجعل العقل في المقدمة في المستوى الأعلى لتلغي أو تغييب الإيمان؛ وتخلط بين التعقل والتفكر؛ وهذا من باب الطرح الخاطئ الذي يُوصل عادةً إلى نتائج خاطئة، إنه نوعٌ من أنواع معاكسة ما نصَّ عليه القرآن العظيم، إنه شكلٌ من أشكال المشاغبة أو المخالفة.

فمثلاً دوام شم الورد هو غير دوام شم الخَبَث؛ ومثلاً فإنَّ التعود على سماع الصخب يُغيرُ من قدرة الإنسان على تمييز سقسقة العصافير وخرير مياه الساقية، وكذلك فإن التعود على رؤية المنظر الحسن غير تعويد العين على رؤية الفوضى والقاذورات، وتذوق الجمال والشعور به أعلى مراتب الإحساس بالواقع، قال تعالى: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا ﴾ [الإسراء: 36].

والواقع فإنَّ أفكاراً كثيرةً جداً وعديدة جداً تطرح ويتداولها الناس ويتناقشون بها ويحدثون بعضهم البعض، ويُقيِّمون على أساسها، بعضهم البعض، دينية وعلمية وثقافية، ولكن هذه الأفكار ليست كلها مفيدة وليست كلها منتجة، على الرغم من جمالها ورونقها وحلاوتها، أو على الرغم من زركشتها وتلونها؛ وتمتلئ بها بطون الكتب والمجلات وأفواه الوعاظ أصحاب الأصوات العالية؛ لكنها أفكارٌ غير مجدية وغير مفيدة وغير منتجة، وفي المقابل قد تكون هنالك فكرة واحدة صغيرة تُحدثُ ثورة عارمة[1] ولذلك حرمت المحرمات، الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وغيرها، حتى لا تجرح العقلانية عند الإنسان فتبعده عن القدرة على الولوج إلى الحالة التفكيرية العليا، فالعقل وهو أعمال التلاؤم مع البيئة بكل أبعادها، أو هو النشاط الحيوي في شتى أبعاد ومجالات البيئة القريبة المحيطة.[2]

---

1 (?) لذلك فأن النصر الحقيقي ليس دائماً في ما يتحقق في ساحة القتال فحسب على الرغم من أهمية الجهاد والنضال ولكنه أيضاً يكون في إيجاد الفكرة الصحيحة أولاً.. ثم يأتي الجهاد المجدي لتحقيق الحق والقضاء على الباطل، وذلك بعد الإعداد المناسب! أما قتال الأغبياء أما نضال الجهلة، أما هيجان الغوغاء فهو غير مجدٍ إطلاقاً ولا هو مطلوب أساساً، ولكن المستثمرين هم الذين عادة ما يستثمرون الناس ويدفعونهم للحركة العشوائية، لقتلهم دون جدوى، مجاناً!

2 (?) أحد مقرئي القرآن الكريم القدامى(الشيخ محمد البنا) في لقاءٍ إذاعي معه عام1951م سمعت صوته مسجلاً في (إذاعة صوت العرب) قال: إن قراءة القرآن الكريم في البلاد العربية مطلع القرن العشرين، كانت هواية للجميع، وكنا جميعاً نتسابق ونتبارى لحفظ القرآن الكريم ونتكبد من أجلها المشاق، كنَّا نذهب من بلد إلى بلد من أجل سماع المقرئين، وإذا سمعنا أن مقرئاً سيقرأ في أسيوط أو بنها كنا نذهب إلى هناك مشياً على الأقدام ومهما كبدتنا الصعاب، لنسمع المتميزين والمبدعين من القراء ونقلدهم ونضيف عليهم كل جديد، ففي ذلك الوقت لم يكن هنالك مجال لوجود متطفلين على القراءة وتجويد القرآن، وقال: إن المرحوم المقرئ الشيخ (محمد رفعت) كان لصوته مضخمات خاصة كان أكثر من ستين صوت في صوت؛ فهل يقوم مقرئوا القرآن الكريم في هذه الأيام بتسجيل تسجيلاهم لختم القرآن الكريم في استوديوهات في الولايات المتحدة الأمريكية على أحدث الأجهزة والآلات الهندسية، حتى أنَّ بعض الأصوات السيئة جداً (محمد حبش ــ السديس) وقد بلغت من السوء حداً لا يُحتمل ولا يُطاق؛ ومع ذلك فهي تُفرض في الإعلام العربي والإسلامي وبهدف الإساءة المتعمدة للدين والقرآن والعرب والمسلمين، وذلك عندما يتم تعويد الناس على أن القرآن الكريم يمكن تلقيه من الأصوات النشاز، والقراءات المُتَكَلِّفة المزعجة أكثر من كونها مرتلة للقرآن العظيم والتي لم تعد تؤدي

لذلك كان من مستلزمات التعقل الأحاسيس والمشاعر والدوافع أو جاهزية الحواس والمشاعر والدوافع ودربتها، وتنظيمها ونظافتها وتألقها وإحساسها وتحسسها للجمال؛ وقدرتها على وزن الأشياء المادية والمعنوية في البيئة القريبة، موضوعياً وكيلها واختيارها بدقة مهما دقَّتْ أو ثَقُلَتْ؛ كل ذلك سيساعد على كمالية التعقل أو الوصول والتوصل إلى حالٍ راقية في الواقع، وهو شرط التفكر، وهو من أولوياته وهو بوابته الأساسية، وغير العاقل معطلٌ لا يستطيع التَفَكُّرَ أساساً أو هو لا يصل إلى التفكُّر والتفكير مطلقاً؛ ومن ثمَّ فإن من كان لا يستطيع التَفَكُّرَ لا يتحقق لديه ولن يتحقق لديه اليقين قال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: 4]، وهذا رسمٌ لنطاق العقل والله أعلم.

بينما الآية التي سبقتها في السورة نفسها، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: 3]، كانت هذه الآية قد رسمت لنا دائرةً للتفكُّر أوسع من دائرة التعقل وأعلا مستوى من دائرة التعقل؛ لأن التفكر غالباً ما يكون في كلية عالم الوجود (الأرض، أو عالم الشهادة) أوسع نطاقاً، وكيف أنَّ الله تعالى قد مدَّ الأرض وجعل فيها أشكال وأنواع الجبال وأشكال وأنواع الأنهار رواسي، ومن كل ما هو مثمرٌ ومنتجٌ أشياء وأنواع كثيرةً، وكل الثمرات وجعل منها الذكر والأنثى زوجين زوجين، من أجل الديمومة واستمرارية البقاء وحفظ الأنواع، ثمَّ تعقب الليلُ النهارَ وخالطه؛ آية للذين لديهم قدرة على التفكُّر أو التأمل؛ لذلك كان مجال التفكُّر أوسع نطاقاً وأرفع وأعلى درجة من التعقل والله أعلم،

الهدف الأساسي من الترتيل، فهذه العملية فيها قتل من الداخل من الصميم، للدين وإحباط للعرب المسلمين غير مباشر ولكن اختراع (الميكرفون) مطلع القرن العشرين قد أثَّرَ تأثيراً بالغاً على تلك الأصوات الجميلة التي كانت حتى النصف الأول من القرن العشرين، لكون (الميكرفون) من خصائصه أنه يؤثر في الأصوات بنسبٍ متفاوتة وأنه ربما أساء للأصوات الجميلة وربما حسَّن أداء الأصوات السيئة؛ ما أدى إلى انسحاب أكثر الأصوات التي كانت تُعتبر جميلة في تلك المرحلة، كما أنَّ (الميكرفون) قد جرَّ الكثير من الأصوات السيئة إلى الغناء أيضاً وفرضها على الناس فرضاً وأصبحت تشنف الأسماع!) من كتابه تاريخ الموسيقى، الملحن صميم الشريف وزارة الثقافة دمشق؛ كذلك عندما سُئِلَ الموسيقار (عبد الوهاب) عن رأيه في أصوات هذه الأيام ممن يسمونهم (سلطان الطرب!) و(مطربة الجيل!) أجاب: أساساً سأوضح لكم شيئاً مهماً وهو أن الناس يجب أن تعلم أنَّ (كل حمار وله صوت ويمكنه أن يُجَعِّرْ)! 1985م، تلفزيون القاهرة برنامج النهر الخالد، وهذا يعني وبحسب تجربة هذا الفنان وكان عمره في حينه أكثر من (90) سنة: أن كل إنسان يمكنه أن يرفع عقيرته في أي وقت وأن يصيِّتَ صوتاً؛ ولكن ليس كلُ من صات صوتاً يمكنه أن يكون مقرئاً أو منشداً أو مطرباً! لكنَّ أذواق الناس قد أصبحت في خطر!

ومهما أوتيَ الإنسان الكاتب أو المؤلف من العبقريّة في القـدرة على التعبير، فإنَّ من خـواص النص العـربي اسـتمرارية وتـوالي التفتح في الذهن العـربي والتـدفق في المعـاني والتجـاوز للنص ذاته، فلا يسـتطيعُ أحـدٌ ادعـاء أو احتكـار الكمـال في الفهم، لأنَّ الكمال لله سبحانه وتعالى وحده[1] ولكن إلى أي مدى كان كتاب لسان العرب[2] قادراً على خدمة العرب أو الاستجابة لطموحاتهم في هذا المضمار، وفي هذا العصر بالذات عصر الزلازل الفكرية والبراكين الحضاريّة التي لم تعد تُقبل فيها النوايا الحسنة.

إنَّ الكتب التي اعتمـدت في تثـبيت معلوماتها على مجـرد تعـدد طـرق الـرواة، وإيـراد سلاسل طويلة من (العنعنـات)، لتؤكد صدق ما جاءت به من الأساطير والمبالغات والخرافـات مُتَخِذَةً منها طُرقاً للإثبات القطعي، مع تجـاوز الحق والصـدق والذوق والصح والخير والجمال، مع تناقضها الصـريح والواضح مع ما نصَّ عليه القــرآن الكــريم، قد أقنعت فيها في الماضي العقل العربي المهزوم وألزمته بها؛ هـذه الكتب برمتها لم تعد مقبولةً ههنا أبداً لأن المفـروض أن تخضع الألفـاظ والـتراكيب لمــيزان العقل الــذي أنشــأها أساســاً لا إلى (العنعنــات) بل لمُصــدِّرِها ومُنشـئها (العقــل) وهو لديه القـدرة على التمييـز (الميزان) والقدرة على التفريق (الفرقان) وبالتالي فـإنَّ عليه إســتلامها وتحليلها وفهمها واســتيعابها، أما (العنعنــات) فهي أساليب السحر الأسـود وقد مارسـتهٍ وطبَّقَتْـهُ الشـعوبية على الفكر العربي الإسلامي ردحـاً طـويلاً من الـزمن، عطَّلت فيه كل ركنٍ من الحياة العربية وقيدتها وقطَّعت شرايينها، أدخلتها في متاهــةٍ لا خــروج منهــا، وحصــرتها في قواعــدٍ وقــوالب مفروضةٍ، فرضها أنـاسٌ، والزمـوا بها العـرب وقيَّدوا عقـولهم وأيديهم إلى الخلف، بأمورٍ ما أنزلَ الله بها من سلطان، فمثلاً كيف قَبِلَ العرب ان يكونَ بيتٌ من الشعر مُحكَمـاً أو شـارحاً لآية من القــرآن العظيم أو مُبيِّنــاً له أليس من الــواجب أن نجعل القـرآن الكـريم هو المُـبين ألم يَقُـلْ ربّ العـالمين: ﴿ بِلِسَــانٍ عَــرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُــرِ الْأَوَّلِينَ (196) ﴾ [الشعراء]، فكيف أصبح القرآن الكـريم على يـدهم يحتـاج إلى إبانةٍ أو إلى توضيح؟.

---

[1] (?) لماذا لا تكون رسائل الدكتوراه والماجسـتير في الدراسـات العُليا في فهم سور القرآن الكريم، لماذا هي فقط في شرح قصائد (المعلقات)؟

[2] (?) هل قام كتاب (لسان العرب) وغـيره من المعـاجم التراثيـة، من حيث لا ندري وبشكلٍ غـير مباشـر، بتقييد ألفـاظ اللغة والعربية وتسـميرها في عقولنا وتحديدها في خيالنا وبالتالي رسمت لها صـورة تقيَّدت بها العقـول العربية وبها تم تحديدها؛؟

إنَّ اللسان العربي المبين بطبيعته مطلقٌ وواسعٌ وشامل وغير محدود، بل إنَّ ما فيه، قراءته وفهمه، قضيّةٌ مشاعيةٌ بين الناس وهي غير قابلةٍ للاحتكار أو الاحتياز؛ وهذا الأمر غير خاضع لشهادات عُليا ولا سفلى... ولا مشروط باللحى الطويلة ولا القصيرة، ولا هو من حق أصحاب الطرابيش والقلنسوات فقط؛ ولا هو مرتبط بالسن الكبيرة والهيئات والقامات ذات البسطة والأشكال المُقنَّعة أبداً.

فهل قام ابن منظور منذ مئات السنين (مع احترامنا وتقديرنا لجهوده الجبارة) من حيث لا يدري ولا يقصد! بتقييد النطق العربي وتحديد معالمه (قولبَتَهُ) وكان اللسان العربي المبين بالأساس مطلقاً، بينما قام كتاب (الأغاني لأبي فرج الأصفهاني) بتحديد معالم الماضي العربي (التاريخ)، وهل خضع العرب بفكرهم ووجدانهم للابتزاز وكانوا أسيري كتاب (لسان العرب) لابن منظور، وكتاب (الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني) وكتاب (ألف ليلة وليلة) لكاتب مجهول أين العقول العربية المسلمة؟

هذا المشهد المذري الذي عملياً طوَّحَ بالقرآن الكريم، وطوَّحَ بالفكر الإنساني وخصوصاً العربي المسلم، ونَـزَلَ به إلى الحضيض، بعد أن كان القرآن الكريم هو الرافعة، ليتحول عند الناس إلى مجرد كتاب عادي اشتغلوا بتوضيحه! وذلك عن طريق التشدق الادعاء والتنطح والتنطع والتورية والتشبيه وغيرها من الفنون التي اخترعوها وتصوروها، والمعمولة خصيصاً لتكريس الانحطاط والأوضاع الإنحطاطية، الناس لا يعلمون أن القول الذي يقولون فيه (أوتيت القرآن ومثله معه) إنما هو حديث موضوع يهدف إلى الانقلاب على القرآن ومزاحمته، وإلى اعوجاج الدين عن هدفه ومهمته الأساسيّة التي يجب أن تتحقق في الإنسان، وكذلك قولهم بوجود عقيدة إسلاميّة، وقولهم (اختلاف الأئمة رحمة) عند محاولتهم تبرير التناقض الحاد والاختلاف الشديد والتباين الموجود عادة بين المذاهب الإسلامية ولكن أين القرآن الكريم وأين كتاب الله لماذا يُغيَّب كتاب الله رب العالمين (القرآن العظيم) ويُستبدل بكتاب (الحكم العطائية) التي لا يدري الناس أنَّ أساسها موجود في كتب فلسفة اليونان والصوفية الهندية، فهل شكل هذا الكتاب وأمثاله سحراً أسوداً عمَّ على المسلمين؟

وأنَّ القول بالعامة والخاصّة، وعَالِم ومُتَعَلِّم، وسادة وعبيد، هذه أقوال متعالية فارغة جوفاء ليس لها أصل في كتاب الله عز وجل (النازل من السماء) بل هي مخترعات

البشر، الأناس الفارغون غير الأسوياء الذين سيطروا على الآخرين بغير حق في عصور الانحطاط عصور الغفلة، فاشتغلوا بها، والتي كان فيها الفكر منحصرٌ في كتاب (دلائل الخيرات) و(الأذكار والأربعون النوويّة) العصور التي غاب فيها العرب المسلمون عن قياد أنفسهم ودولتهم وتركوا هذه المهمة للأعاجم، فالكيفية (الأسلوب) التي تمَّ فيها تقديم (اللغات الأوربية) في الكتب والقواميس والمعاجم والكتب الإلكترونية والمصطلحات العلميّة والبرمجيات ومعالجة النصوص وقواعد البيانات، الطريقة العلميّة الأمريكيّة في كتابة الأبحاث الجامعيَّة، أو في إجراء (الانتخابات والامتحانات)، وهي طريقة اليهودي الأمريكي (جون ديوي) التي فُرِضَتْ على شعوب الكرة الأرضية، لما فيها من تكريس وتأكيد على أن اللغات الأوربية هي وحدها لغات العلم والحضارة، وقد تجاوزتها الدول الغربية في الأسلوب؛ بينما في بعض الأوساط العربية الإسلاميّة وخصوصاً (الشبابيّة) حيث تمَّ فيها تغريب اللسان العربي المسلم، والحديث عن (اللغة العربية) على أنها لم تعد تفي بالغرض، إنَّ الطرح الخاطئ يوصل دائماً إلى نتائج خاطئة، فالغرب ومروجو (الفكر الغربي) دائماً وسلفاً وبإصرار ينظرون إلى (اللسان العربي) بطريقة عدائيّة، ولا يُرجى إقناعهم بعكسها أبداً، لأنهم يعلمون تمام العلم أنَّ العربية تنبع من القرآن الكريم، الكتاب المُنزَّل، وهذا ما لا يقبلونه مطلقاً ولن يوافقوا عليه أبداً.

ومعلوم أنَّ القضيّة هنا (بالنسبة للأوربيين) لا تسعى إلى تطبيق العدالة؛ بل إلى تطبيق القوة، وهنالك في بعض البلدان في العالم لغات لم يتم الاعتراف بها، مع أنها لغات السكان الأصليين للبلاد، بينما في إفريقيا مثلاً تمَّ الاعتراف بلغة لم يتكلم بها سوى أقل من عشرة بالمئة من السكان (الفرنسية)، ومعلوم في هذا المجال أيضاً أنَّ الخاسرين دائماً هم الغائبون أو المتخلفون عن الحضور! قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: 7] معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى قد غيب ما في السماء (عالم الغيب) عن الدنيا (عالم الوجود)، وفقط أتاح منها العقل (التعقل والتفكر)[1] هذا هو الميزان إنه

1 (?) إن الفهم الصحيح لمفهوم التعقل في القرآن الكريم يشير إلى الأهمية البالغة لأن يعمل الإنسان جاهداً للمحافظة على سلامة حواسه من الأذى، وعلى صيانتها وحمايتها وعلى تدريبها ورفع مستواها وعدم تعويدها على هبوط المستوى، فمثلاً التعود على شم الورد هو غير التعود على شم القذارة؛ وتعويد الأذن على سماع الصخب هو غير تعويدها على سماع الأصوات الطبيعيّة، سقسقة العصافير وخرير المياه مثلاً، كذلك فإن رؤية المنظر الحسن هو غير رؤية الفوضى والقاذورات. وبالتالي فالتذوق للجمال يحتاج إلى حواس كاملة غير منقوصة، قال تعالى: ﴿ وَلَا

العقل والفكر وهو من الله سبحانه وتعالى لكن الجاهلين يصرون على الضلال عناداً واستكباراً وصلفاً و(اللسان العربي المبين) بحد ذاته هو الرسالة الإلهية، فلا يجوز حبسُ تلك الرسالة أو تقعيدها أو تقنينها أو تقييدها بحالٍ من الأحوال، والحروف العربية هي أدواتهُ الرئيسية التي يجبُ أن نُعمِّق فهمنا لها، وأن نُصيخ السمع لتلك الأصوات علّنا ندرك كنهها وماهيَّتها لنصل إلى إدراكٍ أشمل لما في القرآن العظيم من جواهر ونتدبر فيه، وكذلكَ مع ما يمكن أن يدغم من حروف الهيجاء العربية وعددها أربعة عشر حرفاً، وما يمكن أن يظهر منها وعددها أربعة عشر حرفاً أيضاً؛ فهل كانت (الهمزة) تقابل تلك الزيادة التي يرصدها الراصدون عندما يحسبون مطالع الشهر القمري، فيقولون ثمانية وعشرون ونصف تقريباً وهل كانت (الهمزة) مقابل تلك الزيادة وكانت تعني بشكلٍ من الأشكال نصف المعنى المطلوب أداؤه من الحرف الطبيعي؟

(تنتهي حريتك عندما تبدأ حرية الآخرين) لقد أضحى هذا القول سالباً وغير كافٍ للتعبير عن الجوهر العظيم للمفهوم العربي للحرية ويجب أن يعلم كل عربي مسلم أن عليه القول: (إنني أدافع وأقدم كل ما أستطيعه لكي تتمكن من تحقيق حريتك وحصولك على حياة شريفة مترعة بالكرامة) لأن الحرية تكون على قدر الوعي وعلى مساحة ما نملكه من العلم والمعرفة، والرسالات السماوية والأنبياء إنما بعثوا لتحرير الناس من العبودية ورفع القيود والآثار المادية والمعنوية، وإنَّ أحدث تعريفٍ للديمقراطية يقول: أن الديمقراطية هي (الغاءُ جميع السلطات) فلا ينبغي أن يتسلط الإنسان على الإنسان؛ وتحت أيٍ من الظروف، بل يجب العمل على تحرير حياة الناس من تسلطِ السلطات، وكانت الشورى في محاورة الناس حول شؤونهم وشؤون حياتهم، وليست ولم تكن مبرراً للإملاءات عليهم لتكريس وتسويد الظلم، والرسالات السماوية مهمتها الأساسية كانت إزالة الحواجز والقيود والعقد والخرافات والأساطير والوثنية والكفر والإلحاد، فالتحرير كان جوهر كل الرسالات السماوية، ولكنها تحولت عبر الزمن على أيدي رجال الدين المتخلفين إلى غطاء سميك يحجب الهواء النقي عن رئتي الإنسان العربي والذي كان دائماً يحب أن يكون مؤمناً، يجب العمل على تجلية المعاني العربية المبينة المبُيِّنة والكشافة والكاشفة التي هي في القرآن الكريم تجلية صافية بعيدة عن قيود التفاسير المقيدة الساجنة للمعاني، يجب اطلاق

تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿ [الإسراء: 36]، إن مسألة العقل والتعقل مرتبطة بشكلٍ مباشر بسلامة الحواس لدى الإنسان، والحيوانات لا تعقل لأنها تفتقد إلى الحواس!

المعاني التي في كتاب الله لتبيّن للناس أن الحق فقط في القرآن الكريم وليس في المقولات (الطبري ومن تبعه ممن مارسوا على العرب المسلمين السحر الأسود الذي أذْهَبَ عقولهم وشل قدرتهم على التفكير مئات السنين فهل آن الأوان للتحرر من تميمة الطبري وأمثاله (التفكير دون معوقات أو عوائق أو حدود) وبالتالي فإن السلفيّة والصوفيّة والشيعة، أبعد ما تكون عن العقل والتعقُّل والفكر والتفكّر معاً، إنهم مجرد مُقلدين وهم جميعاً على الرغم من ادعائهم التفكر والفهم لكنهم على الحقيقة يعيشون في حالة صعبة في غيابة الجب وغيابة الجهل وغيابة الجمود، محجوزين في جثامين يتوهمون في طرائقهم العقيديّة (الإسلام دين وليس عقيدة؛) أنهم على حق، وهم عنه أبعد ما يكونون والله المستعان على ما تصفون، لابسين في جلابيب الجهل جاحظين ليسوا حاضرين ولا واعين ولكنهم يتوهمون أنهم على حق قال تعالى: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم: 32]، إنهم لا يدرون أنَّ الفرق كبير بين(العقيدة) أو (العقائديَّة) أي ما يعتقدهُ أو ما يرتئيه الإنسان، وبين (الدين الرباني) والذي هو النظام والمنهاج الرباني المُنزَّل الذي يتحتم على الناس اتباعه، وإننا يجب أن نقدم القرآن العظيم إلى العالم تقديماً نصِّياً علمياً مُفَعِّلاً للعقول محرضاً ومثيراً للأفكار موصلاً لليقين، وليس مجردُ تفسير إملائي خرافيّ واهم ومُعجِّز ولا تأويلي ولا سياسي ولا عقائدي معطل، ولأنَّ الفكر عملي تفاعلي وله مقاصد أساساً ويهدف دائماً إلى الخلاص وإلى حالة إزدهار ونماء فإنَّ الأمم المتخلفة غير الحضاريّة لا تنجب إلا أشخاصاً متخلفين، غير النجباء ولا المفكرين، لأنها شعوبٌ وأمم معطلةٌ بفعل التخلف والفوضى العارمة.

إن التفسير الذي كان يعتمد على النقل وليس العقل قد أعاق الفهم الصحيح، وأدخل الفكر والفهم عند المسلمين العرب في دائرة ضيقة ومغلقة اضمحلت فيها الآراء وتلاشت بسببها التصورات وصَغُرَت الأفئدة وتسمرّت العقول والأفكار، بحيث انزلق البشر عن عظمة المراد وارتدوا أو تثاقلوا إلى الأرض

الإسلام والفكر

(الإسلام) بالأساس هو دين ندين به ونظـام ربـاني، وليس مجرد فكر، بل يُستنبط منه (الفكر العربي) ويسير في ركابه.

هـذا وإنَّ ما يمكن تسـميته بــ(الفكر الغـربي) وهو انتـاج العقل البشري في أوربة وأمريكا، كـان من الخطأ وضـعه في مقابل (الإسـلام) الـدين الربـاني، وحقيقـةً لا يمكن أن يكـون (الفكر الغـربي) بحـالٍ من الأحـوال في مقابل الإسـلام، لأن الإسلام بالأساس أنه نظـام ربـاني، ولكنه (الفكر الغـربي) وهو كلُّ فكرٍ أُخـرِجَ في العـالم ليكـون في مقابل (الفكر العـربي) المستوحى أساساً من الإسلام، وهو أي (الفكر العربي) إنتـاج بشري أيضاً؛

ولكن أين هو الفكر العـربي الإسـلامي ليكـون في مقابل الفكر الغربي، وهل هنالك فكر عربي إسلامي معاصر أساسـاً وما هو مفهــوم الفكر[1]؟ فــإذا كـان الفكر هو تلك العمليـات والنشاط الذهني وما ينتج عنه من فرضيات ونظريات وحلـول لمشكلات ورؤى وآراء ووجهات نظر، تُسـطر في الكتب، فـإنَّ ذلك كله يمكن أن يتم عند كل الناس وفي كل الأوقات ولـدى كل الفئـات في العـالم وفي جميع مراحل العمـر؛ ولن يكـون التفكير في هذه الحالة حكـراً على جنس محـدد ولا مجموعـة خاصّـة، بل هو مشـاعٍ ومتـاحٌ للجميع قـال تعـالى: كُلا نُمِـدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَـانَ عَطَـاءُ رَبِّكَ مَحْظُـورًا [الإسراء: 20].

إنّ الإسلام العربي الحنيف الدين والنظـام الكـوني، أصـلاً لم يكن يحتــاج إلى رجــالات دين ولا إلى كل هــذه الأجهــزة، أو هذه البرامج[2]، ولا إلى هكذا أشخاص، إن الإسلام هو ما هو

---

1. (?) ويرتبط التفكير بمواجهة تحـدي مشـكل أو إشـكال ومعانـاة البحث له عن حل أو مخــرج، وقد اتجهت بعض تعــاريف التفكــير كما في (المعجم الوسـيط) إلى كونه "إعمــال العقل في مشـكلة ما للتوصل إلى حلهــا". وأورد الدكتور صلاح الـدين عرفة محمـود في كتابـه: "التفكـير بلا حـدود" وهو يعرف ماهية التفكير مجموعة من التعاريف الـتي تربط التفكـير بحل مشـكلة منها بـأن التفكـير هـو:"ذلك النشـاط الـذي يبذله الفـرد ليحل به المشكلة التي تعترضه مهما كانت طبيعة هذا النشاط سواء تطلب تفكيرا أكثر أو أقل حسبما يكون الموقف".
2. (?) بالأسـاس هـذه الـبرامج التلفزيونية الدينية والمحاضـرات واللقـاءات والمقابلات والمناظرات الدينية، والقص والوعظ الإعلامي الديني، إعلامياً عبارة عن أساليب قديمة؛ بدأت في أمريكا، لتحويل الشـعور الـديني، في أمريكا وأوربة، تهويده، والسيطرة عليه من قبل اليهود، واللـوبي اليهـودي في أمريكا، وقد نجحوا فعلاً! فمنذ الخمسينيات من القرن العشرين، ومن قبـل، اعتـاد الجمهـور في أمريكا على هكـذا ظهـور لأحد القساوسة في

موجودٌ في القرآن الكريم فقط، الشريعة الإلهية، وهو ليس فكر بشري ولم يكن موجوداً، في أفواه وأمعاء الوعاظ، أو الخطباء أو المنشدين ولا القصاص ولا الحكواتية، ولا شرائط تسجيلاتهم، إن الإسلام العربي الحنيف الدين الإلهي موجودٌ فقط ضمن كتاب الله ، إن القرآن الكريم هو المَعِيْن الأساسي للدين الحنيف والنظام الرباني فعلى كل عربي حُرٍّ واعٍ مدرك العودة إليه، ليستخرج منه ملامح الدين بنفسه ودون واسطة فكل عربي بإمكانه العودة إلى القرآن دائماً ومباشرة دون وسيط، ليستخرج بنفسه ولنفسه النسغ الكامل من المصدر الرباني الأساسي مباشرة دون مساعدة من الآخرين!

وهو ليس بحاجة وأنت لا تحتاج أساساً إلى من يساعدك على فهمه، لأنه بطبيعته مبين، إلا إذا كنت أنت عاجزاً أو عديم القدرة على الفهم والواقع يقول إن المريض فقط هو الذي يُطَبَّقُ عليه نظام الحمية، فيقال له كل من هذا الطعام أو لا تأكل من هذا الطعام وصاحب الفكر والعقل السليم لا يحتاج إلى توصيات وهو ينطلق إلى كتاب الله مباشرة وفقط حاول.

إنه كتاب الخالق جلَّ وعلا، الله رب العالمين الأقرب إليك وهو سبحانه وتعالى يعرف كل واحد فينا قال تعالى: هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ

البرامج التلفزيونية للرد على الأسئلة المحرجة، وفي الوقت نفسه لعمل دعاية مكثفة لليهود وتجييش المشاعر ضد العرب والمسلمين، عن طريق عقد المناظرات التلفزيونية مع أشخاص اعتقادهم في النقيض، وهكذا كان يستمتع الجمهور من خلال الحوار المثير والديمقراطي، بين رجال الدين المسيحي المهودين الذين يمثلون الكنيسة، وبين المنتقدين من مختلف الاتجاهات وغالباً ما كانت تختتم بجمع التبرعات لليهود! (لقد نقلت هذه الظاهرة الإعلامية الخطيرة إلى الأعلام العربي، ما عدا جمع التبرعات! الذي صار استجداءً، للمنكوبين من العرب المسلمين في أقطار الأرض!) وذلك أن الدين المسيحي المعمول به أساساً، في أمريكا، أو في أوربة، هو عبارة مجموعة من القواعد والقوانين وضعتها الكنيسة ورجالات الكنيسة، طبعاً هذا شيء يمكن أن يكون جيداً، أو مفيداً، في بعض الحالات، إن رجل الدين المسيحي فعلاً، فهو يمثل الكنيسة، ولكن عربياً هذا غير وارد أساساً، فعربياً لا يوجد رجال دين، وبالتالي فإن في الدين الإسلامي، كل واحد يمثل نفسه فقط، وهو دائماً يعبر عن نفسه فقط، ولا أحد في الإسلام يقدر أن يمثل الإسلام، أو أن يتقول عن الإسلام، أو أن يجعل الإسلام يقول؛ قال تعالى: وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [الأنعام: 164]، الإسلام يبرز لوحده من القرآن الكريم ويعبر عن نفسه وفقط، ولكنّ ما نراه في الإعلام، في هذه الأيام، من تمرير لفتاوى وغيرها، ولا يمكن أن يعبر عن الدين السماوي العربي الحنيف، أو أن يوصل إلى العلم الحقيقي، إنَّ ما يشاهد في هذه الأيام على القنوات الفضائية والأرضية، لا يعبر بأيِّ حال عن الدين الرباني الصحيح، إنه يعبر وعن نفسه.

أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى [النجم: 32]، وذلك على العكس مما هو حاصلٌ الآن حيث تقزمت الهامات، وخضع الكبار للصغار!

لقد شكلت التفاسير والمفسرون، في كثير من الأحيان، حجاباً حاجزاً بين حقيقة النص الإلهي، وبين العقل، فأبعد عن الفهم، وعُمل على إخراج العقل عن المسار الطبيعي وعن السياق الطبيعي المنطقي، الموصل إلى جوهر المعنى، المعنى العربي للمفردات، والتأويل العربي الحقيقي للنص العربي، والدلالة المبينة المباشرة للآيات الكريمة، لقد عملت التفاسير على إبعاد العقل وتشتيته في مسارات أُخَرْ، أخرجته عن السبيل الطبيعي والمؤدي مباشرة إلى عين النص.

إن شرط التفكير الصحيح هو الخروج من عباءة الكهنوت، (ففي اللسان العربي المبين لا مكان للكهانة ولا للسدانة ولا للتأبيب ولا للرهبنة ولا للبطركة ولا لحبر أعظم[1]؛ ولا حجة ولا باب ولا داعي بلاغ ولا مأذون مطلق ولا (مأذون محدود) ولا مُكاسر أو (مأذون محصور)؛ ولا (مؤمن بالغ) ولا (مؤمن مستجيب)، وليس لديهم أسقف ولا ناقوس ولا كاهن كما للنصارى ولا موبذ كما للمجوس ولا جالوت ولا شيبور ولا قرن كما لليهود (حيث لا كهانة في الإسلام)، ولا عجلاً كما هي عادة الهندوس والفرس المجوس قديماً[2] في بلاد فارس؛ فإن الزردشتية واليهودية - كما هو ظاهر - قد تقابلتا عند نضوجهما على صعيدٍ واحدٍ[3]. أو عبدة الأوثان والمعددين كما كانت في روما؛ وقبلها في أثينا وكما هي الحال في الديانات الأرضية؛ حيث يقدس فيها أو عندهم الكاهن؛ أو الحاكم؛ على أنه خليفة للإله على الأرض!

والرسول يقول: «لا تتشبهوا باليهود»[4] وليس هنالك في اللسان العربي المبين عصمة، لأحدٍ من البشر أبداً أبداً، بل هو تسلط البعض وادعاؤهم بذلك ليس إلا، ولكن عند

---

1 (?) الحبر الأعظم: لقب منحه أول مرة إمبراطور روما في القرن الخامس الميلادي إلى أسقف روما، وهذا اللقب يعني بابا العالم المسيحي. (أو راعي العالم المسيحي)

2 (?) جاء في كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي بتحقيق محمد الصباح ص 98 أن السامري كان من قوم يعبدون البقر؛ ولهذا صاغ عجلاً، وفي الصفحة 156 قال: الشيبور هو البوق عند اليهود.

3 (?) بل اليهودية، والزردشتية، وغيرها من العقائد الوثنية، بما فيها اليزيدية الفارسية القديمة، الأصل أنها خرجت من المجوسية؛ المنحرفة أساساً عن ديانة بني إسرائيل القبائل العربية القديمة، الديانة التوحيدية (الإسلام) في الفرع الذي تفرع إلى بلاد فارس والهند. هذا ما أثبتته الدراسات الحديثة جداً. فالقبائل العربية التي نبعت أولاً من البادية العربية قد توزعت في العالم، المؤلف.

4 (?) كتاب ثمار القلوب ص282 دار البشائر دمشق.

العرب وفي اللسان العربي المبين فإنه لا سبيل إلى تقديس الإمام أو الوالي أو الحاكم أبداً وإنما هي عاداتٌ أو طقوسٌ ومراسم فرعونية قديمة من مخلفات عصور الانحطاط، العصور التي تدنى فيها الوعي عند العرب إلى أدنى مستوى، وليس بالدعاية والإعلام يتحول الفكر الهابط إلى فكر عظيم، ومهما كررت قولك عن فكر ما وأقسمت أنه عظيم وجيد وكامل وخالي من العيوب، وأنه لا يعاني من الأزمات ومهما ادعيت أنَّ أفهام الناس هي العاجزة عن ادراكه وفهمه فلن يغيّر من وضعه وحقيقته شيئاً إذا كان هذا الفكرُ خاوياً متناقضاً متضارباً ومتهاويا وكان ليس بفكر وإنما مجرد تداعيات ونابعاً من المصالح الخاصة ولكنَّ الفكر الحقيقي ايجابي لا يحيد عن الحق شجاع وغير منحاز وهو دائماً مع الأهداف النبيلة.

إن الفهم العربي للنص القرآني، يُوحَى به للعقل العروبي والوجدان العربي السليم الحنيف وهو ينبع منه، من كل مؤمن بالله إيماناً صادقاً حقيقياً، قال تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ (79) ﴾ [الواقعة: 78 -79]، فكلُ عربي مسلم معنيٌ بالفهم والتفكير، ومعنيٌ باليقظة والوعي وهذا الأمر فرض عين وليس فرض كفاية؛ هذا الأمر ليس وقفاً على ما سمي برجال الدين، فليس في الإسلام رجالُ دين بل إن مفهوم رجال الدين ورد إلى الإسلام العربي مع ما ورد إلى حياة المسلمين العرب من بدع أهل الكتاب، ففي الإسلام الصحيح كل مسلم عربي ذكراً كان أم أنثى هو رجل دين؛ لأن مفهوم رجال الدين ورد إلى المسلمين العرب من اللاهوت والكهنوت الشرقي والغربي الغريب، وكذلك مفهوم الشيخ لم يكن من أساس الدين الإسلامي، بل هي مرحلة عمرية ووظيفة عشائرية ليس إلا، وفي الدين الإسلامي العربي أساساً لا يوجد رتب دينيوية أبداً، قال ﷺ **«رُبَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره»**.

بل ليس في الإسلام إلا عالِم أو متعلم ولا ثالث لهما أبداً، وقد حدد لنا رب العالمين صفة العالم الإيماني، تحديداً دقيقاً لا لبس فيه؛ قال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: 28]، وهذا يعني أنه كلما ازداد الإنسان خشيةً من الله سبحانه وتعالى، رفعه الله إلى أعلى مراتب العلم وأطلعه، وأوصله المراتب العليا، وليس الأمر، أمر العلم بإطالة الذقون، ولا بلبس المسوح، ولا ينتهي التكليف بمجرد الاستياك بالمسواك ولبس المسوح، لكنَّ المطلوب هو الفهم والوعي، إن الفهم العربي للنص القرآني

يجب أن يكــون غاية كل عــربي مســلم إذا وعى، ويجب على كل مسلم عربي أن يفهم ويعي، وأن يفتش ويبحث وأن يعمل ويُنتج ويُفيــد؛ وهــذا التكليف إلهي وربــاني أساســاً وهو الأمر المضيّع، فبالفهم العربي للنص الإلهي، يمتلك الإنسان العــربي قوةً هائلة ويتحول إلى قوة عظيمة حقيقية، إن الفهم العــربي للنص الإلهي هو الجـوهرة الثمينة والمفقـودة والضـائعة الـتي ينبغي على كل عربي مؤمن وكان لا يزال لديه أدنى إحسـاس بالانتمـاء لعروبته ولوطنية العربية المؤمنة العزيـزة والغاليـة، فعلى كل عربي مسلم من هذا المستوى، أن يبدأ بالبحث عن جوهرته المفقـــودة، وهي الفهم الصـــحيح، والحقيقي للنص الإلهي، إن إيجاد الفهم الحقيقي كفيلٌ أيُ كفيل في حل جميع الهمـــوم العربية الداخلية والخارجيـــة، إن الفهم الحقيقي لن يعني بحالٍ من الأحـوال سـلفية الفكر أو المنطق أو السـلوك بـالمفهوم الشـكلاني المعـروف، كـذلك لن يعـني بحـالٍ من الأحوال سلفية أو صوفية الطريق ولا شيعيِّته المُسَيَّسَـةُ أبـداً، وإنما هي دعـــوى مطلقة ومفتوحة لكل مـــؤمن عـــربي في العالم عاقل فاهم مدرك واعي يقظ؛ لأن ينظر في كتـاب الله سـبحانه وتعــالى، نظــرة عربية بعقل عــربي وفهم عــربي، وإدراك عــربي، ووعي عــربي, مشع مضــيء معطــاء مبــدع ممتلئ عنفواناً وعلماً، وذلك كما أمرنا ربُنا .

قـال تعـالى في القـرآن الكـريم على لسـان موسـى عليـه السـلام وهـو يخـاطب فرعـون: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَـةٌ تَمُنُّهَـا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْـرَائِيلَ ﴾ [الشـعراء: 22]، وهذا يعني أنَّ فرعون كان قد أذلَّ بني إسرائيل، وحــولهم إلى عبيـدٍ لـه، يـأتمرون بـأمره؛ ويـريهم ما يـرى، ظنـاً منـه أنـه يهديهم سبيل الرشاد! قال تعالى: ﴿ لا جَرَمَ أَنَّمَـا تَـدْعُونَنِي إِلَيْـهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَـا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْـرِفِينَ هُمْ أَصْـحَابُ النَّارِ ﴾ [غــافر: 43]، قــال تعــالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: 29]،عن طريق الطقوس والمراسم الفرعونيـة؛ الـتي ألزمهم بها، هذه الطقوس، والمراسـم إن وجـدت؛ فهي قادمـةٌ من جهة الفرس، والرومان، واليونان، والهند، والصـين، وغيرهـا من الحضارات المُعدِّدة[1]، قال تعـالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَـاجُّونَ فِي النَّارِ

---

1 (?) لاشك أنَّ عبـارة (الحضـارة الرومانيـة) الـتي اعتـاد الكثـيرون على ترديـدها بفضل الدعاية الأوربية لها ولكنها عبـارة تنطـوي على الكثـير من الخداع والتضليل والأباطيل، إذ إنَّ الرومـان لم يكونـوا حضـاريين مطلقـاً، ولا هم بنـوا حضـارة بمعـنى الحضـارة، أبـداً بل كـانوا مجـرد محـاربين مهـاجمين محتلين، وكـانت امـبراطوريتهم واسـعة ولكن بفعل السـيطرة وإخضاع الشعوب بالقوة العسكرية وفقط... وهي لم تكن حضارة بناء ولا حضارة قيم ولا حضارة مبادئ أبـداً بل إمبراطورية عسـكرية مهيمنة على

فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ [غافر: 47] ولفظة إمام، كما أوضحه القرآن الكريم، كانت، خاصة بالأنبياء، والمرسلين مع كتبهم، ورسائلهم السماوية، قال تعالى: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ [الحجر: 79] وهؤلاء قوم لوط على الطريق الواضح والمعروف (تعرفونه) قال تعالى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ [يس: 12] أي في كتاب واضح، ومعروف، قال تعالى: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [البقرة: 124].

قال تعالى: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ [الأنفال: 60]، فالتدريب المستمر والدوام على التأهيل واليقظة باكرا وبدء العمل في الصباح بعد التمرين وتناول الفطور؛ وانتشار الثقافة الوطنية ذات الاتجاه الوطني(وهو أرقى الاتجاهات الإنسانيّة) وذلك من بعد الايمان بالله تعالى والتأدب بالآداب والأخلاق العالية وتعميق العلم والتجربة، أمور غاية في الأهمية، وتربية الأجيال على حبها واحترامها، إضافة وملازمةً للترويض والرياضة المتوازنة والهادفة بأبعادها الثلاثة، الجسمية والروحية والنفسية، وهي أمورٌ يجب أن تكون عربية محضة، وأن تكون عادة لدى الشعب العربي لا يقبل عنها بديلا.[1]

وفقط العبيد يسارعون للتخلي عن الحضارة والتحضر أو يتفلتون منها أو يبتعدون عنها، عن القيم والمثل والآداب

الشعوب وقد أخضعتهم بالقوة! فهي إمبراطورية لا دين لها؛ وكان باني روما مهندس دمشقي!

1 (?) (وليس الأمر مقصوراً على المذاهب الدينية فبعض الفلسفات الاجتماعية مثل الماركسية تضع المستقبل على أنه هدف التاريخ الانساني وتجعل الحاضر شراً ينبغي تجاوزه، الزمان إذن أداة تحقيق الماهية، فالإنسان سياق زماني بجوهره، فرداً كان أم جماعةً فنحن لم نُعْطَ حياتنا الحقة ولكننا اكتشفناها هناك في المستقبل وإننا في سعي دائم متجاوزين الحاضر، هذه الزمانية التي فُطر الانسان على أن يكونها، لأنه سياق (ديالكتيكي) كما أسلفنا هي في نظر انسان القضية سياق واحد، ولكن رغم أنها كذلك فهي مؤلفةٌ من آنات يختلف موقفه من كل منها، فليس الآن الذي انقضى كالآن سيأتي لأن الأول قد امتلكناه والثاني مازلنا نسعى لامتلاكه ولذلك فإنَّ بعد الزمن هو في الحقيقة بعدان بعد الماضي الذي امتلكناه وأصبح حقيقة واصبح تحت تصرفنا وبعد المستقبل الذي نسعى لامتلاكه، وبعبارة أدق: نسعى إلى امتلاك القضية التي تنتظرنا فيه). أحمد حيدر، من كتابه (نحو حضارة جديدة) مرجع سابق.

الإنسانية، إذا هم تحرروا من القيود لأنهم معتادون وقد أدمنـوا القهر وأجواء الاستبداد، أما السـادة العـرب فـإنهم لا يـبررون لأنفسهم الوسـيلة وتتحسن أخلاقهم وتصـبح أرفـع؛ كلما نـالوا وحققوا لأنفسهم ولغـيرهم الحق والكمـال والمزيد من الحريّة والعدل والمساواة والخير والجمال والاستقامة، قال تعالى: خُذِ الْعَفْـوَ وَأْمُـرْ بِـالْعُرْفِ وَأَعْـرِضْ عَنِ الْجَـاهِلِينَ [الأعـراف: 199] وهذا هو الشيء الذي كان سبب قوتهم ومنعتهم.

وقد قيل أنّ الرجل إذا حسُنَ خُلُقَـهُ سـاء خلق خادِمِه وإذا ساءت أخلاقه حَسُنَتْ أخلاق خَدَمِهِ!

لكنَّ هـذا التأكيد والالحـاح غـير المسـبوق والـذي نشـاهده ونسمعه في هذه الأيام وهو يدعو الأجيال ويجرها إلى الخيبـة، إلى مهاوي الانحطاط والضياع، وإلى أدنى بكثـير من مسـتوى الحيوانات، إلى تقزيمها من خلال التأكيد على الرقص والغنـاء المـاجن والمسـتهجن بكل المعـايير، وإلباسـهم الوجـوه المستعارة واقنعة ورسومات ووجوه الحيوانـات، هو من حيث النتيجة وبـالٌ على الأطفـال واليـافعين العـرب بقصد حـرفهم وإخراجهم من دينهم ودفعهم دفعاً إلى التفاهة والميوعة وقلة الأدب لقد باتوا يفخرون بمنجـزاتهم! وكـان تعليمه بالمـدارس والمعاهد ومن خلال الـدورات الـتي بـاتت تقيمها في المـدن والبلـدات العربية المراكز الثقافيّة العربية والعالميـة، (رسم وجـوه الحيوانـات ووضعها على وجـوه الأطفـال، إنهم بشـكل أو بـآخر يقربـون المسـافة بين الحيوانـات والإنسـان؛ إنَّ هـذا العمل جريمة مبطنة يجب أن يحاسب عليها القـانون، وهو فعلاً الحـاحٌ غـير مسـبوق ويمـارسُ بشـكل مقـزز ومقـرف والمهم عندهم من كل هذا السعي الدؤوب هو ابعـاد الأطفـال واليافعين العرب عن الـروح الوطنية أو عن التفكـير بالقضـايا الوطنيّة. إنها متابعة حثيثـة! فـأين هم العـرب المسـلمون من هـذه القاعـدة الذهبية والأساسـية، إنه ما من أسى لا يملك طول الزمن تهوينه أو تخفيفه، وكل أمر بميقاته رهين، ويجري الزمن ضد من تخَامَلَ أو من أهمَلَ حقـه؛ وصـحيح أن التـاريخ يكتبه الأقوياء؛ إنما في فـترة ما وإلى حين.. ولكن سـرعان ما يصحح التاريخ مساره ليُكتَبَ دون تحيز وملازماً للحقيقـة... إذ لابد من ذلك طالت الفـترة أم قصـرتً! فهل تلـزم فعلا حيـاة الأموات لذاكرة الأحياء.

إن بعض الأموات هم أحيـاء لايزالـون بالفعل ولكن الكثـير الكثـير من الأحيـاء بـالواقع هم أمـوات، ولكن الحقيقة هي أن الـزمن يمضي بينما يتكلم الكثـيرون؛ إنه يجـرف أمامه كل شيء ويبيد كل شيء وتبقى وحـدها الحقيقـة، قـال تعـالى:

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (27) [الرحمن: 26 ـ 27]، لذلك على الأحرار والأخيار في العالم (المدافعين عن الأوطان) أن يتحـدوا وأن يتفقـوا أيضـا، وخصوصا العـرب، وعليهم أن يصـروا على فعل الخـيرات ,ان يحسـنوا الفعـل؛ وان يقفـوا وقفتهم ضد الباطـل، وأن لا نثق بالخونة و(الأشياء المنافية للشـرف غـير مأمونـة) وإن يكونـوا على يقين، إنَّ من جـور (الزمـان) على (الأحـرار) انتشـار قلة الأدب بل انعــدام الأدب وتســلط الرعــاع وتســنمهم لزمــام الإمــور، واعتلاءهم للمناصــب، هـذا الـزمن الـذي تسـاوت به الأحرار والعبيد، واختلطت وتداخلت به الأمور وذهبت وتلاشت به القيم والمبــادئ فلم يعد الحق هو الهــدف بل المصــالح، وصارت البطولات فنيا وعلى المسرح! لكن كل هـذا الخـراب والتخريب يجب أن لا يفت في عضد الأحرار الراسخين.

والحق يُقال فإنَّ الفكر القومي إلعربي الذس طرح وسـاد في أواسط القرن العشـرين، على أوسع نطـاق وقد نمى في أوسع اطار ثقافي وظروف كانت متناسبة مع ذلك الطرح .

إلا أنه تقاصــرَ عن تحقيق ذاته وتكامله في إطــار ثقــافي عام ، لقد كان دائماً مشغولاً بأعداء له في الـداخل والخـارج، ومحاطاً بـالمؤامرات من كل نـوع، ما أدى إلى الحـذر من كل الاتجاهات. حتى من ذاته، لقد فقد الثقة بذاته.

الفكر العربي والقضية الموجبة

لقد ساهم (الفكر العربي) في الحقبة الماضـية في تشـتيت فكر العرب المسـلمين وبعثرته وضـياعه، بـدل تركـيزه ولملمته واجتماعـه، فكـان يسـعى (بحجج واهية مكـررة) إلى التطـابق وليس إلى الفاعلية والعمـل، كـان يسـعى من خلالها إلى جعل العرب مجـرد تلاميذ يتلقـون باسـتمرار الـدروس والعظـات من أولئك المفكـــــــــرين، وبطريقة دكتاتوريه لا تخلو من تعسف واضطهاد وتؤدي إلى الإحباط.

كان الفكر العربي وخلال القرن العشـرين في أدائـه المقيت، وهو يقلد الغرب، ولكن بصورة مقلوبة ويحـاكي الطبيعـة انمـا في أساليبها الحيوانية؛ (لا يهتم بما يجب فعله وانجازه ولكن في إقناع الناس (الجماهير) وإبقائهم على الدوام في حالـة ذهـول وتـرقب، ولـو كـان عن طريـق التعسـف والكبت، وذلـك من خلال تواكـل القطيع ولجمـه والجماعـة في تعويلهـا على زعيمهـا للـدفاع عنهـا والـزود عن حياضـها، في حين كـان من المفـروض أن يتعلم كـل واحدٍ من المسلمين العرب كيف يفكر وكيـف يبـدع، أمـا الحـديث فكان متخيلاً وكـذلك إشـاعة الاسـتبداد والتسـويف وتعميمـه، عن طريق الدجل والوهم، ويمنيهم ويرسـلهم إلى المطلقـات البعيـدة وغـير الملموسـة، الـتي لم ولن يتحقـق منهـا شـيء (الأيدولوجيـة الفارغة – جعجعـة بلا طحن) لقـد كـان الفكـر العـربي في القـرن العشرين أداة الكذب والخواء والموت، وهـو يقنـع النـاس بالعـدل ولكن العـــدل بـــالظلم، ويجعلهم يقبلـــون عن رضـــى بالتعســـف والاضطهاد، فهـو عن طريـق الإملاء وبشـكل غـير مباشـر يخـوف الناس من الحرية ووحدة الذات ويشرك الجماعة في الكـذب عن طريـق إطلاق عـدم الثقـة بالعقـل والتفكـير، كـانت مهمـة الفكـر العـربي خلال القـرن العشـرين هي إبعـاد العـرب المسـلمين عن حالة الثقة بالنفس.

كـان الفكر العـربي وعلى الـدوام يصـادر حق النـاس (كل فـردٍ منهم) حقه في التفكـير والإبـداع (يعتـبرهم مجـرد تلاميذ قيد الدرس والتعليم وأنهم متخلفون غير قابلين للنضـــوج) في جميع المجالات ويسلبهم حقهم في الريـادة والسـيادة بما في ذلك حقهم في المعرفة الحرة والاختراع والانتـاج غـير المقيَّد، وتمحيص الموارد والتنقيب والسبر الحر في كل المحـاور دون قيـــود ولا أغلال (الأدلجة تـــوحي بأنه عنـــدما يتكلم الآخر فإنه يكذب أو أنه جاهل أو أنه غير عـارف)، لقد كـانت مهمة الفكر العــــربي المزيف وخلال القــــرن العشــــرين، إزاحة المحــــور

الأساسي للتفكير الإيجابي عند العرب المسلمين وتضليلهم، إن هذا الوضع هو الذي سبب التخلف وليس الجهل فحسب، إن الادعاءات الفكرية الخادعة هي التي تخرب فعلاً، وتسبب الأضرار المميتة لأنها تُدخِلُ التدليس والازدواجية والانتقال إلى الحال الأدنى الأمر الذي يتنافى مع الحق والواجب، فالإنسان إذا تمكن منه الوهم سقط في الضعف وفقد القابلية للعمل وغرق في الخوف والرعب، وأصبح يمضي حياته في تأمل حوادث الكون من حوله دون أن يستفيد منها أبداً، وفي هذه الحال، فإن الوهم ليس الجهل بحدث ذاته بل ما يقف بين الإنسان والأهداف العظيمة وما يمنعه من تحقيقها، فمسائل الكون عادةً لا تجد جواباً في جهاز الإنسان المتضائل والمجتث والمشوه، أي الممسوح والممسوخ فكرياً.

والأهم من ذلك أن الناس (العرب المسلمون) جميعهم وبسبب زيف الفكر العربي السائد (الكذب والدجل الاعلامي والثقافي والفكري الواسع النطاق) والذين حقنوا به في هذا العصر؛ وأصبحوا عامتهم وخاصتهم دون مستوى الوعي وغير قادرين على الفهم (فهم الحق) أو التفكير الصحيح، وكأنهم دخلوا في مؤامرة كبرى، فهم تقيّةً أصبحوا يتآمرون بها على أنفسهم، ولكنهم أدمنوا فيها حالات وأنواع وألوان الكذب العقائدي وممارسة الدجل الاجتماعي والسياسي والفكري حتى دخلوا فيها (اللعبة) فأصبحوا جزءً منها، وأتقنوا دورهم كممثلين لاعبين ولكنّ الأدوار تلبّستهم فتقزموا واحيط بهم. قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: 26].

إننا لن نستطيع إخراج رجال زراعةٍ وصناعةٍ واقتصاد وأعمالٍ بوجه عام، إلا إذا أخرجنا مفكرين يفهمون تماماً ما هو المطلوب فهنالك فرقٌ كبيرٌ وشاسع بين المقال (الخطاب) في التربية والتربية في المقال، وهكذا فإن التربية تستنفذ نفسها عندما تستغرق في تعديد فضائلها فقط ودون إنتاج.

فالأمة (الجماعة) عادةً تشعر بالهزات العنيفة ولكنها ستكون عاجزةً عن فهمها، إن المفكر هو الجهة الوحيدة القادرة فعلاً على شرح الموقف وفتح ثغرةٍ في الجدار المظلم والمسدود، إن الفكرة مهما كانت فإنها شعورٌ مكثفٌ تتيح تنشيط العقل للبحث والتقصي، فالفكر الفاعل غير مرئي ولكنه يمسك بالمفاتيح والأسرار والعلاقات التاريخية، إن المفكر المبدع هو الذي يستطيع بالفعل تحقيق الانفلات والتخطي من الزمان والمكان، وتخطيط أمورٍ وشؤونٍ جديدةٍ

في الحيـاة، ورسم مُثُـل ومسـالك لتحقيقها بديعة في الأمـة، المفكر بصورة الأديب والشـاعر والممثل وهم من أبنـاء البيئة إنهم يؤثّرون ويتأثرون.

إن الفكر هو خروج اللامرئي والكامن والهائل من الأعماق وتكونه من جديد (تحويل الضـمني إلى صـريح) لـذلك يجب التركيز على الدوافع النفسـية والإلهامـات والإيحـاءات الربانية (الإلهام: إحدى حالتين يصادفهما كل إنسـان في الحيـاة، أثنـاء سعيِّه وتفكّرِهِ، وهو تلقي من عـالم الوجـود، إنه يصـادفُ حالة الفجـور وحالة التقـوى، وعليه أن يختـار كسـلوك إمّا الفجـور أو التقوى، والمؤمن بتوفيـق من الله تعـالى ولأنه عاقـل، فإنه يزكي نفسه ذاتياً ويبادر لإختيار التقوى أي الصلاح دائمـاً، قـال تعالى: ﴿ قَـدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [الشـمس: 9]، بينما الـوحي: فهو تلقي مباشر صـافياً من الله سـبحانه وتعـالى، من عـالم الغيب "السماء"، يتلقاه من الناس المؤمنون فقط.

إن النفس (الـذات) هي مصـدر النَظْم ومـادة التفكـير والتصـوير والتَشَـكّل (النشـاط النفسي الإيجَـابي) لـذلك يجب العمل على نقلها من حالة السكون والغفـوة إلى حالة اليقظة والانتباه والفعل.

ففي المفكـرين تتجسد أهـداف الأمة وصـبواتها وعنهم تصـدر انـدفاعات المجتمع نحو مسـتقبل أكمـل، إنَّ الأزمة الحقيقية في (الحياة العربية) كانت ولا تزال كامنةٌ أساساً في (الفكر العـربي الإسـلامي) إنها أزمة فكرية (انحطاطية حـادةٌ ومستمرة, ولأسباب داخلية وخارجية) والقضية الأساسـية في المجتمع العربي ليست قائمة في التخلف المـزمن في مجـال الصناعة أو الزراعة أو التكنولوجيا؛ ولكنها أساساً كـانت (أزمة فكـر) وهي ناجمة عن (أزمة فكريـة) مستعصـية، لأنَّ جميع الأزمات تنبع وتنتج من (أزمة الفكر) فإذا كـان الفكر في الأمة ولـدى الشـعب متخلفـاً أو معـدوماً، كـان الوضع في جميع المجالات الحياتية متخلفاً وفي الحضيض.

وهل يستطيع (الخاوي) فكرياً الاعتماد على فكر الغـير ؟ هل تنجح هذه الحالات في قلب الأوضـاع وتحقيق المطلـوب؟ وبالتـالي هل يقـوم البعض من القيـاديين والاداريين ورجـال الدين والزعماء العرب، هل كانوا يقومون بتوظيف أو استئجار مفكرين ومنظرين والاستفادة منهم؟ في حين أنهم كانوا غـير قـادرين وحـدهم على التفكـير، عبـارة عن صـوت وصـورة أو طبل أجوف!.

وعندما تُحَلُّ أزمة الفكر لدى الشعب، ويصبح لديه فكراً حراً وأصيلاً ويسعى نحو الكمال، عندها ستُحَلّ تلقائياً جميع الأزمـات

الحياتية، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها، لأنَّ الشعب في الحالة الفكرية الايجابية سيرقى تلقائياً في سلم الحضارة والمجد.

لأنَّ عظمة الأمة وعظمة الأوطان لا تتأتى أساساً من الشجر والحجر، ولا من المكان الاستراتيجي ولا من عدد السكان الهائل، ولا من مدى ما نملك من الثروات الطبيعية والكامنة تحت الثرى؛ ولكنها تتأتى من الإنسان وشعوره العظيم ووعيه مدى وشكل وماهية الفهم السائد لديه، ما إذا كان لديه شعور بالانتماء إلى الأمة والوطن ونزعة الحرية التي لديه وكرامته وعزة نفسه.

(فاليابان) مثلاً ليس فيها ثروات طبيعيّة وهي تستورد من الخارج معظم المواد الأولية اللازمة للصناعة فيها! وليست في مكان استراتيجي هام يسمح لها بالمناورة أو التحكم بالطرق والممرات الدولية، لأنها تقع في طرف العالم في أقصى وأبعد نقطة، ومع ذلك فهي من البلاد المتقدمة اقتصادياً وصناعياً وزراعياً، ولها أهمية ويُحسب لها حساب بين الدول (من الدول الثماني) والأهم من ذلك أن مواطنيها مستقرين نسبياً ولهم منعة وسيادة (وتعتبر من أرقى البلاد).

وكذلك جميع الدول في شمال وغرب أوربة، إنَّ جميع تلك الدول أساساً ليس فيها ثروات طبيعية هائلة كالثروات الموجودة في بلاد العرب المسلمين، وهي لا تتمتع بموقع استراتيجي عالمي هام ولا تقع على ممرات ولا طرق عالمية لتتحكم بها، كما هي حال (أمة العرب المسلمين)، التي تقع في وسط العالم القديم والحديث! وفيها الممرات العالمية الهامة (قناة السويس، مضيق هرمز في الخليج العربي، مضيق باب المندب، مضيق جبل طارق، وتشرف على حوض البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي وبحر العرب وأسيا وأفريقيا وجنوب أوربا والمحيط الأطلسي والمحيط الهندي، وكل الناس في هذه الأماكن مسلمون وعرب، وقد حباهم الله تعالى بثروات طبيعيّة هائلة وطبيعة من أجمل ما يكون ولديهم ولسان مبين من أكمل الألسنة البشرية قاطبةً، وبعث فيهم الأنبياء والرسل والكتب السماوية، وأنزل فيهم الدين الصحيح، وجعلهم شهداء على الناس، ومع ذلك فهم متخلفون ومحتلون ومكبلون وخائفون وبدون حماية إلا من الله تعالى.

المشكلة هي أن الذين سُمح لهم في العصر الحديث بالاشتغال في الفكر العربي وفُسح لهم المجال ليدلوا بدلوهم فيه، أو الذين تمكنوا من الاعلان عن آرائهم ونظرياتهم تحت

مظلة ما سُميَّ بالفكر العربي، كانوا بقضهم وقضيضهم من غير العرب، كانوا من الأقليات الشعوبية العرقية والطائفية الحاقـدة على العروبـة؛ كـانوا ينبعـون من حقـدهم العـرقي والطـائفي الأسـود، كـان همهم الأساسي نصـرة مشـكلاتهم الطائفية والعرقية، ليس لديهم هم عربي، ولم يكن لديهم وجدان عـربي، ولم يكونوا يشـعرون بالانتمـاء للعروبة أو الـوطن العـربي أبـداً، كانوا لا يخفون انتماءهم إلى الأقليـات الـتي كـانت على الـدوام تـتربص بـالعرب الـدوائر يملاؤهم الحقد الـدفين على العـرب المسـلمين (إنَّ الشـعور بالانتمـاء يقتضي من جميع المسـلمين العـرب أن تكـون نظـرتهم إلى الـوطن العـربي ومكوناتـه، المـواطن العـربي والمسـؤول العـربي، أن تكـون نظـرتهم إلى الـوطن العـربي بما فيه إلى البشر والحجـر؛ بـاحترام وتقـدير وتقديس)، ثم أنَّ هؤلاء المفكرين غير العرب المسلمين صـاروا يُنَظِرُون للعرب - مسـتقبلهم - ويتحـدثون بتشـدق عن التهميش والإقصاء وتعدد الحقوق والحريات.

إن الثرثرة والكلام المنمَّق صار في هذه الأيـام يُعد فكـراً، حتى أن برامج (الفن الهابط) و(الرياضـة) و(الطبخ) و(الأبـراج والحظ)[1] في التلفزيونات والصحف والمجلات العربية صـارت تَسْـتَعْمِلُ لغـةً جزلة واسـاليب رفيعة من البلاغة والفصـاحة ومضبوطةً املائياً وبالقواعد الصرفة والنحو؛ وربما أدخلوا فيها موسيقا السيفونيات والأشعار! لتدخل إلى عالم الفكر وجنباته من اوسع الأبواب. ولتتربع بعد ذلك في العقل العربي المتعب وعلى عرشه.

ولأنهم فهمـوا موضـوع (الفكـر) على أنه مجـرد تصـنيف للأفكـار المسـبقة والمتراكمة عـبر التـاريخ؛ مجـرد تـرتيب للمعلومات الكثيرة المتناثرة، مجـرد حفظ للأقـوال والأحـداث

---

1 (?) أذكر 1986م أنَّ (جريـدة النهـار) اللبنانية كـانت قد دعت وبرعاية فرنسية واشراف خبراء فرنسـيين، إلى دورة أو نـدوة عقـدتها في مكتبها شارع الحمـراء في بـيروت واسـتمرت عـدة أيـام، حضـرها رؤسـاء تحرير المجلات والجرائد العربية بما فيها الـتي كـانت ثوريـة؛ وكبـار الصـحافيين العرب الذين جاؤوا للمشاركة من جميع الأقطـار العربيـة، وكـانت النـدوة طروحاتها تدور حول أهمية مواضيع التسالي والأحـاجي والمتاهة والأخبـار الرياضـية في الصـحافة العربيـة، وعن ضـرورة إيجـاد مساحة أو صـفحة للأبـراج في كل جريـدة عربية يومية أو صـحيفة أسـبوعية أو شـهرية وأكد المحاضر الفرنسي يومها على ضـرورة أن تكـون الأبـراج جميعُها والحظوظ، تكتب دائما متفائلة وسعيدة، ومنذ ذلك الحين أخذت تظهر في المكتبـات العربية كتب متعـددة عربية مصـورة وأنيقة وبـالألوان وغالية الثمن عن الأبـراج والحظـوظ، في بـيروت لكاتبـات خريجـات الجامعـات الفرنسـية متخصصـات بـالكلام عن الأبـراج وعملت لهم الدعاية والإعلام المناسـبين ووزعت هـذه الكتب غـير العلمية في كافة أنحـاء البلاد العربية وتم تقليد هذه الكتب شعبياً وطباعتها مجاناً على نطاق واسع.

والسـير، مجـرد مـذكرات وتسـجيل وعمل سـجلات لما جـرى ويجري من الأمور، مجـرد جعجعة بلا طحن، ضـيعوا أعمـارهم وهدروا طاقاتهم وثرواتهم وأجيالهم ذهب كل شـيء سـدى بلا فائدة، ودون أية نتيجة!

ولا يزالـون يكـررون ويفعلـون الأشـياء ويتقـيئون بنفس الأسلوب، لقد تحولـوا إلى مجـرد كائنـات تكـرر ما تقوله دون فهمٍ ودون وعيٍ ودون ادراك.

وإلى الآن لم يلتفتـوا إلى (الفكـر) الحقيقي الـذي يعـني بالدرجة الأولى انتاجاً للأفكار الإيجابية المفيدة البنـاءة، والـتي يجب أن تكون حلولاً للقضايا والمشكلات التي نعاني منها، إنه اعملا للعقل وقـدحاً له وفيه بحثٌ وعنـاء وسـبرٌ للأعمـاق، ولسان حالهم يقول (وكفى الله المؤمنين القتال) وما دروا أن ذلك كـان للمؤمـنين فحسـب، وهم لم يعـودوا يريـدون العمل أبـداً ولا بـذل الجهـد، لقد فضـلوا أخذ الحلـول والأفكـار المسـتوردة والجـاهزة، وذلك في جميع المجـالات، وما دروا أنهم كعرب مسلمين انما يبتلعون السم بالدسم، وأن الأفكـار الغربية المسـتوردة كـانت تحتـوي أيضـاً على أفضل الطـرق لنهايتهم، نهاية غير سعيدة وغير رحيمة.

ففي بلاد العـرب التفكـير والعمل يبـدأ بالإزالة والإبـادة والتخلص من الأشياء في البيئة؛ فقط قتـلُ كل ما يتحـركُ من حولنا، هذه هي البطولة الوحيدة التي يحق للعرب المسـلمين حاليـاً ممارسـتها، وهـذه هي الثقافة الوحيـدة المتاحة والـتي توارثوهـا، هـذا ما تعلمـوه، أن تبيد أو أن تتخلص من كل ما لا تفهمه؛

وكذلك تم تحويل الشارع العربي المسلم، والحيـاة العامة العربية الإسـلاميّة إلى سـلة (زبالـة) يلقي فيها كل من هبّ ودب، ما لديه من بقايا يريد التخلص منها؛ أو أنه يتصـرف فيها بـأي طريقة مهما كـانت مخالفة أو منافية للحشـمة وللآداب العامة، ويتحدث فيها بالحديث النابي ويشتم بالألفـاظ القبيحة الجارحة دون أي رادع (إنها عملية اسـتباحة كاملة للحيـاة العربية والمواطن في هـذه الحالة يصـبح عـدوّاً لوطنه وليس من مدافع)، إنَّ هـذه الأمـور إن حـدثت في مكـانٍ مـا، أو في عصـرٍ ما (وهي الآن منتشـرة في الوجـدان الشعبي والحيـاة العربية المعاصـرة)[1] فإنها دلالة على رداءة هـذا المكـان

[1] (?) في حي (بـاب سـريجة) وهو حي شـعبي مشـهور بدمشـق، كسـوق مزدحمة باستمرار، كنت أشـاهد على الـدوام وبـأم عيـني كيف أنَّ النـاس فيه في غاية الجهل والتخلف، فعلى الـرغم من أن رواد السـوق والزبـائن محترمين جداً، ولكن أثناء التعاطي بالبيع والشراء والحركة اليوميّـة، فـإنَّ الباعة يتعاملون مع الزبـائن بـازدراء وعـدم احـترام، ويتلفظـون بالألفـاظ

ورداءة هـذا العصر وانخفـاض مسـتوى الانسـان فيه إلى أدنى مستوى.

إنَّ شكل النظرة أو ماهيتها المحمولة في أعماق الإنســان (المواطن) إلى المجتمع (الشارع العام) نابعةٌ دائماً من مــدى وعيه ودرجة الإحساس بانتمائه والالتزام الواجب أن يبديه هذا الإنسان الواعي حيال أمته ووطنه، فالواعي يحترم كلَّ ما في وطنه من العناصر والرموز وقبل ذلك الناس الآخرين جميعاً.

يجب أن نكف عن اعتبار المجتمع أو الشارع العـام مكـان ليس له صاحب أو أنه ليس له من يُـدافع عنه أو يحميـه، وأننا

النابية، ودائماً تنشب المشاكل بينهم وبين الزبـائن نتيجة الرعونة وانعـدام الأدب عندهم، ويتعدون على حـرم الطريق بنشر بضـاعتهم على الأرصـفة ووسط الطريــق، دون أي رادع من ضـمير، ويضـايقون المـارّة، وهم إلى ذلك يلقـون بمخلفـاتهم مثل بقايا التبغ والشـاي والقشـور وزبالة محلاتهم علناً إلى الشارع العام، أثناء مرور الناس المارّة دون وجل أو خجل.

وقد قرأت أواخر الثمانينيات في (مجلة الناقد) التي كانت تصدر في لندن مقالاً لكاتب من السـويد، عـربي الأصل، يحـاول أن ينقل ويُطلع العــرب المســلمين على حقيقة وســبب مشــاعر العــداء والكراهية من مواطنين سويديين ضد العرب والمسلمين.

فقال: ان أصدقاءه من السويديين قالوا له: أنهم سبق وأن زاروا دمشق وبعض المدن العربية كسائحين عـام 1963م، وأنهم اطلعـوا على حقيقة الأوضــــاع في تلك البلاد (بلاد العــــرب المســــلمين)! وأنهم يعرفون (باب الجابية) و(سوق الحميدية) و(معبد جوبتير) الذي تحــول إلى (المسجد الأموي)!

ولكنهم كانوا يحملون أسوأ الذكريات عن الشعب الذي كان برأيهم، في حينه، في منتهى الجهل والتخلـف، بحيث أنهم عنـدما كـانوا يسـيرون في شـوارع (مدينة دمشـق)، كـان العامة من النـاس والأطفـال يسـيرون خلفهم ويعلقون بالكلام السـخيف (وهم يعتقـدون أن الأجـانب لا يفهمـون كلامهم) بينما بالواقع كان السائح يستطيع فهم كل التعليقات الـتي كـانت تُقال له وعنه في الأسواق والزواريب الدمشقيّة ومن العامــة! ولم يــدري الناس أن هـذا السـائح كـان عبـارة عن بـاحث ودارس ومنقب عن الآثـار، ومفكر يريد أن يتحقق وأن يطلع ويرى ويتأكد بأم عينه عن مدى ومستوى التخلف العربي الإسلامي ويقيسه، ويقول أنهم أطلعوه على الصـور الـتي التقطوها في تلك الزيـارة المشـؤومة فكـانت صـور لحمـالين وحمـارين وأكوام زبالة منتشرة على جانب الطريق!

يقول الكاتب أن جيرانه (السويديين) قد سموا له المواقع (بـاب الجابيـة) وقــالوا له أنهم كــانوا قد اشــتروا (علبة كــولا) وقطعة شــوكولا عالمية وسـماها له (كـرانش)؛ وأن البـائع أخذ منه مئة دولار! ظنـاً منه أنه يمكنه تشليح هذا السائح وأن هذا السائح لا يستطيع معرفة الحقيقة.

السؤال المهم هو أنَّ أولئك النـاس أصـحاب المحلات والباعة في (سـوق باب سريجة العريـق) وغـيره من الأسـواق الشـعبية هل يفعلـون ذلك كله في بيوتهم من الداخل؟ وهل هذه العادات أصيلة في حياتهم أم طارئة؟ لا أظن ذلك وأنا أعرف أنهم في بيـوتهم بالتأكيد يحـافظون على النظافة ولا يسـمحون لأولادهم بـالكلام النـابي أو تـداول السـلوك المنحـرف، وهم يحضّونهم على الخُلُق الرفيع وعلى الصلاة في المسجد يوم الجمعة خلف الإمام!

بالتـالي يسـتطيع كل أحـدٍ أن يفعل به ما يشـاء، لأنَّ التحضر يقتضي السـمو في حـال الإنسـان ورفعه إلى أعلى مسـتوى، ويتجلى ذلك في سموُّ الأخلاق والعلاقات بين النـاس وانتشـار السـلوك الرفيع والآداب العامة في كل ناحية من نـواحي الحيـاة في المجتمـع، وهـذا كله ليس من فـراغ، ولكنه يسـتند إلى وجـودِ فكـرٍ راقي واصـيل محـترمٍ وقائد في المجتمـع, والمبـدأ الأساسيّ فيه أن الحق يعلو ولا يُعلى عليـه، فلا يجـوز فيه أن تستشهد على الحق بغـيره، بل الحق هو الشـاهد على كافة الأمور والأحداث، في حين أننا نجد، في هذه الأيام، ومن أجل الالتفـاف على الحق أنهم يستشـهدون بـاللقى والأحجـار وأقوال المستشرقين!

لذلك كان الفكر السـوي هو المطـابق للحـق، والنـابع من الحـق، والـداعي إلى الحـق، فالأحـداث هي صـورة الفكـرة، وكذلك اللحظات التي يُثمرُ فيها عملُ الفكرة، فإنه كـامنٌ في الفكرة ذاتها،

بينما الناس في الغرب تعلموا أن ينظروا إلى الأشياء من حـولهم بطريقة مختلفـة، الحشـرات والحيوانـات والطيـور والأسـماك وكل عناصر البيئة والطبيعة صـاروا يتأملونها ويتعلمـون منها كيف يتغلبـون على مشـكلاتهم الحياتيـة؛ كيف يطيرون بشكلٍ انسيابي وسـريع، وكيف يصبحون أكـثر قـدرةً على مقاومة الجفـاف، كيف يحمـون أنفسـهم من الإنفجـار النووي، وكيف يصطادون، وكيف يعيشون في الثلـوج، أو تحت سـطح البحـر، وإلى ما هنالك من فوائد اسـتفادها وتعلمها العلماء والناس في الغرب من المخلوقات الصغيرة المنتشرة حولنا في هـذا العـالم (لقد أصـبح من الثـابت أنَّ الكثـير من المجموعـات الحيوانية وحـتى الحشـرات مثل النمل والنحل وغيرها أنَّ لديها تواصل وتنسيق وتفاعل اجتماعي أكـثر بكثـير مما لدى العرب المسلمين في هذا العصر).

ففي أوربة تعلمـوا من الذبابة والجـرادة والصرصـور وغيرهـا، وأنتجـوا بسـببها الكثـير الكثـير من عناصر المدنيـة، السـيارة والطـائرة والكثـير من الأدوات كلها اخـترعت بـوحي من حيـاة الحيوانـات والطيـور والأسـماك والحشـرات، بينما عندنا في المجتمعات المتخلفة لايـزال يُطلب إلينـا... أننا كلما شـهدنا حيوانـاً غريبـاً أو حشـرة غريبـة، فـإن علينا أو مهمتنا الأساسـية هي أن نسـارع إلى قتلها فـوراً! وكـذلك نفعل

إذاً كيف فقد الناس حسّ المسؤولية تجاه الآخرين، ومن أين جاءت عـادة الازدواجية في السلوك لدى أبناء الشعب الواحد؟

بالأعشاب والنباتات الجميلة والأشجار، وخاصة إذا كانت غير مثمرة.

وفعلاً هنالك أشخاصٌ عديمي الفائدة وسلبيين للغاية، ووجودهم ضرر حقيقي على الحياة، ورحيلهم أفضل من بقائهم، وبطن الأرض أولى لهم من ظهرها، والله تعالى المستعان، إنَّ العقل الواعي عادةً ما يستقبل الرسائل والبرقيات من منطقة اللاوعي في النفس، أي (العقل الحسي) وهو يتقيَّد بها ومحكومٌ لها لا إرادياً (قد ننسى الحديث ويبقى الشعور) والعلاقة وثيقة جداً بين ما نشعر به وبين الأحداث التي نمر بها، والمعلومات التي تصل إلينا، ومن ثمَّ نخزنها، وكذلك الأحاسيس المصاحبة لها (الذاكرة) ثمَّ تكون الطريقة التي سنعبر بها أو سنتصرف بها (السلوك) فالسلوك قبل الضبط بالعقل يكون تلقائياً وينبعٌ من دائرة اللاوعي، لأنَّ العقل الواعي بالواقع هو الجزء البارز من العقل الكلي وهو نسبياً أقل مساحةً وحجماً من العقل اللاواعي.

فالجزء الأكبر من العقل هو المغمور أو المختفي وراء الحجب، إنه غير مباشر إنه العقل اللاواعي؛ وهو يعتمد على ما اكتسبناه من السلوك والمعلومات المختلفة (إن المعلومات المختزنة والمكتسبة تأتي إلى الذهن آلياً حين نواجه المواقف نفسها، إنَّ المعلومات الموجودة في العقل الواعي تغذي باستمرار العقل اللاواعي، والعكس صحيح، وهنالك ارتباط قوي ومباشر بين جزأي العقل الواعي واللاواعي، فالعقل الواعي يستقبل ويدرك كل ما يراه وما يسمعه أو يمر به من أحداث وغيره، ثم يقوم باختزانه في الجزء أو في منطقة اللاوعي في الذاكرة، فيختزن الحدث ذاته بالإضافة إلى الشعور الذي صاحب وقوع ذلك الحدث.

فالعقل اللاواعي بطبيعة الحال لا يفكـرُ ولا يحكم، وهو لا يتخذ القرار، ولكنه فقط كخادمٍ أمين يُخـزِّنُ المعلومات، ويُشكلُ ردودَ أفعالٍ موافقةٍ للمعلومات المختزنة.

لذلك وعلميّاً إذاً أردنا أن نغيِّر سلوكنا أو آرائنا في مرحلةٍ من المراحل، فإنه يجب علينا أن نبدأ أولاً بترتيب عقلنا الباطن، وهذا يعني أن نختار له الأفكار الإيجابية البنّاءة أو التجارب أو الاطلاعات المهمة وأن نغذيه بها، من مثل السفر وزيارة المتاحف والآثار التاريخية والفنية والقراءة المتأنية والتأملية للأفكار والآداب العالية وتعلم اللغات المختلفة واجراء المقارنة بينها، وانشاء العلاقات البناءة والايجابية والحضارية مع الناس رفيعي المستوى، والاطلاع على تجارب الأمم والشعوب وعاداتها وتقاليدها والافادة منها، كلُّ ذلك يعمل على توجيهنا لا

إرادياً ويؤثر فينا إيجابياً ويدفعنا دون أن ندري إلى الأمـام، لـذلك وإذا أردنـا النجـاح فعلاً فإنـه يتـوجب علينـا أن نتعلم كيـف نتقن الاتصـال وبشـكلٍ علمي بعقلنـا البـاطن، إنَّ الاتصـال بالعقـل الباطن يجعلنا أكثر قدرةٍ على التحكم بالعقل الظاهر، أي تجعلنا أكثر قدرة على الإبداع والتقدم، إنَّ كل ما تم إنجازه لدى البشر في العالم وعلى كافة الأصعدة، كان قد بدأ بفكرة تشـكلت في صدرٍ ما.

لقد برقت فكرة ما في ذهن شخصٍ مـا، فكـانت الطـائرة والغواصة، وهكذا انطلق قطار الأفكار وتدفّق بتوافق العوامل وتلاؤم الشـروط وتزامنها في العقـول، وهكـذا تنطلق شـرارة الأفكـار لتـدفق في عقـول بعض النـاس في ظـروف معينـة، ووفق الهـدف الموضـوع والارادة المزمعـة، من هنا جـرى التأكيد على ضرورة أن نتقن الطرق الصحيحة للإتصال بالعقل الباطن (نظراً لأهمية هذا الاتصـال وضـرورته) إنَّ في البـاطن قوة حقيقية للوعي يمكن توجيهها والاسـتفادة منها في وجـوه كثيرة، فالعقل الباطن وجد أساساً لخدمة الإنسان ومساعدته على تخطي العقبات الكأداء والجـدران السـميكة من السـدود التي يمكن تنشأ في وجهه وتصادفه على طريقه في مسـتوى الـوعي، فالعقل البـاطن لا يتوقف عن التفكـير أبـداً، وهو مسـتمرٌ ويعمل في خـدمتنا تحت كل الظـروف وفي كل الأوقات.

والمطلـوب منا فقط أن نتقن كيفيَّة الاتصـال به وحسن سـماعه والانصـات لـه، وهو على الأغلب سـيقدم لنا الحلـول لمشاكلنا العالقة في صورة فكرة ما.

فعلى الرغم من أنَّ (العقل الباطن) يشكل مخزناً للصـور والأحداث الماديّة والمعلومات وللأحاسـيس والمشـاعر، الـتي تمر بنا خلال كامل حياتنا منذ الطفولة ومنذ ما قبل الـولادة، ومعلـومٌ أنه كلما تكـرر الموقف زاد عمق الأثر الـذي سـيحفز الـذاكرة، فهو يحتفظ بكامل الـذاكرة والأحـداث، إلا أن تلك المعلومات البعيـدة لا يمكن تصـعيدها إلى العقل الـواعي بكل تلقائية، لأنها سبق وأن خُزِّنت في العقل البـاطن في مسـتوى عميق وبعيد جداً؛

أما الـذكريات والمعلومـات المتعلقة بالحيـاة الحالية واليومية التي نحتاج للوصول إليها بسـهولة على الـدوام، فإنها يتم حفظها وتخزينها في مستوى قريب، بحيث يمكننا الرجـوع إليها دون جهـدٍ يُـذكر، والمعلومـات عامـةً يتم حفظها في المستوى العميق من العقل الباطن لسببين: إما لكونها - هذه

الـــذكريات - لا علاقة لها بحياتنا بعد النضـــوج، أو لأنها كـــانت مخيفة ومزعجة لنا، الأمر الذي يدعونا إلى كبتها وإبعادها.

وهذا العمل ليس إرادياً ولكنه يحدث بطريقة (أتوماتيكيـة) إذ يقوم العقل بذلك الاجراء كوسيلة دفاع ذاتي، ولذلك عنـدما يتم في (العقل البـــاطن) ابعـــاد أحـــداث معينة إلى البعيد والعميق، لذلك فإننا لن نعـود لتـذكرها ببسـاطة، إلا إذا كـانت هنالك مناسبة حرَّكت ظروفاً استعادت تلك الذكريات واعادت نشـرها، وهـذه هي آلية عمل (العقل البـاطن) إنه الأرشـيف الصادق، ولكن في البعيد العميق، وفي غير الظاهر.

ومع ذلك فإنَّ المشاعر التي صاحبت تلك الأحـداث، مثل الشعور بالذنب أو الخجل أو الحزن أو الخوف والفـزع، أو أيـاً ما كـانت هـذه المشـاعر، فإنها لا بُـدَّ من أن تَـبرز، إذ لا يمكن نسـيانها حـتى لو نسـينا الحـدث ذاتـه، وهي تظهر عـادةً عند البعض، في عـــدة أشـــكال وصـــور وحـــالات من القلق أو من نوبات الخوف والفزع أو الاكتئاب، أو الأمـراض النفسـية وهي كثـيرة ومتعـددة، أو عضـوية وغيرهـا. وهـذه الأمـراض للأسف الشـديد عـادة ما تنعكس على المحيط والمجتمع دون وضـوح الأسباب.

ونحن حتى نتمكن من تقوية أنفُسـنا علينا أن نعمل على حل مشاكلنا الماضية، إذا كانت من القضايا الهامة، إذ لا فائدة من تجاهُلها أو انكارِها أو تجاوزِها بالكلية.

إنَّ انكار الماضي عمل غير مجـدي ويجب مجابهة الواقـع، ولكن ليس بالهروب إلى الأمام وإنما بـالتفكير العميق والعمل الحقيقي (فكلما أسرعنا بالهروب من الماضي أسـرع الماضي للّحـــاق بنـــا، ففي النفس (البـــاطن) لا يمكن التخلص من أي شيء مهما كان سلبياً بالهروب منه.

بل يجب أن نلتفت إليه ونواجـهُ، ومن ثمَّ إذا كـان سـلبياً نتخلص منه وإلى الأبد)[1]، فالمشاعر يتم تحريرها دائماً، وتظلُّ محررةً حتى تجد الحـدث الـذي سـيثيرها ويضـعها في المقـام الأول، وعنـــدما نســـتطيع القيـــام بهـــذا الربط بين الواقع والمشاعر والأحاسـيس الصـادقة والرائعـة، عنـدما نتمكن من ايجـاد الصـلات الأساسـية ونقـاط الارتكـاز بين تلك الأفكـار الجميلة أو الأحلام الرائعة والواقع المعاش (محاولة التأسـيس العملي على الأرض) فإنه يمكننا فعلاً عندها الشـعور بـالفخر، إنَّ الأحلام مجالٌ ثر لأثـراء وإغنـاء الواقـع، ويمكن جعل الحلم

---

1 (?) التفكـير الايجـابي فـيرا بيفر مكتبة جرير السـعودية الطبعة السـابعة 2007

رؤية عظيمة تكون طليعة الفكر ورأس الخيـط، الـتي بموجبها نتمكن من فعل المستحيل.

إننا يجب أن نبـذل قصـارى جهـدنا لتنمية مواردنا الداخلية عن طريق وترويضـها وتـدريبها وتهـذيبها وتعويـدها عن طريق تربيتها وتعليمها أي أنسـنتها، وذلك دون اللجـوء إلى الأدوية والعلاجات، إننا يجب أن نتعود كيف نستثمر قـدرتنا على التنبؤ والاستلهام، كيف نُبْـدِع من ذاتِنا كل الأفكـار، ثم نجسـدها في الواقع، لا أن تبقى نظريات فحسب؛ فأي شيء نغذي به عقلنا الباطن سوف يؤثر عليه ويحدد كيفية تعملنا مع الحياة، فلما لا نجعل هذه الأشـياء إيجابية ومفيـدة ؟إننا وعلى الـرغم من كل الظروف الـتي يمكن أن تصادفنا في هـذه الحيـاة، فـإنَّ علينا تشجيع أنفسنا على تفقد مسارها وعلينا تجديد مسـرها، وفعل الخيرات والاحسـان بكل اتجـاه وعلى كل المسـتويات ودفعها دفعاً للتطلع إلى المعالي.

إنَّ تصعيد الأحداث وتحفيذها وانتقالها من منطقة اللاوعي إلى العقل الـواعي أمـرٌ يحتـاج إلى أسـباب، فبعض الأمـور تغـوص إلى أعمق اعمـاق العقل البـاطن وبعضـها يطفو على السطح، وطبعاً فنحن لا نسـتطيع السـباحة في ميـاه النهر إلا مـرة واحـد، وكـذلك فالأفكـار الـواردة إلى مخيلتنا، فهي تأتينا في ظروف محددة نادراً ما تتكرر، وهي لا تتوقف عن التبـدل والنمو كما الأوقـات والظـروف، لقد أصـبح من المؤكد أن القضـايا الوطنية والـروح الوطنية هي بـؤرة الإيمـان الحقيقي ومجاله الحيـوي المُعـاش، إذ لا إيمـان حقيقي بـدون روابط وطنية واضـحة ومعلنـة، وهي عين الإيمـان وتحـيي الأنفس وتمجـدها وترفع من مسـتواها وتنشـلها من مهـاوي الدونية والحضيض.

يجب توطين النفس وتدريبها على فعل الخـيرات وتلقينهـا أن العبودية لله تعالى فقط وأنَّ الإنسان حرٌ بأفكاره وقد ولدتـه أمـه حـراً وبالتـالي عليـه أن لا يقبـل بالعبوديـة مطلقـاً فالعقـل الباطن ليس فقط مسـؤولاً عن تخـزين الـذكريات والأحاسـيس والمشاعر فحسب، ولكنه أيضاً مركز الابداع والحدس والأفكـار، وكلها أشياء غير ملموسة لذلك يظهر الحَدْسُ والالهام وتبدو لنـا والأفكار الخلاقة فجأة ودون مقدمات، لتدفعنا في اتجـاهٍ محـدد إلى ايجاد حل لمشكلة كانت تتفاعل في أنفسنا لأيـام. يجب أن نعمـل على أن تكتمـل الحقـائق المختزنـة لـدينا في ذاكرتنـا (الصور) ليتكون سلوكناً حقيقياً ناجزاً وايجابياً.

ولا شك أنَّ التوتر الذهني يولد تـوتراً جسـدياً، ويـؤدي إلى الاحباط في أجهزة الجسم ووظائفها وعلى كافة المسـتويات،

وأنَّ حـالات المـرض والعجز الجسـدي والمـادي أو التخلف النسبي؛[1] تؤثر تـأثيراً مباشـراً في مسـتوى الـوعي والتفكـير لدى كل إنسان، لذلك على الإنسان الواعي إدراك تلك النقاط التي تؤثر عادة في مجريات التفكير عنده وتلافي النواقص إن وجـدت عن طريق الاسـتكمال والتعـويض من خلال التمـارين والثقافة والتعليم وادراك أن لا يـأس مع الحيـاة، وفي المقابل فإنَّ الغرق في وديـان التخلف والانحطاط والخيـارات الهابطة في السلوك أي الدخول في مهاوي السلبية والأفكـار السـيئة، مهما كـان لها من تـبرير شـيطاني أو مهما مـورس فيها من الاغـراءات والسـحر الأسـود الـذي عـادة ما يُظهر المسـاوئ القبيحة على أنها محاسن يجب قبولها من قبل أولئك المُغَـرَّر بهم، الـذين تهـاووا وسـقطوا في مسـتنقع الرزيلة واحضـان الشيطان، لذلك علينا تـوقي الحـذر، فـأنتَ هو أفكـارُك ذاتهـا، وأفكارك هي التي ستحدد شكل واسـلوب حياتـك، إنَّ المـزاج السـيئ مثل السـلوك السـيئ نـاتجٌ عن عوامل أولية صـادفتنا ولم نكن في حالة نفسـيّة ملائمـة؛ لقد فشـلنا إذاً فنحن ليس لـدينا القـدرة على حل المشـاكل الطارئة وفـوق ذلك نـدخل تحت احتمالات كثيرة سلبية قد نتعرض لها إضافة لحالة القلق والارهاق.

ما يجب التأكيد عليه هو أن الـــدماغ أساســاً ومن ناحية مادية مؤلــفٌ من خلايا عصــبيّة ودوائر اتصــال، وله وظــائف متعـــددة، فهو بالإضــــافة إلى كونه مقر القيـــادة والتحكم (العصـبية) في الجسم كلـه، ولكنه أيضـاً يشـكل مسـتودعاً ومقـرّاً للـذكريات والأحلام والآمـال والمعلومـات والمشـاعر والأحاسيس والأفكار؛ وحتى نصل إلى حالة تسمح لنا بالتفكير العميق وباستمرار العمل به لا شك أننا نحتاج باستمرار وعلى الـــدوام إلى (الأوكســجين) إنَّ علينا أن نـــؤمنَّ الأوكســجين ووصوله إلى الدماغ وذلك باستنشاق الهواء النقي والصحي.

عن طريق الرياضة والـترويض، وأداء التمـارين الرياضـية الخفيفة النافعة والـتي تـؤدي الغـرض في وقتهـا؛ وتسـمح لنا باستمرار الحيوية والليونة في أعضاء جسمنا ودماغنـا، وابقـاء

---

[1] (?) ليس هنالك شخص في العالم كامل أبداً أو خـالي تمامـاً من العيـوب أو النواقص، أو هو معصومٌ عن الأخطاء أو مكفولٌ من النوائب والنكبـات، وقد أثبتت الدراسـات العلمية المحايـدة أن كل إنسـان بمعـنى ما (ماعـدا الرسل والأنبيـاء فقـط) أنَّ لديه عيـوب ونـواقص ولكن بشـكل نسـبي، والحديث يدور حول: أن كل إنسـان لديه مـرض نفسـي ولكنَّ ظهـور هـذا المــرض أو وضـوحه أمــرٌ مرهــونٌ بــالظروف الخاصة والعامــة، تقــول الدراسات أن الأمراض النفسية ـ أنواعها وحالاتها ـ تعدادها أكـثر من 460 مرضاً وحالةً ولا يكاد أحدٌ من الناس إلا وهو مصـابٌ بإحـدى تلك الحـالات ولكن يحتاج إلى طبيب ليكشف عليه ويفحصه ليحدد له تماماً حالته.

جسـمنا وحواسـنا في حـال جيـدة قـادرة على الاسـتقبال والعطـاء؛ كـذلك النزهـاتً في الطبيعة الطلقة والأمـاكن التاريخية والآثـار، والـتي تمكننا من استنشـاق الهـواء النقي، وتسمح بالانعتاق من القيود والموانع القسـرية المفروضة في المدينة الحديثة.

كـذلك فـإنَّ المآسي والنكبـات والفشل تلو الفشل والصعوبات تقود العقل إلى ما يمكن أن يُسمَّى بحالات الكبت والعُقَد.

في هذا الوقت بالذات (وقت تفاقم المشـكلات والأزمـات العالمية المستعصـية) ومن أجل البحث عن حلـول لمسـائله المزمنة والمعقدة، يعود العـالم بكل جـدٍّ واتـزان واخلاص إلى دراسة العقل وآليات عملـه، متـوغلين في العلـوم الـتي تجمع بين الفكر المجـرد والمعرفة المحسوسـة، وبين ألق الحلم الإنسـاني وتـوهج العاطفـة، إنه يعـود لاكتشـاف القـوانين والعمليات الأساسية التي تتحكم بالحياة الفردية والاجتماعيـة، وبعبـارة أخـرى إن العـالم يتنبـه، والسـؤال الأهم في هـذه المرحلة هو مـاهي الـدوافع الحقيقية والأساسـية (الظـاهرة والباطنية) الـتي تحـرِّض الإنسـان وتدفعه إلى انجـاز الأعمـال العظيمة في الفن والعلم والحيـاة العملية أي في الابتكـار والتقدم، وتأثير الأمل والمكونات العديدة والتجارب والأحـداث الـتي نتعـرض لها وأثرها على نمط التفكـير، ثمَّ كيف يتشـكل لـدى النـاس ما صـار يـدعى (الـرأي العـام) أو (الايـديولوجيا الجمعية) أو العقائد أو المشاعر المشتركة؟

لقـد صـار من المؤكـد الآن أنَّ مـا عُـرف بعلم النفس وعلم النفس الاجتمـاعي، مـا هي إلا تجليـات الفعاليـات الداخليـة للمعـاني أو الصـور العقليـة – الفكريـة، والـتي لا تتوقـف عن التدفق عند كل إنسان، وبالتالي فـإن الحلم لـدى الإنسـان وهـو برج الأفكار الجديدة، إنْ كان دافعـاً لمسـعى وإيجابيـاً فحيـا هلا، وعلى الإنسان أن يبذل لِتحقيقه قصارى جهده، عليـه أن يسـعى بوعي متنامي لتحقيق حُلُمِهِ وتجسيد أفكـاره النبيلـة في الحيـاة بحماسة وتألق.

فالنحَّات والمهندس المعمار لاشك أنـه أولاً يتأمـل ويطيـل النظـر، ويبحث في الخصـائص الطبيعيـة للحجـر، حـتى يجـد الروابط أو الخيط الرفيع الذي يوصل بين الخيال والواقع، عندئذٍ سيجد الخيال طريقه إلى الواقع، إن رغبـة الإنسـان في التغيـير والتقدم أهم بكثير من كـل الإنجـازات الـتي حققهـا، ولكن لا بـد من وجود نظام يولدُ تلـك الأفكـار داخـل العقـل، أو آليـة يعمـل عليهـا هـذا العقـل، لقـد آن الأوان للـدخول معنويـاً ونوعيـاً مـع

الأفكار إلى داخل هذا العقل والاطلاع على الفضـاءات والأجـواء والظروف الداخلية للعقل (ما فوق أو ما بعد النفسانية والعملية العصبية والاجتماعية) لمعرفة الكيفية الـتي تتوالـد فيهـا الأفكـار أو تنبـع ومـا يـؤثر فيهـا؛ على أن لا ننسـى أن (القـرآن الكـريم) دائماً يشير إلى الأفكـار وإلى العقـل من حالـة الحركـة والعمـل وليس من الثبات أو التوقف أو الجمود، وعلى الدوام تـأتي فيـه الصيغة (يتفكرون) و(يعقلون) ولهذا دلالته الكبرى.

إن الكتابة وتسـجيل المشـاعر والتجـارب الخاصة والعامة والأفكــار الإيجابية البنــاءة مهما كــانت، فإنها حــقٌ مشــروع للجميع وهو أمرٌ حيوي وضـروري ويجب أن يُفسح لها المجـال وأن يُمَكّن فيها للجميع، وأنْ تكون عـادة إيجابية بنّاءة واضـحة وصريحة شفافة ومتبادلة دون غموض، وأن يعتاد عليها النـاس جميعاً في المجتمع كتفاعل حضـاري ايجـابي (إن نقل التجربة وتعميمها على الناس أمرٌ بحد ذاته يعتبر انجازٌ حضـاري عظيم بل هو الحضارة ذاتها).

وذلك حــتى يــبرز المهم والأهم من الأفكــار الجديــدة وتشــرئب وتتكامل وتتضح معالمها الحقيقية ويحــدث التقــدم والتطــور وتبــنى الحضـارة، يجب أن لا تكــون الكتابة الفكرية والإبداعيّة والنشر حكراً على فئة ما من المتخصصين بالهيمنة أو أشخاص محددين من مسـتوى مـا؛ يجب أن تُحـاط الأفكـار والرؤى الجديدة بالعناية والرعاية والاهتمـام من قبل الجميـع؛ أن يعتاد الناس على احترامها وتقديرها وحمايتها والـدفاع عنها ويقدموا لها المساعدة لطالما أنها ايجابية ووطنيــة، لا ازدرائها وتسفيهها وتهميشها والحطّ من قيمتها ومن شأنها.

لقد لوحظ من قبل المراقـبين والبـاحثين وبوضـوح شـديد مطلع الألفية الثالثـة، أن التقَـزُّم والهبـوط والانحلال قد أصـبح من ســـمات العقل والفكر العـــربي واهتماماته واســـاليبه المتهالكـة، وذلك لـدى كافة الفئـات العربية في جميع الـدول العربيــة، هــذه الـدول الـتي كـان من مهامها الأساسـية ومنذ الاســـتقلال، تكـــريس التخلف والانحطـــاط والجهل واعاقة التفكير عند الفرد وفي المجتمع العربي، فلمـاذا يتفتَّح الـذهن العـربي المسـلم، في الـدول الغربيـة، ويصـبح منتجـاً ويحقق النجاح في جميع المجـالات؛ بينما يفشل فشـلاً ذريعـاً إذا بقي في ظل الحكومات العربية؟

وقد انعكس هــذا الانحلال وهــذا الانحطاط والاضــمحلال والنضــوب العقلي والفكـري الواضح عند المواطـنين العـرب المسلمين، نتيجة الحصار الفكـري المحكم والحرمـان الطويل المطبق عليهم في جميع الأقطار العربية ومنذ الاستقلال، لقد

انعكس مؤخراً على أوضاعهم المادية والصحية أيضاً وتجلت فيها الهموم واضحة جلية وأصبحت من علائم وسمات الحياة الوجودية عند العربي المسلم في هذا العصر الرديء الذي تكالبت فيه على العرب كل القوى الغاشمة في الداخل ومن الخارج، ولكن مع أنَّ جميع العلوم بفروعها (علم الكيمياء وعلم الفيزياء والجيولوجيا والجغرافيا وعلم التاريخ وغيرها) قد أصبحت واضحة في هذا العصر، إلا أنَّ (علم العقل والفكر) لا يزال في هذا العالم لغزاً محيراً، الدخول فيه يعتبر مغامرة غير مضمونة ومحفوفةً بالمخاطر، وقد نجح الغرب نجاحاً مطرداً في جميع تلك العلوم المادية وفروعها، حتى جاز لنا القول أن الغرب قد أمتلك فعلاً ناصية العلوم المادية مطلقاً، بما فيها علم الذرة والإلكترون وما ينتج عنها، وبالتالي فإن الغرب (أوربة وأمريكا واليهود) سيطرَ وتحكمَ وهيمنَ فعلاً وبلا منازع على دول العالم وشعوبه.

لكن امتلاك أو تَمَلُك الجانب المادي من العلم والسيطرة عليه، وإنْ حقق المكاسب كلها في عصرٍ ما، لكنه ليس ولن يكون نهاية المطاف؛ إنه وعلى الرغم من كل الديكور الباهظ الكلفة والثمين إلا أنه (الإنسان في العالم) لا يزال وضعه غير مقنع ومأزوماً بالأزمات الحادة، لأنَّ المادة (الجسم الآلة) تحتاج دائماً ومن كل بدٍ إلى رأس وقائد يديرها (رجاحة العقل أو الفهم)، وهذا ما تفتقده تلك القوى الغاشمة في الغرب على الدوام (أوربة وأمريكا واليهود)، إذ أن القضية ليست قضية تحقيق الغلبة وفقط؛ ونظراً لطبيعتهم الماديّة الصرفة فإنه ليس بإمكانهم حيازة (العقل والفكر والقلب) لأنها أدوات غريبة عن بيئتهم بطبيعة الحال وليست لهم، إنها بطبيعتها عربية خالصة، لا يمكن تحريكها أو تناولها ولا أن تقلع إلا بأيدٍ عربية واعية، إن الحقائق تنتظر من يكشفها ومن يعلنها ومن يعمل بها، إنَّ على المسلمين العرب من الآن فصاعداً تنكب المشكلات التي يستطيعون وحدهم حلها أو التصدي لها، فالفكر ليس مجرد اعلان مواقف وادعاءات انفعالية دفاعية أو هجوميّة ثرثرة وكلام في طحن الهواء، ولكنه أنماطٌ من الأبحاث العميقة علمية وعملية فيها استيعاب وفهم على أعلى مستوى وأوسع نطاق، ثم اقرارٌ للحكم واتخاذٌ للقرار حيال كل المسائل والقضايا المطروحة، فكيف تحولت في الإسلام الحالي إلى شظايا قصص وسجلاتٍ للفتاوى جاهزة من بقايا عصر الجمود، جعجعة بلا طحن وردود أفعال لا تثمر ولا تغني عن جوع؟ إن تجاوز هذا الوضع من أولى أولويات الفكر الاسلامي العربي في العصر الحديث، بينما العقل وفيه تفاعل الفِكر العديدة والمتباينة النفسانية والذاتية عند

الإنسان واندماجها في عمليات داخلية معقدة، ليـأتي بعد ذلك الحكم عن تبصّـر واتخـاذ القـرار وبـروزه كسـلوك وعمـل، فالأفكـار المتعـددة والمتباينة هي مـادة العقل ليبـني عليها أحكامه ويتخذ حيالها قراراته السـريعة أو البطيئـة، ولكنَّ المعتل من بدايته لا يصح بمرور الزمن؛

إنَّ الاستقصاء الجـوهري لمفهـوم العقل وعوامله (الصـور والأفكـار) وما يـؤثر فيـه، أمـرٌ مهم جـداً لأنه يحفِّز الاهتمـام بالجوهريـات، وكـذلك العناصر الذاتية والاجتماعية المركبـة، ومن المؤمَّل أن يسـهم في انجـاز وتحقيق النجـاح والتنمية والتطور من خلال تجاوز العقبات.

ولكن بالتأكيد ومن أجل الوصـول إلى تلك المرحلـة، فإنه ليست هنالك وصفات جاهزة، إنما يجب بذل الجهد والعناء من أجل تحقيقها، في حين أن الهدف الأقصى هو محاولة الكشف عن القدرات غير المتناهية التي يحفل بها المضمون الإنسـاني بكل المستويات، سواءٌ أكـان في حالة الـوعي أو في ما تحت الـوعي، فـإنَّ لـدى الإنسـان طاقـات هائلة وهي قوية وخلاقة مبدعة لا تـزال أرضـاً بكـراً لم تمسَّـها الأيـدي، لا يـزال العقل والفكر الإنسـاني بطنٌ حبلى بالعطـاءات، بحيث كـانت الدراسات فيما مضى مسيسة وضـمن اسـتراتيجيات (لم تكن إيجابية الأهـداف أو نبيلة ولكن عبثية غـير مضـمونة النتـائج) وخصوصاً من جانب (علم النفس).

إنَّ دراسة ماهية الفكر العربي الإسلامي، ومحاولة التوغل في مفهـوم العقل العـربي المسـلم، لا تـرمي بالأسـاس إلى خلق إنسـان جديد كما تـزعم الدراسـات الأخـرى، إنما تهـدف إلى مساعدة الإنسان العربي ودعم وجوده الطبيعي في هـذه الحيـاة، إنها ليست مجـرد دراسة سـطحية فردية أو جماعية على أسس نظرية فحسب ويجب أن لا تكـون كـذلك؛ (دراسة النفسـيات والأفكـار وتحليلهـا) وأن لا تقف عند الإحصـائيات ومعطيات تتعلق بالأرقام ووصف الحـالات، ولكنها أيضـاً يجب أن تكـون أبحـاثٌ متعلقـةٌ في قضـايا ملتصـقة بالحيـاة مليئة بالحيوية والعلم، إنها دراسـات معمقة وتحمل فائـدة من أجل البناء والتقدم، وذلك من خلال شرح وبيـان للعناصر البسـيطة والأفكـار الأساسـية، وتحليلها وتركيبها وتخصيصـها (الجـوانب الذاتية وتعميمها جماهيريـاً)؛ لاسـتخلاص النتـائج المرجـوة، وترشيد السلوك من أجل الانبعاث الإيجابي البناء.

إنه من أجل ذلك فلا بـدَّ من دراسة التـاريخ الأصـيل بكل جوانبه في مختلف العصـور، وكـذلك الواقع بكل ابعـاده والقـوانين الـتي تحكمـه، إضـافةً إلى كافة منـاحي الحيـاة

وتشـــعباتها الاجتماعيـــة، الدراســـات (الســـيكولوجية) و(السســيولوجية) مع ديناميكية العاطفة دون خــوف، شــرط عدم إهمـال أي من العوامل المكونة وذلك بالاعتمـاد والاتكـاء على علم النفس الاجتمـاعي الأكـثر موضــوعية، اضـافة إلى العوامل النفسـية الذاتية الـتي يمكن أن تكـون في كثـيرٍ من الأحيـــان متبدلـــة؛ إن علم النفس وعلم الاجتمـــاع علمـــان مترابطان يسهمان في مسألة الوعي عند كل إنسان.

إن الحالة الاجتماعية أساســية وهي عامة وتتعلق أيضـــاً بالتاريخ والمستقبل في آن، إن المسـألة والولـوج فيها تحتـاج من أجل اتمـــام الأبحـــاث لدراسة ماهية الفكر إلى أســاليب فنيــة، وإلى تعــاون وتضــافر الجهــود في جميع فــروع العلم (الـــدخول في العقل والاطلاع على ما بداخله كيف تجـــري الأمور؟).

إن كيفية عمل الــدماغ بصــورة طبيعية لإنتــاج القناعــات والـــوعي وعملياته الأخـــرى، لم تعد تتقـــرر بالبيئة الطبيعية أو الفيزيولوجية وحـــدها، ولكن بالبيئة الاجتماعية أيضــاً، فثمة أوضاع كانت في الماضي تُعتبر أمراضـاً تسـتوجب الوضع في المصحات، وقد أصبحت الآن تأخذ منحىً مختلفـاً تمامـاً! لقد أصـبح من الثـابت الآن وبلا خلاف أن الإنسـان جـوهر حيـوي بيولوجي وفـيزيولوجي، وجـوهر اجتمـاعي، وأن هنالك تفـاعلاً دائمـاً بين الإنسـان والبيئـة، وهو العامل الرئيسي الـذي يقـرر شخصيته.

إنَّ القواعد والقـوانين أو القيـود والأغلال الـتي سـبق وأن تسربت أو زرعت في دماغه فإنها تقف عائقـاً في طريقه إلى الفهم (الإنسان يميل إلى فهم الأشياء التي يُحبهـا، بينما يكـره الأشياء التي لا يفهمها) فالناس الذين درسـوا واسـتظهروا في سنيهم الأولى وحـتى المسـتوى العـالي من التعليم دون فهم، من النـادر أن يقتنعـوا بعد ذلك بالحقيقة إذا ظهـرت بعكس ما يعتقدون، إن الأفكار القديمة ضاربة الجذور في الباطن وتحتل في العقل المحدود مساحة واسـعة، لـذلك وفي هـذا المجـال ينبغي التوقف عن دفع الغرائز أو اثارتها والتوجه إلى الإدراك والوعي والانتباه.

فالغرب عند اتباعه للمنهج المادي المحسوس (التجريـبي) وتبنيه للنقد الصــارم، لاشك أنه اســتطاع الولــوج إلى أقصى مدى في فهمه العلمي للمادة والقوانين التي تسييرها وتتحكم بهـــا، وبـــذلك توصل إلى (القنبلة النوويـــة) وإلى اخـــتراع (الكمبيوتر) وغيرها من الإنجازات العلمية الهائلة التي لا مجال لذكرها الآن، ولكن لا تزال وستبقى قضية (فهم العقل وتحليل

ماهية الفكــر) أو الــدخول إلى داخل العقل بمفهومه الغيــبي المستور أو المحتجب وكنه الأفكار، وكيفية تشــكلها في داخل العقل والعوامل الـتي تنشأ من خلالها أو تسـهم في توليـدها، فـإنَّ كـلَّ ذلك لا يـزال وسـيبقى مستعصـياً تمامـاً على الفكر الغــربي، على الــرغم من كل الانتصــارات الــتي حققها في مختلف العلـوم الحسـيّة الأخـرى، إن قضـية إدراك العقل ذاته أو الدخول إلى داخل العقل المجرد سـتكون مهمـةً مسـتحيلة على الفكر الغــــــــربي، ذلك أن منهجه المعتمد في البحث بطبيعته منهجٌ مــــاديٌ أساســـاً ولا يســـتطيع الانقلاب عليه أو تغييره، نظراً لطبيعة الغرب وفهمه للحياة المادية الصرفة، والحقيقة تقول أنه عندما سيتمكن الإنسـان من (فهم العقـل) وفك رمـوزه واستقصـاء إمكانيته غـير المتناهيـة، سيسـتحوذ - كإنسـان - على القـوة الأهم لكسب وحسم الصـراع التقليـدي والناشئ عن تدافع المصالح.

ولكن حـــتى نتمكن من فهم (العقـــل) علينا بـــذل الجهد ومحاولة الدخول إلى معالمه والـتي لا تُـرى بـالعين المجـردة، ولكنها تعـــــرف بآثارها الرائعة والعظيمــــــة، فالعقل هو ذلك الفضــاء الــذي تولد أو تتوالد فيه الأفكــار، إن العقل شـــيء مختلف عن الـــــدماغ، إنهم في بلادي يخلطـــــون بين العقل والدماغ، إنهم يتكلمون عن العقل بينما يشـيرون إلى الـدماغ! (كل الكائنات لها دمـاغ ولكن ليس بالضـروري أن يوجد لـديها عقل) إلا البعض أو القليل من الناس.

إننا بالطبع نستطيع الوصول إلى الـدماغ المحسـوس الكتلة المادية مــتى نشــاء، ولكن هل نســتطيع الــدخول إلى العقل المعنوي والتجول داخل ردهاته؟ .

وموضـوعيّاً فـإن العـرب المسـلمين وبحكم وجـود اللســان العـربي المـبين (القـرآن الكـريم) معهم، وقـدرتهم وحـدهم على فهمـه الفهم الصـحيح، فهم المؤهلـون طبيعيـاً وفطريـاً في هـذا العالم للقيام بتلك المهمة المسـتحيلة على أيٍ من الشـعوب غـير العربية بحكم عُجمتها المسـتدامة واعوجـاج لسـانها وعـدم الإبانـة في مناهجها، إننا في حال نجاحنا كعرب مسلمين في الدخول إلى عتبـات العقـل فنحن بالتأكيـد سـنمتلك إمكانيات إضـافية هائلـة (الغـرب الاسـتعماري واليهـود ومنـذ معركـة الـيرموك ومعركـة القادسية يعرفـون هـذه المعادلـة، ولـذلك لن يمكنـوا العـرب من الوصول إليهـا أبـداً، ودائمـاً سـيعملون على الحـؤول دون وصـول العرب المسلمين إلى العقل والفكـر أي إلى النجـاح) ولكن مـتى سيمتلك العرب المسلمون زمام أمرهم ليتمكنوا من تحقيق ذلــك تلقائيــاً وبكــل جــدارة؟ ولكن لربمــا تمكن الإنســان العــربي في

المستقبل من طرق أبواب العقل والولوج إلى ردهاته أو الوقـوف عند عتباتـه، والاستمساك بالأفكـار الحقيقيـة والتعلـق بهـا كعـروة وثقى، ولو تحقق ذلك على أجنحـة الخيـال، فلربمـا اسـتطاع فـك طلاسمه وتحليل رموزه، إذ لا شيء يستحيل أمام إصرار الإنسـان والإرادة الحرة والتصميم النافذ إلى الأعماق، (فشـرف الوثبـة أن ترضى العُلا)[1]

ولكن لماذا كان الفكر العربي الإسـلامي في الخمسـينيات من القرن الماضي متوهجاً ويعمل منهمكاً في البحث، ولمـاذا توقف هذا النشـاط بعد ذلك وبشـكلٍ حـاد وفجـائي؟ ما الـذي ألجمه وأحجمه عن البحث والتفكـــير؟ بحيث تحـــول الفكر العربي الإسلامي إلى مجرد مسخ من المسوخ وصـار طاحونة للهواء يعمل على الاجترار؟

وبـات بكل وقاحة وقد أُخـرجَ عن مسـاره الطـبيعي يكـبر الصغير ويصغِّر الكبير، ويوهم العـرب الـذين وضـعوا في حالة الغفلة والنوم العميق، لقد انتصر أعداء العرب التقليـديين وتم لهم الاســتيلاء على العقل العــربي والفكر العــربي وتمّ لهم أسره والسيطرة عليه والتحكم في مسـاراته، وبالتـالي أصـبح العـرب مع مـواردهم بكل بسـاطة أسـرى ينصـاعون لأوامر أعــدائهم ينفــذون بأيــديهم المخططــات الرامية إلى زوالهم وإفنائهم، إن الجاهل يفعل بنفسه ما لا يفعله عدوه به.

ففي ذلك الـزمن الجميل كـان الفكر العـربي الإسـلامي والعقل العربي المسلم أكثر حريـةً كـان يحبو ويخطو خطواته نوعـاً ما بالاتجـاه الصـحيح، لكنه ولأسـبابٍ كثـيرة تم تكبيله وإخراجه بالكلية عن مساره، وبقيت لنا الذكريات الحلـوة؛ في ذلك الوقت على الأقل كانت لدى العـرب في جميع أقطـارهم ثقة بالنفس وكان لـديهم آمـال وأحلام كـانوا يسـعون لتحقيق أهدافهم، كانوا يعتـبرون أنفسـهم أرفع قيمة وأكـبر قـدرة من الأمريكان والأوربيين على تحقيق الأهـداف النبيلة والشُـجاعة، لكنهم بعد ذلك تحولـــوا وبفعل الممارســـات الـــتي مورست عليهم، وبالتدريج صاروا ينظرون إلى أنفسهم النظــرة الدونية فكيف حصل ذلك؟ كيف أُخرج العقل والفكر العربي الإسلامي عن مســاره إنَّ العــرب المسـلمون يمــرون الآن وفي هــذه المرحلة بالمأساة والدرس القاسـي، درس التخـريب الممنهج للعقل العربي المسلم، والحياة العربية الإسـلامية بكل أبعادها الوجوديـــة، فهل يتعلمـــون؟ فالعقل الـــذي يتوقف عن توليد الأفكار يحكم على ذاته بالموت السريري!

1 (?) من قصيدة للشاعر العـربي عمر أبو ريشة يقـول فيهـا: شـرف الوثبة أن ترضى العلى غُلبَ الواثب أم لم يُغلبِ

لقد عمل الفكر الأوربي في العصر الحـــديث على انتـــاج الوحدة الأوربية، لكنهم من أجل هذا الهدف في الـوقت نفسه لم يعملـــوا على إزالة الخلافــات أو الفــوارق بين القوميــات الأوربية المتعــــددة ؛ وهم عمليـــــاً لم يعملـــــوا على إزالة التناقضـــات من بينها في المصــالح أو في الوجــود القــومي عموماً، لقد إشتغلوا وانجزوا توحيد الاتجاه والهـدف والمصـير بين الدول الأوربية وشـعوبها (الوحـدة الاقتصـادية) ؛ لكنهم لم يقــرروا ولم يــدعوا إلى إلغــاء القوميــات الأوربية أو الــدول الأوربية أو الأوطان الأوربية؛ إنهم لم يفكروا في الغاء التمــايز بين الشعوب الأوربية بل على العكس فقد أكــدوا عليها وعلى ابقائها لأنها برأيهم طبيعيِّة ويجب أن تستمر.

ويُصـــرُّ المفكـــرون العـــرب (ذوي النزعـــات الشـــعوبية والطائفية) والآتون من منابع ومشارب شعوبية طائفية فــإنهم وقد تربعـــوا على عـــرش الفكر العـــربي في العصر الحـــديث وتسـلموا قيادته أيضـاً، ليتحـدثوا عن ضـرورة إزالة مكونـات العروبة الأساسية من جـذورها، فهم (المفكـرون العـرب ذوي النزعات الشعوبية والطائفية) صاروا يُصرون على إلغاء الدين ويدعون إلى الحرية التي ستؤدي إلى شرعنة وجود معتقـدات ولغات أخرى مفروضة إلى جانب الإسـلام العـربي في الحيـاة العربية، وإلى شرعنة وجود العـادات والأعـراف الغريبة وغـير العربية، ولن يهدأ لهم بال حتى يحققوا الهــدف الأساسي وهو تحطيم العروبة ونفي وجودها ودفنها ومســـحها من الوجـــود، وكـذلك الإسـلام، بينما أنتج العقل الأوربي فكـرة دولة لليهـود (اسـرائيل) ومنذ منتصف القـرن التاسع عشر (حملة نـابليون على مصر وبلاد الشام) وأقامها ووضعها في قلب بلاد العـــرب (الوطن العربي) كمشـروع مشـترك، ومنذ البدايـة، اشـتركت فيه واســـتثمرت كل الـــدول الأوربية وأمريكا والشــعوبية بكل أصنافها وأنواعها، وهي تستثمره يومياً!

إنَّ جميع الدول (الصليبية الاسـتعمارية اضـافة إلى امريكا واليهــود) تشــترك معــاً وتســاهم جنبــاً إلى جنب (شــراكة مســـاهمة) في الهيمنة على كامل القـــارة الافريقية وجنـــوب أسـيا بما فيها الـوطن العـربي كـاملاً وكامل الـدول الـتي في أمريكا اللاتينية وباقي الشعوب المستضعفة الـتي في العــالم، هيمنة اقتصادية وسياسـية وثقافية إلى أبعد مـدى يسـتثمرونها ويســـحبون خيراتها ويحاصـــرونها ويمنعـــون نموَّها وتطورهـــا، ويجعلون منها شعوباً مسـتهلكة ودائمـاً في حالة عـوز وحاجة ماسة للآخرين، مهددين في حياتهم ودائماً على شفير الموت؛ وهم جميعـــاً (جميع الـــدول الاســـتعمارية وأمريكا وعملائهم)

شركاءٌ في ذلك، ويتعاونون بذكاء مع النخب من تلك الشعوب المثقفين وغـيرهم، يسـتعملونهم كـأدوات رخيصـة، أو ككلاب شرسة للتحكم في ابنـاء جلـدتهم، وهـذا كله من انتـاج الفكر الأوربي الحـديث، فـأين هو الفكر العـربي من هـذا المخطط الرهيب وماذا أنتج الفكر العربي خلال العصر الحديث للتصدي لمثل هذا المخطط الرهيب إلا الجعجعة ؟

فالعقل الواعي يتجلّى في ادراكنا لحياتنا اليوميّة ويساعدنا على فهم المواقف والمشـكلات الجديـدة ومعرفة ما سـوف نفعله وكيف نفعله وهو مرتبط بتكــرار السـلوك المكتسب (العقل اللاواعي)

الشيء في ذاته

إن التفكير والعقل ليس مجرد احساس إيجابي ينبع من داخلنا فحسب، ولكنه سينعكسُ أيضاً على بيئتنا عملاً بنّاءً، ولذلك يجب علينا في كل لحظة وعلى الدوام أن لا ننسى الله أبداً ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: 19].

والناس عادةً يفتقدون صحبة الشخص السعيد الهادئ الأعصاب (سلوك القيادي) الودود الصريح والمكتفي، الذي لا يجعل شغله في الحياة، اقتناص الفرص لسلب الآخرين مدخراتهم وما في جيوبهم؛

وبما أنه لكل فعل ردٌّ فعل، لذلك يجب علينا أن نقدّر الله ﷻ حق قدره، وأن نحترم أنفسنا والآخرين أيضاً وأن ننظر إلى الجانب المضيء والمشرق من الحياة، فنهتمُّ بمن حولنا (خلق الأنبياء)، فإنَّ ما يجب أن نقوله هو ما نؤمن به وما نعتقده فعلاً (الحق)، وأن يكون ما نسعى لتحقيقه عملياً (الصدق)، وذلك بدون فظاظة ولكن بأدب جم، لأنَّ من يهتم بالآخرين يجعلهم يهتمون به، إن الإيجابية في السلوك تعني أن نبتعد عن القلق والخوف والسلبيّة وأن نهتم بالقضايا الكبرى والمصيرية والعليا والعامة (رجولة وإباء).

فالدعم الذي يمكن أن نتلقاه من الآخرين أو الإحساس به (المادي أو المعنوي) وتقديرنا لذاتنا سيسهم حتماً في مساعدتنا على تجاوز مشكلاتنا، ويجب أن يساعدنا على تقديم أفضل ما لدينا ودون خوف؛ إنه سيدفعنا ويشجعنا للمزيد من العطاء وذلك إذا كنّا نمتلك عقلاً ايجابياً فعلاً ويحسن التدبير، ويعمل على التجاوز دائماً وعدم الوقوف في المكان (المراوحة في المكان عمل أهوج) بينما الاحباط والقنوط سيعمل على كبت جماح حركاتنا ولجمها، والاعلام العالمي المبني على دراسات وابحاث هائلة وواسعة لعلم النفس يركز في تعامله مع العرب على تكرار الرسالة السلبية وترك الأثر العميق في العقل الباطن، والتأكيد على الحدث السلبي المصاحب أو المسبب للأثر في أعمق أعماق العقل الباطن.

فالإعلام العالمي المهود والطاغي له أكبر الأثر في جعل الأجيال العربية ترسف في القيود والأغلال، وجعلها تدور وتدور وتستمر في الدوران حول نفسها في متاهة لا تنتهي أبداً والنيّة تتجه إلى إبقائها في هذه المتاهة أربعين ألف سنة، بحيث أنَّ

العـربُ المسـلمون لا يفكـرون فيهـا ولا يعقلـون ولا يعـون ولا يفهمون ولا يدركون ولا يشعرون ولا يحسون أبداً.

إنَّ التفكـير الايجـابي البنـاء مبـنيٌّ على الانتفـاع بالعقل اللاواعي ووضعه بالشكل والمضمون الايجابي والمجدي عن طريق انتقاء وتنظيم المـدخلات إليـه، ذلك أن العقل اللاواعي سيعود ليمدَّ العقل الواعي بكل الدوافع لأداء سلوكٍ ما.

لأنَّ الكراهية لغير العدو والشعور بالـذنب أو الغضب (في غـير محلـه) أو الحسد السـلبي المقيت كل ذلك يفضي إلى توقف انتاج الفكر الايجابي، إنَّ الرائحة الجميلة تطـرد الرائحة السـيئة، وكـذلك فـإنَّ الأفكـار العظيمة والعُليا تلغي الأفكـار السـيئة والسـاذجة والسـطحية وغـير الهامـة، فيجب علينا أن نحاول دائماً زجَّ أنفسـنا في قضـايا نبيلة وهامة وعامـة، وذلك لنبقى في حـيز النبلاء والمهمين لنربأ بأنفسـنا عن الاسـفاف والتفاهة، لذلك كان الفكر الثوري رافعة يجعل الانسان يسـمو في أفكـاره وأوضـاعه واهتماماتـه، إلى الأعلى والأمـام فيجب أن نـوطن أنفسـنا على امكانية تحويل الضـعف إلى قـوة وأن نسعى في الانجاز.

لقد أصبح من الثابت في علم الاجتماع أن التعامل اليومي مع السـطحيين التـافهين أو السـاقطين اجتماعيـاً وأخلاقيـاً (خصوصاً الذين ليس لديهم عمل ايجابي يؤدونه وليس لـديهم مسـؤوليات يتحملونهـا، وما أكـثرهم) يـؤدي إلى تبديد الجهـود وضياع الطاقـات والامكانيـات واهـدارها وبالنهاية إلى الهبـوط بالمستوى والسقوط بالمحتوى، بينما مصاحبة أصـحاب الهمم العالية والناهضـين بأفكـارهم المبـدعين من جميع المجـالات، فإنها تنهض وتـــرتقي بالعقل والفكر وبـــالنفس وتحثها على المثابرة والعمل والابداع والـترقي في سـلالم المجد (الرائحة الجميلة تطـرد الرائحة السـيئة) وتجعلها مشـرئبة، إن اهـدار الطاقـات وضـياعها مع الأشـخاص الهامشـيين أمـرٌ كثـيراً ما نتعرض له في كل لحظة من حياتنا، فالتعقُّل والتفكـير يتطلب التركـيز وصـبِّ كل الجهـود باتجـاه الفكـرة، لـذلك علينا عـدم إضاعة الفرصة والقيام بالمبادرة فوراً. قال تعالى: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَـوْمِ الْقِيَامَـةِ (1) وَلَا أُقْسِـمُ بِـالنَّفْسِ اللَّوَّامَـةِ (2) أَيَحْسَـبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) ﴾ [القيامة:3]، أي أنَّهُ في يوم القيامة سـيكون هنـاك ترابط عضـوي بين القضـايا بين (يـوم الحســاب) والنفس اللوامة (المدانـــة) وحضـــور الانســـان المسـؤول عنهـا، ولن يكـون بينها هـذه القضـايا انفصـام أبـداً، ومعنى لا أقسم أي: لا أجـزئ ولا أفصم بينهـا، وقـديماً وحـتى ستينيات وبداية سبعينيات القـرن العشـرين كـانت التوجيهـات

والعبارات الأدبية والأخلاقية تتصدَّر وتزيين الأماكن والمخازن والمحلّات وحتى الباصات الكبيرة والسيارات الصغيرة، فأين ما ذَهَبْتَ يُطالعُكَ التفكير الإيجابي البناء (العدل أساس الملك) و(الدين قمة الأخلاق) و(من الواجب احترم الكبير ومراعاة الصغير) (القناعة كنزٌ لا يفنى) (رأس الحكمة مخافة الله) (الصبر مفتاح الفرج) وغيرها من العبارات التربوية والايجابية التي فُقِدَتْ فجأةً ولم نعُد نراها أبداً.

التفكير الايجابي مقرونٌ وينبع من المصلحة العليا للأمة والوطن، وبغير ذلك سيكون الفكر (لا فكر) عادي وسطحي ممجوج متكرر بلا نتيجة، تافه متهالك مغموسٌ بالأنانية، ويدور حول الاستهلاك تحت الكثير من الذرائع الواهية، فحتى نتمكن من حل أي مشكلة حلاً صحيحاً ومناسباً علينا التعرف على جميع جوانبها.

كيفيّة حدوث التفكير والوعي

تقـول الحقيقة العلمية الدامغـة: أنَّ النـاس يُولـدون من بطون أمهاتهم وهم مختلفون ومتباينون بالشـكل والمضـمون، ومتنوعون بالإمكانيات والقـدرات والمعطيـات، وهـذا ما يجب اقـراره عقليـاً وفكريـاً كأسس ومنطلقـات منطقيّة سـليمة، فالجينـــــــات الوراثيَّة والبيئية الطبيعية والعوامل الاجتماعية الماضـية والحاضـرة المتعـددة، والحـوادث الطارئة والتجربة وفـرص التعليم والثقافة والاطلاع، كلها أشـياء وعوامل تـؤثر في مسـتوى التكـوين الجسـدي والنفسـي، وتـؤدي إلى تنـوع الحاجات والمصالح، وتهب للإنسان حزمةً من المـواهب وباقة خاصةً من القدرات والإمكانيات، والتي إن توفرت لأحدٍ فليس بالضروري أن تتـوفر للآخـرين؛ من ههنا يـأتي التنـوع والتبـاين في الـدوافع والرغبـات والامكانيـات والمـواهب والقـدرات الذاتيّة والاتجاهـات؛ عند كل شـخص (هل يمكن أن يكـون البعض معـدوماً؟) وتتبـاين المصـالح والأهـواء والأهـداف بين الأفراد والمجتمعات وتتراكب القضايا.

كلُّ تلك العوامل تأخذ طريقها لتصبُّ في العقل المتموضع في أقسـام الـدماغ وملحقاتـه، وتعمل وتـؤثر في التفكـير عند الإنسـان، وتكـوِّن ما يـدعى بـالتفكير الإرادي الـذي يسـتدعيه الحَدَث ويرافقه الحَدْسُ الداخلي والانتباه والـوعيَ بالموضـوع والتذكر، ويستدعي التأمـلَ في الأشـياء والأحـداث من حولنـا! وترتسم في مخيلتنا من جرائها وبالتـذكر والتأمـل، شُـعَبُ العلاقـات والملفـات والصـور والأحـداث المرتبطة بهـا، وهو تفكيرٌ مباشرٌ يتـأثرُ بـالمؤثرات أو بما يـؤثر بنـا؛ ويحـدُثُ أثنـاء اليقظة والانتباه والوعي بالموضوع وبالمحيط، وله بيئة محددة ومرتبـطٌ بالزمـان والمكـان؛ وكثـيرةٌ تلك الأوقـات الـتي تمـرُّ أو تنقضي من حياتنا دون أن ننتبه فيهـا، ولكنَّ بعضَ الأوقـات تكـونُ خالـدةً فهي - لأنها بالنسـبة لنا هامة - لأن ذكرياتها لا تُنسى ولا تُمحى من الذاكرة.

وهنالك تفكـير يحـدث في منطقة اللاوعي أو في ما تحت الأنا وهو كما هو معروف لا إرادي مستمر وتتعدد مباعِثَـهُ آليـاً، وهذا التفكير متدفقٌ لا ينقطع ولا يكاد يتوقف حتى أثناء النوم؛ ويـذهب في جميع الاتجاهـات والمسـتويات، ولا يسـتطيع

الإنســـان في الحالة الطبيعيّة التحكم فيه أو وقف تداعياتـــه، ويبرز إلى السطح كلما دعت الحاجة![1]

إن الـوعي بـالمعنى الأصـلي، ووعي (اللانهايـة) لا ينفصل أحـــدهما عن الآخـــر، فليس وعي (اللانهايـــة) الا وعي لانهاية الوعي، وحين يعي الإنسان اللانهايــة، إنما يعي لا نهاية طبيعته نفســها الــتي هي موضــوع تفكــيره، والفهم والعقل والتعقل والفكر والتفكر والتفكير والانتباه والـذاكرة والتـذكر والمعرفة والعلم (فالـــذاكرة الـــتي لا تعمل تضـــمحل) ومن لا يكتب لا يستطيع أن يكمل التفكر، ولـذلك قيل (أن من قـرأ درى ومن درى وصـــل) وأن الإنســـان ما بين لحظـــتين، حياته وموتـــه، والأسـاس أنَّ الحـقَّ ملـكٌ للجميع وأنَّ للجميع الحق بـالتَفَكُّر والحديث والعمل، وليس لأحدٍ منعُ أحـدٍ من حقوقه وواجباتـه، وليس هنالك اية حجـــةٍ يمكن أن تـــبرر منـــعَ ذلـــك، ولكن الاســـتقبال والأخـــذُ والاســـتماع والتفاعل بانتقـــاء الأفضل والأحسن والأكثر فائدة.

بينما (الـــروح) امرها من عند الله تعـــالى، فالحيـــاة رهنٌ بتدفقها، وعندما يتوقف تدفقها تنطفئ الحياة ما ليس منه بـد، لنقول على مشارفها (سبق السـيف العـذل) ولـذلك كـان من الضـــروري بمكـــان محاولة دراســـتها وفهمهـــا؛ (الســـاعة البيولوجية) أو الإيقاع الداخلي لحياة الإنسان، لأنها بالواقع في تناغم غير متنـاهي مع حركة الكـون، إن من الأفضل للإنسـان في حياته أن ينسجم وأن يسير مع حركة هـذا الكـون وقوانينه وأن يستجيب لقواه الخفية والظاهرة، جسديا وروحيا ونفسيا، إن من الأفضل أن لا يحـاول الإنسـان الخـروج أو التمـرد على سنن هذا الكون، لأنه بالنتيجة (بلحمه وعظمه) ما هو إلا كـائن من تلك الكائنـــات الـــتي لاتعد ولا تحصى والـــتي خلقها الله سبحانه وتعالى في هذا الكون الواسع.[2]

---

1 (?) إن محـاولات الإنسـان للخـروج والتمـرد (بـالظلم والعـدوان والخطأ العمـد) والـتي قـام بها تاريخيا (أفـراداً وجماعـات) قد جـرت عليه أيضـاً أفراداً وجماعات، النكبات والكوارث وأنـواع الخسـران والحرمـان، لـذلك كـانت الوقاية في الحيـاة الإنسـانية خـير من العلاج وبالبنـاء يتم تشـكل وتشكيل (المنظومة المنطقية) التي سـتميز الإنسـان عن بـاقي الكائنـات الحية، وذلك بسعيه لأحقاق الحق والعـدل أسـاس الحكم، والتـاريخ شـهيد الأزمنة فالله نـــور الســـماوات والأرض، أي أن الله ســـبحانه وتعـــالى هو المنور للسماوات والأرض وهو الذي يجعل الإنسـان يسـتبين علامـات الله وتعليماته في هذا الكون، وهو الحق وهو محق الحق

2 (?) وفي مطلع القرن العشرين جرى نقـاشٌ واسـعٌ في (الجـامع الأزهـر) كـاد أن يـؤدي إلى تكفـير (الشـيخ عبد الوهـاب النجـار) صـاحب الكتـاب المعـروف (قصص الأنبيـاء) والـذي أصر في حينه على أنَّ (روح الإنسـان عند الموت) لا تخرج من جسم الإنسان ولا تصعد إلى فوق كما كان يسود الاعتقـاد! وقـال:(أنَّ الـروح بالنسـبة للإنسـان عبـارة عن تيـار تسـتمده

والـروح طاقـةٌ أمرها من عند الله تعـالى وهي مبثوثة في جميع الأحياء تحركها بأمر من الله تعالى، قال تعـالى: وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَـذِّبُوهَا عَـذَابًا شَـدِيدًا كَـانَ ذَلِـكَ فِي الْكِتَـابِ مَسْـطُورًا [الإسـراء: 58]، والأمر الثـالث في الإنسـان وهو (النفس) الـتي يشـكلها الله تعـالى في الإنسـان فقط (وهي غـير موجـودة لـدى أي من الكائنات الأخرى) وهي مناط إنسانيته ومستودع أعمله ودفـتر سجلاته؛ وهي التي ستعود يوم القيامة لتحاسب يوم الحسـاب يوم لا ينفع مال ولابنون قال تعالى: وَلَقَـدْ أُوحِيَ إِلَيْـكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِـكَ لَئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُـكَ وَلَتَكُـونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [الزمر: 65].

إن مفهـوم النفس أو الـذات عند الإنسـان (في القـرآن الكريم) هي غير مفهوم الروح وغير مفهوم الجسـد؛ فـالنفس هي مجموع أعمـال الإنسـان وجميع نشـاطاته في كامل حياته مسجلةً في ذاكرةٍ مسـتمرة لا تنقطع ولا تمحى (في وحـدة)، وهي مـؤثِّرَةً وتتـأثرُ في كل شـيء، وهي فاعلة ومنفعلة في ذات الوقت؛

وهي بالتالي (النفس أو الـذات) غـير موجـودة لـدى بـاقي الكائنات؛ فما جُمِعَ بالباطل أو بالقرقعة سهلٌ زواله (الحضارة الأمريكية تضع الناس في استديو كبـير عناصـره من الكرتـون والخشب المضـــغوط وتتشـــكل فيه الأوهـــام والخيـــالات والتصورات غير النافعة وعلامتها أنها غير باقية على المدى ما يلبث أن يـزول إبـان العـرض مباشـرة) والنصح بعد الواقعة عـديم النفـع، والحضـارة والحضـور البشـري إنما يبـدأ بـالفهم ويتبدى من استيعاب التجربة، وهذه صفة العقلاء والمتفكـرين والراسخين في العلم أصحاب اليقين، أصـحاب البيـان، الـذين

الكائنات الحيّة من عند الله تعالى، وهو (هذا التيار) إما أن يكون موصـولاً أو مقطوعاً، فإذا كان موصـولاً... فـإن الحيـاة تـدب بالكـائن الحي؛ أما إذا انقطع فإنَّ الكائن الذي كان حيا يصبح جثةً هامدةً تبدأ بالتحلل قال تعالى: وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِـهِ وَكَـانَتْ مِنَ الْقَـانِتِينَ [التحـريم:12] قـال تعـالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [الإسـراء:85] أي أن التحكم بـالروح كـان دائمـاً من عند الله تعـالى، وبالمناسبة فقد أثبت العلم خطأ المقولة التي كانت تقول (بـأن الأمـراض مثل الجائحات والأوبئة التي كان يُعتقد أنها تأتي من خارج الإنسان لتـدخل فيه... وأثبت العلم بما لا يدع مجالاً للشك بأنها إنما تكون موجـودة (داخل الإنســان) وذلك بما لديه (الإنســان) من اســتعداد وتهيؤ للإصــابة بتلك الأمراض!.

حيث أن الأمراض منتشرة أساساً وعلى الدوام في الهواء المحيط والبيئة والجميع معرَّضـــون للإصـــابة بها ولكنها لا تصـــيب إلا الـــذين يملكـــون الاستعداد!

أوتوا الحكمة، فلقد خلق الله تعالى الإنسان وعلمه البيان، لم يعلم الله تعالى البيان لغير الإنسان من الكائنات (لذلك كان الإنسان كيانا بذاته ومسؤولاً)[1]

لكن التفكير في جميع الحالات يَحْدُثُ ويتفاعل فقط لدى النفس الإنسانية التي لديها وظائف أساساً، وقادرةً على التنظيم والترتيب للأهمية والأولوية، وعزماً وإرادةً وتذوُّقاً معنوياً لجميع المعطيات من حولها، والاستنباط منها، وتوليد الجديد والإضافة إليها، فإنَّ لدى الإنسان مجموعة من الحواس! (إضافةً إلى الحدس الداخلي والانتباه والوعي المستمر واستمرارية الشعور، أو الشعور المستمر وخاصيِّة التذكّر والذاكرة وغيرها من الخواص) وقد حُرِمَت منها باقي الكائنات بينما أختصَّ بها الإنسان! (وإن ما لدى الحيوانات فقط هو جهاز عصبي يقوده دماغ (مجرد دماغ وليس عقل) وللحيوان في الغالب حاسة واحدة يعتمد عليها كلياً وانتباه محدود ومؤقّت جداً وله وظائف محدودة وذلك لقيادة جسمه وجلب المصلحة والمنفعة له وتحقيق أمانه ليس إلا.[2]

---

1 (?) في عام 1972 كان الشاعر العراقي (مظفر النواب) متواجداً في دمشق مع لفيف من المعارضة العراقيّة كلاجئ سياسي! كان يجلس في (كافتيريا السفراء) وهناك كان يكتب معظم قصائده التي ألهبت في حينه حماسة الثوار العرب ومثقفيهم؛ كان شخصية شاعرية بحق، لقد كان مبدعاً ورائداً في اسلوبه! الذي قلده فيه وأخذوه من بعده مجموعة من الشعراء وصار مدرسةً؛ إنه لما كان يلقي قصائده الثورية المثيرة على المدرجات الجامعيّة وفي المنتديات والمراكز الثقافيّة في تلك المرحلة كان يلقيها وهو يوقعها إيقاعاً بقدميه على المنصَّة في حركة مسرحية، وهو مخمورٌ تماماً! كنت كثيراً ما التقيه، (ولكن طبعاً عندما يكون في حالة الصحو واليقظة) وكثيراً ما ناقشته وتعلمتُ منه عن السياسة العربية وعن فن الكتابة الشعرية والفكرية كيف تكون والثقافة كيف تتحصّل! والفكر وماهيّة الفكر والآيديولوجيا الثورية ؛ وذلك عندما كنتُ أطلِعُهُ في تلك الفترة على بعض كتاباتي المبكرة، والواقع قد أفادني كثيراً وتعلمت منه كان أستاذاً لي في تلك المرحلة! وقدم لي نصائح رائعة في مجال التفكير! وأنا ممتنٌ إليه أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يجزيه خيراً.

ومرة نصحني فقال لي أنَّ الإنسان الكاتب أو الشاعر عندما يريد أن يكتب [في لحظة الكتابة) عليه أن ينسى كتابات الآخرين جميعاً! وأساليب الآخرين جميعاً! عليه أن يُوَلِّد الأفكار والصيغ الجديدة من باطن عقله! يجب عليه أن يستنبط وأن يحاول كتابة الشيء الجديد! يجب أن يكون مبدعاً في توليد الصيغ الجديدة، يجب أن تكون الجملة التي سيكتبها... لم يكتبها أحدٌ قبله أياً كان! لا طه حسين ولا العقاد ولا المازني ولا المنفلوطي! ومهما كانت المصادر متوفرة ومتاحة.

إلا أن الكاتب ـــ وهو يكتب ـــ عليه أن يبحث في مخيلته ووجدانه عن الفكرة الجديدة! فكرته هو لا فكرة الآخرين! أيّاً كان هذا الآخر! عليه أولاً أن يكتب فكرته هو... ثمَّ بعد ذلك يحاول التوثيق إذا ارتأى التوثيق أو التأييد من نصوص أخرى.

2 (?) والحياة الإنسانيّة إنما هي في الذاكرة المعنويّة؛ فليس هنالك زمانٌ ولا وقتٌ ولا حينٌ للحيوان أو للنبات أو للجمادات لأنها ليست لها ذاكرة

فكل الفلاسفة مع فلسفاتهم وكل المفكـرين مع أفكـارهم وكل الـذين عرفنـاهم مع مـواقفهم وسـلوكياتهم سيصـبحون أدوات وعوامل أولية للفكرة الجديدة التي سـتولد في عقلنـا، هذا ما يجب ان يكون.

قال أحد الفلاسفة: (أنا لست فيلسوفاً فحسب ولكنني أقف على كتاف الفلاسفة) وهو يريد أن يقـول أنـه اطلـع على تـاريخ الفلسفة والعلوم وقد هضمه بحثاً وتنقيباً، وهو الآن لديه خلاصـة تلك التجـارب الفكريـة وأنـه يشـرف على موضـوعه من الأعلى وبالتالي سيكون أقدر، من هذا المنظـور، على العطـاء والإبـداع الفكري، فإذا فَقَدَ الإنسانُ القدرة على التفكير الإرادي والتفكير اللاإرادي أو الرؤى، ومن ثمَّ الحكم المنطقي على الأشياء وذلك لأي سبب كان! فإنَّ الحيوان - في هذه الحالة - سيُصبح أفضــل منه بكثير!

وفقط الإنســـان العاقل والمفكر بما لديه من امكانيـــات وقـدرات، يسـتطيع أن يجعل الانتبـاه والـوعي لديه مسـتمرَّاً وفي حالة ديمومة، وأن يتوسّـع فيه زمانيـاً ومكانيـاً، وهو ينمو لديـه، وذلك إذا أمعن التفكـير؛ وركّـزَ وسـلط حُـزَمَ الاهتمـام باتجاهٍ معيّن، في حين أن باقي الكائنات لا تسـتطيع فعل ذلك وليس بإمكانها، والشيء المذهل أن العرب في هذه الفـترة لا يُفكـــرون وإنّهم وعلى جميع المســتويات في حالـــة المقارنة وفقـط؛ وقد أضـاعوا أعمـارهم بين النصـوص الأدبية والعلمية والفكرية والاقتصـــادية والاجتماعية التراثية والمترجمـــة، وقد أصبح اختصاصـهم هو (البحث عن الأخطـاء) الأدبية والقانونية والفقهية والنحوية وغيرهـا، أو للتفـتيش عن الخروقـات الـتي يتوقعون حصولها، وتتبع الخـروج عن القواعد والقـوانين الـتي سـبق وأن حفظوها ولقّنُوها أثنـاء دراسـتهم الجامعيـة؛ وهكـذا يمضـون حيـاتهم وهم يـدققون ويبحثـون عن الأخطـاء الـتي

معنوية وليس المطلــوب منها الفهم أو الإدراك أو الــوعي؛ أي ليس فيها أنفس تحييها، بل أرواح أي طاقات فحسب لديها نسبةٌ من ذكاء يسـاعدها على إتمــام دورها المحــدود والمنــاط بهــا؛ وهي جميعها منفعلة وليست فاعلة؛ فهي وإن كانت تتعرف غريزيا على المصالح وتسير بالدوافع ولكن ليس لها إرادة وليس لها خيــــار، إذ ليس لــــديها نفس بين جوانحها ولا إحساس كامل، فالعالم لا يصل إليها وهي لا تعيه، ولم ينزل عليها الكتـاب والفرقان والحكمة، أي لم يتح لها في حياتها الفهم والإدراك والـوعي) إننا إذا أهملنا ما وقع قبلنا... بقينا كالأطفال، وأحيانا كالـ (مهابيـل)؛ والإنسـان وحده يمتلك النفس والإحساس والوجدان والمكـون الـداخلي أو الضـمير، أما باقي الكائنات فلا، إنّ في ملكـات الإنسـان شـيئاً لا محـدوداً ولانهائيـاً وهذا بعينه ما ينقله الإنسان من نفسه إلى الـدين مخـدوعاً: فكل موضـوع جُعِلَ موضوعاً خارجاً عن الإنسـان غريبـاً عنه إنما هو ضـياع شـيءٍ ينتمي في الواقع إلى الإنسـان إذ لا شـيء في حقيقة الأمر غـريب عن الإنسـان أو عالٍ عن الإنسان (الله تعالى وحده هو العالي).

يتوقعون وجودها؛ بينما كان المهم والمفـروض والجـدير بهم - لو كـانوا يفقهـون - أن يكـون همهم الأساسي هو الاكتشـاف والبحث عن الأفكـــار والحلـــول الابداعيّة الخلاقة الجديـــدة والمفيدة الجيدة والإيجابية.

إنَّ الجبن والخوف والتقاعس يضِّع الأفكار ويهدرها، لــذلك يجب أن نبحث في العمل عن الأفكـــار وليس عن الأخطـــاء، يجب أن يكـون الهم هو توليد الأفكـار وايجـاد طـرق لتوليد الأفكار الجديدة، وليس الغـرق في القواعد والقـوانين لحصـار الآخرين ولتحديد أخطائهم وفقط.

حدثني بعض الأخـوة أن الجزائر وفيها العديد من الولايـات وأكـثر من أربعين جامعـة، وكلها غـير مجدية ولا هي منتجـة، وهي لا تخـــرج في جميع المجـالات إلا أشـخاص يحفظـــون النصـــوص والقواعد ويتمســكون بهــا؛ ولكنها لم تخـــرج منذ الإستقلال وعلى المدى ولا عالم واحد أو مفكر أو مبدع يمكن أن يُفيد في أي مجـال، أو يُعتَمَد عليـه، وهكـذا فـإنَّ الجزائر والجزائريون ستبقى وسـيبقون يحتـاجون إلى من يفكر عنهم، وهذا للأسف الشديد هو حال جميع الأقطار العربية، وكذا فـإن ما قُهِرْنَا على احتماله فإننا كثـــيراً ما يحلو لنا ذكـــره، قـــال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَـابَ مَنْ دَسَّـاهَا ﴾ [الشـمس: 10] فالإنسـان أساسا هو قطعة من الزمــان، وهو وقت معلــوم، بل هو حين من الــدهر ليس إلا؛ (ينظر الكنــدي إلى الزمــان كأحد لواحق الجسم الطـبيعي الـتي تشـتمل إلى جـانب الزمـان عنصـري المكان والحركة، حيث ينطلق من نظريته الرياضـية المنطقية الطبيعية وهي أن الجـرم والزمـان والمكـان والحركة معـا)[1] لذلك فـإن القتل الحقيقي ليس في إزهـاق الـروح من الجسد فحسب ولكن المــوت الحقيقي إنما في هــدر وقت الإنســان وضياعه.

ولذلك كان الـوقت والزمـان أساسا لمن لهم وعي، ولمن ألقى السـمع وهو شـهيد أي لمن كـان له إحسـاس ووجـدان، وبالتـالي ضـمير وقـدرة على الاختيـار أما ما يصـيبها (بـاقي الكائنـات من جمـاد ونبـات وحيـوان) من الحت والشـيخوخة والهرم وكبر السن والبلى والتقادم فلا يعني بالنسبة لها مضيا في الزمن أو مرور للوقت عليها أو مرورها في أطـوار[2] وإنما

---

1 (?) د. محمد على الجنـدي إشـكالية الزمـان في فلسـفة الكنـدي) مكتبة الزهراء القاهرة 1991.

2 (?) الشـيء المـذهل هو علاقة المفـاهيم والألفـاظ العربية بعضـها ببعض، فمثلاً لفظ (الطور) في اللسان العربي المبين تعـني (الجبـل) وبالتـالي لا يمكنك أن تقول (جبل الطور) لأنَّ هذا سيعني: جبل الجبل ولكن ما علاقة (الطـور: الجبـل) بلفظ (الأطـوار) والـتي هي: جمـعٌ للمراحل والفـترات

قوانين ونواميس الكـون هي الـتي تسـري عليها سـلبيا وليس إيجابيا لعـدم وعيها بل هي ليست حـرة وهي خاضـعة بالكلية لعـوادي القـوانين وهي تمر في الـزمن وفي الـوقت، فالحيـاة التي أعطتها لها الطبيعة قصيرة مثلهم مثل الكثير من الناس.

هذا وإنَّ القراءة الواعية بكل المعايير للكُتُب سواءً أكـانت استكشـافية أم تصـفحية أم نقدية أم كـانت للدراسة أم إطلاعية أم تحليلية فإنها اكتنازٌ للمعرفة (يعتبر الكتاب الورقي أمٌ للأدوات الثقافيّة قاطبـةً) وبالتـالي المجلات والصـحف وغيرها من المطبوعـات مع تنـوعٍ وتعـددٍ في مواضـيعها ومضـامينها، فإنها تعتـبر من أهم الأدوات الموصـلة إلى أعلى مـراتب ومراحل التفكـير الجـاد ومسـتوياته الرفيعة وذلك إذا تحققت الرغبة الحقيقية في التفكير عند الشـخص، وقد أجمع على ذلك كبار المفكرين في العالم، ومنذ أقدم العصـور وإلى الوقت المعاصر فإنّ القـراءة الواعية لا تـزال وسـتبقى تعتـبر أمـاً للتفكـير ومحرضـاً رئيسـياً عليـه، اضافةً إلى اسـتمرارية الحوارات والنقاشات الواعيّة، والاستماع إلى الـبرامج الإذاعيّة الهامة وفي مختلف اللغـات، ومشـاهدة التلفـاز والقنـوات الفضـائية المتنوعة والمتعـددة، والانفتـاح المنظم والـواعي والهادف على اجهزة الإتصال المتوفرة في هذه الأيـام (النت) كلُّ هذه الأشياء يجب أن تساعد بالتأكيد على التفكير واعمـال العقل.[1]

والقطع الزمانيّـة؛ لاشك أنَّ هـذه القضـية تحتـاج إلى التفكـير، فـالطَوْرُ وجمعه أطـوار: قطعـةٌ من الزمـان أو هي حقبة زمنيّة يمر فيها الإنسـان (فقط الإنسـان) يحـدثُ فيها صـعودٌ وارتفـاع وارتقـاء أو العكس، أو هي مرحلة جديدة هامة أو تطـور خـارق غـير مسـبوق في الفكر البشـري فيه صعود ثمّ هبوط قفـزة نوعيّة في الفكر البشـري، والحيـاة الإنسـانية (فما هي العلاقة بين لفظ طور ودور، وأطوار وأدوار) إنَّ الحياة الإنسـانية على الأرض تمر بـأطوار عديـدةٍ فيها صـعود ثم هبـوطٍ وتتـدرج فيها الأفهـام والمنازل لدى البشر صعوداً نحو الكمـال أو هبوطـاً نحو الحضـيض، وهـذا المرور أو هـذا المسـير الإجبـاري ليس لـهُ دافع فهو من ـ إلى؛ في حـال سَيرٍ مستمر لايتوقف إلى يوم القيامة هـذا المـرور في الأطـوار المختلفة صعوداً وهبوطاً هل يشبه الصعود على الجبال ثم الهبوط الإجباري؟

وهل كـان (جبل عرفـات) المكـان المقـدّس في أم القـرى، هو (الطـور) الـذي واعد اللـهُ سـيدنا موسى وكلمه عليه مثل ما فعل الأنبيـاء جميعـاً حيث حجوا إليه؟ وكان ذلك هو سبب الحج إليه والصعود عليه امتثـالا لأمر الله تعالى لجميع الناس؟

1 (?) وبالتالي هل صحيحٌ القـول الـذي كـان يقـول: أنك إذا أردت أن تصـبح شـاعراً فما عليك إلا حفظ عشـرة آلاف بيت من الشـعر ثمَّ تنسـاها! لقد أثبتت الوقائع خطأ هذا القول، لأنَّ هكذا قـول لا يقـال على عواهنه فهو لا يُقال للبليد ولا لمن دماغه عـاطلاً عن العمـل، وأنت لن تكـون شـاعراً لو حَفِظتَ كل دواوين الشـعر العـربي، إلا إذا كنت تريد ذلك وكـانت لـديك الموهبةُ وامتلكت الأدوات.

وكذلك السفر والاطلاع عن كثب على الحضارات والأمم والشعوب الأخرى ورؤية واقعها واستكشاف عاداتها وتقاليدها وقراءة تجاربها وآدابها وعمل المقارنة المستمرّة بينها وبين الواقع المُعاش واستنتاج الصح وفرز الخطأ، كل هذا سيساعد بالتأكيد على بناء قواعد التفكير الصحيحة عند الإنسان السوي.

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [غافر: 64] ولفظ (جعل لكم الأرض قرارا) أي استقرارا مكانيا تلقائيا وتنفيذياً للعمل مباشرة بالدوافع والغرائز والمصالح) وأيضا جعل لكم السماء بناء أي زمانيا مستقبليا لتروا ولتقوموا بالتنبؤ والتوقع ودراسة كافة الاحتمالات؛ تخطيطا واعدادا وترتيبا وتوضيبا والاستنتاج بالفكر والعقل واليقين والإيمان فالفرق كبير بين أن يأتي إليك المستقبل وبين أن تذهب أنت إلى المستقبل![1]

---

[1] (?) إن هذه اللحظة الأخيرة هي لحظة المستقبل الاساسية وهي معنى السياق (الديالكتيكي) لأنها هي التي تجعله قابلاً للفهم وهي التي تربط بين لحظات هذا السياق وتعطيها نظمها، وأخيراً أن بعدي الماضي والمستقبل متكاملان لأنهما لحظتا سياق زمني واحد امتلكنا بعضه واتخذناه تكأة ومنطلقاً في سبيل مالم نمتلكه بعد، ولهذا فكل من البعدين متوقف على الآخر فلو لم نجتز المراتب الوجودية ونمتلكها على شكل ماضي لما استطعنا الوصول إلى المستقبل لأن اللحظة الأخيرة لحظة المستقبل، ليست قائمة بذاتها، صحيح أنها الغاية وأنها المعنى ولكنها لا تُمتلك إلا بالارتقاء الوجودي الزماني عبر مراحل ضرورية، ومن جهة ثانية فإن هذه اللحظات التي أصبحت ماضياً ما كانت لتنتظم وتؤلف سياقاً لولا لحظة المستقبل الأخيرة لأنها هي التي تعطي اللحظات معناها ونظامها.

فتصور المستقبل هو الذي يجعل هناك ماضياً ذا نظم ومعنى وأخيراً أن الماضي هو الوجود بالفعل هو المرتبة الوجودية التي حققناها فعلاً كانت قوامنا وقاعدتنا أما المستقبل فهو الوجود بالقوة، الوجود الذي لم يتحقق بعد، ولذلك فهو يشدنا اليه ويحول بيننا وبين الاستكانة إلى ما تحقق فعلاً، فهو يسلب هذا الموجود بالفعل صفة الانجاز والتمام ويجعله غير مكتف بنفسه ولذلك يجعله وسطاً بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل، فلا هو بالوجود الذي لم يأت بعد، فتلك صفة المستقبل ولا هو بالوجود المكتفي بذاته فتلك هي صفة الآن الحاضر معزولاً عن سياقه كما رأينا، ولكنه الوجود الذي يتحقق أو هو الوجود في طريق التحقق دون أن يبلغ غايته بعد فهو ما زال مفتوحاً على الغاية التي ينشدها، إن المستقبل هو الذي يعطي الماضي صفته الديالكتيكية الحية فهو ليس أمراً ناجزاً مغلقاً على ذاته ولكنه حركة التحقق التي ما تزال مستمرة ولذلك كانت الماهية التي يمنحنا إياها الماضي المتصل بمستقبله ماهية دينامية إذا صح هذا التعبير ماهية متوترة لم تبلغ حدها فهي أشبه بخط اتجاه قوة عرفت نفطة بدايته وهذا الخط يشير إلى المستقبل فالمستقبل موجود إذن بالنسبة لمن امتلك زمام زمانه وأخذ بناصية سياقه الديالكتيكي ويكون هذا الامتلاك بأن نحدد ونحقق نقطة البداية عن طريق الماضي، ونقطتا البداية والنهاية متضايفتان (نسبيتان) فكل منهما تنعين بالنسبة للأخرى، ومن أجل أن

وتبقى للتجارب الشخصيّة والحوادث الغريبة التي يمكن أن يمر بها الإنسان كخوض الحروب والاشتراك في المعارك؛ تجربة المرض المزمن أو تجربة السجن أو غيرها هي العوامل المحددة الأبرز في تخليق الإنسان المفكر وتمييزه. والفرق واضح بين الشخص صاحب التجارب والإطلاعات الواسعة الخيِّر والمفيد الوقور والذي ينوءُ بحمله، وبين الشخص الخاوي والهزيل الفارغ والمستهلك[1] ولكن المهم أساساً أن يكون هنالك من يرغب في إعمال عقله وفكره؛ إذ أنَّ الأدوات الإعلاميّة الكثيرة في هذه الأيام، إضافةً إلى فوائدها التي لا يمكن انكارها في نشر وتوفير المعلومات والحريّات؛ إلا أنها أيضاً بإمكانها تدمير الوعي عند الكثير من الشعوب الضعيفة والمغلوبة على أمرها، وهذا هو هدفها المجاني والواضح غالباً وعلى الأرجح، إن هذه الأجهزة الإعلامية الجبارة مهما ادعت؛ فإنها لا يمكن أن تصنع مُفكراً واحداً ولا يمكن لها وحدها أن تنهض بالفكر البشري، ولكن على الفكر البشري أن يكون مهيأً من قبلُ للتفكير.

هذا وإنّ للطعام نوعيته وطريقة تناوله، وشكل اللباس ومدى تلاؤمه أو مواءمته مع أصول الثقافة والحضارة، شيءٌ له بالغ الأهمية والتأثير في نمط التفكير والإنتاج الفكري عموماً.

والملفت حقاً هو هذا التغيير في نمط المأكل والملبس الواسع النطاق، الذي أخذ يعمُّ مجتمعاتنا العربية الإسلامية، بحيث لم يبقي ولم يذر؛ وهكذا تحول العرب المسلمون نهاية القرن العشرون أفراداً ومجتمعات إلى مجرد توابع، حياتهم رهينة، ليس لديهم زراعة محلية، (بحيث أضاعوا الأصول والامهات التي كانت لديهم)، وليس لديهم صناعة محلية، (بحيث تنتهب ثرواتهم الباطنية والسطحية وتذهب عنهم دون

نمتلك احداها لابد من امتلاك الأخرى أما الآن الحاضر فهو آن البقاء أنه الانعزال في اللحظة والإنقطاع عن السياق وانعدام التوجه، ولذلك كان هذا الآن بمثابة الجمود أو الصمت الحيوي الذي تمارسه بعض الكائنات والأعضاء الحية عندما يتهدد بقاؤها، فتهبط بوظائفها الفيزيولوجية إلى الحد الأدنى الذي يضمن بقاءها وحسب، إن الغائص في اللحظة الحاضرة لا يعيش إلا بسطح شعوره لأنه معزول عن الذاكرة والرؤيا، فالحاضر اذن ليس بعداً ولكنه انتفاء الأبعاد كلها والتهافت على مستوى البقاء.) أحمد حيدر، من كتابه (نحو حضارة جديدة) مرجع سابق.

[1](?) وطبعاً الأشخاص الذين كانوا قد أمضوا أعمارهم في المجالات السطحية التافهة غير النافعة والمضيّعة للأوقات مثل الاهتمام باللعب والغناء السخيف وبالرياضة الكروية وكمال الأجسام، وكانت همومه كلها طعامية وجنسوية ولديه عادات وأفكار مبتذلة ورخيصة واهتمامات سطحيّة لا معنى لها، فإنَّ من النادر جداً أن تجد مثل هذا الشخص ملهماً للأفكار أو لديه قضية إيجابية أو شعور.

أن يســتفيدوا منها مطلقــاً) بل يعتمــدون في حيــاتهم كل الاعتمـاد في كل شـيء على أعـدائهم (الغـرب الاسـتعماري واليهود) واتبعوا أو أصبحوا تابعين يُجرون كما تُجر البهيمة في مساراتٍ محددة ثمَّ تُقاد إلى حتفها.

إنَّ من يأكل كما يأكل عــدوّه ويلبس كما يلبس عــدوّه، ويـؤقت ويـؤرخ كما يـؤقت ويـؤرخ عـدوّه ، ويحمل فلسـفة عدوه، فهو سيفكّر كما يفكر عـدوّه، ويـرى كما يـرى عـدوّه، وبالتالي من الطبيعي أن يصبح عدواً لنفسه يحتقر ذاته.

علمــاً أن الله ســبحانه وتعــالى قد حبا المنطقة العربية بــأغنى الـثروات الباطنيّة والسـطحيّة في العـالم، والأراضي الزراعيّة والأنهــار العظيمة والحيوانــات الزراعيــة، الأمهــات والأصـول، البقـرة العربية والأغنـام العربية والمـاعز العربية والإبل العربية والحصان العربي وحتى الطيـور الداجنة العربية وهي الأساسـية (الأصـول والأمهـات الله سـبحانه وتعـالى قد جعلها في المنطقة العربية) قـال تعـالى: [illegible] الأنعام، هــذه الأمهــات كــانت ولا تــزال في الأرض العربيــة، فلمــاذا يسحبوها من بلادنا ويعملون على تبديلها لنا؟

وهم (العرب المسلمون) فعلاً أغنى دول العـالم من جميع النــواحي، إلا أنَّ وضــعهم الآن مأســاوي ومتخلف من جميع النواحي وتـركبهم الأمم؛ وتتحكم بهم الـذئاب والكلاب الأوربية والأمريكية واليهوديّة العالميـة، وتلعب بمصـيرهم وتخطط لهم مستقبلهم، وتستحل دماءهم، وتمنع عنهم حـتى ميـاههم؛ فهل كان هذا الوضع مقصوداً ومخطط له[1] !

[1] ذكرت د. ناديا خوست، في كتابها القيِّم، عن دمشق القديمة، (ذاكرة من حجـر) أن المهنـدس الفرنسـي (أكو شـار) الـذي من المحتمـل أن يكـون يهودياً؛ أو صليبياً حاقداً، والذي كان قد وضع، في عام 1926، أثنـاء الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان، (1920-ـ 1946) وضـع مخططـاً شـاملاً، لتـدمير مدينة دمشق العربيـة القديمـة، والـتي تعتـبر من أقـدم مـدن العـالم، وهي أقدم عاصمة لا تزال آهلة في العالم، حيث شُقت الشوارع العريضـة داخـل المدينة، وزُرعت فيها الأبنية الإسمنتية العالية، في كل ناحيِة، وأنشـأت فيهـا المعامـل والـورش، وأوقـف وعُطـل البنـاء القـديم؛ وبَطُـلَ الـترميم، نتيجـة الصعوبات والعوائق، المفتعلة لتعطيل ازدهار دمشق القديمة، الـتي أخـذت

بينما (اليابـان) أو حـتى (ألمانيـا) مثلاً، فإنه ليس لـديهم المزايا الاسـتراتيجية العربية ولا الـثروات الباطنيّة والسـطحيّة كما لـدى المنطقة العربية ولا لـديهم موقع عـالمي هـام (إنهم على أطراف العالم) ومع ذلك فـإنهم الآن من كبريـات الـدول المصنعة والمتقدمة وذات السيادة.

تذهب شيئاً فشيئاً؛ في مقابل تسهيل البناء الإسمنتي وسرعة الترخيص لـه، (لا يـزال العمـل جـاري في تنظيم المدينـة القديمـة، وللتوسـع فيهـا، وفـق مخطط إكوشار؛ وكذلك فإنّ الأمر، تكرر حصوله في بلديات المدن العربيـة كافةً ! كان إكوشار، هو نفسه المهنـدس، الـذي هنـدس، وضـع المخطـط، لتدمير مدينة تـونس القديمـة ! وكـل المـدن العربيـة الإسـلامية، قـد نهجت نفس المنهج، وكان لها مهندسون، ومستشارون أوربيون، في نهايـة القـرن التاسـع عشـر وبدايـة القـرن العشـرين، مهنـدس إنكلـيزي كـان قـد وضـع مخططات بناء القاهرة الجديدة؛ فلماذا عملـوا علىٰ تـدمير المـدن العربيـة بشكل منظم وممنهج؟ بينما عملـوا في نفس الـوقت، علىٰ صيانة وتـرميم المـدن القديمـة في أوربـا؟ فعلىٰ الـرغم من نشـوب الحـربين العـالميتين الأولىٰ والثانيـة، هـذه الحـروب الـتي من المفـروض، أنهـا كـانت طاحنـة، ومدمرة للمدن الأوربية!! لكننا لم نسمع عن تدمير أي من المـدن القديمـة في أوربـا بـل علىٰ العكس تمامـاً سـمعنا كيـف حافـظ كـل فريـق من المتحاربين أثناء الحرب، وبإسلوبٍ حضاري، علىٰ مدن الفريق الآخر؛ سـوىٰ ما ذكر في بعض المصـادر من أنّ جامعـة ميـونخ كـانت قـد أنشـأت معهـداً خاصـاً بعلـوم القـرآن، وبحوثـه، ضـمّ كثـيراً من المخطوطـات العربيـة والمؤلفات المتصلة بالقرآن، ولكنها كانت قد استهدفت، وقد دمرت بقنابـل الحـرب العالميـة الثانيـة! عن السـيرة النبويـة وأوهـام المستشـرقين، ص 34مصدر سابق.

ويُذكر أن موسوليني، زعيم الحزب الفاشي، عندما فاز في الانتخابات الإيطالية، عام 1936 وهو القادم إلىٰ روما، من شمال إيطاليـا، كـان أول شيء فعله في روما، هو الشروع ببناء العاصمة الجديدة، أو روما الحديثة، بعيداً عن العاصمة القديمة، لقد أمر أول ما أمر، ببناء سـور أحـاط برومـا القديمة، وسنّ القوانين التي تحـرِّم إلحـاق الأذىٰ برومـا القديمـة، وكـانت هذه القـوانين، تحـذر من أي تغيـير قـد يصـيب بيوتهـا، أو أزقتهـا الضـيقة، ومنعوا دخول السيارات إليهـا، منعـاً باتّاً، ومنعـوا أن يقيمـوا فيهـا الـورش الصناعية، أو المعامـل، وأقيمت الدراسـات للعمـل علىٰ إعـادة تصـميمها، وترميمهـا من نفس المـواد القديمـة، علىٰ نفس الطـراز، وتحـولت إلىٰ متحف كبير، إن روما القديمة، شيء مقدس لا يجوز هتكه!!.

وكذلك فعلوا بكافـة المـدن والقـرىٰ الأوربيـة القديمـة، بينمـا لم تبـقَ مدينة عربية إسـلامية واحـدة علىٰ حالهـا، ولا بلـدة، ولا قريـة، إلّا ولحقهـا التغيـير، والتبـديل، والتـدمير، في كـل منـاحي الحيـاة، .دمشـق، والمـدن السورية، وبيروت، والمدن اللبنانيـة، وبغـداد، والمـدن العراقيـة، وتـونس، وكافة المدن المغاربية؛ والقاهرة، والإسكندرية، والمدن المصـرية، وحـتىٰ مكـة المكرمـة، والمدينـة المنـورّة, فإنهـا لم تنجُ من حمىٰ التحـديث، والتطوير، واستبدل كـل شـيء فيهـا يـذكر بالمجـد العـربي والإسـلام،، أو بالأصـالة العربيـة، أو بالمزايـا العظيمـة، للحيـاة العربيـة، وطـرأ التحـول الخطير؛ ومسخت الحياة العربية، فهـل كـان ذلـك بفعـل فاعـل ؟ ضـيعوا الأشياء العظيمـة، واعتنـوا بالأشـياء التافهـة، بحيث انتقلت الآثـار العربيـة

الشك واليقين من مراحل الفكر:

واليقين هو إزاحة الشك وتيقنه أي علمه واستيقنه، ومثلثه القاف (القـوة)، ويَقِنَ بالشـيء أصـبح مولـعٌ بـه، ولأنَّ المفكر إنسان فإنَّ احتمـال حـدوث الخطأ واردٌ عند كل مفكر في كل حين، وليس هنالك مُفَكّر معصوم من إنِّ الخطأ مطلقـاً، ولكن يجب أن لا يســتمر الخطأ لأنَّ الخطأ يجر خطــأ؛ الأمر الــذي

العظيمة والقيّمة، إلىٰ أوربا إلىٰ المتاحف الأوربيـة، كـل مـا قـد غلا ثمنـه، خف أو ثقل وزنه، وبقيت أشياء لا قيمة لها.

وإني أتذكّرُ المساجد والحمامات والسبلان والمرافـق الأخـرىٰ، الـتي كـانت نظيفةً، ومتاحة للجميع، ومنتشرة في شوارع، وأزقة مدينة دمشق القديمة، والبلدات الأخرىٰ، وكذلك فأنا أتذكّرُ الآداب العامـة، والسـلوكيات والعـادات والتقاليد، التي كانت تحكم وتنظم علاقات النـاس، والـتي كـانت تتمـيز بهـا المدينة العربيـة العريقـة، إن الأوربـيين يعملـون علىٰ الحفـاظ، وعلىٰ بنـاء، وعلىٰ ترميم، كل شيء في بلادهم، فلماذا يجعلون من بلادهم جنـات، ومن أجيـالهم أقويـاء بينمـا يتم تـدمير الحيـاة العربيــة، هـذا التـدمير المنظم، والمبرمج، والشامل.

إن أي مهندس زراعة عربي، يعرف كيف تمَّت عملية سحبٍ منظمــةٍ، للأصول والأمهات، للنباتات وللحيوانات الزراعية والطيور المفيدة والغنيــة والغالية والرائعة التي كانت تتمتع بها وكانت متوفرة في بلادنا بلاد العرب وذلـك حـتىٰ بدايـة السـبعينيات من القـرن العشـرين، بمـا فيهـا حيوانـات وطرائد الصيد؛ لاسـيما في وادي النيـل، وبلاد الشـام، والعـراق، الحصـان العربي، والجمل العربي، الذي كان متوفراً في الباديـة الشـامية؛ والبقـرة الشامية! الغاليـة والمتمـيزة بعطائهـا بلحمهـا وحليبهـا والمـاعز الشـامي! والخروف العواس الشامي! وحتىٰ الدجاج البلدي الشامي المتميز بلحمــه وبيضه وغيره وغيره، من الحيوانات التي حبانـا بهـا اللـه ومنحهـا لبلادنـا الحيوانــات الــتي بقيت في هــذه البيئــة آلاف الســنين بحيث انســجمت وتلاءمت مع الظروف والطبيعـة العربيـة، ممـا لم يكن متـوفراً إلّا في بلاد الشام والعراق ووادي النيل وكيف تم استبدالها، بأصولٍ نباتية غريبـة غـير ملائمة وبحيوانات زراعية هجينة ومسـتوردة من فرنسـة وهولنـداً وغيرهـا من البلاد الأوربية بدون داعي أساسـي، اللهمّ إلّا داعي وهمي واسـتهلاكي أنْ يتمَّ ربط مصيرنا نحن العرب، في النتيجة، بهذه الـدول بحيث أجهضـت وأهلكت الحيـاة العربيــة من خلال هــدر وتبديــد وإتلاف وتضـييع الزراعــة العربيـة الأصـيلة، بشـقيها النبـاتي والحيـواني وأتْعِبَ وأتبِـع الفلاح العـربي والمزارع العربي وبالتالي المستهلك العربي، وعلقتهم وربطتهم وسـلبتهم نعمـة أنعمهـا عليهم المـولىٰ ، وأبـدلتها بحطـام لا طعم لـه ولا نكهـة ولا رائحة وكذلك حصل للمحاصيل الزراعية الأقمـاح والحبـوب والبـذار بحيث تم استبدالها وتبديلها بحجة تحسينها وإكثارها! ومعروف كيف تمَّ في مصر والسـودان إجبـار الفلاحين علىٰ تبـديل المحاصـيل الزراعيـة واضـطروهم وأجبروهم علىٰ زراعة القطن الطويل التيلة! وغـيره من المحاصـيل الـتي تلبي حاجة الصناعة الأوربية، وكذلك حصل في سوريا ولبنان، عندما أجــبر الناس علىٰ زراعة محاصيل محددة، مثـل القطن أو القمح أو مثـل التبـغ، وتم تبديل وتغييب الكثير الكثير من الأنواع الأصـلية، الـتي تـربَّت وتلاءمت واستغرقت، آلاف السنين، في البيئة العربية، حتىٰ انسـجمت مـع المنـاخ العربي، إلىٰ أن أتت الفرضيات، أو النظريات العلمية الحديثة؛ لتجتثها من أساسها، وتستبدلها بكل بسـاطة، وهكـذا تم التلاعب بالجينـات، وأضـيفت

يستوجب من المفكر الحقيقي وحتى يكـون فكـره متينـاً غـير منحرف فإنَّ عليه قبول النقد من أي من النـاس، والاسـتفادة من عقول الآخرين، فضلاً عن حصول النقد الذاتي والمسـتمر لديه والعمل به كمبــدأ، فــإنَّ عليه أيضــاً أن يتفهَّم أنَّ النقد وخصوصــاً النقد البنَّاء... إنما هو حــقٌ من حقــوق الآخــرين جميعاً، وأنَّ لهم أن يمارسونه في أي وقتٍ يشـاؤون وبالكيفيّة الــتي يرتــؤون لطالما أنه في حــدود النص والفكر المطــروح فيـــه، وليس له (المفكر) أن يــــرفض النقد أو أن يمتعظ منه

الأدوية والهرمونـات، وتم تزويـد الأرض بالمزيـد من الأسـمدة الكيماويـة، الأمــر الــذي أربــك وأهلــك الحيــاة العربيــة، وأقيمت من أجــل ذلــك المؤسسات، والجمعيـات، والاتحـادات، وكـان النـاس في بلادي، جـاهلون بالمخطط الرامي إلىٰ تصفية كل ما هو حي، علىٰ الأرض العربية، وكل ما يؤدي إلىٰ الحياة الطبيعية، .لقد كانت الحياة العربيـة طبيعيـة جميلـة، في مطلع القرن العشرين، وحتىٰ الستينيات منه، لم يكن العـرب بحاجـة إلىٰ مسـاعدة المهندسـين الأوربـيين، أو المستشـارين الأوربـيين، أو الأطبـاء الأوربــيين، وأصــر اليهــود الأوربيــون، علىٰ تقــديم المســاعدة للعــرب والمسـلمين، وكـانت المسـاعدة، أو كـان العـرب مجـبرين، علىٰ قبـول المساعدة! وعلىٰ تنفيذ مقترحات يهود أوربا الخبراء؛ في كـل الاتجاهـات، والمجالات وعلىٰ كل الصعد العربية، ولكن إلىٰ مـتىٰ؟ هـل نحن ملزمـون بتنفيذ المقترحات اليهودية الأوربية، حتي ينتهي آخر عربي؟

بينما أقامت دولة إسرائيل، مثل الكثير من دول العالم المتقدم، أقـاموا المزارع لتربية الحصان العربي، والعنايـة بـه، وأقـاموا المحطـات، العديـدة لإعادة إنتاج، ولتربية, والمحافظة علىٰ البقرة الشامية! والمـاعز الشـامي! والخروف العربي العواس! والدجاج البلدي! وكذلك فعلت بالنسبة للحبوب، و الأقماح والبذار، العربية الحورانية القاسية، التي تتحمـل تلقائيـاً الظـروف والآفات وكذلك عموم أصناف الفاكهة، والخضراوات البلدية العربية الأصل، وباتوا يفتشون عليها، ويجمعـون أصـولها، ولكن من أجلهم هم، لا من أجـل العرب.

ففي أوربا وأمريكا، لا يسمحون بتداول الأطعمة والأغذيـة، المهرمنـة، المؤذيــة، أو الــتي تحتــوي علىٰ نســب عاليــة من المــواد الكيميائيــة، أو الملونات، أو المنكهات، لأنه من الثـابت أن هـذه المـواد، مـواد مسـرطنة ومؤذية، وكذلك كل مادة أو أداة مشـعة؛ فهم يحـترمون حيـاة مواطـنيهم، بينما هذه الأشياء مبذولـة للعـرب، خاصـة الأطفـال العـرب ! الـذين يـأتوا يتناولون بسهولة ويوميًّا؛ أطعمة وأغذيـة، وأدويـة، مشـبوهة، لا يقـدر أحـدٌ علىٰ تقدير حجم أذاها، إلَّا الله ، يصدرون أدويةً و و و و يصدرون إلينا الحيوانات، المعدة إعداداً، غـير قابلـة للتوالـد؛ إلَّا مخبريـاً وكـذلك البـذار، والقُـرىٰ المهرمنـة، والمسـمدة كيميائيـاً، والـتي لا يمكن تكرارهـا؛ ونحن نحتاج دائماً لاستيرادها، وهكذا فنحن العرب مرتبطون بهم، شـئنا أم أبينـا، ولا بد من الرجوع إليهم، في الزراعة، وفي تربية الحيوانات الزراعية، كما في الطبابــة البشــرية، والصــحة العامــة، والأدويــة الكثــيرة، ناهيــك عن الصناعة والمواصلات والاتصالات!! وجميعُها من أوربا!! فلماذا وكيــف يتم تدمير الحياة العربية، هذا التدمير المنظم والمبرمج وكيف تمَّ ربطُ وتعليقُ العرب من رقابهم وقودهم منذ مطلـع القـرن العشـرين، ولمـاذا يعملـون علىٰ تحويل البلاد العربية، إلىٰ مكبّات للنفايات الأوربيـة، وتحويـل الأجيـال العربيــة، إلىٰ خُشــبٍ مسـندة، أشـباه ذكـورٍ وأشـباه إنـاث، وهم جميعـاً يكادون يكونون (خارج نطاق التغطية)! وفعلاً أصبح هنـاك هبـوط حـاد في مستوىٰ البناء الجسدي، والفكري، والروحي، لدىٰ الشباب العربي، وهناك

أبداً، فإذا نشر أو أذاع المفكر فكـره، يصـبح من واجبه سـماع آراء الناس وردود أفعالهم وقبولها وإيجاد أجوبة على أسـئلتهم المطروحة؛ والحقيقة أن الأبحاث الفكريّة المهمة هي الأبحاث المثـيرة أو الـتي تُثـير وتحـرك تيـارات من المواقف الفكرية والمواقف الفكرية المضـادة؛ والـتي عـادةً ما تُثـار حولها المناقشـات وتوجَّهُ لها الانتقـادات؛ وهي الـتي سـتكون أبحاثـاً منتجةً بحق، أما الأبحاث المكررة المُتَقَيَّأة الممجوجة والـتي لا تحرك ساكنا! فإنَّ من الطبيعي أن لا تتعرض للنقد أو الجـدل، لأنها أساساً لم تَعُدْ أبحاثـاً فكريّة بل مجـرد نسخ مستنسـخة، إنَّ الأبحـاث الـتي لا تجعل الفكر يَتَقَلَّب أو يثـور على واقعه وتـدفع إلى التطـور والتقـدم والإبـداع فلا هي أبحـاث ولا هي فكرية.

فالمفكر الحقيقي عند طرحه لفكره الجديد؛ من الطـبيعي أنه سيشكل ثورةً على الفكر المهـترئ القـديم، وسـيؤدي إلى فضحه وإلى نشر عيوبه وعيوب القـائمين عليه والمسـتفيدين من اسـتمرار الـترويج له والعمل به (المراوحة بالمكـان عمل غير منتج)[1].

تراجع خطير في مستوىٰ الـوعي لـدىٰ الجيـل الصـاعد، شـكلاً ومضـموناً، وفعلاً صارت بلاد العـرب عبـارة عن الخلفيـات للبلاد الأوربيـة، فمن الـذي يقف وراء هذا المخطط الكبير الذي يشـمل مَـوَاطِنَ العـرب، ومقـراتهم، وأماكن سكناهم، ومعاشهم، ومن الذي يتابع تنفيذ هذه المؤامرة الكـبرىٰ، التي كانت دائماً تستهدف العرب المسلمين.

1 (?) (الفكـر) إيحـاء من الله وليس ولا يُخذ جـاهزاً ولا تفصـيل من بنـات أفكار المؤلف والكاتب.

مرةً بداية الثمانينيـات من القـرن العشـرين في الإذاعة (برنـامج لقـاء مع الأدباء والمفكرين)... سمعت أحد الكتاب المشـهورين آن ذاك وكـان يُعـدُّ من طليعة الكتـاب والروائـيين السـوريين... وهو يـدلي برأيه في موضـوع الكتابة، وكان له رأي غـريب عجيب، لم أعد أسـتغرب بعد سـماعه الحـال الـتي نحن عليها في الـوطن العـربي من تفلتٍ وضـياع وتـدهوّرٍ وفقـدان، فقال هذا المفكر والكاتب والأديب المشهور آن ذاك... في تعريفه للكاتب والأديب: (أن الكاتب والكتابة أصبحت مجرد مصـلحةٌ مثل بـاقي المصـالح المعروفـة، مثل الخيـاط والنجـار والحـداد حيث بإمكـان الكـاتب المـاهر والمتمكن والمحترف، تأليف أو تفصيل الرواية والقصة والمسـرحيّة الـتي يريد من خلال ما يُطلب منه وبالكيفية المناسـبة وعلى المقـاس، وقـال (وكان يريد أن يتباها بنفسـه: إنَّ الأدب هو سـهلٌ على المحـترفين الـذين يمتلكـون زمـام وقواعد وامكانيـات وآليـات الكتابـة؛ وإن بإمكانه في أية لحظة كتابة أي قصة أو أي عمل أدبي يُطلب إليه كتابته وفي أي موضـوع كان (وأظنه كان يقصد سيناريو للتلفزيون).

ومرة عام 1987م زارني في مكتبي الشاعر العرقي (مظفر النـواب) أبو عـادل، وسـألني إن كـان عنـدي مراجع عن الصـوفي الشـهير (أبو يزيد البسطامي وقصصه الطريفة) فأدركت عندها أن المكتبـات العربية كـانت تفتقد لأي كتـاب عن الصـوفي المـذكور على الـرغم من شـهرته بين الصوفيّة، ولما زارني فيما بعد بعض الكتـاب وتسـاءلوا أمـامي عن الكتب العربية المطلوبة في هذه الأيام! أخذت أذكر أمامهم ما حصل مع صديقي أبو عادل (مظفر النواب).

وتـاريخ العلم الحقيقي الإبـداعي يعلمنا أن جميع البـاحثين الحقيقيين أصحاب النظريات الخلاقة، كانوا قد تعرضـوا وإبـان طـرح أفكـارهم للكثـير من النقد والـرفض ولربما تعرضـوا للسب والشـتم والاعتـداء وأكـثرهم مـاتوا فقـراء معـدمين منبوذين من مجتمعاتهم (راجع كتاب الفلاكة والمفلكون).

هذا ويُعتبر (النقد) أحد أهم أسباب التطور العقلي والتقدم الفكـري والحضـاري الـذي حصل في أوربة (وقد أصـبح النقد لـديهم اختصاصـاً، ونظـراً لأهميته فـإنهم يختصـون بالنقد ويمارسه مختصـون) الأمر الـذي أدى في ما بعد إلى التطـور العلمي والحضاري والتفوق الأوربي الهائل والثورة المسـتمرة في جميع المجـالات، لقد أدرك الأوربيـون في العصر الحـديث ومنذ وقت مبكر وبعد تجاربٍ مريرة! أدركـوا فيها أهمية النقد فتوصـلوا إلى ضـرورة وجـود النقد وقبوله وتفعيله في جميع الاتجاهات وعلى كل المستويات بكل شـفافية، في المجـالات الفكرية العلمية والأدبية والاقتصادية والسياسـية والاجتماعيّـة، كـان هـذا من أهم عوامل نهضـتهم وتقـدمهم، فمـتى يتقـدم العرب وينهضون؟

في كان من المفروض أن يكون (النقد الفكري) وأساليب (النقد الفكـري) وفنونه أحد أهم المجـالات الـتي تُـدَرَّسُ بشجاعة ودون خوف في كليات الشريعة الإسـلامية في جميع البلاد العربية والإسـلامية، لأنَّ تَقَبُّلَ (النقد الفكـري) والعمل في ظله هو مفتـاح الوصـول إلى أرقى حـالات الحق والصح والخير والجمال والابداع أي حالات الحضـارة والنصر المـؤزر، ثمَّ لمـاذا الخـوف والخشـية من (النقد الفكـري) إذا كـانت الأوضاع الفكريّة سليمة، وكانوا متأكدين من أنَّ كل شيءٍ في المنـاهج على ما يـرام ؟! وإذا لم تكن هنالك مخبـآت من الأخطاء التاريخية الجسيمة التي يحرصون دائماً على تمريرها من جيل إلى جيل لتبقى مستقرةً في العقل العربي؟

وتجب الإشـارة إلى القـائمين على التـدريس والتعليم في مختلف المسـتويات والتنويه لهم إلى الفـرق الكبـير والواسع بين (نقد الفكر الـديني) والـذي هو ايجـابي ومفيد في جميع المعايير، وبين ما يمكن أن يكـون (نقد للـدين) أو الالحـاد وهو

المدهش أنَّ أحد هؤلاء الكتاب وكان يدعي معرفته التامة بالصـوفيّة وبـأبو يزيد البسطامي وقصته الشهيرة في (دير سمعان) وكان لهذا الكاتب أكثر من (مئة وخمسـين كتابـاً) منتشـراً في الأسـواق العربيـة، وقد قـال لي بالحرف الواحـد: (ما هو الأفضل برأيك هل أكتب كتابـاً مع أم ضد أبو يزيد البسطامي)! ولكنَّ كاتباً عربياً آخر كان أسرع منه؛ بحيث ذهب إلى (عين الخضرة) قرب دمشق وغاب فيها شهراً كاملاً ثم عـاد ومعه كتابـاً جديـداً عن (أبو يزيد البسـطامي) وقدمه إلى المطبعة وطبع ووزع في المكتبـات العربية على عجل ووصل فوراً إلى القراء العرب المقهورين.

أمر مختلف وسـلبي باتفـاق الجميـع، ولأنَّ (الفكر الـديني) و (التراث الفكري الشفوي والمكتوب) وبغض النظر عن مجـال ومستوى الصح والخطأ فيه، والمصدر الذي سبق وأورده، فهو أي (الفكر) نتـاج النـاس البشـر؛ ولأنه نتـاج النـاس البشر (أي غـــير إلهي) فهو بطبيعته متغيِّر، ويخضع - بطبيعته أيضـــاً - للتسامي والتنامي والتوسع وللتبدُّل والتطـور، لـذلك وحـتى لا يتعفّن ويصـبح من الركـود كالجيفـة؛ فإنه يجب أن تكـون له أو أن يُسمح لأن تكون له (للفكر) في نفس المناهج التعليميّة تغريدات نقديّة غـير مقيّـدة، من أسـاليب النقد والنقد الـذاتي من جميع الجهات وبلا أي قيـود ولا خـوف، لتشـكل حراسـات منطقية عقلية وفكرية تلقائية حرة تُبقي على نزاهته والتزامه للحق المـــبين والصـــرْف) وتنقيه على الـــدوام من الخطأ والزائف والـــدخيل والهجين وغـــير المهم، ويقف بالمرصـــاد النقـدي شـاكي السـلاح، لا يسـمح بالتعبئة الوهميّةِ واسـتلاب الناس وأخذهم إلى المجهول والهيمنة عليهم فكريـاً وعاطفيـاً وسرقة حياتهم، وفي الـوقت نفسه تُخـرجهم (الدارسـين) من دوامة المراوحة في المكـانِ والتكـرارِ الـذي لم يكن لينتج ولا يمكن أن يُنتج ولن ينتج شـيئاً ايجابيّـاً أبـداً ومهما طـال عليه العهد.

والأصح أنه يجب البنـــاء تربويـــاً على أســـاس أن يكـــون الجميع في المجتمع عن طريق بنــــاء العقل والفكر القـــوي والشجاع قادرون ذاتياً على اكتشاف الأخطاء متى ما عرضت عليهم؛ وأن لا يتم في هذا المجال (العقلي والفكـري) انتظـار الجهات الأخرى أي كانت لتنوب عنَّا في اتخاذ القـرار والحكم، تماماً مثل الصيرفي أيام زمان الـذي كـان بإمكانه ومن لمسة واحدة وبكل بسـاطة فـرز ولفظ المعـدن الزائف عن الـذهب الحقيقي، كـان هـذا العلم (النقـد) قضـية عقلية (القـدرة على التميـيز والتفريق أي على الفـرز والنقـد) لقد كـانت لـدى كل مهتم فرضُ عينٍ وليس فرض كفاية، ولا يمكن أن ينــوب عنك في هذا الأمر الآخرون.

والقـــرآن الكـــريم يخـــاطب النـــاس جميعـــاً ويؤكد على المؤمنين الذين يعقلون والذين يتفكرون، أما حجة المغرضـين الذين يصـرون على السـلبية والتخلف والجمـود، ليحتجـوا في قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَـالا نُـوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْـأَلُوا أَهْـلَ الـذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُـونَ﴾ [النحل: 43] فـإن أهل الـذكر في الآية الكريمة هم بطبيعة الحـال المتفكـرون، ولفظ (لا تَعْلَمُونَ) ينحصر في المعلومة الـتي يمكن أن تتـوفر عند البعض من أصــــحاب الاختصـــــاص؛ أما التفكر والتعقُّل

فــالمفروض من حيث المبــدأ أن الجميع قــادرون عليه والله أعلم.

ولكن ما هو الفكر ؟

فحِيالَ كلِّ فكرةٍ ومع كل خاطرةٍ تطـرأ على البـال، أو كل مشكلةٍ وقضيةٍ أو حاجةٍ ماديّةٍ أو معنويّة شخصـيّة أو اجتماعيّة ماديّة أو معنوية يتعـرض لها أو يصـادفها الإنسـان، وبعد تقليب وجهات النظر المستدعاة والمستجمعة؛ لتلمع في أفق الخيال ليستنتج وليشـكل حولها وجهة نظر محـددة؛ وبعد كـلِّ سـؤالٍ يَرِدُ على العقل؛ في جميع الحالات فإنه يُرادُ له حُكماً؛ ولـذلكَ كـان لا بد للإنسـان من البحث عن جـوابٍ مقنع تلبيـةً للحاجة وسدَّاً لذريعة النفس وكبحاً لجماحها وإلحاحها الذي لا يهدأ ولا يفتر ولذلك كان لا بدَّ من إيجاد جواب؛

وليس من الضــروري أن يكــون الجــواب على الأســئلة سريعاً أو معلناً وصريحاً؛ ولكن المهم هو أنَّ الإنسان الطبيعي بعد أن يُطلق (الأحكـــــام العقليّـــــة) على ما حوله في البيئة (الموضـوع) وفهمـه، فـإن ديدنه أن يبـادر وهو في حالة بحثٍ دائم (ذاتيّاً) عن حلولٍ لما يصادفه من مشكلاتٍ وهمـوم لتلبية حاجاته المادية والمعنويـــة، كفـــرد وكمجتمع في ذلك جميع المجـالات والأبعـاد، ومن ههنا تنبثق الآراء وتتعـدد وتتنـوع في جميع الاتجاهات ومن كافة المستويات، إنَّ مجمـوع تلك الآراء والـرؤى بعد تنظيمها وترتيبها وتنسـيقها وتبويبهـا، وفيها انتبـاهٌ ويقظـةٌ ووعيٌ لما يجـري حولنـا، وبعد مـرور الـوقت الكـافي على تحقيقها وتسجيلها، وبعد أن تثبت منطقيتها ومشـروعيتها وأهميّتها النسبيّة، فإنها (مجموع تلك الآراء) ستشكل ما يمكن أن نسميه (الفكر) إنَّ الرأي من الرؤيا وهو إمعان النظر الذي سـيؤدي إلى التأمـل، مع التأكيد على أنَّ دمـاغ الإنسـان لديه قدرة غير محدودة على تسـجيل كل ما يـراه ويسـمعه ويحس به شعورياً ولا شعورياً، ففي الدماغ البشـري لا يضـيع أيـاً من الأشـياء (أشـكال الصـور والمعلومـات) الـتي تمر في حيـاة الإنسـان نظريـاً أو عمليـاً سـواءً اانتبه إليها أم لم ينتبـه، فكل الأشياء تُحفظ في صـندوق الـذاكرة العميـق، ولكنَّ المشـكلة الأساسـيّة تكمن في قـدرة بعض النـاس أولاً على تنظيم تلك الصــور والمعلومــات في الــذاكرة، مــدى جاهزية الــذاكرة، وقـــدرتهم على اســـتخراج تلك المعلومـــات أو اســـتعادتها وتوظيفها والاستفادة منها في الوقت والمكان المناسب، وهذا كله يحتاج إلى تدريب، وأنَّ الكثير من النـاس قد اسـتغنوا عن هذه الميِّزة الذاتيّة وابطلوا عملها، وفضلوا أن يبقوا غافلين.

بل المطلـوب من الإنسـان المـؤمن والعاقل والمفكر أن يسـعى دائمـاً وفي كل مكـان وكل زمـان ليكـون الأول وفي المقدمـة، قـال تعـالى: الَّذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَـابَ يَعْرِفُونَـهُ كَمَا يَعْرِفُـونَ أَبْنَـاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُـونَ [الأنعام: 20] قال تعالى: إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِـرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُـؤْمِنِينَ [الشـعراء: 51]، وهنالك فكـرٌ لفـردٍ بعينه وهنالك فكرٌ لأمة بأكملها، وهنالك فكرٌ ساد عصـرٍ محـدد من العصـور، وهنالك فكـرٌ اقتصـادي بحت، وفكـرٌ فلسـفيٌ مجرد، وهنالك فكرٌ ميكانيكي فيزيائي عملياتي.

أهمية (اللغة) على أنها أداة الفكر الأساسيّة

فـالتفكير عملية ذاتيّة ذهنيّة قائمة على الـوحيٌ والإيحـاء والالهـام والتركـيز، وفيها تـدفقٌ وتكـرار، والتفكّيك والتحليل للمفـاهيم والألفـاظ ولما تحتويه من المعـاني والمضـامين والصـور، ثمَّ ربطها وتركيبها تركيبـاً جديـداً بنَّاءً إيجابيّاً واعيـاً ومفيـداً، ثم أن من أغراضها الخطـاب والتواصل مع الآخر (علمـاً أن ماهية الألفـاظ هي الأعمـاق الـتي يَعْبُـرُ إليها المفكـرون متجـاوزين شـكلانيَّة الأحـرف أو حـتى تموضـعها، فـالقرآن الكـريم كـان قد نـزل وهو يتـنزَّل بالمضـامين، وذلك على الرغم من المشـاغبات الكثـيرة؛ ولم يُنَـزَّل برسم محـدد للحـروف ولا للقـراءة؛ بل تُـرك رسم الحـروف والقـراءة موضوعاً طبيعيّاً للناس)[1] واللغة ليست كتابةً للأحرف ورسماً لأشكالها ولا لهجـةً محـددةً فحسـب، بل هي ألفـاظٌ ومفـاهيم ومضـامين ومكونـات تكـون الـذات الداخليّة للفـرد والمجتمع ونقصد الألفـاظ والمفـاهيم والصـور والصـيغ الـتي تحمل بالأسـاس روح الأمة وماضـيها ونَفَسَـها، فاللغة تحـدد طبيعة التفاهم وشكله ومستواه الحضاري في أيِّ مجتمـع، ويجب أن لا تكون خشبيةً وغريبـةً وصـعبة، ولكنه (التفكـير) حـتى ينتصر على القيـود الإقليدية المقيِّدة والقواعد المكبلة فإنه على الدوام يحتاج إلى قدرةٍ وإرادةٍ وإدارةٍ وقيادة ذاتيّةٍ هائلـةٍ وثقة بالنفس، والفرق شاسعٌ وواسعٌ بين الخطاب الـذي يكـون من العقل للعقـل، وبين مجـرد النـداء أو الصـوت الـذي يُصـات أو يخـرج من الفم إلى صـيوان الأذن، ولـذلك فـإنَّ (التفكـير) يحتاج باستمرارٍ إلى طاقةٍ عاليةٍ وعُلَيَة مستمدَّةٍ، ونهرٍ ومددٍ لا

---

[1] (?) وبالتالي هل استطاع الشعوبيون تمرير الرشوحات الوثنيّة والخرافات والأسـاطير القديمة إلى الحيـاة العربية وخلطها بـالفكر العـربي والـدين الإسلامي الحنيف، وصارت هذه الرشوحات مع مـرور الـزمن تعشش في العقل والفكر العربـيين؟ فالعصـابات في العصر العباسي الفارسي قد فرضـتْ خططها على المجتمع العـربي الإسـلامي الكبـير وفكـره، هـذا ما يمكن فهمه من قراءة التـاريخ العباسي في جميع مراحلـه، من خلال علم الاجتماع اللغـوي أو علم الاجتمـاع التطـبيقي، والغـرب يخطط في العصر الحـديث، وينشـئُ أبحاثـاً حـول اللهجـات العربيـات القـديمات ويسـمونها (لغـات) لأنهم يجهلـون كنهها (ولو علم وأدرك الغربيـون سر العربية لحاربونا عليها) ويرى البعض من الباحثين المسـتعربين (د. محمد أركـون، ومن قبله د. طه حسـين) أن اللغة العربية غـير علمية وتحتـاج إلى تغيـير وتطـوير ويقـوم البعض من البـاحثين العـرب والمسـلمين من المسـلوبين الإرداة، وممن لا يمتلكـون الرؤيـا، بترديد هـذا الكلام دون فهم معنـاه أو مـؤداه، إذ من الضـروري وجـود سياسة لغوية وطنيّة عربية تـدافع عن المصلحة العربية وتقف إلى جانبها، والحقيقة أن التخطيط أكبر اهميّةً من السياسةِ وأجدى.

ينقطع ولا ينضب من خـــالق هـــذا الكـــون ، والعلم والفهم والقـــدرة على تلقي ما يُـــوحى والإلهـــام، والتفقُّهِ والتفقيه والتوجُّه والتوجيه منه سبحانه وتعالى.

أمة اقرأ لا تقرأ! المسلمون العرب لا يقرأون وإن قرأوا لا يفهمـون، والمقـروء هو المفهـوم واقـرأ باسم ربك أي: افهم عن طريق ربــك، وفي المعجم أنَّ القــارئُ: هو الــوَقْتُ، وأنَّ القـرء الـوقت، والقـراءة تعـني الجمـع، والقـرآن: قـراءة الله بدلالة اللاحقة النـــون، وهو وقد جمعت فيه الكتب الســـابقة، وقوله تعـــالى فـــاتبع قرآنه أي: اتبع قراءته أو: فـــإذا بيَّنَّاه لك بالقراءة، فاعْمَلْ به، والقراءة التفقه والإبلاغ، والقـراءة الـدنوَّ والقـرب من الشـيء والقـرء الأوان، ويفهم منها الاسـتقرار. وهو الحملُ والختامُ.

فللتفكـير لـذةٌ مسـتدامة وَكَنْهُــهُ واسع الطيف عميــق، وعوالمه غير متناهيـةٍ، وهو تـاج الحكمة وسـنامه القـدرة على الحكم، قال تعـالى: أَمْ يَحْسُـدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَـاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَـاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا [1] [النساء:54] قـال تعـالى: يَا يَحْيَى خُـذِ الْكِتَـابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَـاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا [مـريم: 12] إنَّ (التفكـير) عمـلٌ إنسانيٌ داخليٌّ فردي وجمـاعي[2]، وتفاعـلٌ بين مجموعة هائلة

---

[1] (?) إذاً فتلك (الحـروف العربيّـة) عبـارة عن مسـتودعات ومخـازن لأنـواع الكتب، وأشياء أو أطراف من الكتاب السماوي الإلهي الخالـد، الله يُطلـع عليها عِبـاده الـذين لهم قلـوبٌ وأسـماعٌ وهم شـهداء، هـؤلاء كـان من مسـتلزمات الكمـال العقلي والفكـري والنفسي عنـدهم أن يكونـوا على يقين واطلاع على نمـــــــــاذج من رحمة الله، مما هو في كتابه الواسع والشـامل، فكـان (الكتـاب الأول) الكتـاب الأساسي أو (الـدائرة الأولى) كتـــاب الله رب العـــالمين، وهو لا يحتـــاج لمن يكتب له فيه ، لأنَّ الله وحـده هو الـذي يكتب فيـه! وهو الـذي فيه (ذكـرُ رحمة ربـك) الواسـعة والشاملة (رحمة الله سبحانه وتعالى وسعت كـلّ شـيء) والـتي لا يخـرج عن أمرها شيءٌ في الأرض ولا في السماء أبـداً، وهي رحمة الله سـبحانه وتعالى لمخلوقاته جميعاً، جميع مخلوقاته؛ ويستدرك اللهُ سـبحانه وتعـالى فيها الجميـــعَ من عبـــاده؛ إلاّ أنّ الفعل الإلهي حكيم وحكيم جـــداً، على الإنسـان العاقل المفكر المـؤمن فهمُ الحكمة الإلهية واسـتيعابها والتلاؤم والانسـجام معها أو التسـبيح من خلالها (بكـرة وأصـيلا) أي ليلاً ونهـاراً وباسـتمرار ودون توقـف، يجب على الإنسـان العاقل المفكر المـؤمن أن لا يخرج عن أمر الله تعالى أبداً ومهما طال عليه الزمـان، قـال تعـالى: حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُـلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَـدْ كُذِبُوا جَـاءَهُمْ نَصْـرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ [يوسف: 110]

[2] (?) أنَّ الشعور المعنويَ الوطني هو غريزة اجتماعية إنسانية أساسية، ودافع إجتماعي إنساني حقيقي، لا يخـرج منه الإنسـان السـوي المفكر؛ وذلك قبل أن يصبح المفهوم الوطني نزعة سياسية؛ وقبل أن يتحـول إلى مجـرد مـواد في نصوص دساتير الأحزاب السياسية ومناهجها المرحلية؛ لكن العـرب ظنّاً منهم أن الشـعور الوطـني العـربي، أو الـروح الوطنية العربيـة، تتعـارض مع الدين الحنيف، الصحيح؛ أو مع الإنسـانية العالميـة، أو العولمة الأممية لـذلك يجب علينا إعــادة النظر في القضـــية الوطنية العربية وفهمها على قاعـــدة

من العناصر والعوامل الأوليّة والمعطيات وهي تدور في بوتقة العقل المجرد، ويفضي إلى الفهم ومن ثمَّ إلى التـدبُّر تُظهِرَهُ آثـاره العلميّة العمليّة والنظريّة مباشـرة[1]، فهو حتمـاً لا يـأتي من فـراغ؛ قـال تعـالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُـلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَـبِّحْنَ وَالطَّيْـرَ وَكُنَّا فَـاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:79].

وفي الفكر اجتمــاعٌ للشــروط والعوامل وقلبٌ لهــا؛ ومن لوازمه المشـاعر وصـحة الحـواس وسـلامتها، ولكنه (الفكـر) أصيلة وأساسية وصحيحة.

---

[1] (?) إذ ليس صــحيحاً أنّ معــنىٰ التــدبّر منحصــرٌ في الحفظ والدراسة والرواية! بل يتعداه إلى التَفَكّر وتفهُّم الخطاب، وأكثرُ من ذلك، أنَّ التـدبر يعني التَفَعُّل والتفعيل، فالقائد الذي يدبِّر قيادته يفعِّلها، والمدير الذي يدبِّر إدارته، يفعِّلها أيضاً، يجعلها حيوية نشيطة، في حركة دائمة مفيدة ومنتجة، إنّ الله ﷻ الذي يدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض، يُفعِّل هذا الكون يُفَعْـلّ مخلوقاته ويمـدهم بالحيوية وبالحيـاة، كل شـيء بـأمره يـديره يفعِّله من السماء إلى الأرض، يمده بالطاقة والحيـاة (هـذا ويعمل المفاعل النـووي، أو المفاعل الذرِّي على تفعيل المادة، وذلك عن طريق رفع حرارتهـا، إلى درجات عالية وكبـيرة جـداً، آلاف الـدرجات، ولمـدد طويلـة، بحيث تتحـول مباني ذرات المادة، من ذرات لمعـادن خسيسة أو رخيصـة، مثل الحديـد، لتتحول إلى ذراتٍ لمعادن ثمينة، وباهظة مثل الذهب، وأكثر من ذلك فـإذا استمر التسخين للمعدن في المفاعل النـووي، فإنه بالإمكـان تحويل هـذا المعدن إلى أشعّة حرارية أو ضوئية؛
ومعروفٌ أن كمية صغيرة من معـدن اليورانيـوم المخصَّـب يمكن أن تأخذ سـفينة فضـائية إلى القمـر، وتعـود بها إلى الأرض وأن كمية صـغيرة من اليورانيوم كافية لإضاءة مدينة بأكملها) وهذا قريبٌ جداً من معنىٰ التَـدَبّر، إن التدبر في المعنىٰ العربي يعني التفعّل، أو أن تَتَفَعِـلَ بـالقرآن العظيم، أي أن تتحول من كائن عادي إلى أن تكون مشعاً ومضيئاً، وأن تضيء كل من اقـترب منـك، أو نظر إليـك، أن تمـده بالطاقة والحيويـة، هكـذا كـان الرسول ﷺ وهكذا كان الصحابة الكرام، لأن القـرآن بالأسـاس هو الجـامع ومنبع الحركة ومركز وبــؤرة التفعيل للكــون، ولجميع المخلوقــات، وهو أشبه بالمولِّد للطاقة وللحيوية وللعلم، والممد لجميع مخلوقـات الله ومن خلاله يتم الدفع والتحريك الإيجابي لا السلبي القرآن ليس ورقاتٍ مكتوبـاً عليها بين دفتين (القرآن ناموس الكون) والفرن العالي، الذي تتجوهر فيه النفــوس والأرواح والعقــول والأفهــام إن من يقــرأ القــرآن ومن يحمل القـرآن، ومن يجمع القـرآن، ومن يرتل القـرآن، عليه أن يكـون مركـزاً مشعّاً ومضيئاً ومنـيراً ومعلمـاً رائـداً عَلَمَـاً ومحط أنظـار، فعن السـيدة عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: ليؤمكم أقرأكم للقرآن، وأقرأكم يعـني أجمعكم، وأجمعكم يعني أوعاكم، وأفهمكم للقرآن، إن قـارئ القـرآن، إذا كان صادقاً في تَدَبُّرِهِ للقرآن الكريم، فـإن الله ﷻ سـيُفعّله، وسـيجعل منه عالمـاً، وعالمـاً كبـيراً، وسـيفتح عليه وسـيمده بـالفهم وبـالعلم الشـامل وبالذكاء والمعرفة والقوة.
إن القرآن العظيم مفاعل نـووي، بل هو أكـبر مفاعل نـووي في العـالم، يُفَعِــلُ مخلوقــات الله يُخرجها من الظلمــات إلى النــور، إذا عرفنا كيف نفهمه يرجع الفضل، جميعـه، إلى القـرآن الكـريم، فلـولا القـرآن الكـريم لبقي النــاسُ في كل المجتمعــات، على حــالتهم الأولىٰ، ومعــروف أن احتكاك أوربة بالمسلمين، والأساس هو القرآن، كـان هو الشـرارة الأولىٰ التي أشعلت التقـدم العلمي والمعـرفي عند الغربـيين في كل المجـالات،

رؤية مشعة شديدة الوضوح والتأثير، وابصارٌ عيانيٌ للنور الإلهي، إنه اشــرافٌ على اليقين وهو منبثــقٌ من عين اليقين، ولذلك فهو لا يقبل التأخير في الإنتاج وثماره أبداً دانية لكل من طلبها وعمل على تحقيقهـــا، ويـــترتب عليه الشـــكر لله تعالى، فالفكرُ ثمارُ زراعةٍ صحيحةٍ لمواردٍ العقل والوجدان وفيه توفيق وفتحٌ من الله وهو مشــــروطٌ بالمحرضـــــات والمثيرات والدوافع الباطنيّة.

قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ [سبأ: 46] قال تعالى: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الحشر: 21].

والذين صاروا يرفلون به الآن، ويستعلون به على باقي مخلوقات الله في العالم؛ إن القرآن الكريم هو الذي فتح الباب، وهو الذي أنار في العيون وفي البصائر، لا أديسون ولولا القرآن لبقي الرومان روماناً، والبيزنطيون بيزنطيين، بدائيين ليس إلّا، وقد أبعد العرب عن الفهم الحقيقي للقرآن ، فلم يتمكنوا إلى الآن من التفاعل أو التَفَعّل، ولا استطاعوا، إلى الآن، أن يستمدوا الدفقات من كتاب الله، القرآن، ولا يزالون يمضون وقتهم في تجويد وتعلم التجويد؛ وبالمناسبة فقد أمرنا ربنا بالترتيل وليس بالتجويد، وكان علم التجويد قد بدأ مع مجموعة من العميان في العصر العباسي، الذين كانوا يبحثون عن عملٍ أومهنةٍ، يتكسبون أو كانوا منها يسترزقون، فكان أن أجادوا فن تجويد القرآن الكريم، ثم نشأت المدارس، وصارَ لهذا الفن معلمون لتعليم التجويد وقواعد التجويد، وتحول الأمر إلى هدف أساسي وقبل ذلك لم يكن هذا الموضوع هاماً، ولا مطروقاً، ولا هو محبذ في حياة العرب والمسلمين، إذ تكرست حياة المسلمين لهذا الهدف؛

بينما لم يكن قبل ذلك يشكلُ شيئاً أساسياً، ولايجوز أن يكون التجويد بأي حال بديلاً عن الترتيل؛ الترتيل الذي أمر به الله الترتيل الموصل إلى الفهم ونـــذكر هنا أن الترتيل أمـــرٌ قـــديم أمر به الله كل الأمم السابقة، ولاتزال آثار وبقايا آثار هذا الأمر الإلهي موجودة لدىٰ النصارىٰ، في الكنائس بشكلٍ ملحوظ، وهي تنبينا عن أنها كان لها أصلٌ في اللسان العربي المبين! وكذلك يمكن للمدقق أن يلاحظ الملاحظة نفسها، في عبادات وصلوات العديد من الديانات الأرضية المنتشرة في الهند وبلاد الفرس والصين وحتىٰ الأنكا والهنود الحمر، سيلاحظ أنهم جميعاً يرتلون، عند قراءة نصوصهم الدينية؛ إن الترتيل أمرٌ إلهي منذ الأزل، وقد انحرف هذا الأمر عن أصله العربي المبين، مثلما انحرفت باقي الأوامر؛ أشتاتاً أشتاتاً، كان الهدف من الترتيل العربي تعميق أثر المعنى للفظ، وجعله يملأ الكيان كيان قارئه وكيان سامعه تاركاً أثراً لايمحي، ومحولاً النفس الإنسانية إلى طاقة إيجابية عالمة وبناءة، لا خاملة؛ ولا بائسة ولايائسة، ولم يكن الغرض منه تجميل اللفظ أو بعث النشوة أوالغبطة والسرور.

وكذلك لم يكن الأمر أمر قراءة القرآن الكريم، وقفاً على المناسبات كما يفعل التجويد، إن الترتيل ترتيل القرآن يعني قراءة القرآن كما نزل، كما كان يقرأه الرسول كما قرأه جبريل عليه الصلاة والسلام، كما سمعه من الله إن الترتيل أن يقرأ القرآن وأن يكون القرآن دائماً رطباً كما نزل. إن الترتيل يعمِّق الفهم والوعي العربي للنص العربي.

إنَّ انتشـار وشـيوع المعاصـي والكبـائر في مجتمـع مـا، والانحطاط الخلقي والانغمـاس في مسـتنقع التخلـف والـزّلات، والاسـتلاب، وأكـل حقـوق الآخـرين والتعـدي عليهـا والتـورط والغوص في مستنقع الرذائـل وادمـان العـادات السـيئة وقبـول الرشاوى والتعوُّدُ عليها، والخرافة والحسـد والكيّديـة والتنـافس غـير الشـريف وقلـة الأدب وانعـدام الشـرف والقبـول بالإهانـة والـدناءة وتشـريع النقـائص والشـذوذ والمنكـرات، كـل هـذه الأوضاع تُوْقِفُ التفكّر وتنفيه، وكذلك النسيان والخّرَف والـوهن والمرض وبلوغ أرذل العمر ودنو الأجل والموت أثناء الحياة؛ كلُّ ذلك يؤدي إلى تعطيل التفكير وتعويقه ويُعدُّ ومن موانعه.

ولكنَّ آفة الحياة الفكرية الفواحش إذا شاعت وانتشـرت، إنَّ للفكر علاقة عكسـيّة مع الفـواحش والجـرائم والتخلف والـوهم والشـائعات والخرافـة، وتنبت الافكـار في الأوسـاط العلميّة والأدبية والأخلاقيّة، وتختنق وتموت وتنعدم في الأجواءٍ الفاسـدة، لـذلك إذا أردنا لأولادنا والأجيـال القادمة نضـوجاً فكرياً فإننا يجب علينا أن نهيئ لهم الظروف المناسبة.

فالحياة الإنسـانية الواسـعة هي مصـدرٌ عظيم من مصـادر الفكر البشري (التجـارب الكـبرى الفردية والجماعية وعـادات الشعوب الايجابية وآدابهـا) يجب فهمه واسـتيعابه والاسـتفادة من التراث البشري، قال تعـالى: ﴿ خُـذِ الْعَفْـوَ وَأْمُـرْ بِـالْعُرْفِ وَأَعْـرِضْ عَنِ الْجَـاهِلِينَ ﴾ [الأعـراف: 199] وذلك فيما دون (الحق) الذي يجب أن نستمده من الله سبحانه وتعالى وحده.

ويجمع علمـاء اللغـات اليـوم – وبعد آراءٍ متناقضة سـادة قروناً طوال- على أن أهم ميزة يمتاز بها اللسان البشري هي (صـفته الإرغامية بالنسـبة إلى فكر المتكلم، وبالتـالي دوره الرئيسي في تكـوين المفـاهيم) أي أن المفـاهيم تتكـون عن طريق اللغـة، ولا توجد مسـتقلةً عنهـا، بحيث يتعـذر على الإنسان أن (يفكر) دونَ الكلمات والحروف؛ ولهـذا قـال بعض العلمـاء في (اللغة) و(الفكـر) إنهما وجهـان لحقيقـةٍ واحـدة، وقال بعضهم (ليس هناك معانٍ سابقة على الوجود، ولا شيء يمكن أن يتبين مفهومه قبل ظهور اللسـان) وهـذا ما فطن له علماء الكلام المسلمون واللغويون العـرب عنـدما نصـوا على أن العلاقة بين الشـيء واللفظـة الدالة عليه فهي تثبت دائمـاً بواسطة الصورة الذهنية التي يحـدثها الإدراك للشـيء، والـتي تثـير في ذهن المتكلم اللفظ المرتبط بها ارتباطـاً اعتباطيـاً، وأنه –على العَكس من ذلك لا يمكن للّفظ أن يشـير في ذهن السامع إلى الصورة التي يرتبط بها عادةً في لغة هذا السامع. يوضح ذلك، ويـدل عليـه، أن سـماعِ لغـةٍ لا أعرفها لا تُثـير في

نفسي شيئاً، ولا أعلم من إصغائي لها الساعات الطوال شيئاً من (المعرفة) التي نتحدث عنها بلغتنا الأصلية باستمرار!! بل إن قراءتي أو سماعي لشيء من (غريب) لغةِ قوم لا أدرك منه شيئاً؛ لأن مثل هذه اللفظة الغريبة أو الألفاظ الغريبة لا تثير الصورة المرتبطة بها، لأنني لا (أعلم) أو بعبارةٍ أدق: لا أعرفُ مسبقاً أن لها مثل هذا الارتباط (إذا نظرت إلى كوب من الماء العذب ذكرت كلمة ماء، وإذا قيل أمامي ماء تصورت الكوب أو النهر... إلخ، ولكن إذا قيل لي (نقاخ)[1]، فإنني في الحقيقة لا أدرك شيئاً حتى يقال في شرح هذه اللفظة أنها الماء العذب...، ومعنى ذلك أن المعرفة أصلاً متوقفة على التلقين أو المعلومات المسبقة كما يقال.

فإذاً إن للتجربة أداتها وللعقل كذلك أداته وهذه الأداة في تلك الحالتين هي اللغة أو الرموز اللغوية وإن أي بحث في المعرفة يغفل هذا الجانب الأساسي فإنه يقع في الخلط بين المعرفة الأولى -إن صح هذا التعبير- وبين معارفنا المكتسبة الكثيرة المتشعبة)[2].

على العموم فإنَّ (أبجد هوز) وهي الأبجدية العربي القديمة، ولكنَّ (الألف بائيّة) فيها جاء لتبني وإعادة ترتيب الأحرف العربية بطريقة أخرى، بحسب رسمها (الصورة) لا بحسب نطقها (الصوت)، هذا ولا تزال طريقة (ابجد هوز) معتمدةً في اللغات الأوربية (اللاتينية والإغريقية)، وفي المغرب العربي! وبالتالي فهذا دليل على أنَّ الحرف العربي كان الأساس ولكنَّ اختيار (الألف بائية) وتبنيها مقابل الترتيب العربي الأساسي (الأبجدية) منذ العصر العباسي إلى الآن، وقد مُرِّرَ إلى العرب لذلك فهو يعتبرُ عملاً سياسياً بامتياز، والقضية نفسها كانت بالنسبة للأرقام العربية، إذ ليس ولم يكن هنالك أرقام هندية أبداً كما يزعمون، ولكنَّ الأرقام العربية في أشكالها المختلفة إنما هي (أطوارها المختلفة)؛ لقد كانت في البداية بدائيّة (بالشكل المستخدم إلى اليوم في أوربا ودول العالم) طريقة الزوايا الحادّة وقد تطورت وتشذَّبتْ وتليَّنَتْ في المشرق لدى العرب، مع مرور الزمن وكثرة الاستعمال والاستخدام وتوالي الحضارات، وصارت (فيها اختصارات وتجريد وليونة...) ولكن الغرب يحاول فرض طريقته المُتَخلِفة على العالم، فهل كانت قضية الأبجدية والأرقام لدى الشعوب، لها علاقة بالسياسة (المصير)

---

1 (?) وهي تعني الماء العزب ولكن باللغة العربية القديمة (الأمازيغيّة)

2 (?) الدكتور عدنان محمد زرزور مقالة في المعرفة، مرجع سابق.

والظــروف السياســية، أم أن السياسة كــانت تَفْــرِضُ على الشعوب فهماً معيناً؟

إن الأرقام العربية (الحالية) اللينة والأكثر تحضُّراً، تتناسب مع الأحــرف العربية اللينة والأكــثر تحضــراً وتطــوراً، كما أن الأرقام العربية (الحالة القديمـة) والـتي لا تـزال تسـتعمل في أوربة إلى الآن فهي تتناسب مع الأحـــــرف اللاتينية والـــــتي لا تـــزال على حالتها الأولى منذ آلاف الســـنين ولم تتطـــور! ويقال أنها أسماء لملـوك حميّر أو مـديَن والله أعلم، هـذا وإنَّ لألفاظ الأرقام العربية (واحد اثنان ثلاثة) معاني يجب التفتيش عنها والتفكر بها، لقد بـات الإنسـان (المُغـاير) اليـوم يفـرض آراءهُ على الشــعوب المستضــعفة ويتــدخل في لغة القــوم وأحـــــاديثهم الســـــائدة، بعد نهبه للاقتصـــــاد وتبديله وادارته للسلوكيات وأنمـاط العيش، وأحيانـاً يمـارس ذلك بقـوة وعن جهالة مفرطة ومطبقــة، من خلال ثــورة المعلوماتية والــذكاء الاصطناعي وحرية الإعلام، وإحداث ما يمكن تسميته (صـناعة اللغــــــة) بينما القضــــــايا اللغوية يجب النظر إليها على أنها موضوعية وطبيعيّة ووجدانيّة، فهنالك اللغـات العـابرة للحـدود (المجـاورة وغـير المجـاورة) ما يمكن أن يشـكل إثـراءً أفقيـاً (اعلاميـاً اسـتهلاكياً محـدوداً) أو إثـراءً عميقـاً (يتنـاول التَفَكُّر والتعقُّل والفاعليّة الثقافيّة والأدبيّة والعلم والـــــــــدين) وإذا حكمت الأقليّة فإنها غالبـاً ما تلجأ إلى فـرض سـلطتها وتعميم سلوكها وآرائها وحتى لغتها!

فـأن يُنظـرُ إلى اللغة على أنها كيـان حي فاعل حي ولـود ولها منزلة عظيمة وجعلها مُقدسـةً في حيـاة النـاس ولها دور اســـتراتيجي، وليس على أنها شـــيء مهمل يتمُّ العمل على إصلاحه وترميمه وتحديثه عن طريق الاقتراض والإستعارة من أي من اللغـــات الأخـــرى والفـــروع الصـــغيرة؛ أمر في غاية الأهميّة بالنسـبة لكل عـربي، وطبعـاً هنالك فـرق شاسع بين قضية التعريب وقضـية إعـادة التعـريب! (الموقف من العامية ومن اللغـــات أو اللهجـــات القديمة مثل الكردية والآشـــورية والأمازيغية واللغـات الأخـرى الأوربية المهيمِنة والمفروضـة)، وهذا الفـرق يتمثل أساسـاً في تعريف (العـربي) وضـبط هـذا المفهوم في حياة النـاس وشـرحه وبيانـه، وبالتـالي معرفة ما هو (غير العربي) وتحديد الموقف منـه؛ فـالتعريب ليس بجعل ما هو غـير عـربي عربيـاً، ولا هو مجـردُ بعثِ وضـعٍ حضـاريٍ أو ثقـافيٍ كـان قد ولى، ولا هو عـودة إلى الحالة الـتي كـانت قبل الاستعمار! ولكنه وبوصفه ارتفاعـة إلى الحالة الحضـارية الطبيعية المثالية الراقية والمتقدمة والخالية من التخلف

والمعوقات والأغلال والآصار، إنَّ الكيفية الـتي تمتْ فيهـا، في بعض البلــدان، معالجــةُ قضــية التعــريب كــانت خاطئة من الأساس، وبالتـالي كـانت قد فرضـتْ قصـداً وعلى مر الـزمن منذ نهاية الاسـتعمار المباشر لتـؤدي نتـائج معاكسة وعلاجـات خاطئة مملة لم ولن توصل إلى أية فائـــدة أو نتيجـــة، وعلى العكس تمامــاً فــإنَّ تلك الممارســات عملت على تكــريس الاستعمار وأبقت على هيمنة لغته!

فالكيفية (الأسلوب) التي تمَّ فيها تقديم (اللغات الأوربيــة) في الكتب والقــــــواميس والمعــــــاجم والكتب الإلكترونية والمصطلحات العلميّة والبرمجيات ومعالجة النصـوص وقواعد البيانــــات، الطريقة العلميّة الأمريكيّة في كتابة الأبحـــــاث الجامعَّية، أو في إجراء (الانتخابات والامتحانات)، وهي طريقة اليهودي الأمـريكي (جـون ديـوي) الـتي فُرِضَـتْ على شـعوب الكـرة الأرضـية، لما فيها من تكـريس وتأكيد على أن اللغـات الأوربية هي وحـــدها لغـــات العلم والحضـــارة، وقد تجاوزتها الدول الغربية في الأسـلوب؛ بينما في بعض الأوسـاط العربية والإسلاميّة وخصوصاً (الشبابيّة) حيث تمَّ فيها تغـريب اللسـان العــربي والحــديث عن (اللغة العربيــة) على أنها لم تعد تفي بالغرض، إنَّ الطرح الخاطئ يوصـلُ دائمـاً إلى نتـائج خاطئـة، فــالغرب ومروجــو(الفكر الغــربي) دائمــاً وســلفاً وبإصــرار ينظــرون إلى (اللســان العــربي) بطريقة عدائيّــة، ولا يُــرجى إقناعهم بعكسها أبداً، لأنهم يعلمون تمام العلم أنَّ العربية تنبع من القرآن الكريم، الكتاب المُنزَّل، وهذا ما لا يقبلونه مطلقــاً ولن يوافقوا عليه أبداً.

ومعلوم أنَّ القضيّة هنا (بالنسـبة للأوربـيين) لا تسـعى إلى تطـــبيق العدالـــة؛ بل إلى تطـــبيق القـــوة، وهنالك في بعض البلدان في العالم لغـات لم يتم الاعـتراف بهـا، مع أنها لغـات السـكان الأصـليين للبلاد، بينما في إفريقيا مثلاً تمّ الاعـتراف بلغة لم يتكلم بها سـوى أقل من عشـرة بالمئة من السـكان (الفرنسية)، ومعلوم في هذا المجال أيضاً أنَّ الخاسرين دائماً هم الغائبون أو المتخلفون عن الحضور!

إنَّ (إفريقيـا) بـالواقع (قـارة عربيّـة اسـلاميَّة)، والأمـر هنـا لا يحتاج إلى برهان؛ إنه مدرك بداهةً، ولكنَّ الـدول الاسـتعمارية لا تريدُ فهم الأمور بشكلها الصـحيح، لـذلك غالبـاً ما يتمُّ اقـتراح الحلول اللغوية الخاطئة لتُنفَّذ بـالقوة في إفريقيـا وعلى الـدول الضعيفة.

على العموم فـإنَّ (السياسة اللغويَّة) تشـكل عامل وحـدةٍ إذا أُريدَ لها ذلك، وقد تكون (بالإضافة إلى الدين) عامل تفرقةٍ

مثلما حصل في (يوغسلافيا السابقة) أثناء الصراع الذي نشب بين الصرب والكروات والبوسـنة، لـذلك ينبغي تحديد الغايـات وتســخير الوســائل الضــروريّة للوصــول إلى تلك الغايــات المنشودة، غـير أنَّ التخطيط لسياسـةٍ لسـانيّةٍ عربيّـةٍ وطنيّـةٍ عمل ينبغي أن يكون تحفُّزياً ومحضُ إرادي مبنياً على الحــوار وهو لا ينطوي ويجب ألا ينطوي على إملاءات اجباريّة تعسفيّة، بل عن طريق الطــرح الصـحيح للفكــرة الأصـليّة الأساسـيّة، وعلى سـلوك أساسي صـحيح أيضـاً يـؤدي إلى تَفَهُّم حضـاي عالي المستوى فأن تُطـرح المسـائل من مصـلحةٍ عربيَّةٍ عُلياً للإنسان العربي أمر جدَّ هام، لـذا ينبغي تحليل الآفـاق القريبة والبعيدة وشرح المصلحة الوطنيّة العُليـا، كما يقتضي ملاحظة السياسات اللغويّة التي تعمل على اخـتراق الحـدود (مجموعة الكومنولث والفرنكوفونية) قـال سـارتر: نحن الفرنسـيّون لم نعد نحتاج إلى تجـييش الجيـوش من أجل السـيطرة والاحتلال ولكننا الآن أصــبحنا نــأتي بالشــباب الإفــريقي والعــربي إلى السوربون وندرسـهم أربعة سـنوات ثم نرسـلهم إلى بلـدانهم لكي يحكمــوا كرؤســاء وزعمــاء وليقومــوا (بدكدكــة) العربيّة والإسلام وزعزعة مفاعيلها ومحوها من إفريقيا وآسيا معاً من خلال (الفرنكوفونيّ) والأفرقة، لـذلك فـأنت تـرى كيف تحـول الأفارقة والمسلمين إلى خروفٍ أسود في قطيـعٍ من الـذئاب البيض، ولو خرج (إيكور سنكور) من جلده فلن يكون إلا بيدقاً مجرد بيدق بين البيادق المقيمة في إفريقيا!).

قضية كتابة وترجمة وتحقيق الكتب أهم من هامة

الناس يخلطون، وقضـية كتابة وترجمة وتحقيق الكتب من أهم الأمـور في حيـاة النـاس: والحقيقة أنَّ النصر كـان حليف المسلمين العرب عندما كـان لهم كتـابٌ واحـد؛ بينما انـدحروا وانهزموا وتبددت جهودهم وتبعثرت هممهم وتلاشت عـزائمهم عنـدما تعـددت الكتب لـديهم، وصـار إلههم هـواهم وضَّـيعوا الهـدف الأساسي ؛ فكيف صـار النـاس، العـرب المسـلمون، العامة والخاصــة، ومع مــرور الــزمن، يخلطــون بين الحافظ المقرئ المجوِّد للقرآن الكـريم، وبين العـالم المفكر الـدارس لكتـاب الله بعمـق، والمطلع بنطـاق واسع على سـنة رسـول الله الفــاهم الــواعي المــؤمن الحكيم، الــذي يخــاف الله ســبحانه وتعــالى، الخبــير المرجع الــذي يُرجـــعُ إليه عند الإشـكالات، الـتي قد تنشأ عـادة في سـياق الحيـاة، العـالم المطلع البـاحث المنـاط بعلمه الفهم الصـحيح والأقـرب إلى الحق، الذي يُسمَعُ رأيه ويستفاد من تجربته؛ ويُؤخـذُ بحكمتـه، ويُركن إلى نصحه وإرشاده؛ وكيف صاروا يخلطـون، في هـذه الأيـام، بينه وبين الشـخص الـذي قد يكـون عبـارة عن مـدقق لغوي ممتاز؛ أو أنه مجرد مصحح في جريدة أو هو تقنياً مجرد صـحافي ناقل للأخبـار أو محـرر للنصـوص أو معلم ابتـدائي محترم للأطفال أو مـدرس جيد لليـافعين أو غيرها من الأمـور المهنية الوظيفية البحتة كالطبيب والمهندس والمحـامي! فمع احترامنا الشـــديد لهم جميعـــاً ولجميع النـــاس، إنما هـــذه الشهادات المهنية؛ لم تعد تكفي، لتأهيلـك، لتجعل منك عالمـاً علامــة! إذا كــان لا يوجد لــديك هم كبــير وشــامل، يــدعو، أو يـدعوك؛ إلى النهـوض بالأمـة، وإلى تقـدُّمها، وإلى رقيهـا، وإلى تحرير الــوطن من أثر الخرافة والتخلــف، فــالعلم ليس في أن يتحول الإنسان إلى قـاموس، أو معجم متنقـل! ينشط الذاكرة أو أن يصبح حاويةً للمعلومات، أبـداً، بل كـان هـذا في الماضي، الآن ومن محاسن أو من إيجابيات الأجهزة الحديثــة؛ إنها كشفت أولئك الذين كـانوا ولا يزالـون يـدعون العلم، فقد أصـبح الآن أبسط جهـاز حاسـوب، يمكن أن يُغنينا عن ألـوفٍ من دعــاة العلم أولئــك!! فــاليوم وعلى قــرص لــيزري واحد يمكنك الاطلاع على الكثـير من الفتـاوى في التـاريخ، ويمكنك سماع العديد الخطب العصماء، من العصر الجـاهلي إلى الآن! ويمكنك قـراءة كتب التـاريخ، وكتب التفسـير، المفيـدة وغـير

المفيدة![1] ولكن كيف صار الناس العرب والمسلمون، في بلادنا يخلطون بينهم، وبين العلماء الحقيقيين، المفكرين الحقيقيين، والنُقَّاد المبدعين الحكماء الباحثين المتبصرين، الذين يمتلكون من الله سبحانه وتعالى حساً عالياً بالمسؤولية، ولديهم رؤية هامة، تحمل هماً ليس بهم خاصة؛ بل للوطن وللمجتمع وللأمة بأكملها! وعندهم ولديهم آراء مفيدة، وأفكار ضرورية أحياناً للناس لإرشادهم، وإفتائهم في حياتهم، ولدلهم لمن خرج عن طريق الحق، أن يعود إلى الطريق الصحيح؟ نظراً لما لديهم من خبرة وعلم وتجربة! قال تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: 245]، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا ﴾ [الكهف: 30]، قال تعالى: ﴿ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص: 77]، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: 172]، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: 93]، فالإحسان الوارد ذكره في القرآن الكريم، بصيغٍ متعددة، 51 مرة، كان

---

[1] (?) الحقيقة أن كتب التفسير التي بدأت في مطلع القرن الرابع للهجرة مع ابن جرير الطبري كانت وبالاً على الفهم الصحيح لكلام الله سبحانه وتعالى، وتحويلاً عنه إلى جهة معاكسة تماماً، لأن كلام الله سبحانه وتعالى المنزل إلى عباده، لا يحتاج ولم يكن يحتاج إلى تفسير...! بحيث عملت تلك الكتب على اعوجاج الخطوط التي كانت مستقيمة!

إنها كانت محاولات لاستبدال الصح بالخطأ؛ كما كانت قد فعلت من قبل كتب التوراة التي كتبها اليهود بديلاً عن التوراة الحقيقية التي أنزلها رب العالمين وكان فيها كلامه جل جلاله، والأناجيل التي كان قد كتبها الكتبة بديلاً عن كتاب الله سبحانه وتعالى، لقد قامت كتب التفاسير وكتب الحديث بالدور نفسه؛ فعطلت بذلك العقول وقادتها إلى مداخل دخيلة إلى العطالة والسقم، وذلك منذ مطلع القرن الرابع للهجرة، وإبَّان انهيار الحكم الأموي وتسلط الأعاجم، لقد عملوا على استبدال اللسان العربي المبين بما هو غير مبين وغير واضح والمتناقض، وتمموا تلفيقهم بكتب ادعوا أنها صحيحة وهي غير صحيحة البتة!! إنها كتب الناسخ والمنسوخ وكتب أسباب النزول، التي صنعت لإتمام الروايات المصنَّعة في الفيلم الذي أخرجه الطبري! بل كانت تلك الكتب تتمة لمشروعهم الذي كان يهدف لاستبدال الدين الحنيف بآخر غير حنيف؛ فهل كانت هذه المحاولات محاولات مقصودة؟!

وكمثال على ذلك فإنَّ سور المعوذات التي كانت في اللسان العربي المبين تهدف إلى تحويل الإنسان من حالة العطالة والسكون والوجوم والاستسلام والانقياد للواقع الذي كان واقع ذل وخنوع وتبعية وشرك وإشراك بالله وتسلط وهيمنة للأقوياء على عباد الله كانت هذه السور الكريمة والعظيمة عبارة عن دعوة للثورة والانقلاب والرفض لكل أشكال الهيمنة والسيطرة والتبعية التي كانت مفروضة من كل الجهات، الداخلية والخارجية؛ فكيف ساقوا المعاني في سور المعوذات إلى الشكل الذي أعادوا فيه الإنسان إلى حالة العطالة والسكون والقبول والتطبيع والرضى بكل أشكال التسلط والهيمنة والتبعية.

يهـدف في أكـثر الحـالات، إلى دفع النـاس إلى ضـرورة بـذل جهـودهم في سـبيل إيجـاد مجتمع إنسـاني مـؤمن، حضـوري، وحضاري يتمتع بعلاقات إيمانية راقيـة، وخلاقة واعيـة، ويتجلى ذلك من خلال ارتبـاط، وربط الإيمـان، في القـرآن الكـريم، بالعمل الصـالح، فالإيمـان وحـده لا يكفي؛ بل يجب ربطه بالعمل الصالح وقد ورد لفظ الصلاح، والعمل الصـالح حـوالي 82 مـرة، فـأين سـيُمارسُ العمل الصـالح؟، ومن سيُشـكِّل الطرف الآخر في هذا التعامل؟؛ قال تعـالى: ﴿ يَسْـأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَـالِ قُـلِ الْأَنْفَـالُ لِلَّهِ وَالرَّسُـولِ فَـاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْـلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفـال: 1]، وأين سيُمارس المؤمنون أعمـالهم الصـالحة؟ لابد من حيِّز؛ لا بد من مجموعة بشرية تستوعب أو تتلقى العمل الصالح؛ هذه المجموعة أيـاً كـان شـكلها فإنها تُـدعى الـوطن! لأنه لا بـدَّ للإنسان من وطن، وذلك بغضِّ النظر عن ماهية هـذا الـوطن، فكل إنسـان في العـالم، في ذهنـه، وفي قلبه ووجدانـه، وفي عقله معـنىً منفـرد عن الـوطن، يجب أن يكـون؛ وهو يفهم الـوطن بطريقته الخاصـة؛ ما يُمليه عليه إيمانـه، قيمه ومبادئه وعيَهُ وفهمه وثقافته وعلمه ومعرفته، فهل كان وطن العـربي المسلم بلا حدود؟ وهل قضية كتابة وترجمة، أو قضـية تحقيق الكتب، الدينيـة، والتاريخية والتراثية العربيـة، هل هي قضـية غير هامة، إلى هذا الحـد؟! هل هي بسـيطة وسـهلة إلى هـذه الدرجة؟ أو هل هي مجرد مهنة من المهن العاديـة؟! وهل هي غير هامة للدين والـدنيا وللأمة وللـوطن، إلى هـذا الحد الـذي أصـبح فيه كل من هبَّ ودبَّ، يبـادر بكل بسـاطة وجـرأة، إلى الإدلاء بـدلوه؟ فيعمل في كتابـة، أو ترجمـة، أو تحقيق الكتب، وتصنيف الكتب والمجلدات؛ التي بـاتت تُضَـخُّ، وتُقـدم بسـخاءٍ إلى العقل العـربي المسـلم، وإلى المكتبة العربية الإسـلامية، ورقيـاً، وإلكترونياً؟ ولم نعد نـدري من هو القـائم أو من هم القـائمون على تلك المشـاريع، ما إذا كـانوا يهـوداً أم عـرب؟ (مثلاً المشروع الاستشـراقي لجـورجي زيـدان، مطلع القـرن العشـرين، وجـرجي زيـدان[1] هـذا كـان مستشـرقاً إنكلـيزي الأصل كـانت مهمته أولاً أن يعمل كضـابط اسـتخبارات مع

[1] (?) في كتاب عن جورجي زيدان، بعنـوان (جـورجي زيـدان في المـيزان) قام الكاتب بتقديم دراسة ساذجة، شعبية، سطحية، بسيطة، وعاطفية لم يتطرق خلالها، إلى البحث المُعَمَّق عن شخصية جورجي زيدان، واستسلم إلى الدعاية الـتي قـالت أنه لبنـاني، وهـذا غـير صـحيح أبـداً، فالثـابت أن جـورجي زيـدان هـذا كـان مستشـرقاً إنكليزيـاً عمل كضـابط ارتبـاط في الجيش الإنكلـيزي، الـذي عمل في الحملة على جنـوب السـودان عـام 1884م، وصار مستشرقاً، وقد قيل أنه (وفي سنة 1885 عاد إلى بيروت من مصـر! فـانتخب عضـواً في مجمع الشـرق، وهنـاك تعلم العبرانيـة، والسريانية، وأتقنهما وأضاف إليهما بعض اللغات السامية!!!.

الجيش الإنكليزي في جنوب السودان، ثم مكث في مصر أثناء الاحتلال الإنكليزي لمصر؛ ثم ظهر له أصل عربي! وأصبح لبنانياً، وهو ليس لبنانياً، ولا عربياً، بل هو مستشرق إنكليزي، وقد يكون يهودياً، كانت له مهامٌ في بلاد العرب والإسلام، أدَّاها بشكل جيد! وهو الذي أشرف على كتابة التاريخ العربي والإسلامي[1] من جديد مطلع القرن العشرين وتحقيق أكثر المخطوطات، وهو الذي كتب للعرب تاريخهم من جديد، وأدخل في عقولهم ما كان يريد، من تعميق الخلافات، وزرع

وقيل أنه في سنة1886زار جورجي زيدان إنكلترة وجال جولة مفيدة في متاحفها ومكتباتها الشهيرة.. وفي شتاء العام نفسه عاد إلى مصر؛ حيث طلب منه أصحاب مجلة (المقتطف) إدارتها، ثم أنشأ مجلة خاصة 1888أسماها (الهلال) وألف كتاب (تاريخ مصر الحديث)! وكان قد ألف أول كتاب 1885 بعنوان الفلسفة اللغوية. وله أول رواية وهي المملوك الشارد تُوفي 1914، له تاريخ مصر الحديث، تارخ التمدن الإسلامي، تاريخ العرب قبل الإسلام، تاريخ الماسونية العام، تراجم مشاهير الشرق، التاريخ العام، تاريخ إنكلترا، تاريخ اليونان والرومان، وكتاب أنساب العرب، الفلسفة اللغوية، تاريخ اللغة العربية، علم الفراسة الحديث، طبقات الأمم، عجائب الخلق، وكتاب تاريخ آداب العربية في أربع أجزاء واثنتين وعشرين رواية تدور حول تاريخ العرب من الجاهلية وفي الإسلام، منذ الفتوح إلى العصر الحديث؛ (عن مجموعة تراث الإنسانية، المجلد الثامن، دار الإرشاد الحديثة، القاهرة، بقلم محمد عبد الغني حسن).

والمتأمل يستطيع التعرف إلى حجم الخدمة التي قدمها أمثال جرجي زيدان للعرب المسلمين، هذه الخدمة؛ التي انحصرت أولاً في هدف أساسي وهو تبديد ثقة العرب، بالعرب والإسلام، وثانياً كانت تهدف إلى تحطيم الدولة العثمانية وتمزيقها؛ بداية ما سُميَّ بعصر النهضة، لقد شكلت كتب جرجي زيدان ومقولاته (الهارد) الذي انطلق منه أو انبثق عنه، الوعي الحديث للعرب المسلمين، الوعي المجهض، للمسلمين العرب، الذي كان مقرراً له أن يولد وهو ميت، وبالأحرى شكلت هذه الكتب الإعاقة بالفهم، والاضطراب، والتشويه في الرؤية، عند العرب المسلمين وقد شكلت هذه الكتب بداية النهاية بالنسبة للحلم العربي، الحلم الذي كان من المؤمل له أن يتحقق لو استمر بشكله ووضعه الطبيعي؛ هذا الحلم بالتغيير والنهوض والثورة، الهدف الذي كان يحلم به، وكل عربي يعلم أن نشاطات المستشرقين نهاية القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، كانت مقدمة وتمهيداً (لسايكس بيكو، المؤامرة الإستعمارية الصليبية اليهودية، التي حالت بين العرب وبين تحقيق حلمهم العظيم بالنهوض والتقدم) لقد أسهمت كتابات جورجي زيدان وتلامذته من عرب الجلد والعظم في تأجيج روح الطائفية والفئوية والإقليمية بين العرب المسلمين، لقد بذرت كتابات جورجي زيدان بذور الشر والعداء للعرب المسلمين عند العرب أنفسهم، بمختلف فئاتهم، وقادت بعضهم بعد تجهيلهم للعداء على العرب المسلمين.

قال أحد الكتاب في معرض شرحه للتصورات، أو السيناريوهات السياسية المطروحة، والمتوقعة للمنطقة العربية والمسلمين، إبان الحديث عن العولمة والشرق أوسط الجديد: إننا لو وقفنا، مطلع القرن العشرين، ننظر إلى المنطقة العربية، لما استطعنا أن نتخيل، في ذلك الوقت، أن العرب سينقسمون إلى اثنتين وعشرين دولة، وإلى هذا العدد الهائل من الشراذم والفئات، والكيانات، والأحزاب والتنظيمات المتناحرة؛ المرتبطة والتابعة، والتي تُدار عن بعد؛ وقال: كذلك فإننا لا نستطيع، ولن

بذور الطائفية، وتأجيج نار الحقد بين الفئات العربيـة، معتمـداً على التخلف بالوعي الذي كان يلف المنطقة والذي كان عامًّاً لـدى جميع الأطـراف في ذلك الـوقت؛ ودون أن ينتبه العـرب المسـلمون، كـان المثقفـون من كل المسـتويات يعتـدّون بقــراءتهم لكتب جــرجي زيــدان، في التــاريخ الإســلامي ويستســلمون لمقالته ولتحقيقاته التاريخيــة، لقد شــكلت مقولات جورجي زيدان (الهارد) بالنسبة لكل المثقفين العرب ولكن هذا (الهارد) كان وظل إلى الآن، يعزف ألحاناً نشاز غير

نستطيع في هذه الأيام أن نتصـور ما يُـراد للعـرب المسـلمين من تمزيق يقتضي تجزئة المجزأ وتفتيت المفتت، والعرب اليوم هائمون، لا يدرون ما يُفعل بهم، وما يُراد لهم، وكأن الأمر لا يعنيهم!

[1] (?) يقـول المـؤرخ الأوربي غـير اليهـودي، أرنولد توينـبي: في كتابه القيّم مختصر دراسة التاريخ، في الجزء الثالث، صفحة104، ما يلي (وإننا لنجد للتقويم المسيحي، وقت كتابة هذه السطور؛ السـيادة على جميع العـالم؛ ولا ينازعه مكانته سـوى منـافس خطـير! هو التقـويم الهجـري الإسـلامي (...!).

وقبل ذلك كان يقول..ومن قبيل المثال ولادة السـيد المسـيح، فلا يوجد دليل على ولادته بالفعل في الســنة الأولى من العصر المســيحي، بل إن عبــارة (العصر المســيحي) لم تُتــداول وتألفها الأســماع إلّا منذ القــرن السـادس الميلادي، وبـذلك لا يوجد برهـان على تأسـيس مدينة روما عـام 753 ق.م كما هو معروف، أو عن إقامة أول احتفـال أوليمـبي عـام 776 ق.م، وهو التـاريخ المتـواتر وأضـعف من ذلك ما يزعمه اليهـود، عن خلق الدنيا يوم 7 أكتوبر سنة 3761 ق.م(!)، أو ادعاء المسـيحية الأرثوذكسـية أنه تعالى قد خلقها يـوم أول سـبتمبر سـنة 5509 ق.م، أو زعم الأسـقف الإنكليزي الايرلندي، بأنها قد خلقت الساعة السادسة من ليلة 23 لأكتوبر 4004 ق.م.

وما يزال اليهود بعنادهم المعروف، ينسبون تقويمهم رسمياً على أساس تقديرهم بداية الخليقة).أ.هـ والواقع أنه لا وجـود لتقـويم ميلادي حقيقي، وإنما كان للرومان تقويم بدأه يوليوس قيصر، أخـذه عن المصـريين، وفي بداية القـرن السـادس منـه، حصل خلاف، واختلاف حـول التقـويم، فرفع ذلك الخلاف إلى الإمبراطور (غريغور) الذي كان شديد التـدين، فـأمر في حينه، بتقديم السنة سـتة أشـهر، من أجل مطابقة وقت جمع الضـريبة مع وقت جـني المحاصـيل وطبيعة المواسم الزراعية في أنحـاء الإمبراطورية الرومانية، كما أمر بتبديل تسمية التاريخ الروماني إلى التاريخ المسيحي! ومنذ ذلك الحين، صار يقال بدل ميلاد القيصر ميلاد المسـيح، وهكـذا صـار اسمها السنة الميلادية المسيحية، بدل السـنة الرومانيـة، وكـان ما يعـرف بالتـاريخ الغريغـوري. والملفت للنظر في هـذا السـياق هو أنَّ الشك لـدى الأوربيين، وخصوصاً الباحثين منهم؛ كان دائمـاً يحـوم حـول الكتب الدينية خاصة التوراة، والإنجيل، عن نسخها المتعددة، والمتباينة، والمتناقضة، في كثير من الأحيان عن صحتهما ومـدى مصـداقيتهما، كونها كـانت قبل عصر الكتَابـة، أي قبل التـاريخ المـدون، ولكنَّ هـذا الشـك، لم يطل بحـالٍ من الأحـوال مقـولات سـقراط أبـداً، ولا كتب أفلاطـون الثلاثـة!، ولا أعمـال أرســطو، ولا حــديثهم المبكر عن الديمقراطيــة!!!، وينظر إلى تــاريخ الفلسفة اليونانية عمومـاً على أنه ماهيـات غـير قابلة للنقـد! وذلك ربطـاً بـاليهودي اسـبيبونوزا الـذي تمت له الدعاية اليهودية غـير المباشـرة؛ إلى آخر ما هنالك من سلسلة للفلاسفة الذين كـان أكـثرهم من اليهـود، أو أن أكثرهم كانوا قد تفلسفوا بـوحي من التـوراة اليهوديـة، والتلمـود، والـذين

مقبولـة، ولا هي منسـجمة ولا هي صـحيحة ولا هي منطقيـة، ســببت للعــرب والمســلمين المآســي، والمحن والخلافــات الطائفية والحــروب!) فهل كــانت مهمة جــرجي زيــدان هي إغراق العرب المسـلمين في المآسي والمحن والأحقـاد وإلى متى سيبقى العرب المسلمون، رهينة مقولات جورجي زيدان وأمثاله والكتب التي ربما كان كاتبهـا، أو مترجمها أو محققهـا، لا يدري ما بداخلها لا يعرف شيئاً عن أهميتها إن كانت هامــة! أو عن لزومها إن كــانت لازمــة، أو عن ضــرورتها إن كــانت

عملـوا من خلال فلسـفاتهم، على مد الجسـور، لتعميم قواعـد، وأصـول الفكر اليهودي في العالم، منذ مطلع القرن الخامس عشر.

كما عملوا على تأصيل هذا الأمر، في العقل والفكر والوجـدان البشـري العـالمي لـدى الشـعوب، ومعـروفٌ كيف لاقت تلك الفلسـفات الـدعم، والدعاية الجمة، من إعلام وإعلان مكثف، لنشرها في أنحاء العــالم وعلى مــدى قــرون من قبل المؤسسـات الإعلامية والثقافية اليهودية العالميـة، ودوائرها المنتشرة في أنحاء العالم؛ وإعادة التأكيد عليها، وذلك (لتبشـيم) معلوماتها وتثــبيت مقولاتهــا، لتصــبح غــير قابلة للتغيــير، أو التبــديل، أو التصحيح؛ إنّ الكتابات الأوربية عموماً عن التاريخ القديم، يمكن وصفها على أنها كتابات موسَّعة بشـكل غـير طـبيعي، وهـذا أكـبر دليـل على أنها كـانت قد كتبت لاحقـاً وحـديثاً، أُعـدت ورُتبت ونُظمت في أواخر القــرن التاسع عشر،،وأنها نسبت إلى الماضي السحيق! وأكبر دليل على ذلك هو إنَّ تــاريخ الفلسـفة اليونانية خلــوٌ تمامــاً ومطلقــاً من ذكــر للأنبيــاء أو المرسلين، فكيف يغفل الحكيم سـقراط؛ وتلميـذه أفلاطـون، وتلميـذه أرسـطو، وغـيرهم من الفلاسـفة اليونـانيين، كيف يغفلـون عن ذكر نـوح، وإبــراهيم، وإســماعيل، أو إدريس، أو إسـحاق، أو يعقــوب أو موســى، أو هارون، أو لوط،، أو ذو الكفل، وغيرهم وغـيرهم من الأنبيـاء. ويؤكـدون أنَّ سقراط عـاش ما بين (450-399ق.م)، وأنَّ أفلاطـون عـاش ما بين(428-347ق.م)، وأنَّ أرسطو عاش ما بين(384-322ق.م) ويسهبون في تأريخ الفلسفة اليونانية، والتاريخ اليوناني الذي تمّ تفصـيله وفق مسـطرة الإدعاء اليهودي؛ وعلى مقاس التوراة اليهودية!

فهل قرأ أحدٌ كتاب (الجمهورية لأفلاطون) هل لاحظ أحدٌ أن هذا الكتاب لغته الحديثة تؤكد أنه وضع في الثلاثينيــــات أو الأربعينيــــات من القــــرن العشرين! ولعمري فإنَّ المرء لا يستطيع تخيُّل الطريقة التي وضِّــبتْ فيها هــذه المقــولات، وهي مكتوبة بأســلوب ما بعد الحداثــة، أو بلغة ما بعد الحداثة، إنّ كتب أفلاطون عبارة عن اخـتراع يهـودي خـالص، وفيه الكثـير من مقـولات الفكر السياسي الـتي تنتمي للعصـور المسـيحية الوسـطى، وهو يتحدث بشكل غير مباشر عن نظام سياسي أحدثة الإسلام، ولم يكن معروفاً قبل الإسلام أبداً، لأنه كان سلوك الرسـول العـربي أولاً، ثم إنتقل إلى أن أصبح سياسة الملوك والرؤسـاء وقبل ذلك لم يكن معروفـاً أبـداً، مثل مقولة (المواطنـون سـواءً أمـام القـانون)، فالرسـول هو أول من قــال: «الخلق كلهم عيــال الله وأقــربهم إلى الله أنفعهم إلى عيالــه»، ومقولة (يجب العمل على إيجــاد وسـيلة لمنع وعــدم وصــول أصــحاب الكفـــاءات المعدومة والمـــاكرين، لمنعهم من الوصـــول إلى المناصب العامــة، ويجب إعــداد أفضل الرجـال ليكونـوا حكامـاً وأمـراء لمصـلحة الجماعة) المذكورة في كتاب (الجمهورية لأفلاطون).

هذه المقولات بقضها وقضيضها مسروقة من الفكر السياسي الإسلامي، إنَّ علم السياسة كما هو معـروف كـان وليد العصر الإسـلامي الأول، وقد أنبثق أولاً عن سـلوك الرسـول الأعظم ، عن إدارته ، للدولة الأولى

ضرورية دينياً ووطنياً، إلى درجة أن الكتب العظيمة، وتراث الأمة المجيد، قد مُسِخَ وتحول على أيدي أصحاب المصالح، التجار الأميين، غير الواعين لمصالح الأمة الدينية والوطنية الصحيحة، فمُسِخَ وتحول إلى مجرد كتب شعبية تافهة، مغلوطة مغشوشة محشوة بضروب الأهواء الطائفية المدمرة والتي باتت تعرض إلى جانبها وتباع معها كتب الأبراج والحظ والطبخ والتسالي والمتاهات، والكتب الهادرة، والمستهلكة للأوقات والأعمار؛ إن بعض محققي الكتب يغدقون على

التي أقامها للمسلمين، في المدينة، إن السياسة كانت في البداية، علم محاكاة لسلوك الرسول العربي الأمي في تلك الفترة، بينما لم تعرف المجتمعات البشرية سابقاً، ولم تصل إلى هذا المستوى من السلوك السياسي، لقد كانت المجتمعات البشرية، قبل ذلك، مجتمعات بدائية، في شكل وأسلوب حكمها وفي سياساتها! وهناك فرق بين (مدينة الدولة) و(دولة المدينة) إنَّ الرسول قد أقام للمسلمين، للأمة، للوطن الموجود، دولة في المدينة، بينما ما كان يحصل قبل ذلك في الدول والممالك والإمبراطوريات المعروفة،هو العكس تماماً، حيث كانت تقوم الدولة ثم يُضم إليها الشعب بالقوة! (الإمبراطوريات) والأمر لا يحتاج إلى براهين، ولا إلى كبير عناء للإثبات.. فتحية عربية للإمام البخاري العربي الأول، لقد كان الإمام البخاري بحق أباً للتاريخ الإنساني عامةً فقبل البخاري، كان التاريخ البشري، عبارة عن أساطير، وحكايات وادعاءات، وخرافات، وأخبار آتية من الماضي لا ضابط لها، ولا يمكن بشكل عام التفريق بين ما هو صادق من تلك الأخبار، وبين ماهو غير صحيح منها، بين ما حدث فعلاً وبين ما لم يحدث، بين ما قيل وبين ما لم يُقال، إن عبقرية الإمام البخاري رحمه الله تعالى تكمن في كونه أول من أشار إلى ضرورة وضع ضوابط وشروط ومقاييس وموازين أو مسطرة، نعرف من خلالها كيف نفرق بين ماحدث فعلاً وبين ما لم يحدث، أو بين ما قيل، وبين ما لم يُقَل.

إن هذه الفكرة، غيرت وجه التاريخ والحياة العقلية البشرية، وأثرت تأثيراً بالغاً في الحضارة الإنسانية، والفكر البشري، ودفعته نحو الكمال وقبل أن يكتشف البخاري، أو قبل أن يشير البخاري أول مرة إلى ما سميّ علم مصطلح الحديث، وفي ما بعد علم مصطلح التاريخ، كان الفكر البشري يسبح في الأوهام والأساطير، لم يكن الفكر البشري بنّاءً، لم يكن الفكر البشري قادراً على الوقوف، لم يكن هناك ذاكرة بشرية حقيقية، ولم يكن هناك وعيُ أو انتباه، أو يقظة لضرورة التحقق من التاريخ، لأن الوعي والمعرفة والعلم، هو الحامل الحقيقي للذاكرة وبالتالي فإن البخاري هو أول من أشار في العالم، وأول من نبه، وأول وضع شروطاً أو مقياساً أو قاعدةً، لصحة الأخبار الآتية من الماضي؛ وهنا تكمن أهمية عمل وإنجاز الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وفضله على الفكر البشري عامة، الأمر الذي لم يتنبه إليه العرب، ولم يلتفتوا إليه مطلقاً، ولم يتابعوه فيه، إذ كان من المفروض أن يقوم علماء العرب والمسلمين، بمتابعة هذا الإنجاز العلمي للإمام البخاري، وعدم الاكتفاء بتمضية وقتهم وتأمل كتابه الثمين والذي كان قد سماه، ويجب الانتباه إلى اسم الكتاب الأساسي وهو(ما صح عند البخاري من حديث رسول الله).

وقد صُحفَ اسم الكتاب، فصار يدعى صحيح البخاري! وهذا فيه تجنٍ على مراد الإمام البخاري رحمه الله، إن من المهم بمكان الانتباه إلى اسمه، أو عنوانه الأساسي، الذي وضعه البخاري بنفسه؛ كان البخاري

أنفسـهم صـفات لا نـدري كيف يجـرؤ أحـدهم على انتحالهـا، وأكـثر الكتب العربية والإسـلامية الـتي تنتشر في هـذه الأيـام منسـوخة مكـررة أو منتحلـة، أو مترجمة أو هي عملية إعـادة جمع للأفكار والمعلومات في خلطات جديـدة لإعـادة تقـديمها بعنـاوين وأغلفة ملونة جديـدة لشد القـارئ طبعـاً ليس لنفع القارئ بل وربما كان الدافع سياسياً تخريبيـاً معاديـاً[1] بغـرض الهبوط بالوعي العربي إلى أدنى مستوى أو كان تجارياً يهدف إلى الربح والربح فقط أو كان الهـدف للوجاهة وإبـراز العلمية

عالمـاً بحـق، وأسـتاذاً في علمـه، ويحـترم علمـه، ويعمل لله تعـالى، لا لمنصبٍ أو لجاهٍ أو لعـارض دنيـوي، لأن هـذا الكتـاب النفيس، بالمقـاييس العلميةً، كان عبارة عن تطبيقات قام بها الإمام البخاري، لتجسـيد نظريته العظيمة في التـاريخ، بينما كـان تـاريخ ما قبل التـاريخ جزافـاً، أو يتخلله الكثير من التجديف أو التزييف ما يعزز ذلك، هو القول بأنَّ الاحتمـال واردٌ بأنّ السيد المسيح الذي في القرآن الكريم، هو غير السيد المسـيح الـذي في إنجيل القـديس بولـوس، هو أنّ لفظ (المسـيح) عـربي قـديم، وهو آرامي كنعاني، وكان هذا اللفظ يعني (المتنبئ) وكل متنـبئ كـان يقـال له مسيح، ولذلك كـانت قبائل بـني إسـرائيل من العـرب العاربـة، باسـتمرار تنتظر مسـيحاً؛ أو هي موعـودة بمسـيح دائمـاً، ومن هنا جـاءت أسـطورة (المسـيح المنتظـر!) وهي أسـطورة قديمـة، وقديمة جـداً، نشـأت عند القبائل العربية العاربة، أو بني إسرائيل في بلاد الشام والعـراقين، والـتي كانت كثيراً ما تأتيها الأنبياء المرسلين من الله سبحانه وتعـالى، في شـتى البقـاع، وباسـتمرار، فتعـودوا على انتظـار نـبي، أو مسـيح. ونشـأت هـذه الأسطورة بينهم، ثم سرقها اليهود لاحقاً، أبـان انفلاتهم من الأسر العـربي والعبودية للعرب، نعم سرقوا هذه الأسـطورة، مع ماسـرقوه من الـتراث العربي لبني إسرائيل العرب، وادعوه؛ وصاروا ينشرونها! وكـذلك أدخلوها إلى عقول عامة المسلمين، بصورٍ شتى، وصار يقال، عند المسـلمين عن مجيء مسيح دجـال؛ قبل المسـيح المنتظـر، مع أنّ القـرآن الكـريم ينفي العودة بعد الموت عن كل الموتى، إلى يـوم البعث، اليـوم الـذي سـيبعث فيه الجميع، قال تعـالى عن سـيدنا يحي: ﴿ وَسَـلَامٌ عَلَيْـهِ يَـوْمَ وُلِـدَ وَيَـوْمَ يَمُـوتُ وَيَـوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مـريم: 15] وقـال تعـالى: ﴿ ذَلِـكَ عِيسَـى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم: 34].

إن زمن الآراميين بعيد جـداً وهو أبعد بكثـير من زمن الاحتلال الرومـاني والفارسي لأرض العرب، هذا من جهة، ومن جهة ثانيـة، فـإن الاكتشـافات الآثارية تثبت، أن كثيراً من الآثار واللقى تشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى وجود المسيح في زمن أقدم بكثير من زمن الرومان، كما أشار إلى ذلك، فـراس السـواح، في كتابه لغز عشـتار، من أنه عـثر قـرب الرقـة، على ضفاف الفرات، على قبر يعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، وقد عثر فيه على الصـليب، وعلى رقم مكتـوبٌ عليها أدعية وقصة للمخلص المسـيح، وكذلك قصة مايا مع ابنها بوذا في الهند، ووجود الصليب على بـاب الهـرم في وادي النيـــل، إن كل هـــذا ربما كـــان دليلاً على ما ذهبنا إليه من أن المسـيح الـذي في القـرآن الكـريم، ربما كـان غـير المسـيح الـذي كـان القديس بولوس قد كرز به. إن النصارى العرب الأصـلاء، الـذين كـانوا ولا يزالون، تـربطهم بـوطنهم رابطة العروبة والإيمـان بالله الخـالق الـرحيم، والتي لا يمكن أن تنفصم أو أن تنحل أبداً، مع المسلمين العـرب الأصـلاء، الذين يحسون، ويدركون المعنى الحقيقي للعروبـة، والـذين يؤمنـون بالله الخالق الرحيم، إن النصـارى والمسـلمين العـرب بـوعيهم على الحقيقـة، واتحاد هممهم، بعودتهم للنبع الواحد، يمكن أن يندحر أعداء العـرب، قـال

للــبروز والصــدارة، وتحقيق المكاسب والأهــداف، الخاصــة. والواقع أن المكتبــات العربية في هــذه الأيــام تحفل بــآلاف الكتب في مختلف المواضــيع، مغفلــة، وهي لكتَّاب ومحققين مجهولين لانعـرف عنهم شـيئاً، أو هي بأسـماء عربية إسـلامية مســـتعارة، (مثل المؤلف الـــذي ســـمى نفسه أبو موسى الحريري، فشنَّ هجوماً على الإسلام والعرب، بحجة النقد، ثم كشف مؤخراً عن اسمه في بـيروت، وإذ لا هو عـربي؛ ولا هو مســلم!) وأمثاله كثــيرون في دنيا الثقافة والإعلام، والإعلان،

تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: 82]، فلمـاذا لا ينطلق الحوار العربي العربي أولاً؟

[1] (?) هنــاك عــدد هائل من الكتب المترجمة من اللغــات الغرْبِيَّة إلى اللغة العربيـة، وكتبٌ صُـنعت، وأعـدت ووضـبت، بأسـماء عربية إسـلامية، وهي تحمل في طياتها عـــداءً ســـافراً للعروبة والإســـلام، ومع ذلك فقد تمَّتْ ترجمتها، وتم طرحُها عبر مؤسسات للنشر عربية، ليتلقفها القارئ العربي على أنها موثوقة! دون أي إشارة إلى مثالبها، دون نقدها، دون الرد عليها، دون بيــان حقيقتها للقــارئ العــربي، كل ذلك كــان نتيجة غيــاب الــوعي بالمصلحة الوطنية، ونتيجة غياب روح الإحساس بالمصــلحة الوطنية العُليا للأمــة، وافتقــاد الشـعور بسـيادة مصـلحة الأمة عند كل مـواطن مسـلم عـربي، (بينما كـانت المؤسسـات الإعلامية في كافة الـدول العربية تركز على مصلحة وأمن الحكومـات؛) راجع كتـاب الاستشـراق لإدوارد سـعيد، ت:كمــال أبو ديب مؤسسة الأبحـــاث بـــيروت.ط5 ،1995راجع كتـــاب التناقض في تواريخ وأحداث التوراة إعداد محمد قاسم محمد جامعة قطر 1992،.

كذلك فإنَّ الدكتور أبو العلا العفيفي، في تحقيقه لكتاب (فصــوص الحكم) لابن عربي، ا استغرق في عمله الـدؤوب هـذا أكـثر من خمسة وعشـرين عاماً، بدأ به 1924، وانتهى منه 1947، وأنه من أجل تحقيق كتاب واحد لابن عربي، قـرأ جميع كتب ابن عـربي! الـتي تُعد أكـثر من مئـتي كتـاب؛ ولكل كتــاب عــدد من المجلــدات، وأنه اطلع ، وقــرأ كل ما كتب عن ابن عـربي في العـالم، سـواءً الكتب الـتي كـانت مع ابن عـربي، أو تلك الـتي كــانت تنتقد ابن عـــربي في مختلف اللغــات، وأنه رحل وســافر إلى كل الأماكن التي كان قد رحل إليها ابن عـربي، من اسـبانيا إلى المغـرب إلى تـونس إلى مصر إلى الحجـاز إلى الشـام ثم إلى (قونيـه) في تركيـا، وأنه من أجل ذلك كـــان قد ســـافر إلى الهنـــد؛ وأمريكا وبـــاريس ولنـــدن، واسطنبول بحثاً عن المخطوطـات، والكتب، ولرؤية البـاحثين من مختلف المجالات، والإطلاع على وجهات النظر، كان ابن عربي همه طوال خمس وعشرين عاماً...! وهو من أجل ذلك قام بالاطلاع على الصـوفية من ألفها إلى يائهــا، من منابعها الأولى إلى العصر الحـديث، متتبعــاً كل متعلقاتهــا، وكان أبو العلى العفيفي، أساساً دكتوراً في الفلسفة! فخرج على العالم، بعد ذلك بكتاب في غاية الأهمية، محققاً وشـارحاً ومعلقـاً فيه على كتـاب ابن عربي، والحقيقة أن كتابه هـذا كـان أروع من كتـاب ابن عـربي ذاتـه؛ بحيث أنك تفهم منه الصـوفية، كل شـيء عن الصـوفية، وتفهم كتـاب ابن عربي، في حين أنك لو قرأت ابن عربي، فربما أنك لن تفهم شيئاً!

وكان صبري الأشوح قد اسـتغرق في وضع كتـاب (الإعجـاز والعبقرية في القــراءات القرآنيــة) صـفحاته أقل من 300 صـفحة ولكنه اسـتغرق في صنعه أكـثر من عشر سـنوات! إنما الحقيقة أنه كـان كتابـاً غاية في العلم

ناهيك عن التحـول المـذهل الـذي طـرأ على العقل العـربي، وعلى اهتماماته[1]، وهمومه الحياتية مطلع الألفية الثالثة.

والفائدة، كذلك فقد قرأت بحثاً (حول تفسير البغوي وتاريخ التفسير) ذكر فيه صاحبه أنه استغرق في إعـداده أكثر من خمسة عشر عامـاً، الحقيقة أنني شعرت بـأن الكـاتب في هـذا الكتـاب كـان همه وكـان يريد في بحثه تقديم الفائدة للقارئ، لذلك كان كتابه كتابـاً رائعـاً فعلاً، والآن، وفي هـذه الأيام، فإن كتباً كثيرة تطـرح في الأسـواق العربية في كل يـوم، ممهـورة بأسماء مشهورة، على أنها محققة وموثقة ومعلق عليهـا، والواقع أنه ذلك لم يبذل فيها أي جهد! إن تحقيق كتاب كبير مثل كتاب (إحياء علوم الـدين للغـزالي) أو (شـرح صـحيح مسـلم للنـووي) أو كتـاب (تهـافت الفلسـفة للغــزالي) بــات لا يســتغرق معهم إلا بضــعة أيــام، يشــرحون فيه بعض المفردات، على الهامش، ولذلك فإن الكتب التي صـنعت قبل ألف سـنة، فهي تمر إلى العصر الحـديث بكل محتوياتهـا، بقضـها وقضيضـها، بما فيها من أحـاديث ضـعيفة؛ وقصص خرافية وأسـاطير وروايـات توراتية الأصـل، وحتى الأشـياء غـير العلمية فإنها تمر إلى عقـول وأفكـار الأجيـال الحديثة والمعاصرة من العرب المسلمين، على أن كـلّ ما في هـذه الكتب أشـياء مقدسـة؛ صـحيحة، لا يأتيها الباطـل، وأنه يجب التمسك بهـا؛ دون نقـاش، والحقيقة غـير ذلك تمامـاً لأنه ليس هنـاك شـيء مقـدس في الـدنيا إلا القرآن الكريم، كلام الخالق عز وجل، وأحاديث رسوله الكـريم، الأحـاديث الصحيحة، ولا شيء غير ذلك.

فالدين الصحيح يحضُّ على إعمـال العقل والتفكر ويجب عـدم قبـول تلك الكتب بكل ما فيهـا، بقضـها وقضيضـها، بل يجب تنقية الـتراث العــربي العظيم مما لحقه من الأوهام التوراتية، ثم أنّ هذه الكتب يطلع عليها غير المسلمين فيزدادون بعداً عن الحقيقـة، ذلك لِما تحتويه بعض تلك الكتب، غـير المحققة تحقيقـاً علميـاً من آثـار يهودية الأصـل، هـذه الكتب يقـوم بتحقيقها أشـخاص أغـرار مبتـدئون شـعبيون، يتعـاملون مع تـاريخ الأمة المجيـد، مثل ما يتعـاملون مع القصص الشـعبية! وهم بالأســاس غــير جديرين بكتابة موضوع إنشاء، أساساً لا نعرف إذا كانوا مـوثّقين علميـاً؛ لا أحد يعــرف عنهم شــيئاً، أو اســماء عملت الدعاية على تضــخيمها؛ إن الموضوع فيه مصلحة وطنية ودينية عُليا، ويجب أن ترعـاه وتراقبه هيئـات وطنية ودينية، تقوم على حماية التراث العربي الديني والتاريخي والـدفاع عنه، هدفها الحفاظ على التراث المجيد للعرب المسلمين، الـتراث الـذي يجب أن يُصان، وأن صيانته؛ تكون في توعية الناس دائمـاً، ورفع مسـتوى الفهم عندهم، وعن طريق فضح وكشف ممارسات أولئك المعادين الـذين يعملون على الإساءة للتراث العربي والإسلام.

والواقع فقد ظهـرت في الآونة الأخـيرة، وضـمن الخطط والـبرامج، الـتي تعمل على نشر الإســلام الأمــريكي، في مقابل الإســلام العــربي؛ فإنه ظهرت بعض العناوين لكتب إسـلامية عنـاوين إسـلامية، وأسـماء مـؤلفين مسـلمين في مواضـيع مختلفـة، في بعض العواصم العربيـة، ولـدى بعض دور النشر العربية؛ وهي ملونة، وأنيقة، وجذابة، ومغريــة، ورخيصة الثمن! وقد زينت واجهات المكتبات العربية؛ وهي للكبار والصغار؛ وفيها مواضــيع

جميع الكتب السماوية كانت بلسان عربي مبين

فالقرآن الكـريم كـان يعلمه رب العـالمين لمخلوقاتـه، أي نَشَرَهُ وجعله لهم علامات في هـذا الكـون قبل خلق الإنسـان؛ إذ لا قيمةَ البتة للطريق بـدون علامـات تسـمي معالمه وتـدل وتشير إلى الاتجاهات وتوضح المسافات ما مضى وما هو آت، ولم يُنَـزِّل رب العـالمين على السـماوات والأرض وما بينهمـا،

مدروسـة؛ بحيث أنها كـانت سـهلة التنـاول، مبسـطة شـعبياً؛ وعُملت لها عالميـاً الدعاية اللازمـة! الفضـائيات، والصـحف، والإذاعـات الدوليـة، والوعاظ على المنابر، دون أن يدروا، أنهم قد أسـهموا في هـذه الدعايـة، وهذه الكتب تباع بـأرخص من الكلفـة؛ والمـدهش أن هـذه العنـاوين يبـاع منها ملايين النسخ، في الـدول العربيـة، في حين أنَّ أفضل الكتب العربية المفيدة في هـذه الأيـام، لا تحقق مبيعـاً يتجـاوز500 نسـخة سـنوياً وذلك على مساحة البلاد العربية قاطبةً.

[1] (?) كتاب الطبخ (الشيف رمزي) طُبع منه، في بـيروت، في أثنـاء الهجـوم الأمـريكي على العـراق، على حد علمي، الطبعة الأولى 50.000 نسـخة، بيعت جميعها في البلاد العربية، ونفـذت خلال السـتة أشـهر الأولى!!!، ثم طبع هذا الكتاب عدداً لا يُحصى من الطبعات بمعـدل مئـات آلاف النسـخ، وإلى الآن لا تـزال الطبعـات مسـتمرَّة، وصـار له أجـزاء وملحقـات...وقد شاهدتُ بأم عيني أثناء فترة الهجوم الأمريكي على العـراق، شـاهدتُ في أحد معارض الكتب العربية، أسـرة كبـيرة عربية مسـلمة، تخـرج من بـاب المعرض وكانت كل سيدة من أفـراد هـذه الأسـرة تحمل نسـخة من ذلك الكتاب، ذي الحجم الكبير المميز! (مع أنّ الطباخين المهنـيين، والسـيدات في البيوت، كلهم قد أعابوا ذلك الكتاب وقالوا أنه ليس عملياً، وإنه كتـاب غير مفيد للطباخين والطباخات!) ومع ذلك فقد ضـرب رقمـاً قياسـياً في مبيعات الكتب العربية.
بينما كتب هامـة، تبحث أمـوراً في غاية الأهميـة، وتتعلق بمصـير الـدين، الوطن، العرب، والإسلام، باتَ يُطبع منها، في أول طبعة، على أكثر تقدير ألف نسخة، فإذا وُزِّع منها في السنة الأولى، خمسـمائة نسـخة، في كافة أنحاء بلاد العرب والإسلام، عُدَّ هذا الكتاب كتاباً ناجحاً (عدد العرب يقرب من ثلاثمائة مليون)! إنَّ هذا الوضع يعكس بوضـوح حالة الإنسـان العـربي مطلع الألفية الثالثـة، حالة المواجهـة!! والأهم من كل ذلك أن الحـرب قد أصبحت تشنُّ من طرف واحـد، ولا يوجد من المسـلمين العـرب الأصـلاء، في الـوقت الحـالي، من يفهم، أو يعي، فيقـوم بتفنيد تلك الادعـاءات الباطلة، والأساليب الخسيسة المتبعة والتي لاهمّ لها إلاّ الـربح السـريع، لا تقف أمامها أي حدود؛ لا دينية ولا دنيوية!
فمثلاً تـروج الإعلانـات في كافة أنحـاء العـالم للماكياجـات، في المجلات الأنيقـة، وفي التلفزيونـات، وفي اللوحـات الكبـيرة الـتي توضع في نقـاط اسـتراتيجية، في الشـوارع العامـة؛ تعـرض نمـاذج من الكائنـات الغريبـة، وجوه وأشكال غير مريحة، من الشـاذين! والمرضى النفسـيين، والبلهـاء، والتافهين، ذوي السمات الفاقـدة لكل معـنى إنسـاني حقيقي، لا قيَّم، ولا مبادئ، ولا مثل، فقط سمات غرائزية حيوانيـة، إن الإعلام العـالمي يتعمد تعميم هكـذا أشـكال ليقـود الأجيـال إلى الحظـيرة اليهوديـة، بعد طمس معالمها الأساسـية ثم إلى التهلكـة، وإلى المصـير السـيئ، إلى أدنى مستوى، لكنها تفـرض على النـاس، ليعتـادوا عليها وتركز هـذه الإعلانـات الخاسرة على القسم السـفلي؛ وعلى الـدوافع الجنسـية لأشـباه الـذكور،

لم ينزل إلا ديناً واحداً[1]، وهذا هو معنى قوله تعالى: [illegible] لأن (الـواو) كما هو معلـوم فإنها في اللسان العربي المبين، حرف عطـفٍ وتفيد التـوالي والتتـالي، فالنزول تلوّ النزول، وهذا مـدلول لفظة (وكـذلك) لتـدلنا على التوالي والتتالي؛ والتشـابه والتماثل والتطـابق، وأنْ ليس فيها تَغَايُّر ولا تبديل؛ فهو من مشـكاةٍ واحـدةٍ، في رسـالات وكتب، وصحف، وألواح وزُبُرْ، ثمَّ وصفه الله سبحانه وتعالى وَصَفَ ما نزّلَهُ من السماء بقوله: [illegible] قـال تعـالى: [illegible] [المائدة: 43]، وقال تعالى: [illegible] [الأنعام:57]، قال تعالى: [illegible] [القصص:70]، فمن هاهنا كان الحكمُ عربيــاً، أو أنّ الحكم اتصف بكونه عربيــاً، لأنه من الله سبحانه وتعالى.

وأشـباه الإنـاث! وتـدفع إلى الاسـتهلاك (ما يـؤدي إلى انحطـاط الأخلاق والمبادئ والقيم السامية والمثل الرفيعـة، ويقـود الجيل إلى حالة الـدناءة وحالة انعدام النخوة، وتلاشي الشـرف عند المـواطن، ما يـؤدي إلى تتفيه حياته وتدني مستواها؛ واقتراب مستواه من البهائم التي تعيش عادةً وفق متطلبات الغرائز والدوافع) أو حمى الشهوة، أو حمى الاستهلاك المفتوح، الذي يجب أن لا ينتهي الدافع إليه أبداً، ألوف الحاجات.

ألوف المواد، ألوف الأجهزة؛ والموديلات والأشكال المختلفة، حتى غدت الإعلانات الاستهلاكية بحراً مالِلجته قرار، هدفه القريب والبعيد؛ هو إغراق المواطن الإنسان، الـتي لم تعد تحترمـه؛ وتحويله من كونه كيانـاً عظيمـاً، نفخ فيه الله جل جلاله من روحه إلى مجرد كائن حي، مثله مثل الجـرادة، تأكل كل شــيء ولا ينتج عنها إلّا الخـــراب! فهل وضع ووظف العـــرب العظمـاء العقلاء النبلاء الإخـتراع الجديد (الأتمتة والأنـترنيت) في المكـان المناسب من حياتهم وحياة أجيالهم؟ هل تأكدوا أن الأنـترنيت ليس سـوى جهازٍ وأداة اتصال وتوصيل المعلومات سريعة جداً وأنه لا يمكن أن يكـون بديلاً عن الكتاب والمعلم، وأن الأنترنيت لا يمكنه تلقين وتعليم وتربية أحد أبداً؛

بل من أجل اكتسـاب التربية والأدب والقيم الأخلاقية والنبيلة والسـامية، من أجل تلقينها للأبناء وتشريبها للأجيـال يجب بـذل الجهد الكبـير والكثـير والثمين خصوصاً في هذه الأيـام الـتي أصبحت فيها تلك الأجهـزة أسـلحة فتاكة ومــدمرة إذا لم ينتبه الشــباب العــربي إلى وضــعها في حياته في المكـان المناسـب، وهي موظفة الآن من قبل أعـداء العـرب المسـلمين للقضـاء عليهم بعد حين قضـاءً مبرمـاً وليصـبح وطن العـرب والمسـلمين وطن عبيد لا وطن أسـياد، ولو فكر الإنسـان العاقل للحظـة، فقـط، فإنه سيدرك أن هذه المعروضات، جميع هـذه المعروضـات، كـان الإنسـان في السابق، في غنىً عنهـا، ودليل ذلك هو أنها في حـال غيابها فـإنَّ الإنسـان يستطيع متابعة حياته بشكلٍ أفضل.

[1] (?) والغـريب أن يُفهم هـذا الأمر على نحـو آخـر، الغـريب فعلاً أن يُصر البعض على حرف الكلم عن موضعه، فيقولـون بتعـدد الأديـان السـماوية، ويتوهمـون وهمـاً يقصـدون الكتب السـماوية! لاشك أن الكتب السـماوية متعددة، ولكن الدين واحد وهو الإسـلام لا غـير. قـال تعـالى: [illegible] إِنَّ الـدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ [illegible] [آل عمران: 19]

وجاء في المعجم

وجــــاء في المعجم: (أنّ الله ســــبحانه وتعــــالى أحكم الحـــــــاكمين، وهو الحكيم، وأنَّ له الحكم، والحكَمُ، والحكيُم والحـاكمُ من أسـماء الله سـبحانه وتعـالى وهي من تجليـات أفعاله عز وجــل، والحكم يفيد القــدرة والعلم، وإتمــام صــنع الأشــياء، وإتقانهــا، والحكم القضــاء بالعــدل والحــاكم منقذ الحكم، وحَكَمَ الرجل إذا بلغ النهاية في معنـاه؛ وتفسـير قوله تعالى: □ □□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□ □□□ □□□□□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□ □
[هـــود: 1] أي كتـــابٌ أحكمت آياته بـــالأمر والنهي والحلال والحــــرام، ثمّ فصــــلت بالوعد والوعيـــد، وأحكمه منعه من الفساد، وحَكَمَ: الثقة) انتهى كلام المعجم.

ثمّ إن الله سبحانه وتعالى وصف حكمه بأنه عربي، فقال: □ □□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□ □ وهذه الآية الكريمة دلالة على الامتــداد والاســتمرارية والســياق الواحد والخط الواحد منه وإليه ســبحانه وتعــالى، والصــبغة الواحــدة والغاية الواحــدة والذات الكلية الواحـدة، وهـذا كله دلالة معـنى لفظة (عـربي) من القرآن الكريم، قال تعالى: □□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□ □ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □ □□□□□□□□□ □ □□□□ □□□□□□□□□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□ [الأحقاف:12]، وقـال تعـالى: □□□□□□ □ □□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□ [يوسف: 2]. فكانت لفظة (عربيـاً) في هـذه الآية الكريمة متلازمة مع العقل وهي لزوم العقل، وهذا دليل على ضـرورة تلازم العقل مع التَعَـرُّب وأنه لا عقل إنسانياً بلا (تَعَرُّبٍ حقيقي) الأمر الهام جـداً الـذي على العالم، كل العالم، أن يفهموه الآن

فما معــنى صــيغة (عــرب ومشــتقاتها)؟ وقد وردت في القرآن الكريم في 22آية، ووردت منها (أعراب) في 10آيات، فما معنى عرب، ولمـاذا وصف الله تعـالى بها قرآنـه، وحكمه ولسـانه وملائكته وأهل جنته والـروح الأمين، والمنـذرين، وقد أكد لنا سبحانه وتعالى، على أن اللسان العـربي المـبين، كـان في زبر الأولين، وإنه في أم الكتــاب، وكــذلك فقد جعل الله □ لفظة (عـرب) قرينة العقـل، والحكم الإلهي، والعلم، والإبانـة، والوعيد الإلهي, والتقــوى، والــذكر، وأنه غــير ذي عــوج، دلالة على التفصـيل، والهـدى والشـفاء، فما معـنى لفظة (عـرب) ولمــاذا عــرب؟ وهي هنا بالتأكيد لا علاقة لها بكل النظريــات السياسية المعروفة!

لفظة عرب في القرآن الكـريم ليس المقصـود منها اللغة العربية وليس معناها أنّ القـرآن الكـريم كـان قد نـزل باللغة العربية كما فهمها الجاهلون!

وليس فهم معـنى لفظ (عـرب) ولفظ (أعـراب) ليس كما ذهب إليه المفسرون الشعوبيون ومن نهج نهجهم؛ فقـالوا: أنّ المعنى المقصود في جميع الآيات هو القول بأن القـرآن نـزل باللغة العربيـــة! إذ لا حاجة أبـــداً لأن يؤكد لنا الله ســـبحانه وتعــالى، في قرآنه العظيم، مثل هــذه المعلومــة! فمســخوا بذلك المعنى الإلهي العظيم المـراد إلى أدنى مسـتوى، إن لم نقل بأنهم قد أخرجـوه إلى خـارج نطـاق المعقـول والمنطقي والمقبــول، لقد شــكلت التفاســير حــاجزاً بين حقيقة النص الإلهي وبين العقـــــل، فأبعد عن الفهم، وعمل على إخـــــراج العقل عن المسار الطبيعي، وعن السياق الطبيعي المنطقي، الموصل إلى جــوهر المعــنى العــربي للمفــردات، والتأويل الحقيقي للنص العربي، والدلالة المبينـة، لقد عملت التفاسـير على إبعــاد العقل وتشــتيته في مســارات أخَــرْ، أخرجته عن السبيل الطـبيعي، والمـؤدي مباشـرة إلى عين النص. والواقع أنّ هـذه التـأويلات لم تكن لتنطلي إلا على من كـانوا بعيـدين عن جـوهر الأمـور، وكـانوا غـير قـادرين على الفهم العـربي المبين الواضح، أو كانوا بلهـاء، إلى درجة السـطحية المنتهيـة، ممن يعتمــدون على النقــل، والنقل الحــرفي حــتى لو كــان

بالأســـاس عن التـــوراة أو عن اليهـــود[1]؛ وهم ليســـوا على استعداد لإعمال العقل أبداً أبداً.

إذ ليس كل منقــول صــحيحاً أو مقبــولاً إذا كــان يخــالف العقل والمنطق وقد آن الأوان لأولئك الأعــراب ليفهمــوا، لقد آن الأوان لأولئك الأعراب أن يمتلكوا الوعي وأن يعوا الحقيقة الـتي أرادها الله سـبحانه وتعـالى، وهو أنّ القـرآن الكـريم هو كتـاب الله سـبحانه وتعـالى، وهو الكتـاب الـذي لا يحتـاج إلى تأويل الناس، قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [القيامة:

---

1 (?) كذلك ورد في بعض الكتب التاريخية القديمة أن سيدنا آدم ، كان قد ابتنى الـبيت الثـاني لله تعـالى، وذلك بعد فراغه من بنـاء الـبيت الأول لله تعـالى... وذلك حـتى يرجع إليه أولاده الـذين ابتعـدوا في الأرض شـمالاً... فيرجعون إلى الله سبحانه وتعالى في بيت أقــرب إليهم.. لكنَّ الخلط في هذا النص، وفي الكثير من النصوص التي تأخذ عن كتب اليهود كلاماً على عواهنه من غير تمحيص، فهناك فرق كبير بين لفظ (بــني إســرائيل) وبين لفظ (اليهود) بنو إسرائيل هم العرب، القبائل العربية القديمة الـتي كـانت أول من أسكنها الله سبحانه وتعالى الأرض المباركة، من ذرية سيدنا آدم، وممن حُملوا مع سيدنا نـوح، ومن ذرية سـيدنا إبـراهيم وإسـرائيل، الـذين كان سـيدنا محمد ، قد بُعث فيهم، وهو آخر الرسل والأنبيـاء صـلى الله عليهم أجمعين، بنو إسـرائيل ذكــروا في القــرآن الكــريم واحــداً وأربعين مرة، (وإسرائيل منفرداً مرتين) والقرآن الكريم كـان يخـاطبهم مباشـرة؛ منذ البداية، منذ المرحلة المكية؛ ومكة لم يكن فيها (يهود) وكـان القــرآن الكريم يقصُّ على العالمين قصصهم، كأضخم تراث بشري، وأعظم تـراث إنســاني، على الإطلاق، بخــيره وشــره؛ على مر الــزمن؛ منذ خلق الله سبحانه وتعالى سيدنا آدم إلى مبعث الرسول محمد ، إلى يـوم يُبعثـون حيث نبأهم رب العزَّة بمستقبلهم وحـذَّرهم وأنـذرهم، بينما اليهـود عبـارة عن قبيل من البشر كانوا قد دخلوا بلاد العرب قُبَيل الإسلام بفـترة ليست بعيــدة! كــانوا وثنــيين تفرعــوا عن المجوســية ثمَّ إنهم تظـاهروا بالتوحيد عندما كان ذلك لا بدَّ منه لهم، ثمناً لإفلاتهم من الأسر العــربي أيـام كـانوا عبيداً للعرب، ثم للفرس الذين كانوا يومـاً مـا، على ديانة بـني إسـرائيل! وكـان كسـرى سـليل إسـحاق ابن إبـراهيم كـابر عن كـابر، (راجع كتـاب الشــاهنامة، الهيئة المصــرية العامة للكتــاب، وديــوان جريــر، طبعة دار المعارف في القاهرة، وتاريخ الملوك والسلاطين لابن طباطبــا، طبعة دار صادر بيروت)
فليس لليهود أي علاقة ببـني إسـرائيل، لا من قـريب ولا من بعيـد، إلَّا في كون اليهود أساسا، عبارة عن قبيل من غير العرب، ولا يمتـون بصـلة إلى العرب، دخلوا بلاد العرب في فترة مشؤومة، من فـترات التـاريخ، وكـانوا أسرى، جيء بهم أسرى وعبيداً ليخدموا بني إسرائيل، أسـروا من شـمال الصــين، من ســفوح جبــال الهيملايــا، ليخــدموا بــني إســرائيل في بلاد العراقين، (فعندما كانت الطواعين تحصد الناس من رعايا الملوك العــرب من بني إسرائيل في كل مرة كان الملوك من العرب في بابل يسـارعون إلى تنظيم الحملات، لجلب العبيد والأســرى من الســلة البشــرية؛ الــتي كـانت، ولاتــزال، وكـانت مسـألة الأسر (أسر القبائل أو العشـائر بقضـها وقضيضها) عادة تمارس في ذلك الزمـان، ذلك أن عـرب المـوالي الـذين يتواجدون في شمال الجزيـرة وحلب، أساسـاً هم عـرب كـانوا قد أسـروا من شــمال الحجــاز؛ واقتــادتهم الجيــوش إلى أقصى الشــمال؛ من أجل العمل في الأراضي الـتي سـبق وأن هلك عنها أصـحابها، ومزارعوها (في الطاعون). وكـذلك جلب اليهـود من الهيملايا إلى سـواد العـراقين، جلبهم

19]، إنّ القول الذي يقول بـأنّ المقصـود من قوله تعـالى: [الرعد: 37] وقوله تعـالى: [النحل: 103] وقوله تعـالى: [طـه: 113] وقوله تعالى: [الشعراء: 195] وقوله تعالى: [الزمر: 28] وقوله تعالى: [فصلت: 3] وقوله تعالى: [فصـلت: 44] قـال تعـالى: [الشورى: 7] وقوله تعالى: [الزخرف: 3] وقوله تعالى: [الأحقاف: 12] وقوله تعالى: [الواقعـة:36] إن القول الذي يقول بأنَّ المقصود من لفظة (عرب) الواردة في الآيات الكريمة 12مرة إنما المراد منه (اللغة العربية) إنَّ مثل هذا القول بات هرطقة وتجديفاً المراد منه بتر المعـاني وقص المضـامين الـتي أرادها رب العـالمين؛ فلمـاذا؟ وما الـداعي ليؤكد لنا رب العـــالمين على أنّ الكلام كلام عـــربي؟! واثنتا عشرة مرة؛ هل هذا الأسـلوب من البلاغة في شـيء؟ لو صح ما افتروه في التفاسـير؟ بل هي قيـادة سـطحية للتفسـير، لا معـنى لهـا، أقحمت فيها الأفهـام المغلقة الـتي لا سـبيل إلى فتحِها.

الملـوك من بـني إسـرائيل العـرب، ـ جلبـوهم على دفعـات ـــ وذلك لاستخدامهم في فلاحة الأراضـي، الـتي يُخشى أن تبـور، ولا تـزال المعابد الوثنية في شمال الصين والهند، هنـاك تشـهد على علاقة اليهـود الوثنـيين أصلاً، بالوثنية، ولا تزال تلك المعابد تشهد على صلة اليهـود بالوثنيـة، وابن بطوطة في رحلته المشـهورة زار تلك البقـاع، وحـدثنا عن زيارته المثـيرة لمعابد السـامرة في الصـين، عنـدما تجـاوز في رحلته الحـدود الهنديـة، الصينية، وعن عاداتهم وتقاليدهم، والتي تنطبق على عادات اليهود اليـوم، في كل شـيء، وكل الانطبـاق، والواقع أن الغجر الـذين لا شك أنهم أتـوا من الهند، وذلك بدلالة جميع الدراسـات الـتي تحـدثت عنهم، بما فيها تلك التي قام بها غجريـون، جميعها أشـارت إلى أصـول الغجـر، وأجمعت على أنهم أتوا من سفوح جبال الهيملايا، إن التقارب الشديد بين أشـكال الغجر وأشـكال اليهـود، والتشـابه الشـديد بين أمـراض الغجر وأمـراض اليهـود، والتطابق الشديد جداً، بين عادات الغجر وعـادات اليهـود، ودينهم الواحـد، وعـاداتهم الواحـدة، وأعيـادهم المشـتركة، والغجر في جميع دول العـالم يحتفلون بعاشوراء، كذكرى لأحد قديسيهم، واليهـود بالنسـبة لهم هو يـومٌ نجَّى به الله موسى من فرعون.

الفكر العربي المعاصر؛ أين هو؟!

هل هنـاك فكر عــربي معاصــر؟ إن كـان هنالك في هــذا الـزمن الـراهن فكر عـربي معاصر أو أي من المفكـرين لـدى العــرب قاطبـــةً، وذلك منذ ما ســـميّ أو ما أطلق عليه عصر النهضة وإلى الآن؛ فأين هو وأين هي معالمه وما هي نتائجه ؟

لقد أثبت الواقع وأثبتت الأحداث الأخيـرة في البلاد العربية (الثورات العربية) أنه ليس هنالك فكر عـربي معاصر اطلاقــاً! فهو لم يُوجد بعـــد... وإنما كـــان خـــداعاً ومجـــرد ادعـــاءات وافتراضـــــــــــات واهمة، ليست حقيقيّة ولم تكن واقعيَّة ولا ملموســة؛ فمنذ مطلع القــرن العشـرين وإلى الآن، لم تظهر للفكر العـربي لا في شـرقه ولا في غربه بـوادر ولا ارهاصـات ولا تنبـؤات ولا حـتى تلميحـات وليس له أية نتيجة تـدل عليـه، و(البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير)!

ذلك أنَّ الفكر الحقيقي بالنتيجة هو الأثر المُبـــدع والخلّاق وهو الذي يحكم أو يتحكّم بالحياة والثقافة عامةً، فيدير بقوَّتِــهِ أمرها؛ أو هو الذي يُطلِـقُ الأحكـام ويحقق الإنجـاز؛ وتكـون له الســلطة والســـطوة والهيمنة ويكسر كــلّ القيـــود الماديّة والأغلال المعنوية ويفرض ويفعل الفعل يُؤثِّر؛ وهو الذي يُقَــرِرُ ويبثُّ في الأمور ويُحْدِثُ ويعمـلُ ويخلِـقُ ويجـددُ ويطـورُ، وهو الــذي يَكـــونُ سِــلاحُهُ شــاكي على الــدوام في وجه التخلف والجهل والمـرض، وهو الصـاحي واليقظـان والمتنبه لمواجهة الأعداء على كل الأصعدة وفي كل ميدان، إنه دوماً رائداً وفي الطليعة، فهل كانت هذه هي صـفات الترجمـات والمـترجمين العرب الرواد والمحدثين؟

فالبعض يخطُّ ويمحو في الهواء، والبعض يكتب على رمال الشاطئ لتذروه الرياح؛ والقليل القليل يحفرون آثارهم بالنــار والحديد، وكذلك الفكر الوقّاد.

فكـل كلام لا يُحـدث في المجتمـع تـأثيراً جميلاً أو تغيـيراً ايجابياً ثورياً مناهضاً ومتحدياً ويكون في الريـادة مواجهـاً، يُعتـبر لغواً وثرثرةً فارغةً ومضيعة لأعمار الأجيال، إنَّ الكلام الرائع هـو المنتج في كل جيل؛ وهو الذي يفعل فعله في كل مجتمع، يَشقُّ الأرض ويقلبهـا ويزرعهـا في كـل موسـم من جديـد كمـا يفعـل الفلاح النشيط، فمتى سـيفهم كـل عـربي مسـلم أنَّ المراوحـة في المكان والإنكماش والتخاذل عملٌ أهوج لا جـدوى منـه وهـو غـير منتج أبـداً، ولا قيمـة للمعلومـات في حـد ذاتهـا، ولا قيمـة للثقافة الواسعة مطلقاً، إذا كـانت مجـرد جمـع للمعلومـات، فلا

قيمــة للحجــارة أبــداً إذا كــانت في الجبــل أو بقيت فيــه، إنمــا (الحجر) تصبح له قيمــةٌ حقيقيــة عنــدما يَأخُــذُ مكانــه في ســاف البناء!

ونحن نــأتي الأمــور من أبوابها حين نبحث عن الشــيء في ذاتــه، فــإذا كــان الفكر هو ما ينتج أثــراً في الواقع أو ما يــؤدي إلى تغيــير حقيقي وعملي في الحيــاة؛ بالتــالي ما هي معــايير الفكر الحقيقي الفعـــال، وهل يوجد فكر عـــربي أو هل يوجد مفكرون عــرب بــالواقع؛ وما هو الفــرق بين المفكر والبــاحث والكاتب والناسخ والمترجم و(جمّاعة الكتب) و(المثقف الــذي يملأ رأسه بالمعلومات الغزيرة غــير المفيــدة؛ إذ ليس كل من كتب مقــالاً في جريــدة أو نشر كتابــاً أو مجموعة من الكتب صار مفكراً أو باحثاً مبدعاً.

ونحن ننظر من الداخل؛ ولــذلك فنحن معجبــون بمــا يروِّجــه الاعلام العربي من أسماء طنانة فارغــة؛ ولكننــا بمجــرد أن تتــاح الفرصة لنا للمقارنة، مع مــا يحــدث في الأمم الأخــرى، فإننــا بلا شك سنرى أنَّ العديد ممن يُسَــمَّون بــالمفكرين العــرب اليــوم، بالواقع هم مجرد كتاب (عــرض حلجيــة) بامتيــاز، ولــديهم قــدرة خارقة على عرض مطالبهم الخاصة[1].

إن لم نقل إنهم مجـــرد شخصـــيات إعلامية لها (كركرتها) الخـــاص؛ أو أنها أصـــبحت تتمــيز بمنطقها الــديني المطلــوب أساساً من الناس البسطاء[2].

---

1 (?) أذكر أنه في أوائل التســـعينيات من القـــرن العشـــرين غـــامر أحد الصــحافيين في جريــدة تشــرين الدمشــقية، قــام بجمع نص شــعري من الشــعر الحــديث ألفه من مجموعة قصــائد لمجموعة متباينة من شــعراء الحداثة؛ بطريقة القص واللصق، ثم أنه قدمها على شكل قصــيدة شــعرية واحـــدة إلى مجموعة من الشــعراء والنقّــاد الكبــار المعـــروفين في ذلك الـــــــوقت، وطلب من كل واحد منهم رأيه وأن يعمل عليها دراسة نقدية وكانت النتائج غــير متوقعة فعلاً، حيث افتضح أمر أولئك النقــاد والشــعراء والمفكرين وتباينت ردودهم بين المــديح والإطــراء والاستحســان ولكن ولا واحد منهم استطاع أن يكشف النص، أنه لم يكن قصــيدة وأنه لا علاقة له بالشـــعر! لقد كـــانت مهزلة كشـــفت زيف دعـــاة النقد من الصـــحافيين والكتاب العرب وما أكــثرهم، نشــرت تلك القصــيدة مع التعليقــات النقدية في جريدة تشرين.

2 (?) إنّ ما سُميّ بالخطاب الديني المعاصر و(الخُطب المنبريّة) التي بــاتت تخــرج في هــذه الأيــام من الأفــواه الجاهلــة، أو الشــعوبية غــير العربية ممجوجــةً مكــرورةً متقيّــأةً، وهو (الخطــاب الــديني المعاصــر) الــذي بــات يشــكل وقــراً ثقيلاً يتلبد على الأســماع، وبالتــالي ثقيلاً ثقيلاً على الــروح العربية وحياة المسلمين، فكيف أصبح الخطاب الـــديني والخُطب المنبرية ســبباً أساســياً في تخلف المجتمع العــربي الإســلامي مع أنه كــان ســبب إنتصار العــرب المســلمين في ما مضــى، فما هي أهمية الخطــاب الــديني أو الخُطبْ المنبريّــة، وما معـــنى (الخطـــاب الــديني) أو ما المقصـــود من الخطاب الديني وكيف جيّــره الأعــداء، أعــداء العروبة والإســلام، وســلكوه ليكوِّنـــوا من خلاله جرثومة مُعطِّلـــةً لأي حركة منتجة أو حيوية أو نشـــاط

إنَّ ما يطفوا على السطح الآن في البلاد العربية من الآراء والنظريات والحلول غير الناجعة ولا الناجحة بالمعـايير الكونيّة فإنها أبعد ما تكون عن جوهر الفكر الحقيقي الذي يتصفُ أول ما يجب أن يتصف به هو كونه خلاق وابـــداعي وجـــريء، لقد كــان من المفــروض أن يشــتغل الفكر العــربي الإســلامي المعاصر منذ البداية على هــدف حل المشــكلات والمســائل والمعوقــات الــتي تعيق وتعطل الحيــاة العربيــة، من مثل الشــعوبية الطائفية والإقليميــة، وقضــايا الجهل والخرافة في المجتمع، والأمراض المستعصـية والفقر المـدقع المسـتوطن؛ والعادات السيئة المنتشرة في حنايا الحياة العربية.

أيــاً كــان فإنَّه كــان من المفــروض أن يعمل المفكــرون العرب طـوال القـرن الماضي على محوها نهائيـاً وإلغائها من الوجود العربي والسعي إلى حالة الرقي والحضـور والحضـارة والتقــــدم، والعمل على جعل النــــاس في المجتمع في حالة نظافة عامة من الأوساخ والأوحـال، حالة نظـام ذاتي وتـرتيب بعيدة عن الفوضى والعشـوائية، حالة نشـاط وحالة حركة إلى الأمام والأعلى، بدل طروحات الاستغراق في الخيال والتهويل الديني عـير المـبرر وميتافيزيقيا الفتـاوى الدينية المقيتة الـتي يمارســها الجهلاء للجهلاء والــتي تجعل الشــعب والنــاس في المجتمع وتحافظ عليهم في حالة انحطـاط في أدنى مسـتوى في جميع المجالات ومن جميع النواحي! وبالتالي فإنَّ العــرب (الجماهير العربية) بحكم وقوعهم تحت تـأثير السـحر الأسـود الــذي مارسه عليها الاعلام منذ أكـثر من خمســين عــام فــإنَّ الســواد الأعظم منهم لم يعــودوا يفرقــوا بين الفكر الحقيقي الــــذي من شــــأنه أن يوصل إلى النهضة الحقيقية والثــــورة والتقدم في الحضارة، وبين الجهل والخرافة والتلف والمرض، إنهم ومن خلال إغــــراقهم واســــتغراقهم في أبحــــاث الماهية الإلهية أو صفات الـذات الإلهيـة، أو المعجـزات الدينيـة، بقصد قطع أنفاسهم وتعجيز الناس وإفشال مساعيهم، مع أن الدين العربي الأساسي المبين لم يدعو مطلقاً إلى مثل هذه الأمـور السالبة مطلقاً.

لكنَّ الأســــماء الــــتي ضــــخمتها طبـــول الإعلام العربية والعالميــة، لم تكن لتسـتطيع وهي لا تسـتطيع تقـديم العــون للعــرب المســلمين أبــداً، وهي لم تكن لتريد ذلك أبــداً ، ومن العبث التعويل عليها في تغيـير الواقع العـربي أو تقدمه أنملـةً واحـــدةً إلى الأمــــام، ذلك أنها لم تكن أمينة على المســـتقبل

أو جدوى، فما هي اهمية (الخطـاب الـديني) أو(الخُطب المنبريـة) وما هو دورها ؟ وكيف اسـتغل الشـعوبيون الخطـاب الـديني وجـيروه لمسـألتهم الدنيوية الآنية!

العـــربي، فهي (دعـــاة الفكر والثقافة العـــرب خلال القـــرن المنصـرم) ليست ولم تكن فئة وطنية أو تشـعر بالانتمـاء ولم تكن العروبة تشـــكل لها قضــيّة، إنها بالأســاس (تلك الفئـــة) عبارة عن مطايا للفكر المعـادي للطمـوح العـربي الإسـلامي، وكانت بالفعل حجرة عثرة في الطريق، سوفت الحق العربي واجهضت مسـيرته، هـذه هي مهمتها الأساسـية وقد مارسـتها بوعي أو بدون وعي وكانت النتيجة واحدة.

فأكثر العرب يولدون ويعيشون حياتهم القصيرة أو الطويلة؛ دون أن يفكر أحدهم بقـراءة كتـاب فكـري أو ثقـافي فضـلاً عن شراءه! ونادراً ما يكـون قـد ارتـاد في حياتـه مكتبـةً، إنَّ الكثـير الكثــير من المجـازين والمتعلمين في البلاد العربيــة لم يــدخلوا مكتبـات عامـة ولا خاصـة ولا يعلمـون مـا بهـا؛ ورواد المكتبـات والمراكـــز الثقافيـــة العربيـــة في هـــذه الأيـــام محـــدودين جـــداً ومعروفين، لذلك فإنـه يطبـع من الكتـاب الإنكلـيزي في طبعتـه التجريبيّة أكثر من مئتي ألف نسخة، ويطبع من الكتـاب العـربي على أكثر تقدير خمسمائة نسخة لتوزع في جميع الدول العربية والعالمية! وتنفـذ نسـخ الكتـاب الانكلـيزي وتبقى نسـخ الكتـاب العـربي تنتظـر على رفـوف المكتبـات، إنَّ في الأمـر موضـوعاً يسـتحيل اختزالــه، لأنَّ الفكر العـــربي الــذي ســاد في القـــرن العشرين كان قد انخرط في متاهـة التجريـد والترمـيز والـدجل بعيداً عن الواقع الحق، لقـد هبـط (الفكـر العـربي) إلى مهـاوي الاختزال والفقد والخلو والعدم، ليُمسي ضـرره أكـثر من نفعـه، لقد أصـبح وكـأن لم يكن[1]، وذلـك على الـرغم من وجـود بعض

[1] (?) وأنا ههنا أتأمل الكتب العديــــدة والكثـــيرة (في الفكر العــــربي والإســلامي) للـــدكتور محمد عابد الجــابري والـــدكتور نصر حامد أبو زيد والدكتور وفرج فـودة والـدكتور حسن حنفي وجمـال البنا والـدكتور محمد عمــارة والشــيخ جــودت ســعيد والــدكتور أسـعد علي والـــدكتور الطيب التيزيني والدكتور محمد أركون الفرنسي الجنسية والـدكتور محمد سـعيد رمضــان البــوطي والــدكتور شــوقي أبو خليل والــدكتور أحمد برقــاوي والـدكتور محمد شـحرور والـدكتور حسن الـترابي وأحمد صـبحي منصـور والـــدكتور يوسف القرضــاوي والـــدكتور محمد راتب النابلسي والـــدكتور طارق سويدان والدكتور الزنداني وعائد القرني وغيرهم، مجلدات وبرامج برامج؛

وأسأل عن النتيجة بعد مـرور كل هـذا الـوقت، وأسـأل هل كـان الشـاعر المتنبي أو أبو العلاء المعري مفكـراً مبـدعاً أكـثر بكثـير من جميع مـدعي الفكر المعاصرين من العرب! تـرى ما هي النتيجة الـتي تحققت من هـذه الأبحاث الفكرية المعاصرة كلها بعد مرور كل هذا الـوقت؟ وما هو الجديد لكل واحد منهم! ما عدى التكرار الممجوج من الأفكـار الـتي يُعـاد طرحها وفتح ملفاتها بعد أن أغلق مرات عديدة على مر التاريخ ترى ما هو الجديد الذي أتى به أولئك المفكرون الأشاوس، قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَــرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْـذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيـلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَـالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْـلِحُونَ (11) ﴾ [البقـرة: 10 - 11]، ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ [الكهف: 103]، وإذا افترضنا

اللمحات والارهاصات التي باءت جميعها بالفشل (الفكر العربي في القرن العشرين كان يمتص الفكر الغربي والشرقي ويتغذى منهما إنه لم يكن فكراً عربياً حقيقياً أبداً) لقد غـرق بين حـالتين حال, (الايـديولوجيا) الـتي عملت على تجميـد الـدماء والأفكـار، وحالة الانفلات الكلي والتسيب الـذي لم يعـد يرضـخ لأي شـيء (فالأيـديولوجيا) تُصنِّع الواقع، واقـع محـدد على مقاسـها، أو أن الواقع صنع (أيديولوجيا) خاصة به؛ لقد تجاوز الفكر العربي حالة الاتزان الأصيل النابع من الحق والذي فيه استباقية واستكشاف واستشـراف للمسـتقبل من خلال اسـتيعاب الماضـي والحاضـر وبات يختار الوقوف على المنافع الشخصيّة والآنية القريبة، فهـو لم يعد يختار أو يفرض أو يهيئ سلفاً وقبل وقوع الحدث، ولكنـه أصبحت تمليه الحوادث الطارئة.

إن السفينة إذا أضاعت الميناء تُصبحت جميعُ الريـاح بالنسـبة لهـا غـير مواتيـة، تمامـاً هـذا مـا حصـل بالنسـبة للفكـر العـربي الإسلامي، لقد تـاه وتخبـط وهبـط إلى المهـاوي العميقـة، وأنـزل معـه الحالـة الاجتماعيـة، وافتقـد إلى الـروح الوطنيـة الحقيقيـة (وأصبح العرب ظاهرة صوتية) لقد تـولاه الأعـاجم، وأدَّاهُ الغربـاءُ وصار مطية لأصحاب المصالح والأهواء، ولكن (المفكرين العرب) الذين اتكلوا على مرجعيات ومراجع كانت برمتهـا أعجميـة واهيـة غير عربية غريبة، وغربية وغير صحيحة، قد أدخلوا الفكـر العـربي المعاصر في النفق المظلم.

لقـد عملـوا على القضـاء على روح التفكـير والعلميـة في التفكير عن طريق الإعلام والفن المعاصر حفلات وأغـانٍ أغـانٍ وأفلام أفلام ومنـاظرات فقهيـة بين جماعـات أربـاب الشـعائر الدينية مناظرات وندوات ومحاضرات لا طائل منها حـول الفقـه واللغـة العربيـة تـدور وتـدور دون أي جـدوى أو فائـدة، أحجـار مبعثرة ممنوعٌ عليها وهي لا تذهب إلى إقامة البناء، مثلهـا مثـل الخطاب الديني المزمن الذي بات يتقيأه الخطبـاء على المنـابر

غياب هذه الأبحاث وهذه المناظرات وهذه البرامج وهذه المحاضرات كلها التي ملأت الفضاء العربي، أو عـدم وجودها في حياتنا أساسـاً، تُـرى مـاذا سيحصل، هل كنا سنكون بخير هل كان سيكون الوضع أفضل؟ إذ لابد من طرح مثل هذا السؤال ولابد من التفتيش عن الخلل أو عن مركب النقص في جميع تلك النشاطات! لا شك أن أقلاماً ومفكـرين ظهـروا في الحيـاة العربية وكان لهم الأثر البالغ ولكنهم غاصوا وغاصت أعمالهم في مسـتنقع ما للجته قرار؛ ولفهم الضباب الكثيف وحجبتهم الحجب! وعمت أو عـامت الأعمـال السـطحية أو المسـطحة الـتي فرضت بـالقوة وفـرخت وروجت وسادت على حساب قلة القليلة من الأعمال الجيـدة المفيـدة ما أدى إلى غيـاب تلك الأعمـال القليلة والجميلة وتلاشي أثرهـا، الـتي كـانت للـرواد الأصلاء، الذين كانت لهم نوايا وأهداف نبيلة خيرة وطنية فعلاً.

أيام الجمع في خطبٍ ممجوجاً أبعد ما تكون عن الفكر والقضايا الوطنية الحقّة، وهيٍ تدور كما هي منذ عصور.

قائمةٌ على تسطيح المواضيع العميقة أساساً ولوم الجمهور المستمع، أو المستمتع بالخرافة وهو فاغر الفاه؛ وكذلك كانت الشخصيات الدينية بمختلف أشكالها المسطحة وأنواعها مثلها مثل الشخصيات العلمانية؛ فإنها لم تكن على المستوى الفكري المطلوب أبداً إنما أقرب إلى الصنمية والضياع، أعجاز نخلٍ خاوية، لقد كان (الفكر العربي) وشخصياته أواخر القرنً العشرين، إلا قليلاً منه، منخلعٌ ينزع نحو السطحية الطفولية أو الدونية الغرائزية؛ لأنّ الشخص السطحي في اهتماماته مُنشد دوماً إلى الأرض؛ عديم الخواص لا أخلاقي وهو لا يميز بين الحق والباطل ولا بين الخير والشر ولا بين الصح والخطأ، ومن الطبيعي أن يكون أمثال هؤلاء الأشخاص غير قابلين لأن يكونوا من المفكرين، أو ينتج عنهم أفكاراً، لأنهم يجنحون إلى المنافع الشخصية والفئوية ويبتعدون عن العمق والسمو، فهم لم يكونوا ليبحثوا عن القضية، إنهم كانوا يلهثون وراء العيش وكانوا يقتاتون الفتات[1]!

---

1 (?) أصل الخير والشر من قبل التفكير، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض، وأنفع الفكر: الفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها وفي دفع مفاسد المعادي وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار، ويليها أربع: فكرٌ في مصالح الدينا وطرق تحصيلها، وفكرٌ في مفاسد الدينا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارة أفكار العقلاء ورأس القسم الأول الفكر في آلاء الله ونعمه وأمره ونهيه، وطرق العلم به، وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنته وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها وفي الدنيا وخستها وفنائها، أثمر له ذلك الرغبة في الجد والاجتهاد وبذل الواسع في اغتنام الوقت.

وهذه الأفكار تعلي همته وتحييها بعد موتها وسفولها، وتجعله في واد والناس في واد وبإزاء هذه الأفكار: الأفكار الرديئة التي تجول في قلوب أكثر هذا الخلق كالفكر في ما لا يكلف الفكر فيه ولا أعطى الإحاطة به من فضول العلم الذي لا ينفع، كالفكر في كيفية ذات الرب وصفاته مما لا سبيل للعقول إلى إدراكه (ومنها الفكر في الصناعات الدقيقة التي لا تنفع بل تضر كالفكر في الشطرنج والموسيقا وأنواع الأشكال والتصاوير).ومنها الفكر في العلوم التي لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفسَ كمالاً ولا شرفاً كالفكر في دقائق المنطق والعلم الرياضي والطبيعي وأكثر علوم الفلاسفة التي لو بلغ الإنسان غايتها لم يكمل بذلك ولم يزك نفسه، ومنها الفكر في الشهوات واللذات وطرق تحصيلها هذا وإن كانت للنفس فيه لذة لكن لا عاقبةَ له ومضرته في عاقبة الدنيا قبل الآخرة أضعاف مسرته، ومنها الفكر فيما لم يكن لو كان كيف، كان يكون، كالفكر فيما إذا صار ملكاً أو وجد كنزاً أو ملك ضيعةً ماذا يصنع وكيف يتصرف ويأخذ ويعطي وينتقم ونحو ذلك من الأفكار السفلى.

ومنه الفكر في جزئيات أحوال الناس ومداخلهم ومخارجهم وتوابع ذلك من فكر النفوس المبطلة الفارغة من الله ورسوله والدار الآخرة، ومنها الفكر في دقائق الحيل والمكر التي يتوصل بها إلى أغراضه وهواه مباحةً كانت أو محرمة، ومنها الفكر في أنواع الشعر وصروفه وآنا نيته في المدح والهجاء

إنَّ خلقَ إنسان القضية هـذا هو غاية ووسـيلة معـاً، إنه غاية لأنه وَضْعُ الإنسانِ الحـق، والوجـود الإنسـاني هو وجـود القيمـة، ونستطيع أن نتصور عالماً لا يستغرق الإنسان فيه سـوى القيم، عالماً ضاقت رقعة ضرورته المادية وتضـاءلت حاجاته إلى الحد الأدنى وبذلك أصبح الإنسـان يعيش في عـالم من المتع الروحية تلك المُتَـعِ المجانية البسـيطة، مُتَـعُ التأمل والفن والحـوار الإنسـاني بـدل مُتَـع الخمـرة التوابل والجنس واختصـار الجهد بامتلاك الآلة في أنواعها المختلفة، فالأصوات الصاخبة والضجيج والألـوان الصـارخة والفاقعة والـديكورات والإعلانـات المبهـرة

والغزل والميراثي ونحوها، فإنه يشغل الإنسـان عن الفكر فيما فيه سـعادته وحياته الدائمة ومنهـا، الفكر في المقـدرات الذهنية الـتي لا وجـود لها في الخارج ولا بالناس حاجةً إليها البته، وذلك موجودٌ في كل علمٍ حتى في علم الفقه والأصول الطب، فكل هـذه الأفكـار مضـرتها أرجح من منفعتها ويكفي في مضرتها شغلها عن الفكر فيما هو أولا به وأعود عليه بالنفع عاجلاً وآجلاً لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله أحبـــار أهل الكتـــاب ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذم المـوافقين دافع الخطـرَ فـإن لم تفعل صارت فكـرة فـدافع الفكرة، فإن لم تفعل صارت شـهوة فحاربهـا، فـإن لم تفعل صـارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادةً فيصعب عليك الانتقال عنها. التقوى ثلاث مـراتب إحـداها حمية القلب والجـوارح من الآثام والمحرمات.

والثانية حميتها من المكروهـات، والثالثة الحمية عن الفضـول وما لا يعـني، فـالأولى تعطي العبد حياتـه، والثانية تفيـده صـحته وقوتـه، والثالثة تكسـبه سـروره وفرحته وبهجتـه. من خلقه الله للجَّة لم تـزل هـداياها تأتيه من المكـاره، ومن خلقه للنـار لم تـزل هـداياه تأتيه من الشـهوات، قلة التوفيق وفساد الرأي وخفـاء الحق وفسـاد القلب، وخمـول الـذكر وإضـاعة الـوقت، ونفرة الخلق والوحشة بين العبد وبين ربه ومنع إجابة الدعاء وقسـوة القلب ومحق البركة في الـرزق العمر وحرمـان العلم ولبـاس الـذل وإهانة العـدو وضـيق الصـدر، والابتلاء بقرنـاء السـوء الـذين يفسـدون القلب ويضـيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة وكسف البال تتول من المعصـية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع من الِمـاء، والاحـراق عن النـار وأضـاد هـذه تتولد عن الطاعة لله تعـالى. من عَظِمَ وقـارُ الِله في قلبه أن يعصـيه، وقَّرَهُ الله في قلوب الخلق أن يذلوه، إذا علقت شـروش المعرفة في أرض القلب نبتت فيه شجرةُ المحبة فإذا تمكنت وقويت أثمـرت الطاعة فلا تـزال الشجرة تأتي أكلها كل حين بإذن ربها، أرض الفطرة رحبةٌ قابلـةٌ لما يغـرس فيها، فإن غَرَسْتَ شجرةَ الإيمان والتقوى أورثت حلاوة الأبدان. وإن غرست شـجرةُ الجهل والهـوى فكل الثمر مـر، ارجع إلى الله واطلبه من عينك وسمعك وقلبك ولسانك ولا تشرد عنه من هذه الأربع، فما رجع من رجع إليه بتوفيقه إلا منها، وما شـرد من شـرد عنه بخذلانه إلا منهـا. فـالموَفق يسـمع ويبصر ويتكلم ويبطش -بمـولاه- والمخـذول يصـدر ذلك عنه بنفسه وهـواه مثال تولد الطاعة ونموها وتزايـدها كمثل نـواة غرسـتها فصارت شـجرة ثم أثمـرت فـأكلت ثمرها وغرست نواهـا، فكلما أثمر منها شـيء جـنيت ثمـره وغرست نواه، وكذلك تـداعي المعاصـي. فليتـدبر اللـبيب هـذا المثـال: فمن ثواب الحسنةَ الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السـيئة بعـدها ليس العجب من مملوكٍ يتذلل لله ويتعبد لـه، ولا يمل من خدمته مع حاجته وفقـره إليـه، إنما العجبُ من مالكٍ يتحبب إلى مملوك بصـنوف أنعامه ويتـودد إليه بـأنواع إحسانه مع غناه عنه.(من كتـاب الفوائد لابن القيم دار مكتبة الحيـاة بـيروت 1998).

الوقحة والجـــائرة، والاعلام الطـــاغي، كل هـــذا لا يعتـــبر من الحضارة وهو لم ينبثق عن فكر، إنه أمرٌ استعراضي زائل وغـير ثـابت، لابد أن نفكر أصـالةً عن أنفسـنا، وأن لا نـترك للآخـرين اتخاذ القـرارات نيابة عنّـا، لابد أن نفكر أصـالةً عن أنفسـنا، وإلا قــام العقل الجمعيّ بــالتفكير عنــا، كفا خضـوعاً لعملية غسل الــدماغ؛ فمن الضــروري الانســجام مع حركة الكــون (الحركة الربانية للكون).

إن التفكير الصحيح يعني الموافقة على الحق ورفض الباطل، والاختيار واتخاذ القرار المناسب والسـير على الطريـق الصـحيح، من الضروري أن نعمل على تحقيق أهدافنا الوطنيـة والاجتماعيـة وأن نكـون فعلاً مـا نـرغب أن نكونه، بعيـداً عن الخـوف والشـك والكراهيـة والأمـراض الانحطاطيـة والـتي تشـكل أعـداء الـداخل (أعـداء العقـل) فتعظيم اللـه سـبحانه وتعـالى هـو بوابـة تحقيـق الأماني وإبعاد المخاوف، فإذا شعر الإنسـان بـالخوف ليس لـه إلا الله سبحانه وتعالى، ولا شيء غيره تعـالى، إذ ليس لأحـدٍ سـلطةٌ عليـك إلا بقـدر مـا تمنحـه أنت من السـلطة عليك! فـالقوة في أفكارك أنت وليس في أي مكـانٍ آخر، ومـا قدَّرَهُ اللـه تعـالى في هذا الكون الواسع ثابتٌ ولكن علينا أن نعمل وأن نبـذل جهدنا من أجل تحقيق النصر، وسيستجيب لك العقل استجابة عقل الشــاعر (في نظم القصيدة على القافية وفي بحور) حيث تتولـد القصـيدة من الغيب من مجالٍ غير مرئي، ولكن عند انعقـاد العـزم والقيـام بالمبادرة.

وسوف يكـون التوفيق حليفك من الله في كل أمـرٍ إذا كنت مؤمناً حق الإيمان بالله العظيم، إنك عندما تستطيع التعامل مع أفكــارك بطريقــةٍ إيجابية وتوظفها للمنفعة والمصــلحة العامة، بطريقة تجاوبية رائعة، فســـــتحقق كل أهـــــدافك النبيلة، ومن الضـــــروري أن تتمكن من التعامل مع عقلك البـــــاطن وعقلك الـواعي، يجب أن تعي تمامـاً أن الخلق جميعـاً عيـال الله وأنك تعمل وتبذل قصار جهـدك دون كلـلٍ أو ملل في خـدمتهم ودون أن تنتظر منهم من حيث المبدأ أيَّ شيء (دون ربحيـة) يجب أن نمتلك الوجدان والضمير والأخلاق الرفيعة وأن نسمو وأن نرتفع عن مستوى (الحيوانات) ونحن نستمد أساسـاً كل إمكانياتنا من الخالق عز وجل (منه وإليه).

القلب وألي الألباب

(ألي الألباب) أساساً مفهوم قرآني، لم يكن قبل نزول الوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام، ويشير إلى تلك المنحةً والرحمة المنزَّلة من الله سبحانه وتعالى على بعض الناس المؤمنين المهديين والمتصلين، وهو يعني تحديداً أصحاب المضامين (الأنفس)، الذين لديهم في أعماقهم (الداخل) قضايا وهموم ومعاني وأبعاد، تهمهم وتملأ عليهم عالمهم، حبٌّ للحق، والتزامٌ بالمبادئ والقيم والمثل والأخلاقيّات (أصحاب معالي من الأمور)، فكما أنَّ لكل ثمرةٍ لُبَّاً وطعماً يملأها (ليست فارغةٍ)، كذلك فإنَّ لبعض الناس فضلاً عن شكلهم فإنَّ لهم (ألباباً) أي مضامين وماهيّات تملأ دواخلهم يتفردون ويتميّزون بها. وهي تشير إلى التهيؤ وعقد العزم والتحزُّم بالسلاح؛ وهي لديهم مناط التقوى (القوة) وفيها (الزاد) للمعاد والذكرى (الإرتفاع) والشمول في مستوى الوعي والإدراك للكتاب وتدبُّرهِ وتَدَّبُر الآيات، وفهم العِبَر من القصِّ فيه والوصول إلى الحكمة.

وفيه (ألي الألباب) كناية عن الملازمة والإقامة والاستجابة والصدور عن القضايا الكبرى والتلبية لها والتوكيد عليها، وفي المعجم فإنه يشير إلى الخصب والعمق والسعة، والحسب والشرف، وهو الخيار و الخالص المحض من كلِّ شيء وفيه أمن وثقة[1].

وقلب كلِّ شيءٍ باطنه أو ما خفيَّ منه، إنه الكينونة الكامنة وراء الشكل، أو ما هو خلفُ كلِّ ما هو ظاهر من الأشكال، وإنسان القضية محكومٌ دائماً بقضيته، إنه بعكس إنسان العيش، الفارغ عادةً من المضمون المهم والغارق والمستغرق في بحر الآن .

هذا وإنَّ بين مفاهيم (العقل) و(القلب) و(اللب) في اللسان العربي المبين مشتركات أساسية وقرابةٌ شديدة ومعينٌ واحد؛ وكذلك (الالباب)[2] لأنَّ القلب بدايةً، وإن كان

---

[1] وفي لسان العرب: اللب الخلاصة، وهو خالص كلِّ شيء، وهو الجوف من الثمرة، وهو كل ما يؤكل داخله ويرمى خارجه، ولبُّ النخلة قلبها، ومن المجاز لب الرجل عقله إذا خلص من الهوى وشوائب الأوهام، لذلك هو أخَصُّ من العقل، وهو موضع المنحر وهو موضع القلادة من الصدر، وهو مقرُّ السرج على الدابة، وألبَّ: عرضَ. تاج العروس للزبيدي مادة لبب، ج4 الكويت.

[2] (?) و(أولِي الألْبَابِ) قال فيهم رب العزة: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9)أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ [الطلاق: 10] فأولِي الألْبَابِ هم ألي الأوعية

مادياً يعتبر مركزاً قيادياً للجسم وهو مضخة الدم المعروفة وله الأثر البالغ، لكنه في القرآن العظيم ليس ذلك فحسب؛ ولكنه أساساً الداخل (النفس الواعية) في مقابل الخارج المحسوس، المرئي والملموس، والملفت هو الأحرف المشتركة بين المفهومين (ق، ل) القلب والعقل، ويدلان على قوة الوعي والانتباه والادراك والربط والترابط والارتباط والتمكين.

بينما في القلب مقرٌ للوعي ومستودعٌ، وفيه انقلاب ورجوع (والانقلاب هو حالة من حالات الرجوع) ودلالة حقيقية وصحيحة، وهو الحافظة والصندوق الداخلي، متوكل على الله دائماً، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: 23] ومقرَهُ بذات الصدور أي في الباطن من الأعلى، وفيه ومنه تصدر الميول والأهواء والرغبات، وطوبى لمن كانت هذه كلها عنده سليمة مطابقة لمنهج الله تعالى، والقلب الموقع، والقلب يتكامل مع الحوس ويتناوب، من أجل الوصول إلى الحق والفهم الصحيح، وهو رقيق أو غليظ التلقي؛ فإذا كانت الأبصار تتلقى من الخارج، فإن القلوب تتلقى من الداخل بالوحي والالهام، وكلتا الجهتين من الله تعالى، وفيه الطمأنينة، ومن خلاله تكون القيادة.

لذلك فقد تصيب الغفلة القلب وتبعده عن الذكر، ولأنَّ (الفكر) عبارة عن تفاعلات لماهيات لا حصر لها تجري في الأعماق، تنبثق عنها الفِكرة أو الأفكار وتتوهج، إنه معالجةٌ لصور عديدةٍ ومعلومات وفِكرٍ سابقة ومعطيات كثيرة، والإلهام معنوي يتعْلَقُ بالعمق من النفس، وهو طاقةٌ خلاّقة تتولد في تلك الأعماق وتتصاعد مكونة الفكرة، مستمدة من عوالم الغيب، وهي تتوهج أكثر ما تتوهج أثناء الاتصال بالله تعالى.

لذلك كان التأمل أعلى مراحل التفكير، وهو بلا شك تجربة خصوصيّة مميزة محفوفة بالندرة والغرابة والشيء الجديد، إنَّ التفكير عملية قفز في المجهول وذهابٍ إلى الآتي والمغامرة في الفلك اللامتناهي، وهو بلا شك الطليعة في عالمه وله الريادة، لكنه (التفكير) أشبه بحفر الأنفاق في الأعماق والسير بها بدايةً منفرداً، لذلك فهو مطالبٌ على الدوام بالدليل، وكان فَقْدُ الإحساس كلياً يُعدِم التفكير، وفقده الجزئي يشوه التفكير ويُغْلِقُ منابعه ويَسُدُّ طُرُقَهُ، وكانت الرسل والأنبياء والعلماء

الذين استوعبوا ووعوا وبالتالي أدركوا وارتقوا. وقد ذُكروا في القرآن العظيم (16) مرة، وكلها حول هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

فيما مضى تقيم الصلاة لله تعالى[1] وتغتنم الفرصة للاستلهام وللتفكر بعظمته ، لقد كانت الأفكار واستلهامها في الماضي عمليةٌ متاحة، حيث كان الشعراء يستلهمون الشعر والغناء ويهيمون في السحر والجمال[2]، وربما أنها الآن (الأفكار) في حال نُدرةٍ أو نضوبٍ أو انحسار؛

ودور (الفكر الناضج) هو إيجاد الحلول الناجعة للمشكلات القائمة والآتية للأفراد والمجتمع؛ وكذلك إيجاد المبادرة والمفاجأة وتحقيق السبق والإبداع واختيار الأوقات المناسبة، وتحقيق النصر والربح بأبسط الطرق وأيسرها وأقلها تكلفةً وتعقيداً، والتقليل من الخسائر، وعدم المجازفة بمصير الأمة وعدم هدر طاقاتها، وتأمين مصلحتها العليا، وعدم إضاعة الفرص أو هدرها وعدم السماح للمناوئين بأخذنا على حين غـــرة (لأنَّ من طبيعة الفكر الـــراقي عموميّته ومن مهامه الحفـــاظ على أمن (الجماعـــة) الأمة والـــوطن والعمل على ســـلامة حياضه والســـهر على حراسة حـــدوده في جميع الاتجاهات، واستغلال الظروف للصالح العام ووضع الأمور على الـدوام في نصابها، أي في المكـان المناسب والملائم، القوة والدبلوماسية، وعدم تمكين العدو منَّا وهزيمته، إذا كنت قـادراً على تـدمير العـدو، فلمـاذا تبقي عليه تحت مختلف الـــذرائع والحجج؟ ومـــاهي الحكمة من ذلـــك؟ إلا التواطؤ والسماح له بالنمو والتوسع، إنَّ هذا الوضع سيقويه ويسمح ويفسح له المجـال... إنه الادعـاء، إن الفكر الحق هو الحصن الحصين وهو الحاضنة الحقيقية لكل ثورة ولكل تغيير، وهو

---

1 (?) الصلاة تعني إنشاء الاتصال بين العبد وخالقه أو الصلة، أو العمل على فتح الخط والاتصال المباشر، وهي تعني أيضاً الاتصال والمدد والإمداد من الخالق عز وجل إلى العبد المتصل، ويكون الدعاء من العبد جزءاً من الصلاة لا يتجزأ، ولكن مفهوم لفظ الصلاة لا يقتصر على معنىٰ الدعاء بل الصلاة تعني إقامة الاتصال مع الله سبحانه وتعالى في خط مباشر وبدون واســطة، ثم يكــون الــدعاء جــزءاً منها والله أعلم، ولكنّ قصر معــنىٰ ومفهوم الصلاة على الدعاء قد أعاق الفهم الصحيح وأدخل الفكر في دائرة ضيقة ومغلقة، اضمحلت فيها الآراء وتلاشت بسببها التصورات، وصَغُرَت الأفئدة وتسمّرت العقول والأفكار، بحيث انزلق البشر عن عظمة المــراد، وارتــدوا أو تثّــاقلوا إلى الأرض. إن الصــلاة في معناها الحقيقي تتطلب بذل الجهود، وعقد العزم، بينما في قصر معناها على مجرد الدعاء، يمكن أداءها في كل حين، بأيسر الجهود؛ بل ويؤديها أيـاً كـان!. بحيث صارت الصلاة، عند البعض، عبارة عن طقوس وعادات وتقاليد ومجالس، فهل هذا هو المراد من الصلاة؟

2 (?) فهل مضت تلك العصور الجميلة، عندما كان الشعراء يستلهمون الشعر البليغ مرسلاً من العوالم الأخرى، وبقي الأناس الذين يتقيؤون الكلام أو يصفونه وصفاً سيئاً ويرفعون به الصوت، وفعلاً لقد مضت تلك العصور الجميلة وباتت مجرد صورة جميلةفي الخيال، ولن تتكرر أو من الصعب أن تتكرر؟

الوسيلة والغـرضُ والغايـةُ والهـدفُ من كل ما نـراه ونسـمعه ونفعله[1].

وحــول ربط السـلوك والتفكـير بالبنــاء العضــوي لــدى الإنسـان، أصبح من المؤكد أنَّ النضج العضـوي ودرجة حيـازة الأدوات والإشارات، واستيعاب الخبرات الاجتماعية التاريخيـة، والعمل على رسوخ البناء وتمتينه من القواعد واتبـاع الأصـول الراسخة (أن يتم البنـاء من البداية على شـيء راسخ ومـتين) كل هــذا سيسـهم في حـدوث التقـدم وفي نضـوج الفكـرة أو الأفكــار أو خصائصــها لــدى الطفل واليــافع، من هنا تأخذ الأبحــاث (السـيكولوجيا) أهميتها في الأولوية لـدى البـاحثين ولمدى متابعتها في العملية التربوية، وأثنـاء بيـان خط التطـور الثقافي لدى الأطفـال واليـافعين وذلك عند وضـعه في دائـرة الضـوء، إنه يجب تعقب التغيـيرات الـتي طـرأت على شـكل ومضـمون تلك العملية والاطلاع على المنــاهج الأخـرى لـدى باقي الأمم والدول ومقارنتها وانتقاء أفضل الأساليب واتباعها، ولأداء هــذه المهمة الصــعبة يجب التميــيز بين الوظــائف والأشــكال النفســية - الفكرية الــدنيا والبســيطة من جهة والوظائف والأشكال النفسية - الفكرية العليا والمعقـدة لـدى الأطفال والناشئة من جهة ثانية.

إنَّ الذات التاريخية موجودةٌ في اللغة والآداب وفي تـاريخ الأمة المكتوب وتراثها الشفاهي المحمول والعادات والتقاليد، وعلى العكس من النظريــات التربويّة (الكلاسـيكية) لقد ثبت مــؤخراً وبما لا يــدع مجــالاً للشك من أنَّ لــدى الأطفــال وخصوصــاً ذوي الأحاسـيس والمشــاعر المميـزة، قــدرات وامكانيـات هائلةٍ على الفهم والاسـتيعاب أكـثر بكثـير مما كنا نعتقـد، خصوصـاً في قـدرتهم على فهم واسـتيعاب المسـائل العلمية والفنية، فيما إذا تمَّ لهم الإعداد والتدريب المناسب.

فبعض الأطفــال قــادرون فعلاً وفي وقتٍ مبكر على استيعاب النظريات العلمية وحفظها، وفهم اللغات والمسـائل الرياضيّة والكثير من القضايا إذا قدمت إليهم دون تعقيـد، وتم النأيُ بهم عن كل ما يسبب تبُّلد المشاعر ويعدم آليات البقاء؛ لذلك فقد بـات من الضـروري القيـام بعمليـات مُبكـرة لسـبر مواهب التلاميذ والطلاب في مختلف المراحل وبشكل دوري، وملاحظة ومراعــات الميــول والمــواهب والاهتمامــات لــدى الأطفــال ومســاعدتهم على تلمس الطريق وتحقيق التوافق

---

[1] (?) والفكر العــلم هو رســالة ومنهج علمي يتعلق بالنظــام والظــواهر الاجتماعيّة وغالبـاً ما ينتهج اسـلوباً متشـابهاً أو طريقـةً واحـدةً تطبَّق في مختلف الاتجاهات والمجالات.

بين مــواهبهم والامكانيــات في المتــوفرة في الواقع لتحقيق النجاح.[1]

إنَّ تبني النظريات الجاهزة (عقائدياً) والادعــاءات الفكرية في الماضي قد جعل الفشل والـــذي هو مؤكد على الواقـــع، جعله ينقلب بمعجــزة إلى انتصــارات خلبيه وواهمة ومفترضة وخادعة (مثل تبــني الماركســية في الخطابــات السياســية العربيـة) إنَّ العقل المـؤدلج والأفكـار المسـبقة الصـنع تعتـبر منخورةً بجدارة وامتياز، ولكنّ الادراك هو هبة المعنى، وهكـذا مرَّت الجماهير العربية الغفورة وغير الواعية بالنفق المظلم.

إنَّ نجاح بعض الأيديولوجيات المنحرفة في السيطرة على العقل والوجـدان (الدخيلة أو العقل البـاطن العـربي الجمعي) ردحاً من الزمن سببه غياب الوعي الحقيقي وهو ما اشـتغلت عليه كل القوى المعادية للعروبة والإسلام.

---

1 (?) عام 2010 التقيت بأحد الباحثين الشباب القادمين من هولندا مبعوثــاً من إحدى جامعاتها في (لاهاي)، الحقيقة أنه كـان قمة في الـذكاء والعلم، وكان بحثُهُ منصبّاً على الطفولة وأوضـاعها في البلاد العربية وكـان أسـود اللون لكنه كـان يتحـدث العربية بطلاقـة، كـان في طريقه إلى السـودان، لقد أعرب لي عن اسـفه الشـديد لما لاحظه في البلاد العربية من اهمـال ليس له نظير، وتدهور لا مثيل له في التربية، والانهيـار في البـنى التربوية والـتراجع في مسـتوى الطفولة العربية إلى الحضـيض، ما لم يكن يتوقعه أبداً! كل هذا تبين له من خلال الدراسة الميدانية لأوضاع التربية في البلاد العربية والتحقيقات الـتي أجراها في أكـثر من مدينة عربيـة، وكـان لا يفتأ يُعرب عن دهشته من النتائج الـتي توصل إليهـا، وعن اسـتغرابه للغمـوض في الأسباب والدوافع عند المسؤولين التربويين في البلاد العربية التي لم يســتطع فهمهـــا، أو فهم الأســـباب؛ إذ يُصـــرون (المســـؤولون في بلاد العـرب)على تنفيذ الـبرامج والخطط اللاتربوية واللامجدية وغـير المفيـدة في التربية وعلى إعادة تجريبها مرات ومـرات تلك الخطط وتلك الـبرامج التي تقيأها الغرب منذ زمن بعيد وقد تجاوزوها في جميع أنحاء العالم ولم يعد أحد يجـرؤ على طرحها مـرة أخـرى إلاَّ في البلاد العربية فإنها تفـرض وتفرض وتفرض وعلى المدى، وقال لي أنَّ الشيء الذي لم يستطع فهمه هـو، لمـاذا يكـون المسـؤولون في البلاد الأوربية (المـوالات والمعارضـة) مهما اختلفوا فيما بينهم، فإنهم وطنيون ويسعون إلى بنـاء اوطـانهم، بينما في البلاد العربية فإن الجميع يعملون في عكس الاتجاه؟

استقراء المستقبل أهم مراحل العمل

لأنَّ الحاضر هو استمرار للماضي، وهو تمهيدٌ للمستقبل، ولا انفصام في عرى هذه السلسلة، ولأنَّ الكتب العربية التي ظلت تتوالى في صدورها في الحياة الثقافية العربية منذ عشرات السنين، وليس فيها شيء مما يمكن أن ينفع الناس؛ من هنا نبعت ضرورة وأهميّة هذا البحث.

إنَّ المستقبل أو (علم المستقبل) هو المجال الوحيد المفتوح أمام الارادة البشرية (للتفكير الفعّال) بشرط أن يُستخدم في مواجهة عناصر الواقع الحالي، من أجل التحكم فعلاً في شكل الواقع القادم، لذلك (فإنَّ استقراء المستقبل يُعتبر اثراءً للحاضر، وأنَّ استكشاف ما يُحتَمل حدوثه غداً يجب أن يكون وسيلة لزيادة ترشيد سلوكنا وخبرتنا، ولا يختلف ذلك عندما ندرس تجارب الأمس ونعتبر بالتاريخ) والإنسان العربي المسلم وعلى مدى القرون الماضية أصبح خبيراً في الفشل[1]؛ وذلك في جميع المجالات السياسية والعسكرية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية، وفي الحياة الإنسانية الكريمة، فالنشاط كله في البلاد العربية، كان اشتغالاً بلا جدوى ولا انتاجية تُذكر، كل شيءٍ كان قد تصدع، هذه هي صورة الوضع العربي حالياً تماماً، وذلك كما أُريد له؛ فالخيار بالنسبة للعرب المسلمين لم يعد مجهولاً أو مغيباً، إنه يبدو أشدُّ وضوحاً في الوقت الحاضر -يشير لهم- ويقول لكل واحدٍ إما أن تغرق بمفردك أو يعوم الجميع!

إنَّ الكثير من المشاريع النظرية العربية إن لم نقل أنها كانت برمتها عبارة عن تمارين فكرية ليس إلا، فهي لم تكن مجدية على الاطلاق، مراوحة في المكان، وأساساً كانت معمولة للإضاعة الوقت العربي واستنزاف وجوده (محمد عابد الجابري - الطيب التيزيني وغيرهم) فاستشراف المستقبل ليس مجرد تمديد منطقي للحاضر، يمكن استنباطه بأساليب الإسقاط المتعارف عليها، بل هو حالة نوعية مختلفة تتضافر فيها متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية متعددة، يمكن التخطيط لها ورسم معالمها انطلاقاً من استخلاص عِبَرَ الماضي ودروسه وإدراك حقائق الحاضر

---

1 (?) يتفق جميع الناجحين في أنهم يؤمنون بالسببية"، إنهم يعتقدون أنه لا شيء يحدث مصادفةً، بل وفقاً لقانون، وأن جميع حلقات السلسلة التي تربط بين بداية شيء ونهايته حلقات قوية، وهذه الحلقات هي السبب والنتيجة، ذوو التفكير الضحل يؤمنون بالحظ، أما الحكماء الأقوياء فيؤمنون بالسبب والنتيجة.

واحتمـــــــالات المســـــــتقبل، بما يفتحه التقــــــدم العلمي و(التكنولــوجي) في آفــاقٍ جديــدة وأســاليب متطــورة، دون إهمـال عملية إطلاق العقـل، وإهمـال الخيـال لاخـتراق حُجُبِ الغَد وتصور ما يمكن أن يحمله من تحديات وآفاق ومخاطر.

لقد أصبح (استقراء المستقبل) مـادة تُدَرَّسُ في مئـات الكليـات والجامعـات الأمريكية والغربية، ومنذ مطلع القــرن العشرين، وأصبح تأسيس هيئات لتحديد مؤشرات أو اتجاهات المستقبل في المدى القصير أو حتى المدى المتوسـط، أمـراً شـــائعاً في دوائر الأعمـــال الأمريكية والغربيـــة، فمـــاذا فعل العرب المسلمون وتحديداً المفكرون منهم؟

للأسف الشديد وعلى مدى القــرن الماضي لم يكن هنالك مفكرون عرب، ولكن حفنة من المثقفين وجامعي المعلومات المغلوطة، وقد أعـادوا طرحها بشـكلٍ خـاطئ، والـذين وعلى مــدى القــرن الماضي طرحــوا أفكــاراً نظرية واهمة وليست هامة ولا أساســـية (الرؤية الماركســـية أو الرؤية الســـلفية أو الرؤية الصوفية أو الشيعيّة)، كانت أبعد ما تكــون عن الحق أو عما يجب عمله بالفعل.

ذلك أن المجتمعات الرأسمالية المتطورة لا تملك (تــرف) التغاضي عن التوقعــات المنتظــرة في مجــال حركة الســوق ومجال المنافسة، ومجال المكتشفات العلمية الجديــدة لــذلك ظلَّ الغرب ينمو باطراد والشرق في تدهورٍ شديد، إنَّ الغـرب يســتعمر الشــرق؛ وكــان لابد لها من اســتقراء الاحتمــالات لضــمان اســتثمار رؤوس أموالها الطائلــة، وتحقيق أهــدافها، حسب مخطط يضـمن لها العائد الأمثل (إنَّ قيـام دولة لليهـود في فلسطين (اسرائيل - وعد بلفور) بالنسبة للدول الأوربيــة، كــان عبــارة عن مشـــروع اســـتثماري مســـتقبلي سياسي وعسكري واقتصادي، عقد طويل الأمد أبرم مع اليهــود، يعمل على ضــمان المســتقبل الأوربي، أســهمت فيه جميع الــدول الأوربية والغربية عموماً بما فيهم روسيا، تعهد فيه اليهــود من خلال منظمــاتهم بتحقق الفائــدة للغــرب والربحية والانتصــار الدائم والمستمر على المسلمين العرب، ويسلبهم مقــدراتهم وابقـــائهم على الـــدوام وفي المســـتقبل في وضع تحت خط الفقر والعــوز الشــديد، أو تحــويلهم إلى كلابٍ تتبع أســيادها وتعهد فيه الغرب بدعمٍ متواصل لليهود).

وما ينطبق على مجــال (الاقتصــاد) ينســحب كــذلك على مجال (السياسة) بمعناها الدارج، بما تنطوي عليه من نزاعات داخل المجتمع وعلى المســـرح الـــدولي وعلى العكس مما تقدم، يُلاحَظُ أنَّ المجتمعـات المتخلفة (وهي بطبيعة الحـال لا

تنجب إلا مفكـــرين متخلفين) فإنها لم تصل بعد (وخصوصـــاً العربية والإســلامية) إلى إدراكٍ مماثل لضـــرورة اســـتقراء المسـتقبل، على الـرغم من أنها في أمس الحاجة إلى ذلـك، في وجه تحديات عصرنا العاتية، وتجاه الهوَّة التي تزداد عمقاً بينها وبين العـالم المتطـور، وذلك حـتى تسـتطيع التوصل إلى أمثل معـــدلات التنميــــة, وتحديد أفضل الوســـائل لتجنب الاختناقات، وتخطي تخلفها (لا يزال يتولى أمرها أجهل الناس فيها، والأعمى لا يقود عميانـاً)، ولاشك أن هـذه مسـألة حيوية وملحة بالنسـبة إلى أمتنا العربية بالـذات (الـوعي)، لا لمجـرد أننا نواجه عدواً مسلحاً بأحدث مبتكرات التكنولوجيا العصـرية فقــط، ولكن لأن الــوطن العــربي تعتريه الآن تحــولات بالغة الخطورة والتعقيد، تنال في الصـميم من أنمـاط الحيـاة الـتي درجت عليها طوال قرون وقرون، وهي تحولات سـوف تكـون لها آثار متعددة وممتدة، وما لم يجري تقـويم هـذه التحـولات، أو رصـــدها، وما لم يجـــري بحثُ آثارها على أنمـــاط الحيـــاة العربيــــة، في الحاضر والمســـتقبل، فســـوف يتعـــذر على المسلمين العرب تـرويض عملية التغيـير، وتطويعها وتوجيههـا في الاتجـــاه الـــذي يعـــود عليهم بالعائد الأفضـــل، طالما أن استكشاف (الزمان) أصبح ممكناً، لا في بعده التاريخي فقـط، بل فيما سوف يجري مستقبلاً أيضاً.

إن المجتمع العـــربي الاســـلامي بقي خلال المائة ســـنة الأخـيرة يعيش تناقضـات داخلية من أزمة إلى أخـرى دون أن يجد لها حلولاً (كـان ابقـاء المسـلمين العـرب في هـذا الوضع مقصوداً).

ومع ذلك تنبغي الإشارة إلى أن "شريط" أحـداث الماضي يختلف عن أي "شــريطٍ" يمكن تصـميمه أو تصَـوَّرَهُ لأحـداث نرتقب وقوعها مستقبلاً، في شيءٍ أساسي، واحد على الأقل، وهو أن الإنسان العربي المسـلم هو الـذي صـنع الماضي ولم يَصْـنَع المسـتقبل بعـد، وأي تصـور لتطـور المجتمع العـربي المســـلم - يغيب عنه الإنســـان - هو بمثابة رد مســـيرته إلى حلقات متصلةٍ من الجبريات والحتميات، ليس لإرادة الإنسـان ولا لقدراته الإبداعية مكـــانٌ فيهـــا، فمن المؤكد أن تطـــور الإنسـان يسـتحيل تَصَـوُّرَه دون "حضـور" الإنسـان وإرادتـه، ولاشكَّ أنَّ المعضـلة الأساسـية (المعانـاة العربيـة) تحمل في ثناياها كل هـذه العلـوم المتطلعة إلى استكشـاف المسـتقبل، تكمن الخطورة في إسقاط الحاضر على المسـتقبل بـدلاً من إســقاط المســتقبل على الحاضــر، وبــدلاً من تحديد ملامح

للمستقبل خليقةً بزيادة توضيح اختبارات الحاضر على أساسٍ علميٍ راسخ[1].

وفي الحقيقة ليس هناك (علم) واحد محدد مقرر معـترف به لاستكشاف المسـتقبل، بل هنـاك مجموعة من المتغـيرات الجزئية والنوعية يمكن التنبؤ بتطورها المـــرتقب على ضـــوء تطورها السابق، ومجموعة من الاجتهادات المتنوعة والمتباينة تحـــاول ربط حركة هـــذه المتغـــيرات وإعطـــاء صـــورة عن المستقبل تتخطى الجزئيـات، إلى التكامل والشـمول، ولاشك

---

1 (?) إن اعظم اكتشاف حققه الإنسان عبر تاريخه الطويل على سطح هذا الكـوكب هو إيمانه بالله العظيم ووصـوله واهتدائه إلى الخـالق المبـدع ، ومعرفته واقراره بقدرة الله تعالى، فهذا الاكتشاف أعظم بكثير من جميع اكتشـافاته قاطبـةً، وعلينا أن نبـدأ بـالتعرف على القـدرات والإمكانيـات الهائلة التي أودعها الله سبحانه وتعالى بداخلنا ومعرفة ذواتنا وبناء روابط قويةٍ معها، فهذا هو الشيء المهم، إنه يوجب الإيمان بالقدرة اللامحـــدودة والذكاء الموجـود بـداخلنا، وهو يمثل القـوة الـتي منحها إياها الله سـبحانه وتعالى، بذلك يمكننا إخـراج تلك القـوة من داخلنـا، وسنكتشف عنـدها أننا لســنا بحاجة إلى انتظــار الآخــرين، ولا إلى لــوم الظــروف أو الأحــوال أو الأحداث مهما كـانت، وسـيكون المطلـوب منَّا دائمـاً التعـرف على القـوة الخارجيـــة، طبيعتها ومصـــادرها، وذلك لنتمكن من تحريكها والتحكم بها وقيادتها، لأنها نتيجة وليست هي السبب الأساسـي، إننا إذا نجحنا في ذلك سنستطيع فعلاً تغيير العالم.

إن كل إنسانٍ عبارة عن سفينة مشحونة تزخر بالآمال وتمخر عُباب البحر، وكلنا مغمورونَ في هذا البحر الكـوني العظيم للـوعي، وكلّنا مسـافرٌ نفسـياً وفكريـاً باتجـاه تحقيق الأهـداف والإنجـازات وأحيانـاً تغطي الأمـواج سفننا وهـذا هو الاعتقـاد بالفشل والقصـور والقيـود، وأحيانـاً تنتابنا عواصف الشك والخـــداع والاكتئـــاب، فلا بد لنا من تـــدريب ملكاتنا الداخلية العقلية والنفسية وأن نؤمن بـأن الحق سـيهدينا وينجينا من أية صـعوبة وأنه سـيرينا الطريق، إن المؤمنين يجتـازون بحـار الشك والخـوف ويصـلون إلى بر الثقة بالنفس والفهم إن إيمانهم وشعورهم سـيجعل الوجـود اللامـرئي يتحقق في صورة أحوال وأحداث أو خبرات، لأن الإنسان بطبيعته غافـلٌ عما أودعه الله ســبحانه وتعــالى فيه من قــدرات في عقله ومن الحكمة في نفســه، بينما المؤمنون يوقظون هذه القدرات بداخلهم ويعملون على تحقيقها في الواقع، إن الأفكــار هي أشـياءٌ في الواقــع، والإنســان العاقل يســعى للتحــرر من التصورات العتيقة التي ثبت فشلها في مقابل الحق، لذلك فإنه لابد أن يبقى الفكر منفتحاً على القوانين الثابتة الـتي تحكم هـذا العـالم، والـتي نكتشـفها يوماً بعد يوم ومن هنا كانت الـدعوة لتجديد الخطـاب الـديني حيث لا حـدود لقدرة الله سبحانه وتعالى التي يظهرها للعقول المتفتحة المتأملة المفكـرة، إن الأفكار الجامدة التي لا تتفق مع الحق لن تحل مشـاكلنا المعاصـرة أبـداً، فعلى الإنســـــــان الحر أن يكتشف قدراته الداخلية وأن يتعلم كيف يوظف الحكمة والقـدرة الـتي يحفظها بداخله حـتى يحقق النجـاح، إنَّ البعض ينظر إلى الحقـــائق الـــتي يقرأها ويتعامل معها على أنها مجـــرد رياضة ذهنية فهو لا يشعر بها ولا يعيها ولا يوظفها ولا يسـتفيد منها في حياتـه، إنها لا تـؤثر فيه ولا بطريقة تفكـــيره، إن قـــوانين العقل مثل قـــوانين الكيميـــاء والفيزيـــاء والرياضيات، محايدة، ولا تكتنفها الأهواء شخصية وأي شيءٍ نغرسه في تربة العقل البـــاطن يتجسد في حياتنا بنفس الطريقة الـــتي غـــرس بها في تربة العقل الباطن، أما جسم الإنسان فله بداية وله نهاية، وليس الجسم البشري إلا أداة أو مظهراً للتعبير عن الحياة وعندما لا يفي الجسم بهـذه الوظيفة أو

أن هذا الانتقال المفاجئ من "الجزء" هو في حد ذاته معضلة عويصة، وقد يكون مَطَبّاً خطيراً من الناحية المنهجية، وتكفي هنا الإشارة إلى محاذير تعميم ما لا يقبل التعميم، والنظرة أحادية الجانب، والنظرة الذاتية، ودائماً الخيار المستقبلي يقع بين ما يمكن اعتباره (استمراراً لما هو قائم) وما يمكن اعتباره (الاحتمال الأسوأ) وما يمكن اعتباره (الاحتمال الأفضل) وهو ما يجب أن يكون مدار البحث المستمر وما يجب التركيز عليه عن طريق علاج المعضلات بجميع الاحتمالات علاجاً حاسماً وتحديد دقيق، ومع ذلك ونحن نحاول استشراف مستقبل الوطن العربي، يجب أن نؤمن أن الوضع القائم فيه لا يمثل أسوء الاحتمالات الممكنة، وإنما استمراره يشكل "الوضع القائم و" نقطةً على منتصف "شريط الاحتمالات"، إنَّ استمرار "الوضع القائم" في الحاضر يشكل "كارثةً كبرى" تميل ناحية الاحتمال الأسوأ.

إنَّ المجتمع العربي بقي خلال المئة سنة الأخيرة يعيش تناقضاته الداخلية دون أن يجد حلولاً لها، متنقلاً من أزمةٍ إلى أخرى، تتلاعب به القوى والمؤثرات الخارجة عن إرادته، إلى

تنتهي مهمته، فإنه بأمر الله سبحانه وتعالى يتنحى جانباً وتظل النفس ينتظرها الحساب، يجب أن لا ننظر إلى الموت على أنه نهاية المطاف بل على أنه انتقال من الحياة الدنيا إلى الآخرة، فإما إلى جنة وإما إلى نار والعياذ بالله، كما وعدنا رب العزة ﷻ، فالموت هو بوابةٌ إلى عالم الغيب بعد رحلةٍ قضاها الإنسان في هذا العالم وقد انتهت الآن! إن الموت والميلاد ليسا إلا جانبين من جوانب الحياة، ويجب أن لا نخاف منهما، ولكن المفروض أن نحزن على ضياع الفرصة التي كان قد منحها الله لنا، وتفريطنا في أعمالنا، قال سيدنا عمر رضي الله عنه: «**كفى بالموت واعظاً**» إن لفظة (الموت) الأساس أنها (البوت) لأنَّ (مكة) هي (بكة)، وهي من (البت) (حذف حرف العلة) أي القطع أو الانقطاع، في مقابل (الدب) الاتمام أو التمام والبدء (الباء مع الميم) المحقق في حال الولادة، (كتاب عبقرية الحرف العربي وكتاب الشيء في ذاته للأستاذ المرحوم محمد عنبر، حيث يثبت أن كل لفظٍ يحمل في طياته عكس مدلوله؛ وذلك عند قراءته معكوساً فإننا سنصل إلى عكس معناه، وهذا دليلٌ على عبقرية اللسان العربي وأصالته وأنه توقيفي من الله تعالى)، فإذا كنا واقعيين في نظرتنا إلى الموت استطعنا بكل ثقةٍ استثمار وتوظيف قدراتنا العقلية أفضل توظيف.

إننا نستطيع أن نرى ونسمع ونفهم ونتعلم دون أوهام، وأن نتقدم في جميع الاتجاهات، ونحن نؤمن أنَّ الموت حق، وهو فعلاً بدايةٌ جديدة لعالم آخر موجودٌ بالفعل معنا وبقربنا وقد وعدنا رب العالمين به، إنه ليس هنالك نهاية بلا بداية، ولا بداية بلا نهاية، يجب أن نسعى بأن يكون الموت بالنسبة لنا خاتمة الأعمال الرائعة الإيجابية والمفيدة التي قدمناها في حياتنا، وبالفعل فإن الإنسان العظيم لا تفنى أمجاده وبالتالي فالموت ليس نهاية، ولكنه عبورٌ إلى عالمٍ آخر تقوم به النفسُ، عندما تتخلى بأمرٍ من الله سبحانه وتعالى عن الجسم وتنطلق إلى عالمها الموعودةُ به، مصطحبةً عملها، إن العالم الآخر قريبٌ منا جداً، وليس هنالك حاجةٌ إلى مسافات يضطر الإنسان إلى قطعها للوصول إليه، إنه قريبٌ منا جداً.

أن وصل إلي هـــذه المرحلة الـــتي ســـيتقرر فيها مصـــيره ومستقبله لأجيـالٍ قادمـة؛ وإذا كـان هـذا المسـتقبل "أحـداثُ العقد القـادم" فـإن هـذه الأحـداث ذاتها قد تُشَـكِّلُ مجـالات الاستشراف، يجب أن تنطلق دراسات استشـراف المسـتقبل من خصائص الوضع القائم، وكيف تشـكل عـبر الـزمن، وعلى ذلك فهي تبدأ برصد أنماط العلاقات والتفاعلات ومعدلاتها في "الماضـي" بخصـوص وضـع معين قـائم في "الحاضـر"، وتضع تصـــوراتها على أســـاس إمكانية اســـتمرار نفس الأنمـــاط والمعدلات "نسبياً" في المستقبل، ومن هنا تضع مكاناً واسعاً لعنصر الإرادة البشـــرية الـــذي يمكن أن يتـــدخل في هـــذه المسيرة في "حدودٍ معينة" من أجل الإسـراع بالحركة أحيانـاً أو الإبطـاء من معـدلها أحيانـاً أو محاولة تجميـدها، وربما ردَّها على أعقابهـا، ومعـنى ذلك –أولا- أنَّ هنـاك إمكانيـات معينة لاستمرار الوضع القائم وتغييره وأن احتمالات التغيـير – ثانيـاً- يمكن أن تتجه نحو "الأســوأ" أو "الأفضل"، إن العلم يتحــول بسرعة ولا يرحم المتخلـف، وعلينا أن نتعلم كيف نتصـدى لما يصـــدمنا، وأن لا يَشُـــلّ تفكيرَنا ما يوجُعنـــا، وأن نتعلم كيف نتصـــدى لما يصـــدمُنا، وذلك كله رهنٌ بحرية الإرادة وإرادة مواجهة المشكلات والعقبات والصعوبات.

(وعلينا أن نفهم أن (الـوقت) بحد ذاته حيـادي؛ وليس في جـانب أي طـرفٍ من الأطـراف، ولا هو خصـمٌ في أي صـراع؛ وهو مفتـوحٌ على جميع الاحتمـالات، وقابـلٌ لكافة التطـورات، إن السؤال الذي يجب أن نثيره ليس لمن يعمل الـوقت ولمن يقـدم مزايـا؟.. وإنما كيف يُسـتَغَل ويُسـتخدم خـير اسـتخدام، وكيف يمكن تعبئة الـــوقت بما يكفل تعظيم مصـــادر قوتنـــا، وتقليل مظاهر ضـعفنا، وبـذلك نكـون قد وضـعنا أنفسـنا على الطريق السليم وبذلك يصـبح بـاب المسـتقبل مفتوحـاً أمامنا على مصراعيه لنتقدم).

مفهوم العلم [1]

قال تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الإنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) ﴾ [الرحمن: 4] فالعلم هو تنزيل الآيات وجعلها علامات في الحياة تدل على الطريق وتهدي إلى الحق، والعلم أيضاً ما يثبت وقوعه بالواقع كحقيقة مستمرة متكررة وثابتة في الحياة وذلك بالتجربة، وفي المختبر أيضاً، بينما في الآية الكريم فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد (علّم القرآن) قبل خلق الإنسان، وفي ما بعد فقد عَلَمَ الله سبحانه وتعالى الإنسانَ (البيان) أي الكيفيَّة التي سيتعامل بها الإنسانُ مع العلامات، أي الآيات والدلالات الواضحة المعلمة في هذا الكون العظيم والدالة على الطريق القويم.

وقد ذكر في القرآن الكريم لفظ (علم) 12مرة، وفي مختلف الصيغ الأخرى (777) سبعمائة وسبع وسبعون مرة، وهي دائماً تشير وتدل وتعني وتشتمل على معنى العمل والعمق والأعلى والدعوة والعالم والعام والعلامات والاعلان والاشتهار والعلانية، فالعلم هو الشيء الذي يخضع أو ينتج عن التجارب العلمية، في المختبر أو في الحياة ويشعرنا بالثقة، والعلم هو الذي يحدد الاحتمالات الأكثر رجوحاً في المستقبل، وسوف تزداد قيمة هكذا علم كلما اثبت قدرته على تنبيهنا إلى الاحتمالات التي لم تكن بديهيّة (بالنسبة لنا) وذلك لو غضضنا الطرف عنها وقصرنا - في رؤيتنا للأمور - على ما نلمسه في واقعنا الراهن، ولكن المستقبل لم يعد يحتمل أن يترك للمجهول، بل أصبح من الواجب على كل عربي مسلم يفكر أو يعقل أو يعي، أن يحدد تصوراً علمياً واضح المعالم والملامح للمستقبل وأن يحاول إدراكه، وبقدر وضوح الرؤية، للخطط والخطوط العريضة وحتى التفصيلات الجزئية وامتدادها إلى مسافات زمنية أبعد مستقبلاً، وبقدر تنمية مقدراتنا على إثرائها بتفاصيل دقيقة ومحددة علمياً سيتحقق

---

1 (?) وفي المحيط: عَلِمَهُ: عَرَفَهُ، وعَلِمَ هو في نفسِه، ورَجُلٌ عالِمٌ وعَلِيمٌ، وعَلَّمَهُ العِلْمَ تَعْليماً وعِلاَّماً، وأعْلَمَهُ إياهُ فَتَعَلَّمَهُ، والتِّعْلاَمَةُ: العالِمُ جِدّاً، والنَّسَّابَةُ. وعالَمَهُ فَعَلَمَهُ كنَصَرَهُ: غَلَبَهُ عِلْماً، وعَلِمَ به: شَعَرَ به، والأمْرَ: أتْقَنَهُ، كتَعَلَّمَهُ، والعُلْمَةُ، بالضم وعَلَمَهُ: وسَمَهُ، والعَلامَةُ: السِّمَةُ، كعَلَّمَها، والفصلُ بينَ الأرْضَيْنِ، ومَنْصوبٌ في الطريقِ يُهْتَدى به، كالعَلَمِ فيهما. والعَلَمُ، محرَّكةً: الجَبَلُ الطويلُ، أو عامٌّ، ج: أعْلامٌ وعِلامٌ، ورَسْمُ الثَّوْبِ ورَقْمُهُ، والرَّايَةُ، وما يُعْقَدُ على الرُّمْحِ، وسَيِّدُ القومِ، ج: أعْلامٌ، ومَعْلَمُ الشيءِ كمَقْعَدٍ: مَظِنَّتُه، والعَلَمِ ما يُسْتَدَلُّ به، والعالَمُ: الخَلْقُ كُلُّهُ، أو ما حَواهُ بَطْنُ الفَلَكِ، ولاَ يَجْمَعُ فاعَلٌ بالواوِ والنون غَيْرُهُ وغَيْرُ ياسَمٍ. وتَعالَمَهُ الجَميعُ: عَلِموهُ، والعُلامِيُّ، بالضم: الخَفِيفُ الذَّكيُّ والعَلْماءُ: الدِّرْعُ، واعْتَلَمَهُ: عَلِمَهُ.)

النصر والنجاح وتجاوز الحاضر، والحضارة والحضور البشري إنما يبدأ بالعلم بالبيان، أي بفهمه للآيات المنتشرة والمنشورة، ويتبدى ذلك من استيعاب التجربة، وهذه صفة العقلاء والمتفكرين والراسخين في العلم أصحاب اليقين، أصحاب البيان، الذين أوتوا الحكمة، فلقد خلق الله تعالى الإنسان وعلمه البيان، لم يُعَلِّم اللهُ تعالى البيانَ لغير الإنسان، من الكائنات (لذلك كان الإنسان كيانا بذاته) فمفهوم (العلم) و(العالم) يعمل في البرانيّة (الظاهر)، بينما (المُصلح) يعمل في الأنفس الإنسانية الدخيلة أو (الجوانيـة) القابلة للوعي (نفوس أبناء الأمة والوطن) والوعي يولِّدُ الانبعاث والتجدد ويؤدي إلى القوة والنمو المطرد، وسيكَوِّن الوعيُ بالطبع فيما إذا كان مُخطط له، فإنه سيشكل رؤيا وطابعاً عاماً يطبع الحياة, إنَّ الوعي هو الذي سيصلنا بالفكرة الصحيحة الموجودة في العقل المُفكر قبْلاً.

إننا نخدم أنفسنا من خلال الانتباه لقوة عقلنا، يجب أن ننتبه لآيات الله تعالى، المنتشرة في هذا الكون، وأن نلحظها بجوارحنا ووجداننا، وأن نعيها ونفهمها، وأن نعلم أنَّ الثقة والإيمان بالله تعالى طريق كل نجاح ومدخلاً لكل انتصار، فالأساس أن يكونَ كل مبحثٍ علميٍ عبارة عن (فكر منظم) و(عقل يتحرك)، لأنه بالإضافة إلى كونه نشاطٌ عقليٌ وفكريٌ بالغ الرقي ويهدف إلى المعالي من الأمور[1]، فإنَّ من أهم سماته أنه ينبع من الإحساس والشعور الباطني والتأمُّل، وهو مبنيٌّ على التحليل العلمي، ويقوم على اهتمام وانتباه ووعي من الباحث للآليات والإجراءات التي تجعل من بحثه موضوعاً مرتباً ومنظَّماً... وليس اعتباطياً ولا عشوائياً، وهو لا يرمي إلى تحقيق الأهداف دون تخطيط مسبق أو إعداد؛ بل يتوصل إلى النتائج من خلال الخُطى الحثيثة والمدروسة باتجاه الهدف المحدد.

إنَّ مفهوم العالم أو (البرفسور) في الجامعات الأوربية وأمريكا تعني الشخص الذي حصل على الدكتوراه منذ أكثر من عشر سنوات وقد أمضاها في التدريس في الجامعات ومعاهد الأبحاث، وكانت له اسهامات واضحة وابحاث واكتشافات علمية بارزة، بحيث أنه أضاف شيئاً جديداً إلى المجال الذي تخصص به من فروع البحث العلمي، تُرى ما هو

---

1 (?) لا يمكن أن نطلق صفة (العلميّة) على الأبحاث المدمرة أو غير الأخلاقيّة أو التي لا تبحث في الأمور التنموية والمفيدة لحياة البشر، أو التي لا تهدف من حيث النتيجة إلى ما يفيد الناس! فكلّ بحثٍ غير إيجابي وغير منتج ولا يهدف في نهايته إلى المعالي من الأمور (الرقي والحضارة)، فهو بالمفهوم العلمي بحثٌ غير علمي.

مفهوم (العالم) في الدول العربية؟ لأنّ طرح السؤال بشكل خاطئ يوصل دائماً إلى نتائج كثيرة خاطئة، وأن طرح السؤال بشكل صحيح يؤدي دائماً إلى نتيجة واحدة صحيحة، وأنّ الفكر النيِّر هو الخير العميم وأن العِلمَ فيه مفاتيح الحرية، وتاريخ العلم الحقيقي الإبداعي يعلمنا أن جميع الباحثين الحقيقيين أصحاب النظريات الخلاقة، كانوا وإبان طرحهم لأفكارهم قد تعرضوا للكثير من النقد والرفض ولربما تعرضوا للسب والشتم والاعتداء وأكثرهم ماتوا فقراء معدمين منبوذين من مجتمعاتهم)[1] إنَّ المدخل الحقيقي للعلم يتجلى في (النباهة) وسرعة البديهة وحسن التصرف والأدب الجم والذكاء الحاد والقدرة على الربط بين المعلومات الصحيحة والاستنتاجات الموائمة والخروج بالنتائج المفيدة للناس، فالعلم بجوهره جاهزية فكرية وعملٌ مضني ومستمر، وليس العلم مجرد ذاكرة تستوعب أو تجمع المعلومات، والعالم ليس فجرد فأر في المكتبات[2].

ولكن من الذي قال بأنَّ العالم هو مجرد وعاء للعلم وغير ملزم بالتفكير، أو أنه مجرد ناقل أمين للمعلومات، حيادي سلبي وغير منحاز ؟!

فالعلم لا يتأتى بمجرد خلع الصفات على الشخصيات، والدعاية الأعلامية لها أو لكونها مشتهرة واسعة الانتشار؛ وليس ولم يكن (العلم) بمجرد حمل الكتب المجلدة أو حفظها وقراءتها أبداً وهو لا يتأتى لكون الإنسان طاعناً بالسن، ولا بلبس المئزر ووضع العمامة، ولا بالمداومة على حضور الحلقات الصوفية والسلفية أو الشيعيّة أبداً، وبالتأكيد فإنَّ المفهوم القديم للعلم لم يعد في هذه الأيام يُقنع

---

1 (?)(راجع كتاب الفلاكة والمفلكون) دار الكتاب العربي بيروت.

2 (?) وفي الصحاح أنَّ العَلامَةُ والعَلَمُ: الجبلُ، والعَلَمُ: الرايةُ، وعَلِمْتُ الشيءَ أعلمُهُ عِلماً: عرفته. وعالَمْتُ الرجل فعَلَمْتُهُ أعْلُمُهُ بالضم: غلبته بالعِلمِ، ورجلٌ عَلاَّمَةٌ، أي عالِمٌ جدًّا، والهاء للمبالغة، كأنهم يريدون به داهيةً. واسْتَعْلَمني الخبر فأعْلَمْتُهُ إياه. وأعْلَمَ القصَّار الثوبَ، فهو مُعْلِمٌ والثوب مُعْلَمٌ. وأعْلَمَ الفارسُ: جعل لنفسه علامة الشجعان، فهو مُعْلِمٌ. قال الأخطل:

وما زال فينا رباط الخيل معلمة
وفي كليب رباط اللؤم والعار

وعلَّمْتُهُ الشيء فتَعَلَّمَ، وليس التشديد ههنا للتكثير. ويقال أيضاً تَعَلَّمْ في موضع اعْلَمْ. قال عمرو بن معد يكرب:

تعلم أنَّ خير الناس طراً
قتيل بين أحجار الكلاب

والمَعْلَمَ: الأثر يستدلّ به على الطريق. والعِلاّمُ بالضم والتشديد: الحِنَّاء. والعالمُ: الخَلقُ، والجمع العَوالِمُ. والعالمونَ: أصناف الخَلق.

العاقلين ولا حتى الأطفال منهم، وخصوصاً الذي ينصُّ على أن العلم بالنقل وليس بالعقل!

والعلم إضافة إلى أنه يعمل على توطيد علاقة الطفل بوطنه وأمته وزرع الثقة به، مع تعميق إنتمائه للمجموعة، والتأكيد باستمرار على حاجة الوطن والأمة إلى هذا الطفل الإنسان، وانتظار أمته له ولجهوده الفكرية والعملية والأمل به وبمستقبله، وتوظيف كافة التطلعات والأهداف لدى الأطفال عند اطلاعهم على العلوم المختلفة، وربطها مع تطلعات الآخرين، وتعويد الأطفال منذ نعومة أظفارهم على (الشعور والحس الوطني المشترك) وتأجيج المشاعر الوطنية لديهم.

إنَّ عمل (التحليل والتركيب) هو محاولة عقلية بحتة تهدف إلى النفاذ إلى ما وراء الظاهر، من أجل الكشف عن الحقيقة المكنونة والكامنة في الأشياء والأحداث من حولنا، وهو أي عمل (التحليل والتركيب) تصويري داخلي لأنه نشاطٌ ذهنيٌّ خالص وعلاقته بالواقع الخارجي محدودة، ويهدف إلى بناء موضوع ما تمَّ تأمله والتفكير فيه.

إن التكوين أو التشكيل النظري (البحث) قد ينتج عن نشاط ذهني محدود، وهذا النشاط قد يكون بسيطاً تألَّفَ أو تآلف من أفكار ومعلومات وعلاقات نظرية محدودة، أو قد يكون بالغ التعقيد وقد تآلف من أفكار بينها علاقات متراكبة ومتشابكة، معقدةٌ أشد التعقيد، وذلك كله بحسب خبرة الباحث الذي سيقوم ببناء ذلك التصور والبحث العلمي والتحليل، وقدرته على بناء الموضوع، وتاريخه الشخصي، منذ أن بدأ بوضعه وهو الناظر المتأمل والمفكر المستكشف[1].

---

1 (?) وهنا أذكر بكل تقدير ما ذكره الدكتور أبو العلى العفيفي رحمه الله تعالى، حول عمله على (رسالته في الدكتوراه) أو تجربته في تحقيق كتاب (الوصايا) لابن عربي، العمل الذي يعتبر بحق مثالاً للبحث العلمي، الذي استغرق أكثر من 25 عاماً، بدأ 1924 وطبعه عام 1947 م، يقول د. العفيفي في مقدمة كتابه: أنه في عام (24) ذهب إلى لندن لعرض رسالته (الدكتوراه) في (جامعة كامبردج)، وقد فوجئ برفضها من قبل المشرفين عليها من الانكليز وازدرائهم لعمله الهزيل! وأنه عاد إلى مصر فاشلاً، ولذلك بدأ بالعمل الجاد، وقد استغرق أكثر من 25سنة حتى تمكن من إعادة كتابة رسالته وانجاز ذلك العمل الرائع، والذي يجمع الباحثون والدارسون أنه بهذا العمل كان قدَّم فعلاً شيئاً جديداً ومميزاً، وقد أضاف به إلى المكتبة العربية والعالمية بحق، درّة فكريّة وعلمية خالدة خصوصاً حول فهم التصوف والحركات الصوفية وأعمال ابن عربي المبهمة وشطحاته وغرائبه والتي لم يكن الكثير من الناس يستسيغها أو يستطيع فهمها أو تفسيرها.

فهو (د.عفيفي) قد ارتحل إلى الموطن الذي ولد فيه (ابن عربي) ودرس آثاره في (اشبيليا) ثم تتبع خطاه إلى المغرب ثم إلى الجزائر ثم إلى تونس، وكان يقيم حيث أقام (ابن عربي) وصولاً إلى مصر، ثمَّ ذهب وجاور في مكة المكرمة وذلك تماماً مثل ما فعل ابن عربي ؛ ثم جاء إلى

لـذا فـإن من أهم ما يمـيز التحليل هو (الأنـاة)، فالتحليل إلعلمي ليس مباحاً لشيطان العجلـة، ذلك الشـيطان الـذي ما أن يُفلح بالولوج إلى التحليل حتى يخرج منه (الصـدق) ويهمن عليه الزيف لـــذلك يجب أن لا يكـــون التحليل العلمي عملاً عشـوائياً في البيـداء على غـير هـدى وإلا سـقطت عنه صـفة العلمية؛ فالتحليل العلمي الفكـري منظم وهـادف، إن انتظـام الفكر وانضــوائه تحت الأحكـــام الربانية الطبيعية والأعـــراف والتقاليد العلميـــــة، وذلك من خلال المراجعة والتصـــــحيح والتدقيق، والنقد والتقويم المستمر والدائم.

إنه انتظام الإيفاء وإحكام الخطى وتسديد الوجهة.

(فالتحليل عمـــلٌ يحـــاول الكشف عن المعـــنى والبنية والوظيفة بـالفكر المتـأني والمنظم في موضـوعٍ مـا...، لينتج عنه وضـوحٌ وجلاءٌ وكشـفٌ عن المعـالم وعن المسـتويات في البنية واتجاه حركتها) [1].

إن البحث العلمي عبــارة عن عملية تحليل وتــركيب تتجه أساساً إلى رؤية المستقبل في الحاضر أو استشفاف الصورة الأرقى للبنية من صـــورتها الحاضـــرة إنه استشـــراف الغاية والقصد والهـــدف من حركة البنية المتعاليـــة، وكما أن البنية الحية مفعمة بالتفاعلات بين مكوناتها ومستوياتها فهي ذاخـرةٌ بالتبــادلات في التــأثير والتــأثر، لــذلك فهي حاضــرة وحيوية ومتوازنة وفيها طاقة وهي دائمـــــاً هادفة إلى تحقيق ما لم يتحقق بعد إنها يجب أن تكون هادفة وأن يكون لها وظيفة أي أن تكون ذات جدوى.

إنه لابد للباحث المحلل من يقظة وعي لما يوحيه المعـنى ولظل الدلالة وإيحاءاتها وإشــعاع الإشــارة وملامحهــا، وذلك بـــإدراكٍ أعمق لتطـــور البنية الحقيقي للأشـــياءِ والأحـــداث، ووظيفتها من كافة الأبعاد والمستويات وخصوصـاً المسـتقبلية

دمشق وأقام بها في الصالحيّة قريباً من مسجد (ابن عربي) وهو يـدرس آثاره ويدرس تأثيره على البيئة التي عاش فيها ابن عــربي في كل مرحلة من حياته، ثم سافر إلى (اسطنبول) عاصمة العثمانيين (الدولة المحيوية) إلى مكتباتهـا، يـدرس كتب ومخطوطـات (ابن عـربي)؛ ثم ذهب إلى الهند إلى جامعة (عليكـــرا) أيضـــاً ليبحث عن أثر (ابن عـــربي) ثم ذهب إلى (باريس) ومكتباتها وباحثيها، ثم إلى (واشـنطن) ومكتباتها وباحثيهـا، وكـان يدرس ما له وما عليه وكل ما كـان معه وما كـان ضدَّه، كل ذلك ليـدرس ابن عربي وفي جميع اللغات الحيّة، وابن عربي له تماماً مأتي كتاب كبـير كل كتاب له عدد من المجلدات، وقد قرأ ها ودرسها د. العفيفي كلها! كل ذلك من أجل تحقيق كتاب واحد لا يتجاوز عدد صفحاته 300 صفحة، بينما يقـوم بعض المحققين والكتـاب بتقـديم كتـاب إلى المطبعة في كل شـهر فتأمل يا رعاك الله.

1 (?) التحليل الأخلاقي للمسؤولية، ص18، دكتور سيد أحمد عثمـان، مكتبة الأنجلو المصرية 1996.

أي ما سيؤول إليه الأمر وخصوصاً في المستقبل المتصور والمتوقع لما هو موضوع التحليل؛ إن الفهم الحقيقي والوعي والانتباه الحقيقي لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال المعطيات الصادقة النظم، في التحليل والتفسير والظواهر وصدق الرصد والتتبع المتأني لأطوارها وحالاتها وبالتالي صدق إدراك دور الذات وإمكاناتها الحقيقية، إن الصدق بالتعاطي هو عماد الفهم والوعي (الفردي والجماعي)، ثم يأتي دور الاهتمام بالموضوع المحدد والتركيز عليه، والتخلي كلياً أو جزئياً عن الشواغل الخارجية...، الأمر الذي يحتاج إلى الشجاعة والحماسة وعقد العزم المدفوع من الصبر، إزاء الضغوط المختلفة والعطالية المحدقة، والمشاركة مع الجماعة.

إن الأمر يحتاج إلى بنيةٍ أخلاقية عميقة الجذور قائمة على الاختيار الحر والوجدان، والنشاط العقلي المفاضل المرجح والمقرر والموصِل إلى اتخاذ القرار المناسب، إن الاختيار الحر عملية أخلاقية في صميمها ونتائج عديدة تترتب على السلوك الذي تحرك واتجه إليه القرار المختار.

إن من عناصر اختلال الإدراك وخطله أن لا يتقبل المجتمع تقبلاً كاملاً بكل ما فيه وأن لا يرفض ما ينبغي له أن يرفضه.

إن التقبل والرفض حركتان حيويتان لضمان صحة الوجود الاجتماعي مثل كون حركتي الزفير والشهيق ضمانٌ لصحة الوجود الحيوي.

إن من يرفض رفضاً سوياً راشداً هو الذي يتقبل تقبلاً نزيهاً واعياً، إن سلامة المجتمع ذاته لا تكون إلا من خلال صحة نظرته إلى مرآة ذاته، ليقبل منها ما يستحق القبول ويرفض ما لابد له من رفضه، إن صحة الإدراك والوعي الذاتي للمجتمع حاجةٌ من حاجات بقائه وتوازنه وبالتالي استمراره بقدر ما هي حاجةٌ من حاجات سلامته وحيويته، ولا يسلم مع الإدراك الذاتي المختل للمجتمع أو الفرد قرارٌ ولا فعلٌ ولا حركة ولا نتيجة ولا يضمن معه توازنٌ أو استمرار.

ماهية العقل

فتداول الأفكار واستنساخها وانتشارها، وتناقل النصوص النظرية وتحليلها أو ترديدها أو تأويلها وإجراء النقاش حولها فإنه لا يُعدُّ فكراً، لكنَّ الفكر يتجلى في إعمال العقل وفي توجيهه نحو الإنتاج، انتاج الأفكار وإيجاد الحلول المناسبة.. أما تداول تلك الأفكار وتلك النظريات التي أصبحت جاهزة (أفكار الآخرين)؛ وانتشارها في ما بعد والاطلاع عليها، أياً كانت ومهما كانت، فلا يُعتبر فكراً ولكنه مجرد ثقافة.

... والفكر ليس مجرد نصوص لنظريات وآراء جامدة علمية أو أدبية أو فلسفية يحفظونها عن ظهر قلب، ويتناقلها الناس البلهاء، يحفظونها ويرددونها دون الولوج إلى مضامينها، أو وعيَ ماهيتها، أو ادراك الغرض منها[1]، لأنَّ العقل هو الينبوع الذي تنبع منه الأفكار، والفكر أو العمل الفكري الحقيقي يتجلى في اختراع وتوليد الفلسفات والنظريات والآراء ووجهات النظر واستنباط الحلول، أما تلك الماكينة الاعلامية والثقافية التي تعمل على مجرد التكرار والتلقين والحفظ، فإنها إنما تحوِّل الناس إلى مجرد نقلة بلهاء، لا يلوون على شيء ولا يُرجى منهم شيء قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة: 5]

إنَّ الإنسان المفكر مخترع ومستنبط ومنتج للحلول، وهو لمّاح وصاحب بديهة ويفهم بلغة البرقيّة والرسالة المشفرة، ولا تفوته رسائل الإلهام السريعة، لأنَّ الصلة قائمة ومستمرَّة بين عقله الباطن وعقله الظاهر، لقد مرَّ ردحٌ من الزمن كان فيه العرب المسلمون المُجهَّلون عن قصد، يعتقدون أن (قمة الفكر وسقفه) كانت في تلك الأساليب المباشرة وغير المباشرة (المُبطَّنة) البيانيّة والبلاغية المُجَدَّدة؛ والتي كانت تنتقد أو تُشَرِّح السلطة السياسية أو الاجتماعية.

والعقل ليس مادياً محسوساً، وإنما هو جوهرٌ معنويٌ يُعرَفُ بآثاره وملامحِهِ وتجلياته بالواقع، وهو مجموعةٌ من القدرات تتوفر لدى البعض من الناس ويحرم منها الكثيرون ومن أهم قدراته ملمحاً أولاً حرية الإرادة، وهي شرطٌ من

---

[1] (?) ولا يزال المسلمون العرب إلى هذا الوقت، غارقون في أساليب طه حسين وعباس محمود العقاد والمنفلوطي والزيات، وهم لا يدرون أن هؤلاء وأمثالهم مع تقديرنا لهم جميعاً، إلا أنهم لم يكونوا مفكرين وإنما مجرد كُتّاب ومترجمين نقلة ليس إلاّ.

شروط العقل بل هي مقرونة بالعقل، وهي أساساً لله تعـالى فقط، قال تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: 16].

ثم هي للعقلاء فقط وليست للكائنـات غـير العاقلة أبـداً قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِـرَةِ مِنْ نَصِـيبٍ ﴾ [الشورى: 20] والإرادة تمنحنا القدرة والدعم على الخيـار، وثانيـاً: عـدم وجـود الأغلال في الأعنـاق قـال تعـالى: ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَـوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْـقٍ جَدِيـدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَـــرُوا بِـــرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَـــاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الرعد: 5]. قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَـاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَـانِ فَهُمْ مُقْمَحُـونَ ﴾ [يس: 8] والأغلال هي القيـــــود المعنوية الداخلية وذلك على عكس القيـود المادية الخارجيـة؛ ومقمحـون أي مُكبحـون أي موقوفون في مكانهم لا يتقدمون أبداً.

وثالثـاً: القـدرة على التميـيز أن يميـيز الإنسـان بين ما يُعرض عليه من أمور بين الصالح والطالح؛ قال تعـالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِـالْحَقِّ وَالْمِـيزَانَ وَمَا يُـدْرِيكَ لَعَـلَّ السَّـاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: 17]، ورابعاً: القـدرة على التفريـق، قال تعـالى: ﴿ وَلَقَـدْ آتَيْنَا مُوسَـى وَهَـارُونَ الْفُرْقَـانَ وَضِـيَاءً وَذِكْـرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبيـاء: 48] قـال تعـالى: ﴿ تَبَـارَكَ الَّذِي نَـزَّلَ الْفُرْقَـانَ عَلَى عَبْـدِهِ لِيَكُـونَ لِلْعَـالَمِينَ نَـذِيرًا ﴾ [الفرقـان: 1] فالفرقان هو قـدرةٌ من الله تعـالى يمنحها لعبـاده المُخلصـين وهي القـــدرة على التفريـــق، وخامســاً: القـــدرة على الحكم أو اصـدار الحكم الـداخلي على الأشـياء والقضـايا المعروضة أمامنا في الحيـــاة، إذ لا بـــدَّ من وجـــود القـــدرة على الحكم والحكمة التمكن من الحكم واسـتمراريته وغائيته واسـتهدافه للخير، وذلك لـدى كل عاقل وإلا فلا عقل له أساسـاً، و(الحكم والحكمة) من أولى القدرات وأحقها وجـوداً لـدى العاقل قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلَاءِ فَقَـدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَـافِرِينَ ﴾ [الأنعـام: 89] قـال تعـالى: ﴿ يَا يَحْيَى خُـذِ الْكِتَـابَ بِقُـوَّةٍ وَآتَيْنَـاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مـريم: 12] وسادسـاً: الحيـازة أو التخلص من الجهل وامتلاك العلم قـال تعـالى: ﴿ وَعِبَـادُ الـرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَـــاطَبَهُمُ الْجَـــاهِلُونَ قَـــالُوا سَـــلَامًا ﴾ [الفرقـان: 63].وسـابعاً: وفي الطليعة الفهم قـال تعـالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُـــلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَـــخَّرْنَا مَــعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 79]

وقبل ذلك وبعده الذكاء والحنكة والدهاء والعلم والغائية وهذه من بدايات أو بديهيات العقل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[النمل: 15].

ومن النتائج الدالة على وجود العقل (الاحسان) و(العدل) و(إيتاء ذي القربى) و(الانتهاء والابتعاد عن الفواحش والمنكرات) وصولاً إلى حالة التذكر أي العلم والمعرفة والإيقان وبذلك يُرفع الإنسان من مرحلة الدونية والحيوانية ليصل إلى أعلا عليين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 90]، قال تعالى: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8) ﴾ [التين: 1- 8] فالإنسان خُلق بدايةً في أحسن تقويم ثمَّ رُدَّ بسلوكه وبما كسبت يده إلى أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأهم ما في العقل كونه يحوِّل الضعف إلى قوة، ويعمل على تبديل الأفكار السلبية بالأفكار الجديدة الايجابية البناءة والمنتجة، وعلى متابعة الفكرة الصحيحة وتكميلها واتمامها (العقل التام والكامل) ويؤمن الاعتياد عليها من خلال تكرارها والتأكيد عليها نظراً لعائداتها المفيدة؛ إنَّ من الضروري الإنصات إلى صوتنا الداخلي (الضمير) وما يجول بخاطرنا من الأفكار، الإيجابية البناءة مهما توقعنا ومهما كانت الكلفة المتخيلة.

أننا إذا كنا نرغب في أن نكون إيجابيين فعلاً وشهمين فإنَّ علينا أن نمتنع عن القيام بدور الضحيّة، ونظهر أننا معوزين ونثير الشفقة، وأننا دائماً بحاجة إلى كل شيء (صفة الجاهلين)، بل يجب أن نكون على الدوام مبادرين في الاحسان، يجب أن يكون الإنسان فاعلاً ومؤثراً ومحسناً ومُفيداً للآخرين ومضحياً يبذل قصارى جهده في خدمة المجتمع والحفاظ عليه، هذا الشعور يجب أن يكون عاماً في الأمة (صفة العقلاء), إن من المفروض أن يكون الاهتمام عند (العقلاء المفكرين) منصباً أيضاً وهو موجهاً إلى النوايا والاعتقاد، لأنها على الأغلب تكون السبب في تكوين أو تكوُّن النتائج والأوضاع أو ما ستؤولُ إليه الأمور، لأنه ليس كل ما ينظر إليه سيكون مهماً ولكن ما نركز اهتمامنا عليه.

فـإذا اردنا تربويـاّ وتثقيفيّـاً تشـكيل الشخصـيات العظيمة والقامات النبيلة المثالية في المجتمع، فإنَّ من المفــروض أن نسعى إلى تعليم الأجيال العربية المسـلمة، وتلقينها المواقف النبيلة والشــجاعة، وأن نعودها الوقـــوف إلى جـــانب الحق والعــدل والحرية لكي تنعكس تلك المواقف على شخصــيتنا، يجب أن نعود أنفسنا على السلوك الأخلاقي الحضاري القيمي المثـالي النبيل وإلا (فلا شــيء من اللاشــيء)، إذ لا يمكن أن تتشـكل الشخصـيات القويّة القيادية والحكيمة والشـجاعة في الوسط الفاسد عـديم القيم والأخلاق والمثل النبيلـة، لا يمكن أن يتولد العظمــاء في الأوســاط الســلبية المنحطة الــذين اعتادوا على الخيارات الفاسدة، أو كـانت اهتمامـاتهم سـخيفة وتافهـــة، فلا يمكن أن نتوقع من شـــخص أمضى حياته في الملعب أو في الملهى أو في المطبخ لا يمكن أن نتوقع منه الكفاح والنضال أو الرغبة في التقـدم والنهضة أو التفكـير في تحرير الوطن.

قال الشاعر المتنبي:

ذو العقل يشـــقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة بالشقاوة ينعم

فإننا عندما نبدأ بالتعامل الإيجابي مع عقلنا ستكون النتـائج فورية في الواقع.

النجاح والفشل فكرتان عقليتان وعلينا دائماً توقع النجــاح مع توخي الحذر.

إن المشاكل من أي نوعٍ تنبيهٌ لنا من الله سبحانه وتعــالى لكي لا نفكر بصورةٍ سـلبيةٍ خاطئـة، وبـأن علينا أن نعيد توجيه عملية التفكير عندنا باتجاه الحق، ولذلك فعندما يغتـاظ المـرء أو يهتاج فإن ما يفعله سيفتقر إلى التنسيق ويصـبح اعتباطيـاً، فالأساس ليس أعدائك في أي مكـان؛ بل أعـداء عقلك فليس لأي شخصٍ سلطةٌ عليك مالم تمنحه أنت هذه السلطة!...

إن النفس المؤمنة في داخلك هي التي يجب أن تكون اليــد العليـا والمسـيطر الوحيـد والقـوى السـامية في داخلـك، إنهـا تســـــتمد قوتهـــــا من اللـــــه، قـــــال تعـــــالى: ﴿ وَمَـرْيَمَ ابْنَتَ عِمْـرَانَ الَّتِي أَحْصَـنَتْ فَرْجَهَـا فَنَفَخْنَـا فِيـهِ مِنْ رُوحِنَـا وَصَـدَّقَتْ بِكَلِمَـاتِ رَبِّهَـا وَكُتُبِـهِ وَكَـانَتْ مِنَ الْقَـانِتِينَ ﴾ [التحريم: 12] إن نفس الإنسان كيانٌ واحدٌ وهو يستجيب دائماً لأفكارنا.

للإنسان قوتـان، قـوة علمية نظرية وهي القـوة أو الطاقة الفكريـــة، وقـــوة عملية إرادية، وهي القـــوة المادية العملية

والطاقة العضــليّة، وسـعادته التامة موقوفة على اســتكمال قوتيه العلمية والإرادية، واستكمال القـوة العلميـة، إنما يكـون بمعرفة فـاطره وبارئه ومعرفة أسـمائه وهي طـرق الوصـول إلى الكمـــــال، ومعرفتهـــــا، ومعرفة آفاقها ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها، فبهـذه المعـارف الخمسة يحصل كمـال قوته العلمية، وأعلمُ النــاس أعـــرفهم بها وأفقهم فيهـــا، وذلك أنَّ اسـتكمال القـوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعـاة حقوقه سبحانه وتعالى على العبد، والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصـحاً وإحساناً ومتابعـةً وشـهوداً لمنته عليـه، وتقصـيره هو في أداء حقه فهو مسـتحيي من مواجهته بتلك الخدمة، لعلمه أنها دون ما يســـــتحقه عليه ودون دون ذلك وأنه لا ســـــبيل لها إلى استكمال هاتين القوتيين إلا بمعونته فهو مضطرٌ إلى أن يهديه الله سبحانه وتعـالى إلى الصـراط المسـتقيم الـذي هدى إليه أوليائه وخاصــته، وأن يجنبه الخـــروج عن ذلك الصـــراط، إما بفســــادٍ في قوته العلمية فيقع في الضـــــلال وأما في قوته العملية فيـوجب له الغضب، فكمـال الإنسـان وسـعادته لا تتم بمجموع هذه الأمور وقد تضمنتها صورة الفاتحة.

وقد قيل إلى الحسن: (سـبقنا القـوم على خيـلٍ دهمٍ ونحن على حمرٍ معقـرة)، فقـال: (إن كنت على طـريقهم فمـا أسـرع اللحاق بهم)، إن هبوط الغائص خلف الدر إنما هو صعودٌ.

الله ســـبحانه وتعـــالى يحب خلقه ولـــذلك حرَّم عليهم المفاسد كلهـا، حـرم عليهم كل ما يضـرهم ولا ينفعهم ولكنه تعالى يحبهم لذلك أرشـدهم ودلهم إلى ما ينفعهم ويحيهم، إن العبـاقرة يملكـون سـمات وطبـاع ممـيزة، إن القـادة لهم شخصـــيات تجعلهم في موضع متمـــيز مقارنـــةً بأتباعه لقد اعتبرت العبقرية أن لها خصلةً شديدة الاتساع، فتشـتمل على قوى عقلية ودافعية تتجاوز الحد الطبيعي، فـالعبقري الحقيقي ذي قوى عامة كبيرة تتحول باتجاه معين، والواقع أن العباقرة في كثيرٍ من النشـاطات والقـوى، ومن حيث الانـدفاع والهمم متشـــابهون، فالإبــــداع شـــرطه الأساسي الحرية الداخلية والخارجية...

التحرر من الوهم والقـدرة على التقـدير الصـحيح سـمات الشخصية المبدعة الـذكاء الخـارق والتمكن والعقلية الشـاملة وعنـدهم مخـالب الأسـد، ويتمتعـون بـذاكرةٍ رهيبة واهتمـام عجيب إن العبـــاقرة يتفـــردون بإمكانيـــات ودوافع خاصةً واهتمامات ومتميزة لا تتوفر عند غيرهم من البشر وقد تظهر في وقتٍ مبكر وقد تتـأخر فتـأتي لا حقـاً إن ذكـاء البعض قد يولِّد لدى الآخرين دهشةً، ولـذلك تتم الشـهرة والانتشـار على

الرغم من وجود الأكـثر كفـاءةً في الصف الثـاني من المجتمع أو من الجماعة.

إن تعرض العقل الفردي للمسـائل والقضـايا والمشـكلات الكبرى والعظمى والتجـارب الواسـعة سـيكون مبـدأً أساسـياً وهامـاً لتكوينه كعبقرية، ولجعله من أصـحاب المعـالي وتكونه واعداده ورفع مستواه.

أما أولئك أصــحاب الاهتمامــات البســيطة والســطحية والعادية المحـدودين في إمكانيـاتهم وطموحـاتهم فلن يكـون لديهم قدراتٍ ولا أعمـاق ولا دوافـع؛ لإنجـاز الأعمـال العظيمة والخالــدة إنهم يولــدون ولادةً في بيئــةٍ، والعــرب تفــرق بين الــولادة والانجـاب فهم (الــذين يولـدون في حالة ولادةً عادية في بيئة عادية في اسرةٍ عادية، ثم يمضون حياتهم عاديــة، ثم يموتون مثل كل الكائنات، أولئك ليسوا أعلاماً.

بينما النجبــــاء هم الــــذين تكرست فيهم النباهة واليقظة والوعي والحافظة القوية والحرية والثورة، ويمتلكـون قـدراتٍ هائلة على التعقل والتفكر والحكمة إن لـــديهم قـــدرةً على اختراق حجب الوهم، ويتحقق عندهم التـأثر بـالمؤثر مع تـوفر المؤثر الإيجابي البناء، إذ لا جدوى من وجود المـؤثر إذا كـانت معدومة مطارح التأثير قال تعالى: (إن هو ذكرٌ وقـرآنٌ مـبين) [الآيــة]، إن وجــود المســائل الكــبرى والمشــكلات الكــبرى والهموم الكبرى والقضايا الكبرى في حياة الإنسـان لحـريٌ به أن يكون رفيع المستوى وعزيز (والعزة لله تعالى)، ولكن الله سبحانه وتعالى رتب الأمور بتلك الطريقة لتــؤدي بالنتيجة إلى رفع مستوى الإنسان عن الدنايا والانحطاط، ومن كان ينتظره الامتحــان حــريٌ به أن يــدرس ويحضر نفسه لا أن يتقــاعس ويهبط إلى القاع.

مفهوم العقل[1]

فقد ذُكِرَ العقل في القرآن الكريم تسعٌ وأربعون مرة، وآلياته السمع والبصر وميدانه الإيمان والحياة على قاعدة الانتباه والفهم والتأمل، وهو كليٌ، والذين يعقلون هم العالمون لا غير، وأكثر الناس ضالون لا يعقلون، والعقلاء لا يخافون أساساً، ولا يعتمدون إلا على الله تعالى، ويتأملون بالأطوار، والخطاب للعقلاء عربي فقط، وهو موجهٌ للمؤمنين الأحياء فقط، وغير المؤمنين لا يعقلون وهم أموات، جاهلون يمشون على الأرض، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 171] وغير العاقل أحمق لا يُدرك ولا يُحسن التصرف في أي شيء، ولا يُتوقع منه خير أبداً.

التبصر بالعواقب، والربط والارتباط بالحقائق، وهو لله تعالى أي غير منحاز، وهو عربي فطري أي منزَّل من السماء، والثقة والتوثيق والمتانة والتمتين، وتنقية العُقد والروابط الاجتماعية والبيئية وانتفاء الشرور عنها، والنظافة من الآفات، الداخلية والخارجية، وهو مفهوم يوحي بالدوام والممارسة وتكرار التجربة والاستنتاج للنتائج، وفيه أيضاً تعلق وارتباط وصلات وعلاقات، وهو امتدادٌ للعلم بشتى الصور والأحوال، والشيء المهم جداً هو كون (التعقل) في القرآن العظيم من حال العمل وبذل الجهود؛ دائماً وليس هنالك (في القرآن العظيم) عقل مجرد؛ كما هو الحال عند فلاسفة الغرب أبداً.

وهو الدرب والنهج الذي نهجه الأنبياء جميعاً وكذلك الصالحون، وهو السلوك في الآيات المبينة في هذه الأرض وهو متاح للجميع من الناس وليس حكراً على أحد إذا أرادوا، وقد سخّر الله للناس ما في الأرض جميعاً وكذلك الأرزاق التي في السماء، من أجل أن يعقلوا قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: 12]، والعقل يفضي دائماً إلى البر والاحسان والأمان بين الناس، الذي يجب أن يتأتى أولاً من تلاوة الكتاب، كتاب الله تعالى، وتأمل آياته في هذا الكون الواسع، إنه محض الصدق ولا يقبل التناقض أبداً، وهو بوابة الفكر ومدخله الرئيس، ويتطلب الإدراك والوعي، إنه اتباع الحق الذي أنزله الله تعالى وليس بالنقل العقيم، وعكسه الجهل،

[1] (?) العقل هو مصطلح يستعمل عادة لوصف الوظائف العليا للدماغ البشري، خاصة تلك الوظائف التي يكون فيها الإنسان واعياً، والعقل اقرب للوصف لأنها آتية من (التعقُّل) والذى هو فهم الامور ووزنها...

وينصُّ ويؤكد على الموضـوعية في فهم الواقع ودراسـته دراسة متأنيّة والاستنتاج بنـاءً عليـه، والعاقل يبقي تحت ناظريه الآخـرة ولا ينخـدع بالمظـاهر والأقـوال والألـوان والأضـواء المصـطنعة (التقَّيَّة)! وعـدم الاعتمـاد على الآخـرين من غـير المنتمين للأمة والـوطن الواحـد، والعقل للعقلاء يـوجب الصـلة مع الله تعـالى، وهو مبني على فهم الناس لقوانين الله تعـالى، وبالتـالي تحـريم ما حرمه الله تعـالى وتحليل ما حلله الله تعـالى، أبعد ما يكـون عن التواكل والبلادة والركـون إلى التقاليد الباليـة، وفي حين أن عليهم أتبـــاع الحق المـــبين، إن العقل ســـمة الإنســـان وعليه فالإنسـان مُحاسـب، والـدواب ليس لـديها عقل وبالتـالي ليس عليها حساب، والحجج الواهية لن تفيد أبداً.

والواقع فإن مفهـوم العقـل، ومفهـوم الفكر واليقين والقلب والنفس والـــروح والادراك والـــوعي والانتبـــاه والعلم والفهم والحـدْس والمعرفـة، والنـوازع والأهـواء والعواطف والـدوافع والتطلعـات، والقيم والمثل والأخلاق، وحـتى المصـالح فهي كلها بالمبدأ ومن حيث النتيجة نواحي وأبعاد وأرجـاء لكيـان واحد وهو (الإنســـان)، إنها بالفعل بمجموعها تشـــكل (الإنســـان) وهو أي (الإنسـان) من حيث المـآل[1] ليس مجـرد كـائن حي مثل بـاقي الكائنات، وهذا يعني أننا لا يمكن تصـوّر (الإنسـان) ككيـان واسع وشامل، دون نواحيه وأرجائه أو بمعزل عنها أو عن بعضها، لذلك فـإنَّ طـرح قضـية الإنسـان وكمالـه؛ والـذي هو بالأسـاس غاية الغايات، لا يمكن فهمها أو ادراكها دون فهم كافة أبعادها.

---

1 (?) قـال تعـالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ وَلَا طَـائِرٍ يَطِـيرُ بِجَنَاحَيْـهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَـالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَـابِ مِنْ شَـيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَـرُونَ ﴾ [الأنعـام: 38]، طبعاً هذا الأمر من حيث الحياة فنحن صـحيح أننا مشـتركون مع بـاقي الكائنـات في هـذا العـالم، ولكنَّ الإنسـان مكلـفٌ وهو محاسـبٌ وعلى عاتقه تقع تبعـات، والحيوانات غير مكلفة وهي لا ينتظرها الحساب.

ظواهر العقل

ومن ظواهر العقل القوية التي تدلُّ عليه، الاعتماد على النفس: فصاحب العقل الراجح بعد الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، يميل على الدوام للاعتماد على نفسه أي على ذاته، لا يتكل في موارده والنشاط على الآخرين مطلقاً، يأكل من عرق جبينه ومما كسبت يداه، وهو لا يُعول بالنتيجة على أحد غير الله تعالى وجهده الذاتي، ويعرف تماماً أن الإتكال مادياً أو معنوياً سمة العاجزين عقلياً وفكرياً وجسدياً، وهو لا يلجأ إلى الاتكال إلا إذا كان مطرَّاً؛ مريضاً أو عاجزاً، بينما العقلاء أقوياء ويعتمدون على الله تعالى، فمن الذي وضع الحواجز واقام الحدود بين رب العالمين والإنسان؟ وافترض الاشكاليات.. وباعد بين المشيئة الربانيّة والنفس الإنسانية؟ إلا يفترض أن تكون الإرادة الحرة الخيِّرة للإنسان منبعثةً أساساً من المشيئة الإلهية؟ فمتى تم الخلط بين الحديث الرباني والفلسفة قال تعالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: 87] قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: 37].

ومن هنا جاء الحديث عن النفس الأبية و(الشخصيّة الشجاعة)[1] المقدامة والمشرئبة، الواثقة الخطوات المبادرة بالإحسان والعطاء اللماحة العالية الهمّة المقتدرة الزكيَّة الطاهرة العفيفة الصادقة والأمينة والمؤمنة، وهي في مقابل النفس أو الشخصيّة الذليلة الجبانة المنحطة المنهارة والمنعدمة؛ والتي تكون على الدوام في حالة عوز شديد وفي حالة مستمرة من إراقة ماء الوجه والتسول وتإنُّ تحت سياط الحاجة... وتتطلب من الآخرين كل الأمور والأشياء الأساسية وغير الأساسية! وقد تبين للباحثين أنَّ وحدةً جوهريةً تجمعُ العقلَ والنفسَ معاً وتجعل منهما جهةً واحدةً واتجاهاً ووسطاً ومركزاً وحقلاً ومجالاً واحداً، ولكن في حالات وأوضاع ربما تكون مختلفة ظاهرياً، إنما هي وحدةٌ واحدةٌ متفاعلة وتشترك

---

1 (?) فكل شخصيّة بالواقع هي أنموذج مُعيَّن من الأفكار والمشاعر والتصرفات (التجارب) سواءً أكانت أساسيّة أو مكتسبة، والتي عادةً ما تكون خاصة وتميِّزنا عن الآخرين، إنَّ محاولة معرفة الشخصية وتلمس أبعادها يفيد بالتنبؤ بتصرفاتنا في المستقبل وبردَّات أفعالنا تحت مختلف الظروف.

معـاً بالإنتـاج (انتـاج الأفكـار) وتسـير على نفس المحـور ولها نفس الهدف؛ (مثل الجبل الذي يظهر بعضه ويختفي جلّه).

وقد اعتـــاد البـــاحثون في الســـابق عند دراســـتهم للعقل (الفكر) والنفس (الـذات) على تقسـيم الموضـوع الواحد إلى عددٍ من الوجوه والمجالات وذلك نظرياً، في حين أنهم عمليـاً في جــوهره واحد لا ينفصــم، فــالنفس والعقل جهــةٌ واحــدةٌ ووسط واحد وحقـلٌ واحـد، بينما الفكر نتـاجٌ للنشـاط العقلي والنفسي وتفاعلٌ مستمرٌ لنشاط ذلك المحتوى.

وقد أشاروا إلى مـدى التـأثير الـذي تخلفه أمـراض الحمل والولادة وأمراض ما بعد الولادة على حالة الإنسـان فيما بعـد، أي عند تشـــكل شخصـــيته (نفسه وعقله وفكـــره وبالتـــالي سلوكه) فإنَّ تلك الأوضاع غير الطبيعيّة والطارئة على الحياة، قد تُقيم أسواراً ومداميكاً من العقد الـتي تعطف نحو الـداخل وتحجز النفس والعقل وبالتـــالي الفكر عن الخـــارج، وتحرمه من العمل والتفاعل والمشـاركة الحضـارية، ويتجلى ذلك عند اللوامين الذين اعتادوا على لوم الآخرين والنأي بأنفســهم عن أي شكلٍ من أشكال التواصل والمشاركة بحجج واهية.

وأبلغ تعبـير عن مفهـوم النفس وعلائقها في هـذا الوجـود وفي كافة الأبعاد كان في القرآن الكـريم مجمـلٌ ومـرتبٌ في ثمـــــاني آيـــــات عظمى وكريمـــــة، قـــــال تعـــــالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِـالْعَيْنِ وَالأَنْـفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِـالأُذُنِ وَالسِّـنَّ بِالسِّـنِّ وَالْجُـرُوحَ قِصَـاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُـوَ كَفَّارَةٌ لَـهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْـزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائـدة: 45]، ومن المهم في هـذا المقـام أن ننوه إلى أنه تشـريحياً تعد العين (الحاسـة) جـزءٌ لا يتجـزأ من الدماغ وهي تشكل استطلاعاً ومقدمـةً للـدماغ، وكـذلك الأذن الداخلية..والوسطى (الحاسـة)، والأذن والبصر من المفـاهيم المعنوية أيضاً التي تعتبر المكون الأساسي للفكر، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِـهِ وَجَعَـلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالأَبْصَـارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْـكُرُونَ ﴾ [السـجدة: 9] ونلاحظ في القـرآن الكريم الجمع للأبصار والإفراد للسمع، بينما الفؤاد في الدماغ مَقَرُّ الشعور والفكرة، قال تعالى: ﴿ قُـلْ تَعَـالَوْا أَتْـلُ مَا حَـرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَـانًا وَلا تَقْتُلُـوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِـالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: 151]، وهذا تأكيدٌ على أن التعقل هو الوقـــوف على الحـــدود الربانية المنشأ الـــتي وضعها الله للعقل الإنساني وطلب إليه القيام عليها والالـتزام

بها وهي المحرمـــــات المــــذكورة في الآية أعلاه، لم توضع للحيوانات بل للإنسان العاقل.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف: 53]، وإن تعجب فعلاً فمن قـول البعض ممن يـدعي الفهم: هـذا ليس شغلي بل شغلك؛ هـذه ليست مسـؤوليتي بل مسـؤوليتك؛ أنا ليس لي علاقة إنهم دائماً مستعدون للهـرب والتنصل والقـاء التهم والفرار وهذه صـفة الفـئران، قـال تعـالى: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ [الإسراء: 33]، وهذا يعني أن العقل متكاملٌ في فرض حدود الله تعالى والحدود نوعـان فهي الأوامر والنـواهي الـتي طلب إلى العاقلين الوقـوف عنـدها وعـدم تجاوزهـا، والحـدود أيضـاً الجـــزاء والعقـــاب المطلـــوب إنزاله بعدالة مطلق بحق المتجاوزين للحدود الأولى التي سـبق وأن فرضـها رب العـزة على البشر النـاس ولم يفرضـها على الحيوانـات ولكن هنالك من عـدَّ نفسه حيوانـاً وتجـاوز حـدود الله تعـالى فقد أصـبح بالطبع أقل شأناً من الحيون، لذلك يجب أن يقـام عليه الحـد، وأن لا تأخذ العقلاء والمفكرين فيه رأفة أو لـومٌ أو حنـان، لأنه حيوان بكل معنى الكلمة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقـان: 68] وهـذا بيـان للناس جميعاً أن الشرك بالله وقتل النفس بغـير حق والـزنى كلها أوضاعٌ تخرج الإنسان عن الطريق الصحيح وتضعه ضـمن المتاهة والكـــــرب وإغلاقٌ للنفس والعقل والفكر من جميع الجهات، إنها النهاية البشعة.

قال تعالى: ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: 2] وإن تعجب فعلاً فمن قـول البعض ممن يـدعي الفهم: هـذا ليس شغلي بل شغلك؛ هذه ليست مسؤوليتي بل مسؤوليتك؛ هـذه قضيتك أنت، أنا ليس لي علاقة، إنهم دائماً مستعدون للهـرب والتنصل والقـاء التهم على الغـير ومحاولة الفـرار والنجـاة بأنفسهم فقط لا يهمهم مصير الآخرين، وهذه صـفة الفـئران، واللوم أن تحاول دائماً القاء الوزر والمسـؤولية على الآخـرين والتنصل من الفعـل، قـال تعـالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النازعـات: 40] والأسـاس أن ننهى النفس علن الأهـــواء والنزعـــات الأنانية الخاصة والانكفـــاء والاكتفـــاء بها وعـــدم وضع أو جعل الأســباب على المجتمع والبيئة الـتي نعيش بهـا، بعض النـاس يعملـون على تـأمين

مصالحهم ولو داسوا على رقاب الآخـرين، ولو كان ذلك على دماء الآخرين، قال تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: 27]. وهذا الخطاب لما يُدعى الضمير (الداخل) هـذا الـذي من المفـروض أن يكـون على الـدوام مطمئنـاً وليس خائفـاً ولا متوتراً ولا جباناً يتوقع الهزيمة وينزع للهروب.

لعمـري تلـك هي مكونـات وملامح (النفس الإنسـانية) في أبدع الصور وأبرز الملامح التي ينبغي لنا باسـتمرار أن نتأملهـا لنستنبط منها معالمها، وسبل استثمارها الاستثمار الأمثل.

إنَّ الفلسـفة وإن كـانت في المبـدأ نتـاج العقل الإنسـاني وغايتها تنظيم هذا العقل وجعله ممنهجاً يسـير ضـمن المنطق السليم وكانت تُعتبر اساس العلوم البحتة، وكان لها في أوربة (المستعصية على الدين السـماوي لعـدم قـدرتها على فهمـه) فكان لها في فترة من الفترات الدور الإيجابي البناء واسهمت ولا شك في تنظيم تلك العقـــــول الماديّة وعملت في أوربة وفي مرحلة من المراحل بديلاً عن الـدين فأسـهمت فعلاً في إخـراج النـاس من ظلمـات عصـور الانحطـاط، ولكنها بعد أن تخلت عنها أوربة انقلبت إلى أدوات اسـتعمارية تنكبتها الـدول الاستعمارية كالسـلاح وأخـذت تفرضـها على الأمم والشـعوب الضـــعيفة في أســـيا وافريقيا وأمريكا اللاتينيـــة؛ وخصوصـــاً الفلسـفات الـتي كـانت قد تولّدت أساسـاً في عقـول ملحـدة وأحضـانٍ ضـالة وصـارت محضُ افـتراء فشـكّلت مع وضـوح أهدافها متاهاتٍ و(زواريب) دفعت الفكر البشري وسـيَّرته في طرقٍ مسـدودة فـتراتٍ من الـزمن، أو ضـيّعت أعمـار وجهـود الناس عن طريق توليدها القناعات في أذهانهم غير الأساسية والايديولوجيات الفارغة غير المجدية عصـوراً طـوالٍ (صـراع الطبقات - الوجوديّة - الحرية الجنسية) وحولهم عقلياً وفكرياً إلى حالة أشـــبه ما تكـــون بالمراوحة في المكـــان، أو الحالة الهوجاء الـتي لا تقـدِّم ولا تـؤخر، وكـانت بطبيعة الحـال تُعتـبر أو تسبب تأخراً عن الآخرين سنين ضـوئية الـذين عنـدما كنتَ كعربي مسلم مكبلاً ومسمراً وجامداً، كـانوا قد اسـتمروا في التقدم!.

بينما المفكِّر المؤمن يعتمد على الله وحده ولا يطمــأن إلا لله تعالى لذلك فهو يبذل أقصى ما يستطيع من الجهد ويقـدم من ذاته أعلا ما لديه من الهمة والنشاط، وحاله يقـول حسـبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا باللـه، قـال تعـالى: ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَـــانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَـــلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: 122] قـال تعـالى:﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التغـابن: 13] وهو

على علمٍ بـأنَّ الهبـوط إلى الجحيم سـهلٌ، لـذلك فـإنَّ عـادة الاستهلاكٍ وعادة التواكل والاعتماد على الآخـرين، طارئة على المجتمع العـربي والاسـلام لم تكن فيما مضـى، كـان كل بيت عـربيٍ كالمسـافر مكتفيـاً بـالزاد وذاتيـاً بالمأونـة؛ والإنسـان العربي كان بطبيعة الحـال محـدود الاسـتهلاك منضـبط كـريم وسخي وجواد، ولكنه غير مبذِّر للقوت أو متسفه هـادر للمـال بلا طائل، لكنه منضبط وضابط لغرائزه ودوافعه لا يضـيِّع أهله (لا يرهن مصيرهم) ولا ماله في أشـياء ليست مفيـدة ولا ذات جـدوى؛ كما هي حالة العـرب اليـوم رهينة بيد أعـدائهم، ومن الأوضاع الدالة على وجود العقل الراجح والسليم وعلى وجـود الفكر النيِّر أيضاً، سلامة الحواس والذائقة الرفيعة المسـتوى، والـتي تعطي مؤشـراتها حساسـية عالية الدقـة، لأنَّ عـديمي التفكر بالواقع لا يمتلكون ذائقة تشعرهم ولا حواسّاً تنبههم.

ومن الأمور والنتائج الواجبة الوجود في هذا الموضوع الهـام (العقل والفكر) أو من المؤشرات عليه: (المنطـق)، إذ يجب أن يتوفر المنطق السليم مع كل من يـدعي التفكـر والتعقـل، فمن فقد المنطق لن يكون لديه قدرة على التفكر أو تكـوين الأفكـار الإيجابية ولا طرحها على الآخرين أبـداً، والمنطـق هـو الأسـلوب المنظم أو المنطقي المنسـجم مـع مقـدمات الفكـر ونتائجـه الخيّرة والمفيدة فلا فكر وبالتالي لا منطق إذا كانت النتائج غـير مفيدة ولا تُحقق نتائجٍ عامـة وإيجابيـة على الأرض وفي الآخـرة، قـال تعـالى: ﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًـا إِلا وُسْـعَهَا وَلَـدَيْنَا كِتَـابٌ يَنْطِـقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: 62] ﴿ هَـذَا كِتَابُنَا يَنْطِـقُ عَلَيْكُمْ بِـالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِـخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ ﴾ [الجاثية: 29] ﴿ وَمَا يَنْطِـقُ عَنِ الْهَـوَى ﴾ [النجم: 3] والنطـق هـو الحـال والمسـار والسـلوك إنـه المنهـاج إلى أين يتجـه؟ قـال تعـالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِـقَ الطَّيْـرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُـوَ الْفَضْـلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل: 16] أي أسـلوب وطريقـة حيـاة الطـير، الطريقـة المضـمونة المـآل المحسوبة النتائج المترفعة عن الدنايا والمخاطر وكل مـا يمكن أن يسبب الأذى، ليست منغمسة بالمشكلات ولا هي جزءٌ منهـا، وتنظر إلى الأمور من فوق وبنزاهة.

وما يجب التأكيد عليه في هـــذا المجـــال دائمـــاً هو أن (مفهوم العقل) ببعديه الواعي والعميق غير الواعي، و(مفهوم الفكر)[1] بجميع آفاقـه، أنهما من قماشـةٍ واحـدةٍ، وأنهما أبعـادٌ وامتدادٌ لبعضهما لذات المستوى ولنفس الحقل غير المتناهي

1 (?) وعــرف الفكر بأنه "إعمــال الخــاطر في الشـــيء" والخــاطر عند الجرجاني هو:"ما يـرد على القلب من الخطـاب، أو الـوارد الـذي لا عمل للعبد فيه""الفِكْرُ، بالكسر ويُفْتَحُ: إِعمالُ النَّظَرِ في الشيءِ."

عمودياً وأفقياً، والتصور الأساسي الذي علينا تلمسه هو قرب (مفهــوم العقــل) من واقعنا وحياتنا ودنــوُّه من مآربنا ومن عالمنا ومن مصــالحنا القريبــة، بينما الفكر مفهــومٌ مجنح ويهيمن عليه الخيال والتصور وله أبعادٌ يحملنا إليهـا، إن الفكر أفــقٌ أعلى من العقل وهو في وضــعه الطــبيعي على رأس العقل، أما (مفهوم العقـل) فإنه ربـطٌ للفكر ومسـكٌ لجزئياته وإحكامٌ لموارده، أو هو تحويلها إلى واقع ملموس ومقبول؛ إن العقل امتـدادٌ للفكر ولكن إلى أدنى وأقـرب مسـتوياته، بينما الفكر امتدادٌ للعقل ولكن إلى أقصى وأعلا ابعاده.

ففيما ينصـبُّ عمل العقل ومهمته على الأشـياء الملموسة والمحسوسة والأشـدُّ قربـاً منا في الحيـاة (الأشـياء الماديـة) مثل المأكل والملبس والـزواج والخـوف وغـيره، من الأشـياء الحسية والرغبات المباشـرة المودعة في الكـائن، فـإن الفكر يســعى في المجــالات البعيــدة العالية وغــير المرئية وغــير المباشــرة وغــير المحسوســة، إنه يبحث ويتفكر في الأشــياء والمجــالات غــير المدركة بــالحواس، الأفكــار والعلاقــات المجردة، وكأن العقل يعمل في الأشـياء الظـاهرة بينما الفكر يمارس نشاطه في الأمور الباطنيّة والله تعالى أعلم.

إن التفكـير من أهم المجـالات الـتي فضـلت الإنسـان عند الله تعـالى عن غـيره من الكائنـات الحية وجعلت منه قائمـاً بذاته كيانــاً ويمتلك القــرار، فــإذا فقد القــدرة على التفكــير تسـاوى مع بـاقي الكائنـات وربما صـار أدنى منهـا، لأنَّ بـاقي الكائنــات محرومة منه أساســاً بينما الإنســان طُلب منه أن يتفكر وأن يكون من الذين يعقلون، ولـذلك فـإن العـالم الحق هو الذي يدفع الناس إلى التفكير وإعمـال عقـولهم، أما الـذي يشد النــاس ويمنعهم من التفكــير ولا يحضــهم دائمــاً على التفكير تحت أي من الدواعي أو الأسـباب فهو ليس بعـالم بل هو جاهل وأجهل من جاهــل، وكــذلك القائد الــذي لا يفكر ولا يحضُّ مرؤوسيه والــزعيم الــذي لا يحضُّ اتباعه على التفكـير وإعمال عقـولهم ولا يـدفعهم دفعـاً للتفكـير فهو أساسـاً غـير جــدير بمركز ولا موقع القيــادة أو الزعامــة، فمن يخــاف من الناس إذا فكـروا ليس بجـدير بثقتهم ولا احـترامهم. إن طلب عدم التفكير والعمل على إبعاد الناس عن التفكير ليس مجرد

فعند الإمــام الغــزالي في الإحيــاء "ومهما تــوزعت الفكــرة قصــرت عن درك الحقائق ولذلك قيل " العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فــإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر " والفكـرة المتوزعة على أمـور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشـفت الأرض بعضه واختطف الهـواء بعضـه، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع".

خطأ من الأخطـاء القاتلة فحسـب، ولكنه جريمة تاريخية يجب أن تستمر إدانتها ويستمر حسبها.

إننا يجب أن نعطي أنفســــــنا المهلة الكافية لكي نفكر ونفعِّل عقولنا وألا تكون قراراتُنا وأفعالنا وسلوكنا (ردَّات فعلٍ متســـرعة) وأن ننتأى بأنفســـنا وعقولنا عن العاطفة غــــير الصادقة والأهواء والتي تكون في بعض الأحيان مدمرة وقاتلة للفكر الصحيح والحق الضمير والوجدان الموجـود أساسـاً في ذات كل إنسان.

دور المعرفة والعلم: فالمعرفة إذا لم تُســـفر عن موقف محدد فإنها غـير مجدية ولا فائـدة منهـا. وهي نوعـان المعرفة النظريـة: وهي سـعة الاطلاع واكتسـاب المعلومـات وامتلاكها (المكـــان والزمـــان والحجم والعـــدد والـــوزن الثقلي والبعد المعنوي والمسـاحة المشـغولة، ولكنها وحـدها لا تقـوم وغـير مجديـةٍ ولا يمكن الاعتمـاد عليها فقط في إحـداث التغيـير إنها وحـــدها لا ولن تقلب الفشل إلى نصر ولا أن تحـــول التعاسة إلى ســعادة، إذ لا بـــدَّ من الناحية العملياتية لا بد من مخاضة العمل والســعي، والمعرفة العمليـــة: هي اكتســـاب الخـــبرة والتقانة والحرفية والدراية والعادة والادارة والقيـادة والإعـداد والتنظيم والملكية المادية والمعنوية للوســـــــائل والأدوات والمواد الأولية.

فإنَّ (العاقل) لا يستهين بعدوه مطلقاً ولا بخصمه أبداً، وإنما باستمرار يُعدُّ العدة ويسـتبق الأحـداث ويتهيّـأ ويتحين الظـروف المناسـبة والفـرص إنـه لا يـترك الحبـل على الغـارب، وهـو أي (العاقـل) وتحت أيٍّ من الظـروف، لا يفكـر أبـداً في الاسـتعانة بعدوه، ولا بصديق عـدوه... ولا يعتمـد عليهم، ولا على مـا يمكن أن يرد منهم مطلقاً، إنما يعتمد على الله سبحانه وتعالى أولاً ثم على جهوده وجهود اخوته وأصدقائه المخلصين.

إننا إذا أردنا التغيـير والتقـدم والتطـور والانتـاج، إذا أردنا تحقيق النصر فعلاً، فنحن نحتاج إلى ما هو أكثر وأبعد من ذلك نحتاج إلى أن نباشر ونتولى المسؤولية ونكف عن القاء اللـوم على الآخرين عن الأخطاء الـتي وقعت، وذلك ليس سـهلاً، إنه وعلى المدى الطويل فإنَّ تحمل المسؤولية هو أول الخطوات الـــواجب تحقيقها من أجل إنجـــاحٍ حقيقيٍّ، وذلك في مختلف المجالات الحياتية لا سيما في مجال إثبـات الـذات، وهـذا كله مشروطٌ بالانتباه والوعي والقدرة على المبادرة والقيـادة في أي وقت، وكل الـذين تعـرفت عليهم في حيـاتي تحولـوا في مخيلـــتي وعقلي البـــاطن إلى أفكـــار وعناصر أساســـية من مكونـــاتي التأمليـــة، بصـــورهم وســـلوكهم ونطقهم يتفـــاعلون

ويَنْتُجُـونَ فيما ينتُجُ عـني ونحن جميعُنا وقبل الـولادة إلى هـذا العالم كنّا أفكاراً مبحرةً في محيط مطلق واسع في علم الله تعالى هناك في الخلق الأزلي الأول، وبمشيئة منه تعالى ولدنا في هــذا العــالم، منحنا الفرصة للتعبــير عن ولتجســيد تلك الفكـرة، ولكننا بـالموت سـنعود إلى ذلك المحيط الواسع إنما محملين بما كسبناه؛ وتسبقُنا أعمالُنا قـال تعـالى: ﴿ كُـلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: 38] قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَـانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: 6].

إنَّ خصــوبة الخيــال وقــوة الإرادة والايمــان العميق هي العوامل الأساسية التي ستُنتجُ الفكر وسـتجعل الأقـدار تتلاءم مع التطلعـات والآمـال والجهـود المبذولـة، وسـتكون المقدمة والمهد والفراش الحقيقي الملائم للعقل، فبينما تسـير الارادة الفعالة والخيـال الخصب عند المـؤمن إلى الأمـام وفي نفس الاتجـاه وبطريقة فعَّالــة، فـإن الفاشــلين على الــدوام وهم يتوقعون الفشل والخسارة والانتكاسة؛ ويبـادرون إلى التقهقر والـتراجع والاستسـلام ويرغبـون بـالفرار ويملـؤهم الـرعب، يتهيبون ويعيشون أبد الدهر بين الحفـر؛ والفـرق جلي وواضح بين الناجح والفاشل، الناجح يبادر ويثابر ولا ييأس ولا يستسلم أبداً، بينما يـنزع الفاشـلُ للاستسـلام ويتحـدث عنه من المـرة الأولى من قبل البدئ بالعمل.

إن موضــوع اســتخدام الخيــال الفعــال وزجه في معركة الحياة قضيةٌ وعادة يجب أن نتعودها ومهارة يجب العمل على اكتسابها بالتـدريج، بل هي قيمة نبيلة يجب امتلاكها مهما كـان الثمن المدفوع، لأن العقل الفعال أثمن ما في الوجود.

ففي أوربة ولدى الشعوب المتقدمة ولدى اعمال العقل، تم تحويل التباين والاختلاف في الآراء والتناقض في وجهات النظـر إلى تعاون وتوحيد للجهود والمصالح؛ من خلال توحيد المسارات الـتي كـانت بالأسـاس مختلفـة وتم تصـريفهاَ. وجعلوهـا تتجـه وتصب باتجاهٍ واحد، وفكوا الاشتباك بينهم، وحلَّلوه إلى عواملــه الأوليــة، ووحــدوا الهـدف، وتوافقــوا من خلال تلاقي المصــالح، واكتشفوا أن وجـود الهـدف المشـترك عـادة مـا يُقـرب الـرؤى ويجـانس بين الأطـراف، ويمكن أن يجعـل أعـداء الأمس أخـوة نضال؛

لـذلك فهم في (أوربة وأمريكـا) حريصـون كل الحـرص على وجد هدفٍ مشترك يتوحدون عليه، ولكن للأسف الشديد كـان هـذا الهـدف هو (العـرب الاسـلام) وهم الآن في (أوربة وأمريكــا) أحــرص من أي وقت مضى على وجــوده كعــدوٍ يتوحـدون على مواجهتــه، ذلك أنهم اكتشـفوا أن التوقف عنً

عــداء (العــرب والاســلام) ســيؤدي على الفــور إلى انفــراط عقــدهم وتلاشي وجــودهم وهم أمــام هــذا الخيــار الوحيد وهو اســتمرار العــداء للعــرب والإســلام، وقد أصــروا على مواجهته ورمييه عن قوسٍ واحدة.

ولك أن تتأمل الحروب العديــدة والطاحنة الــتي حصــلت ســابقاً بين تلك الأمم والشــعوب والــدول في أوربة والعــالم خلال القرون الخاليــة، وكيف أفضت الأمــور بعد اعمــال العقل إلى اختراع ما عُرف بـ (السوق الأوربية المشــتركة) ثم العمل على (الوحدة الأوربية)، وتم تغيــير الــنزاع الطــائفي والعــرقي وصـــراع الأقليـــات في أوربة وأمريكا لنيل حقوقها واعتباراتها الـــتي كـــانت مفقـــودة ومهـــدورة هنـــاك، وتم تصـــريف تلك التناقضات وتحويلها (ثورة الأقليات) لتصبَّ في مصــلحة أوربة الموحــدة ونضــالها ضد الأكثريــة! فهل هنالك الآن في الــوطن العربي اصطفاف أقليات شعوبي طــائفي ضد الأكثرية العربية المسلمة؟

حقيقة فـــإنَّ الفكر الغـــربي ومن خلال منهجه المـــادي (المصالح) استطاع في بداية الألفية الثالثة الولــوج إلى أقصى مـــدى في فهم المـــادة، ومن ثمَّ التحكم بها (القنبلة الذرية - الكمــبيوتر - النت والالكــترون والموبايل والأقمــار الصــناعية وغيرهــا)، إنَّ فهمَ العقــلِ ماهيتــه، مهمــةٌ صــعبةٌ على الفكر الغــربي الــذي ينتهجُ بطبعه الأســلوب المــادي البحت في فهم العالم من حوله، وذلك على الرغم من كل هذا الانتصار الــذي حققه في المجـــالات المادية المتعـــددة، لأنَّ إدراك العقل أو الدخول فيه، مسألة مســتحيلة بحد ذاتهــا، ومســتحيلة أكــثر على الــذين ينتهجــون الأســاليب الماديّة البحتــة، لــذلك فقد وصلوا إلى (التبريرية) الفلســفة أو العقيــدة الــتي تســمح لهم بقتل باقي الشعوب وتــبرر لهم ســحقها تحت دواعي واســباب يخترعونها، ويسوغون من خلالها أفعــالهم الــتي بطبيعة الحــال يرفضــها العقل الســليم، في مقابل أنهم يُظهــرون بالصــور أو يؤكـــدون في الاعلام على ضـــرورة الحفـــاظ على البيئة الحيوانية والنباتية ويعتنـــون عنايةٍ فائقة بـــالكلاب والقطط ليقتلوا بالمقابل الانسان قتلاً شنيعاً، وبدمٍ بــارد، إنهم يــبررون لأنفسهم هذا السلوك ويدرؤون عنه بحجةٍ (المصلحة).

فالفكر الإيجابي محضُ معاني وجوهر لامادي بعيد المنال عن أصــحاب المنهج المــادي ويحتــاج إلى خيــال مــؤمن بــالغ الرشد حكيم، إننا حـــــتى نتمكن من فهم العقل علينا اعمله والســعي إلى الــدخول فيه واســتطلاع معالمه وســبر مجالاته والنظر إلى آفاقه الواســعة، علينا بــذل الجهد من أجل تحقيق

الفعل وتوليد الأفكــار، والغــريب في الأمر أن تجد البعض من النـــاس وهم في صـــفوف المتعلمين يعتقـــدن أو يعتـــبرون أو يتعــاملون فيما بينهم على أســاس أن الفكر هو (الـــدماغ) أو أنه مجرد تلك المـادة الـتي تملأ الجمجمة من الـدخل، إنهم يتكلمون عن العقل فيما يشيرون إلى الدماغ!

لقد استطاع الطب الحديث تشريح الــدماغ ورسم معالمه وأقسامه وإلى حدٍ بعيد تم تحديد النقاط التي يمكن أن تكــون فيه، وهي مسؤولة عن العمليات في كافة أنحاء الجســم، وقد حققوا في ذلك نجاحاً مطرداً ولا شك، ومع ذلك فلم يســتطع ولن يستطع الأطباء في هـذا العـالم من حيث المبـدأ الـدخول إلى العقل والتجول فيه نظـراً لانتهـاجهم المسـار المـادي في البحث بينما العقل بالأساس قضية معنوية.

إنَّ من سيســـتطيع فهم العقل والـــدخول فيه في حـــال نجاحه سيكون لديه وتحت تصرفه امكانيات هائلة لا حدود لها. وســيمتلك وســيتحكم بالعـالم ومقدراته ويســيطر عليــه، فهل تقاعس المسلمون العرب في العصر الحــديث عن تنكب مثل هذه المهمة وتركوها وتراجعوا عنها، وهم المؤهلون بطـبيعتهم فعلاً لنيل شــرفها، هــذه المحاولة الربانية الملهمة الــتي من شأنها أن تقدم العون والقوة والـدفع، أن تنفخ الحيـاة والـروح في الجثث المهملـــة، إن من المنتظر أن يبـــادر (العـــرب المســـلمون) لأنهم وحـــدهم المؤهلـــون بطبيعة وجـــودهم وبإمكانيتهم وحدهم على فهم القرآن العظيم، إنَّ من المنتظر أن يبـادروا إلى شـرف المحاولة بطـرق أبـواب العقل والولـوج إلى معالمه.

فعندما ينجح (المسلمون العرب) في تحليل مفهوم العقل والذات وفهمه، إنهم عندما ينجحون في فكِ رموزه واستقصاء إمكانياته غير المحدودة عندها وعندها ســيمتلكون ليس زمــام أمرهم فقط بل سيعودون بكل جدارة قادة للعالم.

ثم أنَّ من ملامح الفكر الرفيع المســـتوى تبـــدأ بـــاحترام الـذات وصـونها عن المذلّة والهـوان، ووضـعها دومـاً في حالة الكفاية الذاتية وتـــدريبها وتعودها على المعـــالي من الأمـــور، يتجلى ذلك عـــــــــادة في النطق العلمي البعيد عن الخرافة والجهل والاستهتار بعقول الآخرين، وأن نترك الانطباع الحسن عن مسـتوى تفكيرنا الـداخلي ونوايانا الخيِّرة وغــير المريبــة، انطباع الصدق والود

فلمــاذا اشــتغلوا وضــمن مخططــات محكمة على خفض مستوى التفكير عند العرب وتغيـير مسـاره، وجعلهم في أدنى مسـتوى في كل مجـال؟ كيف قُلِبَ الهـرم في الحيـاة العربية

رأســاً على عقب وصــارت الغربــان تحتل مواقع المفكــرين العرب وتنعق باسمهم؟

اسئلة العقلاء

حــول طبيعة الأسـئلة وأنواعها وأهميتهــا، ودورها الخطــير (من حيث الأســلوب وما يــترتب عليها من نتــائج؛) في بنــاء المنظومة العقلية والفكريّة لــدى الإنســان الــذي يُــراد له التفكير، أو العكس!

فمن المعلـــوم أنهم وفي ما يســـمى (علم البلاغــة) قد قسَّــموا أدوات الســؤال إلى أســماء وأحــرف[1] وهي جميعها للاستفهام والاسـتعلام، وتنمُّ عن مبهمٍ يُسـتعلم، وبعضـها يفيد ظرفية الزمــان الماضي أو المســتقبل، والمكــان القــريب أو البعيد أو إحــدى الجهـات السـت، وبعضـها شـرطي نكـرة أو معرفة موصــوف، وبعضــها يُفيد تعــيين الأشـياء، والتعجب أو الإنكار أو التوبيخ أو الاستغناء وبعضـها مُعْـرَب وبعضـها غـير مُعْـرب، بينما (كم) للعـدد، وظاهريـاً سـواءٌ أكـانت (الأسـئلة) تسأل عن الإنسان العاقل، أم عن غير العاقل، من الحيوانــات أو النبات أو الجماد، أو عن الأعمال أو الأحداث، فهي بطبيعتها أي (الأسـئلة)، دائمــاً تكـون عن حقيقة الأشـياء أو الصـفات أو الأحـوال، ولكنَّها تربويـاً فإنها حصـراً توجَّه للعقلاء، وتهـدف للتعقل والتفكر؛ وغير العقلاء يُدفعون دفعاً، وأساساً لا يتلقون الأسئلة؛ وأساساً هم ليسوا معنيين بالسؤال!

وســواءٌ أطــرح الإنســان على نفسه (الأسـئلة) أو طرحها عليه الآخرون، فـإنَّ من الأسـئلة ما يكـون الأدوات الـتي تُفتِّح العقلَ وتدفع إلى التفكير؛ وهي بطبيعتها أنــواع وفي مجـالات، منها ما هو هــادف يســتوجب الغــوص في عميق العميق من الوعي والانتباه والعلم بالشيء والحدث وتشديد الانتبـاه إليـه، ومنها ما يُراد منه فائـدة السـائل المسـتعلم؛ ومنها ما يُـراد به فائــدة المســؤول؛ وإشــعاره وتنبيهه وتعليمه وتثقيفه وتنمية قدراته ونهضـتـه وتقدمه ورفع مسـتواه، عن طريق السـؤال، لتؤدي عقليـاً إلى المقارنة أو إلى البيّـان أو السـبر أو التجربة والاختبار، أو تدفع إلى التمـرين والمـران والتهيـؤ، ومنها ما هو للتسلية وإضاعة الوقت؛

ومعلومٌ أن السـؤال أهم بكثـير من الجـواب! وأنَّ الإدراك أهم وأخطر مراحل السـؤال؛ وأن القاعـدة الذهبية - في هـذا المجـال - تقـول أعـرف وأدرك نفسك وأعـرف وأدرك الآخـر؛

---

[1] (?) وهي (ما، من، متى، أين، أيان، أيانا، أنى، وكيف، وأيَّ، وماذا، ولمـاذا، وكم، ومن ذا، وهل، والهمزة)

وبالتــالي وبنــاءً عليه يتم تحديد صــيغة الســؤال ما إذا كــان شكوى وتوسل، أو أمراً وطلباً للتنفيذ، والفرق بينهما كبير.

(فالطلب) فيه تحديدٌ واضح للموضوع، ولطبيعة المشــكلة وإرادةٌ ورغبـــةٌ في العمل على حلهـــا، وهو بطبيعته ايجـــابي ويُقدم في الوقت المناسب ويتحين الفرصة المناسبة للإنجـاز، وغالباً ما يكـون متجهـاً من الأعلى إلى الأدنى أو بين طـرفين متســـاويين؛ بينما (الشـــكوى) تُقَـــدَّمُ وتتجه من الأدنى إلى الأعلى، في أي وقت وبغض النظر عن المناســـــبة؛ لأنها في الغـالب ناتجة عن وجـود ضـرر أو ألم تسـتوجب العمل فـوراً على اشعار الآخرين بوجوده، وطبيعتها سـلبية، فالشـكوى عند الأحرار لغير الله مذلة، وهي عادة ما تخـرج من الضـعيف إلى القوي.

ويكون الدعاء والنـداء والطلب "هـذا الأمر تعيينـه" يتحـدد من خلال الظروف المرافقة، أو من طبيعة السؤال (بناءً على الأداة المسـتعملة)، والإنسـان الحضـاري يعلم تمـام العلم أن إحقاق الحق وتحقيق الأهـداف والتواصل النتـائج المرجـوة، لا يتم من خلال تســـجيل النقـــاط على الآخـــرين، بل بتحويل الشكاوى إلى طلبـات واضـحة، وأنَّ المهم هو تحديد الأهـداف والسير نحوها بثبات وثقة دون قلقٍ أو خوف.

إذ ليس الكم في هـذه الحالة هو المهم وإنما الجـودة، إنَّ بعض الرجــال يشـــقُّ طريقه وسط الهزيمة وأثنـــاء الشـــدائد والاندحار، إنه يخطو باتجاه تحقيق الانتصار مفعماً بالثقــة، إنها عملية انبعـــــاث بحق، والحرية الحقيقية ليست في ما تحاوله أنت لتتخلص من ما يعـوق تقـدمك، ولكنَّ المفهـوم الحقيقي للحرية يكمن في أن تعمل وتبـذل الجهـدَ لكي تزيل العقبـات من طريق الآخــرين وتــدعهم يمــرون بســلام، لطالما أنهم لا ينوون إزالة شأفتك من الوجـود! والواقع فـإنَّ من الأسـئلة ما هو أدوات للتحـــريض على التفكـــير والتعقُّل، أو تـــدفع العقل دفعـاً إلى التفكـير، وليست جميعها بنفس الدرجة من القـوة، بل هي متفاوتة التـــــأثير على الإنســـــان، ولكنَّ أهمها على الإطلاق ليست تلك العابرة السطحيّة أو السلبيّة، الـتي تسـأل عن الظاهر، وتطلب منَّا البقاء على السطح سـلبيين (الأسـئلة التي تطرح في الاعلام في البرامج الترفيهيّة).

بل تلك التي تدفعنا إلى البحث والتقصي العلمي وتحرِّضنا عليه عن طريق قيادتنا إلى التحليل والـــــتركيب وتســـــجيل الملاحظات والاسـتفادة منهـا، وجمع وتوظيف المعلومـات، ثم الربط والتأليف والتكوين والولادة للجديد، أي الابداع والتطوير والتحديث والابتكار والتقدم إلى الأمام وتحقيق النصر، فتـؤدي

إلى تحريك مفاهيمنا صعوداً في بناء العقل وبدء التفكير عندنا. وبعضها لا يُعد سؤالاً بله سؤالاً فكرياً، لأن البقاء أو المراوحة في المكان لا يُعدُ فكراً!

فقولك حلل وقارن وميز وما هي أهمية كذا، وماذا وجدت ولماذا وما هو رأيك وكيف يمكن عمل كذا؟ هو غير قولك كم ومتى وأين؟!

إنَّ في بعض الأسئلة مقدمات تجبر العقل على الولوج إلى محراب الفكر والغوص في بحره العميق! إن بعض الأسئلة توجه عادةً للصغار، وبعض الأجوبة تعطى عادة للصغار أيضاً؛ ولكنَّ أنواعاً من الأسئلة توجهُ عادة للكبار وأنواعاً من الأجوبة أيضاً تعطى وتوجه للكبار... وعلينا أن نحدد موقعنا ما إذا كنا من الصغار أم من الكبار...

إن لدى الأطفال ذوي الأحاسيس والمشاعر قدرات وإمكانيات هائلة على الفهم والاستيعاب أكثر بكثير مما نعتقد، فيما إذا تم لهم الإعداد والتدريب المناسبين خصوصاً في القضايا العلمية والفنية، ونحن بالواقع نجهل ما بإمكاننا فعله، وإنَّ بعض الأطفال أقدر على استيعاب النظريات العلمية واللغات وعلى فهم المسائل الرياضية والعديد من القضايا، فيما إذا قدمت لهم دون تعقيد.

إن من الضروري القيام بعمليات سبر لمواهب الطلاب والتلاميذ في مختلف المراحل وبشكل دوري وملاحظة ومراعاة الميول والمواهب والاهتمامات لمساعدة الطلاب والتلاميذ على تلمس طريق تحقيق التوافق والنجاح، وذلك مع ربط علاقة الطفل بالأمة والوطن وتعميق انتمائه للمجموعة، وتوظيف كل التطلعات عند هذا الطفل نحو المثل والأخلاق والقيم النبيلة والسامية (كل ما يرقى بالإنسان ويُقوِّم ويرفع مستواه)، ليقوم بالأعمال الصالحات من أجل الآخرين، وليس من أجل مصلحته الخاصة، (قصة السوداني من هولندا).

إذ لا يمكن أن تكون مفكراً مبتكراً ومبدعاً وأنت منغمسٌ في الرذيلة، بينما يمكن تبادل الأفكار وإغنائها عن طريق الاطلاع، وعلى كل حال لا يمكن تحويل الأحمق إلى مفكر، والحقيقة أن الفكر الأوربي فإنه كفكر وخصوصاً في (مجال علم النفس) كان قد وصل إلى نتائج خاطئة وطرق مسدودة، لأنَّه اعتمد بالأساس على فرضيات واهمة فوصل إلى نتائج خاطئة، (ولما كانت الروح بالأساس هي الطاقة المحركة للجسم) فإنَّ الفكر الأوربي بسبب منهجه المادي البحت، فأغفل النفس الحقيقية كمكون أو كبعد حقيقي وثالث من مكونات الإنسان وأبعاده؛ فإنه بالإضافة إلى (الآلة) والتي هي

الجسـم، والـروح والـتي هي مجـرد الطاقة المحركة للجسـم؛ فـإن هنالك (النفس) والــتي هي الوديعة الأساســية، إنه أي الفكر الأوربي وبسبب من ماديته البحتة لم ير النفس كمكون أو كبعد ثـالث ولم يكن لديه القـدرة على لحظهـا... فقد جعل النفس مكان الروح، وصار يتحـدث عن (علم النفس) بينما هو يتكلم عن (علم الروح الطاقة المحركة) بصـفتها (النفس)، ثمَّ افـترض تماهيـاً بين النفس (الـروح كطاقـة) و(الجسم كآلـة)؛ وحدد الدوافع المادية كمؤثرات محركة للنفس (الروح) والـتي برأييه ستقف بطبيعة الحال وراء السلوك، وأهم هذه الـدوافع كـانت الجنسـيّة أو (الليبيـدو) وانطلق منهـا؛ كـذلك فعل الفكر الأوربي في تصــويره للعلاقة بين الإنســان والحيــوان (نظرية دارون) عنـدما افـترض وجـود سـلّم للتطـور أو علاقة بـدأت بالحيوان وانتهى بالإنسان؛ كان ذلك خطأً فادحاً بـالفرض أدى إلى الوصـول إلى نتيجة حتمية خاطئـة، ذلك أن الفكر الأوربي كـــان قد رصد فعلاً تشـــابهاً كبـــيراً بين (القـــرد كحيـــوان) والإنسان، ولكن فاته (الفكر الأوربي عمومـاً) أن يلاحـظ، بـأنَّ وجود التشابه الشديد بين الإنسـان وبعض الحيوانـات لا يعـني بالضـرورة وجـود علاقة مباشـرة وسـلم للتطـور بينهـا، أو أن أحـدها تطـور عن الآخر بالضـرورة، لكنه يشـير إلى ويؤكد أن جميع المتشابهات في هذا العالم، كـانت قد نتجت عن مصـدرٍ واحد.

ذلك مثل اللغـات المنتشـرة في جميع أنحـاء العـالم، فـإنَّ التشابه الشـديد أو التطـابق في بعض الأحيـان بين مفرداتهـا؛ ليس بالضرورة أن يكون، أو أن يجعلنا نحاول وضعها في سلم واحد للتطور، لنقول بعد ذلك بالضرورة، أن واحـدة قد أخـذت عن الأخرى أو نتجت عنها، ولكن السبب الأساسي لتشابه تلك المفـردات والأسـاليب بين مختلف لغـات العـالم هي الحقيقة التي تقول أن جميع اللغـات في العـالم كـانت قد صـدرت من مصدر واحد وأن المبدأ كان واحداً، وكذلك الناس جميع الناس في جميع أنحـــاء العـــالم، قـــال تعـــالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِــهِ خَلْــقُ السَّـمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِـنَتِكُمْ وَأَلْـوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم: 22]، قال تعـالى: ﴿ وَلَـوْ شَـاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِـدَةً وَلَكِنْ يُضِـلُّ مَنْ يَشَـاءُ وَيَهْـدِي مَنْ يَشَـاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[النحل: 93].

في القرآن الكريم (سورة الرعد)
(السورة الفكرية العلمية)

لماذا عملوا على إبطال مفعولها وحاولوا دائماً إخراجها خارج نطاق اهتمام الفكر الإسلامي أو خارج دائرة التركيز التي ابتكروها أو أوجدوها أو رسموها أو حددوها وكرسوها للعقل العربي المسلم عبر الزمن من أجل اعتقاله وأسره وتكبيله وهكذا جعلوه يرسف ولقرون في القيود والأغلال ووضعوه في العنبر المظلم تحت القيود والقواعد من خلال النصائح الصوفية والسلفية والشيعية وانشعاباتها وأنواعها التي كان أكثرها مصدره أو أساسه بلا مواربة التلمود اليهودي[1] لماذا عملوا على إبطال مفعولها عن طريق عدم ذكرها وعدم إيرادها ضمن السور التي اخترعوا لها فضائل ومزايا خاصة ؟ إن عدد السور في القرآن العظيم هو 114سورة[2].

---

1 (?) وكانت هذه السورة فيها حضٌ على العلم والعمل والإنتاج والإعداد، والتواصل مع الآخرين من الناس، كل الناس، لا الانقطاع عنهم! بل فيها دعوة مستمرة وحضٌ على استمرار النضال، ودوام الكفاح في جميع الاتجاهات، دون توقف، لتحصيل العزة والكرامة والسؤدد، والمجد للأمة لإقام العدل ونيل الحرية، من خلال تحقيق الاتصال مع الله الخالق ، أولاً والاعتماد عليه سبحانه وتعالى، عن طريق التعقل ثم التفكر وذلك الأمر منوطٌ بكل مؤمن بكل مؤمن وليس وقفاً على رجال الدين، ففي الإسلام لايوجد رجال دين، وهذا الموضوع دخل على المسلمين من الملل الأخرى؛ لأن الأساس أنَّ كل مسلم في الإسلام أن يكون رجل دين، لكن الأمر كان مختلفاً عند أولئك العلماء في ذلك العصر العباسي والشعوبي، عندها لم يخطر ببال أحدٍ، أن المؤامرة على القرآن الكريم اللسان العربي المبين قد بدأت.

2 (?) إبان انصرام العهد العربي الأموي لدولة الإسلام، هل جرت هنالك محاولات سياسية دينية تاريخية، تهدف إلى حصر اهتمام الناس وتركيزهم على أجزاء محددة من القرآن الكريم وإلى هجرهم للأجزاء الأخرى، فهل تم التركيز منذ ذلك العصر على تجاوز سورٍ محددة من القرآن الكريم أو طيها؟ وذلك لصرف النظر عنها أو لتغييبها عن ساحة الشعور لدى الناس أو عن مدى الوعي عندهم، وهل تم استبدال القرآن الكريم، ككتاب كامل، والاقتصار على بعضِهِ في الحفظ والقراءة والتلاوة، عند التأكيد عليها في التعليم، والتحفيظ، في المساجد والمعاهد وماذا يعني القول بأن هناك سوراً محددة في القرآن الكريم لها خصوصية؟ أو ثواب أكبر عند حفظها وتكرارها وتم تسليط الأضواء على شطرٍ من القرآن العظيم، في حين أهملت باقي السور (الجزء الأكبر؛ وتم الاقتصار في قراءة القرآن العظيم (على سور محددة) لتلقين الأموات؛ وفي المآتم والعزاء، ولأداء الفروض المفروضة؛ ثمَّ تمَّ التركيز على بعض سوره المنتقاة بدقة وعلى بعض آياته لتحفظها الأجيال، بحيث تواصلت الخطة، ومررت وصار الاقتصار بديلاً عن القرآن الكامل مثل ربع ياسين، وجزء عمَّ، وجزء تبارك وآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، وأدعية سورة النساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال وسورة براءة وسورة هود

فكيف تم تاريخياً إدخال تصورات باطلةٍ على الإسلام بعيدةٍ كل البعد عن منهجه الصحيح المتكامل، وتم إقناع المسلمين بفضائل بعض السور، بل وبعض آيات في تلك السور من القرآن العظيم أو بشقٍ من الآيات من أجل تجاوز أو تمهيداً لتجاوز الشق الآخر من القرآن الكريم، يصرون على التأكيد على 53 سورة ويتجاوزون 60 سورة! (راجع كتاب (فضائل القرآن للحاجة درية الخرفان) وهذا الكتاب يعتبر خلاصة للكتب التي سبقته؛ ملخصاً لها! والمؤلفة رحمها الله تعالى كانت بدمشق عالمة مدرسة معروفة، ولها الكثير من الطالبات)، فيوجهون الناس للتركيز على قراءة سورٍ من القرآن الكريم بعينها، دون السور الأخرى، وهذا الأمر خطير جداً، لأنني لدى معاينتي للسور التي أكدوا عليها في كتب الفضائل العديدة لاحظت التعمد الصوفي، ولمست لمسات الحلاج والجيلاني وابن عربي، لذلك لم يكن غريباً قيام المفسرين أولاً المفسرين والحُفَّاظ الجماعينً ثانياً ودون أن

وسورة يوسف، والصمدية والمعوذات، بحجة المستوى والقدرة، ولكن الموضوع أصبح عاماً بحيث تم استبعاد غير مباشر للسور والآيات التي تحض على ضرورة العلم والوعي والتفكر وإعمال العقل والحواس، للفهم الصحيح، وللوصول إلى المنطق الذي يرقى بالواقع، لا الواقع الذي ينزل بالمنطق؛ ولماذا قاموا عمداً بتجاوز إعلامي دعائي خطير، لشطرٍ من القرآن الكريم، هل فكر أحدٌ من قارئي القرآن المجيد بالسبب غير المقنع الذي جعل المفسرين منذ العهد العباسي، بدءاً من الطبري إلى ابن كثير، وصولاً إلى هذه المرحلة؛ فلماذا كانوا جميعاً يركزون ويجمعون على سور وآيات محددة بالذات؟ بينما جميعهم قد اجمعوا على تجنب التركيز على آيات بعينها؛ لماذا؟ وهل كانوا يشعرون بعقدة النقص والتأنيب؛ فهل كانت هذه السور التي كانوا يتجاوزونها تشعرهم بصغر حجمهم؟ وعدم أهميتهم وتفاهة أعمالهم وأحوالهم في هذه الحياة من أي شئ كانوا يهربون عندما كانوا يتجاوزون سورة يونس، والرعد، وابراهيم، والحجر، والنحل، والشعراء والنمل والعنكبوت، ولقمان، وسبأ، وص، والزمر، والأحقاف، ومحمد؟ وقد جمعت السور التي لم يتم ذكر فضائل لها فكانت 61 سورة، بينما كان يتم التأكيد على بعض المقاطع من بعض السور بحسب الطلب، وقد كان المطلوب من المؤمنين الجهاد والنضال والتضحية، وبذل كل الجهد في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمته، ولنشر دينه العربي المبين، وهكذا تحول الأمر على يد المفسرين والجماعين، منذ العصر العباسي الشعوبي الهدام، وصولاً إلى العصر الحالي؛ مروراً بالعصر البويهي والعصر الفاطمي والعصر الصفوي والعصر المملوكي والعصر العثماني الصوفيان، فتحول الأمر إلى مجرد حفظ ببغائي دون فهم! كأداء للواجب وتنفيذاً لطلب لابد من تنفيذه! وذلك لدخول الجنة بأقل الخسائر، وأيسر السبل، ودون أي تضحيات جسام، دون بذل الجهد الكبير، وهكذا صار الدين الإسلامي، أو تحول إلى نسخة منسوخة عن البراهمة والبوذية، أو أنه صار امتداداً لها؛ وتحول الأمر بشكلٍ من الأشكال، إلى هبوط بالمسلمين العرب لا قرار له!

لاشك أن الإسلام الأساس هو الدين السماوي الوحيد الصحيح العربي الأصيل، الذي يدعو إلى المحبة والمودة والإخاء والتسامح والسلام والعدل، ولكن مقولة (إذا ضربك أخوك على خدك الأيمن فادر له الأيسر) مقولة غير إسلامية، ولاعلاقة لها بالإسلام؛ بل الإسلام

يدروا أو أنَّهم كانوا يدرون؛ واعتبـاراً من بداية العصر العباسي الأول!

و إلا فما الداعي إلى القول بأن سور محـددة من القـرآن الكريم لها فضائل وأن سوراً أخـرى خلو من الفضـائل[1]؛ هـذا المفهـوم المـدمر الـذي يكرسه الشـيخ في ذهن مريـده، وما معنى قولهم أن قسماً من القرآن الكريم كتاب رب العـالمين قد أبطل مفعوله عن طريق أنواع النسخ التي أوهمـوا النـاس بها فيـدَّعون بجهالة وتجهيل بـالغين بـأن آيـات من كلام رب العـــالمين يمكن أن تلغي آيــــات! وبعد ذلك يندهشــــون من اســتغراب العـــالم لما لفقـــوه من أوهـــام وما افـــتروه من تلفيقات،[2]

فإذا كانت سورة يوسف السـورة الـتي أوحى بها الله إلى نبيه الكريم بـالهجرة من مكة إلى المدينة فـإنَّ سـورة الرعد كانت السـورة الأولى في المدينـة، البيانية العملياتية التنفيذية الفاعلة المـؤثرة سـورة الواقع المثـال والـذي يجب أن يرتفع إلى مسـتوى المثـال، لقد أوحى الله تعـالى في سـورة الرعد

---

1 (?) عن طريق تعمُّد إغفال ذكرها ضمن السُوَر الـتي عـدُّوها ذات فضـائل في كتب (فضائل القرآن) المنتشرة العديدة والمعروفة بينا المفـروض أن يكون القـرآن العظيم كل حـرفٍ فيه في غاية الأهميـة، الأمر الـذي رسَّـخ وأدى عبر الـزمن عند المسـلمين إلى عـدم إيلائهم الأهمية أو الأولوية في القراءة والاستيعاب (لأكثر من نصف القرآن) ومن ثم إلى إبطال مفعولها وتأثيرها في حياة العرب المسـلمين وتم تحييـدها على الـرغم من أهميتها البالغة ولزومها وتلازمها للقـــوام العـــربي الإســـلامي، أو التوحُّد أو التكتُّل أو الاتحاد، كذلك فإنَّ الكثيرين من الأئمة في المساجد على مـدى التـاريخ لا يحفظونها ويتجاوزونها؛ ولا يحضُّون الناس على قراءتها، بلى المدرسـين في المـدارس والقـراء المجـودين في المناسـبات، كـذلك كـانت القـراءة للقــرآن الكـريم عنـدهم انتقائية لبعض السـور وخـواتيم البعض الآخر مع تجنب السور والآيات التي تعتـبر أساسـية وهي أم الكتـاب؛ إنهم بـذلك قد ســلبوا العــرب أهم خصائصــهم الوجودية وأهم خصــالهم الحياتية وأهم مهامهم التي يجب عليهم العمل على تنفيذ للعهد والميثـاق الـذين ألزمـوا أنفسهم تحقيقه.

2 وذلك بفضل ما يقدمونه لليهود وأعـوانهم من خدمة لا تقـدر بثمن عنـدما يمارسون بجهالة ما بعدها جهالة عملية إزاحة وتحويل أركـان الإسـلام من أساسها بمفهومها العربي المبين، وهكـذا فـإن الإعلام والدعاية الإسـلامية غـير الواعية في هـذه الأيـام، تضخِّم قضـية دخـول بعض الأشـخاص، في أنحاء العالم في الإسلام، أو موضوع تهجم بعض الصحف في دول الغــرب على شخصية الرسول العربي يستثمرون هيجان الناس لأهدف محددة، بينما يتكتمون على عملية تنصير كامل القارة الأفريقية والتي تجــري على قدمٍ وساق؛ وكذلك تجري الأعمال في جنوب شرقي آسيا أو على خــروج بعض القرى العربية من الإسلام بمختلف الطرق والأسـباب، ما يـدل على عجز ولاة أمــور المسـلمين عجــزاً تامــاً،ويمارســون الجعجعة بلا طحن، وذلك ذراً للرماد في العيون، وهـذا ما يـذكر يقـول علي بن أبي طـالب t: «لا أمر لمن لا يطــاع» قــال تعــالى: وَمَكَــرُوا وَمَكَــرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْــرُ الْمَاكِرِينَ [آل عمران: 54]

بالكيفية الموصلة وبالمراحل معاً، هكذا رتبّ لنا رب العالمين، تعليماً لنا، في سورة الرعد، الأمور وأفهمنا باللسان العربي المبين، أنَّ أول درجات الوعي هو (التعقُّل)[1] الذي يحدث عادة، من خلال الحواس مباشرة وهي المداخل أو بوابة العقل وهو الوعي البدائي الدرجة الأولى فوق البهيمية وهي تفصيلٌ وأكثر دقةً في قطع الأرض والأنواع من النخيل والأعناب وتأمل المتشابه والاختلاف، على الرغم من وحدة المصادر والمعطيات الواحدة وحدة المواد الأولية وقد حصر لنا رب العالمين مفهوم التعقل بالإحساس والانتباه والوعي وأكد لنا ضرورة حصول التعقل وأولويته لِما هو قريبٌ منا، قال تعالى: ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: 4] فالعقل هو الدائرة الأولى من دوائر الوعي والاهتمام لدى الإنسان، اهتمامه بالعيش (التعقل هو الاهتمام بما هو قريب الدائرة القريبة) ومتطلبات العيش من ذكاء وقوة للعمل في الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها، والتعاطي وإنشاء العلاقات مع شتى المحيط وبأشكاله، ما يُعين الإنسان على الحياة أو استمرار حياته، وهذه هي دائرة

---

[1] (?) لاشك أنَّ لمفهوم (العقل) في اللسان العربي المبين مداليل واسعة جداً وأنَّ اللفظ الثنائي هو الأصل في العربية، وذلك من (عقل: ع قل والقل من الربط والتمكين والقفل والتثبيت) وبعد ذلك نقول ما زاد في المبنى زاد في المعنى (عرب، ع رب نسبة إلى السيد، سيد الأكوان رب العالمين وكل شيء يتصل برب العالمين فهو عربي) (عجم، ع جم، الجم نسبة إلى الناس، الكثير) (عَبْري، ع، بر، نسبة إلى الأرض، البريَّة) وهو مقلوب لفظ عرب. (عدل، ع دل، نسبة إلى الدلالة - الصواب) (علم: ع لم: نسبة إلى الإحاطة والإلمام بالشيء).

(عدن:ع دن: نسبة إلى القرب).(عرم: نسبة إلى الامتلاء والطفح والكفاية والغاية).(عرف: ع رف نسبة إلى الاستقامة الحنيفية الطبيعية والرف الخط أو النسق أو الصف).(وعمد: ع مد نسبة إلى التطويل)؛ مثلاً، والله أعلم، ولكن لابد أن في هذه الألفاظ الأساسية والطبيعية، وليس السياسية المحدثة! لا بد أن فيها شيفرة ورسالة مهمة، على الباحثين العرب، الباحثين الذين لديهم وعي وإحساس عميق بالانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، هؤلاء عليهم منذ الآن العمل على فك رموز هذه الشيفرة التي هي أهم بكثير من الشيفرة الوراثية، التي أنفق العالم عليها لاكتشافها الوقت والمال الكثير دون أي جدوى، أو فائدة، اللهم إلاّ الربح الاستعماري بقصد الهيمنة على الشعوب من قبل تلك الدول التي قامت بذلك المشروع الوهمي؛ الكبير، لإيهام شعوب الأرض، بينما لا تزال أمورٌ هامة أشد ما تكون الأهمية؛ وهي تحتاج لجهود كبيرة لأنها هدفٌ عظيمٌ، وسامٍ، وإيجابي، وإيماني بنَّاء، سيبين ويوضحُ بجلاء وحدة هذا الكون وجلالةَ وعظمة خلقه الكامل.

وهكذا فإنَّ الأجيال العربية التي باتت تذهب إلى المدارس والمساجد يومياً؛ إنما تذهب من أجل العيش لا من أجل العلم والحكمة! فهي لم تعد قادرة على المعرفة، لم تعد قادرة على الولوج إلى الصميم.

العقل وهــذه الــدائرة بســيطة وبدائية وهي أعلى قليلاً من البهيمية يستوي فيها أكثر النـاس المؤمنـون وغـير المؤمـنين، ولكنها دون مســتوى التفكُّر الــدائرة الأوسع والأبعد والأعلى، وهي دائرة لبعض العقلاء خاصةً، وهي مرتبةٌ (التفكُّر) لا يصعد إليها إلا القليل من النـاس الـذين يعقلـون، لأن التَّفَكُّر كما في القرآن الكريم، فيه توسُّعٌ وشموليةٌ بالاهتمام وصعودٌ وامتــدادٌ وانطلاقٌ في الآفـــاق وارتقـــاء وترفـــعٌ عن الإنشـــداد للواقع والتزاماته الحياتية الآســـرة، إنَّ التفكر في القـــرآن الكـــريم مرتبة أعلى وأوسع وأرقى من التعقل والتفكر وحده يقود إلى اليقين واليقين يفضي إلى الإيمـان والإيمـان وحـده يقـود إلى الحق ولكن المؤمنين قليلاً ما هم، إنَّ الكـرام قليـلُ، والعجب العجاب كان في عدم حصول الفهم عند الكثير من الناس بعد كل هذا التفصيل وكل هذا البيان، ويبقى الكثير من الناس في حكم الجهول الكفور بالآيات وبنعم الله[1].

في الدين الإسلامي أساساً لا يوجد مراتب دنيوية؛ وكـذلك فإنَّ مفهـوم الإمـام؛ الـذي يعـني ما أتمَّ به من رئيس وغـيره، جـاء في لسـان العـرب ما هو نصــه: أَمَّمَ بــالفتح أي قصــد، ويمَّمْتُه أي قصـدته، فلأمُّ: أي قصد الطريق المستقيم (أي أنَّ الإمـــام هو العلامة على الطريق الـــذي ينبغي أن يُقصـــد) ويـتيممون أي يقصـدون وأمّ البـاب قَصَـدَهُ، وتيممتُ الصـعيد للصلاة أي قصدته وأصله التعمُّدُ والتـوخي قـال ابن السـكيت: قوله عــزَّ وجل: فَتَيَمَّمُــوا صَــعِيدًا طَيِّبًا [النســاء: 43] أي اقصدوا الصعيد الطيب، ثم كثر استعمالهم لهـذه الكلمة حـتى صار التيمم اسـماً علمـاً لمسح الوجه واليـدين بـالتراب، وابن سـيده: الـتيمم التوضؤ بـالتراب على البـدل؛ وتيممتـه: توخيته وقصدته، والتيَمُّم بالصعيد مأخوذٌ منه وصار الـتيمم عند عـوام النـاس يعـني التمسح بـالتراب؛ والأصل فيه القصد والتـوخي، واليمامة القصد وجَمَــلٌ مئم: أي دليل هــادٍ يعــني القصد لأن الــدليل الهــادي: قاصــد؛ والأمة الحالة والشــرعة، والــدين، أو الطريقـــة، قـــال تعـــالى: إِنَّا وَجَـــدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ

---

1 (?) نعم، فإنَّ بعض سور وآيات القرآن الكريم، كتاب الله العظيم، لم تكن لتوافق أو تناسب أحــوال الخلفــاء العباســيين مطلقــاً، ولاأوضــاع الدولة العباسية الشعوبية، ولأهـداف الدولـة، الـتي جـاءت وبـالجهود الفارسـية، بغرض تحطيم وإيقاف وإجهاض مشـروع القـرآن العـربي المـبين، كـذلك ســـارت الأمـــور في الفـــترة البويهية والفاطمية والمملوكية والعثمانية الصــوفية على خطا الشــعوبيين الأوائل العباســيين، الــذين نكســوا عن أساسيات الدين، وغيروا وحـوَّروا أو عملـوا على تحـوير مضـامينه الثابتـة، وقد أدخلـوا عليه ما هو غـريب عنـه، فبعد أن كـان الفـاتحون العـرب في صــدر الإســلام والعصر الأمــوي ينشــرون الإســلام في أقاصي الأرض محطمين للطاغوت في العصر العباسي أوقف كل هذا النشـاط؛ وصـارت البلاهة والجنون سمة إيجابية من سمات المؤمن الحقيقي!

[الزخرف: 22]، أي على طريقة، أو على سنة، وقوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْـرَ أُمَّةٍ أُخْـرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمـران: 110]، أي يعني خير أهل دين (ليأتمَّ بهم باقي الناس)[1] قـال تعـالى: ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ [التوبـة: 12]، أي قـاتلوا رؤسـاء الكفر وقـادتهم وكـذلك قوله تعـالى: ﴿ وَجَعَلْنَـاهُمْ أَئِمَّةً يَـدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [القصـص: 41]، أي من تبعهم فهو في النـار يـوم القيامة، والإمام الذي يُقتدى بـه، وجمعه أئمة مثل إنـاء وآنيـة، وإمامُ كل شيء قيِّمه والمُصلِح له[2] قـال تعـالى: ﴿ اتَّبِعُـوا مَا أُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُـوا مِنْ دُونِـهِ أَوْلِيَـاءَ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 3]، بل إن الناس صاروا يقلدون تقليـداً أعمى قال ﷺ: «**يكثر الحديث من بعدي**[3]**، فإذا روي لكم**

---

1 (?) ما بين قوسين للمؤلف.

2 (?) والرواة، والكتّاب والوعاظ، المسلمون العرب، في هذه الأيام، يطلقـون العنان لأهوائهم في النقل، والتنقل بين الكتب؛ دون إعمال العقل، يصـدرون عن الـذاكرة المسـجلة في أدمغتهم مسـبقاً، اللوحة الجـاهزة، تُسـيِّرهم وتدفعهم، الدفع الذاتي، ولقد نسي هؤلاء المُنَوَّمون، أو تناسـوا، أنهم بسـبب هذا الوهم الذي توهموه، قد وقعوا، وأوقعوا المسلمين، ولقـرونٍ عديـدةٍ في شر مما منه فروا، ولسـان حـالهم يقـول إنما اتبعنا إمامـاً، أو سـلكنا مسـلك عالم، إنه أعلم منا، اوَإنْ كان هذا الإمام، أو هذا العـالم، ينقل بالأسـاس عن كتب اليهود؛ بل لسان حـالهم يقـول كما قـال عنهم الله سـبحانه وتعـالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْـزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُـولِ قَـالُوا حَسْـبُنَا مَا وَجَـدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُـونَ شَـيْئًا وَلا يَهْتَـدُونَ (104) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) ﴾ [المائدة: 104 ـ 105]، قال تعالى: ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَـذَلِكَ يَفْعَلُـونَ ﴾ [الشعراء: 74]، قـال تعـالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْـزَلَ اللَّهُ قَـالُوا بَـلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَـدْنَا عَلَيْـهِ آبَاءَنَا أَوَلَـوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [لقمان: 21]، قال تعالى: ﴿ وَقَـالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُـونَ (20) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قَـالُوا إِنَّا وَجَـدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَـارِهِمْ مُهْتَـدُونَ (22) ﴾ [الزخـرف: 20 ـ 22]، ومن عجيب تأثير هذا الوهم على أصـحابه أنه يصـدهم عن المنطـق، وعن العـدل والله المستعان.

3 (?) وكيف يستمر هذا التأويل الـذي لم يكن أساسـاً من عند الله سـبحانه وتعالى، بل هو عبارة عن تخرصات ووجهاتِ نظر، كانت خاصة في الكثـير من الحالات، نبعت من مصـلحة خاصة أيضـاً في وقتٍ من الأوقـات؛ وفي ظـروفٍ وفي حالـةٍ اسـتثنائية خاصـة! في عصـور الإنحطـاط إلى أدنى مستوى، ولكنها استمرت مع مرور كل تلك الحِقَبْ، وعلى الرغم من تغير كل تلك الظـروف؛ فمن هو صـاحب المصـلحة في الـترويج لمثل هـذه الإفـتراءات وشـيوعها وإشـاعتها؟ من هو صـاحب المصـلحة في تـرويج الأخطـاء، أو الأفهـام الخاطئة عن بيـان القـرآن الكـريم العـربي المـبين، وإشاعتها في العالم فضلاً عن شـيوعها بين المسـلمين العـرب! القـرآن الذي نزل عربياً غير ذي عِـوج، فتحـولَ في التفاسـير إلى أعجمي معـوج! من الـذي اشـاع بين العـرب المسـلمين أنَّ ألفـاظ القـرآن الكـريم يمكن تفسيرها وفهمها عن طريق المأثور والمنثور.ُ.من الأقـوال؛ فـألجم العقل الإنساني عن الفهم الصحيح وأبعَـدَهُ عن التفكُّر مئـات الأميـال!! ومنْ منَ العرب المسلمين ناقش هذه النقطة لمعرفة، ما إذا كـانت منطقية أم لا؟ ما إذا كـانت حقيقية أم صـادقة!؟ كيف تـرك المجـال واسـعاً ليـدخل منه

عـني حـديث فاعرضـوه على كتـاب الله تعـالى، فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالفه فردوه» فدلَّ هذا الحديث على أن كل حديث يخالف كتاب الله تعالى فإنه ليس بحـديث، وإنما هو مفـترى، وكـذلك كل حـديث يعـارض دليلاً أقـوى منه فإنه منقطع عنه ، لأن الأدلة الشـرعية لا ينـاقض بعضـها بعضـاً، وإنما التنـاقض من الجهل المحض؛[1] وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله قال: «**لا تكتبوا عني شيئاً إلا القــرآن، ومن كتب عــني شــيئاً غــير القــرآن فليمحه**»[2] أخرجه مسـلم في صـحيحه، وهنـاك قـول ينسب لأبي حنيفة يقول: (**إذا صح الحديث فهو مـذهبي**) والأحق أن يقال ما جاء في القرآن الكريم هو الصـحيح، وهو المـذهب الوحيد، وكـان ابن حنبل رحمه الله تعـالى يقـول: لا تقلـدوني، ولا تقلــدوا أحــداً من الأئمــة، وخــذوا من حيث أخــذوا، قــال الطحــاوي رحمه الله (**لا يقلد إلا كل عصــبي، أو غــبي**) والحق يقــــال: إن من يقلد دون تَفَهُّم، فإنه يقر بصــــغر عقله أمام العقل الآخر! ويتمسكون بما هو غير صـحيح، ولا هو وارد في كتاب الله سبحانه وتعالى، ولكن يجب أن يعلم المُجهَّلون، أنَّ مَنْ ذمَّ نَفْسَهُ لا يُسْمَعْ!

الدخيلون على العروبة والإسلام فيحولون السكك والـدروب عن مسـارها العربي الأصيل؟ وبالتالي ليـدخلوا مـداخلهم وأوهـامهم ونفـاقهم ودجلهم وتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان؛ كيف يـتركون فهم القـرآن الكـريم وفهم آياته من خلال اللسان العربي المـبين وينتقلـون بفهمه إلى ما صـار يُـدعى بالمـأثور أو بالرواية والتحمل والسـماع والتلقين والعنعنة والمناولة ثم بالجرح والتعديل أو الإجـازة؛ وبالتـالي الإعلام والوصـية! والوجـادة؛ ثم بالتقسـيم إلى صـحيح وحسـن وضـعيف ثم إلى شـاذ ومقلـوب ومعلـول ومطــرب ومرسل ومنقطع ومعضل ومــدرج! ثمَّ إلى أنــواع منها متــواتر ومشهور وآحاد ثم لفظي ومعنوي ثم إلى مقبول ومـردود، ثم كـان هنالك القدسي أوالرباني؛ وما إلى ما هنالك من مصطلحات ومبتـدعات أبتـدعت في عصـور الانحطـاط والتخلف وعصـور توقف العقل والفكر والوجـدان العــربي المســلم عن أي عمل وعن أي نشــاط، ثمَّ أمليت على العــرب والمسلمين بداية بالقوة والدعم! ما ترك المجال واسعاً للشعوبية واليهود لكي يمــرروا للعــرب المســلمين ماشــاؤوا من أضــاليلهم وافــتراءاتهم بمسـوغات كـان على المسـلمين قبولها فلا يسـتطيعون ردها حـتى كـانت كتب الحديث، عند بعض المسلمين، كإنجيل النصـارى، فهـذه الكتب، كتب الحـديث، الـتي وضـعها النـاس تحت ظـروف وأسـباب سياسـية كما هو معروف، وذلك كما كان النصارى قد وضـعوا أناجيلهم كبـديل عن الشـرع الإلهي اخترعوها كبديل عن الإنجيل الحقيقي وأخـذوا يرجعـون إليها لتلبية أهوائهم!

1 (?) أبو اليسر عابـدين أغاليط المـؤرخين، ص 34 مكتبة الغـزالي بدمشق 1972.

2 (?) أبو اليسر عابـدين أغاليط المـؤرخين، ص 42 مكتبة الغـزالي بدمشق 1972.

حول موضوع الإفتاء والفتوى:

هناك أسئلة كثيرة تدور حول الإفتاء والفتوى وحول التناقض في الفتاوى، والفرق بين الفتوى والقضاء والحكم العربي وهي أسئلة أساسية وهامة؟؟

فهل كان هناك أساساً، فتوى في الإسلام؟ وهل يحق لأحد بعد الرسول ، الذي كان ما ينطق عن الهوى، هل يحق لأحد من بعده أن يفتي الناس؟ وهل الفتوى طريقة، أو وظيفة إسلامية حقاً؟ أم أنها انتقلت إلى المسلمين بالعدوى، مثلما إنتقلت إليهم أمورٌ كثير من أهل الكتاب؛ هل كان من الأنسب أن نقول استشارة بدل فتوى؟ ومستشار بدل مفتي! على اعتبار أن الفتوى اختصاص الأنبياء؟ هل هي حقاً كانت دخيلةً على الإسلام والمسلمين؟

وهل كانت الفتوى بعديَّة دائماً، وتبريرية، وتبعاً للخلل، والخطأ، والتدني، وغياب الوعي والتخلف والانحطاط وانحسار العقل والمنطق لدى الناس؟ ولماذا نعمل على تكريس الجهل عند الناس والتعمية عليهم وحرمانهم من الوعي وإطالة حالة التخلف عندهم وتشجيعهم عليها، وتغييب وعيهم ومسح أفهامهم؟ وتهبيط مستواهم إلى أدنى الحدود، لماذا لا تتجه الجهود أساسا إلى دفعهم إلى العلم والتعلم، والفهم والإدراك والوعي والحرية؟ لماذا لا نعمل أساسا على رفع مستوى فهمهم ووعيهم بحيث لايحتاجون ولا يضطرون إلى الفتاوى؟ وهل الفتوى في الإسلام صورة مشوهة عن خلوة الاعتراف عند النصارى؟ وهل قال الرسول في الحديث الصحيح: «**أجرأكم على الفتوى أجرأكم على النار**»؟[1]

---

[1] (?) لقد وردت لفظة (أفتنا) و(أفتوني) و(تستفتيان) و(فاْستفتهم) في القرآن الكريم عدة مرات وكانت الفتوى في جميع تلك الصيغ، بمعنى الجواب الشافي والمفيد عن السؤال الذي له علاقة بالأحكام، أو الشرع، أو ما هو على علاقة بعالم الغيب؛ أما الاستفتاء فيعني السؤال نفسه عن التشريع، أو مواضيع بعالم الغيب، مثل تعبير المنام، وفي المعجم: ليس الفتى بمعنى الشاب والحَدَث؛ إنما هو بمعنى الكامل الجَزْل من الرجال، وأفتاه في الأمر: أبانه له، ويقال: أفتيت فلاناً رؤيا رآها إذا عبرتها له، وفي الحديث أنّ قوماً تفاتوا إليه أي تحاكموا إليه وارتفعوا إليه بالفتيا وأفتيته في المسألة: إذا أجبته عنها، والفتيا تبيين المشكل من الأحكام، وأصله من الفتى وهو الشاب الحدث السن، الذي شبَّ وقويَ، فكأنه يُقوِّي ما أشكل ببيانه فيشبُّ ويصير فتياً قوياً (هل هو التجديد!) وأفتى المفتي إذا أحدث حكماً؛ وفي الحديث: الإثم ما حاك في صدرك وإن أفتاك الناس عنه وأفتوك، أي وإن جعلوا لك فيه رخصة وجوازاً، وعن الهروي: والتفاتي التخاصم، والفتيا، والفُتْوى، والفَتْوى، ما أفتى به الفقيه، الفتح في الفتوى

فأين ذهبوا بأمثال هذه الأحاديث الصحيحة؛ التي نهت، وتنهى عن الإفتاء؟ الذي من شأنه أن يكون جاهزاً لتبرير الأخطاء فقط، أو لتمرير هذه الأخطاء.

المفروض أن تكون الفتوى قبل حدوث المخالفة أو المعصية: ثم هلاّ كانت الفتوى والفتاوى قبل وقوع المخالفة!؟، أو قبل وقوع المعصية!؟ أو قبل الشروع بها، أو قبل تنفيذها، أو قبل عقد العزم على تنفيذها؟ هلاّ لجأ المُسْتَفْتِي إلى الاستشارة (استشارة المُسْتَفْتَى) قبل ارتكابه للفعل الخطأ؟ ثمَّ ألا يعلم الناس أن تكرار الخطأ ليس بخطأ، بل هو جريمة، إذا نتج عنها جرم، وكانت تستوجب الحد، أو التعزير إذا كانت جناية، أو جنحة، وكيف احتجوا بالقرآن الكريم، أو كيف لجأوا إلى الكتاب العربي المبين لتمرير مرادهم مع أنّ الآيات الكريمة لا تمت بصلة إلى ما ادعوه أو ما احتجوا به أو ما ذهبوا إليه لقد أطاحوا بالمعاني العربية ولووا أعناق الآيات وأذهبوا معانيها العربية الحقة فقالوا إنَّ قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ [النساء: 127]، وقوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ ﴾ [النساء: 176] وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 22]، فقالوا أن هذه الآيات تبرر لهم أخذ دور النبي ﷺ، وتناسوا أنه ﷺ كان نبياً يوحى إليه، وأنه لا يجوز أخذ دوره، أو القيام بما كان يقوم به من الأعمال أو السلوك المنبثق عن الوحي، والله أعلم، وواضحٌ في الآيات البينات التي لا تحتاج إلى توضيح؛ أنّ مهمة الإفتاء منوطة بأمر الله سبحانه وتعالى، عن طريق النبي، قال تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ﴾ [النجم: 1-5]، وما يُتلى في الكتاب: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ [النساء: 127]، وقال تعالى: ﴿ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف: 9]، فكيف يتصدى لها المُفْتُون، وكيف يجرؤ إنسان ما على الفتوى والإفتاء لإنسان مثله[1]، في أمور الأحكام الشرعية التي هي من أمر الله ﷻ، إنَّ

لأهل المدينة، (والمفتي من المكاييل، أوهي اسمٌ للمكيال عند العرب).والله سبحانه وتعالى أعلم..راجع لسان العرب، مادة فتا، للعلامة ابن منظور، دار التراث العربي، بيروت

[1] (?) الباحثون والمتخصصون في التاريخ، يعرفون أن عصر المأمون العباسي، ومن جاء بعده، كان عصر اضطراباتٍ، وفوضى سياسية، ومحن، وصراعات عقائدية؛ احتدم فيها الجدل، وظهر فيها المتكلمون والمتفلسفون، ومعروفةٌ قضية محنة خلق القرآن، الحملة التي قادها المأمون شخصياً، وأشرف فيها على التحويل القسري للفكر العربي،

المشـاورة، أو الاستشـارة أمـرٌ آخر! بعيـدٌ في طبيعته عن أمر ومدلول مفهوم الفتـوى، قـال **«المستشار مـؤتمن»** ولم يقل المفتي مؤتمن؛ وقال «**الرائد لا يكذب أهله**» وقال «**المــؤمن قلبه دليله**» وقــال «**اســتفتي قلبك ولو افتاك المفتون**» فكان المطلوب من المؤمن أن يُفعِّل قلبـه؛ (عقلــه) أي على كل مـؤمن أن يُعمِل عقله في تـذاكر القـرآن العظيم والتفكير في القضـايا الـتي تعترضه القضـايا الشخصـية والقضـايا الوطنيـة، والقضـايا الدينية العامـة، والتفكـير وتفعيل

حيث كــان الفكر السياسي العــربي يقتضي أن تكــون الدولة العربية في خدمة الــدين والقــرآن؛ أي في خدمة الحق والعــدل والنــاس؛ وبعد عصر المأمون، أصبح الدين والقرآن والناس في خدمة الــدول، منذ ذلك الحين، تحول الدين إلى برشـامات، لتهدئة الخـواطر، وتنـويم الضـمائر.؛ منذ ذلك الحين بــدأت عملية إزالة التركـيز من الإسـلام، لجعله أكـثر إماهــةً، ففي عصر الرشيد، الذي كان قد ضُربَ اسمه، على الدينار الذي صُكَّ وضُـربَ في أيامه، في دار صك النقود في تونس، بدلاً، أو عوضاً عن عبارة (لا إله إلَّا الله محمد رســول اللــه) على ما تــذكر كتب الأثــار وتــاريخ النقــود الإسلامية، في عصره تم اختيار وتعـيين أبو يوسف يعقـوب ابن إبـراهيم.. قاضـياً للقضــاة، والــذي على ما يبــدو أنــه، أعد له أعــداداً، وحكيت عنه الحكايات، وعملت له الدعاية، عن ذكائه الخارق، وقدرته غـير المسـبوقة، على إيجاد الحلول، وحل المشـكلات؛ وإصـدار الفتـاوى النـادرة! وتخليص الخليفة ورجاله من المأزق الشخصية الخطيرة، والمعارضة لأحكام الــدين الحنيف، التي كانوا قد وقعوا فيهـا! بحنكته وذكائـه، كـان ينشئ أو يلتمس لهم، يلتمس لهم المــبررات!، وكتب الفقه زاخــرةٌ، بــذكر تلك الفتــاوى العجيبـة، الـتي أفتاها أبو يوسف لهـرون الرشـيد، والـتي كـانت سـبباً في تعيينه قاضياً للقضاة، في حين كان الأئمة من قبل يرفضون هذا المنصب، وكـان الإمـام أبو حنيفـة، رحمه الله تعـالى، قد عـذب بسـبب رفضه هـذا المنصب من قبل المنصــور؛ وتــذكر بعض المراجع أنه رضي الله عنه قد توفي 150 للهجرة بينما تـولى الرشـيد الخلافة سـنة 170هــ ففي كتـاب (أبو حنيفة النعمــان) تــأليف ثلاثة من الأســاتذة الــدكاترة! وصــفٌ لأبي يوسف، قاضي قضاة الرشـيد، يقـول الكتـاب: ص 140(وكـان أبو يوسف لفرط ذكائه وتوقد ذهنه!! لا تستعصي أمامه مشكلة مـا.. إنها سـرعان ما تهون أمام نظرته الفاحصة وعقله الفطن) ويعدد الكتاب سقطات الرشيد الشخصـية، ورجالاتـه، الـتي اسـتطاع أبو يوسف إيجـاد الحلـول لها عـبر الفتاوى!!، الفتاوى المريحة التي أوجـدها وبـذكاء خـارق، غـير مسـبوق!!، ويقول المثل: إن العقول الكبيرة تدير العقـول الصـغيرة؛ جـاء في مقدمة كتاب (الفقه على المذاهب الأربعة) أنه لما تولى الإمام أبو يوسف القضاء في عهد الرشيد سنة 170هـ وصار أمر تولية القضاة بيده، كـان لا يتـولى، ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلى أقصى أعمال أفريقية، لا يتولى أحـدٌ عملاً، إلَّا من أشـار به أبو يوسـف، وكـان لا يـولي إلَّا من كـان على مذهبه، فأطرت العامة إلى تعرف أحكام القضـاء وفتـاوى أهل الـرأي من علماء المذهب!، ولهذا أنتشر المذهب الحنفي انتشاراً واسعاً).

في عصر المـأمون بـدأ إقصـاء العـرب فعليـاً عن الـدين والدولـة، وبـدأ إبعادهم عن تـولي شـؤون الـدين والـدنيا، بشـكل قصـدي مُتَعَمَّد، واعتمد الخلفاء على المـوالي، وأخذ يطغى على الـدين والـدنيا، تسـلط الأعـاجم، فرس، وترك، وروميـان، ويونـان، وبـدلاً من أن يقـوم المـترجمون بترجمة القــرآن الكــريم، وعلومه العربية الفــذِّة، والحــديث النبــوي الشــريف، والحكمة العربية البالغـة، والشـعر العـربي الرائـع، والقصص والروايـات

العقل فرض عين على كل مسلم، وكل مسلمة، وليس فرض كفاية، ولم يكن وقفاً على البعض دون الباقين، كل مسلم عربي، وكل مسلمة عربية هي عالم أو هو مشروع عالم، ولا يعفيك عند الله سبحانه وتعالى، ولا يشفع لك أن يكون فلان قد أفتاك، أو أن يكون فلان قد أصدر لك فتوى، يحلل لك أو يحرم عليك، فإذا كان هو عالم فأنت جاهلٌ إذاً، وهذا إقرارٌ منك بجهلك، هذا مرفوضٌ في الإسلام رفضاً قاطعاً نهائياً[1] وفي الإسلام إذا كان المفتي لا يستطيع أن يضمن نفسه، فكيف

العربية المعبرة، والمليئة بالعبر والمواعظ والأمثال والحكم، وذات الدلالة، إلى اللغات الأخرى، في عصر المأمون، جُلبت الفلسفة الوثنية اليونانية الرومانية، والعقائد والفلسفات الفارسية الهندية، على ضآلة مستواها وضحالة مضامينها وقيمتها، بالنسبة لكلام الله، سبحانه وتعالى، وحديث رسوله الأعظم ، وكذلك بالنسبة للشعر العربي، الذي كان في الأوج، حكمةً، وبلاغةً، وأقوالاً مأثورة، ومواعظ وعبر لا أعظم ولا أبهى، ولكن ما حصل في عهد المأمون هو ترجمة، الفلسفة الوثنية اليونانية الرومانية؛ والعقائد والفلسفات الفارسية الهندية؛ على عجل؛ إلى اللسان العربي؛ وليس العكس! وأُقحِمَتْ وزُجَّتْ في مواجهة المد الواسع، للدين العربي الحنيف، وكان صراعاً مريراً، فاز به الفقهاء العرب المسلمون، في بعض القضايا الفكرية العقائدية، أهمها قضية خلق القرآن الكريم، كما هو معروف؛ فالقرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالى، وهو قديم، باقٍ، حيٌّ لا يموت، وبالتالي فهو ليس مخلوقاً! لأن المخلوق لابد أن يموت! ولكن..أيضاً فإنَّ هناك قضايا أخرى أثيرت في حينه، ودخلت على بعض المدافعين عن الإسلام والقرآن، منها فتنة وقضية تعدد المصاحف؛ وهذه حُسمتْ! لاحقاً وقد انتصرت الحقيقة، وهي أن رسول الله ، لم يترك هذه الدنيا، إلّا وقد ترك للمسلمين، من بعده، مصحفاً واحداً محفوظاً مسطوراً في الصدور، صدور الصحابة الكرام، ومسطوراً ومكتوباً في صحائفهم، قال تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [الحجر: 9]، ولم يلتحق الرسول الأعظم بالرفيق الأعلى، إلّا وقد ترك المصحف الشريف في أمثل حال، بحيث كانت كل لفظة منه، وكل حركة وسكون، وسيظل، توقيفياً، ألفاظاً وآيات وسوراً، ثابتةً، شكلاً ومعنى، وإلى الأبد.

وهناك قضايا! طُرِحَتْ من قبل الشعوبية؛ وهي لم تزل عالقة، تنخر الفكر العربي، إلى اليوم، وتُعْجِزُ الفهم عن النهوض؛ ألا وهي، وقضية الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول لقد شنت مجموعاتٌ من دهاقنة الأعاجم، روم، وفرس، ويهود، ومجوس، وبعض الجهلة من الأعراب، مجموعاتٌ مترابطةٌ ومتلاحقةٌ، ضمن مؤامرة تاريخية كبرى، وخطيرة؛ إلى درجة أن آثارهم السلبية، لا تزال إلى الوقت الحالي، لا تزال تعوق الفهم الصحيح، أو الوعي الحقيقي للدين الحنيف، والمستشرقون اليهود اليوم يبنون هجومهم الحالي على العرب والإسلام يبنونه على الثغرات التي أحدثها أولئك الشعوبيون، في وقتٍ وهن فيه العرب، وخارت قِواهم، وأبعدوا فيه عن زمام الأمور، أمور الدين والدنيا، فما حقيقة ما سميَّ بعلم الناسخ والمنسوخ!!، وما حقيقة الناسخ والمنسوخ؟ وما حقيقة ما سمي (معرفة أسباب النزول وهل كانت هذه القضايا في صدر الإسلام؟ وهل عرفت في عصر الرسول الأعظم ؟ أو في عصر الصحابة الكرام، وكيف دُس كل هذا الدس على الفهم العربي، ومتى تمَّ هذا الاختراق الخطير للعقيدة العربية؟ إننا إذا عدنا إلى القرآن الكريم، سنجد في معانيه العربية، أن للآية، ولنسخ الآية، معنى مختلفاً، عمّا ذهب إليه المفسرون؛ لأن آيات

يضمن للآخرين، قال تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِـهِ ﴾ [البقـرة: 255]، قـال تعـالى: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِـهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: 51]، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: 38]، قال تعـالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُـوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَـرُوا اللَّهَ فَاسْـتَغْفَرُوا لِـذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ ﴾ [آل عمران: 135]، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: 2]، قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: 45]، قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ [الطور: 29]، قال تعـالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَـوْا إِذَا مَسَّـهُمْ طَـائِفٌ مِنَ الشَّـيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِـرُونَ ﴾ [الأعـراف: 201]، قـال تعـالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 43].

قال تعالى: ﴿ وَكَـذَلِكَ أَنْزَلْنَـاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْـوَاءَهُمْ بَعْـدَمَا جَـاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَـكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ [الرعـد:

الله سبحانه وتعالى كثيرة ومتنوعـة، والآية تعـني البرهـان، والآيـات تعـني البراهين، لـذلك فـإن كل المخلوقـات في هـذا الكـون، آيـات من الله عز وجـل، ودلالة على عظمته سـبحانه وتعـالى، الشـمس والقمـر، والأنس والجـان، والنباتـات، والكتب، والرسـالات، والشـرائع السـماوية العديـدة، السابقة والمتلاحقة، التي شمَّلها الله سبحانه وتعالى، في القرآن الكـريم، كل هذا عبارة عن آيات، وهي دلائل تدل عليه سبحانه وتعـالى، ويُمْكِن لله عز وجل أن ينسخ آيـاً منها مـتى شـاء، وأن يسـتبدلها مـتى شـاء، وينبغي على من يريد الفهم، للآيات التي في القرآن الكريم، أن لا يجـتزئ الكلمة الواحدة، والآية الواحدة، ليَفْهَمَ المعـنى، وإنما عليه قـراءة القـرآن كـاملاً، وقراءة السورة كاملةً، ثم التَّفَكُر في معنى الآية، أو المراد من الآيـة، عند ذلك لن يجد القـارئ لآيـات الله عز وجـل، لن يجد تناقضـاً أو تعارضـاً ولا ينبغي؛ وبالتالي فكل الآيات الـتي في القـرآن هي من كلام الله عز وجـلَّ، الذي لا يحـول ولا يـزول، وهي عقد واحـد، ولها معـنىً عظيم، وتسـتهدف أغراضـاً عظيمة محـددة، في الإنسـان والكـون، وهـذا هو الفهم العـربي لكلام الله عز وجـل، لأنّ معـنى لفظة آيـة، في اللسـان العـربي المـبين، البرهـان، ولفظ الآيـات يعـني الـبراهين، وآيـاتٌ بينـات، تعـني الـبراهين الواضحة الجليّة، الواضحة الدلالة، التي لا تحتاج إلى توضيح؛ فكيف يكلمنا الله تعـالى، في القـرآن الكـريم بكلام، ثم يغـيرُ كلامـهُ في اليـوم التـالي؛ حاشا وكلا، بل أخذوا هذا المرض من اليهود) (هذه الفقـرة بأكملها منقولة من كتـاب الحـرب على العـرب للمؤلف دار يعـرب بدمشق ص25 وما بعـدها 2006) وقد سـمعت، ورأيت الكثـيرين من الرجـالات العلمـاء في الـدين، الـدعاة، الأفاضـل، المشـاهير، الـذين كـانوا يتحاشـون الفتـوى، ويمتنعون عنها. تورعاً ومخافة من الله سبحانه وتعالى..

[1] (?) يعتبر (القات) من أهم الأسـباب الـتي كرست التخلف الإقتصـادي في اليمن السعيد؛ ويسبب (التخزين) شـلل الحيـاة في بلاد اليمن عامـة، وهو دون شـك؛ يعتـبر من المخـدرات! وأهـالي اليمن الكـرام في تحليلهم لتعاطي (القـات) وتخزينـه؛ إنما يعتمـدون على فتـاوى أكـابر العلمـاء في اليمن، ويقولـون عنه أن فيه راحة العلمـاء؛ فهل كـان للإمـام محمد بن محمد الشـوكاني الصـنعاني، المتـوفى 1250للهجـرة، رحمه الله تعـالى، صاحب التصانيف الكثـيرة، هل كـانت له رسـالة سـماها (البحث المسـفر عن تحـريم كل مسـكر ومفـتر) وأهل اليمن الكـرام، يعتمـدون على آراء وفتاوى الإمام الشوكاني في تحليل تعاطي القات، الله تعالى أعلم.

37]، والحكم العربي الذي في القـرآن الكـريم كـان اسـتمراراً للحكم العــربي الــذي كــان في الإنجيل والتــوراة وكل الكتب الســابقة. وغــاب عن بــالهم أنّ هنالك فرقــاً كبــير بين معــنى ومـدلول لفظة (الفتـوى) وبين معـنى ومـدلول لفظة (القضـاء) الــذي يعــني الحُكم، وأنَّ القاضي معنــاه في اللســان العــربي المبين القاطع للأمور المُحْكِم لهـا، وأنَّ القاضي هو الـذي يحكم بين الناس، وأصله: القطعُ والفصل.

الحكم العربي قديم، وهو من عهد آدم عليه السلام

في الآية الكريمة حُكْمًا عَرَبِيًّا [الرعـد: 37]، تأكيـدٌ من الله سبحانه وتعالى، على عباده، أنه إنما أنزلَ من لدنه سـبحانه وتعالى، وأنَّ هذا الحكم هو (القـرآن الكـريم، وهـو عـربي) وهـو الحُكم نفسه الذي كان قد نزل في التوراة الأساسية؛ وهـو ذات الحكم الـذي كـان قـد نـزل في الإنجيل[1] الأساسـي؛ وأنَّ هـذا

---

[1] (?) إن جميع الآيات، في القرآن الكريم والتي نصَّت وأكـدت على مفهـوم (عرب) كانت قد نزلت في مكة، ما عدا آية الحكم، قال تعالى: وَكَـذَلِكَ أَنْزَلْنَـاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا [الرعد : 37]، لقد نـزلت هـذه الآية في المدينـة، فالأحكام في القرآن الكريم، بطبيعة الحال، كانت قد نزلت في المدينة، وفي كتب أسباب النزول، يذكرون عادة أن سبب نـزول آية تنص على أنَّ الحكم الذي في القـرآن الكـريم، حكم عـربي، كـان ذلك بسـبب أن بعض الناس، وخصوصاً من أهل الكتـاب، والقـرآن الكـريم كـان وما زال لجميع الناس، فعندما نزلت الأحكام ، كانوا قد أبـدوا دهشة واسـتغراباً، وتناسـوا علمهم ومعـرفتهم بتلك الأحكـام وتسـاءلوا من أين تـأتي تلك الأحكـام؟ وبعضهم كان ينافق ويفتري ويقول أنه لم يسمع بهـذه الأحكـام من قبـل! فجاءهم الجواب في القرآن الكـريم، في سـورة الرعد المدنيـة، أنَّ جميع الأحكام الواردة في القرآن الكريم هي أحكامٌ عربية، وأنّ القـرآن الكـريم هو حكمٌ عربي بمعنى أنه هو أيضاً من عنـده سـبحانه وتعـالى، كما كـانت الكتب السابقة بمحتوياتها الأساسية!
ولما كان القرآن العظيم لكل الأمم، ولما كـان القـرآن العظيم للعـالمين، لكل زمان ومكان، للماضي والحاضر والمستقبل، فإن الآية الكريمة كانت تعني الروم والفرس واليونان والهند وكل العالم القـديم، وهي الآن تعـني كل الشـعوب في العـالم، وكل البشر وإلى يـوم يبعثـون، فهل كـان حكم الرجم لا يزال موجـوداً ومـذكوراً في الإنجيـل؟ (من كـان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر)! إذاً فالرجم الذي جـاء في الإسـلام ليس جديـداً، (وهـذا يعني أيضاً أنّ الإنجيل كـان كتابـاً وفيه أحكـام)؛ هل كـان حكم القتل على القاتل العمد، موجوداً سابقاً في الكتب المنزلة من الله سبحانه وتعـالى؟ وقطع يد السـارق من الحـرز؛ ألم يكن موجـوداً في الكتب السـابقة؟ ألم تكن أصل هـذه الأحكـام، وغيرهـا، وكل الأحكـام أصـلها إلهيـاً، ألم يكن معمـولاً بها لـدى كل الشـرائع وفي الـدول، والإمبراطوريـات والإمـارات والقبائـل، وحـتى القبائل في البـوادي؛ فكيف يجحـدون كل ذلـك؟ ولكن البعض يجحدون الحقيقة الدامغة!، قال تعالى: مِنْ أَجْلِ ذَلِـكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَـدْ جَـاءَتْهُمْ رُسُـلُنَا بِالْبَيِّنَـاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْـدَ ذَلِـكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْـرِفُونَ [المائـدة: 32]، لكن تلك الأحكـام لم تكن لتطبق بشـكل صـحيح دائمـاً! (كـانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الفقير والضعيف قطعوا يده) هكـذا قـال الرسول العربي ، لكن الرسول محمد قال: «والله لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» ففي الإسلام لا وساطة ولا هـوادة في تنفيذ حكم الله سـبحانه وتعـالى، إنَّ القـرآن الكـريم أعـاد تنزيل المنُـزَّل من الأحكام، أو أنّ القرآن الكـريم جـدد تنزيل الأحكـام الـتي كـانت قد نـزلت سابقاً في الكتب السابقة وعلى جميع الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وهـذا معـنى قوله تعـالى: وَكَـذَلِكَ أَنْزَلْنَـاهُ حُكْمًا عَرَبِيا [الرعـد: 37]، والله أعلم، والحمد لله رب العالمين.

الحكمُ ليس حكماً جديداً؛ بل هو ذات الحكم المنزّل سابقاً على جميع الأنبياء السابقين، من لدن آدم ، إلى يوم يبعثون، وكان ذات الحكم في جميع الكتب السماوية المنزلة من الله سبحانه وتعالى قال تعالى: بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (196) [الشعراء: 195 - 196].

قال تعالى: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ [فاطر: 25][1]، لقد آن الأوان ليفهم الناس في هذا العالم، في جميع أنحاء العالم، أنَّ الله سبحانه وتعالى، واحدٌ لا شريك له، وأن لديه ديناً واحداً، وليس أكثر من دين واحد! كان ولا يزال، وسيبقى وهو ذات الدين الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على آدم ، ومن قبل كان هذا الدين ذاته كان في الملأ الأعلى، مع الملائكة والجان، أقره رب العزة ديناً للسماوات والأرض وما بينهما، قال تعالى: الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) [الرحمن: 1 - 4].

لعل من الأهمية بمكان بدايةً ونحن نحاول طرح ومعالجة مشكلات وقضايا الأقليات في الوطن العربي[2] أن نعمل على بيان وتوضيح مسألةٍ هامة تُعْتَبَرُ مقدمةَ المقدمات في الفكر

---

1 (?) (الزبر) وتعني (السور) بمعنى ألواح، أو صحف، أو كتب، والله تعالى أعلم، وهي لغة عربية قديمة حيث يمكن قلب (ز) إلى (س) ويقال في المدرسة (سَبُّورة) بمعنى اللوح؛ والزبر تعني أيضاً الكتابة على الألواح الحجرية، والله تعالى أعلم. فما معنى لفظة الكتاب، وقد أتت ألفاظ الكتاب في القرآن الكريم بمختلف الصيغ (كتاباً 12، وكتابك1، وكتابكم1، وكتابنا1، وكتابه5، وكتابها1، وكتابهم1 وكتابي1، وكتابيه2).

2 (?) في السنوات الأخيرة وبعد انتشار القنوات الفضائية وشبكات الانترنيت تبين أن في الوطن العربي أثنيات وقوميات وطوائف (عليها فوراً أن تشتغل بالانفصال عن العرب وإعلان الحرب عليهم)!
أليست مفارقة أن يمضي الكون والعالم آلاف السنين من حياتهم دون أن يعلموا بذلك أو يدركوه أو يدري أحدٌ به؟ فأين كانت كل هذه الإثنيات التي بدأت مؤخراً تشتغل بالانفصالات عن العروبة، فأين كانت قبل وجود إسرائيل وقبل القرار الامريكي بالاحتلال المباشر للمنطقة العربية والسيطرة عليها وإحتلال العراق؟ (أتخذ القرار الأمريكي في الثمانينيات من القرن العشرين).
الآن على المثقفين العرب (بما فيهم الأكراد والأمازيغ) عموماً أن يمضوا حياتهم في التعرف على التركيبة الاجتماعية والثقافية والإثنية في بلادهم العربية، في حين أنه كان من المفروض أن يتجهوا جميعاً علمياً وتثقيفياً للعمل على تفكيك تلك العرقيات المنتهية الصلاحية والطائفيات المتخلفة والمدمرة للسيادة الوطنية، كان من الأجدر بالمثقفين العرب (بما فيهم الأكراد والأمازيغ) عموماً أن يمضوا حياتهم في محاولة مواجهة الأعداء الحقيقيين لبلادهم، للوطن العربي الكبير، لأن الإعلام العالمي ويتبعه الإعلام العربي (المسموع والمرئي والمقروء) يشتغل بالتجاهل الكلي (للعروبة) وكذلك كافة المناهج العربية، إنهم يعملون على تكريس الانفصال في البلاد العربية ويشجعون عليه!

الإنساني قاطبةً، ألا وهي شـرح وبيـان الفـرق الكبـير بين مـا هـو حقيقي من الأفكار والنظريـات السياسـية والـذي يمكن أن يقـومَ بذاته ويمتلك الحياة، وبين ما هو مُفتَعَل لا يقوى على القيام؛ فهـو يحتـاجُ دائمـاً - حـتى يقـوم - إلى المقومـات، والنتـائج هي دائمـاً بحسب المقدمات فما بُنِيَ على باطل فهو باطل وهذا المبـدأ من أهم قواعد ومنطقيّة التفكير، من الذي كبَّلَ هذا الدين وأبعـده عن حقيقته وحوَّلَهُ إلى مجرد مجموعة قواعد وقوانين وأشياء شكلانية أبعد ما تكون عن الفكر والمنطق بحيث إذا طبقهـا الإنسـان الآلي دخل الجنة؟

في حين أن الـدين كـان بالأسـاس عبـارة عن: نظـام يُتبع وليس مجـرد خضـوع. ألم يقل الرسـول العـربي عليه الصلاة والسلام عن سلمان الفارسي: (سلمان منا آل البيت) وطبعـاً هـذا يعـني أيضـاً -لمن يعلم -أن صـهيب الـرومي[1] وأنّ بلالاً الحبشي أيضـاً منّـا آل الـبيت، وأن كل من دخل الإسـلام من جميع الأقوام والأعراق أصبح منّا آل الـبيت، فمن الـذي وعـبر التاريخ كـان ينـاوئ العـرب ويُعـوجُ لهم نتيجة الحقد عليهم كلَّ سبيل من الداخل وينغِّص عليهم حياتهم ويستقدم على الدوام الجيوش المُعادية إلى بلادهم لهـدم كيـانهم؟ علمـاً أنَّ العـرب يعلنون: أنَّ كل من سكن الأرض العربية فهو عـربي، لقد أدَّت تلك الفواجع والطامـات الـتي ابتلي بها العـرب على اختلاف مواقعهم منذ بداية القـرن العشـرين إلى الكـوارث عـدم فهم طبيعة ومعنى ومدلول العروبة كان في مطلعها اغتيـال العقل والفكر والقلب العـربي، حـتى اختلط الحابل بالنابل ولم يعد العـرب، بعد أن أصـبحوا مُكَبَلِين بتلك المعتقـدات السياسـيّة الفاسدة، لم يعد لـديهم القـدرة على الحركة المُجْدِيَةَ، وبـاتوا يتحركون حركات تَشُدُّ وتُشدِّدُ عليهم الخناق أكثر فـأكثر، ولأنَّ الصدق ضد الكذب فـاليقين هو الـذي يتلاشى عنـده كل ما هو وضعي[2]، وكان من أقوال سيدنا عمر في خطبته قبل معركـة

---

1 (?) (الـروم الأرثـوذكس) و(الـروم البروتسـتانت)، تعبـير يجب تبديله في البلاد العربية؛ بـتعبير وطني عـربي.. وهو (العـرب الأرثـوذكس) و(العـرب البروتسـتانت) إذا جـازَ التعبـير.. وقد قـامت اليونـان، في بتبديله إلى (اليونان الأرثوذكس)، (واليونان البروتستانت).

2 (?) أيام زمان كان المرتشي، والخائن، والغشاش، والوصـولي، والمنتفـع، والمصـلحي، والغـادر، والفاسد والشـاذ، كـانوا مسـتنكرين، ويشـار إليهم باحتقار، مرفوضين وغير مقبولين من المجتمع، من عامة الناس وخاصتها، هـذه الصـفات كـانت صـفات المنحطين والرزالـة، وتـدعو إلى التقيؤ والاشمئزاز، والتقزز؛ صحيح أنه كـان هنالك في الماضي تخلف في التقنية منتشر، ولكنها لم تكن هذه الأساليب منتشرة، أو سـائدة. ولكن في هـذه الأيام للأسف الشديد تغيرت الأحوال، فصارت هذه المفـاهيم عند الأجيـال الحديثة كناية عن الـذكاء والقـدرة والتمكن والقـوة، وصـار أصـحاب هـذه الصفات أصحاب الفعاليـات؛ مثـاليين للأجيـال، ويمارسـون طقوسـهم في

القادسيةَّ: «أحملوا العربَ على الجَدِّ إذا جدَّ الجدُّ فتَلْقُوا جدَّهم بجدِكم» وقال رضي الله عنه: «والله لأضربنَّ ملوكَ العجم بملوكِ العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا شرف ولا ذا سلطةٍ ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم»، وقد تميز الفكر العربي في النصف الثاني من القرن العشرين ومطلع الألفية الثالثة باجتماع الضواري مع الحملان على صعيدٍ واحد، صعيد كراهيتهم للعرب والعروبة، ولكن كل واحد فيهم كان يكره أو يحقد على العرب على طريقته الخاصة، وهكذا أمضى أكثر (المفكرين العرب) حياتهم وهم يتقيؤون في الكتب وعلى صفحات المجلات والجرائد العربية[1] والإذاعات والبرامج التلفزيونات العربية الأفكار التي كانت من ناحية عملية معادية للإسلام والعرب[2]!

ليس كل ما يلمع ذهباً، وليس كل كلام مسبوكٍ هو فكر بالضرورة، لأن الفكر اساساً حالةٌ وطنية بأمتياز، فهؤلاء الذين لا نعرف عنهم شيئاً، من أين جاؤوا وإلى أين يمضون بنا؟ مراتب علمية وشهادات وهمية خلبيه، كانوا قد سدوا وكتموا على الناس العرب أفكارهم وصدوهم عن الفهم، وسيطروا عليهم وسدوا أمامهم كل طريقة، دائماً مفروضين من الأعلى ومن الخارج بدعوى وصايتهم على الثقافة العربية أو ريادتهم للفكر العربي، وبعضهم في حياته لا يتحدث العربية ولا يؤمن بأمة العرب؛ أوضاعهم لا تخلوا من المحسوبية أو التبعية

ظل القانون، وصار القانون ذاته هو الذي يحمي أمثال هؤلاء النخبة! فهل كانت التقنية، والاستسلام للتقانة هو الذي أنزل المجتمع، الجيل العربي الصاعد، في العصر الحديث، ومطلع الألفية الثالثة، إلى أدنى، وأحط مستوى، انتفت فيه الروح الوطنية، وضاعت عند أعتابه النخوة من الرؤوس؟

1 (?) راجع مقالات الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وغيره من الكتَّاب التي كانت قد نشرتها مجلة العربي الكويتية في سبعينيات وثمانينيات القرن المنصرم.

2 (?) 1986 م أذكر أنه عقدت ندوة أو دورة دعت إليها جريدة النهار في مكتبها شارع الحمراء في بيروت، حضرها كبار الصحافيين العرب وأكثر رؤساء تحرير المجلات والجرائد العربية بما فيها التي كانت ثورية؛ جاؤوا من جميع الأقطار العربية وكانت الندوة تدور حول أهمية مواضيع التسالي والأحاجي والمتاهة والأخبار الرياضية في الصحافة العربية وعن ضرورة إيجاد مساحة أو صفحة للأبراج في كل جريدة عربية يومية أو صحيفة أسبوعية أو شهرية وأكد المحاضر الفرنسي يومها على ضرورة أن تكون الأبراج جميعها والحظوظ تكتب دائما متفائلة وسعيدة، منذ ذلك الحين أخذت تظهر في المكتبات العربية كتب متعددة عربية مصورةوأنيقة وبالألوان وغالية الثمن عن الأبراج والحظوظ في بيروت لكاتبات خريجات الجامعات الفرنسية متخصصات بالكلام عن الأبراج وعملت لهم الدعاية والإعلام المناسبين ووزعت هذه الكتب غير العلمية في كافة أنحاء البلاد العربية وتم تقليد هذه الكتب شعبياً على نطاق واسع.

والاستزلام، وطوال قرن ونيف من الزمن مارسوا على العرب سطواً وبلطجةً كانوا فيها يصادرون يعتقلون ويأسرون ويصدُّون كل نضال أو رغبة جادة وحقيقية في التحرر قد تنشأ لدى العرب المسلمين، لقد أخمدوا من خلال الطرح الخاطئ الإستباقي للمواضيع غير الأساسية وتعميمها، اخْمَدُوا فيه أي تطلع للمسلمين العرب نحو النهضة والتغيير الحقيقي، فليس الفكر كلمة تُقال بل هو شهادة على عصره والشهادة تعني كلمة الحق التي تفصل عن الباطل فالمفكر هو شاهدٌ على عصره، لذلك ليست القضية في اظهار الواقع على أنه الحقيقة فحسب بل في تصوره التصور الأمثل، وهنا يكمن دور المفكر الحر والواعي وهذه هي قضيته.[1]

إنها (الحرب الاستباقية التي تشنها أمريكا وأوربة الصليبية المهودة على المسلمين العرب) رأينا فيما سبق أن الصيرورة لا تؤدي إذا تركت لسياقها العفوي إلا إلى المزيد من الانخلاع الإنساني بسبب أنها خاضعة لقانون العطالة الذي يحول البشر إلى أشياء، إن التاريخ الإنساني يبدو في أغلب لحظاته محكوماً من قبل الطبيعة التي لا تهتم بسوى استمرار الحياة، أما ازدهار الإنسان فأمره منوطٌ به وحده وعليه من أجل إستعادة ماهيته المستلبة أن يقوم بجهد خارق للطبيعة من أجل أن يجعل الصيرورة محكومة بالقيمة، ولذلك نجد لحظات الإشراق اللحظات التي تربع فيها الإنسان على عرشه نادرة في التاريخ، وهي بمثابة إنتصار الإنسان على العطالة، وهذه الانتصارات كانت دوماً مؤقتة فالصيرورة لا تتوقف، وهي تجرف باستمرار ما بناه الإنسان وما أراده وطيداً إلى الأبد وذلك من أجل أن تؤكد قانونها الخاص، قانون العطالة لقد أحسن بعض الفلاسفة إذ صوروا التاريخ صراعاً دائما من أجل تحقق الإنسان، إن علاقات الإنتاج وهي امتداد التقنية[2] في

---

[1] (?) لذلك كان سقراط شهيداً على عصره، وكان ابن حنبل في محنته شهيداً على عصره وكان (جيوردانو برونو) الذي حُرِّقَ علناً بأمر من محاكم التفتيش لإيمانه بالعقل وبالعلم الجديد شاهداً على عصره وشهيداً له. د. حسن حنفي مرجع سابق.

[2] (?) التقنية: المقصود بها الآلية، أي الاعتماد في الحياة الإنسانية على الأجهزة والآلات (الميكانيك) بينما مع تقدم الزمن ظَهَرَ توسع في استعمال هذا المفهوم، وتعمم وانسحب على نواحي ومجالات كثيرة، وصارت التقانة الآن تعني السير وفق المخططات والبرامج المتناهية في الدقة، لتحقيق أعلى إنتاج، ثم إن التقنية صارت سمة للأسلوب العملي، والحياة العملية بشكل عام، لقد اتصف بها أشخاص ومجتمعات، وهذا المفهوم بات ينسحب على الشكل، والمضمون! إن التقنية مدهشة ولاشك، إنها تؤثر في الإنتاج، لكنها ومع مرور الزمن، من داخلها باتت تنتج بعض السلبيات، القاتلة للإنسان والحياة الإنسانية، الشيء الذي بدأت تظهر بوادره بعد مضي الزمن، إن التقنية بسبب ما تعمِّقه من قطيعة بين

المجتمع لا تكاد تلائم الإنسـان حـتى تبـدأ في التحجـر وتصـبح قوى ضاغطة لابد من تحطيمها من أجل علاقات أكـثر ملائمـة ولكنه - في رأينا - أخطأوا إذ أناطوا أمر تدميرها بقوى الإنتـاج التي تفجر هذه العلاقات في الوقت المناسب لتخلق بدلاً منها علاقات أكثر ملائمة للإنسان، تتحجر بـدورها لتتحطم مفسـحة المجـال لعلاقـات جديـدة وهكـذا، فمن السـهل على الغـريب التنازل عن الأرض والحقوق، بحيث تم العمـل على تـوظيفهم بشكلٍ مباشر وغير مباشـر، تمت عمليـة فـرض قيـادتهم على العقلً العربي، بدأت هذه المخططـات أيـام الاحتلال المباشـر الفرنسي، والبريطـاني، لبلاد العـرب في عـام1920م، وذهب الاحتلال المباشر

واستمرت المخططات الاستعمارية واسـتمر تنفيـذها بأيـدٍ وطنية[1]، ألم يكن أكثر المفكرين والإعلاميين العـرب يعملـون

الإنسان من جهة، وطبيعته من جهة ثانية، فطرته الأولى، القيم، والمبادئ، والمثل العليـا، إن التقنية بسـبب جمودها كآليـة، وحياديتها في الموضـوع، تسـبب مع مـرور الـزمن، الشـلل، والضـمور للعقـل، والقلب، وللفكر الإنساني الخلاّق، التقنية الـتي تعـني الإتقـان، والإنجـاز والإعـداد الصـحيح المحكم، والتنظيم، والتنسيق، والترتيب، والتحضـير، والتوضـيب البشـري، في كل اتجاه، عن طريق التخطيط؛ أو خلق جيـلٍ من ذوي الخـبرة، جيـلٍ من الناس، الذين لا تقف أمام طموحاتهم من أجل النجاح، وتحقيق الربح، أو تحقيق النصـر! لا يقف في وجههم أي اعتبـار لأي شـيء، كل شـيء بالنسبة لهم له سـعر، وكل شـيء بالنسـبة لهم خاضـعٌ للمفاوضـة، وقابل للبيع والشراء أيام زمان!

1 (?) (فعصر الانحطـاط هو عصر الفردية الفجّة الـتي تحقق ذاتها بوسـائل الغابة: البطش والمراوغة معاً، والمثل الأعلى لهذه الفردية هو السـلطان الذي يستخدم كل إنسان دون أن يثق بأحد، ويقوم بتحقيق المنجـزات في سبيل تحقيق ذاته، ويستغل كافة مظاهر الحياة الاجتماعية فينقش اسـمه بماء الذهب على المنجزات، ويتغنى الشعراء بأمجاده، ويؤكد رجال الـدين أنه امتـداد النظـام الإلهي... وهو يستأصل البشر بارتيـاح البسـتاني الـذي يقلم الأغصان الناشزة عن نظام الشـجرة. وبـالهبوط عن مسـتوى القيمة تغمض الرؤيا، فالرؤيا تتم في ضوء القيمة، ومن جهة ثانية فـإن اسـتغراق إنسان ذلك العصر في عالم العيش الخاضع للمصـادفة والمـزاج، وفقدانه الغد المضمون، كل ذلك يحول بينه وبين الرؤية الواضحة، فالمعرفة تحتاج إلى تحرر من ضرورات الحياة كما رأينا ولذلك يـرتمي إنسـان ذلك العصر في النظرية الجاهزة فاقـداً كل حس نقـدي وكل قـدرة على التميـيز لأنه إنسان مهدور، هكذا يؤدي انهيار بعد البقاء إلى انهيار أبعاد القيمة كلها. ثمَّ إن الطاغية لا يكتفي بـأن يهـدم بعد البقـاء وحـده، ولكنه يعمد إلى أبعـاد القيمة ذاتها فيقلمها مباشـرة، فهو يحجر على العقـل، ويحـول بينه وبين المعرفة، وذلك بأن يُغلفه بنظرية من عنده، وكـذلك فإنه يفـرض الصـمت ويقطع الحوار ويدمر كل نزوع نحو القيمة عن طريق تدمير صـاحبه هكـذا نجد عصر الانحطاط يضـطهد المفكـرين ويسـبق العصـور الحديثة بفـرض نظرية الدولة على المواطنين، وبذلك يقطع الحوار الحقيقي ويُغلفه بحوار كـاذب، ويقتل المتصـوفة (الزاهـدين الحكمـاء) الـذين يُـذَكِرُون بـالقيم المنهـارة إنَّ عصر الانحطـاط هو عصر السـقوط الإنسـاني من مسـتوى الشـخص ذي الابعـاد إلى مسـتوى الفـرد المعـزول، فاقـداً أبعـاده، ولكن الفـرد في ذلك العصر لم ينس أبعـاده المفقـودة وماهيته المسـتلبة، ولا

خداماً ومراسلين ومراقبين للأنظمة والأحزاب والتنظيمات والتيارات العربية والعالمية المختلفة، بينما خضعت المطبوعات العربية مؤخراً إضافة لسلطة الرقابات التقليدية في الدول العربية، خضعت أيضاً لسيطرة الأميين من الناشرين العرب ولمعايير الربح والخسارة؛ فالمواضيع المربحة مادياً هي التي ستنتشر؛ في كافة وسائل الانتشار ويطلع عليها الملايين من العرب، وكذا الكتب والمطبوعات المدعومة من الجهات صاحبة المصلحة والعلاقة، وهذا الانسحاق يدفع بكتل بشرية كاملة إلى اليأس والاستسلام، وذلك ما ينشده ذوو العطالة الذين يصورون الأمر بوسائلهم التي أطلقنا على جملتها اسم الأمريكانية، وكأنه وضع طبيعي تحتمه ضرورة التقدم وعلى الإنسان في رأيهم أن يغير من ذاته كي يتلاءم مع هذا الوضع كأنَّ الشذوذ هو في ماهية الإنسان وليس في ظروفه، إن ذوي العطالة يعملون على إطفاء الشوق الإنساني نحو الماهية المفقودة وذلك باغلاق الرؤيا الإنسانية، ولكي نخرج من هذا اليأس الذي ألقينا فيه من قبل ذوي العطالة[1] فأين هي إنتاجية التاريخ إذ أنَّ التاريخ ليس مجرد (حكايا)؟

إن المطلوب من الباحثين العرب أن يتحرروا من العبودية للنصوص القديمة والحديثة وصار المطلوب منهم إعمال العقل والفهم والمنطق وتطبيقه على أي من النصوص القديمة والحديثة، إن البعض ممن يرفضون القديم، ما يلبثون أن يقعوا فريسة في أحضان الحديث؛ وربما كان الحديثُ من صنع اليهود أيضاً سيما وأن رئيس مجلس كتابة التاريخ العالمي يهودي[2].

نعدم يوم ذاك من يذكر بالقيم المنهارة مثل المتنبي وأبي العلاء ومثل كبار المتصوفة (الزاهدين والحكماء) ولذلك نجد المناخ النفسي لذلك العصر مناخاً كئيباً متشائماً يسوده الشعور بعدم الرضى، فقد كان إنسان ذلك العصر يشعر بما ينقصه، يشعر بأبعاده المستلبة ولذلك لم يكن قد بلغ حضيض الانحطاط بعد.) كتاب نحو حضارة جديدة للأستاذ أحمد حيدر، مرجع سابق.

1 (?) من كتاب نحو حضارة جديدة لأحمد حيدر

2 (?) لقد عملوا على تأصيل هذا الأمر (الشاهد اليهودي أو الوثائق التوراتية المنبع والأساس؛) فرضه وتعميمه على العقل والفكر والوجدان البشري العالمي لدى الشعوب، كافة الشعوب في العالم، ومعروفٌ كيف لاقت تلك الفلسفات الدعم والدعاية الجمَّة، من إعلام وإعلانٍ مكثف مدعوم، لنشرها في أنحاء العالم وعلى مدى قرون من قبل المؤسسات الإعلامية والثقافية اليهودية العالمية، ودوائرها المنتشرة في أنحاء العالم، وإعادة التأكيد عليها، وذلك (لتبشيم) معلوماتها وتثبيت مقولاتها، لتصبح غير قابلة للتغيير، أو التبديل، أو التصحيح؛ إنَّ الكتابات الأوربية عموماً عن التاريخ القديم وفلسفته؛ يمكن وصفها على أنها كتابات موسَّعة بشكلٍ غير طبيعي، وهذا أكبر دليلٍ على أنها كانت قد كتبت لاحقاً وحديثاً، أعدت

ولو أُتيح لأحداٍ من البشر أن ينظر إلى الكرة الأرضــية من القمر الصـناعي وأن يلتقـط لهـا صـورة (بانوراميـه - ثقافيـة) لفحص ثقافتهـا، لوجـد وأدرك الحقيقـة المُـرَّةَ الـتي تقـول أن ثقافة الكرة الأرضـية الآن بأكملهـا بكـل معـنى الكلمـة وبكـل أبعادهـا هي ثقافـة يهوديـة بحتـة وأن اللمسـات اليهوديـة قـد مسحت كل المجـالات الفكريـة السـائدة الآن وأنهـا وراء كـل المشاريع الفلسفية والفكرية والثقافية والاجتماعية التي يروج لهــا الآن في أنحــار العــالم في الإعلام العــالمي والمراكــز

ورُتبت ونُظِّمت في أواخر القرن التاسع عشـر، وأنها نُسِـبَتْ إلى الماضي السحيق! وأكبر دليلٍ على ذلك هو أنَّ تاريخ الفلسفة اليونانية خلـوٌ تمامـاً ومطلقاً من ذكرٍ للأنبياء أو المرسلين.

فكيف يغفل الحكيم سقراط؛ وتلميذه أفلاطون، وتلميذه أرسطو، وغيرهم من الفلاسفة اليونانيين، كيف يغفلون عن ذكر نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، أو إدريس، أو إســحاق، أو يعقــوب أو موسى أو هــارون أو لــوط، أو ذو الكفل وغــيرهم من الأنبيــاء، ويؤكــدون أنَّ ســقراط عــاش ما بين (450399ق.م)، وأنَّ أفلاطـون عـاش ما بين(428347ق.م) وأنَّ أرسـطو عــاش ما بين(384322ق.م) ويســهبون في تــأريخ الفلســفة اليونانية والتاريخ اليوناني الـذي تمّ تفصيله وفق مسطرة الادعـاء اليهـودي وعلى مقاس التوراة اليهودية! فهل قرأ أحـدٌ كتـاب (الجمهورية لأفلاطـون)، هل لاحظ أحــدٌ أن هــذا الكتــاب لغته الحديثة تؤكد أنه وضع في الثلاثينيــات أو الأربعينيات من القرن العشرين! ولعمري فـإنَّ المـرء لا يستطيع تخيُّل الطريقة التي وضِّبتْ فيها هـذه المقـولات، وهي مكتوبـةٌ بأسـلوب ما بعد الحداثــة، أو بلغة ما بعد الحداثـة، إنّ كتب أفلاطــون عبـارة عن اخــتراع يهــودي خــالص، وفيه الكثــير من مقــولات الفكر السياسي الــتي تنتمي للعصور المسيحية الوسـطى، وهو يتحـدث بشـكل غـير مباشرٍ عن نظـام سياسي أحدثة الإســلام، ولم يكن معروفــاً قبل الإســلام أبــداً، لأنه كــان ســلوك الرســول العــربي أولاً، ثم انتقل إلى أن أصـبح سياسة الملــوك والرؤساء وقبل ذلك لم يكن معروفاً أبداً، مثل مقولة (المواطنــون ســواءً أمـام القـانون)، فالرسـول ﷺ هو أول من قـال: «الخلق كلهم عيـال الله وأقــربهم إلى الله أنفعهم إلى عيالــه». ومقولة (يجب العمل على إيجــاد وسيلة لمنع وعدم وصول أصحاب الكفاءات المعدومة والماكرين، لمنعهم من الوصـول إلى المناصب العامـة، ويجب إعـداد أفضل الرجـال ليكونـوا حكامــاً وأمــراء لمصــلحة الجماعــة) المــذكورة في كتــاب (الجمهورية لأفلاطون) هذه المقولات بقضها وقضيضها مســروقة من الفكر السياسي الإسلامي.

إنَّ علم السياسة كما هو معـروف كـان وليد العصر الإسـلامي الأول، وقد إنبثق أولاً عن سلوك الرسول الأعظم ﷺ، عن إدارته، للدولة الأولى الـتي أقامها للمســلمين، في المدينــة، إن السياسة كــانت في البدايــة، علم محاكاة لسـلوك الرسـول العـربي الأمي في تلك الفـترة، بينما لم تعـرف المجتمعـات البشـرية سـابقاً، ولم تصل إلى هـذا المسـتوى من السـلوك السياسي، لقد كانت المجتمعات البشرية، قبل ذلك، مجتمعات بدائية، في شكل وأسـلوب حكمها وفي سياسـاتها! وهنـاك فـرق بين (مدينة الدولـة) و(دولة المدينة) إنَّ الرسول ﷺ قد أقام للمسلمين، للأمة، للوطن الموجود بالفعل دولة في المدينــــة، بينما ما كــــان يحصل قبل ذلك في الــــدول والممالك والإمبراطوريات المعروفة، هو العكس تماماً، حيث كـانت تقـوم الدولة ثم يُضم إليها الشعب بالقوة! (الإمبراطوريات) والأمر لا يحتـاج إلى براهين، ولا إلى كبير عنـاء للإثبـات، فتحية عربية للإمـام البخـاري العـربي

الثقافية العالمية والمؤسسات والمعاهد والجامعات والهيئات والمنظمات الدولية التي أصبح أكثرها مسيطراً عليه! يعمل وفق المسطرة التوراتية لا يخرجون عليها، والعرب غائبون عن مصالحهم غائبون لا يلوون على شيء بعيدون عن قضيتهم ذاهلون، فالحضارةُ تكمن في الحضور وعكسها الغياب، وأنت حضاري إذا كنت حاضراً في عصرك بكل أبعادك الإيجابية الفذّة ومارست وتمارس حضورك بالطرق المختلفة ولو كنت في لجة البادية أو في عمق الغابة ولو عشت في ما مضى من السنون أو أنجبت في ما سيأتي من الأيام فأنت قمة الحضارة[1].

الأول، لقد كان الإمام البخاري بحق أباً للتاريخ الإنساني عامةً فقبل البخاري، كان التاريخ البشري، عبارة عن أساطير، وحكايات وادعاءات، وخرافات، وأخبار آتية من الماضي لا ضابط لها، ولا يمكن بشكلٍ عام التفريق بين ما هو صادق من تلك الأخبار، وبين ما هو غير صحيحٍ منها، بين ما حدث فعلاً وبين ما لم يحدث، بين ما قيل وبين ما لم يُقال.
إن عبقرية الإمام البخاري رحمه الله تعالى تكمن في كونه أول من أشار إلى ضرورة وضع ضوابط وشروط ومقاييس وموازين أو مسطرة، نعرف من خلالها كيف نفرق بين ما حدث فعلاً وبين ما لم يحدث، أو بين ما قيل، وبين ما لم يُقَل، إن هذه الفكرة، غيرت وجه التاريخ والحياة العقلية البشرية، وأثرت تأثيراً بالغاً في الحضارة الإنسانية، والفكر البشري، ودفعته نحو الكمال وقبل أن يكتشف البخاري، أو قبل أن يشير البخاري أول مرة إلى ما سميّ علم مصطلح الحديث، وفي ما بعد علم مصطلح التاريخ، كان الفكر البشري يسبح في الأوهام والأساطير، لم يكن الفكر البشري بنّاءً، لم يكن الفكر البشري قادراً على الوقوف، لم يكن هناك ذاكرة بشرية حقيقية، ولم يكن هناك وعيُ أو انتباه أو يقظة لضرورة التحقق من التاريخ.
لأن الوعي والمعرفة والعلم، هو الحامل الحقيقي للذاكرة وبالتالي فإن البخاري هو أول من أشار في العالم، وأول من نبه، وأول وضع شروطاً أو مقياساً أو قاعدةً، لصحة الأخبار الآتية من الماضي وهنا تكمن أهمية عمل وإنجاز الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وفضله على الفكر البشري عامة، الأمر الذي لم يتنبه إليه العرب، ولم يلتفتوا إليه مطلقاً، ولم يتابعوه فيه، إذ كان من المفروض أن يقوم علماء العرب والمسلمين، بمتابعة هذا الإنجاز العلمي للإمام البخاري، وعدم الاكتفاء بتمضية وقتهم وتأمل كتابه الثمين والذي كان قد سماه، ويجب الانتباه إلى اسم الكتاب الأساسي وهو(ما صح عند البخاري من حديث رسول الله ﷺ وقد صُحِّفَ اسم الكتاب، فصار يدعى صحيح البخاري! وهذا فيه تجنٍ على مراد الإمام البخاري رحمه الله، إذ أنَّ من المهم بمكان الانتباه إلى اسمه، أو عنوانه الأساسي، الذي وضعه البخاري بنفسه؛ كان البخاري عالماً بحق، وأستاذاً في علمه، ويحترم علمه، ويعمل لله تعالى لا لمنصبٍ أو لجاهٍ أو لعارض دنيوي، لأن هذا الكتاب النفيس بالمقاييس العلمية كان عبارة عن تطبيقات قام بها الإمام البخاري لتجسيد نظريته العظيمة في التاريخ.

1 (?) إنّ انجراف بعض العرب في ناعورة الأمركة والتهود حياتياً وسلوكياً وانخراطهم في الحضارة الأمريكانية الزائلة وما يبديه البعض من إعجاب إزاء جبروت الأمريكان واليهود (أمريكا بإدارة اليهود) إن كل ذلك يجب أنْ لا يثني العرب عن ثقتهم بفكرة العروبة الحضارة التي ستطلق بالمارد العربي والذي سيتكفل بالقضاء على كل المعوقات ويكسر ويمزق كل السلاسل التي تكبل العرب وسيقوم بتحطيم كل الموانع التي تقف أمام

إن سيدنا نوح عليه السلام كان ولا شك في قمة الحضارة مع أنه عاش حياته قبل آلاف السنين وربما تواجـد المجرمـون في مطلـع الألفيـة الثالثـة وفي أكـثر العواصـم مدنيـة وتقـدما وكانوا من أرقى العائلات، إن سياسة تجميـل الخطـأ أو تـبرير المخالفـــة في التفســـير والتـــاريخ والخطـــأ في الفهم، وهي السياسـة الـتي كـانت متبعـة في الماضـي منـذ بـدأ العصـر الشعوبي العباسي الهـدّام، عنـدما أمسـكت الشـعوبية بزمـام الـدين والـدنيا، من خلال سـيطرتها على الخلافـة فسـيطرت على الحياة العربية والإسلام معـا خلال العصـور اللاحقـة، في ظروف قاهرة، توالت واسـتمرت إلى الآن حيث لا تـزال هـذه السياسة الشعوبية هي المتبعة حاليـا في الكثـير من مجـالات الحيـاة والفكـر العـربي الإسـلامي، حـتى الآن، تقيـد وتسـوق العقول والأفهام وحتى الأذواق؛ في التربية والثقافة والعلــوم، لاسيما في مجال التاريخ والتفسير أي في المجال الذي يؤدي إلى فهم الـدين الصـحيح العـربي المـبين فهمـا خاطئـا؛ من الغريب جداً أن تجد التربية في البلاد العربية في - جميع البلاد العربيـة - في هـذه الأيـام تشـتغل على كيفّيـة جعـل الأطفـال العرب قادرون على التعامل مع الحيوانات وهمها الرئيسي هو جعـل الطفـل العـربي يعـرف الكيفيّـة الـتي يتعامـل بهـا مـع الحيوانـات، في حين أنَّ المطلـوب من التربيـة أساسـاً تربيـة الطفل واعداده ليكون إنسـاناً حضـارياً بكـل المعـايير مؤمننـاً حـــاملاً للقيم ومنبعـــاً للأخلاق. إنَّ مهمـــة المـــربي أن يرشـــد الأطفال إلى الكيفيّة التي يكونون فيها أناساً صالحين، وليست مهمة المربي تعليم الأطفال كيف يتفاهمون مع الحيوانات!

إذ ليس من العدالـة أن يكـون التعليم وتكـون التربيـة في أوربة والدول الغربية متجهٌ إلى تعزيز ارتباط أجيالهم بأوطانها وتمتين وتوثيق الروح الوطنية لـديها، ويكـون التعليم في البلاد العربية متجهٌ إلى تقزيم الإنسان وجعله في أدنى من مستوى الحيوانـات، فـالفكر الـتربوي في الـدول العربيـة والإسـلامية، أشبه بحديث المقاهي ومواويل (أبو الزلف) ولم يهدف مطلقاً إلى البنـاء أو الإنتـاج إنتاجـاً حقيقيـاً في حيـاة الأمـة العربيـة والإسـلام أبـداً، أمـا مهمـة جماعـة البيئـة في الـدول الأوربيـة المتقدمة صناعياً وفي مختلف الاتجاهات والتي سبقت الـدول المتخلفة حضارياً وبمختلف الاتجاهـات أيضـاً فهي من منظـور مختلف تماماً عن الطريقة التي يـروج إليهـا في البلاد العربيـة حيث يُفهم منه الأمر بالمقلوب! فهي في أوربة تربوياً تنحصـر في توضيح دور الحيوانات في المحيط والبيئة التي يتنفس بها

التقدم العروبي.

الجميع، أو يشترك بها جميع الأحياء وقد قسموا الصيد هناك بالقانون والتشريع بالبيئة فقالوا أن هنالك صيد شرعي وصيد غير شرعي إنهم لم يطلبوا من تلامذتهم أن يصبحوا حيوانات لم يحاولوا إقناعهم بالقبول بمنزلة الحيوانات أو أن ينزلوا إلى مستوى الحيوانات ولم يعاملوهم معاملة الحيوانات لم يجعلوهم يقبلون بكل رضى وقناعة ذاتية أن يكونوا مجرد حيوانات.

ففي حين أنَّ الإعلام في الغرب ينظر إلى العربي والشعوب العربية بازدراء ويؤكد عليه لأطفاله ليلاً نهاراً وبأساليب شيطانية، وفي التربية هناك يزرعون الكراهية والحقد على العرب ويعلمون أجيالهم كيف يرحموا الحيوانات ويقتلون العرب وأبلغ تعليق يعبر عن مشاعر الغرب تجاه العرب هو رأي أحد المسؤولين الأمريكان وقوله حيل مذابح ومقابر جماعية كانت لآلاف العرب عشرات ومئات الآلاف من العرب فقال (لقد أصبح العالم بدونهم أفضل!) بينما في البلاد العربية أحد المسؤولين التربويين صرح بما يلي: (أنَّ الهدف من التربية العربية في البلاد العربية هذه المرحلة هو جعل الطفل العربي قادر على التعامل مع الحيوانات) فما رأيكم دام فضلكم؟ وذلك بدل أن نعلم أطفالنا أن كل فكرة تنشأ في الذهن في العقل في الفكر قابلة للتحقق والتجسُّد في الواقع بل كل تصور وكل وجهة نظر قابلة للتطبيق ولكن علينا فقط أن نبادر علينا أن نسرع وأن نسمح بمرورها بتحقيقها لا أن نصادرها من قبل أن تولد (دعه يعمل دعه يمر).

وفي المعجم أنَّ (حَضَرَ) ضِدَّ غابَ، والحضور ضد المغيب والغيبة، وأصل الحضرَةِ الحضور، والمَحْضَر القوم الحضور، والمحضر المشهد للقوم، ويطلق على كل كبير يحضُرُ عنده الناس، والحضرة قرب الشيء، والحضارة (المدن والقرى والريف) لحضور أهلها الأمصار وسكنهم الديار، وهي خلاف البادية والبداوة والبدو، ويُقالُ فلانٌ حسن المَحضَر: إذا كان يذكر الغائب بخير، لأنَّ الحضارة من معانيها الإقامة في الحَضَر، والحضيرة مقدمة الجيش، والمحاضرة المجالدة والمُجاثاة أو المُغالبة، والحاضر اسم المكان)[1] والحضارة من الحضور والاجتماع للقوم.

هذه المجالات التي سُمِّمَتْ وعُطِّلَتْ وحُطِمَتْ وأُعِيدَ تركيبها من جديد محملة بالأخطاء لقد أدت الأخطاء التي حملت بها وعليها منذ وقت مبكر إلى اغتيال العقل العربي والفكر العربي والقلب العربي حتى اختلط في حياة العرب

---

1 (?) معجم لسان العرب وتاج العروس

المسلمين الحابل بالنابل إن هذه السياسة التوفيقية التي توفق عادة بين الصح والخطأ وبين الخير والشر وبين الحق والباطل وبين النور والظلام وبين العلم والجهل وبين المستقيم والمعوج وبين العروبة والعجمة؛ تلك السياسة التي فرضت على العرب المسلمين في ظروف استثنائية إنها عمل غير مجد على الإطلاق، وهي سياسة فيها تكريس للخطأ ومبرر لاستمرار الفساد والضعف في حياتنا، إنها سياسة كنا في الماضي ندافع فيها عن الخطأ إلى درجة أننا صرنا نقدس فيها أخطاءنا ونعتبرها حرمات وهي ليست كذلك؛ وفي الكثير من الأحيان كنا نقاتل من أجلها ودفاعا عنها! لأننا كنا نجهل الصواب، ونتجاهل الحق.

إننا بذلك ودون وعي منا كنا نحمي الخطأ ونحتفظ بهذا الخطأ ونعتبره ونضمه إلى كنوزنا الغالية، حتى أصبح من ضمن معتقداتنا، وصار هذا الخطأ دون أن ندري يعشش في عقولنا ومن ضمن مقدساتنا؛ وربما بذلنا دونه أموالنا وأنفسنا! فمتى يعي العرب المسلمون في العالم هذه الحقيقة ويبادرون إلى الاتحاد؛ ويتخذون حيالها الإجراء المناسب والموقف المناسب وأن يكفروا بكل الأوهام التي لم يكن لها جدوى، وفعلاً, صدق القول (سقط النقاب عن الوجوه الغادرة فحقيقة الشيطان كانت سافرة) لأنه لا يمكن للعرب المسلمين في هذا العصر عمليا أن يفكروا في النهوض، وأن يفكروا في مواجهة أعدائهم من الخارج وأعدائهم الذين في الداخل[1]؛ قبل أن يعملوا على تفحص ماهيتهم وكينونتهم

---

[1] (?) مرة أيام الشباب كنت متواجداً في أحد المعسكرات مع مجموعة من الأشخاص الأقوياء! واحتجنا آنذاك لإزالة صخرة كبيرة كانت قد برزت لنا أثناء الحفر؛ وتناوبنا جميعاً على ضربها بالمعاول والمطارق الثقيلة لتكسيرها ولتحطيمها ولتفتيتها.

وبقينا لفترة نبذل قصارى جهدنا ولكن دون أي جدوى وكنّا نعتقد أننا أقوياء إلى أن جاء شخصٌ كانت مهنته السابقة هي تقطيع الحجارة، وكان شكله هزيلاً وضعيفاً لاينم عن قدرة أو قوة، فطلب منّا الابتعاد عن طريقه وقال ألا تعلمون أن لكل صخرة مفتاح وأنَّ لهذه الصخرة مفتاحاً أيضاً وأنكم مهما بقيتم تحاولون فلن تستطيعون تكسيرها أبداً إلا إذا استطعتم الكشف عن مفتاحها أولاً؛ لأنَّ لكل صخرة مهما كانت كبيرة ومهما كانت قاسيَّة فإن لها مفتاح؛ فإذا أكتُشف مفتاحها عندها ستفتح بكل بساطة!

الواقع قد أذهلنا كلامه تلك الصخرة التي كانت كبيرة وقاسية، لكنه ما لبث أن أقبل عليها وركز وضعها ثم أخذ المطرقة ورفعها إلى فوق وضرب تلك الصخرة الضربة الأولى والثانية وإذا بالصخرة وقد تحولت إلى فتات فهل كانت هذه الصخرة تشبه إلى حدٍ بعيد واقع العرب المسلمين، وأن العرب المسلمين إنما يحتاجون أولاً إلى أن يتعرفوا إلى حقيقتهم، وأن يكتشفوا ذاتهم وأنَّ هذا الأمر هو السهل الممتنع وأنَّ عليهم (لكل عربي مسلم) المحاولة والمبادرة والمباشرة والشروع في العمل الجاد لتحقيق وتقديم الأفضل والأحسن والأجود لأمته بعد الثقة بنصر الله

وتنقيتها أو تطهيرها مما علق بهـا من الأخطـاء خلال الماضـي منذ الانقلاب الشعوبي العباسي الهـدام ومـرورا بتلـك الحقب غير العربية، والتي تعاقبت على حكم العرب والمسلمين وإلى الآن؛ وذلك في جميع المجالات الدينية والدنيوية.

لقد آن الأوان ليقوم العرب المسلمون أنفسهم بالاشتغال والعمل على فهم كتاب الله عز وجل فهمـا صـحيحا بعيـدا عن الأفهام (العجماء) غير العربية نصا وروحا والتي رانت وتلبـدت على الفكـر والعقـل والقلب العـربي المسـلم وأعجزتـه عن القيام طوال تلك الحقب منذ الانقلاب الشعوبي الهـدام الـذي أدى إلى تمزيق الدولة الأموية إلى الآن بإعادة كتابة تـاريخهم، من منطلق الحق والصدق والأمانة كتابة صـحيحة وموضـوعية ومنطقيـة لصـالح العروبـة الـتي هي حاملـة الإسـلام، لقـد آن الأوان ليقوم العرب الأصلاء انتمـاء، ليقومـوا بتنقيـة تـاريخهم، وإزالـة التناقضـات غـير الصـحيحة وغـير المنطقيـة، والـتي لا أساس لها العالقة به والغريبة عن نسيجه الحقيقي[1].

لأن التاريخ يخلـق الأجيـال يصـنعها يعلمهـا فإمـا أن تكـون الأجيال أبطـال وعظمـاء وعلمـا أو أن تكـون الأجيـال كتلا من المتخلفين المستهلكين، الـذين لا يلـوون على شـيء, لقـد آن الأوان لأن يفيق العرب ويعملوا على إعادة كتابة تاريخهم، من خلال المصلحة العليا للعـرب والإسـلام تاريخـا مجيـدا مشـرقا راقيا عاليا، تـاريخ نجـوم متلألئـة، منـيرة مضـيئة، في السـماء تشد الأنظار والأبصار، أنظـار وأبصـار الأجيـال إلى العلا وليس العكس كما فعل المفسرون حيث أنزلـوا النجـوم العاليـة إلى أسفل سافلين، إن التوقيت الغربي (الأوربي) الذي صار يعتبر منتصف الليل: بداية اليوم (الأمر الـذي يناسـب شـمال غـربي أوربا... حيث النهار القصير عموما) وهو (التقـويم الليوليـاني - الغريغوري) وكان من قبل يدعى التقـويم الرومـاني ثم أصـبح فيما بعد التقويم الميلادي) لهو تـوقيت وضـعي حـديث فـرض على البشــر في كافــة أنحــاء العــالم فرضــا مطلــع القــرن العشرين وأن خـط الطـول المـار من (غـرينتش قريـة غـربي لندن) هو خط بدايـة ونهايـة الـزمن الـدولي - العـالمي) الـذي فـرض عـام 1928م وكـان من قبـل محـدودا؛ وقـد فرضـته بريطانيـا في حينـه فرضـا حيث كـانت الإمبراطوريـة الـتي لا تغيب عنها الشمس؛

تعالى.

[1] (?) وهكـذا فقد مر القـرن العشـرون دون أن يسـتيقظ العـرب ودون أن ينهضوا، ذلك أنهم كانوا غارقين أو أغرقوا حـتى الثمالة في الأوهـام وعلى جميع المستويات، أحزاب وتنظيمات وشخصـيات كتـاب ومثقفـون علمـاء وموظفون قياديون وزعماء، وكلهم كانوا بلا جدوى وفارغون.

متى سيعود العرب المسلمون ليعتقدوا أن الطفل من أطفالهم إذا لم يكن يحمل منذ الطفولة مبادئ الشهامة والنخوة والخير والعدل والاستعداد للتفكير بحرية وحب الوطن والدفاع عنه والذود عن الحرمات والمقدسات، كل ذلك بعد الإيمان بالله الواحد، أنه إذا لم يكن كذلك، فهو طفل خاسر ليس له حق في شرب الماء ولا في تنفس الهواء وذلك بغض النظر عن التشويه الحاصل، وعلى الرغم من كل التردي وعلى الرغم من كل الانحراف المعمم الآن، ومتى سيتعلم الأطفال العرب أن العلم الكثير يقربنا من الله سبحانه وتعالى وأن الفكرة الجديدة الصحيحة لا يعوقها إلا الجهل الشديد، وأن التفكير الخلاق يتطلب خفوت الصوت وسكون أعصاب وهدوء، وأن الشخص الذي يصغي جيدا يستطيع أن يفكر جيدا، وأن المسائل الهامة التي لا نعرف عنها الكثير؛ هي تلك التي يجب أن نشبعها درسا، وأن علينا ان لا نضيع أوقاتنا في مناقشة المسائل التافهة، وأن عبقرية الإيمان بحاجة دائمة إلى جرأة وإقدام وأن عبقرية السؤال هي أهم بكثير من عبقرية الجواب وأن طرح السؤال بشكل خاطئ يوصل دائما إلى نتائج كثيرة خاطئة، وأن طرح السؤال بشكل صحيح يؤدي دائما إلى نتيجة واحدة صحيحة، وأن الفكر النير هو الخير العميم وأن العلم فيه مفاتيح الحرية.

هل آن الأوان ليدرك العرب المسلمون مطلع الألفية الثالثة أن الفتوحات العقلية والفكرية هي أهم بكثير ويجب أن تتحقق قبل سعيهم إلى الفتوحات العسكرية وأن الوصول إلى تحقيق النجاح والتفوق والنصر والانتصار يجب أن يكون أولا في الفكر والعقل والوجدان وهذا أولى بل ويجب أن يسبق في الأولوية هدفهم في السعي إلى تحقيق الانتصارات العسكرية على أرض المعركة مع الأهمية البالغة للانتصار العسكري على العدو في أرض المعركة وإلا فما الجدوى من انتصار الحمقى والمجانين والمغيبين والمغفلين وفاقدي الوعي والفهم.

متى سيدرك العرب المسلمون أن القيمة الحقيقية للإنسان كانت دائما في إيمانه بالله العظيم وأنه لا دنيا لمن لا يحيي دينه وإن إحياء الدين لدى الإنسان يكون في تجليات أدائه لضروب الواجب تجاه المجتمع والناس، وحمل القضايا الوطنية بكل صدق وأمانة، والدفاع عنها في كل موقع وفي كل محفل، وأن العبادات كلها كانت مفتاحا لذلك ومدخلا يوجب على الإنسان الولوج منه إلى أعلى مستويات الإحسان وأنه لادين للمنقطع ولادين للمنبت وأن بطن الأرض أولى بأولئك الذين لا يملكون المشاعر والأحاسيس الوطنية مع الدين السماوي وليس لديهم روح الثورة ضد الظلم وضد التخلف وضد الأعداء وضد القيود

المقيــدة للحريــة الربانيــة العادلــة وأن كثــيرا من الأحيــاء هم بالحقيقة أموات يمشون على الأرض وأن بعض الأموات بالواقع هم الأحياء!

هل تكرر هذا العمل من قبـل اليهـود والأمريكـان وأعـوانهم في العراق، ما الذي فعله العرب المسلمون من إجراءات ذاتية وقائيـة للسـلامة في المسـاجد العربيـة؟ علمـا أن المسـجد هـو النقطـة المركزيـة في مشـاعر العـرب المسـلمين وفي حيـاة العــرب المســلمين، فهــل ضــرب المركــز في حيــاة العــرب والمسلمين؟ إذا فالنصر والانتصار يجب أن يكونا أولا في الفكـر والعقل والوجدان العربي مع الأهمية البالغة للانتصار العسـكري الذي يجب تحقيقـه على العـدو في أرض المعركـة! ومـا جـدوى قوتـك في الخـارج إذا كنت ضـعيفا في الـداخل فهـل آن الأوان للعـرب المسـلمين الآن، أن يـدركوا أنهم أصـبحوا مسـتهدفين، كعرب مسـلمين من قبـل اليهـود والصـليبية العالميـة المهـودة، لأنهم عــرب ومسـلمون، وأن عليهم الآن أن يــدركوا أن إعمـال العقل والوعي والتفكر هو الطريق الصحيح والممكن؛ والسـبيل الأساسي للنجاة من كل مآزقهم الحالية، ولتحقيـق النصـر على أعدائهم، في كل المواقع!

الادراك

جاء لفظ (الادراك) في القرآن العظيم عدة مرات، وهو يشير إلى تحصيل الشيء وعدم فواته، أو معرفته أو ادراكه أو الاحاطـة به علماً، ثم يحصلُ الادراك في حالة لا يمكن التملص منها، ويشير دائماً إلى حصوله عند الإنسان عموماً في النهايات، أو بعد ضـياع، ويشير بشكل مباشر إلى اللحاق والاطباق، والإحكام في الاطباق؛ وفي حال حصوله يحصل استقرار نهائي وفوراً يذهب إلى الصـدر، قال تعالى: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُـوَ يُـدْرِكُ الْأَبْصَـارَ وَهُـوَ اللَّطِيـفُ الْخَبِيرُ [الأنعام: 103]، قال تعـالى: وَلَقَـدْ أَوْحَيْنَـا إِلَى مُوسَـى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَـافُ دَرَكًـا وَلَا تَخْشَى [طه: 77].

فكتاب الله تعالى، محض الصـدق ولا يقبل التنـاقض أبـداً، وتأمل آياته في هــذا الكــون الواسع فهو بوابة الفكر ومدخله الرئيس، وهو يتطلب الإدراك والـوعي اتبـاع الحق الـذي أنزله الله تعــــالى، وليس بالنقل العقيم، وعكسه الجهــــل، وينصُّ ويؤكد على الموضوعية في فهم الواقع ودراسته دراسة متأنيّة والاستنتاج بناءً عليه.

إن الإدراك هو حالة تيقظ للوعي، وهو حساسية للواقع تسبق الفعل، وبالتالي فإذا ما تلبد الوعي وضعف الإدراك فـإن إحسـاس المرء يتضاءل، ويصبح مهدداً في عيشه المستقر، فالوعي اليقظ- مصدر القوة الأساسي للوجود الإنساني- هو القـوة الوحيـدة الـتي يُعَـوِّلُ عليهـا، والـتي يمكن أن تـؤدي إلى تغيـير البيئـة الماديـة – المؤسساتية – فإذا ما تم إهدار قدرته فـإن المجتمـع يعيش حالـة الـتردي، لا ينفصـل السـلوك الإنسـاني عن (النظريـات المتعلقـة بالسلوك الإنساني) التي يتبناها الناس... فما نـؤمن بـه من أفكـار فيما يتعلق بالإنسان، يؤثر في سلوكنا الإنساني، وذلك لأنهـا تحـددً مـا الـذي يتوقعـه كـل إنسـان من الآخـر! إنَّ الإيمـان أو الاعتقـاد يسـاعد على تشـكيل الواقــع الفعلي» ولكنّ الادراك هــو هبــة المعنى.

«إنه يجري تعليب وعي معظم الناس بصورة محكمــةٍ منذ الطفولة، وتســتخدم الأســاطير من أجل هــدفٍ محــددٍ وهو السـيطرة على الشـعب، وعنـدما يتم إدخالها على نحـو غـير محسوس في الوعي الشعبي، فإن قـوة تأثيرها تتضـاعفُ من حيث أن الأفراد يظلون غـير واعـيين، فإنه قد تم تضـليلهم»[1]

---

1 (?) «المتلاعبون بالعقول» هربرت. أ.شيللر، ت: عبد السلام رضوان، عـالم المعرفة ت1 1986 الكويت

وهكذا مـرت الجمـاهير العربية الغفـورة وغـير الواعية بـالنفق المظلم، فمتى ستصـبح القـدرة على الفهم والـوعي والإدراك والرصـيد من الإيمـان العميق والقيم النبيلة السـامية والمثل العليا هي المعيـار الحقيقي؟ إنه الـواعي بالـذات والادراك الذاتي، فالمفكّر متأمل وواعي بطريقة فاعلة.

بينما (مفهـوم الفهم) المبـني أساسـاً على الإدراك والانتبـاه والوعي والحَدْس وغيره من الفعاليات النفسية الداخلية الخاصة بالإنسان، والذي بطبيعة الحـال سـينجم عنـه قـدرةً خاصـة على الابتكار والإبداع والخلق والتطوير ومعلومٌ أن السؤال أهم بكثير من الجـواب! وأنَّ الإدراك أهم وأخطـر مراحـل السـؤال؛ وأن القاعدة الذهبية - في هذا المجال - تقول أعـرف وأدرك نفسـك وأعـرف وأدرك الآخـر؛ وبالتـالي وبنـاءً عليـه يتم تحديـد صـيغة السـؤال مـا إذا كـان شـكوى وتوسـل، أو أمـراً وطلبـاً للتنفيـذ، والفرق بينهما كبير.

يجب عدم تحويل الناس جميعهم (الأمة) إلى مجرد تلاميذ؛ وأن يبقى الـزعيم هو المعلم أو الأسـتاذ الوحيـد، يجب ازدراء الاسـتبداد وازدراء التـوحش، إن التربية الإيجابية الرفيعة المستوى تنهي الاستبداد وتعدمه (وتعمل على ترقية الأمة في الإدراك والإحسـاس) [1] إن أنظمة التعليم يجب أن تسـتهدف مرمى واحد، فمن أراد أمة قوية ووطناً عزيزاً عليه أن يسعى إلى إيجـاد تربيـةٍ فكريـةٍ قويـةٍ متينـةٍ للأجيـال، وتعليمـاً مفتَّحِ الآفاق قوي البنيان يخلق العقول التي تنزرع فيها الأفكار.

إنَّ القواعد والقـوانين أو القيـود والأغلال الـتي سـبق وأن تسـربت، أو زرعت في دماغه فإنها تقف عائقـاً في طريقه إلى الفهم (الإنسـان يميل إلى فهم الأشـياء الـتي يُحبهـا، بينما يكـره الأشـياء الـتي لا يفهمهـا) فالنـاس الـذين درسـوا واسـتظهروا في سـنيهم الأولى وحـتى المسـتوى العـالي من التعليم دون فهم، من النـادر أن يقتنعـوا بعد ذلك بالحقيقة إذا ظهرت بعكس ما يعتقدون، إن الأفكار القديمة ضاربة الجـذور في الباطن وتحتل في العقل المحدود مساحة واسـعة، لـذلك وفي هـذا المجـال ينبغي التوقف عن دفع الغرائز أو اثارتها والتوجه إلى الإدراك والوعي والانتباه.

والتَفَكُّرُ متعلق بوجـود المنطق لـدى المُفكِّر ومرتبـطٌ بـه، وهو الميزان والمعيـار والمكيـال؛ فليس هنالك منطق ولا فكر دون ميزان أو وحـدات مـدركات؛ والمنطق قـائم على الـوعي والانتباه والادراك والاحساس بالسيادة، لأنَّ المنطق منظومـةٌ علميّة رياضيّة غـير منحـازة لا بُّدّ منها حـتى تتخلّق فيها الفِكَـرُ

[1] (?) عبد الرحمن الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد.

الحقـة، وهو بتزايـدٍ وارتفـاع في المسـتوى، ليس فيه هبـوط، وأبعد ما يكون عن الـوهم أو الخرافة أو الضـعف والاسـتكانة، والنطق هو البروز بالشيء الذي كان غائباً أو محجوباً، واعلانه جلياً وواضحاً.

وجَـذْيٌ تعـني ذَكيٌّ، وينطـوي مفهـوم الـذكاء على الكشـف والاطلاع والوضـوح والعلم والادراك والـوعي والانتبـاه والحـدسْ والاسـتنتاج؛ والله تعالى أعلم، لأنَّ التعقُّل هو البداية، وهو أول ما يحصل للإنسـان الـواعي المنتبه جـراء الإدراك الحسي للموجودات من حوله؛ إنه في تصادم الإنسان مع الواقع وجهاً لوجه، إنه علم الإنسان بظـاهر الأشـياء، ثم ينتقل هـذا العاقل المؤيد مستمراً صاعداً إلى التَفَكُّرِ.

ولكنَّ أكثر الناس من المسلمين العرب في هذه المرحلة للأسف الشديد، فهم غير مدركين، وليس لـديهم القـدرة على الإدراك الصـحيح، إنهم لا يفكـرون بفكـر، ولا يعقلـون بعقـل؛ ولكنهم بسـلوكهم، وبمـواقفهم، بـأقوالهم وأفعـالهم يصـدرون عن ذاكـرة عنـدهم محملة بالمعطيـات الثابتـة؛ مثبتة في أدمغتهم مسـبقاً، يسـيرون وفقها لا يحيـدون عنهـا، إنهم لا يسـتطيعون تغيـير خط مسـيرهم المنبعث من هـذه الـذاكرة المكبلة، والذي صُمم ووضع لهم إبان العهد العباسي!

لذلك كان كل ما هو صحيح، عندهم، هو ما وافق ذاكـرتهم الطيبة، وكل ما نـاقض هـذه الـذاكرة، هو خطأ وغـير مقبـول، ومرفوض عندهم، فلا قيمة للعقل عنـدهم على الـرغم من أنّ القـرآن الكـريم قد أكَّد على العقل والتعقل 49 مـرة، والفقه 20 مـرة، والفكر13مـرة، وقد ورد لفظ (العلم) بمختلف الاشتقاقات، أكثر من 777 مـرة، وتشـير أحرفه إلى طبيعتـه، فإدراك التجربة - عند الفلاسفة - يجوز أن تكـون مسـتقاة من الحـواس الظـاهرة أو الباطنة أولاً، وأدراك الأشـياء الخارجية يسـمى إحساسـاً وادراك الأشـياء الباطنة يسـمى تـأملاً وهـذا الادراك بنوعيه هو البـاب الـذي ينفذ منه ضـوء المعرفة (إلى حجرة الفهم المظلمة) كما عـدَّ بعضـهم ذلـك، أما قـوة الفكر عندهم فمستقبلةٌ لما يرد عليها. وتتسع، ولم تكن فاعلة ذاتيـاً؛ فليس هنالك حوادث بل قانون للسبب، والنتيجة مرتبطـةٌ بكل خـبرة، والسـبب دائمـاً يكمن في طبيعة التفكـير، أو نمط التفكير، والنتيجة هي ردُّ فعلنا تجاه تفكيرنا، ونحن لا يجـوز أن ننسب لله تعـالى أشـياء لا نجـرؤ أن ننسـبها لآبائنـا، إنَّ الله سـبحانه وتعـالى لا يعاجزنا بل المشـيئة الإلهية عادلة، إنَّ الحـدث الخـارجي إنما هو نتيجة لطبيعة أفكارنـا، إنَّ سـبب

مشاكلنا هو عقلنا ومستوى تفكيرنا، ووفقاً لما نفكر ونشعر ونؤمن به.

فما نوافق عليه ذهنياً يتهيأ لنا بالواقع (قوتنا الذاتية وضعفنا الذاتي)، لقد أصبح من المعروف أنَّ الأوضاع الذهنية لدى كل إنسان تؤثر في جميع الأمراض المحتمل أن تصيبه، وهي تظهر على محيّاه، علامات ودلالات ولواعج تشير إلى المعاناة الداخليّة، فالوجه مرآة الداخل.

(احلم أحلاماً كبيرة، وضع لنفسك مثالاً أعلى واعلم أنك تذهب إلى حيث تأخذك رؤيتك، احتف برؤيتك تجاه ما تريد أن تكونه، وكف عن النحيب والشكوى والأنين بشأن الحظ الجيِّد والسيئ، ادعم هذا النموذج المثالي والايجابي لديك بالإيمان الحق بالله تعالى، وتأمل آيات الله في الحياة، وتأمل أرقى أفكارك، ما سيجعل العقل يتطور ويتقدم باطراد وإيجابياً إلى الأمام، هذه الظروف والخبرات المبهجة، إن ما لدى الإنسان من تطلعات ستكون الوعد الحاسم الذي سيتكون ذات يوم.

إن شجرة البلوط الضخمة تكمن في قلب بذرة صغيرة، والطيور ترقد في البيضة، وخبرات حياتك وظروفها تكمن بداخلك، لذلك فإنَّك تتجه دائماً نحو أكثر شيء تحبه في داخلك، إنك ستقابل في الحياة ما يتولد عن أفكارك، وليس هنالك حظ أو مصادفات في عالم يحكمه قانون ونظام إلهيان، إنك سترقى إلى مستوى طموحاتك المسيطرة لديك، أو ستنحدر إلى أدنى مستويات تصوراتك المتدنية لذاتك)[1].

وفي القرآن الكريم في سورة يوسف وفي سورة الكهف إشارة وملمح بالغ الأهمية[2] على البشرية وخصوصا (العرب) عليهم إدراكه وفهمه واستيعابه والعمل به وهو قوله تعالى عن تعليمه لأوليائه (تأويل الأحاديث) قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: 6]، إنَّ كل الأنبياء وكل الرسل وكل الصالحين اللهُ سبحانه وتعالى يفتح عليهم ويعطيهم القدرة على تأويل الأحاديث أي التنبؤ بالمستقبل من خلال الدراسة والإلمام بالعلم، (إن القصص في القرآن

---

1 (?) د. جوزيف ميرفي، معجزة آليات عمل العقل، ت: مكتبة جرير، الرياض 2011.

2 (?) هنا أذكر كلام الصديق الأستاذ (مصري الجبوري) وهو استاذ جامعي عربي من العراق تشرفت بمعرفته في دمشق 2008 وكان على الدوام يقرأ القرآن، إذ قال لي: (أنَّ في القرآن (أكو برقيات أكو رسائل) أنَّ في القرآن الكريم برقيات ورسائل محمولة لا تفتح إلا للبعض في بعض الأوقات.

الكريم تنبينا بأن الأنبياء جمعهم كانوا يعيشون التجارب وكان الله سبحانه وتعالى يعمل لهم دورات تدريبية (أو تجارب مريرة وصعبة) يتخرجون بعدها لتصبح لديهم القدرة على حمل الرسالات، (يريهم الآية) يطلعهم ربُ العزَّةِ على ملكوت السماوات والأرض (يصبحون على يقين).

فمن يجتبيه الله سبحانه وتعالى فإنه يعلمه تأويل الأحاديث ويتم عليه نعمته، وقوله تعالى: وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [يوسف: 21]، فالتمكين في الأرض يرافقه ويلازمه تعلم تأويل الأحاديث؛ وهذا هو العامل الأساسي في تحقيق النصر والنجاح والغَلَبَة على الأعداء المعادين، وقوله تعالى: وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [يوسف: 100]، فتأويل الرؤية يقتضي التنبؤ بالمستقبل وتلمس المعطيات المختلفة؛ وهو تحقيق المخطط والخطة وما تم تحليله وفهمه والعمل على إنجازه وفق الرؤية ووفق تحليل المعطيات والعوامل الأولية والمواد، فكلهم مروا بتلك المراحل، ولم يكن التكليف للأنبياء بشكل اعتباطي عشوائي دون تدريب أو تخطيط، كما يحصل في الحياة العربية هذه الأيام، قال تعالى: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [يوسف: 101]، قال تعالى: قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا [الكهف: 78] وهذا الأمر لكل إنسان عاقل متفكر أن يحققه في حياته، ولكن إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب! ولما كان الإدراك مرتبطاً بالإحساس حيث أنه لا يوجد إدراك بلا إحساس، ولكن يمكن أن يوجد إحساس دون إدراك، ولما كان التفكير الصحيح لن يكون إلا بعد إدراك صحيح لعناصر الموقف الذي يواجهه الفرد، من هنا كانت أهمية الإدراك ليس فقط لتعليم كيفية أداء المهارات ولكن أيضاً لحل المشاكل التي تواجه الإنسان أثناء الحياة وأثناء أداءه مهاراته.

ففي عملية الإدراك نقوم بتفسير احساسنا، وتحديد الشيء الذي يصدر عنه الإحساس ونعطي لهذا الإحساس

معنى ونطلق عليه اسـماً، وعلى الـرغم، من أن الإدراك يبـدأ أولاً بإثارة حواسـنا إلى أنه في الواقع عملية داخلية أو نشـاط نفسـي، فعن طريق الإدراك يتصل الإنسـان أو الكـائن الحي عمومـاً بموضـوعات العـالم الخـارجي، وعن طريق الحـواس يدرك هذا الكائن تلك الموضوعات، فالحواس الـتي وهبها الله تعـالى للكـائن الحي هي بمثابة المنافذ الـتي من خلالها يتصل هـــذا الإنســـان (الـــداخلي) بالعـــالم الخـــارجي المليء بالموضوعات، وكما أن الإدراك هو استجابةٌ لتنبيهٍ حسيٍ صادرٍ عن أحد الموضـوعات الخاصة بالعـالم الخـارجي، فهو أيضـاً استجابة صـادرة من تفاعل الـذات الداخلية ويشـكل ما لـديها من خـبرات واتجاهـات وميـول وقيم وحاجـات مع الموضـوع الموجود في البيئة التي يتواجد فيها الفرد.

وعند مناقشتنا للإدراك والسلوك فإننا نجد أن دور الإدراك لا يقتصر على مجـرد اسـتقبال المـؤثرات الصـادرة عن أحد الموضوعات وإلقاء معنى عليهـا، بل إننا أيضـاً نسـلك سـلوكاً معيناً بمجرد إلقاء المعـنى على إحساسـنا، أي بمجـرد إدراكنا للموضوع، ويتفق هـذا السـلوك ويتناسب مع الموضـوع الـذي ندركه، لذلك فإنه كلما كان الإدراك صحيحاً فإن السلوك الذي يأتي به الفرد يكون على درجـةٍ كبـيرة من الصـحة، فالطـالب الذي يدرك المهارة الـتي يؤديها معلمه إدراكـاً صـحيحاً يصـبح أقـدر من زملائه على أدائها بطريقـةٍ صـحيحة ومن هنا تظهر العلاقة بين الإدراك والتعليم الحـركي، وفي ضـوء ذلك يلعب الإدراك دوراً هامـاً في حل المشـكلات التكتيكية الـتي تواجه الإنسان في حياته، فصور النشاط الحياتي المتعددة وظـروف الأداء المتغـيرة، واسـتراتيجيتها ذات الطبيعة المختلفـة، إنما تحتـاج من الإنسـان أن يـدرك دائمـاً عناصر الموقف الـذي يواجهه وذلك حـــتى يســـتطيع التغلب دائمـــاً التغلب على الظروف المتغيرة في حياته إذ أن المواقف التكتيكية، يندر أن تتكـرر بنفس الصـورة، ولهـذا فإنها دائمـاً بحاجة إلى التفكـير الصـحيح وذلك لاتخـاذ القـرار المناسب المـؤدي إلى حل تلك المشكلات التكتيكية بأقصى سرعة.

إن دراسة آلية الإدراك وكيفيّة حدوثه وكيفية حـــــــدوث الإحســاس وبالتــالي التفكــير وفهمهم، قد تســاعد البــاحثين وتمكن المهتمين من إخراج الأجيال من حالة الثبـات والعطالة والمراوحة غــير المجدية في المكــان، ومن ثمَّ تنمية قــدرات الأجيــال وتوجيهها نحو العُلى وتحقيق المجد، وعنــدما يكــون الحـديث عن الادراك، فيجب العمل على دراسة (سـيكولوجيا الادراك) لأنها تســاعد على ضــبط الشــروط العلمية العقلية

الهامة في المواقف التعليمية المختلفـــــة، وبالتـــــالي يتيسر للتلاميذ أحسن وأدق وأوسع ادراك ممكن، وهذا من شــأنه أن يســـاعدهم على التفاعل في الموقف التعليمي والتـــدريبي، ومن ثمَّ الوصول إلى أقصى مدى ممكن من النجاح، فالإدراك عملية عقلية تتضمن التأثير على الأعضاء الحسية بمؤثرات.

الإحساس

إنَّ كل الكائنـات الحية تمتـاز عن الجمـادات بوجـود جهـازٍ عصـــبيٍ لـــديها يمكنها من التقـــاط المـــؤثرات المنبعثة من الموضوعات الموجـودة في بيئتها الداخلية والخارجيـة، ثم بعد أن تلتق تلك المـــؤثرات فـــإن الجهـــاز وعن طريق النهايـــات العصـــبية ينقلها في صـــورة إحساســـاتٍ إلى (المخ) الـــذي يترجمها بـــدوره إلى معـــانٍ، إن الإحســـاس عبـــارة عن الأثر النفسي الـــذي ينشأ مباشـــرةً، عن انفعـــالِ حاســـةٍ أو عضـــوٍ حاســـي، وتنقسم الإحساســـات وبحسب التحليل العضـــوي والنفسي إلى ثلاثة أنواع وهي:

1- : إحساســـات حشـــوية: وهي الإحساســـات الـــتي تنشأ من المعـدة والأمعـاء والرئـتين والقلب والكليـتين وغيرهما من الأحشاء، كالإحساس بالجوع أو العطش أو غثيان النفس أو انقباضها.

2- : إحساسات خارجية المصـدر: وهي الإحساسـات البصـرية والسمعية واللمسية والشمية والذوقية.

3- : إحساسات عضلية أو حركية وهي الإحساسات الـتي تنشأ من تـــأثر أعضـــاءٍ خاصة في العضـــلات والأوتـــار والمفاصل وكذلك التأثر بـالمواد الكيميائية وغيرها من حيث الانقبـاض والارتخاء وهذه الإحساسات العضلية تزود الفرد بمعلوماتٍ عن ثقل الأشـياء وضـغطها، وعن وضع الأطـراف وحركتها وسرعتها واتجاهاها ومـدى تحركها وكـذى عن وضع الجسم ومدى ما يبذله من جهدٍ وما يتلقاه من مقاومة.

وهي تتصف بالنوعية حيث يختلف الإحساس السمعي عن البصـري، وبالشـدة حيث تختلف جـدة الإحسـاس من شـخصٍ لآخـــر، وبالمـــدى إذ يتـــأثر عضـــوٌ أو أكـــثر من أعضـــاء الجسم بـــالمؤثر، والمـــدة ما إذا كـــانت طويلة أو قصـــيرةٍ من حيث استمرار التأثير والأهمية، وهـذه قضـية نسـبية وتبعـاً للموقف كالإحساس بـالزمن والاتجـاه والتـوازن ما إذا كـانت داخلية أو خارجية وما إذا كانت تعليمية نظرية أو عملية... إن الإحساس بالحركة عبـــارة عن عملية معقـــدة يتـــألف من مجموعـــةٍ من العمليـــات النفســـية والعقلية والعضـــلية العصـــبية وما فـــوق العصبية وما تحت العصبية؛ لذلك فإنها حركةٌ مركبة تؤدي إلى الإحســـــاس بجهة وشـــــكل وســـــرعة الحركة وتلعب تلك الإحساسات دوراً هاماً في عملية التوافق بالنسـبة لمتطلبـات

البيئة والحياة فيها التي تتطلب التمييز بين عناصـــرها وأجزائها ومراحلها...

ونجد أن من الأهمية بمكان أن نكـون دقيقين وعلى الـدوام بالإحســـاس بـــالتوزان والـــذي مركـــزه الأذن الداخلية كـــذلك الإحســـاس بـــاللمس والـــذي يســـاعد كثـــيراً على إدراك العلاقة المكانية والنوعية للأشـــياء من حولنا كـــذلك شـــكلها وحجمها ووزنها وخشونتها وسطحها وهو هامٌ جداً، فعنــدما يتصل الكـائن الحي بأحد موضوعات العالم الخـارجي فـإن الحـواس تتـأثر بما يقع عليها من المؤثرات، ويحدث الإحساس عن طريق إصطدام تموجاتٍ خاصة تصدر بين الأجسام الخارجية بأطراف الأعصاب، ثم تنتقل الإشـارة عن طريق الأعصـاب المـوردة إلى أن تصل إلى المخ، فتـترجم هـذه الإشـارة العصـبية إلى معـانٍ وهـذا هو الإدراك، وأحيانـاً لا تصل الإشـارة العصـبية إلى المخ مباشـرةً حيث تم بالمراكز العصبية الموجـودة بالنخـاع الشـوكي وهنا قد تأمر هـذه المراكز العضو المسـؤول عن الاسـتجابة بتنفيذ الأمر الصادر منها وهذا ما يسـمى بالفعل المنعكس حيث تقـوم هـذه المراكز بترجمة الإشارة العصبية دون إرســالها إلى المخ، ولكن عندما لا تستطيع المراكز العصـبية الموجـودة بالنخـاع الشـوكي تحديد معـــنى الإشـــارة فإنها ترســـلها إلى المخ الـــذي يضع لها معنى، ثم يصـدر أوامـره إلى العضو أو الأعضـاء المسـؤولة عن الاستجابة التي يراها مناسبة تبعاً لخبراته السابقة وهـذه الأوامر تنتقل عن طريق الأعصاب المصدرة، ولم كانت قـدرة الحـواس على استقبال المؤثرات المنبعثة من البيئة الخارجية متنوعةٌ من شـــخصٍ لآخر فـــإن الموضـــوع الواحد يدركه البعض ولا يدركه الآخـرون، أو يدركه شـخص بكيفية تختلف عن آخـر، فيلقى كل فـردٍ معـنى مختلفـاً عن المعـنى الـذي ألقـاه غـيره على نفس الموضوع.

إن الإحســاس هو العملية الـتي تسـقط فيها موضــوعات العالم الخارجي على حواسـنا موجـات أو مثـيراتٍ معينـة، أما الإدراك فهو إعطاء هـذه الإحساسـات معـنى ومـدلولاً، وتنتقل هـذه الإحساسـات عن طريق الجهـاز العصـبي وهـذا الجهـاز عبـــارة عن مجموعة من الخلايا يقـــترب عـــددها من عشـــرة ملايين خلية عصـبية تختلف بالشـكل والوظيفة تبعـاً للجهـاز الذي تنتمي إليه فهي تنتمي إما إلى الجهاز العصبي المركـزي الـــذي يشـتمل على المخ والمخيخ وقنطـرة فـارول والنخـاع المستطيل والنخاع الشوكي، وإما تنتمي إلى الجهـاز العصـبي المحيطي الذي يشتمل على الأعصـاب المنتشـرة في الجسم والأعصاب الحساسة الموجـودة في أعضـاء الحـواس وكـذلك

الأعصاب المحركة للعضلات والمسؤولة عن تنظيم وإفراز الغدد، وهذا الجهاز العصبي المحيطي هو الذي ينتقل خلاله الإحساس من وإلى جهاز العصبي المركزي.

إننا نـدرك من بين الموضوعات الموجـودة في البيئة الخارجية أشـياء معينة تلك التي تتضح في مجالنا الإدراكي دون غيرها، وعليه فإن الشكل محددٌ بحدودٍ واضحة، والبعض يعرف التفكير بأنه ما يحدث في خبرة الكائن العضوي سواءٌ أكان إنساناً أو حيواناً حين يواجه مشكلةً أو يتعرف عليها أو يسعى لحلها وآخرون يقولون أنه العلمية التي ينظم بها العقل خبراته بطريقةٍ جديدةٍ لحل مشكلةٍ معينة، أو هو إدراكُ علاقةٍ جيدة بين موضوعين أو بين عدة موضوعات بغض النظر عن نوع هذه العلاقة وعلى هذا الأساس نجد أن التفكير مظهرٌ من مظاهر الذكاء يمكن تدريبه وتنميته في الفرد، كما يعرف التفكير تعريفاً آخر على أساس أنه تجربة ذهنية تشمل كل نشاطٍ عقلي يستخدم الرموز مثل الصور الذهنية والمعاني والألفاظ والأرقام والذكريات والإشارات والتعبيرات والإيحاءات المختلفة، والتي تحل محل الأشياء والأشخاص والمواقف والأحداث المختلفة التي يفكر فيها الشخص بهدف فهم موضوع أو موقفٍ معين.

إن التصور الكامل للأشياء المحيطة ما هو إلا نتيجة للعمل المنسق لأعدادٍ كبيرة من خلايا المخ فعلى الرغم من أن الحيوانات لا تملك القدرة على التفكير المجرد إلا أنه توجد في قشرتها المخية مركبات مختلفة تنشط وتساهم في إثارة عددٍ من الإحساسات المفردة الواضحة التي تؤدي إلى تصور الأشياء إلا أن أرقى تحليل وتناسق للأفعال الحركية يتحقق في القشرة المخية وخاصةً في جزئها الجداري وعلى ذلك يشكل التدريب المنظم أهميةً بالغة بقدرة المخ الأساسي في تعليم المهارات الحركية، وهناك أنواع للنشاط الفكري.

1- : التداعي الحر: وهو تسلسل الخواطر وراء بعضها بعضاً دون قيودٍ خاصة تحدد أثناء التفكير في واحدةٍ منها.

2- : التفكير الذاتي: أي أن التفكير الذي يتم لرغبات الفرد دون النظر إلى المنطق أو الحقائق أو القيود الاجتماعية.

3- : التفكير المنظم في حل المشاكل: إن الخطوط التي يسير بها التفكير المنظم تتلخص في الشعور بالمشكلة وتحديد المشكلة، وفرض الفروض، واختيار صحة هذه الفروض بالقيام بالملاحظات أو بالتجارب والتوصل إلى الحلول أي التفكير العلمي المنظم.

4- : التفكــير الابتكــاري: وهو تفكــير العلمــاء الــذي يقــوم به الفنانون والشعراء.

وكذلك هناك التفكير الخططي الـذي يقـوم به الرياضـيون عادةً في غضون المنافسات الرياضية، وله خصائص ومميزاته وطرق الارتقاء به أيضـاً، وكل هـذا مبـنيٌ على ضـرورة تـوافر خطــةٍ وعلى الطــابع الإيجــابي للتفكــير وســرعة العلميــات التفكيرية وعلى المعـــارف والمعلومـــات والمهـــارات وعلى الحالة الوظيفية العصبية وعلى العلميات الانفعالية والإرادية... (1)

---

1 (?) وهناك قصة قصيرة في الأدب الألماني الحديث تُعـبر أشد التعبـير عن موضوع الاحساس وأهمية الحـواس في إيصـال الفكـرة وتواصل الإنسـان مع الآخرين، تقول القصة الألمانية:

الساحة أمام قصر الملك غاصّةٌ بالجمـاهير في مسـيراتٍ غاضـبةٍ زرافـاتٍ وأرتالاً، وهي تأتي لتهتف مطالبـةً ... بالمطـالب المزمنةً والـتي لم تتحقق ولن تتحقق؛ وهي تهتف وتطالب بكسر القيود وتحقيق العدالة، كان الملك في برجه العـــاجي، يظهر من شـــرفةٍ في أعلى ذلك الـــبرج بين الحين والآخر، وهو يلوح للناس مبتسماً!

مع أنَّ الأمـور كـانت في غاية الصـعوبة والاضـطراب والفوضى من جميع النــواحي الاقتصــادية والاجتماعيّة والسياســية، فإنه كــان يــتزعم هــذه الاحتجاجات شابٌ طموحٌ ولديه مبادئ ثورية، وهو باستمرار يُحرِّض الناس على التغيير ويطالب به، ويترأس المظاهرة تلوى المظاهرة؛ ويرفع صوته عالياً في الخطاب والهتاف.

.. وفي إحدى المظاهرات (في منتصف الساحة وأمام قصر الملـك) وبعد أن ألقى هـذا الشـاب خطابـاً نارياً، سـعَّرَ وأجَّجَ فيه الـدوافع عند النـاس وحرَّضهم، وإذ بقوة خفيّة ـ غير مرئية ــ تُهيمن على مشـاعر هـذا الشـاب وتدفعه من صـــدره إلى الخلـــف، وهي تُخـــاطب عقله بطريقـــةٍ منطقيّة وسلسِة وتقول له: أنت ماذا تُريد ؟! ويجيب الشاب الثـوري نفسَـهُ: أُرِيْـدُ أَنْ أُغَيِّرَ هذه الأوضاع، وأن أُحَسِّنَ ظروف وحياة هذا المجتمـع، وأن أُحقق العدالة للجميع ووو...

فأجابته تلك القوة الـتي نبعت من داخلـه: هـذا جيِّد ورائع وعظيم؛ والواقع أن هـذه أيضـاً هي طموحـات الملـك؛ فالملك لا بـدَّ أنه يطمح إلى تحقيق ذلك أيضــاً! وأنت لا تعــرف الملك عن قــرب، ولكن هل فكَّرتَ مــرةً في مقابلة الملك، لترى وتسمع رأيه في تلك الأهداف العظيمة التي ذكرتها؟

قال الشاب: لا أبـداً ... فأنا لم يخطر ببـالي مطلقـاً أنَّ الملك لديه أفكـار ثورية أيضاً!

أجابته تلك القــوة: بل الملك شــديد الحبِّ لوطنــه، وهو يــؤمن بضــرورة التغيير وتحقيق العدالة للجميـع، ويـود أن يسـتمع لمشـكلات النـاس، وأن يرى آلامهم؛ ولكنَّك أنت وأمثالك من الشـباب اسـتعجلتم بتحريك النـاس، وعمل هــذه الفوضى غــير المجدية وهي غــير مجدية أبــداً، ومهما طــال الزمن، لأنها طُرُقٌ غير فعَّالة!

قــال الشــاب: ولكن ما هو الطريق المجــدي لإحــداث التغيــير الحقيقي والفعّال؟

أجــابت القــوة الخفيّــة: حسـناً أيها الشـاب الـذكي، الآن بـدأتَ بـالتفكير الصحيح! ونؤكد لك أن الملك إنسانٌ ويحبُّ كل الناس، وهو ينوي فعلاً أن يطــوِّر في أوضــاع المجتمع لجعله متقــدماً وحضــارياً من جميع النــواحي العلميّة والاقتصادية والثقافيــة، ولكن لا بــدَّ أن الملك يــودُّ أن يكــون حوله ومعه شبابٌ طموحٌ من أمثالك. فلماذا لم تحاول الاتصال بالملك مباشــرة

الوعي

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: 113] ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ [ق: 20] فالوعيد في القرآن العظيم يشتمل على (الوعي) وهو في مقدمة الوعيد، لأنه ليس هنالك من وعيدٍ أساساً، دون حصول الوعي والانتباه

؟ ولماذا لم تبدي حتى الآن رغبتك بالتعاون معه لتحقق كل طموحاتك ؟.

ـ وهل هذا ممكن ؟

ـ حاول!

وهكذا ترك الشاب تلك الجموع الغفيرة، وانسل منها... وتوجه بخطىً واثقة وئيدة باتجاه باب قصر الملك، وهو ونتيجة إحساسه بالفشل، صار يفكر في إيجاد الطريق المختصرة والمجدية لتحقيق الأهداف السامية التي آمن بها، وهو ينوي توفير تلك الجهود وتلك الدماء التي ما فتئت تُسفح في ساحة النضال والكفاح دون أن تتحقق أيٌ من الأهداف!

عندما وصل إلى باب القصر، ما أدهشه أنه استُقْبِلَ بكل ود وبابتسام وترحاب من قبل الحراس والمسؤولين في مدخل ذلك البرج العاجي، لقد كانوا بانتظاره الأمر الذي كان عكس توقعاته...

وعندما همَّ بالدخول وكان مندفعاً بقواه الذاتية، أحسَّ بتلك القوة الخفيّة (الناعمة) تعاود كبح تقدمه وتطلب منه التريث والتؤدة أثناء الصعود إلى الأعلى، وفجأة أحسَّ التجمد في مكانه!

وجاءه صوتٌ هامساً في أذنه: حسناً أيها الزعيم والقائد لا بدَّ أن لديك أهداف عظيمة سوف تعمل على تحقيقها، عندما تكون فوق مع الملك... ولكن لا يمكنك الصعود إلى فوق بهذه البساطة؛ إذ أن القانون يوجب على من يريد أن يصعد إلى فوق ... أن يتخلى طواعيةً عن إحدى حواسه وأن يقبل أن يستبدلها بحاسة جديدة تليق بالمستوى الأعلى.

قال الشاب: ولكن .... فجاءهُ الصوتُ من الجهات الأربع بكل حزمٍ ووضوح: لا بدَّ من ذلك!

عندها فكّرَ الشابُّ في ما فعله حيث تخلّى عن رفاقه في النضال والكفاح وهم في الشارع، لينتهج أسلوباً أكثر عقلانية ونجاعةً وأوفر للدماء، وأنه إنما هو ذاهبٌ لتحقيق الأهداف ذاتها، وأنه لا يزال على العهد، ولذلك فإنه في سبيل الأهداف ومن أجل الجماهير، فسوف يضحي بإحدى حواسه الطبيعية، ويقبل باستبدالها بحاسة مُلائمة للطابق العلوي، وذلك حتى يتمكن من الوصول إلى مستوى القيادة ، وهناك سيعمل على تحقيق جميع الأهداف الثورية التي آمن بها، وفي سبيل ذلك فإنه لا بأس من أن يقبل بالتضحية بإحدى حواسه، ولتكن (حاسة الشم)؛ فهي حاسة جانبيّة غير مؤثرة وليست مهمة في العمل الثوري، وهكذا نُزعَتْ منه حاسة الشم الأساسيّة، وركبت له حاسة شم (مكيّفة) تتلاءم والوضع في الطابق العلوي؛ فأصبح إذا وضع أمامه (النتن) يشم ويحسُّ بالعطر وعبق الياسمين! ولكنه ما زال يطمح في الصعود وينوي تحقيق الأهداف، لذلك اندفع ثانيةً صاعداً الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني، وهناك عاودت القوة الخفية صدَّهُ وكبح جماحه ... وجاءه الصوت الناعم من الجهات الأربع حازماً له الأمر: إنك لن تستطيع المتابعة إلى الطابق الأعلى، إلا إذا تخليت مجدداً عن حاسّةٍ أخرى؛ لا بدَّ من ذلك حتى تكون ملائماً وجديراً بذلك المستوى... ووقع الشاب في حيرةٍ من أمره، وبدأ لديه صراعٌ داخلي عنيف ، وراجع حساباته وأخذ يقارن بين الربح والخسارة، في

واليقظة ثم الادراك، فالوعيد لم يكن للحيوانــات بل للإنســان الواعي، والقرآن العظيم لم يُنزَّل للبهائم بل للبشر الذين من المفروض أنهم واعين، ولفظة (أوعى) توحي بالجمع والتجميع والتخزين والامتلاء؛ فالواعي هو الذي سبق وأخذ وجمع وأملى خزائنه من جميع المعطيـات المتاحة في هـذه الحيـاة الفانيـة؛ قـال تعـالى: تَـدْعُو مَنْ أَدْبَـرَ وَتَـوَلَّى (17) وَجَمَـعَ فَـأَوْعَى (18) [المعـارج: 17- 18]، والوعي مرتبطٌ ارتباطاً عضوياً بـالأذن الحـرة؛ الـتي تجمع في حياضـها ولـديها كـلَّ ما يصـادفها، إنها

اسـلوب النضـال بين الجمـاهير والتضـحية بالـدماء والجهـود، وما يمكن تحقيقه مباشرة بقرار من القيادة، وبالتالي فـإن التضـحية والاسـتغناء عن بعض الحواس الاساسية يُعتبر عملاً ثورياً أيضاً لطالما سيؤدي إلى تحقيق الأهــداف العظيمة الــتي آمن بها مع رفاقه في الشــارع، وأنهم عنــدما يعرفون الحقيقة فسيقدرون ذلك عالياً، وهكـذا نـزعت منه حاسة (الـذوق الأساسية) وأعطيَّ حاسة ذوق (مكيفـة) تتلاءم والطـابق العلـوي، فاصـبح إذا أكل الحنظل أحسّ بطعم العســل! وقد قبل بتلك التضــحية خدمــةً للأهداف التي لطالما ناضل من أجل تحقيقهـا، وهكـذا شـرع في الصـعود، وهمَّ في وضع أقدامه على الدرج المـؤدي إلى الطـابق الأعلى، إلا أن تلك القــوة الخفية الناعمة بــرزت له مجــدداً، وقد أحسَّ بها وهي تصــدُّهُ في صدره وتعاود تذكيره بأنه لا يمكنه المتابعة إلا إذا قرر الاستغناء عن إحدى حواسه الأساســية أيضــاً، ليحمل بــدلاً عنها حاســةً أكــثر مواءمة للوضع العــالي؛ فعــاوده الصــراع و(المنولــوج) الــداخلي وأخذ يــؤنِّب نفسه على الورطة التي تـورط بهـا، وكـاد الإحبـاط أن يتسـلل إلى نفسـه، ولكنَّ تلك القـــوة الخفيّة عاجلته بالتَّمْنِيَـــةِ والوعـــود، وأكـــدت له أنه على الطريق الصحيح، وأنه أختار الخيـار الأنسب والأفضل والأكـثر نجاعـةً، ولـذلك عليه أن يكــون على مســتوى هــذا الخيــار، وعلى أنه إنما أصـبح من أصـحاب المعــالي... فعليه أن يفكر بطريقة اســتراتيجية شــاملة تهتم بالغايــات، وليس كما يفكر الآخرون بطريقة بدائية سطحية، وهكذا نزعت منه حاسة (اللمس) وأعطيَّ حاسة لمس (مكيفة)، فأصبح إذا وضع يـده على المـبرد أحس باللطف والنعومة والحنان، ثمَّ أنه تـابع وهمَّ بكل ثقـةٍ على الصـعود نحو الأعلى، بوضع أقدامه على الـدرجات المتبقيـة، إلى الطـابق الأخـير، فبرزت له تلك القــوة الخفيّة تدفعه في عكس الاتجـاه كلما حـاول التطلع إلى الأعلى، ثم أفهمته تلك القــوة أنَّ الوصــول إلى الطــابق الأخــير، إنما يتطلب منه أن يســتغني ويتخلى عن حاسة الســمع وأن يقبل طواعيّــةً استبدالها بحاسة سمع مكيفة، ليست تُسمع الضوضاء والضجيج والصخب؛ ولما أبدى بعض الاعتراض لوَّحت له تلك القوة بـأن عليه إذاً أن يعـود من حيث أتى! وهكـذا بـات عليه أن يقـارن بين العـودة والتضـحية الـتي لا بـدَّ منها!

لاسيما وأنه صار يتمتع شخصياً بـالاحترام، والكثـير الكثـير من المكاسب والأموال والأعطيات الـتي أغدقت عليه، والتي لم يكن في السـابق يــدري أو يســمع عنها شــيئاً، فقــرر أن يتــابع، ولكنَّ نفسه كــانت تحدثه بأنه لن ينسى متابعة العمل على تحقيق الأهداف المنشودة عند الجماهير الغفيرة التي كانت تصـدح وتهتف في الشـوارع وتضـحي بالغـالي والنفيس، وذلك عنــدما تتــاح له الفرصة ويتمكن من موقع اتخــاذ القــرار، لــذلك فقد قبل بتقديم تلك التضحية وهي التخلي عن حواسه الواحدة تلوى الأخـرى، لكنه صار يسمع في أذنيه وعلى الدوام موسيقى هادئة تماماً ترخي الأعصــاب، لم يعد يســمع أصــواتاً مُنَفِّرَةً، كل شــيء من حوله صــار جميلاً ورائعــاً، وأغلب النــــاس في رأييه ...كــــانوا هم ســــبب تلك الفوضى والتعاسة

أشـبه بالوعـاءٌ الكبـير الـذي يحتـوي على كل العناصر المؤدية إلى الفهم الصحيح ومع ذلك فإنَّ الكثير من النـاس لا يكـادون يفهمون! قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَـةٌ﴾ [الحاقـة: 12] ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُـونَ ﴾ [الانشـقاق: 23] ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف: 76].

بينما ينصبُّ مفهوم الوعي ودلالاته، والذي ذكر في القرآن الكـريم (7) سـبع مـرات، وهو يـدور حـول اليقظة والصـحو والانتبـاه غـير المُقيَّد، والحَـدْسُ المقـترن بالحريـة، إذ لا وعيَ للمقيـدين أو المغلـولين، لأن الـوعي دومـاً فيه نشـاط وتطلع للارتفــاع إلى المســتوى الأعلى، والــوعيُ فيه تــراكم وتعبئة للأحاسيس والمشاعر، ما يؤدي للوعي، ولا يتـأتى الـوعي من فراغ.

أما الـذين يكـذبون، فهـراء ما يجمعـون وسـتذروه الريـاح، والوعي يكـون للآيـات وليس للترهـات، وهو غرسـةٌ مغروسـةٌ في الإنســان، شــعورية تهــدف وتــؤدي إلى موعظته وربطه بالوعد وتـذكيره بضـرورة الوفـاء، ومن أجل نجاتـه، وكل ذلك يرتبط بالعمل والإنتـاج الـذي يتخذ في القـرآن العظيم دلالات من خلال (274) مئتـان وأربع وسـبعون صـيغة، الـذي يـوحي بـالعمق والعمـران، والعمـرة (الزيـارة) والعمر والعلـوِّ والعلم والعلام، والقرب الشديد، وقد أتت في الكتـاب الكـريم تصـفه بأنه حصراً هو عمل متجـهٌ للخـير والصـالح، والمرفق بـالقول (الفعل) الحسن والمراقب من الله تعالى، والمرتبط بالإيمان، وأنه وحده يقود إلى الفلاح ونيل الثواب، وهو ما سـوف تلاقيه الأنفس يوم القيامة قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَـةٌ ﴾ [المدثر: 38].

أما من عمل الســيئات فله ما يناســبه، وكــان عمل الله تعالى مثالاً لما يجب على البشر فعله قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ [يس: 71]، إذاً العمل الحقيقي هو جهود تبذل ليس للمنفعة الخاصة فقط وإلا لكـانت الحيوانـات تعمل أيضـاً (فالقطة والعصـفور والثعلب والباشق وغيرهـا) كلها مخلوقـات تعـرف كيف تـؤمِّن

والمعاناة التي كانت سـائدة فيما بينهم...، ثم أنه لما لمح كتف الملك من الخلـف؛ همَّ في التوجه نحـوه وتحيته والسـلام عليـه، فكبحت تلك القـوة الخفيّة جماحه وهدَّأت اندفاعه وطلبت منه التريث واقترحت عليه ضرورة أن يقوم بتقديم الحاسَّة الطبيعيّة الأخيرة التي لديه (الرؤية)! وذلك كعمل لا بـدّ لكل من يـرغب في التواصل مع الملك من انجـازه ليحمل من بعـدُ، نظراً جديداً مكيَّفـاً، وليس كـالنظر السـابق؛ وهنا لم يتمكن من مشـاورة نفسه، وكـان لا بـدَّ من الموافقة على التضـحية بحاسة الرؤيـا، لأنه أحس أنه أمــام خيــارين أحلاهما مــرٌّ، وأن أخــفَّ الضــررين هو الخيــار الملكي العالي، وهكذا صار ينظر من فوق ويرى الناس في أرقى الحالات.

أكلها وشـربها، وكيف تـدافع عن نفسـها، ولكنَّ عمل الإنسـان الـواعي مختلف عن هـذا المسـتوى، فهو يتجـاوز (الأنـا) إلى (النحن) و(النحن) إلى (هم) إنه أي العمل (الـواعي) ما كـان لفائـدة النـاس جميعـاً، ولله تعـالى بعيـداً عن الخصوصـية الضيقة.

وتشـير حـروف لفـظ (الـوعي) إلى معناهـا الحقيقي، حيث (الـواو) حـرف القـوة والمتانـة الماديـة الملموسـة المتصـلة، والتأكيد على الضم الشديد البعض للبعض. بينمـا (العين) حـرف الايـاب والعـودة والرجـوع بقـوة إلى الحـق والواقـع والانضـمام والالتصاق به.

المعرفة

وسخر بعضهم من الفلاسفة إذا قال شعراً (أيتها الشجرة إنَّكِ لا توجدين إذا أغمضتُ عيني... ولم أنظر إليكِ)، فأجابه الفيلسوف:(بل توجد إذا أغمضتَ عينك لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يغمض عينه، وهذا هو البرهان الأكبر في مذاهب الفلاسفة على وجود الخالق عزَّ وجل وهو توقف الموجودات كلها على عقل شامل الإدراك يحتويها...، ومن هذا العقل يوصل إلى عقولنا علمنا بالموجودات لأنَّ العقل لا يفهمُ إلا من عقلٍ يلقي إليه بالمعرفة، إذ لا معرفة في غير العقول!، ويرى البعض أن لا وجود لغير العقل أو النفس، إذ لا وجود للمادة أو الأحداث في الخارج إلا من خلال عمل العقل الباطن لأنَّ الصفات التي قد تنسب للأشياء ليست في الأشياء بل في العقل الذي يدركها، فالامتداد والشكل والحركة، والصفات الأولية المنسوبة إلى المادة هي عوارض فكرية لا توجد في خارج العقول، واللون والطعم والصوت كذلك هي إحساسات عقلية، وليست صفات عالقة بالأشياء وإذا قيل له إن الصوت حركة نراها في الهواء قال ولكن الحركة تُرى ولا تُسمع، فالصوت إذاً من عمل السامع على كل حال.

إنما بالواقع وعلى كل حال، فإنَّ المعرفة هي إدراك الأشياء كما هي في الواقع وذلكَّ بواسطة الحواس الظاهرة والباطنية، فالشيء أسود أو أحمر لأن به صفةٌ جعلته أسود أو أحمر؛ فإذا انعكس علينا أدركنا سواده أو حمرته، ولكن هل الحقيقة المدركة خارجية أم داخلية؟

إنَّ حقائق الأشياء هي التي ندركها بإحساساتنا ثمَّ نمحصها في فعاليات عقولنا في ضوء ما نعلمه من علوم طبيعية وقوانين وأحكام، سواءٌ أكانت مستلهمةً أم مستوحاة، فإنها عملياً تشترك في تكوين الصورة التي ندركها والمطابقة إلى حدٍ كبير لما هو موجودٌ في الواقع، ولكن هل الكيفيات التي ندركها أمورٌ ذهنيَّة بحتة؟ فالبعض كان يرى أنَّ ما في الفكر مختلفٌ نسبياً عمّا في الخارج! لذلك قالوا بأنَّ المعرفة ليست تماماً إدراك الأشياء كما في الواقع، بل حسب ما يظهر لنا أو ما يبدو لنا في هذا الواقع، إذ ليس شرطاً أن تكون الأمور دائماً متطابقةٌ بين الداخل والخارج، من حيث المعرفة، وأنَّ كل ما يولده العقل من المعرفة هو مجرد خيال ناتج عن التأمل الفكري، سواءٌ أكانت هذه المعرفة الآتية من

العالم واردةٌ عن طريق الحواس المتصلة مع الخارج أم كانت مولـودةً ومولّدةً عن طريق التفاعل والتأمل الفكـري، لـذلك قالوا بـأنَّ كل ما يمكن العلم به من الأشـياء أو الحـوادث فهو بجـوهره شـيءٌ عقليٌ، ولكنّ الإنسـان لا يعلم حقيقـةً إلا ذاته وأحوالها!، بينما يرى الواقعيـون أن إدراكنا للأشـياء والأحـداث في هـذا العـالم و من حولنا يحـدث يقينـاً منّـا، وإنَّ في ذلك الإدراك ضـمانةٌ لحقـائق الوجـود لتصل إلى ذواتنـا، إنَّ حقـائق الوجود الخارجي بالواقع هي قابليتنا لأن ندرك، ولـذلك تُعـرَّفُ (المعرفة) على أنها نسخةٌ طبق الأصل لحقـائق الأشـياء الـتي في العالم وهي صورةٌ دقيقةٌ تتكون في عقولنا لما يجري في الخـارج، وأن حقـائق الأشـياء مطابقة لصـورها أو لمظاهرها التي نستطيع إدراكها بواسطته القوة المدركة المودعة بنا، إنَّ هنالك عالماً خارجياً مستقلاً عن إدراكنا ومظاهر الأشياء تبـدو فيه، وحقائقها متطابقة، فـإذا أخذ العقل صـورة هـذه الأشـياء كما هي في الواقع سميّ ذلك (معرفةً).

إذاً (المعرفة) هي مجموعـة أعمـالٍ ذهنيـة بحتـة تجـري في عقل الفرد وفي نفس الوقت فإنَّها تتكـون منهـا مـادة المعرفـة وتصطبغ بصبغةٍ عقلية أو تُصَوَّرُ بصورة عقليّة، ولكن مع الفكـرة يأتي الإدراك الحسي والشعور والاحسـاس وغيرهـا من الأمـور، فالخارج ليس مسـتقلاً عن الـداخل، كـذلك فليس للـداخل غـنىً عن الخارج، بل تنتج المعرفة من تفاعل الخارج مع الداخل، وإلا فكيـــف نُفَسّـــر احساســـنا بالأفكـــار والخـــواطر (المتذَكَّرَة والمستَحْضَرَةُ) وخصوصاً من حيث الكيفيّة والشـدّة وغيرهـا من النواحي والوجوه؟

إنَّ الاحسـاس بالـذاكرة والخيـال مجـالٌ خاضـعٌ لسـلطان الإرادة، بينما الأشـياء الخارجية مسـتقلةٌ في مجيئها ورواحهـا، كـذلك فـإن الأشـياء الخارجية لها صـفةُ الثبـات بينما الأحـوال الداخلية المتدفقة متتالية متبدلة لا تبقى على حـال، ولكن هل للأشياء أصوات في اللحظة التي لا يسـمعها بها أحـد، وهل لها لونٌ في حين لا ينظر إليها أحد، وبالتالي هل الأشـياء موجـودةٌ في حال عدم إدراكها؟ وهل بها نفس الصـفات الـتي لا سـبيل إلى العلم بها إلا عن طريق إدراكنا لها؟.

إن الكيفيـات المحسوسة بها بالشـيء ليست هي صـفاته الأساسـية، إنها ليست من الصـفات الـتي يتضـمنها مفهـوم الشـيء في الضـرورة، بل هي انطباعاتنا عنـا، وقد قيل إن العقل لا يفهم إلا عن عقـلٍ يلقي إليه بالمعرفة إذ لا (معرفـة) في غير العقول.

أضف إلى ذلك أن توقف الأثر الحسي الذي يصلنا من الأشياء الخارجية على ظروفٍ من أنواعٍ مختلفةٍ تؤثِّرُ في إدراكنا الحسي؛ يضطرنا إلى أن نميِّز في (الكيف) بين الأشياء وأفكارنا عنَّا، فالشيء الواحد يظهر بمظاهر مختلفةٍ في درجاتٍ من الضوء متفاوتة، إذ يختلف لمعانُهُ باختلاف شدَّةِ الضوء الواقع عليه، بينما يختفي لونه تماماً في ضوء الشفق القرمزي وفي الظلام، كما أن الشيء يظهر مختلفاً باختلاف الموقع الذي يُنظر إليه منه، وكذلك يبدو جرمه مختلفاً باختلاف المسافة بيننا وبينه، وكل هذه الاختلافات لا يمكن أن نعزوها إلى الشيء ذاته، وهذا مما يحملنا بالضرورة على الاعتراف بوجود اختلاف جوهري بين الشيء الخارجي والصورة الذهنية التي تمثله في أفكارنا)[1].

أما علماء المسلمين فقد صرفوا همهم عند الكلام (على حقيقة العلم والمعرفة) إلى وجهةٍ أخرى فلم يعنوا ببيان الصورة أو الحالة التي تشكل معرفةً أو إدراكاً، مع إيمانهم بحقائق الأشياء، ولذلك فهم أقرب إلى مذهب الواقع، ولكنهم عُنوا ببيان المعرفة الحقيقية أو اليقينية، في الوقت الذي يجد فيه الإنسان نفسه عالماً أو مدركاً، ولهذا قال البغدادي في تعريفه للعلم، إنه (صفةٌ يصير الحي بها عالماً) وقال فيه القاضي عبد الجبار: (المعنى الذي يقتضي سكون نفس العالم إلى ما تناوله) ويبدو أن الذي حمل علماءنا على سلوك هذا السبيل أمران، الأول أن ظروفهم في بحث ماهيّة المعرفة كانت أكثر موضوعية، لأنهم ما كانوا يفرون من شيء! في الوقت الذي قد يعتبرون به مثل هذا (ضرباً من التفلسف العقيم، أو التفلسف اليوناني الذي رفضوه في جملته.

ولهذا خاض في مثل هذا (ابن سينا) و(الفارابي) وضرباؤهما ممن وسموا في التاريخ بفلاسفة الإسلام، وهم في واقع الأمر لا يعدون كونهم فلاسفة مسلمين وضعوا (فلسفتهم في ظلال فلسفة الإغريق، قال (ابن سينا) في تعريف الإدراك بعامةٍ أي سواءً أكان إدراكاً حسياً أو عقلياً بأنه قبول المدرك لصورة المدرَك قال: (إدراكُ الشيء هو أن تكون حقيقته متمثلةً عند المُدْرِكْ يشاهدُها بما به يُدرِكْ).. (ويشبه أن يكون كل إدراكٍ إنما هو أخذ صورة المُدرَك بنحوٍ من الأنحاء)[2].

---

[1] (?) راجع مقالة في المعرفة مقدمة لدراسة العقيدة الإسلامية للدكتور عدنان زرزور، مكتبة الفتح دمشق، بدون تاريخ.

[2] (?) المصدر السابق.

فإذا كان الإدراك عقلياً فهو امتثال صـورة المعقـولات في العقل وإن كان الإدراك حسياً فهو امتثال صور المحسوســات في الحواس.

وقد يتضح لنا ما يرده (ابن سينا) بهذا الامتثـال بمثل قـول (الفارابي)، قـال: (الإدراك يناسب الانتقـاش، فكما أن الشـمع يكون أجنبياً عن الخاتم حتى إذا طابقه وعانقه معانقةً ضـامةً، رحل عنه بمعرفة ومشاكلة صورةٍ، كذلك المدرك يكون أجنبياً عن الصــورة فــإذا اختلس عنه صــورته عقد عنه المعرفــة، كالحسي يأخذ من المحسوس صورةً يستودعها الـذكر فيتمثل في الـذكر وإن غـاب عن الحس)، والحـواس على هـذا تقبل بـالطبع صـور المحسوسـات دون مادتها كما يؤكد (أرسـطو) و(ابن سينا)[1].

إن القـــول بأنك تفكر فـــإن مرادفه بأنك تضع حـــدوداً وشروطاً لما تفكر فيه، وقد بنا البعض على هذا القـول بأنه لا يجوز أن ننكر الوجـود المطلق لأن معرفتنا بقصـور معرفتنا لا ينتج منه أن نجعلها حكمـاً في الإثبـات أو الإنكـار... ولكن ينتج عنه لـزوم الإيمـان وضـرورة الاعتقـاد...، أي قبـول المعرفة الأخرى الـتي ليس لها (كيفيـة)، لـذلك فـإن فلاسـفة الإسـلام صـــرفوا همهم إلى الحـــديث عن المعرفة بما يتناسب مع التصديق والإيمان، فقالوا بالعلم إنه معناً أوصفة، مثل قـولهم بأن العلم اعتقاد الشيء على ما هو به ولهذا أيضاً قال البعض في تعريف بعضهم له بأنه إدراك المعلوم بأن فيه اتسـاعاً من حيث قد يـــدرك ما لا يعلم ويعلم ما لا يـــدرك، لأن المعرفة ليست وقفاً على ما تدركه الحواس أو مـالا يمكن أخذ صـورةٍ له من عـالم الغيب!، وإذا سـلمنا بهـذا التفريق بين المعرفة والإدراك أو بين المحسوســات والمعقــولات فــإن مــذهب متكلمي الإسلام في المعـارف الحسـية أو العلمية هي أقـرب إلى مـــذهب الواقع وليس الاختلاف معهـــا، أي بين الشـــيء الخـارجي والصـورة الذهنية الـتي تمثلهِ في أفكارنـا، ولإدراك هـذه الحـواس لمحسوسـاتها، وسـطاً وشـروطاً يقف عليها المـــرء في العلـــوم الطبيعية الـــتي تقـــوم على التجربة والاستقراء[2].

العقل إذاً هو الـذي يقف وراء الحـواس، وهو الـذي يجعل إحساساتها إدراكات أو معارف حقيقيـة، بمعـنى أنه ينقلها من الغرائز والانعكاسـات الـتي يشـترك فيها سـائر الحيوانـات الأخـرى الـتي زودت بمثل تلك الحـواس؛ أو بمعـنى أن العقل

---

1 (?) المصدر السابق.
2 (?) المصدر السابق...

هو الذي (يفكر في تلك الإحساسـات، أو يربطها بـالواقع على الأقـل، بغض النظر عن حاجته في هـذا الربط والتفكـير إلى المعلومات السابقة.

أما الحيوان فغاية ما يصل إليه من حواسه التي زود بها ما يدعى (بالاهتداء الغريزي) بحيث يتكون لدى الحيـوان (انطبـاع بالواقع عن طريق مركز الإحساس في الـدماغ، وربما اسـتعاد الحيوان هذه الانطباعات حين الإحسـاس بـالواقع، ولكن هـذه الاسـتعادة ليست ربطـاً أو تفكـيراً، وإنما هي تحـرك لمركز الإحساس، وهي ناشئةٌ عن الإحسـاس بـالواقع الأول أو بواقـع جديد يتصل بـــالواقع الأول فيحصل عند الإحســـاس (تميـــيزٌ غريزي) هو الذي يعين سلوك الحيـوان وتحركه نحو أمـرٍ واحد فقط، هو إشباع الغريزة أو الحاجة العضوية.

ولعل ذلك التأكيد لـــدور العقل – من وراء الحـــواس كما تقدم- هو الذي يضع يدنا على الخطأ الذي وقع به التجريـديون أو الحاسـيون؛ حين حـاولوا تجريد العقل من فاعليتـه، وحصر دوره (في قابليته للانفعال عن طريق التجربة.

إن التجربـــة، إذا أردنا الاختصـــار وحاولنا الابتعـــاد عن الغموض، ميـدانها الإدراك العلمي أو المعرفة العلميـة؛ أي أن المعرفة الــتي تنتج عن التجربة هي معرفة علمية تنصب على الطبيعة وعلى عـــالم الأشـــياء؛ حيث يلاحظ المـــرء المـــادة و(يجربها) ويخضعها لظـروفٍ وعوامل جديـدة حـتى يظفر في نهاية المطـــاف بـــالوقوف على القـــوانين الــتي تحكم عـــالم الأشياء من حوله، وتلك بدون شك (معرفة يقينيـة) لأنها قائمة على التجربة، ولن تنقدها التجربة مرةً أخرى!!، ولكنها ليست (كـل) المعرفـة؛ بمعـنى أن البـاحث أو المفكر يـرتكب خطـأً واضحاً أو مغالطة صريحة إذا إعتقد أن (التجربـة) هي ميـدان المعرفة الوحيـد، أو إذا اعتقد أن التجربة هي ميـدان المعرفة الأول!! لأنها – في الحقيقة- لا تعـدو كونها فرعـاً عن المعرفة العقلية أو الإدراك العقلي؛ لأن (الإحســـــاس) في الملاحظة و(الإدراك) هو العقل والمعلومات المسبقة التي ساعدته على ذلك الإدراك؛.

والخلاصة عن مصـــدري المعرفـــة: وهما العقل والـــوحي، تتجسد في كلمة (فرنســـيس بيكـــون): (إن معرفة الإنســـان كالمـــاء، بعضه يهبط من الســـماء وبعضه يتفجر من الأرض. وإحداهما نصل إليه بنور الطبيعة، والأخرى تـوحى إلينا بتنزيـلٍ من الله تعالى...).

غير أننا إذا أردنا أن نصل بين طـرفي هـذا البحث وفقرتيه الرئيسيتين: أصل المعرفة ومصدرها الغيـبي فإننا نضـيف إلى

قول ذلك الفيلسوف: (ولكن ماء الأرض يرجع في أصله إلى السماء، أما حين ينفذ الإنسان إلى (معرفةٍ) من نوع ما عن طريق الإلهام المباشر والبصيرة المطلقة فإن ذلك –فيما يبدو – لا يكون عاماً من ناحية، كما أنه لا يكون مبتدأً، بل غالباً ما يأتي (جزاء) على عمل، بحيث يمكن اعتبار هذا اللون من ألوان المعرفة المباشرة نتيجة عملية للسمو الذي حققته الطاعة، والارتفاع الذي أدركته التقوى، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين)، وقال تعالى: (يؤتي الحكمة من يشاء)، والله أعلم[1].

---

[1] (?) الدكتور عدنان محمد زرزور مقالة في المعرفة، مرجع سابق.

المنطق ووجه الحاجة إليه[1]

إن المنطق موجـودٌ أساسـاً في كل كلام عاقـل منسـجم وخالٍ من التناقض، وأنَّ كلَّ العلوم إذا أرادت أن تبلغ مستوىً النسق المعرفي العام، فإنها تعمل على تأكيد وجودها وتحقيق التطور النوعي الـذي توصلت إلى نتائجه داخل إطـار الأنظمة المنطقيـة، فهي عمليـاً تتسم بـالمنطق، فـالمنطق مـيزان الكلام، والذي لا بد من تـوفره لكل ما هو مُعـدٌّ وكل ما يحتـاج للفهم، فهو معيارٌ أساسيٌ للعقل، وقد أشكل على العلماء في العصر العباسي الذين ربطوه بالفلسفة، ولـذلك كـان لهم منه موقف آنذاك.

فـالمنطق بتعريف أرسـطو هو الآلة الـتي تعصم مراعاتها الــذهن من الوقــوع في الخطأ أو الزلــل، ومعــنى ذلك أنَّ المنطق في نظر أرسطو لم يكن علماً، وإنما كان فناً للتفكير أو هو مجموعة القواعد والتوجيهات التي إذا اتبعها المرء كـان تفكـيره سـليماً، والواقع فإنه ليس هنالك أي تنـاقض بين علم الفلســفة وعلم الرياضــيات وعلم المنطــق، وذلك من حيث (الطبيعة الصـوْريَّة) ومن حيث النتـائج العلمية البحتـة، ولكن

---

1 (?) اعتبر (أرسطو) أن المنطق هو آلة العلـوم كلهـا، وليس علمـاً خاصـاً، والمنطق الصوري الذي طوره يدرس العمليات العقلية (تكـوين المفـاهيم والأحكام والتفكير) أما عند (كـانت) فيسـميه: المنطق المتعـالي، ويتنـاول بالــدرس الملكة الخاصة والمعرفة العقلية الــتي تفكر في الموضــوعات القبْلية، ومع تطور المعرفة العلمية صارت هناك فروعاً للمنطــق، منها ما هو امتـــداد للمنطق التقليـــدي، ومنها ما هو ثــــورةٌ عليه ومواجهة مع مسلماته، فمع مناطقة (بور رويال) يتحول المنطق إلى (فن للتفكـير) ذي غــرض تعليمي، أما ديكــارت فقد حــوَّل المنطق الأرســطي الموصــوف بالعقم، من منظوره، إلى منهج يتخذ من الرياضـيات نموذجـاً لـه، بعد أن تبيَّن له فقر الأقيِّسة المنطقية، لكنَّ ملمح الاختلاف مع (كانت) هو العودة مجــدداً إلى المؤسس الأول (أرســطو) لتوســيع المقــولات عــبر لوحة الأحكام، وذلك بفتح المنطق عل النشاط المعرفي للذات المفكرة بحقلها المتعــالي، وإمكانها القبْلي، أما (هيغــل) فسيصــبح المنطق معه (نسق العلم) بالتواشج مع الجدل لما هو بعدٌ من أبعاد الفكر المركزيَّة.
أما (هوســرل) فــإن المنطق المتعــالي يبلغ معه الأوج؛ إذ يصــبح علمــاً بالماهيــات المحضة والأنا المتعــالي عــبر منهج التصــفية والإحالــة، هنا المنطق وفعل مفهمته بقــــدر ما هو شــــكلنا، أي تحويل الموضــــوعات والأشياء إلى مفهومـات، بقـدر ما هو سعي إلى إفـراغ المفهومـات إلى أنســاق صــارمة ومحكمــة، ثمة خط آخر مثَّلــهُ الفلاســفة الرياضــيون التحليليــون بــدأ مع (ليبنــتز)، تعــاطى مع المنطق كما لو أنه (حســاب عقلاني) وهــذا ما جعله رائـداً للمنطق الحـديث الـذي سـوف يصـبح مع (فريجيه) و(رسل) منطقاً رياضـياً يُكتب بلغة رمزية أكـثر مما يكتب بلغـةٍ مفهومية. (من كتاب السؤال الفلسفي ومسـارات الانفتـاح). عبد الـرزاق بلعقروز. الدار العربية للعلوم. 2010م
)

(المنطق المجرد) من حيث الشـكل فهو لا يعبأ بصـدق الكلام ولا بالنتـائج؛ إنه لا يهتمُّ إلا بسـلامة الصـورة التعبيرية فقـط؛ ولـــذلك ينبغي التأكد والتَّأكيد على ربط المنطق بالإيجابيـــة، أو (الوجـدان) أو الضـمير، أو المـيزان الصـحيح (القـدرة على التمييز؛)، أو الفرقـان المُنَـزَّل من السـماء وهو (القـدرة على التفريق بين الحق والباطـل، وبين الخـير والشـر، وبين الصح والخطـــأ، وبين النـــور والظلام، وبين العلم والجهـــل، وبين المستقيم والمعوج، وبين والعروبة والعجمة).

وأن لا يُـترك الحبل على الغـارب، ليكـون الأمـرُ كيفيّـاً لتقديرات كل إنسان؛ ومن هُنا كان لا بدَّ من الإلزام والالـتزام بمنهج وموضوع المنطق الصحيح الذي يبحث ويؤكد على قيمة وأهمية النتائج، أو النتيجة وتقديرها أخلاقياً، إذ ينبغي التأكد من صحة المُقدمات ومدى تطابقها مع الحق المنزَّل من السـماء، لقد كـان العـرب رواداً في المجـال العقلي؛ ولـذلك كـانوا يسـتخدمون في كلامهم (حـتى) و(إلا) للتأكيد على المضـمون في التعبـير، وعلى الارتبـاط بـالواقع العملي المـادي، وعلى النتائج في صورة المضـمون، إنَّ التصـورات يجب أن تتطـابق مع التصـــــــــــــديقات، والمنطق المتعلق بالتجربة الخارجية المحسوسة يحتاج على الدوام إلى دفع أو إلى جسرٍ ليَعْبُرَ من الوقـائع إلى الاستكشـاف، وبالتـالي من الخـاص إلى القضـايا العامة.[1]

هذا وينقسم (المنطق الأرسـطي) إلى أولاً منطق صـوري وهو (الاستدلال)، وثانياً المنطق المـادي وهو (الاسـتقراء)، إنَّ الهـدف من البحث أو التفـتيش عن المنطق هو إدراك الواقع إدراكـاً صـحيحاً، فالاسـتدلال لا يهتم إلا بسـلامة الانتقـال من المقـــدمات إلى النتـــائج، بينما في المنطق عمليـــات تحليل وتركيب، فالتحليل صوري وليس فيه نتائج، بينما التركيب يولد النتـــائج، ويعطينا امكانية توليد اشـــياء جديـــدة في نهاية الاسـتقراء، و(الاسـتقراء) تركيـبي، في حين أنَّ (الاسـتدلال) تحليلي.

إنَّ علم المنطق يـدرس البرهـان واسـاليبه وطـرق أدائـه، وقد قيل بـــأنَّ المنطق هو (فن ادارة الـــبراهين) إنَّ المنطق الصــوري يُعــنى فقط بــالمعنى الشــكلاني، بينما الاســتقراء شامل، إنَّ المنطق يقوي قدرة الإنسـان على الفهم الصـحيح، ولذلك يجب دراسـته وبعمق اعتمـاداً على اليقين المـنزَّل في كتاب الله تعالى.

---

1 (?) (أوليات المنطق الرمزي) ت. د عبد الفتـاح الديـدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1983.

إذ يجب أن يتـــوفر المنطق الســـليم مع كل من يـــدعي التفكر والتعقل، فمن فَقَدَ المنطق لن يكون لديه القدرة على التفكر، أو تكـوين الأفكـار الإيجابيـة، ولا طرحها على الآخـرين أبداً، والمنطق هو الأسلوب المنظم أو المنطقي المنسجم مع مقدمات الفكر ونتائجه الخيّـرة والمفيـدة، فلا فكر وبالتـالي لا منطق إذا كانت النتـائج غـير مفيـدة، ولا تتكـون عامة وإيجابية على الأرض، وفي الآخـرة، قـال تعـالى: وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًـا إِلا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِـقُ بِـالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُـونَ [المؤمنـون: 62]

قـــال تعـــالى: هَـــذَا كِتَابُنَا يَنْطِـــقُ عَلَيْكُمْ بِـــالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِـــخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُـــونَ [الجاثية: 29] قـــال تعـــالى: وَمَا يَنْطِـــقُ عَنِ الْهَـــوَى [النجم: 3] والنطق هو الحـــال والمســـار والسـلوك إنه المنهـاج إلى أين يتجـه؟ قـال تعـالى: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِـقَ الطَّيْـرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَـيْءٍ إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْفَضْـلُ الْمُبِينُ [النمل: 16] أي أسـلوب وطريقة حيـاة الطـير، الطريقة المضـمونة المـآل المحسوبة النتائج المترفعة عن الـدنايا والمخـاطر وعن كل ما يمكن أن يسـبب الأذى، ليست منغمسة بالمشـكلات ولا هي جزءٌ منها، وتنظر إلى الأمور من فوق وبنزاهة.

ربما كـــــان أبسط تعريف للمنطق أن تقـــــول أنه (فن التفكـير) غـير أن هـذا التعريف سـوف يقابل بعاصـفة من الاعتراض والدهشة عند القارئ المبتـدئ (فن التفكـير)؟ وهل يمكن أن يكون للتفكير فن؟

ألسنا نفكر تفكيراً طبيعياً كما نأكـل ونهضـم؟ أليس التفكـير وظيفـة المخ كمـا أن التـذوق وظيفـة اللسـان؟ ألا يُفـرز المخ التفكير كما يفرز الكبد الصـفراء؛ وكمـا تهضـم المعـدة الغـذاء؟ ألسنا نشترك مع الحيوانات في جميع ضروب النشـاط الحسـي ثم نتمـيز عنهـا بـالتفكير؟ أفلا يكـون التفكـير من البسـاطة والوضوح حين نقول أنه يُمَيِّزُنا عن سـائر الحيوانـات، فلا يحتـاج بعد ذلك إلى تحديدٍ أو تعريفٍ ولا فنٍ أو مهارة، أم أن الفلاسـفة يأبون إلا أن يثيروا المتاعب والمشـكلات أمامنـا حـتى في هـذه المسائل الواضحة؟ بهذا السيل الجارف من الاعتراضات أتخيـل القـارئ المبتـدئ متـدفقاً بمجموعـة من الأسـئلة حين يطـالع التعريف السابق للمنطق، فليس أبسط عنـد النـاس من عمليـة التفكير؛ فهي طبيعية وتلقائية شأنها شـأن غيرهـا من العمليـات الفسيولوجية الأخـرى، بـل حـتى موضـوع التفكـير نفسـه يجـدُهُ النـاسُ بنفس السـهولة الـتي يجـدون بهـا مـا يسـدون رمقهم!، وهكذا ينتهي أصحاب هذه الوجهة من النظر إلى أن كـل إنسـان

منطقي بالطبع، أو أن كل إنسان عالم منطق، أو هـو على أقـل تقدير يسير في حياته متبعاً قواعـد المنطـق دون أن يـدري أنـه بالواقع أبعد ما يكون عن المنطـق! (مثـل الـذي طلب من أحـد أقربائه أن يكتب له خطاباً غرامياً يرسـله إلى محبوبتـه، فسـأله القريب إن كان يريد الخطاب شعراً أم نثراً، والتبس الأمـر على الطالب -وكان أُمِّياً -فسأل الكاتب عن معنى النثر؟ فلمـا عرَّفَـهُ له، تعجب لأنه اكتشـف أنـه قضـى من حياتـه أربعين عامـاً كـان فيها يتكلم النثر وهو لا يعرف ذلك)[1]

فلئن كـان النـاس يفكـرون تفكـيراً طبيعيـاً كما يـأكلون ويشربون، إلا أن هذا شيء والتفكـير المنظم المنسق وأعـني به التفكير السـليم، فهو شـيء آخر يختلف عنه أشد الاختلاف، فالفكر لا يميز الإنسان عن الحيـوان فحسـب، بل يمـيز أيضـاً بين إنسان وإنسان، وبين شعب وشعب، وبين أمة وأمة، وبين عصر من عصور التاريخ وآخر، فهنالك مسـتويات من التفكـير ولكن بعض هـذه المسـتويات يعـبر عن مكانـةٍ عُليـا، في حين يعـبر بعضُـها الآخر عن مكانـةٍ دنيا من تقـدم الإنسـان، أي أن بعض الأفكـار فاسـدة وبعضـها صـحيح، وبعضـها مضـطربٌ مهوش، وبعضـها سـليم منسق متسـق، ويمكن أن نوضح ذلك في المثال الآتي فعلى الـرغم من أن كل إنسـانٍ يسـتطيع أن يلعب الكرة (لعباً طبيعياً) إلا أنَّ إجادة هـذه اللعبة وغيرها من الألعابِ يحتاج إلى تدريبٍ ومـران وجهـدٍ شـاق، وهـذا ما نعنيه أحيانـاً حين نقـول إن كـرة القـدم فن، فمن العبث إذاً أن نفـترض أن التفكـير لا يحتـاج إلى مهـارةٍ خاصة فالنـاس بلا عقـولٍ مدربة على التفكـير الصـحيح مثلهم مثل الـذين يمارسون حرفة ما دون أن يكونوا قد اتقنوا المهـارات اللازمة لتلك الحـرف أو الصـناعات وبالتـالي من الطـبيعي أن تتوقع منهم أن لا يجيـدوا حرفية هـذه الفنـون والمهـارات، إن هنالك فئـات كثـيرة من النـاس في مجتمعنا لا يعلمـون شـيئاً عن التفكـير الواضح الصـحيح، ولا يعتقـدون أن التفكـير يمكن أن يكـون فنّـا؛ وكيف يمكن أن يكـون كـذلك؟ مع أنَّ التفكـير الواضح نفسه عملية سهلة وبسيطة وطبيعية يمارسـها النـاس بغير عنَتٍ أو إرهاق؟

وهـذا الاعتقـاد يفسر لك إلى حـدٍ كبـير أسـباب تخلفنا في ميدان الفكر، وفي جميع الميادين التي تحتاج إلى جهدٍ عقلي، فما عليك إلا أن تربط هـذا الاعتقـاد بما يعشش في أذهـان النـاس العـرب المسـلمين من خرافـات وأباطيل وما يملأ

[1] (?) وَرَدَ هذا المثال في مسرحية (البرجوازي المهذب) لموليير. عن كتاب مدخل إلى الفلسفة، إمـام عبد الفتـاح إمـام. دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة1990.

رؤوسهم من تفكير مهوَّش مضطرب نتج عن عدم إيمانهم بأنَّ التفكير فن له أصوله وقواعده، وأنه يحتاج إلى جهودٍ تبذل...

وأنَّ الإنسان لكي يفكر تفكيراً منطقيّاً سليماً، فليس يكفي أن يترك نفسه على سجيتها، بل لا بدَّ له من أن يتدرب على هذه القواعد، وأن يتعلم أصول التفكير النسقي المنظم، لذلك رأى (ديكارت) ان أوضح الحقائق لكي يؤكد وجوده هي أن يقول الإنسانُ (أنا أفكر)، ولكنه كان يعلم تمام العلم أن الناس أثناء تفكيرهم سيقعون بالأخطاء والخلط والاضطراب، فحاول وضع قواعد التفكير المعروفة لهداية التفكير من الزيغ والانحراف.

ولكن في أوربة وفي عصر النهضة حدثت ثورات، طالبت بتغيير المنطق الأرسطي، الذي كان سائداً في أوربة لعصورٍ خلت وكان يعتمد على (المنطق الصوري)[1] وقامت على أساس منطق الاتساق الذاتي، الذي أخذ أساساً عن العرب وبالتالي عن القرآن العظيم (لقد استمر العالم وأوربة

---

[1] (?) وقد عرَّف الفارابي (المنطق) بأنه مجموعة من القوانين التي تستخدم في امتحان المعقولات كما تستخدم الموازين والمكاييل في قياس الأجسام، ويقول ابن سينا: (أنه العلم الذي يطلب ليكون آلة قد جرت العادة في هذا الزمان وفي هذه البلدان أن يسمى المنطق) ويقول الغزالي: (إنَّ المنطق كالمعيار والميزان للعلوم كلها، وكل ما لم يوزن بالميزان لا يتمييز فيه الرجحان من النقصان ولا الربح من الخسران).
ويعرفه (عمر بن سهل الساوي) في كتابه (البصائر النصيرية في علم المنطق): بأنه قانون صناعي عاصم للذهن عن الزلل، يميز الصواب عن الخطأ، ص5 مكتبة صبيح القاهرة 1316هـ
بينما تعريف الأكويني يقول: أنه فن يقودنا بنظام، وبغير خطأ في عمليات العقل الاستدلالية، أما في العصر الحديث فهو: الفن الذي يقود الفكر في معرفة الأشياء سواءً حين يتعلمها أو حين يُعلمها لغيره.
أو هو (علم قوانين الفكر) أو هو العلم الذي يبحث على وجه الخصوص في تحديد الشروط التي تبرر لنا الانتقال من احكام صحيحة إلى أحكام تلزم عنها، أو أنه (علم البرهان) أي استدلال قضية عن قضية، أو هو يبحث في طبيعة القضايا وما بينها من علاقات،
والواقع فإن المنطق هو العلم الذي يدرس الفكر بما هو وأياً كان موضوعه، ولهذا يمكن القول بأن المنطق هو أبو العلوم جميعاً، وقد جعله أرسطو المدخل الأساسي للعلم واشترط دراسته قبل دراسة أي فرع من فروع المعرفة. والقوانين التي يضعها المنطق هي قوانين للفكر البشري كله أياً كان موضوعه، فإذا كانت العلوم المختلفة تقتطع من العالم شرائح لدراستها فإنها لا بدَّ أن تقدم لنا في النهاية نسقاً من المعلومات أو من المعارف يخلو من التناقض، فعلم الفلك وعلم الطبيعة، والبيولوجي، إلخ.. لا بدَّ وأن يأخذ بقانون الهوية أي لا بد أن يكون تفكير العلم متفقاً مع هذا القانون ثم لا بد أن يخلو من التناقض سواءً في المعلومات التي يقدمها أو مع المعلومات التي تقدمها العلوم للآخرين، إنَّ المنطق لا يخلق موضوعه، إنه لا يخلق الفكر، أي أن موضوع المنطق قائم وهو يدرسه دون أن يبدعه.

حضارياً من قبل، على وتيرة واحدة آلاف السنين، فلولا نزول القــرآن العظيم وبالتــالي الفتوحــات العربية الإســلامية، لما حدث وتوالى هذا التطور المطرد في جميع أنحاء العــالم وفي جميع المجالات).

وبـــدأ تيـــار جديد يـــدعو إلى الاتســـاق مع الطبيعة لا مع الكنيســــــة، ولا من خلال الكتب المقدسة بل مراجعتها على ظـــواهر الطبيعة عن طريق الملاحظة والمشـــاهدة واجـــراء التجارب، وبالتالي أصبح (الصدق) لا يعني الاتساق الذاتي (أي ترابط الفكر مع نفســه) بل التطــابق مع الواقــع، ولقد أطلق على هـذا التيـار الجديد اسم المنطق الاسـتقرائي[1] (في حين كان من المفروض أن يكون المطلب هو الاتساق مع الحق).

وأخيراً فإن المنطق هو ميزان الكلام الضروري للفهم عند العقلاء والذي يجب ويُشَدَّ وأن يضبط باستمرار.

والمنطق يقول: أنه يجب ألا تجعل نفسك كفرد وكمجتمع، أبداً تحت طائلة الحاجة أو الاضطرار. وأن تعمل جاهـداً وقـدر المستطاع لتصل إلى حالة تكـون فيها مسـتغنياً عن الآخـرين، أيــاً كـانوا ومن جميع النــواحي، إنَّ الكفاية والاسـتغناء إلا عن الله سبحانه وتعالى بوابة أي نصر.

---

1 (?) محاضـرات في المنطق إمــام عبد الفتــاح إمــام. دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة 1992.

الجدل

بينما الجـدل أو الجـدال وهو بمعـنى الرغبة في الـدفاع عن الرأي، أو لنشر رأي، وفي نفس الـوقت لـدحض الآراء الأخـرى؛ أي اجراء النقاش أو الحوار الايجابي، ويتضـمن (الـرأي) والـرأي الآخر، أو الرد عليه، وتتعـدد الآراء بتعـدد الأصـوات، فكل من له صوت أو قدرة على الكلام من الطبيعي أن يكون له رأي! ولكن ليس بالضروري أن يكـون هـذا الـرأي صـحيحاً أو حقيقيـاً [1]، إذ يجب أن يُحَكَّم هــذا الــرأي أو تلك الآراء بالنتيجــة، جميعها إلى جهة ثابتٌة مضــمونة على المــدى في الزمــان والمكــان ولــديها (الحق)، وإلا فستعم الفوضى وسيكون الضياع ولن يكون هنالك نتيجة أبداً.

والنقاش والحوار مطلوب دائماً ووارِدٌ ويجب يكون شـائعاً في جميع الأوساط الثقافية والعلمية والفكرية، وعلى كل المستويات، وذلـك في جميـع القضـايا الحياتيـة والوجوديّـة، وهـو دليـل عافيـة وكمـال في الوجـود، قـال تعـالى ﴿ ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَـنَةِ وَجَـادِلْهُمْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحـل: 125]، ولكن لا جدال في الحق، ولا جدال فيما هو نازلٌ من السماء، مقررٌ في كتاب الله تعالى، لأنه وحـدهُ يشـكل المرجـع والمـيزان الأساسـي والمسـطرة الـتي سـنقيس عليهـا، والـتي لا تحيـد ولا تنـام، إنـه البوصلة التي ستهدينا وسط هذا البحــر المتلاطم من المقترحـات والأوهـام وتنـوع الآراء والنظريـات والأفهـام، وهـو أي (القـرآن العظيم) يشـكل الرافعـة الـتي من مهامهـا رفـع الأنسـان ورفـع مستواهُ إلى الأعلى ومنعه من الهبوط، فكيف إذا أنـزلت الرافعـة إلى تحت ووضعت في موضع صارت فيه (الرافعة) تحتاج فيه إلى رفع؟

والمعــروف أنَّ لكل إنســان قــادر على النطق أو على أيَّ شـكلٍ من أشـكال التعبـير فـإنَّ له بطبيعة الحـال منطـق، بل ويجبٌ أن يكون لدى كل إنسان منطق خاص به، يستطيع ابدائه والإدلاء به في الظروف المواتية، وفي بعض الأحيان فرضه على الآخرين ولكن كيف نعرف وكيف نميِّز الصح من الخطأ، والخـير

---

1 (?) فكم وكم من الآراء والنظريات والقواعد والقوانين التي ارتآها النـاس (العلمـاء والمنظـرين) وفُرِضَـتْ وطُبقتْ على المجتمعـات والـدول في ظروف معيَّنة، ثم ثبت فشلها وتبين أنها ليست صحيحة والأمثلة على ذلك كثيرٌ، انطلاقاً من الاعتقـاد بعـدم دوران الأرض! إلى النظرية النسـبية إلى الأفكار الماركسية والوجوديّة والتبريريّة، الـتي انهـارت في معظمها ولكن بعد سنين من العذاب.

من الشـر، والجمـال من القبح، والنـور من الظلام، والعلم من الجهل، والمسـتقيم من المعـوج، والنفع من الضـرر، والحق من الباطل، والعروبة من العجمة، كيف نفرز بينها؟

والواقع فإنَّ لكل عمرٍ منطقه وأسـئلته النسـبيّة المفروضـة (فللطفولة منطقها وللسنّ المتقدمـة منطقهـا) إذ من الطـبيعي أن يسأل كل إنسانٍ يـأتي إلى هـذا العـالم في كـل مرحلـةٍ من مراحل حياته أسئلةً معينة - إذا كان يميل إلى التفكير - ؛ ومهماً كانت هذه الأسئلة فهي أسئلة مشروعة وطبيعيّة، وستكون دليلاً على وجـود وعمـل العقـل والفكـر لـدى هـذا الإنسـان، فهنالـك أسئلةٌ للصـغار لابـدّ أن يسـألوها، تـترتب عليهـا أجوبـة للصـغار! وهنالـك أسـئلة للكبـار أكـثر تعقيـداً، وبالتـالي يجب البحث عن أجوبة للكبار تليق بعقول الكبار، وهي تتوارد على خاطره (لكـل الإنسان) وتفرض نفسها عليه دون إذنٍ منه، إنها في هذه الحالة أسئلة طبيعية منطقيّة، وهي حالة مهمـة ومرحلـة يجب أن يمـرَّ بها كل إنسانٍ سينمو نمـوّاً طبيعيـاً؛ والـذي ينمـو ويكـبر دون أن يسأل أو تنبع من عقله تلـك الأسـئلة (الداخليـة) والـتي سـتعتبر عند الأطفال دليل حركة عقلية وفكرية ايجابيـة، والطفـل الـذي لم يسأل (لسبب ما) أي سؤال فإنه على الأغلب سـيكون لديـه في المسـتقبل مشـكلة أو مشـاكل معقّـدة في منطقـه أو في القدرة على التمييز والتفريـق، أو محدوديـة في التَفَكّر والتأمُّل، فهو على الأغلب سيكون غير قادر المعالجـة أو الفهم الصـحيح، وهـذه الأسـئلة البدائيـة لـدى الأطفـال ضـرورية، وهي بمثابـة الصرخة الأولى التي يصرخها الطفل المولود حديثاً عند الـولادة، والطفل الذي لا يصرخ أو لا يبكي عنـد الـولادة يعتـبر طبيّاً غـير طبيعي ولديـه مشـكلة! وكمثـال على أسـئلة الطفولـة الصـحيّة والطبيعيّـة، السـؤال الـذي يقـول من هـو الأول الدجاجـة أم البيضة؟ وإذا كَبُرَ الشخص عفَّ أو تجاوز عقلـهُ عن طـرح هكـذا سؤال، ومثلـه تمامـاً سـؤال يسـأله عـادة الأطفـال جميعهم في مراحل معينة، إذا قيل لهم: أنَّ الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكـون الواسـع وهـو خـالق كـل شـيء، فـإنهم يبـادرون فـوراً للسـؤال: ومن خلـق اللـه؟ ثمَّ يسـألون من أين أتينـا وإلى إين ذهب جدي وجدُّ جدي؟ وهذه الأسئلة صحيّة وطبيعيّـة، ولكنهـا لا تستمر عند الإنسان الطبيعي، لأنَّ الإنسان الطـبيعي المفـروض أنه كلما كبُـرَ، كَبُـرَ عقلـه، واتسـعت مداركـه، وصـار أقـدر على الفهم والاستيعاب والتصوُّر، وبالتـالي أغلـق شـيئاً فشـيئاً وذاتيّـاً تلك الثغرات أو الفراغات العقليـة والفكريـة الطفليـة والبدائيـة، ليمتلـك الـوعي والادراك والعلم، وكـل إنسـان في العـالم - في مرحلـة من مراحـل عمـره الأولى - يجب أن يسـأل مثـل هـذا السؤال؛ وهو (كل إنسان) إن لم يسـأل مثـل هـذا السـؤال في

المراحل الأولى من حياته، يُعـدُّ خـاملاً ولديـه تخلـف أو مشـكلة في قدراتـه العقليـة والنفسـيّة، ونحن علينـا أن نُجيب وأن نجـد الأجوبة المناسبة لمثل هذه الأسئلة البدائيّة.

والكارثة هي أن يكبُرَ الإنسان، وتتبقى لديه أسئلة الصغار، يحملها معه حـــتى الممـــات! دون أن يعي أو أن يفهم، بينما نعمل على فهم القرآن العظيم فهمـاً صـحيحاً، ولكن لا جـدال في الباطل، ولا جدال مع أو عن الخونـة، ويكـون الجـدال عن علمٍ وهدىً وبالتي هي أحسـن. قـال تعـالى: ﴿ مَا يُجَـادِلُ فِي آيَـــاتِ اللَّهِ إِلا الَّذِينَ كَفَـــرُوا فَلا يَغْـــرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴾ [غافر: 4] فمن الجدال ما هو عقيم، والله أعلم[1].

وقد سمعت بعضهم يقـول: (إنَّ القواعـد والقـوانين وجـدت لكي تنكسـر وتتحطم ولكي تـزول)[2] ! ولكن أيـة قواعـد وأيـة

---

[1] (?) إنَّ من المهم جـداً من حيث المبـدأ أن يكـون لـدى كل إنسـان منطق ورأي خاص به يستطيع أن يدلي به وأن يدافع عنه بالحجج والـبراهين، وهـذا دليلٌ على النمو والكمال الشخصي والتمام الفردي والقدرة والامكـان، قـال تعالى: ﴿ لَقَـدْ خَلَقْنَا الإِنْسَـانَ فِي أَحْسَـنِ تَقْـوِيمٍ ﴾ [الـتين: 4]، ولكن ليس بالضروري من حيث النتيجة أن يكـون كل انسـانٍ يمتلك الـرأي الحق والصح والنـافع والجميـل، لأنَّ الإنسـان عمومـاً وبطبيعة الحـال ــ لديه أيضـاً أهـواء ودوافع وأطماع وضعف ونوم وحاجات كثيرة اضطرارية لا يسـتطيع الصـمود فيها أو البقاء على حال! والله تعالى هو وحده البـاقي قـال تعـالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَـوْمٌ لَـهُ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْـدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِـهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَـاءَ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: 255]

لذلك قال تعالى عن الانسان: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْـفَلَ سَـافِلِينَ ﴾ [الـتين: 5]، ولكن المؤمنين من الناس يلتزمون دائماً بأوامر الله تعالى ويرجعون إليها ولا ينحرفون، قال تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْـرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: 6].

[2] (?) الفرق كبير جداً بين (مفهوم الحق) والـذي كـان قد نـزل من السـماء وحدوده وأحكامه التوقيفية الموجـودة في الكتب السـماويّة، وبين مفهـوم (القـانون الوضـعي) والـذي وضـعه ويضـعه الإنسـان (الفـرد أو المجتمـع) لتسـيير وتسـهيل مصـالحه الآنيـة، وحل مشـكلاته الاجتماعية المحليـة، والتغلب على التعــارض، أو التضــارب بين مصــالح النــاس وأهــواءهم؛ ولتنظيم وتوفيق المصـالح والمعـاش بينهم وتجـاوز العقبـات الناجمة عن تصـادم الرغبـات المحتملة بين النـاس في فـترة ما من الفـترات، ونحن نقول قانون الملك الفلاني أو قانون الفقيه الفلاني، وهو بالتالي (القانون) قابل للتطــوير والتحــديث والتبــديل، ويجب أن يكــون قابل للتحــديث والتطوير والتغيير والتبديل؛ ونقول قانون السير وقانون الإيجـار والقـانون المؤقت؛ إلخ... لـذلك فـإنَّ اليابـان مثلاً والـتي كـانت في يـومٍ من الأيـام أحرص الدول على تطبيق قانون السير والالتزام بـه، وخصوصـاً إشـارات المرور، وكانت تعـاقب على تجاوزها بأشد العقوبـات؛ ثم جـاء يـوم كـانت اليابان تحتفل فيه بإلغاء آخر إشارة مرور في (طوكيو) فتأمّل وهـذا مثـال على إمكانية وقابلية تحديث وتطوير وتبـديل القـانون الوضـعي، فهو ليس منزّل، بينما الشرع الرباني والذي نزل من السماء ثابتٌ وهو حياديٌّ وغـير منحـاز، ولا يتـأثر بـالأهواء والمصـالح ولا يـراعي أحد لأي سـبب كـان، إنه الحق من الله سبحانه وتعالى، قال تعـالى: {اللَّهُ نُـورُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

قوانين، هي المقصودة، وإلى أيَّ مجتمع هذا القول موجــهٌ وإلى أيّ مرحلة من المراحل وإلى أيَّ جيل؟ للكبار أم للصغار؟ وهــل كان المقصود في هـذا المقـال القواعـد والقـوانين الوضـعيّة إذا كان كذلك فحيَّهلاً؛

مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَـوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِــيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُـورِهِ مَنْ يَشَـاءُ وَيَضْـرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ} [النـور: 35]، والشـجرة المباركة الزيتونة والتي لا هي شرقية ولا هي غربية (غير منحازة) هي شـريعة الله تعـالى الدائمة والمســتمرّة قــال تعــالى: {وَيَبْقَى وَجْــهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: 27] وعادة ينسب (القانون) لواضعه، فتقول القانون الإنكليزي والقانون الالمـاني والقـانون الامـريكي، القـانون الفرنسي (في فرنسة يُعْـرَفُ كل قـانون باسم الشـخص الحقـوقي الـذي اقترحـه) بينما يبقى الشرع شرع الله تعالى هو المسـطرة والمكيـال والمـيزان والمرجع الاساسي والذي لا بدَّ منه، والذي سـيرجع إليه النـاس جميعـاً في مختلف البقـاع وعـبر العصـور، وإلا لكـانت قد الفوضى العارمة ولسـاد الظلم في العـالم، وعمَّ الخطأ وانتصـرت أهـواء ومصـالح الأقويـاء أصحب السـلطة والمال، وهنالك مثال رائع عن (القانون الانكليزي) وكان قد صدر عن إحـدى المحـاكم في (انكلـترا) يدرسه طلبة القـانون في العـالم كمسـألة ومـدخل لدراسة القانون، وهو: أنَّ سيارة في لندن مرت مسرعةً على اشـارة مـرور وكـانت خضـراء؛ وقد صـدمت شخصـاً، وفي المحكمة ثَبُتَ شـكلاً أنَّ تلك السـيارة كـانت قد مــرت على الإشــارة وكــانت خضــراء فعلاً، وعــادة وبالقـانون العـالمي فـإن من حق السـيارة المـرور والسـير على الاشـارة الخضراء، ومع ذلك فإنَّ القاضي أصدر حُكمَهُ عن المضمون بإدانة السائق بجريمة القتـل! وقد أثـارَ هـذا الحكم في حينه جـدلاً واسـعاً، ثم جـاء في التوضيح ما يلي: صحيحٌ أن من حق السـائق مسـتخدم الطريق وبالقـانون أن يســير ويعــبر عنـدما تكـون الإشــارة خضــراء...، ولكن ليس من حقه والقانون لا يبيح له بأيٍّ حال إزهاق أرواح الآخرين.

والشخصية الملتزمة تتكلم بهدوء وتبدأ حديثها بالإثبات، وتبتعد عن النفي، لأنَّ الذي ينفي باستمرار يضع نفسه في دائرة الشك، والقوي لا يحتاج إلى النفي بل إلى التأكيد؛ إنه يستخدم في حديثه صيغة المضارع ويبتعد عن التسويف!

كذلك فإنَّ الشخصية الايجابية منبعٌ للقوة ومجللة بالحياء، وهي تؤمن أنه لا توجد ضمانات في الحياة العملية، ولكنها تبحث عن الفرص، وتعرف كيف تقول كلمتها في الوقت المناسب.

أبعد ما تكون عن التسلط السمج؛ كريمة وشجاعة تقدم التضحيات، حازمة من غير تجهم، متعاونة إلى أقصى الحدود غير غادرة، تبذل قصارى جهدها مع الاحتفاظ بالتوازن، فاعلة في المجتمع ولها حضور إيجابي على الدوام، وفي نفس الوقت ومن خلال ما تتمتع به من الثقة بالذات، فهي هادئة غير مطربة ولها قدرة ذاتية على التحكم الذاتي، وامكانية التوصل إلى الحلول.

لذلك فهي تقبل الاختلاف بالرأي عن طريق الحوار دون أن تحيد عن الحق، وهي تعمل باستمرار على تصحيح سلوكها الشخصي لجعله في أكمل حال. وتبدأ بالعمل التمهيدي، وليس لديها في قاموسها الشخصي كلمة لا أستطيع، ومعلومٌ أنه بحسب قوانين الطيران فإن (النحلة) لا يمكنها الطيران؛ لأنَّ حجمها وثقلها بالنسبة إلى رقة وحجم جناحيها فإنها وبناءً عليه المفروض أن لا تستطيع الطيران، ولكنها لا تعرف ذلك؛ لذلك فهي تطير ببساطة، لأنها تبذل قصارى جهدها، والشخصية الايجابية تستطيع فعل كل ما هو عظيم وإن بدى أنه مستحيل، لأنها ترى أنها تستطيع فعل ذلك، وصاحب الشخصية النبيلة يتحدث بطلاقة وهو يستمع لكلام الآخرين، بانتباه، وهو يدرك أن كل إنسان لا بد أن يتعرض في حياته إلى مزيج متكافئ من المديح والاستهجان؛ وبالتالي فإن عليه إن يتجاوز عن كثيرٍ من المواقف للأشخاص غير المهمين أو الذين ليسوا على مستوى النقد، وهو لا يكترث للسطحيين، باختصار فإن الشخصية الرائعة والعظيمة نشيطة بعيدة عن البلادة والخجل السلبي؛ وتحتفظ دوماً بالسلوك الراقي المهذب، عالي الانتباه، وفي قمة الوعي.

إنَّ لكل إنسان تجربته الخاصّة، أدبية أو فكرية، نظرية أو عملية، واقعية أو متخيّلة، فبدل أن تذهب هذه التجارب

هباءً منثوراً، لتضيع في مطـاوي الـزمن والنسـيان، المفـروض بل من واجب الشخصــية النبيلة أنَّ تحــاول بشــتى الطــرق، أطلاع الآخرين في المجتمع على تجربتها ونشـرها، لاسـيما إذا كــانت ذات مغــذى أو معــنى، المفــروض أن نحــاول إغنــاء المجتمع والنـاس الآخـرين وإضـافة تجاربنا إلى تجـاربهم، إن الاطلاع على التجارب تغني وتعين وتقوي وتساعد على الـدفع والنجاح، يجب أن تكون حيواتنا ذات مغذى ومعنى!

ســؤال جميل بقي في ذاكــرتي، قــال لي أحــدهم وهو يصافحني، ويده في يـدي: إذا كـان لـديك مئة دولار، وأنا لـدي مئة دولار، وتبادلنا فمن الذي يربح أكثر؟ فقلت على الفور: ما أحد سـيربح، فقـال: صـحيح؛ ولكن إذا كـان لـديك فكـرة، وأنا لــديّ فكـرة، وتبادلنا الأفكـار فمن الـذي سـيربح؟ قلت على الفــور نحن الاثــنين ســنربح معــاً؛ فقــال لي نعم، وشــكرني وذهب، والواقع أن عناصر هذا الكون متكاملة بطريقة عجيبـة، ما يجب على الناس فهمه وتأمله، وأن الحيوانات بــالواقع هي نباتـات ولكن تسـتطيع التنقل والتحـرك فهي غـير ثابتـة، بينما النباتــات بالفعل هي حيوانــات ولكنها ثابتة لا تســتطيع التنقل من مكانها، والنباتات تتـدرج في مسـتوى التفاعل مع الكـون، فهناك نباتات تصطاد بنفسها، وكذلك فــإنَّ الحيوانــات متفاوتة وتتدرج في ذكائها وفي مدى تفاعلها مع بيئاتها، وفي الانــدماج في الحياة.

إنَّ الحوار والمواظبة على الاطلاع، والقراءة الواعية تُقوِّم التفكـير وتُرشـده، وكـذلك الرؤية الواعيـة، وتنشـيط الـذاكرة وتحميلها بالإيجابيات؛ فهي تبعد الشخصــية عن البلادة الفكرية وتكسبها آليات البقاء لتستمر صامدة.

والعــرب تفــرق بين (مفهــوم القامــة) و(مفهــوم الهامــة)، فالقامة هي الجسم المــــادي بطوله وعرضه ومواصـــــفاته المحسوسة والملموسة، أمّا الهامة فهي الكيـان غـير المـرئي أو غير المادي، إنها الذات من الداخل، أو الشخصيّة الــتي تملأ القامة وتقومها؛[1]

---

[1] (?) وفي لســان العــرب لأبن منظــور أن العــرب تقــول: أن الهــوام الرُّوحـانيون وهم الملائكة والجنّ الـتي ليس لها أجسـام تُـرى، وقيـل: من ذوات الأرواح خاصـة. وأن رُوح القتيل الـذي لم يُـدْرَك بثـأره تصـيرُ هامَة فتَزْقو عند قبره، تقول: اسقُوني فإذا أُدْرِك بثأره طارت؛ وكـانوا يقولـون: إن القتيل تخرُج هامةٌ من هامَته فلا تزالُ تقول اسْقوني حتى يُقتل قاتِلـه؛ ويقال: هذا هامةُ اليوم أو غـدٍ، أي يمـوت اليـومَ أوغـدٍ؛ وفي الحـديث: أن النـبي، صـلى الله عليه وسـلم قـال: لا عَـدْوَ ولا هامـةً ولا صَـفَرَ؛ الهامَـة: الـرأس واسـمُ طـائر، وهو المـراد في الحـديث، وقيـل: هي البومـة. أبو عبيـدة: أما الهامَـةُ فـإن العـرب كـانت تقـول إن عظـام المـوتَى، وقيل أرواحهم، تصير هامَةً فتطير، ابن الأعرابي: معنى قوله لا هامَـةَ ولا صـفَر:

إنَّ القامة هي الحالة المادية التي تُجسِّد الهامة (الدخيلـة) ومنفـذها إلى عـالم الوجـود، بينما (الهامـة) هي الحالة غـير المادية المعبـأة داخل القامـة، وفي المعجم أنَّ الهامة رأس كل شـيء، بينما القامة تشـير إلى طـول الإنسـان وغـيره، والقوام حُسْنُ الطول، والقامة جماعة النـاس، وفي الصحاح: أنَّ الهامة والهيمنة السـيطرة وتـولي الشـيء والاحاطة بـه، والمُهَيْمِنُ الشـاهد المحيط بـالعلم، وهو أيضـاً من آمّنَ غـيرَه من الخوف، والهَمْهَمْةُ ترديد الصوت في الصـدر، وهو الصَـدى والجمع هامٌ، مفهـوم معنـوي، والعظيمة الهامـةِ الـتي لا يراها أحد إلاّ هام بها وأعجبته، وليل أهيم غير واضح، ولا يهتال أي لا يحتالَ لنفسه، وقامةُ الإنسـان وقَيْمَتُه وقَوْمَتُه وقُومِيَّتُه وقَوامُه شَـطاطُه؛ فهي الهامة مفهـوم معنـوي غـير مـرئي، فـالفكر كمَلَكـةٍ أو كعقلية أو كمقـدرة على الفهم (الإنسـان يميل إلى فهم الأشياء التي يُحبها، بينما يكـره الأشـياء الـتي لا يفهمهـا)، دلالة على المعرفة الشـاملة، والمعلومـات والاسـتخبارات، أو الأكـثر ذكـاءً أو امتلاك قـدرات عملية للـذكاء والثقافـة، إنه نقـــاش سياسي عقلاني مبـــني على التنظـــير، فيه حيادية وإيجابيـة، وفيه رزانـة، إنه القيـام بالجهد الفكـري، والإنتـاج المباشر في مجال التكنولوجيا وغيرها.

وهو يتميز عن العمـل في المجـال المجـرد ذهـني طـبيعي (الذكاء)، كالإدارة والتوزيع والتنظيم الروتيني في شتى مجالات الحياة، إنه المعرفـة المنظمـة لإصـدار الأحكـام بخصـوص أمـور عامـة، إنـه إدارة المعرفـة، وليس فقـط مـا يـدور حـول علاقـة المثقفين بالنظـام الاجتمـاعي العـام والقـائم، فهـو مبـني على الوعي المشترك وعلى معرفة الشيء بالمشاركة مـع الآخـرين، والشـعور الـذاتي المتبـادل للمجموعـة، إنـه الـواعي بالـذات والادراك الـذاتي، فـالمفكر متأمـل وواعي بطريقـة فاعلـة، لأنَّ الوعي واللاوعي طريقتين موجودتين في النشاط البشـري، بين

كانوا يتشـاءمون بهمـا، معنـاه لا تتشـاءموا. ويقـال: أصـبَحَ فلانٌ هامـةً إذا مات. وبناتُ الهام: مُخُّ الدِّماغ؛ وهامَةُ القوم: سـيِّدُهم ورئيسُـهم والهامـةُ: جماعةُ الناس، والجمع من كل ذلك هامٌ؛ وقيل: هو الصَّـدى، والجمع هـامٌ؛ وفي لسان العرب أن الهيام الهيام فـرط العشـق،. وفي حـديث عكرمـة: كان عليٌّ أَعْلَمَ بالمُهَيِّماتِ؛ يقال: هامَ في الأمر يَهيم إذا تحيّر فيه، ويـروى المُهَيْمِنات، وهو أيضـاً الـذاهبُ على وجهه عِشْـقاً، هـامَ بها هَيْمـاً وهُيومـاً وهِياماً وهَيَمانـاً وتَهْيامـاً، وهو بنـاءٌ موضـوعٌ للتكثـير؛ ورجل هَيْمـانُ: مُحِبٌّ شديدُ الوَجْدِ. هامَ على وَجْهِه يَهيمُ هَيْماً وهَيَماناً ذهبَ من العِشْقِ وغـيره. وقلبٌ مُسْـتهامٌ أي هـائمٌ. والهَيَمَـانُ الاهتمـام، التَّهيمُ أحسَـنُ المشـيِ؛ المُهْوَأَنُّ: المكانُ البعيد ابن سـيده: والهامـةُ طـائرٌ يخـرج من رأس الميّت إذا بَلِيَ، والجمع أيضاً هامٌ.

القامة: القامةُ جماعة الناس. والقامةُ أيضاً: قامةُ الرجل. وقامـةُ الإنسـان وقَيْمَتُه وقَوْمَتُه وقُومِيَّتُه وقَوامُه: شَطاطُه؛

المبـــادرة والتحكم من جهـــة والعفويـــة وعـــدم القـــدرة على المبادرة، فاللاوعي موجودٌ تحت أنـواع من الكبت (الـديناميكي) الممـارس بطبيعـة الحـال من الإدراك (الـوعي) ذاتـه، ويمكن تقديمه للوعي من خلال تقـديمها للشـعور والتأمـل، عن طريـق تقنيات خاصة، ومن خلال عمـل خضـوعها للتحكم الارادي الـذي سيحد منها ويمنعها تلقائياً! إن ما أصبح واعياً كان في لحظة مـا في مجال اللاواعي (اللاوعي الجمعي خصلة بشرية تسبق دائماً الإنسـان المولـود في هـذه الحيـاة في الـوقت والاهميـة)[1] وإن كان ذلك خفياً ولكن اللاوعي المصدر الأساسي للأفكار المولـدة والأحاسـيس، قـال تعـالى: ﴿ يَـا مَـرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْـجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الـرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمـران: 43]، ففي الآيـة الكريمـة (السجود) وهو(للنفس) أي للـداخلي، الـذي سيسـبق (الركـوع) وهــو الحركــة الخارجيّــة الماديــة للجســم أي (للخــارجي) لأنَّ (مفهــوم الســجود) يعـني التهيئـة والاسـتعداد التـام والطاعـة والخضـوع النفسـي الـداخلي، والجاهزيـة التامـة لتنفيـذ جميـع الأوامـر الصـادرة عن الجهـة العُليـا، وهي هنـا اللـه ﷻ، ثم يـأتي (الركوع المادي والحـركي للجسـم) وهـو (الركـوع) حصـراً للـه تعالى، كتعبير خارجي عن السجود النفسي الداخلي التام.

إنَّ السجود منوطٌ بـ(الدخيلة) وهي النفس (الـذات)، بينما الركوع للخارجي وهو الجسم المادي المحسـوس والملمـوس والمـرئي، (التحيـات الطيبـات المباركـات لله تعـالى) اعلانـاً وتلبيـــةً وتعبـــيراً ظاهريـــاً ورســـالة للآخـــرين عن التســـليم والاستجابة الداخليّة[2].

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَـةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ [طه: 116]، وفي هذه الآية الكريمة أيضاً فـإنَّ السجود يعني الطاعة الكاملة والاستعداد التام لتنفيذ الأوامـر،

---

1 (?) (الكلمـات المفـاتيح ــ فكـر)، ريموند وليم، المركز الثقـافي العـربي بيروت 2007.

2 (?) كـانت الصـلاة تعـني في ما مضى تعـني إنشـاء الاتصـال المباشر بين العبد وخالقه أو الصلة أو العمل على فتح الخـط، وهي تعـني أيضـاً المـدد والتمكين والإمداد من الخالق عز وجل إلى العبد المتصل، ويكـون الـدعاء من العبد جـزءٌ لا يتجـزأ من الصـلاة، بل (الصـلوة) تعـني تحديـداً إقامة الاتصال في خط مباشر مع الله ﷻ ودون واسطة والله أعلم.
ولكنّ قصر معنى ومفهوم الصلاة على الدعاء، قد أعاق التفسير الصحيح، وأدخل الفكر والفهم في دائـــرة ضـــيقة ومغلقـــة، اضـــمحلت فيها الآراء وتلاشت بسببها التصورات وصَغُرَت الأفئـدة وتسـمّرت العقـول والأفكـار، بحيث انزلق البشر عن عظمة المـراد وارتـدوا أو تثّـاقلوا إلى الأرض. إن الصلاة في معناها الحقيقي تتطلب بذل الجهود، لأنَّ فيها ذهابٌ إلى الله ﷻ وعقد العزم، بينما عندما قصر معناها على مجرد الدعاء صار يمكن أداؤها في كل حين وبأيسر الجهـــود بل ويؤديها أي كـــان!. بحيث صـــارت عند البعض عبارة عن طقوس وعادات وتقاليد ومجالس، فهل هـذا هو المـراد من الصلاة (الصلوة)؟ راجع كتاب الحرب على الإسلام العربي، للمؤلف.

وهذا يعـني أنَّ الله سبحانه وتعـالى قد وضع الملائكة جميعهم وسـخرهم في خدمة آدم (الإنسـان) والملاحظ في هـذه الآية الكريمة أنه ليس المطلـوب الركـوع وإنما السـجود فقـط، والملائكة هنا (قوى الطبيعة والقـوانين المتحكمة بهـا) ما عـدا إبليس (وهو هنا إحدى هذه القوى) إذاً فالله قد سخر كل ما في هذا الكون في خدمة الإنسان، القوانين والمواد والكائنات الحية وحتى الشمس والقمر والهواء والبحار والأرض وكـلّ ما عليها كـان وقد وضع في خدمة الإنسـان ما عـدا قـوة إبليس، الذي أبى واستكبر عن هذه المهمة فرفض أن يكـون في هـذا الموضع(الساجد - المطيـع) للإنسـان، قـال تعـالى: قَـالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْـجُدَ إِذْ أَمَرْتُـكَ قَـالَ أَنَا خَيْـرٌ مِنْـهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [الأعراف: 12] على اعتبار أن ابليس كانَ يظنُّ أنه أرقى مرتبـةً من الإنسـان وهو لا يعلم، والله تعـالى أعلم.

وهنالك تعاريف للشخصية تؤكد على أنها (الصفة الممـيزة للشـخص، من هـذه التعـاريف (إيزنـك): (إن كل صـفةٍ تمـيز الشـخص عن غـيره من النـاس تؤلف جانبـاً من شخصـيته، فذكائه وقدراته الخاصة وثقافته وآرائه ومعتقداته كلها من مقومـات شخصـيته، لـذا نسـتطيع القـول بـأن الشخصـية هي جملة الصــفات الجســمية والعقلية والمزاجية والاجتماعية والخلقية الـتي تمـيز الشـخص عن غـيره تمـيزاً واضـحاً، بينما يشير (سـعد جلال) (محمد علاوي) بـأن (ألـبرت) وجد ما يزيد عن خمسـين تعريفـاً للشخصـية في ميـادين الـدين والقـانون والاجتمــاع وعلم النفس، وتؤكد بعض هــذه التعــاريف على المظــاهر الخارجية لهــا، بينما يؤكد البعض الآخر على طبيعة الإنســان وتكوينه الــداخلي أما الاتجــاه الأول في النظر إلى الشخصية فكثيراً ما يشار إليه بالتعريف المظهري للشخصـية فمن هـذه التعـاريف تعريف (واطسـن) بـأن الشخصـية هي جمــاع أنــواع النشــاط الــتي نلحظها عن الفــرد عن طريق ملاحظةٍ فعلية خارجية لفـترةٍ طويلةٍ كافية من الـزمن تسـمح لنا بالتعرف عليه حق التعـرف، أي أن الشخصـية ليست أكـثر من النتـاج النهـائي لمجموعة العـادات عند الفـرد، والاتجـاه الثاني يشار إليه بالتعريف الجوهري للشخصية فإنه يقوم على أساس نظرة رجال اللهـوة والفلسـفة والتشـريع تلك النظـرة التي كانت تتضمن الاهتمام بجوهر الفرد وطبيعته الداخلية.

ومن هذه التعاريف (بأن الشخصـية هي التنظيم الـدينامي داخل الفـرد، لتلك الأجهـزة النفسـية الجسـمية الـتي تحـدد سلوكه المميز وتفكيره، بينما هنـاك تعـاريف أخـرى تؤكد على

أن الشخصية هي توافق الفرد مع البيئة، أو أن الشخصـية هي التنظيم الدينامي داخل الفـرد لتلك النظم (السـيكو فيزيقيـة) فتعــني أن التنظيم عمل كـلٍ من الجسم والعقل في وحــدة شخصـيته، وكلما (تحـدد) يقصد بها أن الشخصـية تتكـون من ميولٍ محـددةٍ تلعب دوراً ايجابيـاً في سـلوك الفـرد ويتفق مع هــذا التعريف تعريف (وارن) في قــاموس علم النفس حيث يعرف الشخصية بأنها خصـائص الفـرد الأكـثر أهمية في تحديد توافقه الاجتمــاعي، كما يتفق أيضــاً هــذا التعريف مع تعريف بـرن بـأن الشخصـية هي تلك الميـول الثابتة عند الفـرد الـتي تنظم عملية التوافق بينه وبــني البيئــة، هنالك تعــاريف تؤكد التكامل والتمايز فيشـير (وارن) في قـاموس علم النفس إلى أن الشخصـــــية هي التنظيم المتكامل لجميع الخصـــــائص المعرفية والوجدانية والإرادية والبدنية للفـــرد من حيث ما هو متميز عن غيره من الأفـراد، كما يعـرف (شـويين) الشخصـية (بأنها الجهاز المتكامل أو الكلي) أو الوحدة الوظيفية للعـادات والاســتعدادات والعواطف الــتي تميــيز فــرداً عن الجماعة باعتبــاره مختلفــاً عن أي فــردٍ آخر من نفس الجماعة بينما يعـرف (ألـبرت) الشخصـية بأنها هي الـتي تتوسط بين الفـرد وبيئتهِ الفيزيقية والنفسـية خاضـعةً لها أحيانــاً ومخضـعتاً لها أحياناً أخرى.

وهنالك تعاريف أخـرى توضح بـأن الشخصـية هي محصـلة جميع الجوانب العقلية والجسمية والخلقية والاجتماعيــة، ومن هـذه التعـاريف تعريف (إزنـك) بأنها المحصـلة العامة لسـلوك الطاقة والعقل للإنســان كما تحــدده عوامل الوراثة والبيئــة، حيث تنمو وتتكامل من خلال التفاعل الـوظيفي الـذي يحـدث بين أربعة قطاعــات هامة تنظم سـلوك الفـرد وهي القطــاع المعرفي (الذكاء) والقطاع النزعي (الخلق)، وهو وثيق الصـلة بـالإرادة والقطــاع الوجـدان (المـزاج) والقطــاع الجســماني التكـــوين الجســـمي، كما يعـــرف الشخصـــية محمد فتحي الكرداني وآخرون بأن شخصـية الإنسـان هي ما ينمو ويتكامل من خلال تفاعل الكـــــــائن الحي بجميع خصائصه البيولوجية والنفسـية والعقلية مع ببيئته الـتي تتصف بالدينامية والتطـور والتغير المستمر.

ولقد عـــرف الشخصـــية (أحمد عـــزت راجح) بأنها جملة الصــفات الجســمية والعقلية والمزاجية ولاجتماعية والخلقية الـتي تمـيز الشـخص عن غـيره تمـيزاً واضـحاً) فهي اجتمـاع والتئام صفات الشخصية، والشخصية تعتبر الطريقة التي يبدو بها الفـرد للآخـرين، وأن كلمة الشخصـية تشـير إلى خصـائص

ممـيزة وإلى الرفعة والمرتبـة، وكـذلك فـإنَّ الشخصـية تتمثل في الـدور الـذي يلعبه الشـخص في الحيـاة، سـواءٌ كـان دوراً اجتماعياً أو سياسياً، إن الشخصـية هي الـتي تمكننا من التنبؤ بما سوف يفعله الشخص في موقفٍ معين والأركان الرئيسية الممـيزة للشخصـية هي التمـيز والتفـرد من حيث الخصـائص والسمات (أي الصـفات الـتي نسـتطيع على أساسـها التفريق بين فــردٍ وآخر وهي صــفة الــتي تظهر بطريقة ثابته ومتوقعة في الشــخص الــذي يعنينا فهي ليست حالــةً عارضة كما هو الشــأن حين يغضب الشــخص أو يبتهج ولكنها تــراز يســتمتع بالاستمرار النسبي أي أنها صـفةٌ للشـخص ككل ليست صـفة لأي مسلكٍ خاص يقـوم بـه، إننا نفـترض لهـذه الصـفة ضـربٌ للوجــود المتصــل، حين لا تظهر وأن غالبية أســماء الســمات تصف انحرافــاً عما هو عــــادي أو متوســـط، وهي تنتج من ملاحظة الســلوك، ومن ثم فالســمة افــتراض عقلي وليست بشيء نلاحظه مباشرةً، وهي العلامة المميزة والصـفة الثابتة التي تميز الفرد عن غـيره وهي أيضـاً اسـتعدادات ثابتة تجعل الفرد يستجيب أو يسلك تجاه الآخرين بطريقة مميزة وفريـدة بمعنى أن هناك سمات ثابتة نسبياً أي أنها توضح سلوك الفرد في مختلف المواقــف، ولكل فــردٍ مناســبة معينة تغلب عليه دون أخرى تجعل سـلوكه متشـابهاً في كثـير من المواقـف)[1] والحركة الدينامية بين الفرد والبيئـة، لأن الشخصـية هي نتـاج التفاعل الاجتماعي بالضرورة وهي بالتالي مكتسبة، والشمول في الاســتعداد لســلوكٍ ما في المواقف المختلفــة، وبعبــارة أخـرى فـإن الشخصـية تشـير إلى الأوصـاف والسـامات الـتي تسـتخدم في وصف الفـرد ولها معـانٍ كثـيرة تختلف بـاختلاف الهــــدف من اســـتعمالها، وهي جملةً الصـــفات الجســـمانية والعقلية والخلقية في حالة تفاعلها مع بعض وتكاملها في

---

1 (?) فالمـدرس العـدواني قد يكـون مكـروهٌ من طلابه ولكنه محبـوبٌ من الناس خارج المدرسة لا لأن سـمة العـدوان تـزول من شخصـيته بخروجه من المدرسة ولكن لأنه يـرى أن أسـلوبه في معاملة الطلاب لا يعـني في إرضاء هذه السمة خارج المدرسة فلابد بأن يستبدله بأسـلوبٍ آخر كـذلك الطفل قد يكون دكتاتوراً في البيت وديعاً مسالماً في المدرسة، وبعبـارة أخرى أدق فاختلاف السلوك باختلاف الموقف لا ينفي وجـود سـمات ثابته نسبياً لدى الفرد إن السمة هي أيّ خاصةٍ يختلف فيها الناس أو تبـاين من فـردٍ لآخر وقد تكـون السـمة اسـتعداداً فطريـاً كالسـمات المزاجيةً وقد تكون مكتسبةً كالسمات الاجتماعية وكذلك الاتجاهات والميول والعواطف فالسمة إذاً هي فطرية أو مكتسبة يمكن أن نفرق على أساسها بين فــردٍ وآخر وتعــرفُ على أنها نظــام نفسي عصــبي يتمــيز بــالتعميم والتمركز ويختص بــالفرد بحيث تصــبح لها القــدرة على توجيه الفــرد لســلوكٍ ما وبالتالي فهي تساعدنا على فهم هذا السلوك، فالسـمات هي اسـتعدادات مسبقة وهي المسؤول عن الثبات الذي نلاحظه ظاهرياً في سلوك الفرد، ومهمة لدراسة السلوك.

كـــائنٍ معين يعيش في بيئـــةٍ اجتماعية معينة وبالتـــالي فـــإن الشخصية هي نتاج ومحصلة جميع هذه الجـوانب، وهي تتـألف من المكونــات الجســمية أي التكــوين الفيســيولوجي للفــرد والـذي هو نتـاج الوراثة والبيئة (وتتعلق بالشـكل العـام للفـرد وصحته من الناحية العضـوية) فهي الخامة الـتي تتبلـور حولها الشخصــية لأن كل فــردٍ نتيجة لعوامل وراثية في قدرته على التعلم وعلى تحمل المجهـــود والمكونـــات المعرفية وتتعلق بخصائص مشتركة تربط الأفـراد بحكم نشـأتهم بثقافة واحـدة أو الانتماء، بالوظـائف العقلية العليا كالـذكاء العـام والقـدرات الخاصــة) والمكونــات الانفعالية (تتضــمن أســاليب النشــاط الانفعالي كالثبات الانفعالي والميل للانبساط أو الانطواء).

والمكونات البيئية التي تكسب الانسان دوارً محتملاً ينــبئُ بالسـلوك المحـدد وكـذلك المواقف الخاصة الـتي يتعـرض لها الأفراد والتي تكسب خبرة نفسية خاصة (كاكتساب العواطف والاتجاهـــات من البيئة الخاصة للفـــرد كالأســـرة والمدرسة والنادي)[1].

الإرادة:

إن أي تصــور للفعل الـــذي ينتجه العقل فإنه يحتـــاج إلى إرادةٍ تحْمِلُهُ، أي تحمل هذا التصور من عـالم الفكر إلى عـالم الواقع، لذلك فلابد أن تلقِّح (إرادة الفعل) (تصور الفعل) حتى يجد هــذا التصــور ســبيله إلى الميلاد والوجــود والتحقق إلى العيان فالتصور بـدون إرادة عقيمٌ وأشل مـالم تخصـبه الإرادة بالعزم وترويه بالثقة وتملؤه بالرجاء، وحبيسٌ هو تصـور الفعل إذا بقي مجـــرد تصـــور للفعل بين جـــدران الـــوهم والشك والخشية، وذلك إلى أن تدخل إليه إرادة العمل ليخـرج بها من جدران التوهم إلى آفاق الواقع المنجز، ومن حـيرة شـكه إلى طمأنينة يقينه، إرادة الفعل إذاً هي عمليةٌ نفسية ومرحلة لابد منها لإتمـام سـائر العمليـات النفسـية في الـداخل، النشـاط النفسي للإنســـان بما فيها نشـــاطه في أخلاقية المســـؤولية الاجتماعية مســـتهدياً بـــالوعي والفهم، فـــالإرادة تعـــبر عن الوصول إلى أرقى المستويات.

الصبر:

والصــبر الإيجــابي هــو الــذي يــؤدي إلى اكتســاب المناعــة والمنعــة ويجعــل الإنســان قــادراً على المقاومــة بجلــدٍ وإصــرار

---

[1] (?) راجع كتــاب الشخصــية والقــدرات العقلية دراسة في مجــال التربية البدنية للدكتور (محمد سعد محمد عبد الله، دار الاصلاح، الدمام، المملكة العربية السعودية،1984

ومواجهة ما يواجهه، أو ما يوجه إليه من العوامل السلبية التي يمكن أن تؤدي إلى تعطيل مسيرته في الحياة أو تحويلها أو تشويه معالمها الإنسانية النبيلة.

إن الصبر يمكن الإنسان ويكسبه القدرة على المقاومة لدفع الأضرار المحتملة التي يمكن أن يتعرض لها، إنه يكسبه الحكمة والسعة.

إن الصبر عملية اختزان وفيه تحضير وتوضيب معنوي ومادي وإعداد وصمود ومرحلة يتم فيها التفكير والتخطيط وإعادة النظر والترابط والتربيط وتوظيف كل الإمكانيات المتاحة والمواهب في سبيل تحقيق الهدف والكمون إلى حين.

إنه مناعةٌ وحصانة وتنظيم للرفض الداخلي... وتهيئة للموقف المقبل المدعم بالمنعة والقوة المدفوع من المعانات الحقيقية والخبرة الواقعية والمليء بالإحساس الموضوعي (ليس مجرد تنظير) بل بالحكمة العالية.

إن الصبر الحقيقي الإيجابي مكسبٌ للإمكانيات وملهمٌ للحلول الصحيحة، وفرصةٌ رائعة لإسقاط السحر والزيف والوهم والوهن والخرافة والخداع والاحتيال، إنه بروزٌ حقيقي للحس الأصيل الأساسي والأخلاقي والتاريخي الموجود لدى الإنسان المتصل والمؤيد بنصر الله سبحانه وتعالى، ذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر بالصيام وهو الصبر في أرقى معانيه، إن الصبر الأساس أنه خروجٌ وإنعتاقٌ من حالة العبودية المذلة والأسر والانقياد لغير الله والتبعية والهيمنة للطاغوت، وهو الدخول في أجواء الحرية الإيجابية البناءة فالصيام الأساس أنه تدريبٌ ذاتيٌ وتنامي لروح المقاومة للغواية والوهم والسطو، وعدم تمكين الآخرين من أن يطغوا أو أن يتجبروا، إن امتلاك للجاهزية على الدوام، إنه امتلاكٌ للحرية، هذه الحرية التي هي بالأساس هبةٌ من الله تعالى لا يجوز التفريط بها، إن الصيام ليس مجرد امتناعٍ عن الأكل والشرب كما فهمه السطحيون في عصور الانحطاط إنه تعبئة وتخطيط وتوضيب وتهيئة واختزان، إنه عمل وإعداد من أجل المستقبل.

فالصبر الإيجابي هو المنتج والمحقق للغاية من خلال (الإستغناء) عن الآخرين وعدم التعلق بهم، بأي شكلٍ من الأشكال، بل هو الإيجابي النشيط المتفتح والمنطلق والموصل والمتعاظم فيه الوجدان والمكسب للقوة والاستعداد، فالصيام حالةٌ نفسية مكتفية تمكن من اتخاذ الموقف المناسب حيال الأوضاع الخارجية والداخلية التي يمكن أن يواجهها الإنسان الحر، وليس مجرد حالة سلبية

(امتناع أو تمنع) نـاتجٌ عن العجز واسـتغراق في أوضـاع القهر والتقهقر والتخاذل ولكنه إعلانٌ صـامت عن رفض داخلي على أن يـــزداد ويتفـــاقم ويجتمع ويتكتـــل، ليتفجر في اللحظة المناسبة، إنه تهيئة ومناورة إلى أن يتم التمكن من الانقضاض على القهر والظلم والخطأ والباطل.

وليس الصـبر أن تكـون سـلبياً إجباريـاً مسـتكيناً حابسـاً ومعـــزولاً، بحيث يبقى الإنســان فيه عــاجزٌ أو قليل الحيلة أو ضعيف الضعف المستدام عـديم القـدرة والقـوة، أو الوقـوف في حالة الهـــوان والازدراء الـــذي أصـــبحوا راســـخين في الاستعلاء.

إن الصيام مرحلـة وحالـة فيهـا اسـتعداد وتحـرر من القيـود وتخلي عن الضـعف وعن كـل مـا يعيـق التقـدم والانتصـار، إن الصـبر إمسـاكاً مقصـوداً عن العمـل المتـاح الإرادي والتلقـائي والممكن، إن الصـيام والصـبر فيـه يعـني أننـا نـؤمن بـأن للـه سبحانه وتعالى عملٌ يعمله وهو مـاض فينـا وفي الكـون، ونحن كلنا ثقةً برحمة الله تعالى وبأن فَرَجَهُ قريب وبأنه لابد آتٍ.

إن الفهم والاهتمـــام الاجتمـــاعي ينتمي إلى المســـؤولية والشعور الأخلاقي وهو فوق الفهم العقلي التحليلي والتركيبي أو التصويري، إنه نتاج النفس الشاعرة المتأملة، بل إن هنالك أنـواعٌ ومسـتويات أخـرى من الفهم، مثل الفهم الاستبصـاري والحدس والفهم القلـبي وهو ما نسـميه الحب والـود، ويتمـيز الفهم بالكلية والمباشريّة، إنه فهمٌ معاشرٌ للموضـوع ومعـانقٌ له مندمجٌ فيه ومتوحـدٌ معه، إنه الفهم الرفيع اللَّمَّاح، الصـادق الأمين ، وعلى العكس من تلك الأفهام أو المعارف التي عادةً ما تُسمي غايتها من بعيد؛ أي أنَ عنصر الفهم هو الأساس في المشاركة والعملية الاجتماعية والحياة عموماً.

إنَّ الإنسان لا يكون كاملاً وفي أحسن تقـويم إلا إذا امتلك قراراً حراً صائباً وصحيحاً ومواكباً للحق، قال تعـالى: (وخلقنا الإنسان في أحسن تقويم)، والقدرة على الاختيار شرط صحة الوجود، وكمال المسؤولية وشرط التذكية وشرط النماء، وهو شرط الحريـة، إذ لا حرية لمن لا قـدرة له على اتخـاذ القـرار الصحيح، فكما أن الحرية ضرورية للفهم بكافة مسـتوياته إذ لا فهم لمن كـــانت لديه إعاقة في الـــوعي أو مكبل الوجـــدان، وكــانت حياته النفسـية مصـفدةً ترسف بـالأغلال الثقـال من القهر والخـــوف والتـــوجس، إن الفهم عمل الوجـــود الحر (المستغني) والقـدرة على الاختيـار الحـر، والسـديد، والقـرار السـديد، وكـذلك الاسـتعداد لتحمل جميع النتـائج المترتبة على اتخاذ القرار في جميع الحالات والتبعـات والمتربـات ما حملته

القـرارات القادمة من عـالم التصـور الخفي إلى عـالم الواقع العياني وهذه هي (المسؤولية الأخلاقية).

والذي لابد منه لكمال قوته وحقه في الوجود وصـحة حركتـه، (الالتزام الذاتي) الـداخلي الإيجـابي والبنـاء، فهـو الـدافع الـرئيس للمسؤولية الاجتماعية والحس الأخلاقي النبيل.

أو بما يمكن أن نسـمـيه الـواجب في تمثل الجماعة وثقافتها وقيمها والقائمة على الاختيـار الحر والـنزوع إلى الارتقـاء إن الالـتزام الـذاتي يحفر عميقـاً في نفس أصـحاب المعـالي، إلى أن يتم التعبـير عنه بالأعمـال الصـالحات، إذ لا معـنى أبـداً لحس المسـؤولية والـواجب الأخلاقي إن لم يكن منتجاً ومتجسداً في مواقـفٍ وأعمـالٍ عظيمـةٍ ورائعة فالعمل العظيم هو حصـاد إلـزام الـواجب، وكـذلك فـإن (الثقـة) هي العنصر الثالث، بالإضافة لعنصر الخيار الحر والالـتزام الـذاتي، المكونات للمسـؤولية الأخلاقية حيـال المجتمع وهي ضـرورية ضرورة الحياة...

إنه ثلاثي متلازم، إن الثقة هي طمأنينة للموضـوع وثبـات على الموقف وتطابق مع الصورة الذهنية المتكونة المسـتقرة وهي تتعزز وتتأكد بالعمل والممارسة والعمل هو محك صـدق الموثوق به وجدارته بالثقة الواثق، إن الثقة والحرية والالـتزام من صفات النفس المتأملة والشاعرة تكسبها القـوة والقـدرة على التجـدد والانتصـار واليقين الحق واكتسـاب رحمة الله تعالى ومن حكمته القائمة وعدله المنتشر.

السلطة وهم:

فالسـلطة وهمٌ في فعلها عند صـاحبها ومُصدِرِهَا، وهي وهمٌ في أثرها على من تتوجه إليه وعلى من يتلقاها، السلطة قنـاعٌ فـارغٌ خـادع وقنـاعٌ مـوحٍ للسـيد والحـاكم بالقـدرة، وللمحكـوم بـالعجز، السـلطة كلها في تحليلها الأعمق إيحـاء، فإذا قوبلت السلطة من الجانب الآخر بعـدم الاحتفـاء بهـا، بل بـالازدراء فـإن وهم السـلطة ينكشف ويـنزاح وتسـقط هيبتها وتفـرغ من محتواها لتعـود هزيلـةً عليلة بلا حـولٍ ولا قيمة ولا نفوذية وذلك في مرآة ذاتها وهذه أشد.

السلطة وهم مشترك ينظر إليه السـلطان بطريقة وينظر إليه الناس بطريقة أخرى.

التوكل غير التواكل

الصبر مدرسة التقوى

الشجاعة الفردية والشجاعة الجماعية:

فالبطل في كل مكـــان، والواثق لا يـــتردد، والمتفـــرد لا ينسـاق، والمتمـيز لا ينبهم، والمقتحم لا يتلفّت، والمقـدام لا يفكر بالتراجع أبداً، والمضحي لا يكترث، والمتوحد لا يتشتت، إنه يُسْقِطُ الـدنيا من بين أصـابعه ترابـاً ليبقى في كفه التِّبْـرُ، ويغفل عن كل إغـــراء إلى إغـــراء المثل العليا الـــتي تجذبه وتشـده إنه دائمـاً كـائنٌ فـوق مسـتوى الحيـاة، إن البطل ووظيفته إحياء الحياة أو الانتصار لما يحـيي الحيـاة ويسـتهدي ضميره براسخ يقين بنصر الله تعـالى ولا يطـرق بـاب الرجـاء مثل هذا الطـارق إلا ويفتح له أفـاق تمتد بامتـداد همته وتتسع باتساع إرادته)[1].

إن الفهم أساسي وضـروري في الوصـول إلى المفاضـلة بين الممكنـات وذلك عند اتخـاذ القـرار وأثنـاء الـترجيح وفي النهاية.

1 (?) ص185 دكتور سيد أحمد عثمان التحليل الأخلاقي. مرجع سابق

سلبية الكذب والخوف

الخوف:

الواقع أن الإنسان يعيش بين عالمين (عالمه الداخلي) بما يحتويه من الفعاليات والدوافع والأفكار والأهـواء والأحاسـيس والهمـــوم وغيرهـــا، و(العـــالم الخـــارجي) بأبعـــاده المادية والاجتماعية والعلمية والأدبية وغيرهـــــا، ويتـــــأتى النجـــــاح والطمأنينة لـــدى الأنـــاس النـــاجحون من خلال العمل على تحقيق التجانس بين العـالمين، عـالم الـداخل وعـالم الخـارج، والإنسـان المقهـور والمُسَـخَّر والمُتْعَبْ والـرازح تحت وطـأة الفقر والخوف والحرمان والعَوَز الشديد غير قـادرٍ عـادةً على انتـاج الفكر الحقيقي المنتج؛ وهو لا ولن يُنتج فكـراً متكـاملاً وحقيقيّـاً أبـداً، وإنما نُتَف متنـاثرة غـير ناجعة ولا مجديـة، أو ثرثرة فارغة، ويغرق بالقواعد الشكلانية ويُمضي عمره في دهـاليز الفلسـفة وزواريب وقواعد الإملاء والنحو والصـرف والقـواميس والمعـاجم، مبتعـداً أو متخليـاً عن المضـمون (الفكـر)، إنَّ السـمة الاساسـية للمفكر هي أنه لا يقف بعقله عند طبيعة الحدث ولكنه يبادر لتفحُّص أسبابه ويـدرس ويتأمل الأشياء بذاتها، وقد قال أحدهم (إن الشيء الوحيد الذي يتعين علينا أن نخافه هو الخوف نفسه.

كـذلك ما يعانيه الإنسـان من حـالات الضـغط والتفكـير المذعور والمتشائم والخـوف السياسي والاجتمـاعي، المـادي والمعنـوي؛ فـإن له الأثر البـالغ في انكفـاء الأفكـار الجديـدة ولجمها، ويجعلنا غـير قـادرين على اسـتقبال الأفكـار الجديـدة البنـاءة، بل ونـدرتها وانعـدامها في المجتمع وعـادةً ما تهـاجر العقول إلى ما وراء البحار، وتصبح الحيـاة برمتها في المجتمع الـذي يعـاني من أشـكال وأنـواع القمع مجـرد اجـترار وتكـرار ليس إلا، ما يسـتدعي وحـتى يكـون هنالك فكر حقيقي - أن تُعطى الحصـانة والكفالة والحرية كاملـةً غـير منقوصة لكل مفكرٍ ايجـابيٍ مبـدع في المجتمـع.[1] إنما ليس بطريقة تتفلت

---

[1] (?) لأنَّ (المفكـر) أهم بكثـير من الدبلوماسي والـذي عـادة ما تكفله السـلطات في جيع الـدول وتكفل حريته وحركته وتعطيه الحصـانة، وفي الـدول الحضـارية المتقدمة عـادةً ما يكفلـون المفكـرين من جميع الاختصاصات ويمنحوهم الحصانة، مثل كل المسـؤولين وأصـحاب القـدرة على اتخـاذ القـرارات الحاسـمة ويعطـونهم أيضـاً حسـابات مفتوحة في البنـوك ؛ وتكـون في خـدمتهم هيئـات البحث العلمي والجامعـات ومراكز الأبحاث، مثل الكثير من الدول العربية!!

فيها الأمـور وتهـدر على مزابل الانحطـاط والدونية تحت حجج واهية غير منتجة ولا مفيدة.

فالإنسان يخاف من العزلة والعجز ومن العدم (المـوت) والفقر والمرض والفقد، لذلك فـإن على المجتمع العمل على تأمين الفرد من تلك الاحتمالات في الخوف، حـتى يبـدأ الفـرد كل فرد من عكس قيمته الحقيقية وإطلاق [illegible] الكاملة الى مجتمعه.

ففيما ينصبُّ عمل العقل ومهمته في الحياة على الأشـياء الملموسة والمحسوسة والأشـدُّ قربـاً منا (الأشـياء المـاديـة) مثل المأكل والملبس والـزواج والخـوف وغـيره، من الأشـياء الحسية والرغبات المباشـرة المودعة في الكـائن، فـإن الفكر يسـعى في المجـالات البعيـدة العالية وغـير المرئية وغـير المباشـرة وغـير المحسوسـة، إنه يبحث ويتفكر في الأشـياء والمجـالات غـير المدركة بـالحواس، الأفكـار والعلاقـات المجردة، وكأن العقل يعمل في الأشـياء الظـاهرة بينما الفكر يمارس نشاطه في الأمور الباطنيّة والله تعالى أعلم.

و(الكذب) هو إعطاء الخارج صورة غـير حقيقية عن ما هو موجـود في الـداخل، إنَّ الكـاذبَ يعـرف الحقيقـة، ولكنه دون مبرر يدلي بالباطل؛ والكَذِبُ دليلٌ على الانحطاط وهو مذمومٌ ويُعد من الكبائر في جميع الشـرائع، وليس للكـذب أي مـبرر، فهو مـرضٌ قـبيحٌ ينتج عن ظـروفٍ وأسـباب أو حجج واهيـةٍ، ويتأتى من حالات الخوف والضعف الشديد، إنَّ الكـاذبَ يـدلي بعكس ما يعرف (الصورة الداخلية) أو هو يرفض الحقيقة، إنه بذلك يمارس الكذب. فلا فائدة للبشرية من المعارف البـاردة والنظريـات الهامـدة إن لم تكن معارفها تـؤدي إلى رفع مسـتواها ونظرياتها تسـهم إيجابيـاً في فتح الطريق أمامها وإلى الأمـام، فالعقل يسـير وفق التصـورات الذهنية الـتي ترتسم فيه والواقع نحن نـذهب إلى حيث توجد تصـوراتنا، من هنا يجب أن نحـاول تبديد الـوهم والـوهن والخـداع والأشـياء الزائفة التي توقف الطموح وتفتت العضد، فأن نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا وهو تعالى قادرٌ على نصرنا ومعافاتنا ما دمنا معه في جميع الحالات، نحن نسـعى إلى الكمـال وفي هذا الاتجاه تتحقق المعجزات.

إن الخوف يتأتى من التفكـير الخـاطئ والـوهم ومن عـدم الفهم الصـحيح، وتجنب الخـوف يولِّدُ أنـواع القـوة، فـالقلق والاسـتياء والحقد والعـداء والكـره المسـتحكم بكل ما هو حقيقي يوصل إلى الضـعف، إن حب الحق والخـير والجمـال والصـحُ والـواجب، وحب القيم العالية والمثل والـرقي

والحضـارة والأخلاق الحميـدة يعـزز عند الإنسـان اندفاعه إلى الحياة وامتلاكه للإرادة الحرة، فالإنسـان الحر صـاحب الإرادة هو المُحرَّر داخلياً من أية قيودٍ سـالبة أو أغلال أو عوائق تمنع تقدمه، فهو لا يعاني من الملل أو السأم، إنه ينـدفع في تمعن الحقـائق الـتي خلقها الله تعـالى، إن الإنسـان الحر دائمـاً في الطليعة يسـهم في مجتمعه ويشـارك في تطـويره وتقدمه ويحافظ عليه، يقدم ما لديه من قـدراتٍ ومـواهب وأفكـار في خدمة الآخـرين، إن الإنسـان الوطـني الحر في قمة الكمـال، يعمل ذهنياً وانفعالياً بكل طاقاته باتجاه الهدف الذي خُلِقَ من أجلـه، طاقاته وحيويته في حالة تـأهبٍ دائم لتقـديم الأفضل، والتفكـير دائمـاً في الحيـاة الحضـارية الراقية وذلك بتهيئـةِ وإعـداد العقل وكل الفعاليـات الـتي في الـداخل لاسـتقبال القـدرة والإمكانية الآتية من الخـارج، البهجة والقـوة والحكمة التي خلقها الله لنا سبحانه وتعالى.

إن الطريق البسيطة للتوافق مع اللامحدود أن نتمعن بهدوءٍ وبطء وأن نتشرب الحقـائق لأن الله رحيمٌ بنا ويحبنا وهو تعـالى وضع السـماوات والأرض وما فيهنَّ أساسـاً في خدمة الإنسـان، وطلب منهم السجود لآدم أي الخضـوع له والعمل على خدمتـه، والفهم الحقيقي هو في التوافق مع القـوة المبدعة في هـذا الكـون، وإذا أراد الإنسـان أن يكـون في حالـةٍ جيـدة وأن يظل فيهـا؛ فعليه الاهتمـام بـالحق الـذي نصَّ عليه الـدين، عليه أن يكرس نفسه لقضية الحـق، وأن يعمل على فائـدة البشر فكـراً جيداً ينضح بالطاقة والحيوية والحماس، يجب استئصال الخـوف من داخلنا إلا الخـوف من الله تعـالى، لقد خلقنا الله في أفضل حال ولذلك يجب أن نكون في أفضل حال، إن كل ما خلقه الله سبحانه وتعالى إنما هو في داخلنـا، وهـذا ما يجب أن يمكننا من الغلب على كل المشاكل والتحكم بحياتنا!

ولأننا أساساً مخلوقون على أفضل صـورة قـال تعـالى: ﴿ لَقَـدْ خَلَقْنَا الإِنْسَـانَ فِي أَحْسَـنِ تَقْـوِيمٍ ﴾ [الـتين: 4] فلابد أن يحيا المؤمنـون العـاملون المنتجـون القريبـون من الله تعـالى في أفضل حـال، على الإنسـان الحر أن يكـون أداة تعـبر عن الحقائق التي خلقها الله سبحانه وتعالى، يتفق جميع الناجحين في أنهم يؤمنـون بالسـببية إنهم يعتقـدون أن لا شيء يحـدث مصادفة، بل وفقـاً لقـانون، إن جميع حلقـات السلسـلة الـتي تربط بين بداية شـيء ونهايته حلقـاتٌ منطقية وهي قويـة، وهـذه الحلقـات هي السـبب والنتيجـة، ذوي التفكـير الضـحل يؤمنـون بالحظ أما الحكمـاء الأقويـاء فيؤمنـون بالسـبب والنتيجة، والأهم هو ما يفكر به الإنسـان، وما يشـعر به وما

يعتقـده في أعماقه (الحركة الداخليـة) على أن يكـون إيجابيـاً وبنَّاءً ينعكس على واقعه لأننا بالأساس كما نفكر نكون.

الله سبحانه وتعالى دوماً مع المؤمـنين بحق ولاشـك، وهو تعالى لن يخذلهم وسينصرهم لا محالـة، وهو تعـالى لن يتخلى عنهم أبداً، وعليه فليس لدى المؤمنين مشـكلة ليس لها حـل، أو ليس لــديهم قــدرة على حلهــا، ولكن ليست العــبرة في المكافـــأة الفوريـــة، وإنما في تحقيق الأهـــداف العُظمى. والقضـايا منشـؤها ليس صـدفةً ولكنّ الإنسـان العظيم بفعله وبموقفه وبمنهجه الصحيح وبخياراته العظيمة وباصطفافه إلى جانب الحق يكتب التـاريخ، وليس بمجـرد التمـني ولا بـالثرثرة ولا بالهتـــاف أو التظـــاهر، ومعروفـــةٌ قصة ســـيدنا عمر بن الخطــاب، عنــدما خطب النــاس في بداية خلافته قــائلاً: أيها النـاس إنما أنا بشـرٌ فـإذا أخطـأت فقيمـوني، فقـام إليه أحد الحاضرين على الفور وأجابـه: والله لو أخطـأت لقومنـاك بحد الســيف، تلك الأمة كـــانت تريد الحيـــاة الحقيقية فوهبها الله تعالى ما أرادت، ولكن النصر يتنـافى مع الانحطـاط والدونيـة، فالنصر حليف الطموح والاتحاد، ولكنَّ الإنسان العظيم يحـدوه الأمل دوماً، ويثق بقدرته على تحقيق الهدف في ما يصبو إليه من الأمــور الإيجابية البنـــاءة، وهو يـــؤمن بـــأن الصــعوبات والعقبات يمكن أن تزول بوجـود الاصـرار على تحقيق الهـدف والعمل المخطط من أجله.

إنَّ الإنسان الواعي المِقْدام يُوجِّهُ إلى عقله الباطن أوامـرَ واضحة ويُلزمه بالحق، فإذا تعثر الإنجـاز نتيجة الظـروف وفي فترة ما، فمن المفروض أن يكون الانسان مهيأً دائمـاً لتجـاوز العقبـات ولإعـادة التشـكيل والمواكبة والمتابعـة، لأنَّ قضـية الحرية واحـدة، وهي مسـتمرة لا تتوقـف، فوجـود النكسـات والعقبـــات شـــيءٌ طـــبيعي ولكن النصر للحق حتميٌ، إن التخطيط والتنظيم والاعداد والتوضيب والتهيئة أمرٌ أهم بكثـير من الانجاز النهائي أو تحقيق الهدف، بل هو الإنجـاز بحد ذاتـه، لأنَّ المفكــرين يؤمنــون بــأن رحلة الألف ميل تبــدأ بخطــوة واحدة، وأنَّ عود ثقابٍ صـغير يمكن أن يشـعل بيـدراً بأكملـه؛ إن الآراء الفاسدة تسـبب للإنسـان الكـوارث والـدمار للأفـراد والمجتمع، ولكنَّ الرأي الصحيح هو الذي يُسَطِّرُ مفاهيمه وفق الحـق، وهو الـذي كـوَّنَ الأمم وأنتج الحضـارات للبشـرية في جميع العصور.

إن من المفـروض على المفكـرين بحـق، ومن الأولويـات لديهم تحديد أعدائهم والعمل على معرفتهم بوضوح، والقاعدة تقول أعـرف نفسك أعـرف عـدوك، فالعاقل لا يسـمح لنفسه

ووفق الاجماع العالمي، بالبقاء في وضـعية الـدفاع إلى الأبـد؛ ففي الفكر العـالمي ليس مسـموحاً البقـاء في حالة الـدفاع أكثر من سـاعة واحـدة؛ وعلى العاقل المفكر العمل مباشـرة للانتقـال إلى حالة الهجـوم المعـاكس؛ لأن الهجـوم هو خـير وسيلةٍ للدفاع، اندفاعاً إلى الحياةِ والإرادة الحرة، إن الإنسان الحر صاحب الإرادة، محررٌ داخلياً من أية قيود سالبة أو أغلال أو عوائق تمنع تقدمـه، فهو لا يعـاني من الملل أو السـأم إنه يتمعن في الحقائق الإلهية والآيـات الـتي خلقها الله تعـالى إن الإنسان الحر يسهم في مجتمعه ولا ينفصل عنه، ويشارك في تطويره وتقدمه فهو يقدم ما لديه من قدراتٍ ومواهب وأفكارٍ لخدمة الآخـــرين، إن الإنســـان الوطـــني الحر يعمل ذهنيـــاً وانفعاليـاً بكل طاقــةٍ باتجـاه الهـدف الـذي خلق من أجلـه، طاقاته وحيوته في حالةِ تأهبٍ دائماً لتقـديم الأفضل والتفكـير دائماً بأساليب الحيـاة الحضـارية الراقيـة، وذلك لتفـتيح العقل وكل فعاليات الداخل، وتهيئتها لاستقبال القدرات والإمكانيـات الخارجية، الهمة والقوة والحكمة التي وهبنا الله تعالى.

وطبعـاً ليست العـبرة بالمعلومـات الـتي نخزنها في كتبنا أو سجلاتنا أو نتناقلها في وسـائل إعلامنـا، ولكن فيما ينتج عنَّا من الأفكـار الـتي تنطبق على الواقع وتحقق النجـاح والنصر على الأرض، إن الله تعـالى يؤيد المفكـرين العـاملين الـرواد الـذين يطمحـون للإنجـاز وتحقيق الانتصـار ويكتبـون التـاريخ الحقيقي.

قــال تعــالى: (ولينصـــرن الله من ينصـــره)، والحقيقة أن سعادة الإنسان مرتبطةً بتحقيق أهدافه والانتصار بينما شقاؤه في فشله، ومن المؤكد أن ليس هنالك مستحيل أمـام إصـرار الإنسان على أن يكون إيجابياً ووطنيـاً مشـاركاً في المجتمـع، لـذلك لابد من الانتبـاه واليقظة وتـوخي الحـذر من السـقوط، وقـانون الحيـاة عند من يكتبـون التـاريخ هو الالـتزام بـالحق والخـــير والعـــدل والصـــدق، والنضـــال ضد كل ما هو ســـلبي أو باطل، الإنسان الذي يفكر يستفيد من المواقف، وهو يزداد قـــــوةً وحكمـــــة، ولكن يجب أن يتخلص من الأغلال الداخلية والقيود الخارجية، إن الخداع أو الأوهـام الـتي تصـيبه ويقع بها التفكير، تأتي بشكلٍ أساسي من الأخطاء، لذلك يجب اللجـوء دائمـاً إلى جنب الحق (كن مع الله ولا تبـالي) والله تعـالى هو الحق، ومهما كانت مقترحات الآخـرين وآرائهم، فـإن المـيزان الحقيقي هو الحق المسـطر في كتـاب الله تعـالى، ويجب أن يكون هو المحـدد الأساسي لما يمكن أن نقبله أو نرفضـه، إنه الميزان الذي يزن أفكارنا بالنتيجـة، إنه المنطلق منه يجب أن

ينطلق عقلنا الواعي للحقائق التي خلقها الله سبحانه وتعـالى (الآيات) وسوف يتقبل عقلنا الباطن هذه الحقائق ويعمل على تحقيقها في عالم الخبرة اللاإرادية، لأن سـلوكنا التلقـائي إنما هو نتيجة لما نؤمن به ونأمله، إن ما نزرعه في عقولنا نحصده في واقعنا، والإنسان يخدع نفسه في الحياة إذا كـان يعتقد أن المجـال المـادي هو الأسـاس، فـالمرض الأساسي هو مـرض العقـــول الباطنة والواعية، وهو ينعكس على ســـلوك البشر وبســـببه يصـــبح البعض شـــياطين والبعض الآخر ملائكـــة، إن الأنماط الإيجابية في التفكير هي سبب البناء والتقدم والنجـاح في العالم الإنساني كله.

بينما الأنماط السـالبة هي سـبب الهبـوط والانحـدار الـذي يصـيب العـالم في كل مكـان وأوان، إن العمل والمبـادرة إلى تحقيق الأهداف الإيجابية هي الأشياء التي يجب أن نسعى إلى إنجازهـــا، ويجب أن لا نبقى في مرحلة لـــوم الآخـــرين إلى المالانهايـــــة، يجب التأكد من المعلومـــــات من كل المصادر ويجب عدم الاستسلام لكل من هبَّ ودبَّ؛ وهو يحاول تحويلنا إلى مجرد كرة بين أقدام اللاعبين، ويتحقق النجاح عنـدما يتم التعامل مع الحقـائق مباشـرةً وليس مع الأسـاطير والخيـالات في السرك الأمريكي.

إنَّ الجبن والخوف والتقاعس يُضَيِّع الأفكار ويهدرها، لذلك يجب أن نبحث في العمل عن الأفكـــار وليس عن الأخطـــاء، يجب أن يكــون الهم هو توليد الأفكــار وإيجــاد طــرق لتوليد الأفكار الجديدة، وليس الغـرق في القواعد والقـوانين لحصـار الآخرين ولتحديد أخطائهم وفقط. ثمَّ لمـاذا الخـوف والخشـية من (النقد الفكري) إذا كانت الأوضاع الفكريّة سـليمة، وكـانوا متأكـدين من أنَّ كل شـيءٍ في المنـاهج على ما يـرام ؟! وإذا لم تكن هنالك مخبـآت من الأخطـاء التاريخية الجسـيمة الـتي يحرصــــــون دائمـــــاً على تمريرها من جيل إلى جيل لتبقى مستقرةً في العقل العربي المسلم؟

لقد كان الفكر العربي الإسلامي في القرن العشـرين أداة الكذب والخواء والموت، وهو يقنع الناس بالعدل ولكن العـدل بالظلم، ويجعلهم يقبلون عن رضى بالتعسف والاضطهاد، فهو عن طريق الإملاء وبشـــكل غـــير مباشر يخـــوف النـــاس من الحرية ووحدة الذات ويشرك الجماعة في الكـذب عن طريق إطلاق عدم الثقة بالعقل والتفكير، كـانت مهمة الفكر العـربي هي إبعاد العرب المسلمين عن حالة الثقة بالنفس.

كـان الفكر العـربي وعلى الـدوام يصـادر حق النـاس (كل فـردٍ منهم) حقه في التفكـير والإبـداع (يعتـبرهم مجـرد تلاميذ

قيد الدرس والتعليم وأنهم متخلفون غير قابلين للنضــوج) في جميع المجالات ويسلبهم حقهم في الريادة والسـيادة، بما في ذلك حقهم في المعرفة الحرة والاختراع والانتـاج غـير المقيَّد، وتمحيص الموارد والتنقيب والسبر الحر في كل المحـاور دون قيــود ولا أغلال (الأدلجة تــوحي بأنه عنــدما يتكلم الآخر فإنه يكذب أو أنه جاهل أو أنه غير عـارف)، لقد كـانت مهمة الفكر العــربي المزيف وخلال القــرن العشــرين، إزاحة المحــور الأساسي للتفكير الإيجابي عند العـرب المسـلمين وتضـليلهم، إن هذا الوضع هو الذي سـبب التخلف وليس الجهل فحسـب، إن الادعاءات الفكرية الخادعة هي الـتي تخـرب فعلاً وتسـبب الأضرار المميتة لأنها تُدخِلُ التدليس والازدواجية والانتقال إلى الحال الأدنى الأمر الذي يتنافى مع الحق والواجب، فالإنســان إذا تمكن منه الـوهم سـقط في الضـعف وفقد القابلية للعمل وغـرق في الخـوف والـرعب، وأصـبح يمضي حياته في تأمل حوادث الكون من حوله دون أن يستفيد منها أبـداً، وفي هـذه الحـال، فـإن الـوهم ليس الجهل بحـدث ذاته؛ بل ما يقف بين الإنسان والأهداف العظيمة، وما يمنعه من تحقيقها، فمســائل الكــون عــادةً لا تجد جوابــاً في جهــاز الإنســان المتضــائل والمجتث والمشوه، أي الممسوح والممسوخ فكرياً.

والأهم من ذلك أن الناس (العـرب المسـلمون) جميعهم وبسبب زيف الفكر العربي السائد (الكـذب والـدجل الاعلامي والثقافي والفكري الواسع النطاق) والـذين حقنـوا به في هـذا العصر؛ وأصبحوا عامتهم وخاصتهم دون مستوى الوعي وغــير قادرين على الفهم (فهم الحـق) أو التفكـير الصـحيح، وكـأنهم دخلوا في مـؤامرة كـبرى، فهم تقيَّـةً ... أصـبحوا يتـآمرون بها على أنفسهم، ولكنهم أدمنوا فيها حالات وأنواع وألوان الكذب العقائـدي، وممارسة الـدجل الاجتمـاعي والسياسي والفكـري حتى دخلوا فيها (اللعبة) فأصـبحوا جـزءً منهـا، وأتقنـوا دورهم كممثلين لاعـبين ولكنّ الأدوار تلبَّسـتهم فتقزمـوا واحيط بهم. قال تعالى: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [المائدة: 26].

يجب عدم تحويل الناس جميعهم (الأمة) إلى مجرد تلاميذ، وأن يبقى الزعيم هو المعلم الأوحد، أو الأسـتاذ الوحيـد، يجب ازدراء الاستبداد وازدراء التوحش، إن التربية الإيجابية الرفيعة المستوى تنهي الاستبداد وتعدمه (وتعمل على ترقية الأمة في الإدراك والإحســاس)[1] إن أنظمة التعليم يجب أن تســتهدف مرمى واحد، فمن أراد أمة قوية ووطناً عزيزاً عليه أن يسعى

[1] (?) عبد الرحمن الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد.

إلى إيجاد تربيةٍ فكريةٍ قويةٍ متينةٍ للأجيال وتعليماً مفتَّحِ الآفاق قوي البنيان يخلق العقول التي تنزرع فيها الأفكار.

إننا لن نستطيع إخراج وتخريج رجال زراعةٍ وصناعةٍ واقتصاد وأعمالٍ بوجه عام، إلا إذا أخرجنا وخرَّجنا (مفكرين) يفهمون تماماً ما هو المطلوب، فهنالك فرقٌ كبيرٌ وشاسع بين المقال (الخطاب) في التربية والتربية في المقال، وهكذا فإن التربية تستنفذ نفسها عندما تستغرق في تعديد فضائلها فقط ودون إنتاج، فالأمة (الجماعة) عادةً تشعر بالهزات العنيفة ولكنها ستكون عاجزةً عن فهمها، إن المفكر هو الجهة الوحيدة القادرة فعلاً على شرح الموقف وفتح ثغرةٍ في الجدار المظلم والمسدود، إن الفكرة مهما كانت فإنها شعورٌ مكثفٌ تتيح تنشيط العقل للبحث والتقصي، فالفكر الفاعل غير مرئي ولكنه يمسك بالمفاتيح والأسرار والعلاقات التاريخية، إن المفكر المبدع هو الذي يستطيع بالفعل تحقيق الانفلات والتخطي من الزمان والمكان، وتخطيط أمور وشؤونٍ جديدةٍ في الحياة، ورسم مُثُلٍ ومسالك لتحقيقها بديعة في الأمة، المفكر بصورة الأديب والشاعر والممثل وهم من أبناء البيئة إنهم يؤثِّرون ويتأثرون.

إن الفكر هو خروج اللامرئي والكامن والهائل من الأعماق وتكونه من جديد (تحويل الضمني إلى صريح) لذلك يجب التركيز على الدوافع النفسية والإلهامات والإيحاءات الربانية (الإلهام: إحدى حالتين يصادفهما كل إنسان في الحياة، أثناء سعيِّه وتفكّرِهِ، وهو تلقي من عالم الوجود، إنه يصادفُ حالة الفجور وحالة التقوى، وعليه أن يختار كسلوك إمّا الفجور أو التقوى، والمؤمن بتوفيقٍ من الله تعالى ولأنه عاقل، فإنه يزكي نفسه ذاتياً ويبادر لاختيار التقوى أي الصلاح دائماً، قال تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [الشمس: 9]، لقد أدَّت تلك الفواجع والطامات التي ابتلي بها العرب المسلمون على اختلاف مواقعهم منذ بداية القرن العشرين إلى الكوارث وفي مقَدَمتها عدم فهم طبيعة ومعنى ومدلول العروبة كان في مطلعها اغتيال العقل والفكر والقلب العربي، حتى اختلط الحابل بالنابل ولم يعد العرب، بعد أن أصبحوا مُكبَلِين بتلك المعتقدات السياسيّة الفاسدة، لم يعد لديهم القدرة على الحركة المُجْدِيَةَ، وباتوا يتحركون حركات تَشُدُّ وتُشدِّدُ عليهم الخناق أكثر فأكثر، ولأنَّ الصدق ضد الكذب فاليقين هو الذي يتلاشى عنده كل ما هو وضعي؛ فإياك والكذب لأنه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هي عليه، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس، فإن الكذب يصور المعدوم موجوداً

ويصور الموجود معدوماً, والحقَ بـاطلاً والباطل حقـاً, والخـير شــراً، والشر خـير، فيُفسد عليـه (الإنســان) تصـوره و علمه عقوبـــةً له، ثم يصـــور ذلك في نفس المخـــاطب المغـــتر به الـــراكِنِ اليه فيفسد عليه تصـــوره و علمه، ونفس الكـــاذب مُعْرِضــةً عن الحقيقة الموجــودة، نزاعة الى العــدم مــؤثرة للباطل، واذا فسدت عليه قوة تصـوره وعلمه الـتي هي مبـدأ كل فعل إرادي فسدت عليه تلك الافعال وسرى حكم الكـذب اليها فصــار صــدورها كصـدور الكـذب عن اللســان فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله.

ولهذا كان الكذب أساس الفجور كما قال النبي صـلى الله عليه وسلم: إن الكذب يهـدي إلى الفجـور وإن الفجـور يهـدي إلى النـار. رواه بخـاري ومسـلم، وأول ما يسـري من الكـذب من النفس إلى اللســان فيفســده، ثم يســري إلى الجــوارح فيفسد عليها كما أفسد على اللســـــان أقواله فيعم الكــــذب أقواله وأعماله وأحواله فيستحكم عليه الفسـاد ويـترامى دائه إلى المحكمة إن لم يتداركه الله بـــــدواء الصـــــدق يقلع تلك المادة من أصلها، ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصـدق -وأضـادها من الريـاء والعجب والكـبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرهـــا- أصــــلها الكـذب، فكل عمل صـالح ظـاهر أو بـاطن فمنشـؤه الصـدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب، والله تعـالى يعـاقب الكـذاب بـأن يقعـده ويشطه عن مصـالحه ومنافعـه، ويثيب الصـادق بـأن يوقفه بالقيـام بمصـالح دنيـاه وآخرته فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصـدق، ولا مفاسـدهما ومضراهما بمثل الكذب قال تعالى: (يا أيها الذين أمنـوا أتقـوا الله وكونــوا مع الصــادقين)، وقــال تعــالى: هــذا يــومٌ ينفع الصـادقين صـدقهم. وقـال فـإذا عـزم الأمر، ولو صـدقوا اللهَ لكان خيراً لهم، قال تعالى: ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﭼ التوبة: ٩٠

كتلة الدماغ (المخ) ودورها الفعَّال

ونحن عنــدما كنا صــغاراً، لم نكن نميِّز حقيقــةً بين كتلة (الدماغ أو المخ) و(مفهوم العقل)، كنَّا إذا سُئلنا عن عقلنا أين هـو؟ أشـرنا مباشـرة إلى دماغنـا! وأنا لا أسـتغرب أن يكـون الكثيرون من الناس في العـالم، لا يزالـون غـير قـادرين على التمييز بين (المفهوم المعنوي للعقل)، وتلك الكتلة من المادة السنجابية الموجودة بداخل الجمجمة، والـتي تسـمى (الـدماغ أو المخ) وذلك على الــــرغم من وجـــــود علاقة أو تطـــــابق أو تداخل بين الطـرفين؛ ولكنهم يتصـورون أنَّ (مفهـوم العقل المعنوي) هو مجرد (الدماغ) أي الكتلة الماديّة، وهم إذا سُئلوا عن (العقــل) راحــوا مباشــرة إلى صـورةٍ ملونة عن الـدماغ (المخ) وبدأوا بتشريحه؛ ولكن الغريب فعلاً ، وحتى الآن هو أن تسمع بأنَّ العديد من العلماء والباحثين الأوربيين المتخصصـين في علم النفس بفروعه ومدارسه المتعــددة، أنهم لا يزالــون يذهبون في أبحاثهم العلمية إلى هذا المذهب وهذا الاعتقاد.

لايزال الباحثون الأوربيون العلماء، عندما يناقشون مفهوم العقل يبدؤون مباشرة بتشريح للدماغ، أو يتحدثون عن أقسام المخ! وكـأن الفكر الأوربي غـير قـادرٍ، حـتى الآن على الأقـل، على فهم أو ادراك الفـــرق بين المفهـــوم المعنـــوي المحض (للعقل) وبين تلك الكتلة الهامة أو القسم الرئيس من الجهـاز العصـــبي في الــــرأس من الجسم الحي والـــذي هو (المخ أو الدماغ).

أو أنَّ الفكر الأوربي لا يريد الاقــــرار بهــــذا الفــــرق بين (مفهـوم العقـل) و(كتلة الـدماغ)! وذلك بسـبب طريقة الفكر الأوربي ونظرته وتأويلاته المادية، والمادية البحتة والملموسة، والـتي يسـميها العلميــة، (كما هو معلـوم) سـواءً للمفـاهيم أو للأحـداث والوقـائع في جميع مجـالات الحيـاة، لـذلك فـإنَّ (الفكر الأوربي) ما فتئ يحاول كعادته وبطريقة صـارمة تأويل جميع المفـاهيم المعنويــة، والمبـادئ والمثل والقيم والأخلاق والـدين؛ كل ذلك و(الفكر العلمي الأوربي) يعمل على إعـادة فهمه على أسس مادية محسوسة، ويــرفض بشــدة الإقــرار بوجــوده كحالة معنوية وبُعــدٍ غــير ملمــوس، ونعتقد أنه ههنا تكمن الأســباب الاساســية الــتي تســبب فشل (علم النفس الأوربي) أو عدم تقدمه، ووصوله إلى الحائط المسدود.

(فهو الآن لا يـزال مع كل هـذا التقـدم العلمي والحضـاري غارقٌ في مراقبة وتحليل سلوك الحيوانـات والحشـرات (على

الـرغم من الفائـدة الأكيـدة لتلك الأبحـاث الرائعة دون شـك) ولكنهم يريدون من خلالها فهم سلوك الناس، أو تطبيقها على الناس في العالم، أو فرض هذه النتائج أو المناهج التي تقارب بين سـلوك النـاس وسـلوك الحيوانـات، وأولى مآزقه (هـذا المنحى) أنه وبإصرارٍ شديد قد حدد رؤيته للإنسان في بعـدين فقط، الأول: (الجسمٍ) وأعضائه وأجهزته البارزة والملموسـة، والثــاني: (الــروح) أو (النفس) بــدوافعها وغرائزها وأبعادها المادية المعروفة (في الفكر الأوربي الــروح والنفس شــيء واحد).

فهو (الفكر الأوربي) ومنذ أن بــــدأت الأبحــــاث في أوربةٍ وأمريكا، أي منذ مطلع القـرن العشـرين تقريبـاً، لم يكن قـادراً على التفريقٍ بين مفهــوم (النفس) و(الــروح)، وقد خلط بينهما خلطاً شديداً، علماً أن الأمر كان دائماً ومنذ البداية واضحاً لدى العلمــاء من العــرب المســلمين الــرواد، ابن ســينا والفــارابي والكندي وابن الهيثم وغيرهم الكثـيرون، الـذين كـانوا قد فرقـوا وبتوجيــهٍ من القــرآن العظيم، بين الأبعــاد الثلاثة للإنســان؛ بعد الجســم، وبعد الــروح، وبعد النفس، ولكن الخلط والفوضى في هذا المجال، جاء من النظريـات الأوربية الـتي كـانت قد أصـرَّت على انتهــاج منــاهج محــددة، وفق رؤية خاصة فرضــتها على الشعوب المغلوبة فرضاً، (فالأسـطورة تحتـاج دائمـاً إلى اثـنين الأول ليرويها والثاني ليسمعها).

بيولوجية السلوك:

((لقد ظلَّ الدماغ (المخُّ) زمناً طويلاً أسوأ أعضـاء الجسم فهماً، وعلى العكس من الرئتين والكلى والقلب، فإن وظيفته (المخ) لم تكن واضـحة تمامـاً، وبـدا في أول الأمر عبـارة عن كومة من ثلاثة أرطال من مادة سنجابية بلا خصـائص ممـيزة، وكأنه كتله بلا شـكل؛ وبلا أي ارتباطـات محـددةٍ بوضـوح بـأي نماذج من نمـاذج الاتصــال العادية بين الجسم والبيئة)[1]، على أنَّ (المخَّ) ما لبث أن أخذ يتلقى تــــدريجياً ما يســــتحق من العناية، وبدأ العلماء يدركون أنَّ مظهرهُ البسيط غـير المتمـيز يخفي وراءه عضــواً أعقد كثــيراً من الكلية أو القلب، وبــدؤا يجســون وظيفتــه، ليجــدوا مثلاً أن الصــدمات الكهربائية قد تجعل سيقان الضفدعة تقفز، وعرفوا أن (المخَّ) مليء بـدوائر

---

1 (?) بينما (المخُّ) هو المحـور لشـبكة هائلة من الأعصـاب تمتد في الجسم إلى كل عضوٍ وعضلةٍ وسـطحٍ للإحسـاس، ومع هـذا فـإن دوره حـتى الآن أبعد من أن يكونَ واضحاً، وكنتيجةٍ لـذلك كـان العلمـاء لا يؤمنـون إلا قليلاً بأهميته، وكان (السومريون) و(الآشوريون) يعتقدون بأنَّ الروح تسكن في الكبد، أما (أرسطو) فقد أعلى من شـأن القلب وأنـزل (المخَّ) إلى مرتبـةٍ ثانويةٍ كمتحكم في الحرارة ينظم تبريد الدم أثناء سريانه.

كهربائية دقيقة، ونظـروا من خلال المجهر فوجـدوا أن (المخَّ) مركبٌ من صنوف متنوعة من الخلايا، وبحلول منتصف القرن التاسع عشر أحس العلمـاء برضـاهم عمَّا عرفـوه عن (المخ)، حـتى أنهم قـارنوا وظائفه بالاتصـالات المتشـابكة للتلغـراف وذلك في وقت يسبق بزمن طويل توصلهم إلى الحقائق التي أثبتت أنَّ (المخَّ) كذلك، ونحن الآن نعـرف ما هو (المخّ) ومـاذا يفعل، ونحن ندرك أيضاً أنه يحوي شبكة للفعاليـات (الـذهن)؛ وأنه يتكون من مجموعة من خلايا منظمة على أعلى مستوى، تتلقى وتـركب المعلومـات وتسـتجيب لهـا، وأنه يسـتطيع في الواقع أن يبدأ الفعل بنفسه، ونحن نقارنه بأحسن ما نستطيع، بـــــذلك المثــــــال (للتكنولوجيا الحديثة) ألا وهو (الحاسب الالكــتروني)، وهكــذا نبذوا فكــرة مقارنته بـــالتلغراف، لإن (التلغــراف) أبسط من أن يشـــمل كل ما يقـــوم به (المخّ)، وعلى كلٍ فعلى الرغم من أننا وقد وَضُوحَ لنا حـتى الآن بعض آليات (المخ) وتعلمنا طريقة تنظيم بعض أجزائه إلا أننا ما زلنا نفتقر لأي فكرة عما يعنيه ككل.

فنحن لا نستطيع حتى أن نخمِّن مثلاً ما هو (الذهن) – هذا إذا كـان له حقــاً أي (وجــود) مــادي على الإطلاق – أو كيف تتركب مراكز السلوك، وكيف تحتفظ هذه المجموعات الهائلة من الخلايا العصــــبية والعصــــبات (neurons) بكل ذلك تحت تحكمها، ونحن ما زلنا أبعد من أن نحدد تحديـداً دقيقـاً طريقة اسـتجابة المخ للبيئـة، وأي أجزائه تسـاعدنا فعلاً على التحكم فيها وأيها يتـأثر بها بشـدة؟، ما زلنا نجهل كباحثين، مثلاً كيف يتصور (المكفوفـون) والـذين ولـدوا عميـاً الألـوان والأشـكال والأبعـاد والجمـال، وهم لم يـروا مطلقـاً ولم يخطر على بـال أحــدٍ من علمـاء النفس، معرفة الكيفية الـتي تـدرك فيها تلك الفئة من الناس الكثير من الأمور المتعلقة (بالإبصار).

كذلك فإنَّ لبعض الحـالات والأوضـاع من الغرابة ما يجعلنا نقف مكتوفي الأيدي امـام فهمها أو تفسـيرها ماديـاً؛ من مثل الإحساس الذي ينتاب أولئك المرضى الذين يصـابون بالشـلل النصـفي مثلاً، أو أولئك المرضى الـذين تبـتر إحـدى اعضـائهم من أساسها، لسبب ما، فإن هؤلاء المرضى يبقون على شعورٍ بكمالهم، وباستمرار وجود تلك الأعضاء لديهم؛ وأكثر من ذلك، فهم يشعرون بتعبها أو بـآلامٍ في نهاياتهـا؛ وبـرغبتهم بتحريكها أو بضرورة حكها؛

فهي صحيحٌ أنها غادرت أجسامهم، إلا أنها لم تزل جزءاً لا يتجزأ من أنفسهم....

وهم وقبل أن يستوعبوا أوضاعهم الجديدة الكثيرون منهم من يبقى يحس بها وكأنها لا تزال موجـودة (فهو يحس أحيانـاً بتعبها أو بضـرورة حكّهـا، ويحـاول ويبـادر إلى اسـتعمالها أو رفعها أو مدّها أو ثنيها)

وهنالك بعض الـــرؤى الصـــادقة يراها بعض النـــاس في أحلامهم تتحقق بـــــالواقع، وهي ظـــــاهرةٌ لا تنفع معها كل التأويلات الـتي تحـدث عنها (فرويـد) ولا تلامذته من بعـده؛ ثمَّ مـاذا عن التجـاوب الرائع بين الأم والجـنين مع انعـدام الصـلة الحســية الظــاهرة، مــاذا عن وحــدة المشــاعر والرغبــات والهوايات بين التـوائم، ولمـاذا يحب بعض النـاس الموسـيقى الجميلة وآخــرون لا يستســيغونها؟ وهــذا إن دلَّ على شــيء فعلى أنَّ بُعد (الجسم المادي) هو غير بُعد (الروح أو الحيويـة) أو التيار (الكهرو مغناطيسي) الذي من مهامه أن يجمع أجـزاء الجسم ويقيمها (القــوة)، وهو غــير بُعد (النفس) والمشــتمل على مفهـــوم العقل والفكر بكل ما فيها من الفعاليـــات مثل الذاكرة والادراك والاحسـاس والانتبـاه والقـدرة على الابـداع، والمشاعر وغير ذلك مما يطول شرحه، والــذي لا يمكن فهمه بالطريقة المادية أبداً.

ومنذ أربعين عامـاً لم تكن لتثـار قط مسـألة إمكانية تـأثير البيئة في (المخّ)، وكـان العلمـاء يعرفـون أن الجهـاز العصـبي المركـزي يتلقى قـذائف من المثـيرات، وتواجهه مهمة اتخـاذ القـــرارات الـــتي تعتمد على خلاصة من المعلومـــات تُرحِّلُها كثافاتُـه الإحساسـية الموجـودة في العضـلات والجلد والأعين واللسان والآذان والأنف والأعضـاء الداخليـة، على أن العلمـاء كانوا يفترضـون أنَّ (المخَّ) يقـوم بوظيفته وهو في حالة عزلةٍ رائعـة، فقد كـانوا يعتقـدون أن (المخَّ) هـام جـداً لبقائنـا، وأنه مضبوطٌ على نحو جدَّ رهيـف، وأنه جد محـروم من أي آليـات تدعمه، حتى أن سـائر الجسم يقـوم بالعمل كحـاجز بينه وبين عناصر البيئة البيوكيماوية الـــــتي قد تربكُ أعماله الحساسة، وقد افـترض البعض وجـود حـاجز كيميـائي يمنع عوامل الأذى البيئية من الوصــول إلى المخ على الإطلاق، ويصــون (المخ)، فلا يمكن أن يصل إلى (المخّ) إلا الاعتــــداءات البيئية العنيفة مثلما ضـــــــربة ثقيلة على الجمجمة أو ربما جرعة ثقيلة من الكحول؛ على أنه كـان هنـاك علمـاء آخـرون لا يوافقـون على ذلـــك، فكـــانوا يجـــادلون بأنه ســيثبت في النهاية أن (المخّ) مستهدف للتأثيرات البيئية، وقد تنبأ (فرويد) نفسه بأن نمـاذج السـلوك الـــتي كـــان يدرســها سيكتشف لها في نهاية الأمر أسس (بيوكيماوية)، وقد مرت الأبحاث بشـأن طبيعة المـرض

في ثلاث مراحل من التنظـير, خلال القـرون القليلة الأخـيرة, فقد رأى العلماء أولاً أن المرض هو عامل خـارجي تمامـاً, ثم أخذوا يستكشفون عناصـره الميكروسـكوبية, وأخـيراً وضـعوا النظريات التي تأسست على كشوفهم الملهمة[1].

ومن الممكن تقسيم البحث في المخ إلى المراحل نفسـها، ونحن الآن ما زلنـا في المرحلـة الثانيـة من الاستكشـاف وأبعـد من الوصول إلى تفهم الآليات الأكثر تعقيداً (الـذاكرة أو الـوعي أو الذكاء أو التعلم) وإنما نحن نجمـع نتـائج التبصـر في مسـالك المعلومات بالمخ، وقد بـدأنا نفهم طريقـة عمـل المخ في أدنى مستوياتها الأولية: أي طريقة نقل المعلومات في ما بين الخلايـا العصبية المنفردة أو في ما بين العصبات)[2].

ولنتخيل أن كل واحد من سكان العالم الذين يبلغ عـددهم تقريباً أكثر من خمسة بلايين لديه تحت تصرفه عدة عشـرات من الهواتف وليس من الممكن إجـراء اتصـال لمسـافات طويلة إلا بقليل من هـذه الهواتـف، على أنه يمكن في النهاية إجراء تعاقب من المكالمات المحلية نقل رسالة من أي نقطة إلى أخرى وبعض الناس يستخدمون كل هـواتفهم وبعضـهم لا يفعلـون على أن إمكانية المكالمـات الـتي يمكن إجراؤها من وإلى كل هاتف بعينه تتواجد طوال الوقت، وهذا المثـال يصف بأبسط شكل مدى التركيب الذي لا يكاد يفهم للتفاعلات التي تجـري بين مـالا يحصى من عصـبات المخ (ويقـدر عـددها بما يتراوح بين عشر ملايين وتريليون).

---

1 (?) التنبؤ الوراثي، د. زولت هارسناي، ريتشاردُ هستون، ت: د. مصطفى ابـراهيم فهمي، سلسـلة عـالم المعرفة 130 الكـويت تشـرين الأول 1988م.

2 (?) وإذ يزيل إنزيم (mao) هذه المرسلات بعد فـترةٍ معينة من الـوقت فإنه يوقف أي إرسـال للإشـارات حـتى ينطلق سـيلٌ جديد من المرسـلات، وانخفـاض مسـتوى (mao) يسـمح للعصـبات بـأن تبقى في حالة دائمة من الإثـارة أو الكبح وقد ربط ذلك بمسـتوى الحـالات المزمنة من الشـيزوفرينيا والاكتئاب الهوسـي، فوجد في إحـدى هـذه الدراسـات أن انخفـاض مسـتوى نشاط إنزيم (mao) يرتبط ارتباطاً ذا دلالةٍ بالمسـتويات العليا من الباثولجية النفسية عند بعض المتطوعين الذين هم في ما عدا ذلك من الأسوياء، ويبدو أنه ثمة توازنـاً مـزهلاً يتواجد بين الطريقة الـتي تتفاعل بها الجينـات والبيئة بالنسبة للسلوك، ومـرةً أخـرى فـإن الجينـات تقـدم قالبـاً قويـاً أو برنامجـاً مخططاً للتنظيم والتركيب العاميّن، وهي مجموعةٌ من الإرتباطات المحتملة بسلوكيات المرء الموروثة أما البيئة فهي تقوم بالضـبط الـدقيق فتختـار من بين هذه المسالك الممكنة، مشذبة الخطوط العريضة إلى كل مصقول، وقد يتغير مدى التأثير النسبي للجينات والبيئة حسب الصـفة المتناولـة، فـالنفس مثلاً يقع تحت سيطرة جينةٍ محكمة بينما يتعرض السلوك الأكثر تعقيـداً إلى حد كبـير لضـغوطٍ بيئية خفية على أن اللحن العـام والبيئة وتفاعلهما معـاً، يبقى كما هو)

ومن المعــروف أن العصــبة الواحــدة تحمل ما يصل إلى 200.000 وصلة مع الخلايا العصبية الأخرى، ومن الممكن أن تطوق العصبة الواحدة بخليط من إشارات مختلفة تصــلها من مئــات من هــذه الخلايا العصــبية في الــوقت نفســه، ويمكن للعصــبة أن تســتخلص من هــذا الحصــار جــزءاً واحــداً من المعلومــات، مخلفة إيــاه من بين كل الإشــارات الــواردة، ومترجمة إياه إلى نبضة كهربائية بسـيطة تمررها إلى العصـبة التالية، وترسل العصابات المعلومات كهربائيـاً وكيميائيـاً معـاً، فالرسائل الـتي تنتقل عـبر عصـبة واحـدة تكـون كهربائية في طبيعتها، لكن عنـدما تتحـرك الرسـائل عـبر عصـابات متعـددة فإنها تتحول إلى سيل من الكيمياويات تطلق العصبة المرسلة وبعض هـــذه الكيمياويـــات هي أجـــزاء دقيقة متشـــابكة من البروتين تسـمى المرسـلات العصـبية، وهي تسـبح نحو الخلية العصـبية التالية وتلصق نفسـها بهـا، وتتطـابق عند مسـتقبلات خاصة في طـرف العصـبة تطـابق المفتـاح بالقفـل، وبوجودها فإنها تتمكن من أن تفجر أو تكبت وقـــــوع نبضة كهربائية في الخلية، وتتحرك الرسـالة قـدماً من عصـبة إلى أخـرى توجهها النبضات الكيمياوية والكهربائية المتعاقبة عبر متاهة المخ)[1].

1 (?) وتدل البحوث الجارية الآن على أن أكـثر أنـواع المـرض العقلي شـيوعاً (الاكتئاب) و(الاكتئاب الهوسي) و(الشيزوفرانيا) كلها تتأثر إلى حدٍ له مغـزاه واحد أو أكثر من هذه المرسلات العصبية في أجزاء المخ المختلفة، وقد أكد اسـتخدام العقاقير ذات التـأثير النفسي هـذه الاكتشـافات: فالعقـاقير ذات التــأثير القوية على الســلوك كثــيراً ما يكــون مفعولها عن طريق تعــديل مستوى تركيز المرسلات العصبية.

ووجود المرسلات العصبية وفعالية العقاقير النفسية توضح الطبيعة (الــبيو كيميائيــة) للســلوك ولكن كيف تـؤثر الوراثة في هـذه العلاقـة؟ يبـدو أن الجينات تلعب دورين أساسـين بالنسـبة لخاصـية المخ ولوظائفـه، والـدور الأول هو أن الجينات تشكل البرنامج المخطـط الـذي تسـتقى منه لبنـات البروتين التي يبنى بها المخ.

وبهذا فإن للجينات أهميتها في المسـاعدة على تحديد طبيعة تنظيم المخ، والطريقة الــتي تنظم بها كل فـرد مراكز الأنــواع من الأنمــاط المعقــدة للسلوك، ويعتقد البـاحثون الآن أن الجينـات ربما تهـيئ فائضـاً من الخلايا العصبية أكثر كثيراً مما يحتاجه المخ فعلاً: ثم تختار البيئة بعد ذلك من بين هذه المسالك المتاحة لتشـكل المخ العامـل، محـددةً أي العصـبات تتصل بالأخرى.

ومن الأسئلة الخطيرة التي لم تتم الإجابة عليها بعد الأسئلة التالية: ماهي الخطة الــتي تحــدد طريقة ترجمة التعليمــات الجينية الوراثية إلى شــبكة أســـلاك المخ وكيف تتمكن البيئة من توجيه مســـالك الاتصــــال ما بين العصـبيات؟ وأي كم من قابلية عصـبة واحـدة للعصـبات الأخـرى ينتج عن البرنامج المخطط الوراثي وما هو الكم المتبقي القابل للتشكل المرن؟

والدور الثاني هو أن الجينات تساعد أيضاً على تحديد تركيزات المرسلات العصــبية والكيماويــات الأخــرى المتاحة في منــاطق معينة من المخ وقد عــرفت الرابطة الجينية هنا كنتيجة لدراســاتٍ عديــدة تنــاولت الكيميــاء العصبية للفئران، وقد بينت هذه الدراسات أن تأثير الجينات متنوع، فربما يتم توجيه مستوى تركيز بعض المرسـلات عن طريق جين واحد مما يـدل

والجينـات قـد تتحكم أيضـاً في مسـتوى تركـيز الإنزيمـات المختلفـــة الــتي تلعب دوراً في الوصـــلة مـــا بين المرســـل والمستقبل، وأخذ هذه الإنزيمات يدعى مؤكسد الأمين الأحــادي ومن الظاهر أنه يساعد المستقبلات في التخلص من المرسلات التي قد أنجزت عملها[1].

إنَّ بعض الأعضاء في الجسم تتحرك وتتجاوب على الرغم من عدم اتصالها بالأعصـاب أو بالـدماغ! إننا إذا أغمضـنا أعيننا وآذاننا وافترضنا عـدم وجـود أطرافنـا، أو عـدم وجـود جسـمنا (يستطيع كل إنسـان القيـام بهـذه التجربة الرائعـة) وبعد ذلك لينظر كيف أنه لا يزال موجوداً وبشكلٍ كامل!

وطبياً فإنَّ من الأهمية بمكـان لـدى الأطبـاء، معرفة حجم الـدماغ بالنسـبة لـوزن الجسم وطـول القامة وسن الإنسـان (المـــريض)، وعند وجـــود الخلل قد يُفيد ذلك في تشـــخيص الحالات المتخلفة،

على أن الإسهام الجيني هنا هو نسـبياً اسـهام مباشـر، أما بالنسـبة لبعض المرسلات الأخرى فـإن التوجيه بلا شك يتم جزئيـاً عن طريق مجموعـات من الجينات وقد أكدت دراسةٌ حديثة دور الجينات في تحديد عـدد ما ينمو في مخ الفئران من العصبيات المنتجة للـدوبامين، وفي هـذا ما يـدل على الطريقة التي تتحكم بها الجينات في الإنتاج الكيمياوي)

1 (?) وقد اشتهرت المرسلات العصبية المختلفة بالفعل حسب ما تقوم بـه، فهنـاك «الانـدورفينات» وهي مـواد تشـبه المـورفين تسـتطيع أن تخمد الإحساس بالألم، وهناك استييل الكـولين وهو من أكـثر أنـواع المرسـلات ذيوعـاً، ويتواجد تقريبـاً في كل عصـبة، وهنـاك الـدوبامين، وهو إحـدى المرسلات الخطيرة فيما يختص بالسلوك والتعلم، ثم السـيروتونين الـذي يبـــدو أنه مرتبط بـــالنوم والاكتئـــاب، ومـــالنور إبينفـــرين وهو الضد للسـيروتونين، ويرتبط باليقظة والعـدوان، وتصـعيد النشـاط البنـدني، كما توجد مرسلات كثـيرة أخـرى، وبعض المرسـلات العصـبية تشـبه كيمياويـاً المواد المهلوسة: فتركيب النور إبينفرين يشبه كثـيراً تـركيب المسـكالين (المادة الفعالة في صبار بيـوت المكسـيكي) وتـركيب السـيروتونين وثيق الصلة بتركيب المخدر المنتشر في الشوارع المسمى dmt، وهو مـركب يشبه lsd الذي غالباً ما يسبب ردود فعل ذهنية، ومن النظريات الشائعة، وإن لم يتم إثباتهـا، النظرية الـتي تقـول إننا ننتج طبيعيـاً مؤونتنا الداخلية من المـواد المهلوسـة، على أنه من المؤكد أننا ننتج فعلاً أنزيمـات قـادرة على إنتاج هذه المواد، وربما نكتشف ذات يوم وجود عيوب وراثية تسـبب لبعض منا زيادة في إنتاج بعض المرسلات العصبية كاستجابة لمثـير بيـئي، كالتعرض لضغوط مثلاً، والدور الخاص الذي تقوم به المرسـلات العصـبية بالنسبة للسـلوك يعتمد على عـاملين: الأول أن يكـون موقعها في المخ – أي مــاهي مجموعة العصــبيات المتــأثرة بها (الــذاكرة، الرؤيــة، الحركة العضلية)، والعامل الثـاني هو ما إذا كـانت - مثـيرة – للعصـبيات (تشـملها للعمل وتفجر النبضـــات الكهربائيـــة) أو – كابتة – للعصـــبيات (تمنعها من إطلاق الزنــاد) فالمرســلات العصــبية عمومــاً إما أن تثــير وإما أن تكبت العصــبيات ولا تفعل الأمــرين معــاً على أن تأثيرها بالســلوك يعتمد على طبيعة مجموعة العصبيات التي تتأثر بها، فنقص الدوبامين مثلاً قد يسـبب مرض باركينسون في إحدى مناطق المخ، وقد يسبب اضطرابات وجدانية في مناطق أخرى، أو خلل في تنظيم الهرمونات في مناطق ثالثة.

والواقع فــــإن التلاميذ في سن السـّـــابعة مثلاً، الـــذين سيبدؤون الدراسة معاً في الصف الأول الابتدائي، فإنَّ نموّهم سيكون بالواقع من شقين نموٌ جسماني خـارجي، ونمو عقلي ونفسي داخلي، ونحن إذا تتبعتنا أو راقبنا هـــــــذا النمو فإننا سنلحظ أن القضيَّة نسبيّة ومتفاوتة بين تلميذٍ وآخر؛

فالبعض سينمو بالجسم والعقـل، بشـكلٍ طـبيعي مضـطرد، ولكن البعض الآخر سينمو بالجسم أو العكس وارد أيضاً (البعض ينمو عقله وتشرئبُّ نفسه بشكلٍ مبكر، وبذلك يسبق سنّهُ قـال تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَـاهُ الْحُكْمَ صَـبِيًّا} [مـريم: 12]، وقد لا ينمو بالعقل أو النفس (وذلك لأسباب معينة) بحيث سيكون جسمه قد أصبح في السابعة عشر، بينما عقلـه ونفسـه في الخامسـة، لا يـزال متخلـفٌ عن النمـو، وهكـذا قـد يصـبح خارجيـاً في الخمسـين من عمـره، وتبقى نفسـه (الـداخل) في السابعة عشر!

إنَّ هذه الحالة وهذا الوضع موجودٌ ومنتشر بين الكثير من الناس ولكن بنسب متفاوتة لا يكاد يخلو منها أحد!!! ونسـتدل على ذلك من خلال فحص مسـتوى اهتمـام الأشـخاص ونوعية اتجاهـــاتهم، فهل هنالك أشـــخاص في الخمســـين من العمر ولديهم اهتمامات ابناء السابعة عشرة؟

إن هـذه الأوضـاع لا تعتـبر مرضـاً بحـدة ذاتهـا، ولكن حالة نفسيّة غير سوية!.

والواقع فــإنَّ القليل (من النـــاس) من يحمل الصـــفات النبيلـــة، ويهتم بمعـــالي الأمــــور، والقليل منهم من يــــرغب بالأهـــداف العظمى، ويُقبل بشـــجاعة على التضـــحيات، بينما يستسـهل الكثـيرون السـهولة والسـطحيّة والتفاهة ويرغبـون بالانزلاق بكل ما هو محسوسٌ وسريعُ المردود؛ حـتى ولو جـرَّ لاحقـاً خرابـاً أو دمـاراً أو تعاسـةً للآخـرين. وطبعـاً فـإنَّ هـذه الأوضـــاع لها علاقة بمســـتوى الـــوعي وشـــكل الفهم ومـــدى التحضُّـر وفهم المسـؤولية. مسـؤولية الفـرد تجـاه مجتمعه أو الروح الوطنية.

كذلك فإن نتائج الكثـير من الأبحـاث والدراسـات قد أثبتت أنَّ متوسط وزن دماغ الأنثى البالغة وهو (900غـرام) أنه أقل من متوسط وزن دماغ الذكر البالغ وهو (1200 غـرام)، وهـذا الأمر (الفارق في الوزن)، قد لا يعني شيئاً بين الذكر والأنــثى من حيث القــدرة على التميــيز أو التفريــق، ولكنه قد يعكس الفرق في الاهتمام والاتجاه، ... وبالتالي الوظيفة.

مراحل اتخاذ القرار:

التوجيه والمساعدة على إتخاذ القرار الصحيح، إزاء الموقف الصحيح والمراقبة والضبط أثناء التنفيذ والانجاز وفق الخيار والقرار الإيجابي ثم المحاسبة والمكافأة والتعقيب بعد إلفراغ من التنفيذ أو العمل، أو الختام سواءً على التقصير أو على النجاح محاسبة الذات بذاتها: الإحساس بالمسؤولية الأمر الذي يضمن الاستقرار والاستمرار والانتظام البعيد عن الفوضى في الحياة.

وذلك لتثبيت الخلال وتأصيل الخصال في النجدة والنخوة والمروءة والشجاعة والإيثار والكرم والثقة بالآخر والبشر والصبر والأناة، وهذه كلها تنضج بنضوج الحس بالمسؤولية الأخلاقية والاجتماعية أو نضج حسن مواجهة الذات للآخر الجمع، مواجهة اهتمام وفهم ومشاركة أو الحرية والالتزام الموجب والثقة إنها سمات وخصائص تتضح في الشخصية الإيجابية البناءة، عند نضوجها وفي تعاملها مع المحيط الحيوي، المجتمع (الإحسان)، إنه تآزر تكاملي بين الاختيار الحر وبين الالتزام الإيجابي والثقة الخيرية وتنضج الشخصية الإيجابية من خلال الوعي الظاهر والعمل المنتج الاجتماعي المشارك أو التعامل مع الواقع والأحداث، مع الاستهداف والقصدية والتدبير والتخطيط والإعداد ولكن بعيداً عن السطحية، بل الاتجاه إلى الأعماق (بدوافع عميقة) وتنشيط الخبرات البعيدة في الأعماق، والعمل على التمييز الإيجابي والقوي وامتلاك درجةٍ عالية من الثقة، وهذا يمكن أن ندعوه الوعي الفائق والأرقى والأتم والأكمل والأمثل، لرفع مستوى الوجود الأخلاقي عند الفرد في المجتمع إلى مراقٍ أعلى وأعلى على الدوام والارتفاع بمسؤوليته عن المجتمع وأمانته على الحياة ذاتياً وخارجياً، الآداب والعلوم والتربية والثقافة والصحة الأخلاقية التي بجب تزويد المجتمع بها ودون إنقطاع وإلا تعطلت البنية الأساسية في المجتمع وتخربت الأنفس، وتوقف العمل وانعدم الإبداع، فالمجتمع الأخلاقي المفعم بالآداب بيئةٌ رائعةٌ للإنسان الحر المنتج وهي نعمةٌ وأي نعمة، إن أي سؤالٍ عن أيٍ من النشاطات النفسية لدى الإنسان إنما هو بطبيعة الحال سؤالٌ كليٌ، إذ لابد من تعلقه بجميع الأنشطة النفسية ككل، إن الأنشطة النفسية كلٌ متكاملٌ لا ينفصل، التكوين النشيط أو نشاط التكوين.

إن دلالة معنى وإشارة وإيحاء، ولا معنى ولا إشارة ولا إيحاء إلا فيما هو كلي، إن الأمر يتعلق بالشخصية الوعاء الذي يحوي كلاً من البنية والوظيفة الأداء والإنتاجية إذ أنه لا إشارة من بنية

ميتة ولا المعتلة ولا العقيمة إنه كل ما كـــــــــانت البيئة حيوية نشـيطة كلما كـان الأداء منتجـاً وفعـالاً وإيجابيـاً وبنـاءً وخصـباً داخليـاً وخارجيـاً يحـدوها فاعلية الطمـوح والشـجاعة لتحقيق الأهداف الرفيعة ومعالي الأمور.

ماهية (الروح)

كذلك فإنَّ (مفهوم الروح) في القرآن الكريم، هو غير مفهوم (النفس) مع وجود الحدين في المجال غير المرئي وغير الملموس، في مقابل (الجسم) البعد المادي من المعادلة الكليّة للإنسان، قال تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء: 85]، (فمفهوم الروح) يعني تحديداً الطاقة أو التيّار والقوة الطاقيّة التي تُبقي هذا الجسم المُعلن حيّاً، وهي أي الروح تيارٌ مستمر يُرسل من عند الله تعالى لتدبَّ الحياة في الأجساد، وهو في أي لحظة يمكن أن ينقطع لتعود تلك الأجساد هامدةً؛ وذلك بأمرٍ من الله تعالى، وهي (الروح) موجودةٌ في كل كائن حي؛ الإنسان والحيون والنبات وغيرها على حدٍ سواء، وهي مستمرّةٌ في الورود والبث من عند الله تعالى (مثل الأشعة الواردة من الشمس لا تنقطع)، وإذا انقطع الورودُ للروح بأمرٍ من الله تعالى فإنه يعني الموت المحتم للجسم... ليعود إلى التراب، وخروجٌ للنفس (الذات) من ذلك الجسم، ثمَّ ذهابها إلى بارئها الله سبحانه وتعالى لتلقي الحساب، فالنفس وديعةٌ لدى الإنسان وهي مسؤولةٌ عن عملها وستُحاسب في نهاية المطاف يوم تقوم الساعة، بينما الحيوانات لديها أرواح، وليس لديها أنفس (ذوات) وهي في هذه الحياة غير مسؤولة عن عملها.

وكذلك فإنَّ (مفهوم الموت) في اللسان العربي المبين كان يعني انتقال النفس بقوة من عالم الوجود إلى عالم الغيب، وهو في مقابل (الانبات) الذي يعني المجيء بقوة من عالم الغيب إلى عالم الوجود، وهو تلك اللحظة التي تنفصل فيها النفس (الدخيلة) عن الظاهر، والذي هو الجسم المادي، لتذهب النفس بعد ذلك إلى باريها ، قال تعالى: وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) [نوح:18] والسؤال الواجب هنا هو أنَّ هذه النفس (الدخيلة) أو (الكيان) أو (الأنا) أو (الشخصية) أين كانت قبلاً، أي من قبل أن يتكون الكائن، أي من قبل أن يُبتنى الجسم المادي الخارجي؟

لقد أوضح القرآن الكريم الفرق بين الأبعاد الثلاثة للإنسان (النفس) و(الروح) و(الجسم) والتي من المفروض أن تؤلف الكيان الكلي للإنسان، فـ (الروح) هي الطاقة والتيار الذي نحتاجه ونستمده على الدوام من الله تعالى (وهي موجودة

لـدى جميع الكائنـات الحيـة)، بينما (النفس - الأنـا) هي وديعة لـدى الإنسـان فقط دون غـيره من الكائنـات الحيّـة، وقد أتت إلى هـذا العـالم بـإرادة الله تعـالى لتمكث فيه لفـترة معلومة وأجـل مكتـوب ولا بُـدَّ من عودتها إلى المصـدر (عـالم الغيب) للحساب (باقي الكائنات ليس عليها حساب)! وهي غير مرئية وقد تلبست في هـذا العـالم (الوجـود) هـذا (الجسـم) المـادي الظـاهر، ولتملأه من الـداخل، فكـان الجسم واجهة للنفس وممثلاً لهـا، وكـانت الحـواس في الجسم نوافذ للنفس (الدخيلة) الأنا تتطلع من خلالها على الخارج (العـالم) وتتفاعل معه.[1]

---

1 (?) في شـتاء 1977حيث ضـرب الجفـاف المنطقة بأكملهـا، أتيحت لي زيارة (تل أصفر) في بادية الشام كانت الظـروف المناخية في تلك الآونة صعبةٌ جداً، فالتلال والوهاد في جميع الاتجاهات كـلُّ شـيء كـان فيها بُنِّيـاً جافاً كئيباً وحزيناً، الحيـاة هنـاك معدومة ومسـتحيلة حـتى على العقـارب والحيات التي لم نرَ في تلك الفترة وطوال تواجدنا هناك أي شـيء منهـا، لا قطرة ماء لا نبات ولا حتى أشـواك، كـانت المنطقة على المـدى رمـال خالية تماماً من أي شيء يتحرك، وفوق ذلك فإنَّ العواصف والرياح كانت تهيج، أصواتها الشديدة تزمجر لتخلع القلـوب، وهي على اسـتعداد لتَحْمِـلَ في طريقها كل ما تصادفه، بما فيها خيامنا وامتعتنا الـتي اقتلعتها وبعثرتها في الأرجاء، وجعلتنا نهيم في الليل بحثاً عنها؛
وأذكر أيامها وبعد التدريب القاسي والتعب الشديد أنني جلست في إحدى العصاري بقرب المعسكر أرتاح على كومـةٍ من الحجـارة السـود؛ أحتسي بقية الشاي من الكوب المليئة بالرمال مثل وجهي وشفتاي...، وإذ برجـل يركض من البعيد يلوِّح لي بيـده ويطلب مـني الابتعـاد عن كومة الحجـارة تلك! قال لي أرجوك ابتعد عن هذه الحجارة فهنا ترقد أمي، وضـعناها هنا منذ يومين...
وإن أنسى فلن أنسى منظر ذلك البـدوي النحيل بقامته المعروقـة، الـذي ظهر أمامي فجأة وكان يقـاوم الريـاح (في تلك الظـروف) وهو يلملمُ من أطراف معسكرنا إلى كيسه البالية كِسَـرَ الخـبز وبقايا الطعـام، قَـدِمَ إلينا ليطلب شربة ماء.
وبعد شـهرين من هـذا التـاريخ أي مع بداية الربيـع، سـمحت لي ظـروفي وقتها أنا عود مرة أخرى إلى الموقع نفسه (تل أصفر) كان المنظر مذهلاً حقـاً، الأرض مفروشـةً بالأعشـاب والبـابونج على مد النظر وفي جميع الاتجاهات أيضاً، الفراشات البيضاء والملونة في كل ناحيـة، وقد انتشـرت أنفاس المراعي وعبقها وأصوات الغنم والماعز والابل والحملان الصـغيرة هنا وهناك تسرح وتمرع أشتاتاً وقطعاناً، ونباح الكلاب وزقزقة العصـافير، منظر وطبيعة من أبدع ما يكون، كان هنالك الكثـير من الأرانب والثعـالب والطيور الحرة من جميع الأشكال.
في ذلك المكان البديع المفعم بالحيوية والحركة فإنَّ الجمال كله كان في النظر إلى البـداة في الخيـام المنصـوبة في كل ناحية وهم ينشـطون في حلب الغنم وخض الحليب واستخراج الزبدة.
الأمر الذي أذهلني فعلاً وبت أسأل نفسـي، نفس الموقـع، وقبل شـهرين كان خالياً من الحياة تماماً، من أي شكل من أشكال الحياة، ثمَّ أنه أصـبح خلال شهرين فقط مفعماً بالحياة، كافة أشكال الحيـاة، الطبيعية والنباتية والحيوانية والبشرية، والسؤال الذي لم يبارحني منذ ذلك الحين: تُرى أين كـانت كل هـذه العناصر الحياتية بكل أشـكالها وأنواعهـا، أين كـانت قبل شهرين من الآن؟ أين كانت هذه الطبيعة السـاحرة والنباتـات والأعشـاب

لقد ذكرت (الروح) في القرآن الكـريم سـبع مـرات، قـال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَـةَ بِـالرُّوحِ مِنْ أَمْـرِهِ عَلَى مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ أَنْ أَنْـذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَـاتَّقُونِ ﴾ [النحـل: 2]ـ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الـرُّوحِ قُـلِ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: 85]، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [الشـعراء: 193-194]ـ ﴿ رَفِيـعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ﴾ [غافر: 15]، ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعـارج: 4]، ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَـفًّا لا يَتَكَلَّمُـونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَـهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: 38]ـ ﴿ تَنَـزَّلُ الْمَلائِكَـةُ وَالـرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: 4]، فهي فيها (إحيـاء)، فـالروح ليست الملائكـة، ولا هي من الملائكـة، وإنما الملائكة تحملها وتـنزل بها على من يشـاء الله من أمره تعـالى، لكي ينذروا الناس بأمره تعالى. وهي ليست (القـرآن العظيم) بحد ذاته ولكنها في مضمونه وأحد أهم نتائجه في هذا العالم.

الروح (تياراً مستمر سـارياً آتيـاً) من عنـد اللـه تعـالى وأنتم لديكم علماً قليلاً، وليس هنالك مانعٌ ولا حدود من محاولة التزود من العلم والفهم والادراك، الله سبحانه وتعالى يلقي الروح من أمره (وبأمره) تعالى يعني بقرار من الله تعالى، على من يشـاء من عباده، فهنالك أناس لا ينالها الشـرف، فـالروح هنـا الارتيـاح والنشـاط، وفيهـا كمـال ونـوال ونجـاة ورحمـة وانقـاذ وسـخاء وعطاء واشرافٌ وفـرح. وتقـديمٌ للمعـروف واسـراعٌ في عمـل الخير، ولكن الروح ليست الغاية؛ إنها الوسـيلة الـتي تـؤدي إلى الغاية وهي البلاغ، بلاغ الناس جميعاً، الله تعالى يرسل الملائكـة بـالروح والهـدف هـو إنـذار النـاس، القضـية هادفـة، إنَّ مفهـوم (الـروح) العـربي يـوحي بـالظهور والاسـتواء والحيويـة والـوهب والعطاء والحفـاوة والعـرس والراحـة بعـد التعب، والعـودة إلى الوضـع الأول، عـودة الحـق، والارتـداد إلى الموئـل الاساسـي، و(الروح) فيها انطلاقٌ وتحررٌ من القيود، أي قيود، الداخلية منهـا والخارجية، وهي تعـني الارتيـاح والنشـاط، وفيهـا كمـال ونـوال

والأزهـار، والحملان والجـدايا والسـخلات وأصـواتها الجميلـة، والمـراعي وأنفاسـها وروائحها العبقة الخلابـة، أين كـانت تلك الفراشـات والعصـافير والطيور والأرانب والثعالب، أين كانت تلك الخيام والبـدويات وهنَّ يـذهبن إلى الغدير أو هنَّ يخضضن الضرف لصـنع الزبـدة، وهـؤلاء الأولاد الصـغار الذين يلعبون ويمرحون ويضحكون؟ أين كان كل هـذا السـحر الخلاب أين كان قبل شهرين من الآن؟، ولكن هذا السـؤال لازال يـتردد في خـاطري، وقد ولَّد احساساً جديداً أو فهماً أشمل لهذا الكون البـديع، وهو أنَّ هنالك في هذا الكون الواسع عوالم قريبة منَّا ولكن لا نراها وهي غير ملموسـة، وتجري فيها الإعدادات والترتيبات وتُهيأ هناك لتظهر لنا تباعاً.

ونجاة ورحمة وانقـاذ وسـخاء وعطـاء واشـرافٌ وفـرح. وتقـديمٌ للمعروف واسراعٌ في عمل الخـير، إنهـا مفهـومٌ إيجـابي محض يحتاج لفهمه، إلى عقل وفكـر ايجـابي عـربي محض، لا اعجمي سالب.

فلا يمكن فهم (الــروح) من خلال الترجمــة، أو من الفكر الغربي المادي والمعادي، لأنها مفهـوم حيـوي يـؤدي للحيويـة، وانعدامه أو انقطاعه انعــدامٌ وانقطــاعٌ للحيــاة، فهي محمولة على الـوقت، وتـوحي بالسـير والحركة والاهـتزاز وهي عـودة الحياة الى الاغصان بعد يباس في كل عام، والولادة والخـروج من عالم الغيب إلى عالم الوجود مع وجود المـوت، والانتقـال من عـالم (الأرض) إلى عـالم (السـماء)، وفيها حيـاة وسِـعَة، وسـهولة ويسـر، وهي الـريح الطيبة تحمل الخـير، و(الأريحي) الواسع الخلق المقبل على فعل الخــير والمعــروف، المهــتزُّ للنــدى والعطية واسع الخلــق، وقد ســميّت الشــمس(رَوحــاً ورواحاً)، وكامتحان للأطفـال ولتعليمهم كنّا نخيِّرهم بين العقل والمــال، والطفل النبيه ســريع البديهة كــان يختــار (العقــل) والطفل الأقل نباهــةً كــان يتخيل المــال، فالعقل فيه القــدرة على التفكير وهو أهم من جميع الأموال التي في العــالم، لأنه لا فائدة أبداً من وجود الملايين إذا فقد الإنسان العقل.

والفرق الأساسي بين الطـرح الصـحيح والطـرح الخـاطئ أو المنحرف للقضايا والمشكلات عند البـاحثين الأوربـيين، في (علم النفس) تحديداً، هو الحيـاد والموقف المسـبق الموجـود في المبــدأ لــدى أولئك البــاحثين والدارســين في أوربة (لأنَّ الفرض المختلف سيوصل إلى نتائج مختلفة دائماً) وهو شــيء ونتيجة طبيعيــة، بينما الانطلاق من منطلق صــحيح من البداية من المؤكد أنه سيصل إلى نتائج صحيحة أقرب إلى الصــواب، وخصوصاً حيال (مفهوم العقل ومفهوم الفكر)[1] فـإنَّ النظـرة الغربية (الماديــة) للموضــوع من الأســاس قد أوصــلت تلك الأبحاث إلى طريق مادي ملموس أو محسوس ولكنه مسدود وبدون آفاق، بينما يتضمن كمال النفس أمرين أثـنين، أحـدهما أن يصير الكمـال هيئـةً راسـخةً وصـفةً لازمـةً لهـا، وأن يكـون صفة الكمال في نفسه، فإذا لم يكن كذلك لم يكن كمــالاً، فلا يليق بمن لا يسعى في كمال نفسه المنافسة عليه ولا الأسف على قوته، وذلك ليس إلا معرفة بارئها وفاطرها ومعبودها وإلهها، الحق الــذي لا صــلاح لها ولا نعيم ولا لــذةً إلا بمعرفته وإرادته وإرادة وجهه الكــريم، وسـلوك الطريق الموصـلة إليه

[1] (?) التفكــير عملية تــرتيب وتنظيم لمعــارف معلومة بقصد التوصل إلى معارف جديدة ومعلومات أخرى مجهولة. للجرجاني "الفكر: تـرتيب أمـور معلومة لتؤدي إلى مجهول".

وإلى راضاه وكرامته، وأن تعتـاد ذلك فيصـير لها هيئةً راسـخةً لازمةً، وما عدا ذلك من المعلوم والإرادات والأعمال فهي بين ما لا ينفعها ولا يكملها وما يعـود بضـررها ونقصـها وآلمهـا، ولا سيما إذا صـار هيئة راسـخةً لها فإنها تعـذب وتتـألم به بحسب لزمه لها.

وأما الفضـــائل المنفصـــلة عنها كـــالملابس والمـــراكب والمساكن والجـاه والمـال فتلك بالحقيقة عـوار (ما يسـتعيره المرء ثم يعيده إلى صاحبه) إعارتها مدةً ثم يرجع فيها المعـير فتتألم وتتعذب برجوعه بحسب تعلقه بها، ولا سـيما إذا كـانت هي غاية كمالهـا، فـإذا سـلبتها أحضـرت أعظم النقس والألم والحسرة، فل يتبدر من يريد سعادة نفسه ولذتها هذه النكتـة، فـأكثر هـذا الخلق إنما يسـعون في حرمـان نفوسـهم وألمها وحســرتها ونقصــها من حيث يظنــون أنهم يريــدون ســعاتها ونعيمها، فلذتها بحسب ما حصل لها من تلك المعرفة والمحبة والســلوك، وألمها وحســرتها بحسب ما فاتها من ذلك ومــتى عـدم ذلك وخلى منه لم يبـقَ فيه إلا القـوي البدنية النفسـانية الـــتي بها يأكل ويشـــرب وينكح ويغضب وينـــال ســـائر لذاته ومرافق حياته ولا يلحقه من جهتها شــــرفٌ ولا فضــــيلة، بل خساســـةٌ ومنقصة إذ كـــان إنما يناسب بتلك القـــوى البهـــائم ويتصل بجنسها ويدخل في جملتها ويصير كأحـدها وربما زادت في تناولها عليه واختصت دونه بســــــلامة عاقبتها والأمن من جلب الضرر عليهـا، فكمـال تشـاركك فيه البهـائم وتزيد عليك وتختص عنك فيه بسلامة العاقبة حقيقٌ أن تهجره إلى الكمـال الحقيق الذي لا كمال سواه وبالله التوفيق)[1].

---

1 (?) كتاب الفوائد، لأبن القيم، دار الحياة، بيروت 1998.

مظاهر ومصادر "الفهم"

ويتجلى (الفهم) في قـــدرة الإنســان على الإجابة على الأسئلة التي تصادفنا في الحيـاة بطريقة ملائمة، والاسـتيعاب السريع والالمـام والإحاطة بـالمعنى والجـوهر (هنالك درجـات مختلفة من الملائمــة) وهو أي الفهم يتجلى في القــدرة على إعادة صياغة العبارات (شـرح معناها داخليـاً وبطريقة أخـرى؛ كمقدمة للتحليل وإعـادة الـتركيب) وهو أيضـاً القــدرة على الاسـتنتاج السـريع (أي إعطـاء النتـائج المحتملة والممكنة لما قيل توّاً)[1]، والقـــدرة على الترجمة من لغة أو الاســلوب أو الطريقة إلى أخـرى، وإدراك الرمـوز مثل (س) للمجهـول وعلامة الاســتفهام (؟) الــتي ترمز إلى المعرفة (أي على التجريد والتمثيل الــدلالي والإدراكي للعلاقــات الســببية والتــداعي بين مكونــات الجملة مع إعطــاء أقل قــدر ممكن للبنية الظاهرية، أي البحث عن المضمون والدوافع الأساسـية للأفعال الواردة من خلال اللمح والإلهـام أو ما فـوق أو ما بعد الحـواس الماديــة، وهو كـذلك يشـكل القـدرة على التعـرف المسميات إن أحدى المكونات الهامة لقـدرتنا على الفهم هي إدراكنا أنه يمكن الإشارة إلى نفس الشيء أو الشـخص بعـدة طرق (اسم الشخص أو مجموعة بضمير)

---

[1] (?) الفهم معنويـاً هو إحاطـةٌ كلية بـالفكرة ويعتمد على الحـدسْ ويشـكل الجسر المـؤدي إلى الاسـتيعاب. والفهم للإنسـان حصـراً ويقتضي وجـود العقل المستلهم؛ المستنفر والمتحفز دائمـاً بكافة وظائفـه، وكـذلك اللغة المرتبطة بالحضـارة والثقافــة، بوظائفها المعرفية والتواصـلية والـتي لا يمكن فصلها عن حضارتها.
(ويتـأثر فهمنا للمعلومـات الـتي نسـتقبلها في جميع الحـالات بكل ما كنَّا نعرفه من قبــل، ومن المؤكد أن لــتراكيب اللغة (من حيث الأســلوب والصــياغة) دوراً هامــاً ولكن ليس بجــوهري في للفهم، ونحن لا نقسم فهمنا للجملة إلى مرحلـتين؛ الأولى تكـوِّن شـجرة الإعـراب والثانية تضع تحليلاً دلالياً لها، إن مثل هـذا التصـور لفهم اللغة هو الوحيد الـذي يسـعى لتفسير كيفية عمل عقولنا، للتفسـير وعـرض طرقنا الـتي نسـتخدمها في الفهم بجميع الحــالات (فلم تعد القضــية الشــاغلة هي تحويل الجملة من شـكل إلى شـكل آخر مثل معناها الأوضـح، بل أصـبحت تهـدف إلى فهم النص واستخلاص مغزاه ودوافع منشئه ومرسله والمحاور فيه، وأخذ يقلّ، في العصر الحديث، انفصـال التحليل الصـوري للجملة عن السـياق الـذي وردت فيــه، وكــذلك عن الاســتنتاجات الــتي يمكن التوصل إليها أثنــاء القــراءة) الـذكاء الاصـطناعي واقعه ومسـتقبله، تـأليف آلان بونيــه، ت: د:علي صبري فرغلي. سلسلة عالم المعرفة الكويت.
إذ أن المشكلة في البيـان لم تعد إيجـاد صـياغة جديـدة للجملة ولكن في الفهم الشـامل لمـدلولها. بينما الـذكاء عملية تهـدف إلى إيجـاد الحلـول للمشكلات في البيئة بالسرعة الممكنة.

وكــذلك الأداء النــاجح لاختبــارات النجــاح الرياضــية (حل التمارين والمسائل الرياضية بالسـرعة الممكنة سـواءً أكـانت صــوتية أو صــرفية أو تراكبية أو دلالية الــتي تحكم فهم وتوليد الكلام)

والواقع أن (الفهم) يحـــدث جليــاً وواضـــحاً، وهو عملية انكشاف الحقيقة والإلمام بها من شتى جوانبها، كلياً أو جزئياً، ومعرفة الأمــور ووعيها وهو يحــدث لــدى الإنســان من خلال تلازم الالهام والايحـاء، ويتمثل الإلهـام بالـدوافع الداخلية الـتي تجعلنا نختــار ما هو معــروضٌ علينا أمامنا من أشــياء أو طــرق ومسالك نسـلكها، فهي أساسـاً عملية ذاتية وتنبع من الـداخل (تخلقها الرغبــــات والــــدوافع الباطنيّة والأهـــــواء والآمـــــال والعواطف، الله سبحانه وتعالى هو الـذي يُلهمُنا الخَيـار ووفق ما نختزنه من النوايا السلبيّة والإيجابية، قال تعالى: وَنَفْسٍ وَمَا سَــــوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَـــــدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) [الشمس: 7-10]، إنَّ الالهام له علاقة بالمكونـات الاساسـية المجبولة عليها النفس، فالإناء ينضح بما فيه.

أما الايحاء فهو خارجي يأتي من الخارج، إنه يقودنا ويجذبنا باتجاهــه، الله سـبحانه وتعـالى يــوحي به لعبـاده المخلصــين، بطريقة البرقية والإشــــارة الملفتة والشد باتجـــــاه محــــدد، تعليمات محددة لا مجال فيها للخيار، وذلك إذا اشكلت الوقائع وعمَّتْ العتمـــة، أو تـــوقفت لأيِّ ســـبب الفعاليـــات العقلية الداخلية أو قصَّرت في أداء وظائفها، والوحي بأشكالٍ متعددة مســتمرٌّ لا ينقطع لمن لهم صــلة مع الله تعــالى، بل هو لكل كائنٍ حي، قال تعالى: وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِـذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ [النحل: 68]، وعلى كلِّ إنسان عاقل ومتفكرٍ أن يعمل من أجل تمتين صلته بــرب العــالمين ، وذلك ليســتمد من الله تعــالى الــوحي وســبل الرشاد.

فهو (الـــوحي) ليس حكـــراً على رجـــال الـــدين، أو فئة محـددة، وإنما لكل إنسانٍ مـؤمن وحيٌ من الله تعـالى، قـال تعالى: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُـذْهِبَنَّ كَيْـدُهُ مَا يَغِيظُ [الحج: 15]، وهذا يعني أن على كل إنســان عاقل ومتفكر أن يعمل من أجل مـــدِّ صـــلته بالله تعـــالى، وهي ممكنـــة... دائمـــاً وليست مســتحيلة، ولكن تتحقق الصـــلة ونستوحي الوحي من الله تعالى عندما نمـدُّ إليهـا، إلى (عـالم

الغيب) الأسباب الجوهريّة، وهي الإيمان الحقيقي والأعمال الصالحات.

هــذا ويتحقق الفهم الحقيقي ويتجلى الــوعي الكامل من خلال تلازم عمليــتي الإلهــام والــوحي[1]، لاشك أن "مفهــوم الــذكاء" مختلــفٌ عن "مفهــوم الفهم" فالــذكاء الــذي يعــني (القدرة على التلاؤم والتأقلم مع البيئة) مشتركٌ إلى حدٍ ما وبنسبٍ بين الكائنات الحية.

بينما (مفهوم الفهم) المبني أساساً على الإدراك والانتبــاه والــوعي والحَــدْس وغــيره من الفعاليــات النفســية الداخلية الخاصة بالإنســـان العاقل المتفكر، والـــذي بطبيعة الحـــال ســـينجم عنه قـــدرةً خاصة على الابتكـــار والإبـــداع والخلق والتطوير.

ولكنَّ جميع الكائنات الحيّة لديها سلوكيات متشابهة من حيث المبــدأ؛ مثل البحث عن الطعــام والشــراب، والتنفس والعمل على تنظيف الجسم (تلبية الحاجة تلقائياً)، ولكنّ بماذا يتميز الإنسان عن باقي الكائنات، على اعتبار أنه مخلوقٌ في أحسن تقويم، وأنَّ الله تعالى أعطاه قدرات إيجابية وإضافية، على التمييز والتفريق؟.

يجب أن يبحث الإنســان له عن دور يكــون فيه في مكانة أرفع بكثير من مكانة (الحيوان الناطق) و(الحيوان العاقل).

---

1 (?) فهي متلازمة والإنســان يحتــاج إلى الاثــنين معــاً، الــوحي والالهــام، والعملية أشــبه بطريقة القيــادة والزعامــة، فهي دفع ذاتي من الــداخل وانشداد للهدف الموجود بالخارج، لأنَّ القائد، وحتى يحقق الغاية ويقود الناس إلى النصر، فـإنَّ عمله يقتضي دفعهم من الخلف لكي يحثهم على المسير وينظمهم ويرتب الصفوف ويعد الخطة وهذه وظيفة القائــد، بينما وظيفة الزعيم أن يسير إلى الأمام باتجاه الهدف يشق الطريق، ليسير الناس من خلفه معجبين بخطابه البليغ، والواقع فكل إنسان مفكر عليه أن يسعى إلى أن يحقق في ذاته الصورتين معاً، القائد الملهم والزعيم المستوحي، والله أعلم.

وقد تعلمنا قـــديماً أن الفكر حـــتى ينضـــج، ويُحقق العلم والفهم ويسمو بالإنسان، فهو يحتاج بالفعل إلى تَعَلُّم المقارنة والبيان والتحليل والتشريح والتجـريب والاختبـار؛ والعمل على اظهار الفـرق بين الأشـياء، ثم تعلُّم التجلية وتأويل الأحـاديث، وقبل ذلك كله إلى الإيمـــــان بالله تعـــــالى، ثم إلى محبة الموضــوع ذاته (الهـدف)، والعمل على تحسـين النظـرة إلى الأشــــياء أو المشـــكلات من حولنا، وأساســاً لا يمكن فهم المواضيع أو المشكلات الـتي لا نستسـيغ بحثهـا؛ ومن الأهميّة بمكان تسجيل الملاحظات كلها مباشـرة، وتـدوينها في حينهـا، وضـرورة القيـام وانجـاز المهمة المطلوبة فـوراً دون إبطـاء، وعدم التأجيل أبداً، والقاعدة الذهبية في هـذا المجـال تقـول: (لا تؤجل عمل اليـــوم إلى الغـــد) والعاقل والمفكر من ألغى فعلاً من قاموسه (التسويف) مُطلقاً.

والناس منقسمون بين دعاة للتعامل مع المواضيع بشــكل سريع، وآخرون يفضلون التأني والتروي والتأمل أثناء الاطلاع، يقولون أنَّ (في التأني السلامة وفي العجلة الندامـة)، والواقع أن كلتا الطريقـــتين مطلوبـــتين وذلك يتحـــدد بحسب طبيعة الموضوع، ولكنَّ العاقل لا يتعامل مع المواضيع الهامة بتسرع، بينما يغرق ويدقق ويتأمل المواضيع غـير الهامـة، ولكل مقـام مقال ولكل حـادث حـديث ولكل زمـانٍ دولة ورجـال، والرجلُ المناسب في المكان المناسب، وقد جـاء في الأثـر:(أنَّ معلم البشرية كان لا يضع السيف مكان الندى)

كـذلك قـولهم أنَّ (الغاية لا تـبرر الوسـيلة) القـرآن الكـريم يحدثنا عن غيب السماوات والأرض، وهـذا يعـني وبشـكل واضح أنَّ هنالك شـــكلين من أشـــكال الغيب الأول غيب في عـــالم الوجـــود (الأرض)، والثـــاني غيبٌ في عـــالم أو عـــوالم الغيب (السـماوات)، قـال تعـالى: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [الحجـرات: 18] وهـذا يعـني أنَّ الغيبَ غيبـــــان غيب الســــماوات وغيب الأرض، فكما أنَّ (المفروض) أن يكون لكل إنسان اسماً يرسم ويحدد ويعـبر عن دوره وطريقه الهـامُّ والمتمـيز عن غـيره في الحيـاة؛ (الحيـوان ليس له اسم).

كذلك فإنَّ من المفروض أن يكون لكل كتاب أو لكل مقــال عنـوان، فالكتـاب لا يكـون كتابـاً إلا إذا انسـكبت فيه الأفكـار، وكـذلك المقـال، فليس هنالك كتـاب أو مقـال ليس فيه أفكـار

جديدة ومفيدة، وإلا لما سميَّ كتاباً أو مقـالاً، إذ ليس كـلُّ ورقٍ مرشومٍ بالحبر أو مُسَطَّرةٌ به الحروف يعتبر كتابةً، ولا كلُّ كلامٍ منظـومٍ يُعتـبر شـعراً؛ وأنَّ عنـوان الكتـاب أو المقـال، منطقيـاً، يجب أن يحـــدد الوجهة المـــراد التوجه إليهـــا، وأن لا يتنـــاقض (العنـــون) مع المضـــمون (الأفكـــار) الـــواردة في ذلك الكتـــاب أو المقـال، وأن يمثل (العنـوان) خارطة طريق لمسـار الأفكـار التي يتم الإفصاح عنها وتسلسلها ونشرها في ذلك المقال.

فليس صدفةً أنَّ لكل كتاب في العالم عنوان، وأنَّ الكتاب مقسمٌ إلى أبواب وفصـول، وكلِ فصـلٍ إلى فقـرات، ذلك أنَّ المتوقع من قبل القـارئ عـادةً، والمفـروض أن تكـون، كل فقـرة من الكتـاب الجديد أو المقـال الجديد تتضـمن فكـرة جديدة، لم تكن قد وردت من قبلُ في كتـابٍ آخـر، وما سـبق أن قالها أحـدٌ من قبـل، فهـذه قواعد الكتابة معروفـةٌ لـدى الكتَّاب الكبار والمتمرسين، ولكن المطلـوب هو تعميمُها على التلاميذ منذ الصـغر ليتعلموهـا مظـانَّ الأفكـار ويتتبعوها وأن يتقصـوا (الأفكـار الجديـدة) كغاية وهـاجس، وكيفية تلمسـها واستكشافها.

من هنـا فـإنَّ علينـا كـأفراد وكمجتمـع أن نسـقط الكتب والمقالات الفارغة والتي ليس فيها شـيء من الأفكـار الايجابيـة الجديـد والمفيـد (إن معيـار الأفكـار أن تكـون جديـدة وايجابيـة ومفيدة ولها أثر حسن في حياة الناس) وإلا فهي ثرثرة واجترار وحكي فارغ وليس لها معنى، لذلك في الدول المتقدمة صـارت لـــديهم قواعـــد وطـــرق وأســاليب يتبعونهـــا في نشـــر الكتب والمقـــالات العلميـــة والأدبيـــة، إذ ليس مســـموحاً في الـــدول المتقدمـة لكـل من هبَّ ودب أن يكتب للجمهـور، أو أن يتمكن بكل سهولة من التسلل وتسميم عقول الناشئة.

ففي مقابلة لي مع الصـحافي المعـروف (ريـاض الـريس) قـال لي مـرة: أنَّ دار النشر في بريطانيا مثلاً إذا أرادت نشر كتـابٍ مـا، فإنها تستشـير فيه على الأقل ثلاثة من الـدكاترة المتخصصـــين في العلم (الموضـــوع الـــوارد في الكتـــاب) لاستشـارة كـلٌ منهم على حـدى، ليتقـدم للناشر وعـبر تقرير خاص برأيه في ذلك الكتاب أو المقال، ما إذا كان يحتوي على أشياء جديدة لم يسبق أن نشرت سابقاً، وما إذا كانت الأفكار الواردة أو المراد نشـرها في بريطانيا أو دول الاتحـاد الأوربي مفيـدة وايجابية وبنـاءة، ثمَّ عن أهمية الموضـوع الـوارد في الكتـــاب والتوقعـــات لما يمكن أن يكـــون عليه الطلب في السوق المحلية والعالمية (المعايير في الدول العربية مغـايرة تماماً وعكس الاتجاه).

قال المتنبي:

فــإذا كــانت النفــوس كبــــــــــــــــــــــــاراً ... تعبت في مرادها الأجســــــــــــــــــــــــام

مفهوم الحضارة

صــحيح أن لفظ (الحضـــارة) حـــديث معاصر في نشـــأته وتداولـه، إلا أن أساسه موجـودٌ في القـرآن الكـريم، اللسـان العـــربي المـــبين، وقد لا يدركه الكثـــيرون، لأنه في العربية مشـتق من (الحضـور) وأنت إذا كنت في حياتك حاضـرا، في المجتمع والبيئة وتمـــارس النشـــاط، تأخذ وتعطي وتتفاعـــل؛ فأنت حضاري وتمارس الحضارة، أما إذا كنت مجرد مستهلك؛ وغائبا عن التفاعل ولا تمـــارس النشـــاط ومُتَشَـــبِّه بـــالأموات ومـتردي وخامل أو في حالة غيـاب فـأنت حتما متخلف وغـير حضــاري، وبالتـالي لا يوجد حضـارة قديمة وحضـارة حديثـة. فالحضـــارة لا علاقة لها محـــددة بالجغرافيا ولا بالتـــاريخ، بل بـــــــــالوعي والفهم والحريَة لأنك الآن قد تتواجد وتعيش في عاصـمة أقـوى دولة في الـوقت الحـالي واشـنطن مثلا وفي مطلع الألفية الثالثة وتكـــون في الـــوقت نفسه أكـــثر النـــاس تخلفـا، حـارات ومنـاطق الزنـوج، وقد تكـون قد عشـتَ في التـــاريخ البعيد وتكـــون أنتَ المثل الأول للـــرقي الحضـــاري والفكـري، لأن (الحضـارة) من الحضـور والنشـاط والـوعي والحرية والفهم، فمثلا سـيدنا نـوح عليه السـلام بالتأكيد فإنه لايزال أكثر حضارة من كل المعاصرين، على الرغم من مرور الـزمن الطويل على تجربته الحياتيـــة، وســـيدنا محمد وجميع الأنبيـــاء عليهم الســـلام كـــانوا كـــذلك أيضـــا، لأنهم لايزالـــون حاضرون باقون معنا، ولاتزال البشرية بهديهم تهتدي، لا نـزال نعمل بآثـــارهم فهم البـــاقون، وملايين بل ومليـــارات النـــاس المتعاقبين من دعـاة الحضـارة، قد ذهبـوا ولا نعـرف عنهم أي شيء، وكانوا غائبين على الرغم من تمتعهم بفرصة الحياة.

إن اللفظ القرآني المعـادل للفظ (الحضـارة) هو (الـذِّكر) قال تعالى: ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَـكَ قَـالَ طَـائِرُكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل: 47]، قال تعالى: ﴿ قَـالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَـرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّـنَّكُمْ مِنَّا عَـذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يس: 18]، والـذكر هنا هو الحضـور. و(الحضـور) هو أس الأسس في الحضارة.

قـال تعـالى: ﴿ فَـإِذَا قُضِـيَتِ الصَّـلاةُ فَانْتَشِـرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُـوا مِنْ فَضْـلِ اللَّهِ وَاذْكُـرُوا اللَّهَ كَثِـيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ ﴾ [الجمعــة: 10]، و(اذكــروا) أي: استحضـــروا بينكم ذكر الله تعالى وارفعوه ووقروه، قال تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْـرَةً وَأَصِـيلا

﴾ [الأحزاب: 42]فالذكر ترقي وارتفاع ورفع مستوى وحضـور واحياء، واستحضارٌ لأمر الله سبحانه وتعالى.

وجديرٌ بالذكر أن الحضور من (حضر) حضوراً وحضارةً وهـو ضد الغياب والغيبة، وهـو كمفهـوم قـرين الإنجـاز والفعـل التـام والقوة والأخلاق الحسنة والأدب وجودة السير؛ والحضرة بمعنى الحضور ويطلق على كل كبير يَحضُرُ عنـده النـاس... كنايـةً عن المقام ونحوه، والحضرة قـرب الشـيء، والحاضـرة والحضـارة: الـديار الـتي يكـون بهـا قـرار، وهي خلاف الحيـاة في الباديـة، وعموماً فهو يعني ويشير إلى التواجد والنزول في الساح وعلى الميـــاه تجـــاوزاً وفي الســـجلات؛ والحاضـــرة الأذن الصـــاغية، والحضـر: العـدوُ للفـرس، وكـذلك يقـال للمناهـل: المحاضـر للاجتمـاع والحضـور عليهـا، والحضـيرة عنـد العـرب الجماعـة والقـوم، وهي الأوائـل والطلائـع من الرجـال الـذين يتقـدمون، والمحاضرة المجالدة والمُجَاثَاة والمغالبـة، والحاضـرة الجماعـة من العـوالم الأخـرى من الملائكـة أو من الجـان، والمحاضـرة: المشاهدة)[1] وهو في القرآن الكـريم دائمـاً يكـون للأنفس وقـد ذُكر في عشرين موضعاً قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: 14]

وكـانت دمشق حاضـرةُ الخلافة الأمويّـة، وكـانت بغـدادُ حاضرة الخلافة العباسيّة، و(اشـبيلية) و(طليطلـة) من حواضر العـــرب الأمـــويين في الأنـــدلس، بينما كـــانت من قبل روما حاضـــرة الرومـــان وكـــانت المـــدائن حاضـــرة الأكاســـرة من الفرس، وهذا دليـلٌ على أنَّ جـوهر مفهـوم (الحضـارة) قـديم وهو دلالة على الحضـــــــور التفـــــــاعلي الإداري والسياسي والاقتصـــادي والعلمي والأدبي والأخلاقي والمركزيّة والقـــدرة الدائمة على اتخاذ القرار أي أن تكون حُرَّاً في المركز!، بينما (القريـة) بصـريح الآية في القـرآن الكـريم والـتي كـانت وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها حاضِرةَ البحر.. أي أنها كانت ميناءاً تجارياً ومركزاً سياسياً وإدارياً واقتصادياً كبيراً وواسعاً تتبع إليها المنـــاطق الأخـــرى؛ وســـوقاً عظيمة تحـــدُثُ فيها المبـــادلات التجاريـــة، وتـــأتي إليه الســـفن المحملة بالبضائع مشـــحونةً وهي مشـــرَّعةً من جميع الأنحـــاء؛ وهي معمـــرة و(محملة ممتلئة ومعرَّمة عالية ومحزَّمـــة)، تشـــحن أنـــوع البضـــائع قادمـــةً من جميع الجهـــات لتصـــبّ في تلك القرية الكـبرى والـتي كـانت حاضـرة البحر (المينـاء الكبـير) وكـانت

1 (?) تاج العروس للزبيدي سلسلة الـتراث العـربي، الكـويت1972، ج 16 تحقيق عبد الكريم العزباوي

مركزاً ومدخلاً لكل المنـاطق الأخـرى في الإقليم ومنفـذاً لها على البحر.

والفرق كبير بين مفهوم (الحضارة) عند العرب ومفهومها الغربي.[1]

بينما لفظة (التـاريخ) تعبـير عن ما قد مضـى، أو تسـطيرٌ ماديٌ ومعنويٌ لما نُفِّذَ من الأعمال وتحقق من الأفعـال، أو ما كـان قد رَكنَ بقـوة في الـذاكرة الجماعيّة للأمـة، ومفهـوم (التـاريخ المعاصر أو التـاريخ الحـديث) لابد أنه ينضـوي على خطأ في التعبـير ولكنه شـائع! والانتمـاء يكـون دائما للأفضل والأحسن والصح والحق المـبين والحاضر الحسـن، وليس للبـالي ولا للخـرافي ولا للـوهم ولا للجمـود ولا للركاكة ولا للرطانة ولا للخطأ ولا للوثنية ولا للطغمة ولا للتعصب الفـارغ ولا لما هو مغلق ومسـدود ولا أمل منه وحـرف الحـاء عند البعض يشير إلى الإحاطة بالشيء أو تعاظم الحركة.

قال تعالى: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ [الذاريات: 7] الحبك: أي المُتَدَاخِلة مع بعضـها في علاقـات ومتعلقـات، كخيـوط النسـيج (السـدي مع اللحمـة) وفي هـذا وصف للسـماوات السبع، والعلاقـات الـتي تجمعهـا، فهي إنها طباقـا، ولكن ليس

[1] (?) مـرةً في دمشق حضـرت محاضـرةً حـول (المفـاهيم الإنسـانيّة في التـاريخ القـديم وعلم الآثـار) وذلك لأحد الأصـدقاء من البـاحثين العـرب المهمين في علم الآثار والتاريخ، وفوجئتُ بأنَّ الباحث الكبير قد وزَّع علينا ورقةً يحدد فيها ماهيّة المفـاهيم الـتي ينـوي بحثها في محاضـرته القيّمـة، والمدهش أنه نقل حرفيّاً من القاموس الفرنسي والإنكليزي؛ كـلَّ ما أراد قوله عن (الأمة) و(القومية) و(الوطن) و(الشعب) و(الحضارة) و(التاريخ) و(الجماهير) و(الثـورة) و(الحريـة) و(الديمقراطيـة) وغيرها من المفـاهيم التي شَمَّلَهَا في محاضرته القيّمـة؛ وفي النهايّة لمّا اعتـذرت عن المداخلة أصرَّ عليَّ بالمشاركة وطلب مني التعليـق؛ فقلت له وللحاضـرين ما يلي: لماذا يُصرُّ الباحثون العرب على التعاريف الألمانية والفرنسـية والإنكليزية لمفهوم (الحضارة) وغيرها مع أنها أصـبحت متخلفة وقديمة وقد تجاوزوها في أوربـة؛ ولكن لمـاذا نُصـرُّ على تـداولها في الحيـاة الثقافيّة العربية ؟ لماذا لا يكون لنا نحن العرب مفاهيمُنا العربيّة التي تنبع من الحياة العربية ومن فكر عربي حر ؟ لقد فـوجئت بتعليق الـدكتور المحاضر على كلامي، والذي قال بأنه: لا يوجد تعاريف عربية لمثل هذه المفاهيم؛ وسألني أمـام الحضـور إذا كنت أعـرف شـيئاً عن التعـاريف العربية للحضـارة والأمة والوطن والثورة والحرية! والواقع أنـني في حينه فـوجئت من رد صـديقي الـدكتور المحـترم، م .ب. ق، وفـوجئت أيضـاً من رأي الكثـيرين ممن حضروا تلك المحاضـرة، الموقف الـذي أوضح لي يومها بكل جلاء ضـحالة الزوادة والفراغ في المضمون لدى أكثر الكتـاب والبـاحثين والمحاضـرين والأكـاديميين العـرب. لقد أصبحوا مجـرد مـرددين ومكـررين لمعطيـات الغـرب المهيمن؛ امعـة، وهم في الدراسـات والبحث العلمي والكتب الثقافية أبعد ما يكونوا عن الهم العربي والقضايا العربية والفكر العربي لا يمتلكون أدوات البحث العلمي، وباختصـار لم يعـودوا بـاحثين عـرب، إنهم بشـكل من الأشـكال مجـرد تلاميذ للبـاحثين الأوربـيين والمستشـرقين واليهودً أو يخدمون عندهم ينفذون أدوارهم ويروِّجون لبضاعتهم ليس إلا.

كما يتوهم البعض من المجسمين، فالسماء ليست الفضاء ولا تعــني الفضــاء؛ وليس في اللســان العــربي شــيء أســمه (الفضــاء) ولا يوجد في القــرآن الكــريم لفظ (الفضــاء) لأن الفضاء تعني الفـراغ ولا يوجد علميا في هـذا الكـون فضـاء أو فراغ لأن الكون مليء أساسا!

ومفهــوم (طباقــا) ليس بالضــرورة أن تعــني طبقــات... بعضـــها فـــوق بعض، ولكنها تتطـــابق في محتوياتهـــا، وفي أنشطتها وفي أهدافها، أو أنها جميعها تسعى وتعمل في نفس الاتجــاه، وبالتــالي فجميعها تلتقي وســتلقي عند نفس الغاية والهدف، أنا أقـول مثلا أن ما في بيـتي من الموجـودات طبقا وطباقا لما في بيتك من الموجــودات، ولكن في هــذه الحالة ليس بالضـروري أن يكـون بيـتي وبيتك في طوابق في نفس البناء وفوق بعض والله أعلم.

لقد قــام إبــراهيم باشا في أثنــاء حملته على بلاد الشــام 1832ـ -1842م بالقضاء على صناعات كثيرة كـانت منتشـرة في جميع المواقـع، الـداخل والسـاحل لاسـيما صـناعة تعـدين الحديد وذلك في جميع مـــدن بلاد الشــــام، والمعـــروف أنَّ إبراهيم باشا أثناء حملته تلك، أنه قـام بتحـريم صـناعة تعـدين الحديد وصـناعة الأسـلحة وغيرها من الصـناعات على النـاس، وحصر موضوعها بالجيش، وقد سنَّ من أجل ذلك التشـريعات ووضع القـــوانين وهجَّر وأخذ الصـــنّاع إلى مصر تحت التعسف والقهـر، ومن يومها اختفت وتلاشت تلك الصـناعة وغيرها من الصناعات الكثيرة الـتي كـانت منتشـرة في بلاد الشـام أيامها وانمحت أسرار صناعة السيف الدمشقي وأصـبحت سـراً من الأســـرار المجهولة تبحث عنها الآن أمريكا وروســـيا بعد أن كــانت هــذه الصــناعة شــائعة ومنتشــرة في أســواق دمشق واللاذقية إنَّ حملة إبــراهيم باشا (وهو غــير عــربي) على بلاد الشام كانت مأجورة وضمن خطة وبموافقة فرنســية إنكليزية وقد أوكل إليها مهـــام قـــامت بتحقيقها (وهي تهيئة وإعــــداد المنطقة لقدوم اليهود ولإقامة دولة لليهود في فلسطين حيث أنه ثبت بالنتيجة أنَّ مرحلة محمد على في مصر والشـــــــام كانت تكملة للمرحلة وللمهمة الأساسـية الـتي كـانت مطلوبة من حملة نـــابليون على مصر والشـــام) ولكن عنـــدما انتهى دورها طُلب منه الانسـحاب، لقد كـان لتلك الحملة تـأثيرٌ بـالغ الأهمية لم تنحصر آثــاره إلى الآن... لاســـيما على صـــعيد ما أحدثته من تغيــير على صـعيد المنــاهج الدينية والتعليمية في الحياة العربية فـالمعروف أن إبـراهيم باشا في حينه قد أبـدل الكثير وأثر كثـيراً على العـادات والتقاليد الحياتية لمجتمع بلاد

الشام في المأكل والمشــرب والملبس والمراسم الدينية من الرسوم والعادات والتقاليد والأعراف لأهالي بلاد الشام.

فمنذ ذلك الحين صار للإسلام رجـال دين، ارباـاً للشـعائر الدينية، وصـار لهم لبـاس ممـيز، الإمـام والشـيخ، (الجبة أو العمامة والقفطـــاط ذو الأكمـــام الفضفاضة هـــذا اللبـــاس المقتبس عن لباس رجال الدين عند أهل الكتاب) وتمتع رجال الدين المستسلمين بالأزياء الخاصة وبالألوان الخاصة تابعاً لما هو عليه الحال في الأزهر الشريف وصار الأزهر الشـريف منذ ذلك الوقت مهيمناً على الحياة والدين في بلاد الشـام وأصـبح الأزهر هو المصـدر الأساسي للفتـاوى وللفقه وللتفسـير وإليه ترجع المراجع كلهـا؛ ولم يعد يُعـترف في الفقه والفتـــوى إلا على خريجي الأزهر الشريف، وتم لهم منذ ذلك الحين التحكم بالعقل والفكر واليقين العـــربي الإســـلامي، أو أنهم منذ ذلك الحين قد قاموا بالأطباق على الدين والدنيا في بلاد العرب

فهل كـــان (محمد علي) أيامها يمثل القاعـــدة المتقدمة للدول الغربية فرنسة وإنكلترا وقد نفذ دوره كاملاً أو ما عُهــد إليه في تلك المرحلة بكل أمانة؛ هل كانت الـدولتان بالإضـافة للدولة العثمانية المريضـة؛ قد اشـتركوا جميعهم في اسـتثمار دولة (محمد علي) في مصر والـتي كـان قد أقامها بالأسـاس تحت مظلتهم وبمســاعدتهم، فهل شـــكل (محمد علي) بداية القــوة والعصا الـتي رفعتها الـدول الثلاثة في القــرن التاسع عشر لتـؤدب أو لتقمع أو لتطـال بها كل من كـانت تسـول له نفسه من العرب بالتحرك أو التململ لنيل الحرية، أو للخروج من إيهـاب التبعية، أو الاعـداد أو للشـروع في تشـكيل دولة عربية حرة مستقلة، تم القضاء عليها في المهد وقبل الــولادة في أعمــاق الأرض العربية أو على اعتبــار أن دور محمد علي وفي ما بعد أســرة (محمد علي) الـتي كـانت طــوال حكمها لمصر تقـوم على خدمة اليهـود في مشـروعهم الطويل الأمد لــذلك فــإن حكم (محمد علي) وأســرته في مصر أبــداً على الرغم من توفر الفرص الكثيرة والمجالات.

لأن مصر كانت أفضل من إيطاليا مثلا وأوفر واردا وموارد وطاقات فلمـاذا تقـدمت إيطاليا ولم تتقـدم مصر والسـودان، على كل حـال فـإن (محمد علي)، وفي ما بعد (أســرة محمد على) لم يؤْثَر عنهم أنهم قاموا بتطـوير عملي هـادف لأي من منــاحي الحيــاة في مصر والســودان؛ (إلا ما كــان لمصــلحة شخصــيّة) وقد اقتصر دورهم على اســتنزاف المــوارد وتبديد الـثروات؛ واشـتهرت مصر منذ ذلك الحين بـالملاهي وتحـولت إلى الســـياحة في الآثـــار الـــتي نُهبت وقد وصـــفت خطأً

بالفرعونية وصارت مصر كلها دون أن تدري في خدمة اليهـود ومشـــــروعهم لإقامة دولتهم؛ وفي الكامل في التـــاريخ لأبن الأثـير: أن فرعـون مصر في أيـام سـيدنا موسى كـان اسـمه مصعب بن معاوية صاحب يوسف الثاني وكـانت امرأته آسـية بنت مزاحم بن عبيد بن الرَّيان بن الوليد فرعون يوسف الأول وقيل كـانت من بـني إسـرائيل، فلما نـودي موسى أُعلم أنَّ قـابوس فرعـون مصر مـات وقد قـام مكانه أخـوه الوليد بن مصعب، وكان عمره طويلاً، وكـان أعـتى من قـابوس وأفجـر، وأمر أن يأتيه هو وهارون بالرسالة ويُقال إنَّ الوليد تزوج آسيا بعد أخيه الكامل في التـاريخ ص126 ج1، فهل سيسـتغرب أحد بعد ذلك إذا تبـدَّل اسم فرعـون عند العـرب أنفسـهم من (مصعب بن معاوية) أو (الوليد بن مصعب) ليصـبح (تـوت عن آمـــون) أو (رمســيس) أو غــيره وتصــبح اللغة الفرعونية (الهيرغلوفية) كما أصر عليه اليهودي (شامبليون) عندما ادعى أنه فـكَّ أو قـرأ ما هو مكتـوب على (حجر الرشـيد) التلفيق القديم الحديث والرواية اليهودية، نفس الطريقة المتبعة دائماً والمشكلة أن المسلمين العرب كانوا نـائمين ولا يزالـون، عمَّ افـتراه اليهـود والمهـودون ليكـون بـديلاً عن اللسـان العـربي المبين كما أكَّد عليه القرآن العربي المبين.

اليهودي (جـان فرانسـوا شـامبليون) الـذي كـان قد درس اللغـات الشـرقية وكـان أسـتاذاً للتـاريخ القـديم وقد عمل كمعتمد لنابليون 1816-1818م وكـان سـكرتيراً لكلية الآداب لعـدة سـنين وهو يفـبرك قصة فرضـية فرضـوها وهي اللغة (الهيروغليفية) واللغة (الديموطية) على أساس أنه يعمل على فك رموزها في سيناريو معقد وقصة مطولة؛ وبالتالي فرضت النتـائج الـتي لاتـزال عصـية على المنطق والعقـول والأفهـام فرضت كما هي نصـوصٌ وصـورٌ تعـرض عرضـاً صـامتاً ميتـاً، فقط الغرض منه البرهنة على صحة ادعاء اليهود في ما كتبوه في توراتهم! لقد قاموا على حد تعبير مفكـريهم (قـام اليهـود بجهـدٍ خـاص لبلـورة الأسـرار الأبجديـة) واسترشـدوا بـذلك بالنصـــوص الموازية الموجـــودة في اللغة العبرية والعـــرب المسلمون غائبون إن من الطبيعي في حال الغيـاب والهبـوط والنـوم العميـق، أن تقـوم الكلاب حـتى الكلاب بنهش الجثث. ولكن مـــاذا عن مقولة القـــرآن العظيم الـــذي ينفي كل تلك الادعاءات؟

هــذا السـؤال ليس له جـواب أبـداً لآن أصـبح الكلام في الفكر العـالمي والثقافة العربية يـدور عن (رع) و(رمسـيس) و(تـوت عنخ امـون) و(خوفـو) و(خفـرع) و(منقـرع) واللغة

الهيروغليفية وهذه الألفـاظ كـانت طارئة جديـدة بـدأت مطلع القـــرن العشـــرين وهي بديلة عن اللغة العربية المشـــروع اليهودي ولا ندري من أين وكيف جـاؤوا بهـذه الأسـماء الغريبة عن القـرآن الكـريم والأذن العربية ومع ذلك لقد فرضت هـذه الأسماء وشاعت وصرنا ندرِّسها لأولاد العـرب في المـدارس، وقبل مجيء نابليون إلى المنطقة لم يكن العـرب ولا أحد في العالم يعرف عن هذه الأسماء أي شيء ولكن الغائبون دائمـاً خاسرون، وبما أن العرب المسـلمين كـانوا غـائبين ولايزالـون غائبين فإن نابليون أثناء حملته وبعدها قام مع اليهـود منذ ذلك الحين بكتابة التـاريخ العـربي الإسـلامي وفق مـزاعم التـوراة وفرضوها على العالم والمسلمين العرب وتمّ للتوراة اليهودية خلق واقع مناسب لتحقيقهـا، الأمر الـذي يـذكر بمقامة (بـديع الزمان الهمذاني.

لقد عملت الصــحافة اليهودية في مصر منذ نشــأتها على نسـبة كل فضل في العـالم إلى اليهـود ومن يطلع على هـذه الصحف يخـرج بانطبـاع مـؤداه أن اليهـود لهم الفضل في كل اخـــتراع وكل اكتشـــاف تم التوصل إليه في أي مجـــال من المجـــالات وفي أي مكـــان من العـــالم، فـــاليهود كما تجمع الصــحف اليهودية في مصر هم الــذين كـــان لهم الفضل في اكتشـــــاف أمريكا وهم الـــــذين يرجع إليهم الفضل في تلك الحضارة الأوربية الزاهرة فهم الذين نقلوا الأرقام العددية من الهند إلى أوربة وهم الذين حملوا الـتراث الـذي خلفه العـرب من العلم والسياسة والمدنية في اســــبانيا بعد زوال دولتهم ونقلــوه معهم حيثما حلــوا في فرانسة والبرتغــال وايطاليــا، وكـانت الصـحافة دائمـاً ترجع جميع الفضل لليهـود في كل ما يخص العرب مما تقدم من الحضـارة فهي توهمهم أن اليهــود كــان لهم اليد الطــولى في انتشــار التوحيد بين العــرب قبل ظهـور الإسـلام، وان اتصـال اليهـود بـالعرب أدى إلى حـدوث تغيـير كبـير في حيـاة العـرب الاجتماعية وأن اليهـود قـاموا بنصيب وافرٍ في رفع شأن الأدب العربي نظماً ونـثراً، ومضت الصــــحافة اليهودية إلى أبعد من ذلك إذ نســـبت صـــحيفة (الشمس) المصرية إلى اليهود فضل الارتفاع بمسـتوى الأدب الآشــوري والبــابلي والفيــنيقي وفضل الحفــاظ على الأدب والتراث العربي في عصر الفتوحات مما تطرق إليه من لحنٍ، نتيجة دخـول أمم أخـرى تحت لـواء الدولة العباسـية وذلك بما نقله اليهــود إلى العربية من الفارســية واليونانية والســريانية مما كــان له الأثر الكبــير في اثــراء كــنز المفــردات اللغوية والتراكيب الفنية...

وحـاولت الصـحافة اليهودية أن تجـرد العـرب من كل ما يفخـرون به في مجـال مسـاهمتهم الحضـارية، فـذكرت أن الأرقـام الـتي يُقـال أنها عربية ليست عربيـة؛ وإنما تعـود في أصـلها إلى الهنـد، وأن التجـار اليهـود هم اللـذين نقوها إلى العربية في عصـور الظلام، حـتى الحضـارة المصـرية القديمة التي تعد من أقدم الحضارات في العـالم لم تسـلم من نسـبة الفضل فيها إلى اليهـود، فقد ذكـرت صـحيفة (إلشـمس) أن مصر الـتي تعتـبر مهد الحضـارة والمدنية تـأثرت بالمدنية السامية برغم أن الدم السامي لم يجر في عـروق المصـريين وأن أثر الجنس السـامي ظل في مصر على التعـاقب ابتـداء من عهد الفراعنة إلى الحكم العـربي، وبالإضـافة إلى ذلك كـانت الصـحف اليهودية في مصر تزخر بالعديد من الموضـوعات الـتي تتحـدث عن فضل اليهـود على الحضـارة العربية في جميع المجـالات في الموسـيقى والفن والـدين والعلوم والاقتصـاد والتجـارة والفتوحـات الإسـلامية إلى درجة أن مجلة (الاتحاد الإسـرائيلي) خلصت في أحـدى مقالاتها إلى القول (أه لولا اليهود ما كان هناك فلسفة ولا تقـدم ولا حكمة سـليمة) طبعـاً هـذا كلام اليهـود، ولكن أين هو الكلام العـربي أين هو الرد المنطقي ومن الذي سيتولى الرد إذا كان العـرب المعنيون غائبين عن الحضور ومن الطبيعي أن يكون الغائبون دائماً خاسرين فمتى سيحضرون؟

بعد أن كانت تشتهر بالدين والعلم، في الفـترة الـتي كـان المطلوب فيها تهيئة الأجواء لقدوم اليهود، أو لقيام، أو لإنشـاء دولة لليهود في المنطقة عندها لم يخطر ببـال أحد أن اليهـود في ذلك الوقت، كانوا في مرحلة الإعداد والتهيئة وأنهم كـانوا يتعمـدون إبقـاء الشـعب العـربي في وضع الانتظـار دون أي تطـور أو تقـدم يـذكر، بينما تعـاقبت على الحكم في مصر حكومـات وأحـزاب كـانت مرتبطة نفـذت الخطط الرامية لإجهاض أي نمو في مصر والسودان وكـانت تعمل على إبقـاء كل الأحوال والمجـالات في حالة العطالة لا حيـاة فيها، ودائما السـواد الأعظم من الشـعب العـربي على حافة المـوت، فيها امتص اليهود الاقتصاد واستثمروا الزراعة حتى أن بعض وزراء مصر عـام 1926م علنا كـانوا يهـوداً، كـانت مصر مرحلة ومحطة وقاعـدة للوصـول إلى إعلان إقامة دولة لليهـود في فلسطين 1948م.

كان مدرس علم الآثـار والمشـرف على التـاريخ المصـري القـديم ووادي النيل في الجامعـات المصـرية وخلال النصف الأول من القرن العشرين كـان يهوديـاً متشـدداً يحضر لقيـام

اسرائيل، لقد بدأوا منذ ذلك الحين بإعادة كتابة تاريخ المنطقة والعـالم من جديد وفق معطيـات التـوراة، أو أنهم قد أعـادوا كتابة التـاريخ وفق معطيـات التـوراة اليهودية وبعيـون وأقلام يهودية[1]، لقد قـاموا منذ ذلك الـوقت أي منذ مجيء نـابليون إلى المنطقة العربية قـــاموا بالعمل على مسح الـــذاكرة البشـرية! وكتبـوا للعـرب وللمسـلمين وللعـالم وألزمـوهم... تاريخا جديدا لم يكونوا ليعرفوه، صنعوه بديلا عن تاريخهم!

ألم يحضر (الجنرال نابليون بونابرت) الذي أبحر إلى مصر عـام 1798م، على رأس حملة مؤلفة من عشـرة آلاف بحـار وستة وثلاثين ألف جندي (36000) ومعها أيضا مئة وخمسـين (150) من العلمـاء اليهـود أو المهـودين النـابعين من التـوراة اليهودية، والذين ينتمون إلى كل مهنة تخـدم ادعـاءات اليهـود الـتي في تـوراتهم! وكـان يرأسـهم اليهوديـان (مـونج وغـوفر واسـان هبلـير) وكـان معهم الكثـير من التقنـيين المصـورين والرسامين يرأسهم اليهـودي (فيفيـان دينـون؛) لقد أعد لهـذه الحملة برنامج تنقيب واسع في أهرامات الجـيزة وغيرهـا، لقد نظم (فيفيان دينـون) الخرائط لكل ما شـاهده! واسـتنادا إلى تلك التقـارير وتلك الرسـوم عين نـابليون لجنة من العلمـاء تحددت أعمالها في الاستكشاف والتقييم والتحديـد، وفي رفع البيانـات الواضـحة عن كل ما يعـثر عليه في مصر العليا (هل كـانت تلك الخرائط والرسـوم والتقـارير هل هي فعلا شـكلت فيما بعد أو صـارت أساسا ومنطلقا لما ادعـاه اليهـود ولجميع الأحداث حتى عام 1948م عندما أعلن اليهـود قيـام دولة لهم في فلسـطين ولما بعـدها من أحـداث؛ هـذه الأحـداث والـتي لاتزال مستمرة وستبقى مسـتمرة ما دام العـرب المسـلمون في غيبتهم مبعدون)

(القرآن ذي الذكر): أي القرآن المتخصص بالرفعـة والرفـع، وهو القوة الرافعة للإنسان، فالقرآن الكريم الأساس أن مهمته، أنه رافعة ومحرك ومولد، وهو كتاب الثـورة وهـو كتـاب الحريـة وهو كتاب الإنتاجيـة أيضا، وهـذه هي مهمـة القـرآن العظيم في حياة الناس، إن للقرآن العظيم مهمة عظيمـة أساسـية حرفتهـا الصوفية والسلفية والشيعة.

فإن مفهوم الثورة أساساً مفهوم عميق وجــذري وعظيم، وهو يعـني انقلاب واسع وتبـدل للأوضـاع والأحـوال في جميع مناحي الحياة، وعلى جميع الصعد في المجتمع، وقلبٌ لها من الـوهم والتخلف والانحطـاط إلى التقـدم والحقيقة والـوعي والإرادة والحرية ولفـظ (الثـورة) مـأخوذٌ من ثـورة البركـان،

---

1 (?) (اليهود المصريون) سهام نصار دار الوحدة بيروت 1980 .

وليست من الثور والثورة لا يقـوم بها المجنـون ولا الغافل ولا الجاهل أو المعتـــوه بل يقـــوم بها المفكر والعاقل والـــواعي والحضوري بينما للأسف الشـديد تحـولت في هـذه الأيـام إلى وهم وإلى مجـــرد عمل سياسي ومصـــالح خلبيه وفشل على فشل يقـــوم بها العـــاطلون عن العمل لتحقيق أحلامهم في المصالح السريعة، وأصـبح المشـروع الثـوري (الثـورة) إذا لم تنجح في اسـتلام السـلطة فإنها تتحـول إلى مجـرد مـؤامرة ويحكم عليها بالإعـدام أو النفي وإذا اسـتلمت السـلطة فإنها تصبح ثورة شعبية، فما هو المفهوم الحقيقي للثورة؟

وليست الآيات في القرآن الكـريم مجـرد قصص تحكى أو تروى للأطفال قبل النوم! وهكذا فإن (محي الدين بن عـربي) وكانوا قد أنكروا في زمانه؛ مقالته الغريبة في (وحدة الوجود) ذات المنشأ غـير العـربي ولا المـبين؛ وردوا عليه طلاسـمه وأسجاعه وشطحاته وتأويلاته لآيات القـرآن الكـريم، الـتي لم تكن إلا عبارة عن شراك ومتاهات ساهمت وعبر القرون، في عملية إبعاد للفكر العربي عن الفهم الصحيح والمباشر لكتاب الله تعالى رب العالمين، القرآن العربي المبين، الـذي لم يكن يحتاج إلى من يبينه؛ أو يشرحه[1] هـذه الـدعوات جميعها الـتي تعتبر، دليلا على حالة تفتت الذات العربية الموحـدة وتمزقهـا، فسـوقت على أنها حالة إيجابية نـادرة! ولكن الحقيقة هي أنها جميعهـا، كـانت من اخـتراع حالة الانغلاب والهزيمة والـتراجع الخطـير الحالة الـتي تسـلط فيها الأعـداء على الحق والعـدل والصح والخير، فأبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

لهذا الحديث الرائع والعظيم أبعادٌ كثـيرة منها التأكيد على أنَّ العروبة أساسـاً هي الاتصـال بالله تعـالى وأن سِـمَةَ هـذا الاتصـال الأساسـية هي التَعَـرُّب (اليقين) وهو المحـدد لهـذا الاتصال (الإيمان بالله تعالى) وأنَّ الوصول إلى العروبة يكـون عن طريق التقوى والتقوى فقط، وأنَّ هـذه التقـوى هي الـتي سـتفرز بالنتيجة العـرب عن العجم أو عن العُجْمَةِ الـتي هي حالة دون العروبة قـال تعـالى: وَلَـوْ جَعَلْنَـاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَـرَبِيٌّ قُـلْ هُـوَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا هُـدًى وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْـرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [فصلت: 44].

---

[1] (?) ففي كتاب (الجامع الصـحيح) لمحمد ابن إسـماعيل البخـاري: «حـدثنا قتيبة بن سعد: حدثنا سـفيان (بن عينيـة) عن عبد العزيز ابن رافيع قـال: دخلت أنا وشـدادُ بن معقل على ابن عبـاس فقـال له شـداد ابن معقـل: أتَرَكَ النبي من شيء (زاد الإسماعيلي سوى الآن) قـال ما تـرك إلاّ ما بين الدفتين قال ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه، فقال: ما ترك إلاّ ما بين الـدفتين» عن كتـاب الإسـلام الصـحيح لإسـعاف النشاشـيبي» دار العودة بيروت 1985م.

حيث جعلوا من الإسلام العربي الذي كـان من المفـروض أن يعبئ الإنسان المؤمن العربي وكل إنسـان مـؤمن ومسـلم في العـــالم، أن يعبئه بالإبـــاء والكرامة والعنفـــوان والمجد والسـؤدد والسـيادة والحرية والعـدل وأن العـزة لله الواحد القهار، وأن الإنسان كل إنسان هو كيان مقـدس لأنه من روح الله قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُـوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29] الحجر وهذا يعني أن مبدأ الإنسان، كل إنسـان كـان من روح اللـه، وبالتـالي فـإن الإنسـان، كل إنسان، هو كيان مكرم لا ينبغي أن يـذل نفسه أبـدا، ولا فـرق في ذلك بين عـــربي أو أعجمي ولا بين أســـود ولا أبيض إلا بالتقوى[1] كما قال وهذه هي مقولة الإسلام العربي الإسلام الصـــحيح، معلم الحرية للشـــعوب، ولكن الغـــائبين دائما خاسرون، إذاً فما قيمة (الثـورة) إذا لم تقلب الأوضـاع على الصوفية والسـلفية والشـيعة؟ وإذا لم تحـرر النـاس من ربقة كافة الأوضـاع المتخلفة والمتلفة للعقل والوجـدان، والرابضة منذ قرون على اليقين وفوق الحقيقة والطامة لكل شكل من أشكال الوعي والنور عند العرب المسلمين؟

ولكن هـذا الإسـلام مرفـوضٌ بشـدة من قبل أوربة وأمريكا واليهـود، كما صـرح بـذلك زعمـاء أوربا وأمريكا واليهـود وقـالوا أنهم لا يريدون الإسلام العربي الإسلام الحنيف أبـداً بل يريـدون إسلاماً أوربياً، أو إسلاماً أمريكيـاً، أو إسـلاماً مهـوداً ينسـجم مع الانحـراف الحضـاري ويتلاءم مع أمـراض العصر الشـائعة الـتي تتوهم أن إرادة الله العلي القـدير يمكن أن تخضع لإرادة اليهـود والصـليبية المهـودة المهيمـنين الآن على وسـائل الإعلام في العالم، وكذلك على مركز القرار في الدول الكـبرى والصـغرى، وعلى الدفة التي توجه وتسـوِّقُ الهيمنـة، وتوجِّهُ وتقـود الصـراع ضد الإسلام الحنيف العربي دين الله الحق، والعرب وحضـارتهم العظيمة.

أمـا الحقيقـة العربيـة المبينـة فتقـول أنـه يجب على المـؤمن العربي الحق نبذ الاستكانة، والنسـك والزهـد والـذل لغـير اللـه الحالات التي كانت أصـلاً غريبـةً عن الإسـلام، تلـك الحـالات الـتي

---

[1] (?) لهذا الحديث الرائع والعظيم أبعـادٌ كثـيرة منها التأكيد على أنَّ العروبة أساسـاً هي الاتصـال بالله تعـالى وأن سِـمَةَ هـذا الاتصـال الأساسـية هي التَعَـرُّب (اليقين) وهو المحـدد لهـذا الاتصـال (الإيمـان بالله تعـالى) وأنَّ الوصول إلى العروبة يكـون عن طريق التقـوى والتقـوى فقـط، وأنَّ هـذه التقوى هي الـتي سـتفرز بالنتيجة العـرب عن العجم أو عن العُجْمَة الـتي هي حالة دون العروبة قال تعالى: وَلَوْ جَعَلْنَـاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَـالُوا لَـوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُـلْ هُـوَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا هُـدًى وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَـادَوْنَ مِنْ مَكَـانٍ بَعِيـدٍ [فصلت: 44].

تُورِثُ الاستكانة والذل، إنه أسلوبٌ في الحياة غير عربي أسـلوبٌ كـان وارداً عن الأمم الأخـرى أسـلوبٌ ينطـوي على خـداع خطـير للعرب المسلمين وعلى تثبيط عزائمهم وتمويت مُهَجِهم لإجهـاض روح النضال والجهـاد والمقاومـة عنـدهم ويـؤدي بهم بالتـالي إلى الإنفنـاء والتلاشـي والانقـراض تلـك الـدعوة الـتي تنص على نفي الذات فالصبر العرب، صبرٌ على الأيام، صبرٌ على ما أمر بـه اللـه عز وجل، على ما هو من الله ، على ما هو من أمر الله، الذي لا إله غيره، التكليف والابتلاء على ما هو فتنة من الله للإنسان، صبرٌ عن تحقيق شهوة، أو تلبية دافعٍ من الدوافع الغريزيـة، ولكنّ اللـه أمرنا بالجهاد والتناحر مع أعداء الله وأعدائنا، وأن لا نستكين، وأن نُعَّدَ الإعدادات؛ ما استطعنا من كـل أنـواع القـوة والوسـائط السياسية والعسكرية والاقتصادية وأن يكـون العـرب المسـلمون المؤمنون دائماً جاهزون للذود والدفاع عن حياض الوطن، وثقتهم بالله العلي العظيم كانت هي مصـدر ثقتهم بقـدرتهم على هزيمـة أعداء الله وأعـدائهم ولا خـير على الإطلاق بإنسـان لا يوجـد لديـه حسٌ بضـرورة الجهـاد ضـد الأعـداء لأن الحريـة لا يمكن أن تنـال بالسؤال الذليل وإراقة ماء الوجـه والاسـتجداء والانتظـار كالعبيـد المقيدين بل تؤخذ وتُنال بالمناجزة وبالمصـابرة في الثغـور وعلى الحـدود والـدفع والانـدفاع إلى الجهـاد بشـرط الإيمـان والـوعي والعلم والمعرفة والتخطيط والإعداد فمـا بـال العـرب المسـلمين اليومَ مُسْتَمْوَتُونَ لا نبض فيهم؟

فـإن مفهـوم الثـورة أساسا عميق وجـذري وعظيم، وهو يعني انقلاب واسع وتبدل للأوضاع والأحوال في جميع منـاحي الحياة، وعلى جميع الصعد في المجتمع، وقلب لها من الـوهم والتخلف والانحطـاط إلى التقـدم والحقيقة والـوعي والإرادة والحرية ولفظ الثـورة مـأخوذ من ثـورة البركـان، وليست من الثـور والثـورة لا يقـوم بها المجنـون ولا الغافل ولا الجاهل أو المعتـوه بل يقـوم بها المفكر والعاقل والـواعي والحضـوري، بينما للأسف الشـديد تحـولت في هـذه الأيـام إلى وهم وإلى مجرد عمل سياسي ومصالح خلبية وفشل على فشـل، يقـوم بها العـــاطلون عن العمل لتحقيق أحلامهم في المصــــالح السريعة، وأصبح المشـروع الثـوري، فـإن الثـورة إذا لم تنجح في استلام السلطة؛ تتحول إلى مجـرد مـؤامرة، ويحكم عليها بالإعـدام أو النفي، وإذا اسـتلمت السـلطة فإنها تصـبح ثـورة شعبية، فما هو المفهوم الحقيقي للثورة؟

لقـد ابتلي العـرب بهـذه المواجهـة، وعليهم أداؤهـا، وأداء الواجب بكل الوسائل المتاحة على أحسن وأكمل وجه. إن الدم العربي ليس رخيصاً عند الله بل هو غالٍ جداً والأرواح العربية

يجب ألا تزهق مجاناً دون هدف كما يحصل في هذه الأيام إن الحرب حرب العرب مع اليهود، يجب أن تكون حرباً ذكية إبداعية في أساليب المواجهة متعددة الأنماط والأشكال ليست حرباً تقليدية أو كلاسيكية فحسب وفي حال يقظة العرب وفي حال توحدهم كونهم أمة واحدة، وفي حال اكتشافهم لحقيقة العرب، عندما تتجذر فيهم روح الوطنية الحقة، العروبية العملاقة، سوف يتشكل الإنسان العربي كياناً عبقرياً فذاً، عندها سيصبح ذكاء الكائن اليهودي كذكاء الثعلب، الذي لن ينفعه ذكاؤه، عندما يحيط به السبع، فالأساس أن تكون الثورات الحقيقية في الحياة الإنسانية هي ثورات الأنبياء والمرسلين والمبعوثين من الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين لينقدوا الواقع السالب الخرب في العالم الآسن المعتاد، ويقلبوه ويغيروه للأفضل؛ وليبنوا للناس مناهج ثورية فذة ترفض العبودية والذل والهوان وتعشق الحرية إلى الله الواحد القهار ليعلموا الناس الخير، فكيف صوروا وأبدلوا للناس وأفهموهم إن الفلاسفة اليهود مثل ماركس ولينين وكاسترو وغيفارا يمكن أن يحلّوا محل الأنبياء كيف صوروا لهم وأقنعوهم أن مثل هؤلاء يمكن أن يكونوا بديلا عن أنبياء الله وأن فلسفاتهم العقيمة يمكن أن تكون بديلا عن رسالات الله سبحانه وتعالى رسالات السماء ؟ بلى فكل كلمة في القرآن المجيد الأساس أنها ثورة وثورة عارمة ولكن من الذي قرأ القرآن قراءة عربية؟

إذ من أجل أن نصبح قادرين على تغيير وضع الإنسان الحالي وإعادة تنظم عالمه ينبغي علينا أن نكون أحرارا، والحرية تمتلك بالتخفف من الأثقال الأرضية وذلك بضبط الذات وقمع شهواتها وملاشاة حاجاتها وبذلك نصبح أقدر على الفعل والحركة، أقدر على صنع المستقبل لأننا تحررنا من الحاضر، إن المستلبين في صراع مع ذوي العطالة فعليهم أن يمتلكوا خلق المحارب، بأن يمتنعوا على الإغراء وسهولة العيش، وهذا الصراع لا بد وأن يشتد ويتخذ شكل العلانية ما دمنا نصر على بناء حضارة تزعزع عطالة المترفين وتحملهم على اليقظة ورؤية الإنسان في أقصى مواقفه وأبلغها في التعبير عن ذاته، موقف الرفض والثورة[1].

---

1 (?) لقد أبادت الثورة الفرنسية، إبان قيامها، قرى فرنسية كاملة وأحرقت مدناً وقتلت آلاف الضحايا وكذلك الثورة الشيوعية البلشفية الحمراء التي طحنت في أتونها آلاف الأبرياء والثورة الشيوعية الصينية كذلك وحرب تحرير وتوحيد أمريكا ذهب بها واكتوى بنارها العديد من الناس من خلق الله والحروب العالمية الأولى والثانية التي قضت على الملايين وكذا حروب التحرير من الاستعمار في مختلف أنحاء العالم لاسيما في الجزائر وفيتنام كل تلك الجرائم وكل تلك الأعمال الوحشية التي قاموا بها في حق البشرية كلها لها عندهم مبررات وهي إرهاصات الحضارة وثمن

هكـذا يعـاد تنظيم الـذات، والأمر الثـاني الـذي يقتديه هـذا التركيب، هو إعادة تنظيم الموضوع، والموضوع امتداد الجسد كما رأينا، فتنظيم الموضوع يعني أن نقترب من نظام الجسد، وقد رأينا الموضـــوع يقـــترب من نظـــام الجسد باقترابه من النظـــام والموضـــوعية لأنه بـــذلك يتنـــاغم مع إيقـــاع الجسد المنتظم (العدل أساس الملك).

هذه العبارة كانت منتشرة على ألسنة الناس أيـام زمـان، كـــانت تكتب في اللوحـــات المزخرفة وتوضع على الجـــدران وفي وســـائل النقل العامـــة؛ ولكن الحرية أساسا تكمن في العمل باســتمرار على إزالة العوائق من طريق النــاس عبــاد اللــه، والحــاكم العــادل يعمل دائما على تنصـيب المسـؤولين الوطنيين الشرفاء (الرجال بكل معنى الكلمـة) الـذين يحبـون الـــوطن ويحرصـــون عليه (ممن لـــديهم روح وطنية عاليـــة) لا على أي خلفية أخـــرى، ويعمل باســتمرار على صـــيانة جهـــاز الدولة وذلك باستبعاد غير الشـرفاء وغـير الوطنـيين والحـاكم العـــادل دائم الصـــيانة لحكمه في كل المفاصل وينتقي رجاله على أساس خدمة الناس عباد الله ولأن العروبة أساسا عبارة عن مشاعر إنسانية متدفقة من الأعماق، خلاقة تصنع الرجـال ويعرف الوطن لغة على أنه المكان الذي ولد فيه، أو أقام فيه الإنسان، إن لهذا المفهوم حقيقة، من الأبعـاد الدينية والحياتية الإنسانية ما هو أبعد من ذلك بكثـير؛ لأن مفهـوم الوطنية نـابع أساسا من تـــوطين النفس على فعل الخـــيرات وهو صـــادر أساسا عن الثقة بتأييد الله تعـــالى، وبنصـــره (الثقة بـــالنفس المؤمنة).

فتـوطين النفس يعـني ملؤها بالثقة بالله سـبحانه وتعـالى لأنه من الصـعب بمكـان، تصـور الحيـاة البشـرية المجتمعية الراقية السامية دون مشاعر وطنية خلاقة مستمدة من الدين الحـــنيف تحفز النـــاس على التواصل الإيجـــابي الفعـــال مع الآخرين واستمرارية البذل النـابع من الـذات الإنسـانية وإرادة العطـــاء في كل ما ينتج عن الإنســـان (بإحســـان) والانتظـــام

التقـدم فـرغم الخلافـات الـتي عمل على نشـرها الطـبري وأعوانه من الشعوبية لتشويه التاريخ العربي الناصع للمسلمين فإن كل هذه الخلافات المزعومة والتي على مانعتقد كانت مبالغاً فيها إلى حدٍ بعيد وقد ضـخمها الطبري كثيراً وعمل من الحبة قبة ولكن على الرغم من هذه الافتراضات المفترضة والمزعومة والمشـوهة للتـاريخ، فـإن الجهـاد والفتح والتحرير العـربي الإسـلامي كـان قد شـمل العـالم في حين أنه في عصر الطـبري عصر المعرفة والإدراك الشعوبي عصر انقلابهم على العرب فإن الإسـلام انكفأ وانحسر وتمـزق وتشـرذم تمامـاً وضـاع، وصـار المسـلمون أشـباه مسلمين، للأسف.

بعضوية الجماعة ثم احـترام هـذه الجماعة (الآخـرين) والعمل على خدمتها.

ولأن قـــوة الـــوطن بالحقيقة هي جمـــاع جهـــود أبنائه المحســـنين فعلى كل واحد من المحســـنين (الإحســـان في السلوك هو أرقى مسـتويات الأخلاق) ممن يعيش على بطـاح هذا الوطن وكل وطن؛ الأسـاس أن عليه واجبـا، يجب تقديمه إلى المجموعة (المجتمع) التي يعيش فيها، فالشعور الوطـني شعور حضاري عام لكل الناس في العالم، والإنسـان الوطـني المؤمن بالله سبحانه وتعالى هو أخ حقيقي لكل إنسان مؤمن بالله سـبحانه وتعـالى ووطـني في أي بقعة في العـالم كـان مؤمن ولديه روح وطنية أصيلة ويحب وطنه.

فــالروح الوطنيــة، روح مؤمنة روح نبيلة وســامية، رفيعة المســتوى، خلاقة مبدعة هي الأولى دائمــا، بطلة وشــجاعة، روح تــدعو إلى التعــاون والوفــاق والتــآخي والتعــارف بين الشـعوب على أسـاس الحقـوق الإلهيـة، ولا تـدعو إلى التنابذ والعداء أبدا، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: 13]، وفي هـذه الآية الكريمة يقرر لنا الله سبحانه وتعـالى أنه جعلنا شـعوبا وقبائل لنتعــارف، لم يقل لينــدمجوا، قــال لتعــارفوا والله أعلم. إن تجاور الأسرة في الحي الواحد لا يعني بالضرورة اندماج هــذه الأسر في أســرة كبــيرة، بحيث تنفتح أو (تنفلش) الأسر على بعضـها بعض ولكن من المهم تعـارف وتفـاهم الأسـر، وإيجـاد علاقات طبيعية وفق الشرع الرباني.

فالروح الوطنية أو الحمية الوطنية، المفروض أنهـا موجـودة لدى كل إنسان في العالم بالفطرة، كافر كان أم مؤمنا، بل هي موجودة لدى كل الكائنـات الحيـة، حـتى الطيـور والأسـماك؛ إن الروح الوطنية هي مثل كثير من الأشياء التي قد يمنحها، ويهبهـا الله سبحانه وتعالى للنـاس كافـة، إمكانيـة لكـل إنسـان، يجتهـد للحصول عليها، العقل، الذكاء، الـثروة، المـال، الصـحة، القـوة، فمن أخذ بها أو استفاد منها في الحيـاة، ووظفهـا للوصـول إلى الحـق فلـه ذلـك، ومن تركهـا أو تخلى عنهـا، فقـد ينسـب إلى الغباء، والجهل، والضـعف، أو الكفـر، أو بـالجحود بمـا أنعم اللـه عليه! لذلك فقد نعرف أن الكثير الكثـير من شـعوب الأرض قـد استفادت من الشعور الوطني كمنحة إلهية أودعها الله سـبحانه وتعالى في عباده، حيث تجمعت وتعاونت لصد عدوها، وتجمعت وتعــاونت لنيــل الحريــة والتحــرر، وتجمعت وتعــاونت للثــورة وللنهوض والترقي، وعملت مجتمعة لنيل السيادة، فلماذا يطلب

من العرب المسلمين العكس، فيطالبون بالتخلي عن المشـاعر الوطنية؟

على العرب المسلمين أن يدركوا هـذا الأمـر وأن يعـوه، فلا ينجرفوا وراء سراب التطبيع، إن خداع اليهود للعـرب سيسـتمر مـادام العـرب في نـومهم مسـتغرقين؛ على أن مجابهـة اليهـود ليس أمرا مستحيلا، في حالة إحساس العرب بالسـيادة الوطنية وبإيمانهم العميق، بانتمائهم للعروبة بعـد إيمـانهم باللـه سـبحانه وتعـالى، علمـا أنـه ليس هنـاك أي تعـارض بين الإيمـان باللـه سبحانه وتعالى وبين انتمائنـا إلى العروبـة المنبثقـة أساسـا عن رب العالمين، بل إن رب العالمين أكد على أمـره لنـا بالتوحـد وضرورته، وقد ربط لنا رب العالمين إسلامنا الصحيح بالعروبـة، وجعلها ربنا المعيـار والمسـطرة والمقيـاس والمثـال والـدليل للإيمان، فوصف بهـا قرآنـه وكتابـه ولسـانه وحكمـه، في إحـدى عشـرة آيـة كريمـة، وأشـار لنـا رب العـالمين أن العـرب نـواة الإسـلام العـالمي وبيضـته، وأن العـرب حملتـه ومبلغـوه للأمم، فقال تعالى: وَجَاهِـدُوا فِي اللَّهِ حَـقَّ جِهَـادِهِ هُـوَ اجْتَبَـاكُمْ وَمَـا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْـرَاهِيمَ هُـوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْـلُ وَفِي هَـذَا لِيَكُـونَ الرَّسُـولُ شَـهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُـوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَـأَقِيمُوا الصَّـلاةَ وَآتُـوا الزَّكَـاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِـيرُ [الحج: 78]، قال تعـالى: قُـلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْـرَابِ سَـتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُـوا يُـؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَـنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَـا تَـوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْـلُ يُعَـذِّبْكُمْ عَـذَابًا أَلِيمًا [الفتح: 16].

فعلى العربي المؤمن الشريف أينما كـان، وفي كافـة أنحـاء العالم، استنفار همته واستثمار ذكائه وتخليق مواهبه وحشد كل إمكانية لديه لنصرة العروبة في ذاته أولا، إيمانا بها بعـد الإيمـان باللـه سـبحانه وتعـالى ورسـوله الكـريم، وممـا لا شـك فيـه أن الوطن الذي لا تعززه مشاعر أبنائه الأحـرار الأبطـال، هـو دائمـا عرضة للاستباحة والاجتياح من الأعداء، ويسلب السيادة في كل حين! كالــذي حصــل ويحصــل الآن للأرض العربيــة وللإنســان العـربي المسـلم في العـالم، في فلسـطين وفي العـراق وفي السودان وفي كل مكان! فمع معرفة الواقـع العـربي، بمـا فيـه من تسلط الحكام وسيطرة الاستعمار، وتحكم المصـالح لفئـات محددة ومحدودة بمصير الشعب العربي، ومـع معرفـة الأوضـاع النكبويــة للحيــاة العربيــة، على جميــع المســتويات الفرديــة والجماعية، ومع معرفة ما يعانيه المواطن العربي البائس حاليـا من تكبيل وتنكيل وتحكم بمقدراته وحياته بغيـة إضـعافه وإذلالـه

مـع كـل هـذه المعرفـة، فـإن السـبيل الوحيـد للخلاص العـربي الإسـلامي يكمن في يقظـة وطنيـة إسـلامية عربيـة، تتفجـر في شخصية كل عربي مسلم في كافة أنحاء العـالم، ومـع أن بعض العرب قد اختصر الطريق، ويئس من نهضة العرب المسـلمين، فانتقل إلى الخندق المعادي للعرب المسلمين إلى خندق اليهود خنـدق أعـداء الإسـلام العـربي، مـبررين لأنفسـهم، سـلوكهم بمختلف المبررات إن هؤلاء يجب أن لا يفتّـوا في عضـد العـرب المؤمنين بالله وبنصر الله.

والعرب المسلمون في هذا الوقت بالذات يتعرضـون الآن لأشرس حرب تستهدف وجـودهم، وهم الآن في أمس الحاجة إلى مثل هـذا الشـعور، وذلك على الـرغم من الإسـاءة الـتي تمت إلى هـذا المفهـوم في العقلية العربيـة، على الـرغم مما حصل لمفهوم الوطنية في الذهنية العربية من محاولات تمييع ومحو وتفريغ وإزالة وتحويل وتبـديل (في بعض المهرجانـات الوطنية كـانت العـاهرات والـدواعر تقـوم بإنشـاد الأناشـيد والقصائد الوطنيـة!) على الـرغم من كل ذلـك، فإنه لا منـاص للعـرب المسـلمين من الـدفاع عن عقيـدتهم الربانيـة، وعن أنفسهم وعن أهليهم وعن مواطنهم! من اللجوء إلى المفهوم الوطـني الأساسي بعد اللجـوء إلى الله سـبحانه وتعـالى فالوطنية ليست اختراع حديثا أو بدعة جديدة كما يظن البعض من الأغرار، عديمي العلم وعديمي التجربة الحياتية والذين لم يطلعـوا على التـاريخ الحقيقي ولا على تجـارب الأمم والشـعوب، والـذين لا يفقهـون خصوصا الـذين يعتمـدون في كتابة التاريخ أو فهمهم للتاريخ على المصادر الأوربية المهـودة أو الذين يقرؤون القرآن الكريم بعقلية غير عربية.

معلـوم أن العروبة ليست عرقـا، ولا جنسا مغلقا أو مقفلا أو قومية محدودة، بل هي شعور رائع بالانتمـاء الحضـاري إلى أمة الأمم، وهـذا الشـعور ليس وقفا على جنس معين من البشر، بل يمكن لأي من الناس في العـالم الـدخول في الأمة العربية، فقط عليه أن يخلص الدين لله الواحد ويصدق رسوله الكـريم وأن يحب العـرب وأن يتحـدث على أرضـهم بلسـانهم اللسان العربي المبين، فالعروبة جنسية مفتوحـة، غـير مغلقة كما هي الحـال في القوميـات الأخـرى إن العـرب المسـلمين ومنذ قرون يتعرضون لاعتداء اليهـود والاسـتعمار الأوربي وهم يعيشون كفاحا وجهادا مستمرا ضد اليهود والاستعمار الأوربي الأمريكي المهـود، بل يجب أن يعيشـوا هـذه المواجهة بطـرق عديدة مناهضة لليهود وعملاء اليهود والجهاد العربي الإسلامي لا يعني جهادا بالحرب والقتـال فقـط، بل إن هنـاك أنواعا من

الجهـــاد والنضـــال متعـــددة يجب على كل عـــربي مســـلم ممارستها، جميعها ضد أعداء الله والعروبة في كافة الميـادين وذلك بالإضافة إلى استمرارية الكفاح المسلح المشـروع، ضد أعداء الله سبحانه وتعـالى، ثم ضد أعـداء الـوطن. يجب على كل عـــربي مســـلم تربية أولاده على حب العـــرب والإخلاص للعروبة المســـلمة، وطننا منشـــودا هو مركز الإيمـــان، وأمه مؤمنـــة، لا أروع، هي أمة الأمم وذلك على الـــرغم من الواقع المريـــر، وأن اليهـــود هم مصـــدر الفســـاد في العـــالم، وعلى العربي المسـلم أن يعمق إيمـان أولاده بالله العظيم سـبحانه وتعالى وانتمـاءهم إلى العروبة وإحساسـهم بالعروبة وبـالروح الوطنية العربية وأن يمجد انتماءهم لهذه الأمة العظيمة.

ناقلا إليهم الحقد على أعداء العروبة وضرورة الانتقام من أعـــداء العروبة انتقاما شـــديدا، على أن العروبة هي مـــادة الإيمـان ومعدنه وأن يثقـوا بالله العظيم وأن وعـده الحق وأن النصر قريب.

إن هذا الوضع، الصراع بين العرب المسلمين وبين اليهـود والصليبية المهـودة لن ينتهي أبـدا، إنه موضـوع عقائـدي لـدى اليهـود ولن ينته إلا إذا انتهى اليهـود من الوجـود وإلا إذا خـرج اليهـود من اليهودية وهـذا مسـتحيل، أو أن يخـرج العـرب من إسـلامهم وعـروبتهم وهـذا مطلق مسـتحيل قـال تعـالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الْيَهُـودَ وَالَّذِينَ أَشْـرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَـارَى ذَلِـكَ بِـأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِـينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْـتَكْبِرُونَ [المائـدة: 82]، لـــذلك فـــإن القضـــية والمعركة بين العـــرب واليهـــود، مســـتمرة ولا يمكن أن تتوقف أو أن تنتهي ولا يمكن أن تنهيها تفاهماتٌ هنا أو مباحثاتٌ هناك.

الجمال

الجمال في اللسان العربي يشير على الدوام إلى الكمـال والتمـام المعنـوي والمـادي الـداخلي والخـارجي، وهو اجتمـاع الصـــفات الإيجابية البنـــاءة الضـــرورية والهامّة والملائمـــة، والاشتمال عليها، وبالتالي فهو يتجلى في عـدم وجـود النقص، وعــدم الدونيّــة، و(الجمــالات) هي اجتمــاع واكتمــال القــوى واتجاهها باتجاه الأهداف والغايـات المحـددة[1]، قـال تعـالى: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـافِعُ وَمِنْهَا تَـأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِـلُ أَثْقَـالَكُمْ إِلَى بَلَـدٍ لَمْ تَكُونُـوا بَالِغِيـهِ إِلَّا بِشِـقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَـرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) ﴾ [النحـل: 5 -ـ 7]، وتشـير الآيـات الكريمة إلى الأســاس في مفهــوم (الجمــال) وهو الإجمــال والعظمة أو اجتماع كل الأهداف والمطالب والمصالح وتَرَكزُهاَ في الشيء الجميل، أو الـذي سـنحكم عليه عقليّاً أنه جميـل(دلالة حـرف الجيم).

إذ أن (الجمـال) موضـوع إنسـاني مرتبط بالعقل المحض، وهو حكمٌ من أحكامــه، وليس لأيٍّ من الكائنـات الأخــرى، ما عدى الإنسان المعـافى، أيَّ احسـاس بالجمـال، ولكنها (بـاقي الكائنات والكثير من الناس) تمارس اندفاعاً وغريزةً، وأساساً ليس لـديها اكتمـال في الحـواس، وبالتـالي ليس لـديها قـدرة على التقــاط إشــارات أو برقيــات أو رســائل معنوية تبــوح

[1] (?) (وهو مرتبط (الجمال) عند الناس بمسـألة الـذوق والنسـبيَّة، ويعـرف (كانت) الجميل: بأنه (موضوع الإشباع الضروري وغير النفعي) الذي يظهر غائيةً دون تمثل الغاية، وتهتم الجماليات بتحديد الجمال وأشكال تمظهـره في الفنــون وفي الطبيعــة، وبتحديد تــأثيره على المتلقي... وإلى جــانب وضع نظريــةٍ في الفنــون فــإن الجمــال يعــالج مســائل تتنــاول (الحكم الجمالي) وأشكال التحسس الجمالي والمعايشة الجمالية، في الجماليـات الحديثة تطالعنا الموضـــــوعات المتعلقة بنظرية الإعلام، وبتلك المتعلقة بالتحليل اللغوي وقد حـدثتْ انقلابـات عميقة في قيمة الفن والجمـال في الفكر الفلسـفي المعاصـر، إننا نشـهد المنعـرج (الإسـتطيقي) في تـاريخ الفلسفة بخاصة مع (شوبنهاور) و(نيتشه) و(الرومنسيين)، فـالفن أضـحى صيغةً من صيغ الوجود ونموذجاً من نماذج فهم العالم وتأويله، وبخصـوص الأساس (الافلاطوني) الذي أدرج الفن تحت يافطة الاحتقار الأنطولـوجي، قد فقد كثـيراً من مبرراته وقيمتـه، إن هنـاك علاقة حميمية بين الفلسـفة والجماليات، وكـأن الفن هو الأسـاس الأساسي للفلسـفة، ذلك لأنَّ هنـاك نقـاط التقـاء بين الفلسـفة والفن، منها اشـتراك الفلسـفة والفن بصـفة الإبداع، أو بالأحرى هي ذاتها مبدعة ومعنى ذلك أنها تمثل أثراً فنياً فجميع الأشياء في العالم، هي أشـياء فنيـة، والأثر لا ينحصر في الفن وحسب بل هو الطريقة الـتي نوجد بها في العـالم). (من كتـاب السـؤال الفلسـفي ومسـارات الانفتـاح). عبد الـرزاق بلعقـروز. الـــــدار العـــــــربية للعلــوم. 2010م

بالجمال، وهي لا تملك خياراً ولا قراراً ولا حريةً ولا إرادة؛ ويحتاج إدراك مفهوم (الجمال) إلى اكتمالٍ وتلازمٍ وتكاملٍ في الحواس الداخلية والخارجية.

إن التقدير والاحساس بالقيم الجمالية يعتبر من أهم العوامل التي تؤثر في كل فردٍ، من حيث هما مقياس للمفاضلة بين العوامل الخارجية والداخلية، كما أنهما (التقدير والإحساس) دعامتان قويتان من دعامات سعادة الانسان وشعوره بالبهجة واللّذة.

ولما كان الجمال – كأية ظاهرة اجتماعية – مفهوماً ديناميكياً متفاعلاً متطوراً في مثله العُليا ومقاييسه الخاصة، من فرد إلى فرد ومن بيئة إلى بيئة، كان من واجب كل مستنير أن يُلمَّ – ولو ببعض الشيء- بالموضوع الجمالي، وإلا فإنه يحرم نفسه من جانب مُهمٍ من جوانب السعادة في الحياة، وربما في فهم الحياة ذاتها[1]، وقد تكتمل الغاية من (الجمال) ذاته، عندما يتوصل الإنسان إلى ادراك ما بعد الجمال؛ إذْ من المفروض على العقلاء الواعين والمفكرين أن يسألوا أنفسهم عند كل حكمٍ بالجمال، سواءً أكان على الأشخاص أو الأشياء أو الصفات النظرية أو المعنوية (القيم)، وكلما قلنا أو حكمنا: أنَّ هذا جميل، علينا أن نتبعها نقول في أنفسنا لماذا؟ وماذا بعدُ ؟ (بعد الوصول إلى الحكم بالجمال) إذ ليست المسألة في وجود (الجمال) في حياة الإنسان، وليست القضية هي حصول المسرّة فقط ! أو لتصلَ إلى الاعتراف أو الإقرار أنَّ هذا الشيء (الجميل) هو من صنع الله عزَّ وجل، لا شكَّ أن كلَّ شيء في هذا العالم هو من صنع الله تعالى، ولكن السؤال الأساسي هو لماذا وجد هذا الشيء الجميل في مقبل الأشياء القبيحة اساساً؟

---

[1] (?) رَسَمَ أحد كبار الفنانين لوحته الجميلة، لكنَّه شعر أنّ لوحته تحتاج من الناحية الفنية إلى شيء ما؛ إنما عجز عن إدراك سبب شعوره هذا، ولذلك علّق اللوحةَ في مرسمه فترةً طويلة وأخذ يتأملها، ثمَّ طرأت له فكرة، فوضع لوحته في الطريق العام، ووقف غير بعيدٍ عنها يستمع إلى تعليقات الناس.
لكنه لم يسمع إلا عبارات الاعجاب، وفجأة سمع رجلين يقول أحدهما للآخر: لاشكَّ أنَّ هذا الفنان قد أخطأ في هذه اللوحة في وضعيِّة الحذاء (فردتي الحذاء اليمين واليسار) وأنَّ عليه أن يرسمهما بطريقة مناسبة أكثر، فقفذَ الفنانُ إلى اللوحةِ، ونظر إلى الحذاء فلمح موضع النقد فعلاً، ومباشرةً أخذ اللوحة إلى المرسم وصحح الخلل، ثمّ أعاد اللوحةَ إلى نفس المكان، وكان يرغب في سماع نقد الناس لتلك اللوحة الجميلة، وإذ بنفس الشخص الذي كان قد أبدى بالأمس ملاحظة على الحذاء، يمرُّ من نفس المكان، ويريد أن يُعَلِّق في هذه المرّة على العيون! فقال له الفنان الكلمة المشهورة: (أيها الحذَّاء كُنت في الحذاء فأبقى في الحذاء)..

الله سـبحانه وتعـالى لا يحتـاج إلى اعترافنا وهو لا ينتظر منا اقرانا هذا ولكن ويختلفُ الناسُ في تحديد معـنى (مفهـوم الجمال)، وإن كانوا يستخدمون هذه الكلمة (جميل) كثيراً في حيـاتهم اليوميـة، فهم يطلقـون كلمة (جميـل) على مظـاهر كثـــيرة تختلف في طبيعتها وتكوينهـــا، إلا أنّض البعض قد لا يعرف ناحية من أوجه الشبه بين هذه المظاهر... إننا كثيراً ما نسمع عن هذا المنظر الطبيعي أنه جميل أو أن هـذه الصـورة أو ذلك التمثال جميل، أو أن في هذه القصيدة جمالاً...

إن هــذا المبــنى جميل وذلك النغم الموســيقي جميــل.. وهكــذا نجد تباينا شاسـعاً في الموضــوعات الــتي يمكن أن نصفها بالجمـال، حـتى أننا لا نكـاد نسـتطيع أن نجد ناحيـةً من أوجه التشـابه بين هــذه الموضــوعات، ومع ذلك فنحن نحمل عليها جميعاً محمولاً واحداً وهو صفة الجمـال، ولكن يجب أن نســأل انفســنا كمفكــرين دائمــاً، ما هي الحكمة من وجــود الجمـال أساسـاً؟ وبالنتيجة سـنجد أنفسـنا أما حقيقة راسـخة مفادها أن الله سبحانه وتعـالى قد خلق كل شـيء وأنَّ هنالك أشياء كثيرة خلقها ربنا تعالى لنراهـا، وأنَّ أشـياء كثـيرة خلقها الله ســبحانه وتعــالى لــنرى ونتلمس بها ومن خلالها معــالم الطريق، وأنَّ الأشياء والأحداث في هذا الكون إنما هي أحرفٌ في كلامه تعالى.

ومع أننا لا نستطيع في اللحظة الراهنة أن نضع مرادفـاً أو مكافئـاً للفظة (جميــل)، إلا أننا نــرى أن نمـيز أولاً بين هــذه الكلمة وبين بضعة ألفاظٍ أُخَر قد تختلط بها من حيث المعــنى في ذهن بعض الناس.

فلم يعد من اللازم في هــذا العصر أن يكــون (الجميــل) (مفيداً)؛ كما أنه ليس من اللازم أن يكـون المفيـدُ جميلاً، وإذاً هناك فارقٌ بين معنى هاتين الكلمـتين، ولعل من الأمثلة الـتي يتوضح بها الفارق بين المعنين، أننا لا نسـتطيع أن نقـول على الدواء المر أنه جميلٌ أو أن نقول حتماً على المنظـور الجميل أنه مفيـد، بل وأكـثر من ذلك فإننا يمكن أن نقـول على بعض الحشــرات المؤذية للإنســان أن فيها جمــالاً، بل إن الثعبــان والنمر وبعض الطيــور الجارحة قد نُحِسُّ بما فيها من جمــال، فالجمــال إذاً يختلف عن الفائــدة، وليس أو لم يعد في هــذه الأيـام؛ (الجميـل) بالضـرورة أن يكـون أيضـاً هو (الصـالح) أو الملائم حقيقـةً، بل يجـوز أن تطلق هـذه الكلمة على بعض ما هو ملائم ولكن ليس كل ملائم وصــــــــالح جميلاً... فنحن لا نســتطيع أن نطلق دائمــاً كلمة جميل على أية آلة هي أنسب وأصلح ما يؤدي عملية من العمليات.

وينبغي أن نفـرِّق أيضـاً بين ما هو (لذيـذ) وما هو (جميـل) فنحن نشـعر باللـذة من بعض الطعـوم أو من بعض الـروائح كرائحة البحر مثلاً، ومع ذلك فنحن لا نطلق كلمة (جميــــل) على كل هـــذه الأشـــياء على الـــرغم من أن بعض النـــاس يســتعملونها خطــأً بهــذا الســبيل، ولقد كـان بعض قــدماء الفلاسفة يستخدمون كلمة (الجمـال) على أنها مطابقة لكلمة (خير) أو (كمال) فكل ما هو خير من الناحية الخلقية أو كل ما يساعد الحياة على النماء والقوة في نظـرهم جميلاً، وقد كـان هذا هو منطوق الوحي الإلهي، وما يزال في علم الجمـال رأيٌ يأخذ بهذا المنطق... فيعتبر أن الجمال خاضعٌ لمعيـار الحيـوي كما هو خاضـعٌ أيضـاً للمعـايير الأخلاقيـة، والواقع أنه ينبغي أن نفــرِّق بين ما هو جميل وما هو خــير، ان المــرأة الجميلة في منظرها قد تكون شـريرة في أفعالهـا، كما أن الفـان قد يـبرز لوحة تمثل شحاذاً ضعيفاً متسولاً في شارعٍ ضيقٍ مظلم ومع ذلك قد تُحِسُّ بما في هــذه اللوحة من جمــال، ولعل هــذا ما يســوقنا إلى أن نفــرق بين (الجمــال الطــبيعي) و(الجمــال الفـني)، فقد يكــون هنـاك جــواد ضـعيف متخـاذل لا يُقَـدِّرُهُ البيطري أو مـروِّض الخيـول، اللـذان يسـعيان إلى البحث عن القوة الجسمية، ومع ذلك فإنَّ الفنان يستطيع أن يبرز ما بهذا الجــواد الهزيل من (الجمـال) الـذي يأخذ بالألبـاب وذلك من خلال الصورة.

وإذن يتوقف (الجمــال الفــني) على قــدرة الفنــان على التعبير، ونخلص من هـذه التفرقة إلى العبـارة المشـهورة (أن كل جميــــلٍ هو موضــــوعٍ لدراسة علم الجمــــال ولكن ليس موضوع علم الجمال دائماً جميلاً، ذلك أن الجمال الطبيعي قد يكون موجوداً أو غير موجود ومع ذلك يستطيع الفنان بكفاءته الخاصة أن يحقق جمـالاً فنيـاً)، ونصل من هـذا الـرأي إلى أن كلمة (قـبيح) ليست مقابلة لجميل كما هو في اللغة فالضـدان لا يجتمعـان في حين أننا نسـتطيع أن نجد في القـبيح جمـالاً، انظر إلى صــورة المســخة الــذي يلعب بــالكرات الملونة ألا تسـتطيع أن نجد فيها جمـالاً، انظر إلى القطعة التمثيلية الـتي تصــور اليــؤس والقبح لا شك في أننا قد نعجب بالتمثيل ونجد فيه جمالاً فنياً.

ولقد اتجه بعض اليونان القـدماء عند حـديثهم عن الجمـال إلى دراسة التماثيل اليونانية الجميلة الـتي تمثل آلهة اليونـان في صور المثل الأعلى للنـوع الإنسـاني، وكـأني بهم يوحـدون بين الجمال والمثل الأعلى للنوع، فالحصان الجميل هو أقــوى وأحسن ما يمكن أن يوجد عليه الحصـــان أو ما يمكن تحقيقه

به والرجل الجميل هو الرجل الـذي يتـوفر له أقـوى ما يمكن من عضلاتٍ وعلاقـاتٍ ونسـبٍ، إن في النمـوذج الكامل للنـوع جمالاً، ولكن ليس الجمال وفقاً على هـذا النمـوذج الكامل بل قد يتــوفر الجمــال في الاختلاف النــوعي بل في الضــعف والنقص والتشويه ذاته، ويرى بعض النقاد أن الإعجاب بالقبيح ليس في قدرة الفنان على تقليد القـبيح وإبـرازه كما هـو، بل في إبرازِ مشاعرٍ معينةٍ، فالقبيح الذي يبرزه الفنان هو القــبيح كما يشـعر به الفنـان وليس هو القـبيح في ذاتـه...، وهـذا ما يجعل تقدير الفنان عند إبـرازه القبح في صـورةٍ جميلة يمتـاز عن تقــدير الفنــان عند إبــراز الجميل جميلاً، لأنه يحتــاج في الحالة الأولى إلى مهارةٍ فنيةٍ فائقة.

ونــود أن نشــير إلى ذلك التســاؤل عن ذاتية (الجمــال) وموضعيته، هل الجمال في ذاته حقيقـةً قائمـةً بنفسـها أم أنه ظــاهرةً نفســيةً يحس بها الفــرد في ذاته بحسب اللحظة الشعورية التي يمر بها؟.

إزاء هذا التساؤل انقسم المفكـرون في علم الجمـال إلى قسـمين رئيسـيين والقسم الأول يــرى أنَّ الجمـال ظـاهرة موضـوعية لها جمالهـا، سـواءً أحسسـتُ بهـذا الوجـود أم لم أحس بــه، فالجمــال قــائمٌ بنفسه وموجــودٌ خــارج (النفس الشاعرة)، وكان من زعماء هذا الرأي أفلاطون الذي يـرى أن الشــيء يكـون جميلاً إذا ما تـوفرت فيه صـفاتٌ معينة سـواءٌ وجد من يحكم عليه بالجمــال أم لا، فالجمــال إذاً مجموعة خصائص إذا تحققت في الشيء أصـبح جميلاً وإذا امتنعت عن الشيء فإنه لا يعتبر جميلاً وهكـذا تتفـاوت نسـبة الجمـال في الشـيء بحسب مـدى اشـتراكه في مثـال الجمال الخالد، أما الرأي الثاني فيذهب إلى أن الشيء يكـون جميلاً عنـدما تـراه كذلك؛ أي أنَّ (الجمال) ليس ظاهرةً موجودةً إلى في شعورنا فقط فالجمــال صــفةٌ ذاتيــةٌ يتوقف الشــعور بها على حالتنا النفسية، فظـاهرة غـروب الشـمس مثلاً يراها عـددٌ كبـير من النــاس في كل يــوم ولكن البعض القليل من هــؤلاء النــاس يحس بجمــــال الظــــاهرة، في حين يحس البعض الآخر أنها ظــــاهرةٌ موحشة حزينة وقد لا ينتبه إليها البــــاقون أو هم لا يحسون نحوها بشيءٍ ما.

إن للجمال جانباً موضوعياً قائماً، سواءٌ وجد من يدركه أم لم يوجد من يحس به، وله جانب ذاتي وإحسـاس عميق يعلب دوراً كبــيراً في إدراكنا لهــذا الجمــال... ذلك أن الطبيعة والمجتمع من ناحية، هما اللذان يقدمان عناصر هذا الإحساس بالجمال، فلو رجعنا إلى الإنسان البدائي لوجـدناه أيضـاً يُحِسُّ

بما في هــذه الطبيعة من جمــال، ســواءً في مناظرها أو في حيواناتها، فيأخذ بنفسه في وقت الفراغ، بمحاولة إحساس ما يحس به من إعجابٍ وتسجيله على جدران الكهوف، ولــولا أن هذا الإنسان أحسَّ بنفسه بهذا الجمـال، لما عمل على إثباتــه، فالموضوع الخارجي من ناحية، والإحساس بهذا الموضوع من ناحية أخـــرى، هما وجها المســألة الــتي لابُـــدَّ من توفرهـــا، فالجمال إذاً كقطعة العملة ذات الوجهين أحـدهما هو الجـانب الـــذاتي وآثـــره في الشـــعور بالجمـــال، والآخر هو الجـــانب الموضوعي ومدى جوهريته في إثارة هذا الشعور الجمالي.

قل لي ماذا تختار أقل لك من أنت

إن الإنسان العاقل على امتداد حياته، وفي كثير من الأحيان، يشعر أنه أمام خيارات متعددة وأن عليه أن يختار من بينها خياراً واحداً وأن يتخذ حيالها قراراً ويحدد موقفاً، ولذلك قيل: (قل لي ماذا تختار أقل لك من أنت) ومن هنا قيل أيضاً أنَّ (الإنسان موقف) فمن اختار الخيار المنحط وسلك طريق الهاوية فلينتظر النهاية الوخيمة! ومن كانت خياراته من العوالي والقمم، من كان لا يقبل الضيم ولا الذلّ ولا المهانة، من كان خيارُهُ الكرامة وعزّة النفس ونأى عن الهوى واختار الحق، فإنَّ العزة لله جميعاً، وهذا الصنف من البشر قد بشره الله عزَّ وجل بالنصر على قوى الشر في العالم قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر: 10]

قال أحد الواعظين: نحن دائماً نتأمل الحقول والطبيعة والأشياء من حولنا ونقول: ما أجمل هذا وما أروع هذا، ثم نقول تبارك الله أحسن الخالقين، عظيم، ولكن ماذا بعد ذلك؟ ماذا بعد أنْ وصلتَ إلى الحقيقة، أن الله سبحانه وتعالى قد خلق لنا كل هذه الأشياء، ماذا بعد علّمك الله تعالى؟ ماذا بعد معرفتك وادراككِ لهذه الحقيقة الدامغة، ماذا بَعْدُ؟ إذ لا يكفي أن تبقى سلبياً وصامتاً وفقط، بل عليك التوغل في التفكير والعبور فيه وترتفع من خلاله إلى شواطئ الخلاص، إذ أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق هذه الآيات كلها من أجل أن ينال منك الاعتراف بوجوده ﷻ.

هنا يأتي دور الفكر وهو رفع مستوى الإنسان من حال الدونية والحيوانية إلى الحال والسوية العُليا وهي الحال الرفيعة المطلوبة (الرفع الحضاري للإنسانية) فرداً ومجتمعاً، إن الفكر هو ملء الجوهر بالجوهر وإعطاء القيمة.

وهو تماهي (الأنا) بالـ (نحن) وتماهي الـ (نحن) بـ (الهُم) تماهياً عفوياً متبادلاً ومتزامناً للأشخاص بالجماعة، لينصاغ عفوياً في بوتقة تاريخية، وهذا هو الجانب الأساسي لأي مجتمع إنساني له ظاهرة الجماعة، فهو سيتميز عن طريق التجربة المشتركة والتعاطف الغريزي الرباني والتباين الظاهري عن

الجماعات الأخرى[1]. وهذا هو جوهر إرادة الدفع الناشئة لدى الجماعة في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: 40] فالقوانين الربانية تحكم العالَم، و(الدفع) غريزة طبيعية متأصلة في كل جماعة مغروزة في أنفس أفرادها، ولولا هذا القانون لما نشأت الحضارة ولما قامت المجتمعات الإنسانية أبداً، فمنذا الذي يعارض أو ينفي هذا القانون الطبيعي؟ منذا الذي يدعوا العرب فقط العرب المسلمين إلى التفريط بهذا القانون الطبيعي؟ [2] فالتفكير ثقة أكيدة بالذات ومعرفة ضرورية للبيئة والمحيط، وللثقافة والتجربة والآباء والأجداد، وهو كفاحٌ مستمرٌ ونضال، ودور العادات والتقاليد المنتشرة فعالٌ وحاسم في اعداد المفكر وتشكيل موارده الفكريّة وأوضاعها السرية والصريحة الذاهبة والراجعة،

كان من المفروض أن يكون هذا هو دور المعاهد والمدارس والجامعات والمراكز الثقافيّة العربيــة، والكتب والمجلات والصحف العربية والمقالات والمحاضرات والسينما العربية والتلفزيون العربي! لأنَّ الفكر نشاطٌ ذهني خاص

---

1 (?) لقد تناست تلك الفئات ـ في المنطقة العربية ـ أن الأوربيين وإبان حملة نابليون إلى مصر هم الذين كتبوا تاريخ المنطقة، التاريخ السياسي والاجتماعي والديني الحديث والقديم والوسيط على هواهم ووفق مصالحهم، وقد طبع أول ما طُبع على مطابعهم في ألمانيا ومطابع الإرساليات في بيروت، وقد فصَّلوا في هذه المنطقة (قوميات) ورسموا لها الخرائط التاريخيّة والمخططات السياسية (دول) على حسب التوراة اليهودية، وكتبوا لها مثيولوجيا وأساطير وملاحم وعملوا واخترعوا واختلقوا وافرزوا لها آداباً وفلكلوراً بغية فرزها عن الكيان الأساس، لقد بذلوا جهداً كبيراً وكثيراً لخلق شيء من اللاشيء، فالأمم والقوميات لا تُخلقُ بالنظريات ولا تُبعث في المختبرات.
لأنَّ الدراسات والأبحاث قد يستلزمها بالفعل، وكما هو معلوم الرسم والإعداد والتخطيط، ولكن ليس كلُّ ما يُرسم على الورق قابلاً للتحقيق؛ فإذا قُلنا أو فصَّلنَا أن (الشجرة الطبيعيّة) تتألف من جذر وساق وأغصان وأوراق وأزهاراً وثماراً مثلاً، فهذا لا يعني أننا إذا جهَّزنا الجذر والساق والأغصان والأوراق وكافة الملحقات أنه صار بإمكاننا أن نخلق (شجرة طبيعيّة) لأنّ (الشجرة الطبيعيّة) مخلوق طبيعي رباني، الظروف الطبيعيّة هي التي ستسهم بتكونه.
وكذلك فإنَّ الأمة، والقومية (التي هي من القوام والقيام) فهي تقوم وحدها طبيعية، وهي لا تولد بالصنع والتوضيب أو التحضير ومحاولة التخليق القسري التي تحتاج على الدوام للمساندة والمساعدة والدعم غير المتناهي، لأنها بمجرد وقف الدعم فإنها ستسقط لا محالة.

2 (?) فإذا كان لي بيت ولك بيت وكان لكل منا أسرة وأولاد، وكنا نسكن في حيٍّ واحد ونحن أقرباء أو أخوة أو أصدقاء، وبيننا لغة مشتركة وأنت مسلم عربي وأنا كذلك، فهل هذا مدعاةً لدمج بيوتنا في بيتٍ واحد؟
وهل نثبت الحق أم العقائد غير الصحيحة، ماذا يقول

يحتـاج إلى مُـدخلات صـحيحة غـير مشوشة ومعلومـات كاملة غير ناقصة ومعرفة ودراية تامة وعادلة وايمان بقضيّة، ويعتـبر الفكر حجر الأسـاس في النمو المجتمعي بكل الأبعـاد وعليه ترتكز الحضـارة، وله مقـدمات وعنه تنتج النتـائج، إنَّ الطـرح الخاطئ يوصل دائماً إلى نتـائج خاطئة ولكنَّ الطـرح الصـحيح يوصل دائمـاً إلى نتيجة واحـدة صـحيحة، ويلتقي عنـدها كل المفكرين، فعند أعتـاب الفكر تبـدأ الحضـارة والتقـدم ويعتـبر الفكر مهداً لكل حداثة.

لأنَّ الفكر الأسـاس أن يكـون هو المكـوِّن والحاضـنة الرئيسـية لأي كيـان اجتمـاعي سياسي اقتصـادي، وبه تُنـاط الأمور الحضارية للفرد والأمة والدولـة، والمثل يقـول اعطـني فكراً متقدماً ورائعاً وخذ أمـةً قويـةً بين الأمم ولها دولة قوية بين الـدول! ولمّا سُـئل عمر بن عبد العزيز عن اختلاف الأوضـاع بين عصـره ومنجزاته وعصر عمر بن الخطـاب ومنجزاته أجاب بما معنـاه: إنَّ ابن الخطـاب كـان لديه رجـالٌ أعطوني رجالاً كرجاله وأنا أعطيكم منجزات كمنجزاته! لذلك فإن المفكر مؤتمن في الأمة ولا يصح أن يتسـنم هـذه المهمة (فكر وعقل الأمة) الأشخاص غير الجديرين أو غير المُتصـفين بصـفة الأمانة والصـدق والعـدل والحريّـة، المعـروفين بنبلهم وكـرمهم وسـجاياهم العطـرة، إذ ليس كل من سـطّرَ ديباجـةً أصبح مفكراً!

وليست رسالة الفكـر الحـديث عن الأشـخاص بـل الحـديث عن المبادئ العامة التي هي من طبيعة الفكر، فالوحي مسـتقل عن الأنبياء (ومـا محمـد إلا رسـولٌ قـد خلت من قبلـه الرسـل) ومهما بلغ الأشخاص حداً أقصى في تحقيق الرسالة فإن الأبقى هو الفكر، وقـديماً قـال ارسـطو بعـد نقـده لأسـتاذه أفلاطـون: (أحب افلاطون ولكنَّ حبي للحق أعظم).

إلا أن الأفكار لمن يطلبها من مظانّها دائماً تـأتي متدفقـةً، وهي متاحة لكل من اسـتعد لتلقيها بصـدقٍ، لكنَّ قيـدها وتسجيلها وتنظيمها أمرٌ آخر؛ البعض يقوم بذلك والكثير الكثير يضرب صفحاً عنها، لتذهب سُدىً، لأنَّ الأفكار تأتي إذا تعمـدنا اسـتمطارها عن عمـدٍ أما الخـواطر فإنها تـأتي فيض الخـاطر دون تعمُّد، وعلى مدار ساعات الحياة، وأحياناً أثناء النـوم في الأحلام! والأفكـار والخـواطر مثل الطرائد البريّة إذا أردنا الإمسـاك بها فبقيـدها وتسـجيلها في الكتب، وليس هنالك تصارع أفكار بل تكامل فيما بينها واتمام، والفكر يعـني تطـور ونهضة عامة في المجتمع والإنسـانيّة والعـالم وليس منفعـةً محدودة وخاصة بفـردٍ بعينه أو فئة محـدودة، والتفكـير عمليـةٌ

ازدهار ونماء واسعةُ النطـاق غـير محـدودة، تسـير دون توقف وتحتـاج باسـتمرار إلى اسـتنفار الحَـدْس وتسـليط الأضـواء والأنظار، وتركيز الانتبـاه على بـؤرة الحـدث والإلمـام بأبعـاده والأمور المتعلقة به، وهو قائمٌ على الخـبرة ويعتمد عليها إذ لا تفكـير في الفـراغ أو من الفـراغ، فـالفكر ليس هائمـاً وإنما حزمـةً من الشـعاع يتم تركيزها على العقـدة المحـددة، ولا بد من استتباعها بالعمل والمبـادرة والشـروع بـه، إذ ليس هنالك فكرٌ مجـردٌ نهائيـاً من التجربـة، بل التجربة جـزءٌ لا يتجـزأ من الفكرة، والعقلاء يستتبعون الفكرة بالتجربة (الاختبار) والتنفيذ المـــدروس، لأنّ التعقل والتفكر مرحلة واجبـــةٌ لا بـــدَّ منها للوصـول وإلى اتخـاذ القـرار، والبلادة آفة التفكـير، إنَّ البعض يخطُّ ويمحو في الهواء وآخرون على رمـال الشـاطئ لتـذروه الرياح، ولكنَّ المفكر الحقيقي يحفر فكره ليؤثر بالنار.

إن الأمم المتخلفـــــة، أو الـــــتي تمر في أدوار التخلف والانحطاط لا تنجب مفكرين وانما متطفلين على الفكر.

إنّ المفكر دائمـــاً في موضع المواجهة وعلى الجبهة وهو رائد قومه على الدوام لا يخذلهم أبداً، ولذلك عليه بـذل الجهد والإحاطة بـــــالفكرة من جميع جوانبها وابعادها ومعرفتها في شتى مراحلها وامتلاكهـا؛ وأن يكـون أبعد ما يكـون عن الـوهم والخرافة والهيمنة والخضـــوع إلا للحـــق، ولا تناسب ولا تنتج التفكير السليم مرحلة أرذل العمر، لأن الموارد فيها قد تضـنُّ وتشـحُّ وتتعب، وللتفكـير مراحل واطـوار تختلف عن مراحل واطوار الإنسان.

ومن المفكـرين من يغـرف من البحـر ومنهم من ينحت في الصخر، ولكنَّ السـفيه والعاطـل لا يُفكـر مطلقـاً، إن السـفاهة أخت العطالـة وهي السـبب الأساسـي في نشـوب الحـروب والنزعـات ومعظم الخلافـات، وكـانوا إذا نشـبت الحـروب والنزاعات وقامت الخلافات يقولـون (كفـوا عنّـا سـفهائكم) لأن السفهاء بالنسبة لهم الأمور مقلوبةٌ رأساً على عقب وليس لدى السـفهاء منطـــق؛ فهم يخربـــون ويـــدمرون ويحســبون أنهم يحسنون صنعاً.

ويُعتَقدُ أن لفظـة (فكـر) هي جمـعُ الجمـوع لــ(فكـرة) على وزن (صورة) وهي (الهيئة) وتشير فيمـا تُشـير إليـه إلى الثبـات والحزم والصمود وتنطوي على العلم ووجود غاية أو نهاية وذلك بدلالة (حرف التاء المربوطـة) في آخرهـا، وحـرف الـراء الـذي يعـني التكـريس والتكـرار، والفـاء دلالـة الفـرق والتشـعيب أو الاستطراق والاستطراد في طرق شتى الطرق، وهي علامـة الانفصال والانتشار البطيء والتفـرد، والقيـام الهـادئ المفـاجئ

واستئناف العمل وحلحلة العقد التي تُغلق باب التفكير، والخروج والانتشار والانفراد والتجديد والاستقلال، إنَّ الفكر غائيٌ ويستهدف الأهداف وتحقيق الآمال والله أعلم.

والتَفَكُّرُ متعلق بوجود المنطق لدى المُفكِّر ومرتبطٌ به، وهو الميزان والمعيار والمكيال؛ فليس هنالك منطق ولا فكر دون ميزان أو وحدات مدركات؛ والمنطق قائم على الوعي والانتباه والادراك والاحساس بالسيادة، لأنَّ المنطق منظومةٌ علميّة رياضيّة غير منحازة لا بُدّ منها حتى تتخلّق فيها الفِكَرُ الحقة، وهو بتزايدٍ وارتفاع في المستوى، ليس فيه هبوط، وأبعد ما يكون عن الوهم أو الخرافة أو الضعف والاستكانة، والنطق هو البروز بالشيء الذي كان غائباً أو محجوباً، واعلانه جلياً وواضحاً قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النجم: 3] والنطق هنا لا يعني الحديث بل ما أبرزه وأعلنه الرسول الكريم للناس من الرسالة والوحي أنه لم يكن من عندياته ﷺ بل من الله تعالى وبإذنه سبحانه وتعالى، وهذا ينطبق تماماً على الآية 30 من سورة النمل أيضاً قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل: 30] ومعناها أن الكتاب من سليمان ولكنه حقٌ من عند الله تعالى، والمنطق هو الكلام أو التعبير الواعي أو الأسلوب الهادف والغائي بقواعد وطرق ثابتة رصينة متينة خيرِّية ربانية ملهمة وموحية، وفيه ترتيب وتنظيم للمعقولات واعادة تركيبها، ووضع منسجم للأولويات مبنيٌ على التعقُّل بالشيء وتلمسهُ والشعور والعلم والإحاطة والدراية به، والفطنة له بجميع الحواس؛ والشعور عند العرب قضية معنوية غير ملموسة وإنما تمسُّ اللباب والوجدان وتعتمد على الاحساس، والإشعار الإعلام والمشاعر جمع شعار وهو العلامة، ما يُذكِّرنا ويُعْلِمُنا، (والشاعر يتنبه ويشعر بما لا يشعر به غيره ذلك لفطنته، أي يعلم)[1] والمنطق مجلجل كالرعد، ولكنه شديد القرب ويشعرنا بالمودة.[2]

---

1 (?) معجم تاج العروس مرجع سابق.

2 (?) والأساس أن يسعى كل إنسانٍ في حياته إلى حفظ القرآن الكريم، وإلى التفقه في الدين وإلى تعلم أحكامه، لا أن يُترَك الناس بعيدين عن القرآن؛ وعن العلم بأحكام الدين؛ بذريعة مقولة (الخاصة والعامة) التي اختُرعت في العصر العباسي، وتكرَّست منذ ذلك الزمن، لدى كل الطوائف، حتى وصلت إلينا نحن العرب المسلمين على أنها مُسَلَّمةٌ من المسلمات؛ أو بديهية من البديهيات بحيث لم يعد أحدٌ، في مطلع الألفية الثالثة، يجرؤ على تجاوزها أو رفضها! قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: 122]، ويحتجون بهذه الآية الكريمة لتبرير وتمرير الفتاوى العجيبة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وغاب عن بالهم أن هذه الآية الكريمة والعظيمة،

ونحن نُعِدُّ للتفكير عُدَّةً ونفرش له فرشة ونتهيأ ونكون مستعدين لاستقباله ويأتي على حين غِرة... وأحياناً يستعصي وسواءً أكان ذاتياً داخلياً أو كان خطاباً خارجياً مُصَدَّراً للغير، فإنه يجب أن تعيه الأذن وأن يستقر في نفس المُخاطب؛ لأنه من حقل ثمين نبيلٍ وغالي ومن فئة مثال نادرة دائماً، ليس دونيّاً، ولا يُقالُ عن الثرثرة والكلام غير المؤثر المضيِّع للأعمار وغير المنتج أنه منطق؛ وربما كان الصمت في هذه الحالة أبلغ من الكلام، كذلك فإن المنطق يقتضي الإندفاع والقدرة والقوة الذاتيّة، لأنه أساساً يرمي إلى تحقيق أمور معينة، قال تعالى: يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا [مريم: 12] فالأمر إذاً يحتاج إلى القوة والقدرة على الحكم، ولذلك قيل عن الذهب والفضة أنهما الناطقان الصامتان، وليس للضعيف ولا للميت نطقٌ، والنطق إنما يكون عن معنى ويعبر عن معنى ولو بالتلميح والإشارة، وربما كان السكوت في بعض المواضع فعلاً أبلغ من الكلام، لأنه ليس هنالك نطقٌ بلا معنى، والحيوانات ليس لها منطق، بل مجرد صوت لأنه لا يُفهم، (ولمَّا فَهِمَ سيدنا سليمان أصوات الطيور سماها لنا اللهُ تعالى منطقاً)[1]، لأن شرط النطق والمنطق أن يُفهم، وسواءً أفصح أم لم يُفصح، وناطَقَهُ أي كلَّمَهُ، وتنطقت أرضهم بالجبال (أي بارزة فيها للعيان)، وكتاب ناطق أي بيِّن على المثال كأنه ينطق والتناطق التحاور والمنطق يقتضي المعرفة والإلمام والإحاطة بالموضوع وأبعاده وبطبيعة الأمر

إنما تتحدث عن حالة الجهاد، وأوضاع النضال ضد الأعداء، وتقول لنا، أنه في تلك الحالة، وأثناء النفير العام، على الجميع، جميع القبائل، في جميع الأمصار والأقاليم، أن يهبّوا لنصرة دين الله الحق، وللذود عن الوطن، الأهل والديار، وأن البعض من كل فئة من فئات المؤمنين، أثناء حالة النفير العام، يجب أن لا يترك وأن لا ينسى أمر القرآن الكريم، وتعليمات رسول الله ، القائد الأعلى للمؤمنين، والالتزام بأوامره ونواهيه، بل على عاتق تلك الفئة، في تلك الحالة فقط، كفرض كفاية هام، وهام جداً، يقع واجب الاتصال والاطلاع على الدين وأحكامه، وإلا فقد يضيع الهدف الأساسي المطلوب تحقيقه أصلاً من الجهاد والنضال، فالمؤمنون لا يقاتلون لمجرد القتال بل يقاتلون جهاداً في سبيل الله سبحانه وتعالى، ودفاعاً عن وطنهم، وطن الإيمان، وزوداً عن حياضه، وكانت الآيات التي سبقتها في سورة التوبة، تهيب بالمؤمنين لينفروا تحقيقاً لذلك الهدف، وأن لا يتخلفوا عن رسول الله وأن لا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، وقد وعدهم الله سبحانه وتعالى، أن يجزيهم بأحسن مما كانوا يعملون، ثم قال تعالى في الآية التالية مباشرة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ [التوبة : 123]، فكيف ساقوا الآيات على مشروعية فتاويهم الغريبة؟ وهل يجوز أن تكون هنالك فتاوى متناقضة؟ وكيف يمكن للعقل والمنطق، استيعاب التناقض، في الفتاوى التي من المفروض أن تكون منسجمة مع كتاب الله سبحانه وتعالى، في حكمه العربي المبين.

[1] (?) تاج العروس للزبيدي، حرف القاف، الكويت.

أو المشكلة أو الهموم المُرادُ بحثها، ولذلك يقال أنه هو واسع النطاق، ويتضـمن الطريقة المُثلى الرائعة الهيِّنة السـهلة مثل طريق الجدول، لا المعقدة الصعبة المليئة بالحفر والمطبـات! والنطق تعـني البلاغة والتسلسل في الكلام والخطـاب الـذي يفضي إلى الحــق. وهو واسع الاطلاع يحيط بــالأمر ويشــرف ويهيمن عليه من الأعلى ويســير ليســتقر دائمـــاً إلى مركز الـــدائرة لا إلى خارجها إنَّ صــاحب المنطق يكــون مــؤتزراً ومرفوداً بالجود والسماحة مرشحٌ دائماً ليسود بالحق.

كـذلك فـإنَّ إيمـان العجـائز؛ غـير محمـودٍ ولا مطلـوبٍ ولا مرغوبٍ فيه، وكان من الخطأ تمنيه أو الدعوة إليه! لأنه عادم؛ ولأنَّ الإيمــان الحقيقي قــوة بحد ذاته، فكيف نربطه بــالعجز والعجـائز؟ وكـان التفكُّر مثل الإيمـان تمامـاً، بل هو أحد أهم بنـــوده وشــــروطه، وليس هنالك إيمـــان حقيقي دون تعقّل وتفكّر، لــذلك ليس ولم يكن هنالك تفكر عجــائزي أو مبــني على العجز والتعجيز، فمن الـذي يتحـدث عن الإعجـاز للنـاس في كتـاب الله الكـريم؟ والقـرآن الكـريم هو الـذي يـدعو إلى القوة في التفكر والتعقل قال تعالى: ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: 5] قال تعالى: ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 44]. قـال تعـالى: ﴿ يَا يَحْيَى خُـذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: 12].

هـذا وقد أصبح الفـرقُ واضـحاً، من حيث البنـاء والتراتبيّة الذهنيّة المنطقيّــة، بين المنطق (الإقليـــدي) التقليـــدي وبين المنطق المُحدَّث (النسـبي) تمامـاً وهو كـالفرق بين الهندسة الإقليدية التقليدية وبين الهندسة النســبيّة والفراغيّة الحديثــة، وأصـبح لكل مكـان ولكل زمـان خصوصـيّةً وفهمـاً وأوضـاعاً متناســبةً ومنفــردة، إنَّ النظريّة النســبية غــيرت فهم وفكر العـــالم من حولنا وقلبت نظرته المادية والمعنوية العمليـــة، أو طورتهــا... وبالتــالي صــار هنالك أحكامــاً خاصة وأحكامــاً عامة؛ قال تعالى:﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْـهِ فَـاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْـزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِـعْ أَهْـوَاءَهُمْ عَمَّا جَـاءَكَ مِنَ الْحَـقِّ لِكُـلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِـرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْـرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَـرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: 48].

ومعروفة مقولة الفيلسوف اليوناني أفلاطون الـتي كـانت تعتـبر من القواعد الأساسـيّة في علم المنطق التقليـدي (كـلّ

إنسان فان "مقدمة أولى"* سقراط إنسـان " مقدمة ثانيـة"* سـقراطً فـان "نتيجة حتميَـة") وأن الكبـير يسـتوعب الصـغير وليس العكس؛ وأنَّ القوي أبقى من الضـعيف وليس العكس، وأنَّ الغـني يمتلك أو يتحكم بـالفقير وليس العكس، لقد كـان المنطق التقليـدي ينبـني على تـرتيب الأمـور بحسب الحجم والكميّة والعدد والقوة الهائلة والمُفرطة.

وقد جُبل الإنسان على أن يهـرع إلى تقليد غـيره في ما لا يــود أن يكــون هو أول من يفعــل، وليس هنالك من هو دائم الاتـــــزان في كل حين، ولكن هل صـــــحيحٌ أن الأمة أو أنَّ (المجتمع لا يجتمع على خطأ ؟) ولأنَّ مفهـــوم الحق غـــير مفهـوم القـانون فقد ثبت بالعمل وبـالواقع أن الجماعة الـتي تتبـنى أو يتم إقناعها بـأنّ القـانون يمكن أن يكـون بـديلاً عن الحق، فإنَّ هذه الجماعة إنما تجتمع على الخطأ.

لكن سـوء الاسـتعمال المتكـرر والمتعمّد من قبل الأفـراد والجماعات غـير المسـؤولة (في طـرح الأفكـار غـير المفيـدة والمــدمرة والشــاذة في المجتمــع) لا يُعــدُّ مجــرد خطأ في الاستعمال؛ بل هو إهمـال مقصـود ويجب محاسـبة المفُسد لا التغاضي عن فعلـه، وبالتـالي فـإن الهـدر الكبـير لحيـاة الأمة العربيةِ وضـياع مواردها وأوقاتها خلال مئـات السـنين، وذهابها ســـداً دون تحقيق أي نتيجـــة، كل ذلك كــــان جريمة يجب محاسبة مرتكبيها عاجلاً أو آجلاً.

والحقيقية أن الفكر الأصيل هو الذي يحـترم نفسه ويكـون منطقيـاً ومنسـجماً مع الواقع والآمـال، الإيجـابي البنـاء الـذي يتبنى الناس وقضاياهم ويأخذ بيدهم ويرشـدهم إلى الصـواب، ويقدم لهم يد العون ويـدعمهم ويـدفعهم إلى الأمـام، لا الـذي يشــدهم إلى الخلــف، عن طريق الـترويج للتفاهة والسـخافة والدوافع المنحطة، الاستهلاكي السطحي البائر والميت سـلفاً وقبل الولادة، أو القائم على جَلْدِ الناس واتهامهم على الدوام بالتقصير وسوء الطوية، ولومهم على طول الزمان،

وبينما ظهر في العصر الحـــديث الفيلســـوف الفرنسي الوجودي (سارتر) ليقول ((إنَّ الحقيقة ما قبل (البرينيه) خطأ ما بعدها)) وذلك دفاعـاً عن خصوصـية الزمـان والمكـان، لقد حاول الفلاسفة والمفكـرون المحـدثون قلب الهـرم المنطقي السائد رأساً على عقب وقـالوا إنَّ الفكـرة الصـحيحة، ولحـظ الظروف المرئية والمعلنـة، والظـروف والعوامل غـير المرئية وغـير المعلنـة؛ وتأثيرها في الأحـداث وحسـابها والتعامل معها واشــــراكها في المعادلة وفي المواجهـــة؛ وتَحَيُّن الظـــروف واستغلال الفرص والأوقات والأحوال وأخذها بالحسبان، والتي

من الوارد أن تتبدّل وتتغير في كل حين إذ لا شيء ثـابت؛ لأنَّ كل لحظة ولها أحــوال خاصة وظــروف موضــوعيّة مناســبة ومتميِّزة عن سابقاتها.

إنَّ فهم الأمــور بهــذا الشــكل ســيقلب المعادلة الفكريّة وذلك في فهم طبيعة الوجــــود الملمــــوس وثوابته المادية المحسوسة، وبالتالي سيُفيد في تحديد الخطوات والإجـراءات الـتي يجب اتخاذها لمعالجة اية مشـكلات قد تطـرأ، إن الـدور الرئيس لفكرٍ ما هو إيجاد الحلول المناسبة للمشكلات القائمة والقادمة والمحتملـــة... ومن ســماته المبــادرة والمفاجــأة والســبق وحسن اســتغلال الفــرص والمــوارد مهما كــانت، ومحاولة نقل المواجهة إلى أرض الخصـم، ووضع كـلَّ شـيء في المكــــان المناسب والملائم - القــــوة والدبلماســـيّة - والاسـتفادة من الأخطـاء وخصوصـاً أخطـاء الخصم وهفواته ونقاط وحالات ضعفه وانقلاب الزمن عليه؛ وأوضاعه النفسـيّة والصـحيَّة، وحـتى أوضـاع الطقس ودرجة الحـرارة والضـغط الجــوي واتجـاه الريــاح، كل ذلك يجب أخــذه بالحســبان عند تشـكيل الفكـرة الدقيقة (بنائهـا) والعـزم على اتخـاذ القـرار الصحيح.

وتفهّم ما يطـرأ من اختلاف المعـايير وتطورها في مجـال الجمــال والقيمة والأهميّــة، إذ لم تعد القضـية كما كـانت في الماضــي، لقد كُشف النقــاب وأزيل الغطــاء ورحل ما كــان يحجب الحقــائق عن العقــول ويكم الأفــواه ويعمي العيــون ويصم الآذان عن الســماع، لقد زال السـحر الأسـود وسـقط النقاب عن الوجوه الغادرة فحقيقة الشيطان أصبحت سافرة، ولذلك علينا أن نستثمر دون خـوف كل الممكنـات والظـروف الطارئة والمســتجدّة، لأنَّ الظــروف غــيرُ دائمة وهي غــير مستقرة إلى الما لانهاية![1]

---

1 (?) تلعب البيئة دورا كبـيرا وأساسـيا في تحديد طبيعة المسـتوى الفكـري الـذي يفكر فيه الفـرد، من خلال تحديـدها لماهية طبيعة حاجـات الإنسـان الــذي يعيش في تلك البيئة المعينــة، ومن ثمّ وعلى ضــوء تلك الحاجــات وعملية إشـــباعها (أو عــدم إشــباعها؟) يتكــون – طبقا لعلمـــاء النفس المعـرفي – المتـدرج الهـرمي للقيم Hierarchy Of Values، أو طبقا لعلمـاء البرمجة اللغوية العصـبية بالجهـاز القيمي عند الفـرد. ويتكـون– المتـدرج الهـرمي للقيم Hierarchy Of Values أو الجهـاز القيمي من: أولا- عـدد القيمّ الـتي يضـمها ذلك – المتـدرج الهـرمي Hierarchy Of Values؟

ثانيا- نوعية كل قيم تقع ضمن ذلك – المتـدرج الهـرمي للقيم Hierarchy Of Values؟

ثالثا- ترتيب كل قيمة ضمن ذلك – المتدرج الهرمي للقيم Hierarchy Of Values؛ أو بمعــنى آخر هي تلك الأهمية الــتي تعطى لكل قيمة حسب موقعها في عمق – المتدرج الهرمي للقيم Hierarchy Of Values؟

وعدم التشبث بـالمقولات الشـائعة والشـائعات، إنَّ الفكر وتحريكه هو الغـــرض والغايـــة، إنه الهـــدف من كل ما نـــراه ونسمعه من الآيات.

ولكن هل أصبحت علاقة البيئة بالتفكير ثابتةٌ بالإضـافة إلى عوامل الوراثة ومســـائل الواقع وشـــــروطه؛ وهل يختص به أنـاسٌ ويحـرم منه آخـرون؟ وهل للتفكـير أحـوالٌ مخصوصـةٌ وعصـور؟ إنَّ البيئة والطبيعة في هـذا الـزمن لم تعد سـعيدةً بـــالفكر الحـــديث، لقد كـــانت الأفكـــار في الماضي مناســـبةً

والأمر الآخر والذي هو في غاية الأهمية: رابعـا- وهو الفـترة الزمنية الـتي تشـــبع بها البيئة تلك الحاجـــات، فكلما عجلت البيئة في إشـــباع حاجة من تلك الحاجـات لـدى الفـرد، كلما تسـرعت في تغيـير الجهـاز القيمي، من خلال تغييرها للعوامل القيمية المشـار إليها أعلاه (أولا- عـدد القيمّ الـتي يضمها– المتدرج الهرمي للقيم Hierarchy Of Values؟وثانيا- نوعية كل قيم تقع ضـمن ذلك – المتـدرج الهـرمي للقيم Hierarchy Of Values؟ وثالثا- تـرتيب كل قيمة ضـمن – المتـدرج الهـرمي للقيم Hierarchy Of Values؛ أو بمعنى آخر الأهمية الـتي تعطى لكل قيمة حسب موقعها في عمق – المتدرج الهرمي للقيم Hierarchy Of Values؟).
ويلعب – المتدرج الهرمي للقيم Hierarchy Of Values دورا كبـيرا في تحديد المستوى الفكري الذي يفكر فيه الفرد، ومن ثمّ المنظومة الفكرية التي يفكر فيها الفرد، ومن ثمّ شخصية الفرد.
فعنـــدما يتم إشـــباع الحاجـــات الأساســـية للفـــرد، عندئذ تتغـــير منظومة الحاجات؛ فتتكون من حاجـات أكـثر عمقا على خارطة التفكـير البشـري، وعندئذ يصبح فرد يحمل رسالة أكبر.
فالناس يصنفون إلى من:ـ أ- هو جدي ويحمل رسالة في الحياة، وللـوقت أهمية كبـيرة وثمينة في حياتـه. ويكـثر توزيع هـؤلاء النـاس في البيئـات المتطورة والمتحضرة.
ب- أومن هو غير جدي، وليس للحياة معنى لديـه، ولبس للـوقت أية قيمة في قاموس حياته اليومية. وهؤلاء يتوزعـون في البيئـات المتخلفـة، وغـير المتحضرة، والتي تمارس ضغط نفسي على أبنائها.
وبما أن أي سـلوك يسـلكه الفـرد ينتج عن عمليـات فكرية معينـة؛ ضـمن مستوى فكري معين. ويشـير علمـاء البرمجة اللغوية العصـبية إلى أن أي مستوى فكري ينتج عن الجهاز القيمي الذي يحمله الفرد لا شعوريا.
فالأفراد الـذين يعيشـون في بيئـات تمـارس على أفرادها ضـغط نفسـي، وهمهم في الحياة مجرد مطاردة الحاجات الأساسـية (مثل لقمة الطعـام، والملبس، والسكن، والسيارة، والزواج؛ لأشباع الحاجة الجنسـية شـرعا)، عندئذ هـؤلاء أنـاس انفعـاليون مفـرغين من لعب دورهم الحقيقي على مسـرح الحيـاة اليـومي، الـذي خلقـوا من أجلـه، ومن ثمّ مفـرغين من رسالتهم بالحياة التي خلقوا من أجلها.
فلا تتعجب إذا ما تصـرفوا أي تصـرف لا يليق بتصـرف أي مـواطن أنجـاه وطنه.
كـذلك لا تتعجب إذا ما سـافر أبنـاء البيئـات الـتي تضم حضـارات متـأخرة ومتخلفة إلى البيئات التي تضم حضارات متقدمة، ونجحوا فيهـا، وأصـبحوا أشخاص جديين يحملون رسالات ذات معنى في الحيـاة، لأن تلك البيئـات المتقدمة قد أشـبعت الحاجـات الأساسـية والكثـير من الحاجـات الثانوية الأخرى في خارطة التفكير البشـري، عندئذ تغير المتـدرج الهـرمي للقيم Hierarchy Of Values لدى الفرد، ومن ثمّ تغير مستواه الفكري، ومن ثمّ تغـيرت منظومته الفكريـة، ومن ثمّ تغـيرت شخصـيته، فتغـير سـلوكه

وموائمة أكثر منها في الحاضر، وذلك بالنسبة للحياة والبيئة وخواصها وشروطها، بكل أشكالها وابعادها الإنسانيّة والنباتيّة والحيوانيّة وحتى للجمادات، كانت متناسبة ومتناسقة ومتناغمة ويتمم ويرمم بعضها بعضاً وتدور دورتها الذاتية المتكاملة، لقد كانت في الماضي أسعد منها في الحاضر، لقد فقدنا الكثير الكثير وبتنا الآن نبحث عن البدائل من المركبات الكيميائية؛ وذلك على الرغم من التطور التقني المذهل وغير المسبوق إلا أن النكبات تحاصر المكان واطراب الطبيعة أمرٌ بات عياناً، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: 41].

كذا فإنه لا طائل - في الفكر - من طرح المسائل الجماعية الكبرى والتي تحتاج إلى حلول جماعية أو دوليّة أمميّة فليس بمقدورهم فعل المستحيل، إنَّ طرحها على الأفراد، وادخالهم في دوامة غير متناهية وتمضية الأعمار في نقاشها (الأفكار المستحيلة) دون جدوى أو دون أن يكون في مقدور الأفراد القدرة على المبادرة والمشاركة في إيجاد الحل واتخاذ الحكم وتقرير القرار، لعمل أي شيء يتعلق بتلك المسائل، وانما فقط لجعلهم يشعرون بالتقصير وليجلدوا أنفسهم من أجلها، وذلك إيهاماً لهم وتبديداً للوقتهم ولجهدهم واموالهم دون طائل.

إن المسائل الجماعية يجب أن تكون حلولها جماعية أيضاً، فيجب أن تتضافر من أجلها الجهود وتتحد الهمم، وذلك مثل قضايا تلوث البيئة البحرية والفضاء، والاحتباس الحراري واتساع ثقب الأوزون والاستغلال والاحتلال والاستعمار والثورة على الاضطهاد واستعباد الشعوب، إنَّ هذه المسائل وأشباهها يلزمها لعلاجها فكرٌ جماعيٌ يكون القاعدة والأساس والحاضنة المناسبة لتغيير الأوضاع، إنَّ الأمة الحيّة هي التي تستجيب لها الأقدار وهي التي تحرك الأقدار لا الأفراد كأفراد[1] والزمن من الأهمية بمكان بحيث يتوجب عدم السماح بمروره مروراً مجانياً دون نتيجة تُذكر[2].

الظاهر والباطن.الأستاذ مصري الجبوري من موقعه على النت.

1 (?) ابان نكبة 1948سُئل المفكر العربي (ساطع الحصري) وكان يدعو إلى الوحدة العربية في مواجهة دعاة التجزئة والتقسيم، سُئِلَ عن سبب تلك الهزيمة النكراء للعرب ونكبتهم أمام اليهود، علماً أن جيوشهم كانت سبع جيوش، فقال لقد هزموا لأنهم كانوا سبع جيوش!

2 (?) الأبدُ: الدهر الطويل مطلقاً (بلا نهاية) والأبد: الدائم والأبد القديم الأزلي الباقي (إلى الما لا نهاية) هو الزمن الممتد الذي لا ينقطع ولا يتجزأ، وهو لذلك لا يُثنى ولا يُجمع إذ لا يُتصور حدوث أبد آخر؛ وقد قيل (آباد) ولكن بمعنى الأوقات التي لها نهايات؛ وهذا مولَّد وليس من كلام العرب العرباء، وقولهم (أبد الأبد وأبد الآباد وأبد الآبدين) ذلك للتعظيم في الحديث أو للمبالغة فيه ولتأكيد دوام الأمر، وتأبّد: أقام على الوضع والشيء ولم يبرحه، والأوابد والغرائب: ما لا يُعرف معناه على بادي

والمذهل هو اصرارهم وعنادهم، في الإعلام العـالمي الملـون والثقافة الفضـــائية، على الطروحـــات الخاطئة في الكثـــير من المسائل والمشكلات التي أخذت تواجه العالم، وذلك على الـرغم من وضـوح الأسـباب والمسـببات الحقيقية الـتي نجمت عنها تلك المشكلات، وبثهم واقتراحهم في الكثير من الأحيان للحلول الـتي اتضح أنها غير منطقية وغـير مجدية وغـير ناجعـة، فلمـاذا يتغاضى الاعلام الغــربي ويُصِــرُّ على الـترويج للمفاسد وتســويغ الأخطـاء الفاحشة والدعاية لها عن طريق تكـرار بثها واعـادة طرحها بعنـاد ليس له مثيل وفي بــرامج لا شك أنها مكلفة وباهظة الثمن؟ وكم كلفت البرامج التي وضعتها دول العالم للقضاء على مرض الايــدز ولاكتشاف طـرق وأسـاليب التعـايش أو التطـبيع مع هـذا المـرض الــرهيب؟ ولكن لمــاذا يصــرون في المقابل على الدعاية للجنس بشــكلٍ واسع النطــاق؟ علمــاً أنهم يعلمــون أنَّ انحســار الآداب العامة والفلتـــان الـــتربوي وعـــدم الضـــبط الأخلاقي والأدبي هو العامل الأساسي في انتشار هذا المرض وغيره؟

وهل مفهوم (حرية المـرأة) أو (المسـاواة) المطلـوب تحققها بين المرأة كإنسان والرجل كإنسان هي أن نسوي فيها بين الذكر والأنثى؟ أي أن نحول الذكر فيها إلى أنثى؟ أم أنَّ المطلـوب كـان تحويل الأنــثى إلى ذكــر؟ أم تحويل الطـرفين فيها إلى حالة ثالثة إلى خُنْثَى مثلاً... (لا ذكر ولا أنـثى)، لقد أختـار المفكـرون العـرب وقد تمَّ العمل في البلاد العربية وفي نهاية هذا الجدل على الخيار الثـالث والـذي يحـول جميع الـذكور العـرب إلى إنـاث أو مخنـثين وحُرِّمت عليهم الرجولة والبطولة وحُـرمَ عليهم التطلع إلى المجد والحديث عن الذات العروبية وعن الإسلام الصحيح!

إنَّ أكثر المعارف إفساداً هي تلك الـتي تُظهر نفسـها كمعرفة محلية وأهليـــة؛ عن طريق التواطؤ لتمرير ما هو آتٍ من الخـــارج على أنه من الداخل؛ فالمعرفة المشوهة هي مــرضٌ يميت الهويةَ ويمحوها، فليس تبديل القوانين والأنظمة والأشخاص بمبدل شـيئاً من الحق في جـــوهر الحيـــاة، لقد اضـــاعنا من الـــوقت ما فيه الكفاية، إنَّ اتساع المعرفة في العصر الحـديث والتطـور والتقـدم التكنولــوجي الهائل والمــذهل في الاتصـــالات، واخـــتراع المجهر الإلكتروني والتلسكوب والمنـاظير المكـبرة واستكشـاف الفضـاء والوصول إلى أعماق البحار، كل ذلك قد قلب بلا شك فهمنا لهــذا العالم المادي والكون بكل أبعاده واجبرنا على إعادة تقييم الأمـور والقضـايا والمشـكلات الـتي أصـبحت كلها النظـرة إليها مختلفة فكرياً.

الــرأي، والآبــدة الفعلَــةُ ما بقي ذكرهــا. بينما الأمــد: تشــتمل على الغاية والزمــان مَعَنْ، وهو عــامٌّ في الغاية والمبـدأ، ويُعَبَّرُ به عن سـائر كل مـدةٍ محددةٍ، وهي المنتهى من الأعمار وبهذا يكون الأمد هو منتهى الأجل.

كذلك فإنَّ تطور علم التاريخ وفهمه على أنه لم يعد مجرد تسجيل أمين للذكريات والحوادث بل هو نضـلٌ وكفـاحٌ وثـورة إنسانية كـبرى محمولـةً على الـزمن، وكلك ظهـور علم الآثـار والمتاحف والحفريات والرقم والمنحوتـات والوثـائق والأدوات القديمة، والتراث عموماً، ومعرفة وتحليل الأسـاطير والاطلاع على الحكايـات وفهم التـاريخ القـديم فهمـاً صـحيحاً، كل ذلك أعطى الفكر الإنساني دفعةً هائلةً وملأه بالثقةً.

(إن إنسـان المسـتقبل سـيجد نفسه محمـولا على اختيـار هذا السبيل الذي فيه خلاصه وحريته (التفكّر) وبعبـارة أخـرى: إن إنسـان المسـتقبل لن يبحث عن التمـدد في المكـان، في العـــالم، بـــأن يمتلك الـــثروات والأدوات والأطعمة المترفة والجاه: العريض، فعالم المستقبل سيكون أضيق رقعة من أن نتمدد فيه بنزواتنا، إن إنسان المسـتقبل سـيحاول النمو خلال بعد الزمان، بعد الروح، بعد القيم، أن ضـرورة التقنية سـتحدد لنا المســـاحة الـــتي نحتلها من الكـــون[1]، وأما بعد العمق فسيظل متروكاً لنا، وسيكون شأننا شـأن سـكان مدنية ضيِّقة الرقعة، فلا يمكن لأبنيتها أن تتمدد طولاً وعرضاً، ولـذلك فهي تتمـدد علـواً وارتفاعـاً، ونحن نسـمي هـذا الطـول بعد الـزمن والروح (التفكـر)[2]، وهـذا الخلق وسـيلة أيضـاً، إذ من أجل أن

---

1 (?) التقنيـة: المقصـود بها الآليـة، أي الاعتمـاد في الحيـاة الإنسـانية على الأجهـزة والآلات (الميكانيـك)، بينما مع تقـدم الـزمن ظهَـرَ توسع في اسـتعمال هـذا المفهـوم وتعمم وانسـحب على نـواحي ومجـالات كثـيرة، وصارت التقانة الآن تعني السير وفق المخططات والـبرامج المتناهية في الدقة، لتحقيق أعلى إنتاج، ثم إن التقنية صـارت سـمة للأسـلوب العملي، والحيـاة العملية بشـكل عـام، لقد اتصف بها أشـخاص ومجتمعـات، وهـذا المفهـوم بـات ينسـحب على الشـكل، والمضـمون! إن التقنية مدهشة ولاشك، إنها تؤثر في الإنتاج، لكنها ومع مرور الزمن، من داخلها باتت تنتج بعض السـلبيات، القاتلة للإنسـان والحيـاة الإنسـانية، الشئ الـذي بـدأت تظهر بوادره بعد مضي الزمن، إن التقنية بسبب ما تعمِّقه من قطيعة بين الإنسان من جهة، وطبيعتة من جهة ثانية، فطرته الأولى، القيم، والمبادئ، والمثل العليـا، إن التقنية بسـبب جمودها كآليـة، وحياديتها في الموضـوع، تسـبب مع مـرور الـزمن، الشـلل، والضـمور للعقـل، والقلب، وللفكر الإنساني الخلاّق، التقنية الـتي تعـني الإتقـان، والإنجـاز والإعـداد الصـحيح المحكم، والتنظيم، والتنسيق، والترتيب، والتحضـير، والتوضـيب البشـري، في كل إتجاه، عن طريق التخطيـط؛أو خلق جيـل من ذوي الخـبرة، جيـل من الناس، الذين لا تقف أمام طموحاتهم من أجل النجاح، وتحقيق الربح، أو تحقيق النصـر! لا يقف في وجههم أي أعتبـار لأي شـيئ، كل شـيئ بالنسبة لهم له سعر، وكل شيئ بالنسبة لهم خاضعٌ للمفاوضة،وقابل للبيع والشراء أيام زمان!

2 (?) الـزمن مـدة محـددة نقطع فيها حاضـراً فيصـبح ماضـياً ونسـتمر في السـير إلى الآتي إلى المسـتقبل، وهو لحظة وبرهة وقد ألهم الله تعـالى الإنسان وأوصله خلال مسيرته المديدة إلى قياسه بواسـطة واحـدة زمنية اصطلح عليها وسماها الساعة، ولهذه أجزاء هي الدقيقة والثانية والثالثـة، وهو مختلف بين القلة والكثرة، ومع السـاعة وقد وضع الإنسـان مقـاييس

نصبح قادرين على تغيير وضع الإنسان الحالي وإعادة تنظم عالمه ينبغي علينا أن نكون أحرارا، والحرية تمتلك بالتخفف من الأثقال الأرضية وذلك بضبط الذات وقمع شهواتها وملاشاة حاجاتها وبذلك نصبح أقدر على الفعل والحركة، أقدر على صنع المستقبل لأننا تحررنا من الحاضر، إن المستلبين في صراع مع ذوي العطالة فعليهم أن يمتلكوا خلق المحارب، بأن يمتنعوا على الإغراء وسهولة العيش، وهذا الصراع لا بد وأن يشتد ويتخذ شكل العلانية ما دمنا نصر على بناء حضارة تزعزع عطالة المترفين وتحملهم على اليقظة ورؤية الإنسان في أقسى مواقفه وأبلغها في التعبير عن ذاته، موقف الرفض والثورة[1].

هكذا يعاد تنظيم الذات، والأمر الثاني الذي يقتضيه هذا التركيب، هو إعادة تنظيم الموضوع، والموضوع امتداد الجسد كما رأينا، فتنظيم الموضوع يعني أن نقترب من نظام الجسد، وقد رأينا الموضوع يقترب من نظام الجسد باقترابه من النظام والموضوعية لأنه بذلك يتناغم مع إيقاع الجسد المنتظم)[2].

والواقع فإنَّ كلَّ ظاهرةٍ في الكون تمتلك بداخلها نظاماً، إنَّنا يجب أن نعمل على قراءة كتاب الكون، إنَّ الكثيرين من الذين لا يقرؤون الحروف الأبجدية قد يستطيعون القراءة في كتاب الكون، ولكنَّ الغريزة عمياء، إنَّ أخذ المواقف حيل العالم يجب أن يتمَّ من خلال التفكُّر بالله العظيم وأداته

تعتمد على ظروف النهار والليل، وعلى المواسم المعروفة واعتمد في هذه المقاييس على الشمس والقمر وأطلق عليها أسماء مختلفة

1 (?) الثورة: الهيجان والوثبُ، وثاروا به أي وثبوا عليه، والثَّوْرُ: السطوع والنهوض والظهور، كذا يُستثار الأسد والصيد، والثور عند العرب كنية السيد، وقال عليٌّ رضي الله عنه (أكلت يوم أكل الثور الأبيض) أي السيد الأبيض وأراد به سيدنا عثمان رضي الله عنه، والأبيض كناية عن الشيب في رأسه رضي الله عنه. والثور حمرة الشفق وانتشاره، ويقال ثورة من رجال أي عدد كثير، والثورة للماء ينبع ويتدفق بشدة وقوة من النبع، وأثار الأرض حرثها وقلبها على الحب واستخرج بركتها، وثورَ بَحَثَ. وثَوَرَ القرآن: بحث عن معانيه وعن علمه وفاتش العلماء في فهم معانيه وقيل ليُنقر عنه ويفكر فيه وفي معانيه، وفي الحديث: (أثيروا القرآن فإنَّ فيه خبر الأولين والآخرين) ومن المجاز أن الثورة تعني الانبعاث، والثائر لقب كل من ثار، والثائر الغضبان.

ففيما مضى كانت وصية الأنبياء والصالحين والعلماء للناس جميعاً هي تقوى الله تعالى والصبر على الشدائد وقت الامتحان، وعلى البلوى، وبالمقاومة لكل قاهر معتدٍ أثيم، وعدم الإستكانة وعدم قبول الذّل، وبالعمل الصالح والإحسان للناس جميعاً، لأنَّ الثورة بالأساس فيها تتويج لمجموعة هائلة من النشاطات الفكرية كانت قد بدأت قبل الثورة؛ وذلك على جميع الصعد وفي مختلف الاتجاهات، إنَّ الثورة عمليّة أشبهُ بحياكة وخياطة الثوب الجديد؛ ثم تأتي بعد مرحلة الإنجاز مرحلة لبسه أو تبديل القديم بالجديد.

2 (?) نحو حضارة جديدة، أحمد حيدر دار الفكر 1968.

العقل، إنَّ الكثير من النـاس لا يعقلـون، إنَّ مجتمع العقلاء هو مجتمع المؤمـنين، ومن قـال لكم لا تفكـروا فإنه يكفر بكتـاب الكون.

الذكاء الإنساني نتيجة من نتائج التفكر

جاء في المعجم[1]: أنَّ (الـذكاءُ) تعـني حِـدّة القلب والفـؤاد، وهو: سُرْعة الفطنَة. والسِنُّ المتقدمة، وذُكـاءٌ: اسـمٌ للشـمس، ويقالُ للصبح: ابن ذُكاءَ، لأنَّه من ضـوئها، وتَذْكِيَـةُ النـار: إيقادهـا ورفعُهـا، وهي شـدةُ وهَجِ النارِ؛ والمُذكِيَـةُ: مـا يلقى على النـار تذكّى بـه، قولـه تعـالى: إلاّ مـا ذكّيْتُم أي (إلا مـا طهرتمـوه بالنـار)؛ وأذْكَيْتُ الحَـرْبَ إذا أوْقَـدْتها؛ وأذْكَيْت عليـه العيـونَ، إذا أرسلتَ عليه الطلائع، وقال الحَجّاج: فُرِرتُ عن ذكاء.

والبَلادَةُ: ضـدُّ الـذكاء، وتَبَلَّدَ، أي تـردَّد متحيِّراً، وأبْلَـدَ لصِق بالأرض، ويقال: ذَكا يَذْكُو ذَكـاءً، وذكُـوَ فهو ذكيٌّ. ويقـال: ذَكُـوَ قلْبُه يَـذْكُو إذا حَيَّ بَعْـدَ بَلادَةٍ، فهو ذكِيٌّ، وذَكا الـريح: شِـدَّتها. ومِسْـكٌ ذكِيٌّ وذاك: سـاطِعُ الرائِحَـةِ، وهو منه، والـذَّكاءُ في الفَهْم: أن يكون فَهْماً تامّاً سـريع القَبُـول. والـذَّكاءُ في الفَهْم التَّمامُ، وهو تمامُ اسْتِتْمام القُوَّة؛ وأصل الـذكاة في اللغة كلِّها إتْمامُ الشيء، فمن ذلك الـذَّكاءُ في السِّـنِّ والفَهْمِ وهو تمـام السنِّ، وفي الفقه (الزكاة) تعني الطهـارة، (والـذبيح: الطـاهرٌ بالنـار)؛ و(المـذبح) وهو المكـان الطـاهر في (دور العبـادة القديمـة) وجَـدْيٌ تعـني ذَكيٌّ، وينطـوي مفهـوم الـذكاء على الكشف والاطلاع والوضوح والعلم والإدراك والـوعي والانتبـاه والحـدسْ والاسـتنتاج؛ والله تعـالى أعلم، والفـرق كبـيرٌ بين (مفهـوم الفهم) و(مفهـوم الـذكاء) أو التلاؤم مع المحيـط، فالذكاء ضروري ومطلوبٌ توفره مبدئياً ونسبيّاً لدى كل كـائن حي، ذلك لتأمين القـدرة على الحيـاة والحيوية والحركة فيهـا، ولكنه يعـني من حيث المبـدأ مجـرد التلاؤم مع الطبيعة من حولنا، بينما المطلـوب من الإنسـان العاقل والمفكر أكـثر من ذلك وأبعد من ذلك وأعمق بكثير، والجدير بالـذكر بأنه لم يـرد مفهـوم (فكـر) أو (عقـل) في القـرآن العظيم بمـدلولٍ جامد أبـداً، ولكنها وردت دائمـاً في حـال الحركة والعمل المسـتمر، فقال : (يتفكرون) و(يعقلون)[2].

---

1 (?) (لسـان العـرب) لأبن منظـور، و(الصـحاح)، و(تـاج العـروس من جـواهر القاموس) للزبيدي. و(المحيط) للفيروز آبادي.

2 (?) إن قارئ القرآن العظيم، إذا كان صادقاً في تَدَبّرِهِ، فـإن الله سـبحانه وتعالى سيُفعّله، وسيجعل منه عالماً، وعالماً كبيراً، وسيفتح عليه وسيمده بـالفهم وبـالعلم الشـامل وبالـذكاء والمعرفة والقـوة، إن القـرآن العظيم مفاعل نووي، بل هو أكبر مفاعل نووي في العالم، يُفَعِلُ مخلوقـات اللـه، يُخرجها من الظلمـات إلى النـور، إذا عرفنا كيف نفهمـه، [يرجع الفضـل، جميعه، إلى القـرآن الكـريم، فلـولا القـرآن الكـريم، لبقي النـاسُ في كل المجتمعـات، في كل أنحـاء العـالم، على حـالتهم الأولى، ومعـروف أن

هـذا ولم تـرد الاشـارة بشـكلٍ مباشـرٍ إلى (الـذكاء) في القرآن الكريم، بينما ورد ذكرٌ للفهم، قـال تعـالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُـلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَـخَّرْنَا مَـعَ دَاوُودَ الْجِبَـالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 79]

إلا أن الفـرق شاسـعٌ، وواسـع، بين مفهـومي، الـذكاء الحيـواني، الـذي طرحه الفكر اليهـودي الغـربي، وبين الفهم الإنسـاني، أو المفهـوم العـربي الأساسي للـذكاء، الفهم الإنسـاني والـذي يـدعو إليه الإيمـان الحقيقي، هـذا الإيمـان بالمفهوم العربي الذي ورد في القرآن الكريم، والذي ينطـوي عن الذكاء والذاكرة والفهم والوعي والإرادة والحرية والرغبـة في السموّ والرقيّ والكمال.

الكمـال والتكميل الربـاني للإنسـانية الموصل إلى أعلى عليـيّن، ويهـدف إلى التعقُّل والتفكُّر المنتج؛ (القـرآن الكـريم كتاب الإنتاجيّة، وليس هنالك فكر غـير منتج، وإلا اعتـبر مجـرد ثرثرة لا قيمة لهـا) لاسـيما إذا سـاد هـذا الـوعي في الجماعة الواعية والمجتمع الـواعي والمؤلف من مجموعة من الأذكيـاء مجموعة من الـواعين، الكل يعمل والكل ينتج والكل يسـير إلى الأمـام وينظر إلى الأعلى ولا ينفينّ هـذه الحقيقة ما هو عليه واقع العرب الراهن فهذا الهبوط؛ شيءٌ طارئ وسـيزول بإذن الله تعالى، بينما الفكر الأوربي الذي كبح بماديّتـه، لاشك أنه قد توقف عند حـدود المخطط اليهـوديّ الصـارم، الـذي ألجَمَهُ وحـدد له معطياته الأرضـية، العبرية البريـة، إن الخلافة الأوربية ليست الصـورة الحقيقية عن الخلافة الـتي أرادها الله سبحانه وتعالى لمخلوقه الأثير!

بـل إنَّ الخلافـة الأوربيـة والغربيـة عمومـاً خلافـةٌ منحرفـةٌ ومشوهةٌ وبعيدة كـل البعـد عن المـراد الإلهي، فليسـت واحـدة نظـرة الحَطّاب، أو الفحَّام, نظـرتهم إلى الأشـجار والغابـة ولا يمكن أن تكون واحدة أو أن تتحـد، مـع نظـرة الأديب والشـاعر والعالم، إنَّ الحطّـاب لا يـرى في الشـجرة والغابـة إلا الحطـام؛ بينما الشاعر والأديب والعالم المفكر، يرونها عالمٌ مفعمٌ بالحياة

احتكاك أوربة بالمسلمين، والأساس هو القرآن، كـان هو الشـرارة الأولى التي أشعلت التقدم العلمي والمعـرفي عند الغربـيين، في كل المجـالات، والذين صاروا يرفلون به الآن، ويستعلون به على باقي مخلوقات الله في العالم؛ إن القرآن الكريم هو الذي فتح الباب، وهو الـذي أنـار في العيـون وفي البصـائر لا أديسـون، ولـولا القـرآن العظيم، لبقي الرومـان رومانـاً، والفرس فرس والبيزنطيون بيزنطيون، بدائيون ليس إلّا، وقد أبْعِدَ العرب عن الفهم الحقيقي للقـرآن العظيم، فلم يتمكنـوا إلى الآن من التفاعل أو التَفَعّل بـه، ولا اسـتطاعوا إلى الآن أن يسـتمدوا منه الـدفقات، ولا يزالون يمضون وقتهم في تجويد وتعلم التجويد. وبالمناسبة فقد أمرنا ربنا بالتلاوة والترتيل، وليس بالتجويد؛ وكان علم التجويد.

والجمال، من أجل ذلك فإن النظرة للخلافة أو لمفهوم الخلافــة ليست واحدة، قال تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَـةَ عَلَى السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَـأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَـا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُـولا [الأحـزاب: 72]،ـ لكن التصـور الإنسـاني - في العصـر الحـديث - والسـائد في الفكـر اليهـودي الغــربي الأوربي منحــرفٌ وغــيرُ ســوي، بحيث طــرح أفكــاراً وفلسـفات ضـالة ومضـلة وعممهـا على النـاس، واسـتطاع من خلالها أن يُغَيِّب الحق والحقيقة، فمثلاً هل الإنسان حيوان ناطق فعلاً! أو هل هو بالأصل حيوان عاقل؛ وهل فعلاً أنّ الذكاء الــذي لــدى الإنســان (عنــد تعريــف الــذكاء) مقتصــرٌ على قدرتــه في التغلب على الطبيعة، وأنه مجـرد قـدرة الإنسـان على التعـايش مع البيئـة والطبيعـة، وهـل الحاجـة فعلاً هي أم الاخـتراع، أم أنّ الاختراع ربما كان هو مولداً للحاجات؛ ألم تكن الحياة الإنســانية أفضل قبـل الاختراعـات؟ وهـل هي صـحيحةٌ المقولـة الشـائعة التي تقول أن الحياة في الدنيا يجب فهمها على أنها صـراعٌ وأنّ البقاءُ فيها للأقوى؟ ونحن نلاحـظ وعلى مـر الـزمن اسـتمرارية تدفق الضعفاء والمعلولين وأصحاب العاهات وكـثرتهم إلى هـذا الوجود إلى جانب القليـل من الأقويـاء؛ هـؤلاء الأقويـاء الـذين لا يستطيعون دفع الموت عن أنفسهم، وحتى في الطبيعة والغابــة فإننا لا نعدم رؤية الدودة تعيش إلى جانب أعـتى الضـواري؛ من المؤكد أنَّ أمثال تلك التعريفات مُغْرِيَةٌ في البداية نتيجة الدعاية لها في المحافل العلمية والثقافية؛ إلا أن المتأمل والمتعمق في أغوار تلك التعريفات التي شاعت في القـرن العشـرين، القـرن الذي سيطر فيـه اليهـود على العلم والفكـر العـالمي فأشـربوه وأشــربوا العــالم تعريفــاتهم التوراتية المنبــع, أشــربوها لعقــول الناس الذين استسلموا كلياً لمزاعم اليهود، لقد حاولوا جهــدهم جعل الناس في العالم مجرد حيوانات ولديها ذكاء! فكان الناس أذكيـاء فعلاً، ولكن ذكـاء الثعلب والقـرد والـذئب أو ذكـاء الفـأر؛ وأصبح الناس في القرن الواحد والعشرين بعضـهم أشـرس من أعتى الضـواري؛ وآخـرون أجبن من أصـغر فـأر، بحيث أصـبحت الجماعات في العالم تساق كما يسـاق الغنم، لا يحتـاج الـراعي إلى بذل الجهد لقيادها أو العناء لسياسـتها، بـل يعهـد بـذلك إلى الحمار؛ ويسلط عليها الكلاب, تلمّ شريدها وتدفعها من الخلــف، أليست اليهودية الأمريكانيــة، والأمريكانية رأس الفكـر الغـربي؛ أليســت الأمريكانيــة هي الــتي طــرحت على العــالم بعنجهيتهــا وبجهالتها مبدأ العلمانية والعلمانيــة الوجوديــة؛ ثمَّ مبـدأ الصـراع وصـراع الحضـارات والصـراع الاقتصـادي والحصـار الاقتصـادي؛ الأمر الذي أدى ويؤدي إلى خلع البشرية من جـذورها السـماوية العُليا وقيمهــا الإنســانية النبيلــة الســامية ومن كــل الروابــط

الأساسية، لتسقط هذه البشرية، وقد سقطت فعلاً في الحصّالة اليهودية العالمية.

هـذا العصر الـذي من سـماته أنه لا يحـترم إلا القـوة، ولا يقدِّر إلا الذكاء والعلم المعلومـاتي العلمـاني اللاديـني، والـذي لم يعد يحفل بمكـارم الأخلاق ولا القيم الإنسـانية الرفيعة ولا حـتى بـالآداب العامـة؛ بل هو يعتمد أو هو يركز على قـانون المنفعة والمصـــــلحة التبريرية (البراغماتية الأمريكانية)، كل سلوكٍ يمكن تبريره، إذْ يمكنك فعل أي شيء!

هذا القانون الطـاحن، الـذي سـاد وتحكم في هـذا العـالم، والذي هو عبارة عن شـكل آخر من أشـكال الحيـاة في الغابة الآن، الذي جعل الإنسـان في العصر الحـديث متهاويـاً يُطحن، أو ينطحنُ بين رحى طاحونته فعلاً، سياسة وإعلام وفن ودعاية وإعلان وثـورة معلومـات؛ الثـورة الـتي أبهـرت عيـون المنهزمين المستضـعفين، وهـذا التطـور المُـذهل في وسـائل المواصـلات والاتصـالات، الـذي أسـقط في دوَّامته كل تلك الشعوب النائمة، لتبقى نائمة، أفراداً وجماعـات؛ ولتبقى تابعة تبعية مطلقة، ومُهَيْمَناً عليها، إنه نظام أعمى البصر والبصيرة.[1]

لذلك على المؤمن في هذا العصر أن يؤمن بجمـاع فكـره وعقله وقلبه وأن يمارس بسلوكه هذا الإيمان، أداءً إيجابياً بنَّاءً

---

1 (?) فبعد أن اسـتبيحت الأرض العربية من قبل المسـتعمرين عسـكريا وسياسـيا وبالاسـتيطان مطلع القـرن العشـرين، بُـدئَ في عـام 1967 بالعمل على استلاب الإنسان العربي المسـلم والفكر الإسـلامي العـربي، واشتغلوا على تمزيق العرب المسلمين من الداخل، عندما ضربوا عنـدهم (المثال) وشوهوا لديهم القدوة وأنزلت غاياتهم النبيلة ونماذجهم السـامية إلى أدنى مستوى لهم نحو الانحطاط والدونية؛ عبر الأهـداف البديلة الـتي وضعت لهم من البلهاء والمثليين والأشكال المريضة الشاذة، التي تحركها الشهوة وغريزة الاستهلاك والتي باتت تعرض على أنظار وأسماع الأجيـال العربية ليلا نهارا في جميع المجـالات الفنية والرياضـية والأدبيـة؛ والثقافية والفكرية والعلمية والاقتصـاد والاتصـالات والمواصـلات والإعلام والإعلان وحتى المناهج المدرسـية فإنها لم تسـلم من الأذى وهكـذا عملـوا إلى أن طويت صفحة المروءة والشرف فـالرأي ما يمليه عليه قادته من الـداخل والخارج! وتحول العرب بعدها في كل شيء في الأدب وفي الثقافة، وفي التربية وفي العلـــوم وفي الاقتصـــاد وفي السياسة وفي جميع مجـــالات الحياة تحولوا إلى حالة انعدام الوزن والقيمة! وصارت المناهج في الحياة العربية، والأهداف العربية مقلوبة رأسا على عقب بحيث أصبحت مشاريع الاسـتثمار السـياحي وإقامة المنشـآت السـياحية والصـناعة السـياحية والجلب والجذب السياحي وتوابعها؛ لدى الأنظمة والمنظمات العربية هي أهم من أي صـناعة ثقيلة وهي تضـاهي كل الصـناعات الثقيلـة! وصـارت المشاريع السياحية وملحقاتها لدى العرب من الغايات، ومن الأهداف التي ترعاها الـدول العربية والأحـزاب العربية الثورية والتقدميـة، والشخصـيات التي صـارت نمـاذج تحتـذى عند الأجيـال! فلم يعد المجد هو الهـدف، ولم تعد الفضيلة هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق الهدف!

متوجاً بالبذلِ والعطاءِ، فمتى سيدرك العرب المسلمون الذين أغرب بهم، أنه لا قيمة البتَّة لإنسان العيش، وأن القيمة كل القيمة عند الله سبحانه وتعالى لإنسان القضايا العادلة والسامية والنبيلة؟ وكيف سيذهب العرب إلى مجابهة أعدائهم قبل اكتشافهم وقبل معرفتهم لذاتهم؟ كيف سيذهب العرب إلى مجابهة اليهود دون أن يقوموا أو قبل أن يقوموا أولاً بمحاولة اختراق اليهود أو بمحاولة تفكيك اليهود، لقد قام اليهود باختراق وتفكيك العرب والمسلمين فعلاً ومنذ قرون؛ لاشك أن "مفهوم الذكاء" مختلفٌ عن "مفهوم الفهم" فالذكاء الذي يعني (القدرة على التلاؤم والتأقلم مع البيئة) مشتركٌ بنسبٍ بين الكائنات الحية.

بينما (مفهوم الفهم) المبني أساساً على الإدراك والانتباه والوعي والحَدْس وغيره من الفعاليات النفسية الداخلية الخاصة بالإنسان، والذي سينجم عنه بطبيعة الحال قدرةً خاصة على الابتكار والإبداع والخلق والتطوير، وعلماء النفس يقوِّمون الذكاء وفق روائز ومعايير واختبارات محددة ويقسمونه إلى مستويات، ولكن من الثابت أن هنالك جوانب أخرى من جوانب (الذكاء) تزداد مع مرور الوقت، وعلى الأغلب فإن الواقع قد يُفَشِّل النظريات، ففي حين تقول النظريات أن التقدم في السن قد يجعل الإنسان في وضع بائس من حيث الذكاء، فإن بعض الوقائع تشير إلى العكس من ذلك تماماً، إذ أنَّ الخبرة التي سيختزنها الإنسان المتقدم في السن المفروض أن تجعل منه ذكياً بالتأكيد أو في مرتبةً أعلى من حيث الذكاء، ولكن بشرط أن يبقى بعيداً عن البلادة الفكرية والجمود العقلي وأن يستمر في الاتصال بالله سبحانه وتعالى بالعمل الصالح وتنشيط عقله والتفكير بالأمور الهامة والسعي لاكتساب الحكمة والعمل الصالح، ويؤكد الباحثون في علم النفس وبناءً على العديد من الاختبارات[1] التي أجريت في أنحاء العالم أنَّ الفكرة القائلة بأن (العباقرة هم الأقوى ذكاءً في العالم وأنهم سيحلُّون مشاكل العالم)؛ فإن مثل هذه الفكرة لا تعدو كونها مجرد خدعة، ذلك أنه ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ (مفهوم الذكاء) إذا كان غير مرتبط

---

1 (?) الاختبارات أداة مساعدة في الحصول على تقدير كمِّي لبعض الخصائص النفسيّة، الضروريّة واللازمة عادةً لبعض الموظفين عند تعيينهم، من أجل التأكد منذ البداية، من وضع الشخص المناسب في المكان المناسب، وللحصول على المعلومات الموضوعية حول مهارات الأفراد المختلفة، ما يُحفزهم وما يدفعهم، وامكانياتهم العقلية، وتقوم الاختبارات بشكل اساسي على سبر الشخصيات واختبار كفاءاتها.
فكل شخصيّة بالواقع هي انموذج معين من الأفكار والمشاعر الخاصة.

بالأخلاق والصلاح فهو (ذكاء) غير إيجابي وغير مُنتج، وهو غير مفيد على الصعيد الاجتماعي والإنساني.

لقد أصبح من الثابت أن الذكاء مرتبطٌ بالزمان والمكان المناسبين، أما (الفهم) فيظهر وعبر العصور وفي كل الأوقات، وكافة الأماكن، وأن المناهج والأنظمة التعليمية ومستوى التدريس والتلقي المتاح والحرية ومستوى الخمول ومستوى النباهة، وتنوع المجالات أو الاهتمامات مثل الرياضيات وغيرها، أنَّ هذا كله له الدور الهام في شحذ قدرة الأطفال والكبار على إبراز ذكائهم ومن ثم السير في طريقه الصاعدة.

(أنا أقف على أكتاف العمالقة) عبارةٌ قالها (نيوتن) والحقيقة أنه بفضل المخزون الثقافي تعزز تناقل المعرفة، فإن لكل إنسان منا -في هذا العصر-المفروض أنه (لو حاول بذل الجهد لأصبح واقفاً أيضاً على أكتافِ عددٍ لا يحصى من العمالقة الذين ندين لهم بمفاهيم عديدة كانوا قد توصلوا إليها أولاً، وقد غدت مألوفةً لنا وكانت في الحقيقة استبصارٍ رائعاً، والحقيقة تقول أيضاً أن الثقافة اليوم قد بلغت شأواً بعيداً في تقدمها، فلماذا لم يكن الكثير من الناس عباقرة مثل ابن رشد أو ابن خلدون أو نيوتن؟ لقد كانوا يعتقدون فيما مضى أن الذكاء يتمثل في القدرة على التذكر والموسوعية في اللغة والحديث، أما اليوم فإن مثل هذه المهارة أصبحت ترتبط بالمعتوه النابغ، وهؤلاء يمكن يوضعوا في المكان المناسب وفي الوقت المناسب، ولكن لا يمكن التفكير بهم على أساس الحكمة والقيادة.

لقد دأب العلماء منذ زمن طويل على البحث عن تعريفٍ للذكاء وقياسه، في حين أخذت نظريات الذكاء تزداد تعقيداً منذ العقد الأول من القرن التاسع عشر في أوربة وأمريكا عندما كان البعض يعتقد بأن القدرات العقلية تتحدد بالنسبة إلى حجم رأس الإنسان، إلا أن الباحثين حتى اليوم لا يتفقون حول بعض المبادئ الأساسية للتفكير الانساني، ولذلك ما زالوا يتجادلون حول قضايا أساسية مثل: هل الوراثة أم البيئة هي أكثر أهمية في تشكيل الذكاء؟

والدرس القائل أنَّ الذكاء أكبر مما يمكن أن تدل عليه اختبارات الذكاء، هو درسٌ يتعلمه معظم الناس بالطريق الصعب في وقتٍ من الأوقات، فالكل يعرف أن هناك أناساً ذوي نسبة ذكاءٍ منخفضة استطاعوا أن يحققوا الشهرة في هذه الدنيا، ويعرف أناساً آخرين ذوي نسبة ذكاءٍ عالية لم يستطيعوا تحقيق أي شيء، والحقيقة أن نسبة الذكاء الهشة هذه (التي تظهر في الاختبار) لا تدل على الذكاء بدرجة كافية، الأمر الذي

حدا بالكثيرين من علماء النفس إلى إسقاط هذا المصـطلح (أي نسبة الذكاء من قاموسهم).

إن من المسـتحيل رسم صـورةٍ حقيقة عن إنسـان ما من خلال الاختبار السريع للذكاء وفي وقتٍ قصـير، ويـرى العلمـاء أن الاختبـــارات أنَّ الموضـــوعية هي الـــتي تعطي للإنســـان الفرصة كاملـــةً ومن خلال المشـــروعات الطويلـــة، فهنالك الكثـيرون من النـاس يظهـرون براعـةً فائقةً في الإجابة على الأسـئلة القصـيرة، ومع ذلك فــإنهم يفشــلون في جعل تلك الموهبة عامةً في حياتهم، فالناس المبدعون يتطلعون إلى ما هو أبعد من الأمور السطحية والناس الذين لا يتقبلـون الإجابة السطحية الجاهزة الصحيحة هم الذين يولّدون بالنتيجة الأفكار الهامة والحقيقية.

ولكن لمـــــاذا تتصف حيـــــاة بعض الأذكيـــــاء بالفوضى والاضـــطراب والتعب؟ ويجيب العلمـــاء، أنه بســـبب غيـــاب الواقعيـــة، وعــدم القــدرة على المثــابرة والمتابعــة، ووجــود الانـدفاع غـير المتـوازن، والفشل في معرفة نقـاط الضـعف الذاتي، في الواقع هذا يعني أن على كل إنسان أن يركّز على الأشــــياء الــــتي يتقنها فعلاً وذلك بأفضل وجه، وأن الــــذكاء الحقيقي يكـون في أداء عمـلٍ ما وفق القـدرات الحقيقية، إن دور البيئة والعامل الـــــــــوراثي والثقافة والنظم الاجتماعية والتربوية والاطلاع والتجربة الشخصـــية، كلها عوامل تصـــقل "الـذكاء" وتنميـه، بينما "الفهم" وهبٌ من عـالمٍ فـوقيٍ غيـبيٍ يتسقَّطُ على البعض من الناس الأتقياء والذين لديهم قضايا.

إن اختبـــارات الـــذكاء التقليدية والمتبعة في العديد من المراكز العالمية، أصـــــــبحت الآن توصف بالبدائية، إذ أنها لا تلْحَظُ القدرات أو الإمكانيات الخفيَّة التي يمكن أن تكون لدى المتقـدمين، لأنها قد تكـون إمكانيـات موجـودة ولكن متنحية خفية، والـــتي يمكن أن تختفي عند الكثـــيرين في أوقـــات التعرض للفحوصات، إن (إمتحانات الـذكاء) أو الروائـز، يمكن تطبيقها في كثـــيرٍ من الأحيان على المرضى أو المعـــاقين فحسب، ولكن لا يمكن تعميمها على كل المســـــــتويات والأوضاع، وفي الأعم فـإن الاختبـارات الـتي تصـمم لثقافة ما فإنها عادةً ما تفشل عند تطبيقها في المجتمعات الأخرى.

هـذا ويتصف الأقل ذكـاءً بـأنهم انـدفاعيون ويجيبـون على عجل وبدون تفكير وكل ما يهمهم أن يكونوا على صواب!

ويتســـمون بـــالجمود؛ فهم يحلـــون المســـائل الرياضـــية والتمارين الفكرية بطريقةٍ خاطئة، وعندما يتضح لهم الصواب

فـإنهم لا يـتراجعون، ويصـرون على مـوقفهم وعلى أنهم على صواب، بينما هم على خطأ.

بعض البـاحثين يعرفـون الـذكاء بأنه فن التفكـير المنطقي وأنه موهبة مكتسـبة وليست متوارثة (معظم النـاس يفكـرون بطريقـةٍ ضـعيفة لأنهم لا يفكـرون بدرجـةٍ كافية حـول الأمـور الهامة، ولا يبحثـون عن المزيد من الأدلة أو أنهم يلجـؤون إلى "سلطةٍ ما" لتدلهم على الصواب)[1].

لفظ (الـذكاء) ليس مـذكوراً في القـرآن الكـريم بشـكلٍ مباشـر، ولكن لفظ (الزكـاة) ورد كثـيراً بمعـنى الطهـارة، والواقع فإنَّ (الذكاء) نسبي يتعلق بالمهـارات المكتسـبة يجب بحثه في المعجم وعلى الإنسـان أن يسـأل نفسه إذا كـان يتجنب التفكير ولماذا؟

يجب البحث بهمة ونشـاط عن الـدليل في كل الجـوانب والاتجاهـات، وأن لا نجـزم إطلاقـاً بأنه لا يمكن إدخـال المزيد من التحسـين على فكـرةٍ ما أو خطـةٍ مـا، وأن نسـأل أنفسـنا لمـاذا نريد شـيئاً ما أو نحكم عليه بالصح أو الخطأ أو الحق أو الباطـل، اسـتخدام الحـدسْ كـدليلٍ وليس للوصـول إلى النتـائج النهائية يجب أن لا ننظر إطلاقـاً إلى أي قـرارٍ أو أي رأي شخصي كما لو كـان الـدليل أو الـرأي النهـائي، وأن لا نخشى الفشل أو احتمال الخطأ، إن تعليم الناس على التفكير المنطقي بالتأكيد سـيجعلهم أكـثر ذكـاءً، وبالتـالي أكـثر قـدرةً على التلاؤم والانسجام مع البيئة والمجتمع.

لا شـك أن وضع (الـدماغ) وسـلامته من الناحية المادية والمعنوية و(الصحية) والوراثية، له الـدور البـالغ والأثر الفعـال في وجود الذكاء.

إن الأذكيـاء بطبيعة الحـال هم أكـثر النـاس أداءً في المجتمـع، لقد أثبتت الدراسـات أن العوامل الجنسـية (ذكر – أنثى) والعرقية (أسود-أبيض) والمستوى المادي (غـني-فقـير) أنها غير مؤثرةٍ في مستوى الذكاء إطلاقاً.

التخطيط للمهام وتنفيذها مع التركيز على المهارات الـتي يخطط لها أو بواسطتها لحل مشاكلنا وتقويمهـا، إن التخطيط والإعـداد أكـثر أهمية من السـرعة العقلية (البديهـة) والاسـتيعاب، القـدرة على الاسـتيعاب والقـراءة الموضـوعية (البعض يقـرأ بعناية فائقة وآخـرون يقـرؤون بسـرعة دون اسـتيعاب)، الـذكي يعمل على حل المسـائل المألوفة عن

[1] (?) الثقافة العالمية العـدد 36 (سـبتمبر) 1987بقلم كيفين مـاكين ت: د. علي حسين حجاج

طريق الحفظ بينما يفرغ نفسه للأعمال الجديدة الأخــرى وهو يقسم الفكرة إلى رئيسـية وأساسـية وللمعلومـات التفصـيلية وللتحليل.

إن النجـاح في الحيـاة يعتمد على المعرفة الضـمنية أكـثر من اعتمــاده على المعلومــات الصــريحة وهــذا هو الــذكاء العملي، أثر الخــبرة لــدى الإنســان الــذكي ليست في حل المسائل الجديدة بسرعة بل بحل المسائل المألوفة.

الــذكاء هو القــدرة الــتي تميــيز الإنســان على غــيره من المخلوقات، إنه نسيج معقد من القدرات وبعض الباحثين يرى أن الـذكاء يتـألف من قـدرات عقلية لا تظهر نفسـها بصـورةٍ مســتقلة وهي ربما تنشأ من منــاطق مختلفة من الــدماغ ويعترف أن هناك سبعة أقسـام رئيسـية للـذكاء ثلاثـةٌ معروفة هي اللغوي والرياضي والحيزي والقدرة الموسيقية والمهارات الجسمانية والبراعة في التعامل مع الآخـرين والمعرفة الذاتية إن هذه النظرية بعيدةٌ عن الذكاء العادي.

أما عن صـفات الـذكاء، فالـذكاء مفهـوم حيـوي هـام وهو بطبيعته بمعــــزل عن القيم والمثل والأخلاق والعنفــــوان والشـجاعة، إن الـذكاء قد يتـوفر لـدى البخيل والكـريم معـاً والشـجاع والجبـان والمـؤمن والكـافر والظـالم والمظلـوم والضعيف والقوي، بينما (الفهم) حصراً عند المـؤمن الشـجاع صاحب العنفوان الكريم الجواد ذو الفضل والمـروءة والنخـوة والشهامة.

تعريف الذكاء

ورغم أننا لا نستطيع أن نعرف الذكاء الإنساني بشكل عام فإنه يمكن أننا نلقي الضوء على عددٍ من المعايير الـتي يمكن الحكم عليه من خلالها، ومن تلك المعـــــايير القـــــدرة على التعميم والتجريـــد، التعــرف على أوجه الشـــبه بين المواقف المختلفـــة، والتكيف مع المواقف المســـتجدة، واكتشـــاف الأخطاء وتصحيحها لتحسين الأداء في المستقبل... وكثــيراً ما قُــرِنَ الــذكاء الاصــطناعي خطأ (بالســبرانية) الــتي تختص بالخصــائص الرياضــية لأنظمة التغذية الراجعــة، وتنظر إلى الإنســان كأنه جهــاز آلي، بينما يهتم علم الــذكاء الاصــطناعي بالعمليات المعرفية التي يستخدمها الإنسان في تأدية الأعمال الــتي نعــدها ذكيــة، وتختلف هــذه الأعمــال اختلافــاً بينــاً في طبيعتهــا، فقد تكــون فهمــاً لنص لغــوي منطــوق أو مكتــوب، أو لعب الشــطرنج أو حل لغز ما أو مســألة رياضــية، أو كتابة قصيدة شعرية، أو القيام بتشــخيص طــبي، أو الاســتدلال على طريق للانتقال من مكان إلى آخر.

وفي اللسان العربي دلالات واضحة للحروف الـتي تشـكل لفظ (ذكاء)، وطبعاً يجب تجريد الكلمة من اللاحقة (اء) الــتي تشــير للملازمة والاختصــاص، فيكــون الأســاس (ذك) ويشــير حــرف (الكــاف) إلى الكمــال والتكامل والبقية الباقيــة، بينما يشــير حــرف (ذ) إلى الــتراكم والتكــريس والانهمــار مع رفع الشأن والتدارك والخلاصة والاختصاص والبشارة مع التشابه.

إنه بالمثل تماماً فالإنسان الجهد والإنجاز

وقد عــرف الــذكاء بأنه القــدرة على التكيف بنجــاح مع ما يستمد في الحياة من علاقات (فإنه يمكن التعرف على مــدى علاقة القــدرة العقلية العامة –الــذكاء لــدى الفــرد بالشخصــية اللاســـوية حيث ترتبط درجة التكيف بالنســـبة للفـــرد مع الظــروف البيئية والاجتماعية الــتي يعيش فيها بالــذكاء، فعلى قــدر نصــيبه من هــذه القــدرة على قــدر ما يســتطيع أن يكيف نفسه بمختلف الظروف، والواقع الذي يعيش فيه، نلاحظ ذلك بوضوح في حياتنا اليومية فالشخص الغــبي (أكــثر منه ضــعيف العقــل) يســيء التصــرف عــادةً في مقابلة مشــكلات الحيــاة اليومية وفي علاقته بــالآخرين، وكلما زاد تعقد هــذه المواقف الــتي يقابلها كلما ظهــرت ضــعفه نحو التكيف منها بطريقــةٍ سليمة، إن المفهوم البيولوجي القديم والحديث للــذكاء يعرفه بأنه الوحـــــدة التحليلية التكاملية للنشـــــاط العقلي الإدراكي

المعرفي الهرمي الذي يساعد الفرد على مواجهة مطالب البيئة المحيطة به والتكيف لمظاهرها المتعددة والمتغيرة.

ويقسم التعريف البيولوجي للذكاء إلى نوعين:

الأول: نشاط الذكاء الذي يبدو في قدرة الفرد على التكيف والثاني في مستوى الذكاء الذي يبدو في القوة التكيفية، فالنشاط التكيفي صفةٌ من صفات الذكاء الذي يبدو في كثرة معلومات الفرد وخصوبة حديثه وألفاظه وبراعته، وبراعة فروضه واحتمالاتـه، ولـذا نخطئ في حكمنا على مثل هذا الإنسان، فنجده ممتازاً في ذكائه وذلك لتأثرنا بهذه الهالة العقلية التي يحيط بها نفسه.

لكن المرجع الأخير للكشف عن ذكاء مثل هذا الإنسان هو المعيار الذي سيحدد مستواه العقلي الحقيقي بالنسبة لمستوى الجماعة التي ينتمي إليها، فالذكاء صفة ومفهوماً اجتماعياً ذو ثلاثة شعبٍ.

آ- وذكاء ميكانيكي كما يبدو في المهارات العملية واليدوية

ب- وذكاء معنوي ويتجلى في القدرة على الفهم واستخدام الرموز والمعاني المجردة.

ج- الذكاء الاجتماعي ويتجلى في القدرة على التواصل والتفاعل مع الآخرين.

إن من الضروري للإنسان الحضاري خفض القلق عنده من جهة وتحقيق الاطمئنان من جهة أخرى إن الفشل في التوافق يؤدي حتماً إلى زيادةٍ في سوء التوافق، كما أن إرتفاع القلق وعدم الطمأنينة والشعور بعدم الرضا والسعادة أمورٌ تؤدي إلى إبعاد الإنسان تدريجياً عن الوضع الطبيعي واقترابه من القلق والمرض النفسي، ومن هنا فإن الذكاء أو القدرة العقلية العامة تؤثر في شخصية الفرد وهي تتأثر به في آنٍ معاً.

لذلك فإن الأداء السيئ في الاختبارات التي تصدر عادةً عن العصابيين فهي لا تعود إلى ضعفٍ في الذاكرة بقدر ما تعود إلى القلق الذي يسببه موقف الاختبار ذاته؛ (وعلى العكس من ذلك فإن ضعيف العقل والذي يؤدي أداءً نسبياً في الاختبار أو في اختبار المتاهات فإنه لا يرجع ذلك إلى قدرةٍ جيدة في التخطيط! بقدر ما يرجع إلى أنه يكون أقل اندفاعية)[1]، فالذكاء أو القدرة العقلية عامةً تؤثر في الشخصية ويتأثر بها الشخص وهذا دليلٌ على ارتباطهما

---

[1] (?) من مقال للدكتور فؤاد أبو حطب، ص41 من كتاب الشخصية والقدرات العقلية للدكتور محمد سعد محمد العبد الله، مرجع سابق.

بعض، ويعتبر الـذكاء شـرطاً أساسـياً لنجـاح الإنسـان في أي عملٍ من الأعمال الحياتية، وخاصةً تلك الأنشطة الـتي تتطلب سـرعة إدراك العلاقـات (البديهـة)، في المواقف المختلفة والمتعـددة والمتباينة والـتي تحتـاج فعلاً إلى سـرعة وحسن تصرف وخصوصاً في تلك الأنشطة التي تعتمد على المنافسة وجهاً لوجه، ويرى البعض أن الأنشطة الحياتية كلها عبارة عن كفاح ونضال بين ذكاء الشخص وذكاء الآخرين.

إن بعض الأنشطة تتفاوت في متطلباتها من عناصر الذكاء إلى جـانب تفـوات متطلباتها من عناصر القـوى الماديـة، مثل المرونة والتوافق والرشـاقة والقـدرة على أداء الحركة المناسـبة في الـوقت المناسـب، إن ذلك كله يحتـاج إلى مسـتويات ومقـادير مختلفة من العمل والأداء العقلي والفكري، وما دام الإقـدام هادفـاً فإنه يتطلب الـذكاء لتحقيق الهدف، إن معامل الارتبـاط بين نسـبة الـذكاء والتحصـيل في الحيوية الحياتية البسيطة والمعقدة والـتي تعتمد على سـرعة الاستجابة والتلاؤم ومرونتها والقدرة على التصرف واسـتغلال الفرص (تلاؤم السلوك) ورد العقل (الباطن والظاهر) السريع والصـحيح، الأداء الإيجـابي السـريع والملائم وعلى المسـتوى الرفيع.

بمعنى أن يكون الذكاء حالةٌ لها قوة تنبؤيه هائلـة، وكـذلك فإن الذكاء يساعد على التقاط التعليم (التعلم) ورؤية الفكـرة الصحيحة، واستيعابها بسرعة كما يمكن للإنسان اللامع الـذكاء تعزيز تركـيزه وتثبيته وإطالتـه، كما أن في مقـدوره أن يتـابع التوجيهات الإيجابية والمفيدة للمعلم والتقاطها، وإدراك ماهية المطلوب منه وأن يؤديـه، والتفكـير فيه عن فهم واسـتيعاب، ثم تكـوين الفكـرة الصـحيحة عنـه، وهو أي (الـذكي) يسـتطيع الممارسة الصـحيحة والسـريعة إذا كـانت القـدرات الأخـرى اللازمة لديه متـوافرة، ولاشك أن الكفـاءة الذهنية تسـاعد المتعلم على رؤية العلاقـات والترابطـات الداخلية في المهـارات والعلاقة بين المهـارات ذاتها وغيرها والأشـياء الـتي سبق وأن تعلمها.

إن الإنسـان الـذكي أقـدر بطبيعة الحـال من غـيره وذلك على سـرعة التصـرف في المواقف والأزمـات الطارئة لأنه أقـدر على سـرعة الإدراك والتبصر بالنتـائج (نتـائج العمل المطلوب أداءه وهو أقدر على توقع سلوك الآخرين أثناء وبعد حدوث الحدث)، إن الشخص الذكي أقدر من غـيره دون شـكٍ على التعلم والفهم وأداء العمل المطلوب، كما أنه أقـدر على

إكتساب القدرات الخلاقة التي تسهم دائمـاً في الوصـول إلى أعلى المستويات في كل مجالٍ.

فالـــذكاء لا شك أنه نســـبيٌ وعلى درجـــات ويوسم بأنه القدرة على تحمل المناشط والأعمال الـتي من صـفاتها ومن سماتها الصعوبة والتعقيد والتجريد والسـرعة وتكيف الإنسـان مع الهدف والقيمة الاجتماعية وظهور الابتكار وهو أيضاً قـدرةٌ على التوافق والتكيف بنجـــاح مع ما يســتمد في الحيـــاة من علاقات، حيث ترتبط درجة التكيف بالنسبة للفرد مع الظروف البيئية والاجتماعية بالذكاء، فعلى قدر نصيبه من هـذه القـدرة على قدر ما يستطيع أن يكيف نفسه بمختلف المســارات، إن الـتركيب الـوظيفي للشخصـية يتكـون من المعرفة (التفكـير والإدراك والـذاكرة) والعاطفة (الانفعـال والشـعور والمـزاج) والعمل (النشـــاط الحـــركي والإرادة)، ويلاحظ من الـــتركيب الوظيفي أن الجوانب المعرفية متضمنة في تكوين الشخصية، ويمكن أن نمـيز الشـخص عن الآخر بذكائـه، كما يتمـيز بالثقة بنفسه أو بسرعة تفاعله ورده على الحدث، لذلك كان الـذكاء جزءٌ متكامل في الشخصية، ومن سماتها المواهب والقـدرات العقلية والإرادة والتصميم إلى آخر ما يمكن (الطبـع)، والقـوة الحافزة والاستعداد، والمزاج والانفعالية (الارتجـال والانـدفاع) والقـــدرة الفورية على التعبـــير وتنـــاغم الصـــفات فيما بينها وتكاملها وهذا هو الخلق الصحيح.

فهي تشـير إلى القـوى والطاقـات والإنجـازات العقلية الفائقة والغَيْر عادية.

والعبقرية - في ضـوء هـذه التعريفـات - هي محصـلةٌ للتفاعل الخـاص بين قـدرات الـتي تنتمي إلى المسـتويات العليا، من القدرات الخاصّة بالذكاء، وأيضـاً المسـتويات العليا الخاصة بالإبداع والخيال.

والحقيقة أنه ينضوي تحت مفهـوم (العبقريـة) مفهـومين أساسيين هما الإبداع والقيادة، والواقع أنَّ (العبقرية) وبحسب رأي العديد من الباحثين فإنها لا تشتمل على أصحاب القدرات المنخفضة والمتوسـطة أبـداً، بل هي مرتكـزةٌ حصـراً عند أصحاب القدرات المرتفعة من الابداع والمرتفعة من القيـادة، وأن المظهرين الواضحين للعبقرية تاريخياً هما الإبداع الفـائق والقيادة البارزة، حيث سيبدو الابداع أحد أهم مظـاهر القيـادة وتصبح القيادة أهم مجالات الابداع، فالعبقرية هي انجازٌ عقليٌ وفكريٌ رفيع المستوى، ولكنه بالواقع يقع ما فوق الموهبة؛ إذ يتضـمن الاسـتثناء والنـدرة أو النبـل، حيث في حـال عـدم وجوده... فإنه ليس له بديل!

(إن العبقري هو الشـخص الـذي يقـوم بالإنتـاج عـبر مـدى طويل من الزمن لعدد كبير من الأعمال التي يكون لها تأثيرها الواضح والكبـير على الآخـرين لسـنواتٍ عديـدة، إن القـادة والمبدعين عند المسـتوى الأعلى. إن مسـتوى العبقرية، فإنها توجد بينهم أشياءٌ كثيرة متشابهة، فمثلاً ما هي الأسباب الـتي جعلتهم يحتلـون هـذه المنزلة المتفوقة على سـواهم من البشر، هل هي الخلفية الأسرية الخاصة بهم؟ هل هو التعليم؟ هل هو الذكاء؟ هل هي طبيعة الأزمنة الـتي عاشت بهـا؟ وهل يوجد عمـرٌ خـاص يصل به الإبـداع إلى ذروته -الإنتاجية الإبداعية-).

ليس كل النـاس يمتلكـون نفس القـدرات، إن بعض النـاس محدودي القـدرات الفكريـة والسـعات العقليـة، أو أن قـدراتهم محـدودة، أي أنهم لا طاقـة لهم واسـعةً على الفهم؛ إن مهمـة الروائـز أو بـرامج الكشـف عن مسـتوى الـذكاء هي تحديـد الإمكانيـات العقليـة والفكريـة و(الـذكاء) وألـوان وأشـكال تلـك الإمكانيات، ما إذا كانت عملية أو نظرية.

لقد ثبت علميـاً ومن خلال البحث، أنَّ الهمَـةَ أو الـدافع الـداخلي المهيّأ (قبلاً) و(سـلفاً) لـدى كل انسـان مولـود ولادة

طبيعيّـة، ليدفعه على القيـام وإلى الشـروع بالعمـل، وبـذل أقصى طاقاته لتجسيد الآمـال والطموحـات وتحقيق الغايـات، فإنَّ هذه الهمة وهذه الدوافع تتأثر بشكلٍ مضطرد بالاستعمال الواسع (للتكنولوجيا) وانتشـار الآلة في الحيـاة عمومـاً، وكلما كان هنالك تقدم وانتشار واسع للآلة والاعتمـاد عليها في كافة المجالات، فإنها ستؤدي شـيئاً فشـيئاً إلى إقفـال وأغلاق وسد الطريق الطبيعي والملائم.

أولاً أمـام الجسـم وأعضـائه؛ ثم أمـام العقـل وطموحاتـه، ويصـبح الاعتمـاد على الآلـة كليـاً، وبالمثـل تمامـاً فـإن الإنسـان يتراجع عنده موضـوع اقبالـه على التفكـير وسيصـابُ بشحٍ في الأفكار، كلما اتسع اعتماده على (التكنولوجيـا) لتفكّرَ عنه، مثـل اسـتعماله الآلـة الحاسـبة و(الكمـبيوتر) أو أدوات القيـاس والموازيين الإلكترونية أو حتى في خلط الألـوان، وشـيئاً فشـيئاً ستنعدم قدرته وهمته وإقباله على التفكـير والبحث عن الحلـول الطبيعية، إلا عند الأفراد الذين إلى حدٍ ما سينؤون بأنفسهم عن هذا التأثُّر في استعمال الآلة أو التكنولوجيا.

إذا كـانت مهمة العقل الأساسـية هي إطلاق الأحكـام، فما هي معـايير الأحكـام أو ضـوابطها؟ وهل هي مطلقـةٌ وكيفيِّة وهل هي متروكة ليجـترح كل شـخص أحكامـاً خاصـةٍ به ومناسبة لمصلحته؟

أم أن المفـروض أن نتبع جميعـاً في المجتمع، المنهج الربـاني وأن نقيس عليه ونتلاءم معه في كل خطـوةٍ، وأن نرجع إليه لقيـاس وتقـييم جميع أحكامنا وآرائنـا، مثل شـرب الخمر أو التدخين أو الربى أو الزنى أو القتل.

فمن حيث المبـدأ فـإنَّ كل إنسـانٍ له رأي، ويجب أن يحُترم، وهـذا الشـيء مصـانٌ بالدسـتور (دسـاتير العالم تنص على إحترام رأي الأفراد) ولكن ليس من الضـروري أن يكـون كل رأيٍ صـحيح؛ لـذلك يجب أن يكـون هنـاك مـيزان صـحيح وحقيقيٍ لـيزين أو يمـيز الآراء والأفكـار والنظريـات، يجب أن يكـون هنالك مرجعية أو مكـون أساسي في المجتمـع، وعلى أسـاس المصـلحة العليا للأمة، ولا يمكن أن يُـترك الحبل على الغارب ليدلي كل من هب ودب برأيه على عواهنه.

فمن حيث النتيجة فـإن الحيوانـات حـتى الحيوانـات فـإن لديها ميزان، ولكن ميزان محـدود بالحـدود الـتي تسـتطيع من خلالها تـأمين حياتهـا، وليس بالضـروري أن نأخذ أحكامها لتعميمها على المجتمع، ليس بالضروري أن نخضع إلى أحكـام الحيوانات أو المجانين أو المرضى.

(إن الشهرة ليس مقياساً مؤكداً للجدارة الحقيقية، ولكنها مجرد احتمـالٍ لها، فمقابل كل شـخص عـادي متوسط القيمة يحظى بإعجابٍ لا يستحقه في الأجيال التالية، ربما كان هنـاك آلافٌ من العقـول الرائعة الـتي طمـرت إلى الأبد في مجاهل التاريخ، ولكن التقابل ما بين المشهور والمغمـور هو على حـدٍ كبـير تقابـلٌ ما بين عـددٍ قليل من العبـاقرة اللـذين ربما كـان بينهم عدد قليل من المشاهير غير الجـديرين، وبين عـددٍ كبـير جداً من الأفراد غير الأفذاذ، مع عدد أكبر نسـبياً من العبـاقرة الذين تم اهمالهم عبر التاريخ لكنهم يمثلون نسبةً أكبر، وهكذا فإنه يجب أن تظل هنـــاك فـــروقٌ منتظمة بين المشـــهور والمغمـور، وهي فـروقٌ تعـزا إلى الخـبرات المتعارضة الـتي يمكن أن تؤدي إلى تطور الشخصية، وإلى الخصائص المميزة للشخصـــية والمنـــاخ الاجتمـــاعي والاقتصـــادي وأنا أعتقد أن الشهرة هي أفضل ما لدينا من المـؤثرات الدالة على عبـاقرة التاريخ.

إن ذلك القدر الكبير من التراث الثقـافي والشـعبي الـذي كـــرس من أجل عبـــاقرة الماضي -مبـــدعي التـــاريخ وقادته البـارزين- لم يـترك مـبرراً للشك بـأن مثل هـذه الشخصـيات البارزة تثير قدراً عظيماً من الاهتمـام بـذاتها لقد قـامت هـذه الشخصـيات بتشـكيل الماضي والتـأثير على الحاضـر، وربما استمرت في التأثير على المستقبل وقد تكشف حيـوات هـذه الشخصيات إذا أخضـعت للمزيد من التحليل العلمي عن بعض القـوانين العامة حـول التـاريخ وعن المبـادئ الأساسـية حـول الإبـداع وحـول تحـولات الحضـارة الإنسـانية وهـذا هو الجـانب الذي تظهر فيه قـوة القيـاس التـاريخي، بالكيفية الـتي تتمكن من خلالها فئـــةٌ خاصة من الأفـــراد في إعـــادة تنظيم التـــاريخ الإنساني.

فالســـــلوك الإنســـــاني ينظر إليه الآن على أنه دالة لكل من الطبع والتطبع، والسـؤال المشـروع ليس هو ما إذا كـان الطبع أو التطبع هو الذي يحدد السـلوك، بل هو كيف يتفاعل كل من الطبع والتطبع وما هي أهميتهما النســـــبية في تشـــــكيل الشخصـــــية الإنسانية، وهـذا التسـاؤل ذو أهمية خاصة لفهم الإبـداع والقيـادة، فبعض الناس يعتقدون أن العبقري (يولد) والبعض الآخر يعتقد أنه (يصـــنع) ولعل الحقيقة تولد في تـــركيب معين منهمـــا، وإحـــدى طرائق إلقـاء الضـوء على هـذه القضـية هي أن تفحص العوامل التي تؤثر على التطور المبكر للعباقرة.

الإعاقات الجسدية والصدمات المبكرة والاضطرابات الأسرية والـبيوت المتصـدعة اجتماعيـاً والأمهـات المسـيطرات والآبـاء

المتصلبين واتجاهات نحو التعلم في المنزل وردود الأفعـال اتجـاه المدرسة والمعلمين.

يبدو بشكلٍ عام أن البيئة تلعب دوراً أكبر في ظهـور العبقرية من الوراثة.

ورغم أن (الـــذكاء) خاضـــعٌ للوراثة البيولوجية بشـــكلٍ قابل للقياس، فإن الظـروف البيئية للأسـرة، وكـذلك المـؤثرات ما بين الأجيال، يبدو أنها أهم من تطور المبدع الممكن أو القائد الممكن، ويزيد تــوافر الأشـخاص الـذين يمكن أن يقتــدى بهم من الناحية الاجتماعية الثقافية فرص احتـواء أي جيـلٍ من الأجيـال على عـددٍ من العباقرة المشهورين، وتسـاعد الظـروف الأسـرية على تقرير الأعضاء في جيلٍ من الأجيال الذين سيحرزون الشهرة، وكل جيلٍ يكمل البنـاء فـوق انجـازات الجيل السـابق عليه، ويقـوم بـدفع الثقافة الانسانية إلى الأمام حتى تصل الحضـارة إلى عصر ذهـبي لا يمكن للإبــداع بعـده إلا أن يضـمحل، ويجعل من الجيل الثـاني جيلاً من المقلـدين، ومع ذلك فـإن العبـاقرة الفعـالين في الجيل الذي وصل إلى أعلى درجات التقدم والازدهـار يـدينون بشـيء ما لإسلافهم الأقل شهرةً وقد عرف اسحاق نيوتن هذا حين قـال في أوج شـــهرته: إن كنت رأيت أبعد من غـــيري فلأنـــني وقفت على أكتاف العمالقة.

إن المبـــدعين في بـــالواقع هم قـــادةٌ في الشـــؤون الفنية والعلمية وفي كافة الأمــــور والمجـــالات الحياتية والحقيقية، إنَّ العلاقة وثيقة بين الإبـــداع والقناعـــات الثورية الـــتي تتولد لـــدى المبـــدعين، قـــال برامـــز: وهو (مبـــدعٌ في الموســـيقى) إنك لن تسـتطيع أن تعـرف كيف يشـعر أمثالنا عنـدما نسـمع وقع أقـدام عملاقٍ مثل بتهـوفن خلف ظهورنا (قصـده من المبـدعين) فهنالك أسسٌ خاصة بالتعريف، وأسس خاصة بالتعليل، والفـرق كـبير بين المؤرخ وصانع التاريخ، فـالمؤرخ المحـابي قد يصـنع من النكـرات عمالقة، بينما يقوم الاهمال الـرافض بإلقـاء الشـخص العظيم في غياهب التاريخ المظلمة والنزاع قديمٌ بين الفلاسـفة حـول إعتبـار القدرات العقلية ما إذا كانت نتيجة الطبع أو التطبع (الطبع أي أنها فطريـة) والتطبُّع (أي أن العقل يكـون فيها خـالٍ تمامـاً ثم تقـوم الخبرات البيئية والتجارب بملئه والنقش عليه) إن من لا يسـتطيع التقدم لابد أنه يتقهقر؛ لقد قام الغـرب بعملية كـبرى حيث أغـرق فيها العقل العـربي الإسـلامي والفكر العـربي الإسـلامي والثقافة العربية الإسلاميّة في بحارٍ من الفوضى لا قاع لها.

فإذا كان التاريخ نضالُ المبدعين محمولاً على الزمن، فإنه قد صـاغه بعض الأفـراد الأفـذاذ الـذين حققـوا الانجـازات الحقيقية والهامة، إن العباقرة هم الذين صاغو التاريخ وحددوا مسـاره فعن

طريق الابداع والقيادة، علماء ومفكرين وأدباء وشـعراء، فالتـاريخ لم يصـــنعه كتابه ورواته بل حـــدد مســـاره المبـــدعون والقـــادة العبـاقرة، إن العبقرية تعـرف بالإنجـاز والنتـائج الإيجابية وبما أن العبقرية عبـارة عن قـدارت عقلية خارقة، فـإن بعض العبقريـات كانت أو يمكن أن نقـول عنها عبقريـات غـير طبيعية حيث الـبروز في الإبـداع والنباهة في القيـادة، إن الابـداع شـكل من أشـكال القيـادة في الجماعة يمـارس دوراً إيجابيـاً وبنـاءً وله تـأثيرٌ خلاق على أداء هذه الجماعة وعلى اتخاذها لقراراتها تأثيراً يفـوق تـأثير الأعضـاء الآخـرين وبالتـالي المبـدعون في هـذه الحالة هم قـادةٌ ثقافيون حقيقيون.

لقد تراجعت همة الناس وأخـذت بالضـمور والتلاشي واختفت شيئاً فشيئاً.

المراجع

1- إمـام، د. عبد الفتـاح إمـام، محاضـرات في المنطـق، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة1992.
2- شـريقي، د. علي أحمد شـريقي، أزمة التفكـير الإسـلامي، دار البشائر دمشق2009.
3- الهنـدال، فهد توفيـق، الفكر والحجر تـأملات ذاتيـة، الـدار العربية للعلوم، بيروت 2008.
4- رؤوف جبري، خواطر في التربية وذكريات باريس، اصــدار خاص 1986.
5- شـرارة، د. وضـاح ، المسـألة التاريخيّة في الفكر العـربي الحديث، معهد الإنماء العربي بيروت 1977.
6- مجلة الثقافة العالمية العــدد 38 الكـويت، مقــال لكيــنين مكين، ت: على حسين حجاج.
7- المجلة العربية للعلــوم الإنســانية العــدد 7 مقــال لصــلاح الدين محمود علاّم العدد 77 1977.
8- البقســـمي د. ناهـــد، الهندسة الوراثيّة والأخلاق، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1993 عدد حزيران (144).
9- دين كيث ســـايمنتن، ت:د. شـــاكر عبد الحميـــد، العبقرية والإبــداع والقيــادة، المجلس الوطــني للثقافــة، الكــويت، 1993عدد آب (146).
10- حربــا، د. نـــايف اللغـــات الأجنبية وتعلمها 1988 عـــدد حزيران
11- بونيه ألان ت: د. على صبري فرغلي، الذكاء الاصـطناعي واقعه ومســتقبله، 172سلســلة عــالم المعرفة الكــويت 1993.
12- جوديث جـرين ت: د, عبد الـرحيم جَـبر، التفكـير واللغـة، الهيئة المصرية العامة للكتاب1992.
13- شــيلر ، أ، هلــبرت،ت: عبد الســلام رضــوان، المجلس الوطني للثقافة، الكويت. 1986العدد (106)
14- التنبؤ الـوراثي ت: د. مصـطفى ابـراهيم فهمي المجلس الوطني للثقافة، الكويت،1989حزيران عدد (130).
15- ريموند وليمـــز، ت: نعيمـــان عثمـــان، المركز الثقـــافي العربي الدار البيضاء 2007.
16- د.جوزيف ميرفي، معجزة آليـات عمل العقـل، ت: مكتبة جرير، الرياض 2011.
17- ب، بورشنيف، ت: هشام الدجاني وعبد الكـريم ناصـيف، دار الفارابي بيروت1993.

18- اليس أمــبروز ومــوريس لازيــروفتش، تك د: عبد الفتــاح الديدي، أوليـات المنطق الرمـزي. المجلس الأعلى للثقافة القاهرة 1983.

المصـــــــــــادر

* القرآن الكريم
* المعجم المفهرس لألفاظ القـرآن الكـريم، محمد فـؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث بيروت بدون
* كتـاب صـحيح البخـاري بتحقيق د. مصـطفى البغا مكتبة دار العلوم، دمشق 1998.
* الجرح والتعديل / الرازي، دار إحياء التراث العـربي، بـيروت عن طبعة حيدرأباد، 1952.
* تفسير الطبري / محمد ابن جرير الطبري، دار إحياء التراث الطبعة الأولى 2001 بيروت.
* إعجـاز القـراءات القرآنية / صـبري الأشـوح، مكتبة وهبة القاهرة 1998.
* إيثـــار الحق على الخلق في رد الخلافـــات إلى الحق من أصول التوحيد/ اليماني/ العلمية بيروت1993.
* أبو حنيفة النعمان تأليف د حمـزة النشـواتي وآخـرون توزيع مكتبة الزهراء القاهرة، دون تاريخ.
* أطلس العالم / مكتبة الصغار/ بيروت،1998.
* الأخلاق في الإســلام د. محمد عبد القـــادر حـــاتم الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1995.
* أدب الكتاب/ الإمام أبي نكر الصـولي/ت.أحمد حسن بسـج، العلمية بيروت1994
* أصـول الفقه 1-4 / محمد أبو النـور زهـير/ المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة, 1992.
* الأوائل / أبي هلال العسكري، ت: محمد السيد الوكيــل، دار البشر القاهرة 1985.
* الأوائل / لأبي بكر تقي الـدين الحنبلي/ ت. عـادل فريجـات، دار الإيمان دمشق، 1988.
* الاســماعيليون والدولة الإســماعيلية بمصــياف 535/670 ميشيل لباد، مطبعة الاتحاد 1963.
* أكثم بن صـــيفي ومأثوراته / كـــاظم الظـــواهري / دار الصابوني، القاهرة 1991.
* أنسـاب العـرب / سـمير عبد الـرازق القطب/ الـدار العربية للتوزيع, الزرقاء الأردن دون تاريخ.
* الإســـلام الصـــحيح – بحث وتحقيق/ محمد إســـعاف النشاشيبي/ بيروت دار العودة 1985.
* أســرار العقل الصـهيوني / د. عبد الوهـاب المســيري/ دار الحسام القاهرة دون تاريخ.

* أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ 1-7/د. جمال عبد الهادي سعود/دار الوفاء، مصر، المنصورة 1984.
* أمريكا والإسلام/د. عبد الحسـين شـعبان، دار صـبرا دمشق 1987.
* الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشـاء/ إدوارد سـعيد/ ت. كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت ط 3، 1995
* الإيقاع في الشعر العربي /عبد الرحمن الوجي/ دار الحصـاد /دمشق بلا تاريخ.
* ايبلا – عبلاء الصـــخرة البيضـــاء – دراســـات أثرية ولغوية تاريخية/ ت. قاسم طوير، إصدار خاص دمشق 1984.
* بحـوث في التقـاويم/ عبد الكـريم محمد نصر دار البشـائر دمشق 1991.
* البروتوكول الدبلوماسي والعـرف الدبلوماسـي. د. الطفيلي الكتاب الحديث، بيروت 1987.
* تاج العروس من جـواهر القـاموس/ السـيد الزبيـدي، وزارة الإعلام، الكويت 1990.
* تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج 1-4/ د. حسن إبراهيم حسن - دار إحياء التراث العربي.
* تاريخ فلاسـفة الإسـلام في الشـرق والغـرب /تـأليف محمد لطفي جمعة / المكتبة العلمية بيروت.
* تاريخ التمدن الإسلامي 1-4 جرجي زيدان منشـورات مكتبة الحياة بيروت دون تاريخ
* تـاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفـاطمي د.محمد حسـين محاسنة دار الأوائل دمشق 2001.
* تاريخ الأمة الواحدة/د. جمال عبد الهادي مسعود دار الوفـاء المنصورة مصر العربية 1991
* تاريخ سني ملوك الأرض والأنبيـاء صـلى الله عليهم وسـلم/ حمــزة بن حسن الأصــفهاني، دار مكتبة الحيــاة، بــيروت بلا تاريخ.
* تــاريخ الدولة الأموية /د. محمــود الســيد/ مؤسسة شــباب الجامعة، الإسكندرية 2002.
* تــاريخ مصر السياسي والحضــاري/ د. صــبحي عبد المنعم العربي للنشر القاهرة 1977.
* تاريخ فاتح العالم /عطا الجويني/ ت.د. محمد التـوتنجي/ دار الملاح دمشق 1985.
* تــاريخ العلــوم عند العــرب / د. حسن عاصي /دار المواسم بيروت، 1992.
* التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينـبي 1-2 ت الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1996.

* التراث الشفوي في الشـرق الأدنى ومنهجية حمايته د. نبيل سلامة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1996
* التفسير النبوي/ تـأليف د. محمد عبد الـرحيم محمـد/ مكتبة الزهراء القاهرة، 1992.
* تحرير العقل من النقل / ســـامر اســـلمبولي/ دار لأوائل دمشق 2000.
* تحقيق القضية في الفرق بين الرشوة والهديـة/ الإمـام عبد الغـني النابلسي / ت. علي محمـود معـوض، مكتبة الزهـراء القاهرة 1991.
* تحفة ذوي الألبـاب 1-2 / صـلاح الـدين أيبـك،/ت إحسـان خلوصي، منشورات وزارة الثقافة دمشق 1993.
* التخطيط الحضـــري في دول الخليج العـــربي /د. إســحاق يعقوب القطب وكالة المطبوعات الكويت1980.
* تعليم الخط العربي 1-3/ فوزي سالم العفيفي/ دار الكتـاب العري 1996.
* التنـاقض في تـواريخ وأحـداث التـوراة من آدم حـتى سـبي بابل/ إعداد محمد قاسم/ جامعة قطر1992
* تطور علم التاريخ الإسلامي حتى نهاية العصـور الوسـطى / أ.د.أحمد رمضان أحمد/ الهيئة المصرية العامة للكتاب 1989.
* التشـريعات البابليـة/ عبد الحكيم الـذنون / دار علاء الـدين، دمشق،1992.
* تهافت الفلاسفة ط 7/ الإمام الغزالي / ت. د. سـليمان دنيا / دار المعارف، القاهرة 1972
* الحـــديث النبـــوي والتـــاريخ/ د.أحمد جمـــال العمـــري/ دار المعارف القاهرة1990.
* الحصان العربي وخيول العالم/ ترجمة وإعداد محمد غسـان سبانو/ نـادي بـرس لنـدن، جـنيف، توزيع دار الكتـاب العـربي، دمشق والقاهرة، دون تاريخ.
* حياة الحيوان الكـبرى / كمـال الـدين الـدميري/ دار الألبـاب دمشق 1988.
* حمورابي البـابلي أعصـره/ تعـريب محمد وحيد خياطـة، دار المنارة اللاذقية 1990.
* الخصـــائص العامة للإســلام / د. يوسف القرضـــاوي /مكتبة وهبة القاهرة 1989.
* الخلفاء الراشدون / عبد الوهـاب النجـار/ دار الكتب العلمية بيروت 1990.
* الخطيئة الأولى بين اليهودية والمسيحية والإسـلام/ د. أميمة الجلاهمة، مكتبة زهراء الشرق القاهرة 1970
* الخلفية التاريخية لمحاكمة روجيه غـــارودي /د. صــــالح زهر الدين / المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت 1999.

* دولة الرسول في المدينة/ د. محمد ممـدوح العـربي/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1988.
* دمشق، تراثها، ومعالمها التاريخية,/ د. عبد القـادر ريحـاوي/ دار البشائر 1996.
* رسالة الغفـران لأبي العلاء المعـري دار صـادر بـيروت دون تاريخ.
* رمسـيس الثـاني – فرعـون المجد والانتصـار/ ت. د. أحمد زهير أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب1997.
* رحلة بـايرون إلى مصر والحجـاز ج 1-2/ت. عبد الـرحمن عبد الله الشـيخ/ الهيئة المصـرية العامة للكتـاب القـاهرة 1995.
* رحلة إلى بابل القديمـة/ د.إفلين كلنكـل/ت.د. زهـدي الداوودي/ دار الجليل، دمشق 1984.
* السـيرة النبرية وأوهـام المستشـرقين/ عبد المتعـال محمد الجبري/ مكتبة وهبة القاهرة 1988.
* السنة قبل التدوين / الدكتور: محمد عجـاج الخطيب/ مكتبة وهبة، 1998.
* سفر نامة / ناصر خسرو علوي/ت: د. يحيى خشـاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993.
* سـوريا الحضـارة مـاذا أعطت للغـرب/ د. عفيف بهنسـي، إصدار خاص، دمشق 1988.
* شـبهات حـول التغـريب في غـزو الفكر الإسـلامي/أنـور الجندي/ المكتب الإسلامي دمشق 1978.
* الشاهنامة الفردوسي الهيئة المصرية للكتاب 1990.
* شعر العقيدة في صدر الإسلام،/إعداد أيهم عبـاس حمـودي القيسي/، مكتبة النهضة العربية، بيروت 1986.
* صـبح الأعشى في صـناعة الانشـى/ أبي العبـاس أحمد بن علي القلقشـندي ج 14/ وزارة الثقافـة، المؤسسة المصـرية العامة للكتاب، دون تاريخ.
* صناعة الكتابة / أبي جعفر النحاس/ ت. بدر أحمد ضيف دار العلوم العربية، بيروت 1990.
* صـلوات وحكايـات وأسـاطير حثية / قاسم طـوير/ تعـريب قاسم طوير، إصدار خاص دمشق 1986.
* الصراع المائي بين العرب وإسرائيل/ د. رفعت سـيد أحمـد، دار الهدى القاهرة 1993.
* طبقات الحفاظ / الإمـام السـيوطي، ت: على محمد عمـر، مكتبة وهبة القاهرة 1994.
* طبـائع الاسـتبداد / عبد الـرحمن الكواكـبي/ الهيئة المصـرية العامة للكتاب القاهرة 1993.

* ظـاهرة الخلق والتكـوين ما دون المسـتوى العلمي/ جمعة طحيني، دار يعرب دمشق 2003.
* الطـرق الحكمية في السياسة الشـرعية /ابن قيم الجوزيـة/ دار الكتب العلمية بيروت عن نسخة ط 1953.
* فتح القدير / الإمام الشويكاني، أحمد عبد السلام دار الكتب العلمية بيروت 1994.
* فتـوح البلـدان/ الإمـام البلاذري رضـوان محمد رضـوان دار الكتب العلمية بيروت 1991.
* فجر الإســلام /أحمد أمين / دار الكتــاب العــربي بــيروت 1975.
* الفخري في الآداب السلطانية، دار صادر بيروت.
* الفلاحـون الفلسـطينيون من الاقتلاع إلى الثـورة/روز مـاري صايغ/ت. خالد عايد مؤسسة الأبحاث العربية بيروت 1980.
* فقه السـيرة / محمد الغـزالي / دار الـدعوة، الإسـكندرية 2000.
* الفكر التـــاريخي في الإســـلام/ عبد اللطيف شـــرارة/ دار الأندلس بيروت 1983.
* الفكر التوراتي والحرب النووي/ المبشرون الإنجيليـون على طريق القيامة الذرية ت. عبد الهـادي عبلــة، الكنــدي، حمص 1988.
* الفهرست لابن النــديم 1-2/ د. شــعبان خليفــة/وليد محمد العوزة _ العربي، القاهرة 1991.
* في التـاريخ العباسي والفـاطمي.د. أحمد مختـار العبـادي شباب الجامعة الإسكندرية 1993.
* في الشعوبية /إسماعيل العرفي/ منشورات خاصـة، دمشق 1979.
* في الشعر الجاهلي / طه حسين/ منشورات النهار القـاهرة – الدقي، 1996.
* القواعد الكلية للفقه الإسـلامي- نشـأتها- رجالاتهـا- آثارهـا/ د.أحمد محمد الحصــري، مكتبة الكليــات الأزهرية القـــاهرة 1993.
* قصة الحضارة ج 1 ـ 40/ ول ديورانت / ت. محمد بدران، الإدارة الثقافية في جامعة الـــدول العربيـــة، الطبعة الثالثة 1968.
* القبيلة الثالثة عشر ويهــود العــالم، آرثر ليســتر/ت. أحمد نجيب هاشم،الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1994.
* القـوش، دراسة انـثر بيولوجيـة، اجتماعية ثقافية المهنـدس البحري حبيب يوسف تومي بغداد 2001
* قاموس المورد , إنكلـيزي عربـيي/ منـير بعلبكي / دار العلم للملايين بيروت 2005.

* قصة الفلســفة الطبعة السادســة/ ول ديــور انت/ مكتبة المعارف بيروت، دون تاريخ.
* قصة الـديانات / سـليمان مظهـر، الـوطن العـربي، بـيروت 1984.
* القوى الفاعلة في القـرن الحـادي والعشـرين د.خـير الـدين عبد الرحمن/ دار إشراق، عمان 1996.
* العبادات في الأديان السـماوية /عبد الـرزاق رحيم المـوجي دار الأوائل دمشق 2001.
* العودة إلى القـرآن - إعـادة تقـييم الحـديث / تـأليف، قاسم أحمـد، تقـديم دكتـور حسن حنفي، مـدبولي الصـغير القـاهرة 1997.
* العروة الوثقى/ السيد جمال الدين الأفغـاني والشـيخ محمد عبدو، دار الكتاب العربي بيروت 1983
* عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياســة/أبي الحسن بن هذيل، دار الكتب العلمية، بيروت.
* عــالم صــوفيا رواية في عــالم الفلســفة/ت. أحمد لطقي 1998 دار يعرب بدمشق.
* العبر وديوان المبتدأ والخـبر في أيـام العـرب والعجم تـاريخ ابن خلدون دار الكتب العلمية بيروت 1986.
* الغجر ورحلة الضياع، المدني المنارة بيروت 2001.
* الكامل في التاريخ ابن الأثير إحياء التراث بيروت 1996.
* كتاب غـريب القـرآن/ عبد الله بن عبـاس، تحقيـق. د. أحمد بلوط، مكتبة الزهراء القاهرة1993
* كتــاب الأصــنام، هشــام بن الســائب الكلــبي د. محمد عبد القادر أحمد،مكتبة النهضة المصرية،1993.
* كتـاب الـنزاع والتخاصم في ما بين بـني أمية وبـني هاشـم/ تأليف تقي الدين المقريـزي، ت.د. حسـين مـؤنس، المعـارف القاهرة 1988
* كتاب معالم الكتابة ومغانم الإصابة/ القاضي عبد الرحيم بن على القرشــي/ ت.محمد شــمس الــدين، دار الكتب العلمية بيروت1988.
* كتــاب مكــارم الأخلاق/ الإمــام أبي بكر بن أبي الــدنيا/ ت. ياسين محمد السواس دار البشائر دمشق 1999.
* كتـاب الفوائـد/ الإمـام ابن قيم الجوزيـة/ دار مكتبة الحيـاة، بيروت دون تاريخ.
* كتـــاب نقد الشـــعر لأبي الفـــرج قدامة بن جعفر الكـــاتب البغدادي دار الكتب العلمية بيروت 1982
*كتــــاب كشف الخفــــاء ومزيل الالتبــــاس عم اشــــتهر من الأحــاديث على الســنة النــاس ج 1-2/ المقدســي، دار زاهر القدسي القاهرة دون تاريخ

* كيف يتلقى القـرآن – آداب التلاوة، وأحكـام التجويد/ عـامر السيد عثمان/ دار ابن كثير، دمشق 1985.
* لسان العرب ط الثالثة، العلامة ابن منظـور/ ت أمين محمد عبد الوهاب دار إحياء التراث العربي بيروت.
* لمحات اجتماعية من تـاريخ العـراق الحـديث ج1-8/د. علي الوردي، دار كوفان للنشر لندن 1992
* لماذا تأخر المسـلمون ولمـاذا تقـدم غـيرهم/الأمـير شـكيب أرسلان/ دار مكتبة الحياة، بيروت، دون
* مـــدخل إلى اللغة العبريـــة/ د. محمـــود أحمد مـــراغي، دار العلوم العربية بيروت1990
* المدخل إلى التاريخ العـربي/ إسـماعيل العـرفي/ دار الفكر دمشق 1982.
* مجمع الزوائــد، ج 10، بـــاب ما جـــاء في فضل العـــرب - للحافظ الهيثمي، تحقيق الدرويش، دار الفكر بيروت، 1996.
* الملل والنحل للإمـام الشهرسـتاني 1-3/ تحقيـق، أ.د. أحمد فهمي محمد دار الكتب العلمية بيروت.
* مقدمة ابن خلدون ج3 ت د. ع وافي القاهرة.
* معجم فقه ابن حزم الظـاهري المجلد الأول/لجنة موسـوعة الفلسفة الإسلامية جامعة دمشق، 1966.
* معجم الأدباء / يـاقوت الحمـوي / دار الكتب العلمية بـيروت 1991.
* مختصر دراسة التـاريخ 1-4 /أرنولد تونـبي/ت. فـؤاد محمد شبل جامعة الدول العربية، 1960.
* مختصر تفســير الطــبري 1-2/ للتيجيــبي، محمد حسن أبو العزم الزيتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة1980.
* المستشـرقون والقـرآن الكـريم/د. إسـماعيل عبد العـال/ رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمةعدد 104، 1990.
* مقالة في المعرفـة، مقدمة لدراسة العقيـدة الإسـلامية/ د. عدنان زرزور/ مكتبة الفتح، دمشق.
* موجز تاريخ العلم والحضـارة في الصـين/ ت. محمد غـريب جودة/ الهيئة العامة للكتاب القاهرة 1995.
* ملاحظات حول السينما الصهيونية/ عز الدين المناصرة/ دار يعرب، دمشق 1989.
* موســيقا الشــعر / د. إبــراهيم أنيس/ دار القلم، بــيروت 1987.
* مفهـوم النص- دراسة في علـوم القـرآن/ د. نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي بيروت 1996.
* المفســــدون في الأرض بقلم س. نــــاجي الطبعة الثالثة العربي للإعلان، والنشر، دمشق 1994.
* معجم الأساطير/ ت: حنا عبود، دار الكندي دمشق 1989.

* من معـــالم الإســـلام/ بقلم محمد فريد وجـــدي/ جمعها د. محمد رجب البيومي / الدار المصرية اللبنانية 1994.
* المـأثورات مرسـي، دار الثقافة القـاهرة، 1981الشـفاهية/ ترجمة وتقديم الدكتور أحمد
* من الأسـطورة إلى التوحيد – التحريف من الموسـوية إلى اليهودية/وليد مدفعي/توزيع دار يعرب 2004.
* مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب / ابن الجـوزي / ت. زينب إبراهيم القاروط، دار الكتب العلمية بيروت 1987.
* من معالم النظام السياسي في الدولة الإسـلامية/تـأليف د. جابر محمد دياب، مكتبة الزهراء القاهرة 1992.
* المصـــــطلحات العلمية والفنية وكيف واجهها العـــــرب المحـدثون/ د.ضـاهي عبد البـاقي/،مكتبة الزهـراء القـاهرة 1992
* نقض مطاعن القرآن الكريم/ بقلم محمد أحمد عرفة تعليق محمد رشـيد رضى صـاحب المنـار/ مكتبة الزهـراء، القـاهرة 1986.
* النشـاط الصـهيوني في العـراق/ صـادق حسن السـوداني/ العراق، وزارة الثقافة، 1980ا.
* نظم القـرآن/ من تـراث الجاحـظ، ت.د. سـعد عبد العظيم محمد مكتبة الزهراء القاهرة 1995.
* الناسخ والمنسـوخ في القـرآن الكـريم، لمؤلفه أبو القاسم هبة الله بن سلامة/ت. أحمد مصطفى الحسن، دار ابن هـانئ دمشق 20005.
* هل مات المسـيح على الصـليب / سـليم الجـابي /المؤلـف، دمشق 2000.
* هداية الحيـارى في الـرد على اليهـود والنصـارى/ ابن قيم الجوزية، منشورات مكتبة الحياة بيروت، دون تاريخ.
* الوفيـات 1-2 /محمد بن رافع السـلامي الدمشـقي/ت. عبد الجبار زكار، وزارة الثقافة دمشق، 1982.
* اليهود المصريون / بين المصرية والصـهيونية، أسـرار العقل الصهيوني/ سهام نصار/ دار الوحدة بيروت 1980.
* اليهود وبنو إسرائيل في القـرآن الكـريم / منصـور إبـراهيم، مركز الذاكرة الفلسطيني، بيروت 2001.
* اليونـانيون في مصر 1805-1978م / سـيد عشـماوي دار عين القاهرة 1997.
* أزمة التفكير الإسـلامي المعاصر د. على أحمد شـريقي دار البشائر دمشق 2009
* التفكير الإيجابي

كتب صدرت للمؤلف

- أناشـيد لها تـاريخ (مجموعة الأناشـيد الوطنية والقومية العربية والعالمية بما فيها الأهـازيج الفلسـطينية 1908-1978) دار يعرب بدمشق 2005.
- الحـرب على اللسـان العـربي - طبعة أولى دار الـرقيم بغداد 2005.
- الحـرب على اللسـان العـربي - طبعة ثانية دار الـرقيم بغداد 2006.
- الحـــرب على العــرب - طبعة ثالثة دار يعــرب بدمشق 2005.
- الحــرب على العــرب - طبعة رابعة دار يعــرب بدمشق 2007.
- الحــرب على العــرب واللسـان العــربي طبعة خامسة عالم الكتاب الحديث، اربد الأردن 2006.
- الحرب على العرب واللسـان العـربي يالأشـتراك مع د. محمد بلعيدوني، طبعة سادسة تلمسان الجزائر 2008.
- المســلمون الأعــراب من القمة إلى أدنى، مســتوى ط 1دار يعرب بدمشق 2008.
- المســلمون الأعــراب من القمة إلى أدنى، مســتوى ط 2دار يعرب بدمشق 2010.
- تقليل الأكثريّة تكثير الأقليّة دار يعرب 2012
- معــــاني الحــــروف العربيّة - بحث علمي - دار يعـــــرب 2013
- الــوقت العــربي أو بلســان عــربي مــبين، دار يعــرب بدمشق، 2013
- البيت العربي (تحت الطبع)